

مكتبة

Telegram Network

2019

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



قصر الأثاب

WOLF HALL

الرواية الحائزة على جائزة «مان بوك» لعام 2009

هيلاري مانتيل

قصر الذئاب

WOLF HALL

الرواية الحائزة على جائزة «مان بوكر» لعام 2009

تأليف

هيلاري منتيل

Hilary Mantel

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحريير

مركز التعريب والترجمة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. LLC

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Wolf Hall

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Fourth Estate, an imprint of HarperCollinsPublisher

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © Hilary Mantel 2009

All rights reserved

Arabic Copyright © 2010 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ISBN: 978-614-421-122-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

لتنضيد وفرز الألوان: أبجد جرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

إلى صديقتي المميّزة
ماري روبرتسون، أهدي هذه الرواية.

المحتوي.ات

شخصيات الرواية

القسم الأول

1 عبر البحر الضيق بوتتي، 1500

2 الأبوة 1527

3 في أوستن فرايرز 1527

القسم الثاني

1 الزيارة 1529

2 حقبة خفية في تاريخ بريطانيا 1521-1529

3 إمّا النجاح أو الفشل نكرى جميع القديسين 1529

القسم الثالث

1 خدعة الثلاث ورقات شتاء عام 1529 - ربيع عام 1530

2 كرومويل المحبوب جداً الربيع - كانون الأول/ديسمبر 1530

3 الأموات يتذمرون من دفنهم موسم الميلاد 1530

القسم الرابع

1 أخف عواطفك 1531

2 "وأسفاه على الحب!" ربيع عام 1532

3 قداس الصباح تشرين الثاني/نوفمبر 1532

القسم الخامس

1 أنا ريجينا 1533

2 بصقة الشيطان خريف وشتاء 1533

3 عين رسّام 1534

القسم السادس

1 السيادة 1534

2 خارطة العالم المسيحي 1534-1535

3 إلى وولف هول تموز/يوليو 1535

شخصيات الرواية

في بوتني، 1500

والتر كرومويل، حدّاد وبائع شراب.
توماس، ابنه.
بيت، ابنته.
كات، ابنته.
مورغان ويليامز، زوج كات.

في أوستن فرايرز، من 1527

توماس كرومويل، محامٍ.
ليز وايكيز، زوجته.
غريغوري، ابنهما.
آن، ابنتهما.
غرايس، ابنتهما.
هنري وايكيز، والد ليز، تاجر أصواف.
ميرسي، زوجته.
جوان ويليامسون، شقيقة ليز.
جون ويليامسون، زوجها.
جوان (جو)، ابنتهما.
أليس ويليفيد، ابنة أخت كرومويل، ابنة بيت.
ريتشارد ويليامز، لاحقاً كرومويل، ابن كات ومورغان.
رايف سادلر، رئيس كتبة كرومويل، نشأ في أوستن فرايرز.
توماس آيفري، محاسب المنزل.
هيلين بار، امرأة فقيرة تلتجئ إلى المنزل.
ثورستون، الطاهي.
كريستوف، خادم.
دك بيرسر، مربّي كلاب الحراسة.

في ويستمينستر

توماس وولزي، رئيس أساقفة يورك، الكاردينال، الممثل البابوي، قاضي القضاة،

سيّد توماس كرومويل.

جورج كافينديش، حاجب وولزي، ولاحقاً كاتب قصة حياته.
ستيفن غاردينر، رئيس ترينيتي هول، أمين سرّ الكاردينال، لاحقاً وزير هنري
الثامن: ألد أعداء كرومويل.

توماس ريوثيسلي، كاتب الختم، ديبلوماسي، محميّ كلّ من كرومويل وغاردينر.
ريتشارد ريتش، محام، نائب عامّ لاحقاً.
توماس أودلي، محام، المتحدّث باسم مجلس العموم، قاضي القضاة بعد استقالة
توماس مور.

في تشيلسي

توماس مور، محامٍ وعالم، قاضي القضاة بعد سقوط وولزي.
أليس، زوجته.
السير جون مور، والده المسنّ.
مارغريت روبر، ابنته الكبرى، متزوّجة من ويل روبر.
آن كريزاكر، كنته.
هنري باتيسون، خادم.

في المدينة

هامفري مونماوث، تاجر، سُجن لإيوائه ويليام تيندايل، الذي ترجم الكتاب المقدّس
إلى الإنكليزية.
جون بيتيت، تاجر، أُدخل السجن بتهمة الهرطقة.
لوسي، زوجته.
جون بارنيل، تاجر، نشأ بينه وبين توماس مور نزاع قانوني قديم العهد.
بيلني الصغير، عالم أُحرق بتهمة الهرطقة.
جون فريث، عالم أُحرق بتهمة الهرطقة.
أنطونيو بونفيزي، تاجر، من لوكا.
ستيفن فوغان، تاجر في أنتويرب، صديق لكرومويل.

في البلاط

هنري الثامن.
كاثرين من أراغون، زوجته الأولى، عرفت لاحقاً بلقب أميرة ويلز الأرملة.

ماري، ابنتها.
آن بولين، زوجته الثانية.
ماري، شقيقتها، أرملة ويليام كاري وعشيقة هنري السابقة.
توماس بولين، والدها، لاحقاً إيرل ويلتشاير والقيّم على ختم الملك: يحب أن يُعرف بلقب "المونسينيور".
جورج، شقيقتها، اللورد روتشفورد لاحقاً.
جاين روتشفورد، زوجة جورج.
توماس هاورد، دوق نورفولك، خال آن.
ماري هاورد، ابنته.
ماري شيلتون =
جاين سيمور = وصيفتان.
تشارلز براندون، دوق سوفولك، صديق قديم لهنري، متزوج من شقيقته ماري.
هنري نوريس =
فرانسيس براين =
فرانسيس ويستون =
ويليام بريريتون =
نيكولاس كارو = سادة قائمون على خدمة الملك.
مارك سميتون، موسيقي.
هنري ويات، أحد رجال البلاط.
توماس ويات، ابنه.
هنري فيترزروي، دوق ريتشموند، ابن غير شرعي للملك.
هنري بيرسي، إيرل نورثمبرلاند.

رجال الدين

ويليام وارهام، رئيس أساقفة كانتربوري المسن.
الكاردينال كامبيجيو، الموفد البابوي.
جون فيشر، أسقف روتشستر، المستشار القانوني لكاثرين من آراغون.
توماس كرانمر، عالم من كامبريدج، رئيس أساقفة كانتربوري الإصلاح، خلف وارهام.
هيوغ لاتيمر، كاهن إصلاح، أسقف وورستر لاحقاً.

رولاند لي، صديق لكرومويل، أسقف كوفنتري وليتشفيلد لاحقاً.

في كاليه

اللورد بيرنرز، الحاكم، عالم ومترجم.
اللورد ليسل، الحاكم التالي.
هونور، زوجته.
ويليام ستافورد، ملحق بالحامية.

في هاتفيلد

الليدي براين، والدة فرانسيس، مسؤولة عن رعاية الأميرة الرضيعة، إليزابيث.
الليدي آن شيلتون، عمّة آن بولين، مسؤولة عن رعاية الأميرة السابقة، ماري.

السفراء

أوستاش شابوي، ديبلوماسي من سافوي، لندن، سفير الإمبراطور تشارلز الخامس.
جان دو دانفيل، سفير فرانسيس الأول.

المطالبون بالعرش من يورك

هنري كورتني، ماركيز إكسيتير، متحدّر من ابنة إدوارد الرابع.
جيرترود، زوجته.
مارغريت بول، كونتيسة ساليسبيري، ابنة أخ إدوارد الرابع.
جيفري بول، ابنتها.
ريجينالد بول، ابنها.

أسرة سيمور في قصر وولف هول

السير جون العجوز، الذي أقام علاقة مع زوجة ابنه الأكبر إدوارد.
إدوارد سيمور، ابنه.
توماس سيمور، ابنه.
جاين، ابنته: في البلاط.
ليزي، ابنته، متزوجة من حاكم جيرسي.
ويليام باتس، طبيب.
نيكولوس كراتزر، عالم فلك.
هانز هولباين، رسّام.

سيكستون، مهرج وولزي.
إليزابيث بارتون، متوقّعة للمستقبل.

"ثمة ثلاثة أنواع من المشاهد المسرحية، أحدها يسمّى تراجيدي، والثاني كوميدي، والثالث هجائي. وتختلف المشاهد الثلاثة من حيث الديكور والتخطيط. فالمشاهد التراجيدية تتميز بالأعمدة، والقواصر، والتماثيل، وغيرها من الأشياء التي تلائم الملوك. وتدور المشاهد الكوميديّة في مساكن خاصّة، مع شرفات ومناظر لصفوف من النوافذ، على غرار المساكن العادية. أمّا المشاهد الهجائيّة فتضمّ أشجاراً، وكهوفاً، وجبالاً، وغير ذلك من المناظر الريفية التي تظهر في المناظر الطبيعية".

فيرتروفوس، *De Architectura*، على المسرح، 27 ق.م.

أسماء الممثلين:

سعادة	مؤامرة مقنّعة
حرية	استغلال لطيف
تدبير	حماقة
روعة	محنة
خيال	فقر
ملاح مزيفة	يأس
تحويل ماكر	أذى

رجاء صالح

ثأر

حذر

مناظرة

Magnificence: فصل مسرحي،

جون سكيلتون، 1520

القسم الأول

عبر البحر الضيق

بوتني، 1500

"والآن، انهض".

سقط صريعاً، وهو يشعر بالدوار، ولكنه لم يتفوه بكلمة، وارتطم جسده بأكمله بالحصى الذي يكسو أرض الفناء. أدار رأسه جانباً، ونظر إلى البوابة، وكأن شخصاً ما قد يهرع لمساعدته. ضربة أخرى موفقة قد تقتله الآن.

أخذ الدم يسيل على وجهه من الجرح البليغ في رأسه، والذي كان أولى محاولات أبيه. بالإضافة إلى ذلك، كان عاجزاً عن الرؤية بعينه اليسرى، ولكن إذا نظر جانبياً، يمكنه أن يرى بعينه اليمنى أن قطب حذاء والده كانت تتحل. فخييط القنب بارز بوضوح من الجلد، وكانت فيه عقدة قاسية اندفعت كالسهم نحو حاجبه وفتحت فيه شقاً آخر.

"والآن انهض!". كان والتر يصرخ في وجهه، ويفكر أين يسدّ الركلة التالية. رفع رأسه إنشأً أو اثنين (2.5 أو 5 سم) وحاول الزحف إلى الأمام على بطنه، محاولاً عدم كشف يديه اللتين يستمتع والتر بسحقهما تحت قدميه. سأله أبوه: "ما أنت، سمكة؟"، ثم تراجع إلى الخلف قبل أن يسرع نحوه مسدداً إليه ركلة أخرى.

انقطعت أنفاسه، وشعر أنه سرعان ما سيلفظ آخرها. التصق جبينه بالأرض مجدداً، واستلقى وهو ينتظر أن يهجم والتر عليه. كانت الكلبة بيلا تنبح في بيت الخلاء الخارجي الذي حُبست فيه. فكر في أنه سيشتاقي إليها. كان هواء الفناء عابقاً برائحة الشراب والدم. تناهى إليه صوت شخص يصرخ من ضفة النهر. لم يكن يشعر بأي ألم، أو ربّما كان كلّ جسده يؤلمه، لأنه لم يتمكن من تحديد مكان معين. إلا أنه شعر بالبرد في مكان واحد، في خده الذي كان مستنداً إلى الحصى.

صرخ والتر قائلاً: "والآن انظر، انظر". راح يقفز على قدم واحدة وكأنه يرقص. "انظر ماذا فعلت. لقد مزقت حذائي وأنا أركل رأسك".

راح يتحرك ببطء إلى الأمام. ليس مهماً إن نعتك بسمكة أو دودة أو ثعبان. أبق رأسك منخفضاً، ولا تستقرّه. كان أنفه مسدوداً بالدم واضطرّ إلى فتح فمه كي يتنفس. انصرف والده عنه مؤقتاً، أسفاً على حذائه الجميل، أتاح له الوقت ليتقياً. أخذ والتر يصرخ: "أجل، تقياً في كلّ مكان". تقياً في كلّ مكان، على أحجاري الجميلة. "أسرع أيها الصبي، انهض. أريد أن أراك واقفاً. بالله عليك، قف على قدميك".

أدار رأسه جانباً، ونام على قيئه. كانت الكلبة تنبح، ووالتر يجأر، وأجراس ترن عبر النهر. شعر بحركة، وكأنّ الأرض القذرة تحته أصبحت نهر التايمز. راحت تتأرجح تحته، فزفر نفساً عظيماً أخيراً. قال صوت لوالتر، لقد فعلتها هذه المرّة. ولكنه سدّ أذنيه، أو أنّ الله سدّهما له. وراح ينجرف إلى الأعماق في تيّار عميق أسود.

الأمر التالي الذي يعرفه هو أنّ الوقت كان ظهراً تقريباً، وكان مستنداً إلى باب بيغاسوس الحصان الطائر. كانت شقيقته كات آتية من المطبخ وهي تحمل كومة من الفطائر الساخنة بين يديها. حين رأته، أوشكت أن توقع الفطائر. فغرت فاها مذهولة وقالت: "انظر إلى نفسك!".

"كات، لا تصرخي، الصراخ يؤلمني". أخذت تتادي زوجها: "مورغان ويليامز!". استدارت في مكانها بنظرات غاضبة، وبدا وجهها أحمر من حرارة الفرن. "خذ هذه الصينية، أين الجميع بحقّ الله!". كان يرتجف من رأسه حتّى قدميه، تماماً كما حدث لبيلا حين سقطت من القارب ذات مرّة.

دخلت فتاة وهي تركض. "لقد ذهب السيّد إلى البلدة". "أعرف ذلك، أيتها الحمقاء". كان منظر شقيقها قد أفزعها. أعطت الفتاة الصينية قائلة: "إن وضعتها في متناول القططة، فسيكون عقابك وخيماً". حين أصبحت يداها فارغتين، جمعتهما للحظة في وضعية تضرع. "تشاجرت مجدّداً، أم إنّه أبوك؟". أجل، أجابها بهزّة سريعة من رأسه، جعلت الدم يتناثر من أنفه. أجل، وأشار إلى نفسه وكأنّه يقول، والتر مرّ من هنا. طلبت كات طستاً للماء، وماءً في الطست، وخرقة، كما طلبت أن يختطف الموت والتر حالاً. "اجلس قبل أن تسقط". حاول أن يشرح لها أنّه نهض للتوّ عن أرض الفناء. ربّما منذ ساعة، أو يوم، وحسبما يذكر، اليوم قد يكون غداً؛ باستثناء أنّه لو تمّدّد هناك ليوم كامل، لأتى والتر وقتله بالتأكيد لأنّه ينام في الطريق، أو لتجلّطت جراحه قليلاً، ولكن في هذه اللحظة يشعر بالألم في جميع أنحاء جسده، ولكانت أطرافه متصلّبة جدّاً ليتمكّن من الحركة. فبعد خبرته الطويلة مع لكلمات والتر وأحذيته، أصبح يعرف أنّه من شأن اليوم التالي أن يكون أسوأ من الأول. قالت له كات: "اجلس، ولا تتكلّم".

حين أحضر طست الماء، وقفت أمامه وراحت تعمل باستمرار على مسح عينيه المغلقتين وهي تربّت عليهما في دوائر صغيرة على طول خطّ شعره. كان تنفسها غير منتظم وقد وضعت يدها الأخرى على كتفه. راحت تشتم في سرّها، وتبكي

أحياناً، وتفرك الجزء الخلفي من عنقه - وهي تهمس: "لا بأس عليك، لا بأس عليك". وكأنه هو الذي يبكي، مع أنه لم يكن كذلك. كان يشعر وكأنه يطير، وهي تشده إلى الأرض. كان يرغب في ضمها وإلقاء رأسه على صدرها للاستماع إلى دقات قلبها. ولكنه لم يشأ تلويث ملابسها بالدم.

حين أتى مورغان وويليامز، كان يرتدي معطفه الجميل الذي يذهب به إلى البلدة. بدا ويلزياً ومشاكساً، ومن الواضح أنه سمع بالأنباء. وقف إلى جانب كات وهو يحدّق إليه، غير قادر على الكلام. أخيراً قال: "أترين؟". ضمّ قبضته وضربها في الهواء ثلاث مرّات ثمّ أضاف: "هذا! هذا ما سيحصل عليه والتر. هذا ما سيحصل عليه مني".

نصحته كات قائلة: "تراجع، لئلاّ تلوث سترة لندن بدماء توماس". تراجع قائلاً: "لا آبه، ولكن انظر إلى نفسك، أيّها الصبي. يمكنك أن تغلب ذاك الوحش في شجار عادل".

قالت كات: "شجاره ليس عادلاً أبداً، فهو يأتي من خلفك، أليس كذلك، توماس؟ ومع شيء في يده".

قال مورغان وويليامز: "يبدو أنّها كانت زجاجة، في هذه الحالة. أكانت زجاجة؟". هزّ رأسه نافياً، فأخذ أنفه ينزف مجدّداً.

قالت كات: "لا تفعل ذلك، يا أخي". سال الدم على يدها، فمسحت الدم المتجمّد. كان منزرها قد اتّسخ، ولو وضع رأسه على صدرها ما كان ذلك ليشكّل فرقاً في النهاية.

قال مورغان: "أفترض أنّك لم تره؟ بماذا ضربك بالضبط؟".

قالت كات: "هذه ميزة الهجوم من الخلف. اسمع، مورغان، هل عليّ إخبارك عن أبي؟ إنه يتناول ما يقع في يده. وقد يكون ذلك زجاجة، صحيح. لقد رأيته مرّة يفعل ذلك بأمي، وحتىّ بأختنا الصغيرة بيت، رأيته يضربها على رأسها. كما أنّي لم أراه يفعل ذلك، وكان هذا أسوأ، لأنّني كنت أنا من تلقّي الضربة حينها".

قال مورغان وويليامز: "أتساءل أيّ عائلة هذه التي ناسبتها".

ولكن حقّاً، كان هذا مجرد كلام يقوله مورغان. فبعض الرجال لديهم عادة الشخير، وبعض النساء لديهنّ الصداع، ومورغان لديه هذا التساؤل. لم يكن الصبي يصغي إليه، بل كان يفكر، إن كان أبي قد فعل ذلك بأمي، التي توقّيت منذ سنوات طويلة، أمن الممكن أن يكون قد قتلها؟ كلاً، بالتأكيد. وإلاّ لُسجن. صحيح أنّ القانون ليس

سائداً في بوتتي، ولكن لا يمكن للمرء أن يفرّ بجريمة قتل. كانت كات هي الأم التي عرفها، وكانت تبكي لأجله وتدلّك الجزء الخلفي من عنقه.

أغمض عينيه، ليجعل العين اليسرى مساوية لليمنى، ثم حاول فتحهما. قال: "كات، لديّ عين هناك، أليس كذلك؟ لأنني لا أرى شيئاً". أجابته، أجل، أجل، أجل، بينما تابع مورغان ويليامز استجوابه حول الوقائع. استقرّ رأيه على أنه استخدم شيئاً حاداً، وصلباً، وثقيلاً بعض الشيء، ولكنه لم يكن على الأرجح زجاجة مكسورة، وإلا لكان توماس قد تمكن من رؤية طرفها الحادّ قبل أن يشقّ والتر حاجبه محاولاً أن يعمي عينه. سمع مورغان يصوغ نظريته وأراد التحدّث عن الحذاء، والعقدة؛ العقدة في شريط القنب، ولكنّ الأمر لم يكن يستحقّ مجهود تحريك فمه. فوافق مورغان على استنتاجه. حاول أن يرفع كتفيه، ولكنّ ذلك آلمه جدّاً إلى حدّ أنه تساءل إذا كان عنقه مكسوراً.

قالت كات: "على كلّ حال، ماذا كنت تفعل يا توم حين استقرزته؟ فهو عادةً لا يبدأ إلا بعد حلول الظلام، هذا إن كان لغضبه سبب على الإطلاق".

قال مورغان ويليامز: "أجل، هل كان ثمة سبب؟".

"البارحة، كنت أتشاجر".

"كنت تتشاجر البارحة؟ مع من، بحقّ الله؟".

"لا أعرف". كان الاسم والسبب قد غابا عن ذهنه، ولكنه شعر وكأنّ ذلك المجهود أنعش ذاكرته. لمس رأسه بجزر. زجاجة؟ هذا ممكن.

قالت كات: "آه، الصبية يتشاجرون دائماً، على ضفّة النهر".

قال مورغان: "لذلك، دعني أتأكد إن كنت قد فهمت الوضع بالضبط. عاد الصبيّ البارحة إلى المنزل وملابسه ممزّقة والجروح تملأ يديه، فقال العجوز، ما هذا، كنت تتشاجر؟ وانتظر حتّى اليوم التالي، ثمّ ضربه بزجاجة. ثمّ ضربه في الفناء، وراح يركله ويضربه في جميع أنحاء جسده بلوح خشبي وقعت عليه يده...".

"هل فعل ذلك؟".

"القصة انتشرت بين جميع أفراد الرعية! كانوا مصطّقين على الرصيف لإخباري، ويصيحون لي قبل أن يصل القارب. مورغان ويليامز، اسمع، والد زوجتك قد ضرب توماس، والصبي مشى مُتباطئاً إلى منزل أخته، وهو مشرف على الموت وقد أرسلوا بطلب الكاهن... هل أرسلت بطلب الكاهن؟".

قالت كات: "آه منك، ويليامز! تظنّ نفسك شخصاً هاماً هنا، والناس يصطقون

لنقل الأخبار إليك. لماذا ذلك؟ هذا لأنك تصدق أي شيء".
صرخ ويليامز قائلاً: "ولكنه صحيح! أليس صحيحاً؟ هذا إن استثنينا الكاهن.
وكونه لم يمت بعد".

قالت كات: "يمكنك أن تصبح قاضياً بالتأكيد، إن أجريت دراستك عن الفرق بين
الجنّة وأخي".

"لو كنت قاضياً، لسجنت أباك. أما تغريمه، فلا يمكن أبداً تغريمه بما يكفي. وما
الهدف من فرض غرامة على شخص سيخرج لسرقة مال بالقيمة نفسها من أحد
الأبرياء الذين يمرون في طريقه".

أن، وحاول القيام بذلك من دون تطفل.
همست كات قائلةً: "مهلاً، مهلاً".

قال مورغان: "أعني أن القضاة يرتشون. إن لم يكن يشرب، فهو يقوم بأعمال غير
مشروعة. وإن لم يكن يقوم بأعمال غير مشروعة، فهو يهاجم ضابط أمن. ليته
يموت ويريح منه هذا العالم".

قالت كات: "أنهيت؟" أدارت له ظهرها قائلة: "توم، من الأفضل أن تبقى معنا
الآن. ما رأيك يا مورغان وويليامز؟ إنه ماهر في القيام بالأعمال الصعبة، حين
يُشفى. كما يستطيع إنجاز الحسابات، فهو يستطيع أن يجمع و... ما هو الشيء
الآخر؟ حسناً، لا تضحك عليّ، كم تظنني أمضيت في تعلّم الحساب، مع أب كهذا؟
إن كنت أستطيع كتابة اسمي، فالفصل بذلك يعود إلى توم".

قال: "لن... يوافق". لم يكن قادراً سوى على قول جمل قصيرة وبسيطة.

قال مورغان: "يوافق؟ عليه أن يخجل من فعلته".

قالت كات: "أبي لا يعرف معنى الخجل".

قال: "لأنه... قريب... يمكنه بسهولة".

"للحاق بك؟ فليحاول". وضمّ مورغان مجدداً قبضته الويلزية العصبية الصغيرة.

* * *

بعدما أنهت كات مسح جروحه، وتوقّف مورغان وويليامز عن التباهي واستعادة
تفاصيل الاعتداء، تمّد الصبي ساعة أو اثنتين للاستراحة. في هذا الوقت، أتى والتر
مع بعض معارفه، وسُمع صراخ وصفق أبواب، مع أن الأصوات التي تناهت إليه
كانت مكتومة وظنّ أنه ربّما كان يحلم. كان السؤال الذي يشغل باله الآن هو: ماذا
سأفعل؟ لا يمكنني البقاء في بوتتي. ويرجع جزء من السبب إلى أن أحداث الشجار
الذي وقع أول أمس بدأت تعود إلى ذاكرته، ويظنّ أن عراكاً وقع بسكّين، وبما أنه

ليس الشخص الذي أصيب، فقد يكون هو الجاني. لم تكن تفاصيل هذا الأمر واضحة، ولكنّ الواضح كان موضوع والتر: لقد فاض الكيل. إن هاجمني مجدداً، فسأقتله، وإن قتلتَه، فسأشُنق. وإن شُنقت، أودّ أن يكون ذلك لسبب أفضل.

في الأسفل، كان صوتاهما يسمعان وهما يرتفعان وينخفضان. لم يكن قادراً على فهم معنى كلّ كلمة. يقول مورغان إنّه لم يعد يستطيع العودة إلى الورا. تتراجع كات عن اقتراحها الأوّل، أن يعمل توم كصبي مساعد لهما، لأنّ مورغان كان يقول: "سيأتي والتر دائماً إلى هنا، أليس كذلك؟ وسيقول: أين توم، أرسله إلى المنزل، من دفع للكاهن لتعليمه القراءة والكتابة؟ أنا، وأنتِ تجنين الفوائد الآن أيتها السافلة". نزل إلى الأسفل، فقال له مورغان ببشاشة: "تبدو بخير، نسبياً".

في الحقيقة، إنّ فكرة ضرب مورغان ويليامز حماه يوماً هي مجرد فكرة في ذهنه، وهذا لا يقلل من حبّ توماس له. فهو يخاف من والتر، شأنه شأن كثير من الأشخاص الطيبين في بوتتي، وفي مورتلايك وويمبيلدون. قال: "إذاً، سأذهب".

قالت كات: "يجدر بك البقاء هنا الليلة. أنت تعرف أنّ اليوم التالي هو الأسوأ".
"ومن سيضرب إن أنا ذهبت؟".

قالت كات: "هذا ليس من شأننا. الحمد لله أنّ بيت تزوجت ونجت منه".
قال مورغان ويليامز: "لو كان والتر أبي، صدّقني، لأصحبُ هائماً على وجهي مُتشرّداً". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "وللمناسبة، لقد وفرنا بعض المال".
حلّ صمت للحظات.
"سأردّه إليك".

قال مورغان وهو يضحك: "وكيف ستفعل ذلك، توم؟".
لم يكن يعلم. كان يتنفس بصعوبة، ولكنّ السبب يرجع إلى الدم المتجمّد في أنفه. لا يبدو أنفه مكسوراً. راح يتحسّسه، فطلبت منه كات أن يكون حذراً، لأنّها ترتدي منزراً نظيفاً. كانت تعلق وجهها ابتسامة معذّبة، فهي لم تكن تريده أن يرحل، ولكنها لن تعارض مورغان ويليامز، أليس كذلك؟ فال ويليامز أشخاص مهمّون في بوتتي، في ويمبيلدون. ومورغان شغوف بها. كان يذكرها أنّ لديها فتيات يعملن في الخبز، فلماذا لا تجلس في الأعلى لتهتمّ بالخياطة كسيّدة، وتدعو له بالتوفيق حين يذهب إلى لندن لإجراء بعض الصفقات بمعطفه الأنيق؟ يمكنها أن تمرّ مروراً سريعاً مرتين في اليوم في بيغاسوس وهي ترتدي ثوباً جميلاً وتنظّم الأمور: تلك هي فكرته. ولكنّه

يرى أنّها تشقى تماماً كما كانت تفعل وهي صغيرة، ورأى أنّه سيحبّ لو يحضّها مورغان على الاستراحة والعيش كسيّدة.

قال: "سأردّه إليكما. قد أذهب وأصبح جنديّاً، ويمكنني حينها أن أرسل إليكما جزءاً من راتبي، وقد أحصل أيضاً على الغنائم".
قال مورغان: "ولكن ما من حرب الآن".

قالت كات: "لا بدّ من اندلاع حرب في مكان ما".
"وقد أعمل كصبي على متن سفينة. ولكن ماذا عن بيلا، هل تظنّان أنّ عليّ العودة من أجلها؟ كانت تنبح، فقد حبسها".

قال مورغان: "كي لا تعضّ أصابع قدميه". كان ساخراً بخصوص بيلا.

"أتمنى لو أستطيع أخذها معي".
"سمعت بقطة سفينة، ولكنني لم أسمع أبداً بكلب على متن سفينة".
"إنّها صغيرة جدّاً".

قال مورغان وهو يضحك: "ولكنّها لن تبدو قطة. على كلّ حال، أنت كبير لتعمل كصبي على متن سفينة. فهؤلاء الصبية يتسلّقون حبال الأشرعة والصواري كالقردة الصغيرة. هل سبق لك أن رأيت قرداً، يا توم؟ فكرة التجنيد تناسبك أكثر. كن صادقاً، ومن شابه أباه فما ظلم".

قالت كات: "صحيح. لنرّ إنّ كنا قد فهمنا الوضع. في أحد الأيام، يشترك أخي توم في عراك. وعقاباً له على فعلته، يتسلّل أبي من خلفه ويضربه بما تقع عليه يده، ولكنّه شيء ثقيل، وحادّ على الأرجح. وحين يسقط أرضاً، يوشك أن يقتلع عينه، ثمّ يركله على ضلوعه، ويضربه بلوح خشبي في متناول يده، ويضربه على وجهه بحيث إنّني لو لم أكن شقيقته، لما عرفته. ويقول زوجي، أمام ما حدث، توماس، عليك الذهاب إلى التجنيد، اذهب واعثر على شخص لا تعرفه، واقتلع عينه واركل أضلاعه، لا بل اقتله، واقبض ما لا مقابل ذلك".

قال مورغان: "تماماً، عوضاً من الذهاب للعراك على ضفّة النهر من دون أن يستفيد أحد. انظري إليه، لو أنّ الأمر يعود إليّ، لقمّت بشنّ حرب لاستخدامه".
أخرج مورغان كيس نقوده، وراح يُخرج منه القطع النقدية ببطء، الواحدة تلو الأخرى.

تحسّس ذقنه. كان مرضوضاً، وسليماً، ولكنّه باردٌ جدّاً.

قالت كات: "اسمع، لقد نشأ توم هنا، ولا بدّ من وجود أشخاص يساعدونه...".

رمقها مورغان وكأنه يقول، هل تعنين أن ثمة الكثير من الأشخاص الذين سيرغبون في الوقوف في وجه والتر كرومويل؟ والمخاطرة بأن يقتحم منازلهم؟ فقالت وكأنها سمعت أفكاره، "كلاً. ربّما. ربّما، توم، قد يكون هذا لصالحك، هل تظنّ ذلك؟".

وقف، فقالت: "مورغان، انظر إليه، لا يجدر به الذهاب الليلة".
"بل عليّ ذلك. بعد ساعة من الآن سيفقد صوابه مجدداً بسبب شرب كمية من الشراب وسيعود بحثاً عني. وسيضرم النار في منزلك إن ظنّ أنني هنا".
قال مورغان: "هل لديك ما تحتاج إليه للرحيل؟".
ودّ لو يلتفت إلى كات ويقول: كلاً.

ولكنها أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى وراحت تبكي. لم تكن تبكي من أجله، لأنه يظنّ أنّ أحداً لن يبكي من أجله يوماً. كانت تبكي على فكرتها عن الحياة: يوم الأحد، تجتمع كلّ الشقيقات وزوجات الأخوة، فيتعانقن ويقبلن بعضهنّ، ويصرخن على أطفال بعضهنّ وفي الوقت نفسه يحببنهم ويربتن على رؤوسهم الصغيرة، النساء يقارن بين أطفالهنّ ويتعاقبن على حملهم، والرجال يجتمعون ويتحدّثون في الأعمال، والصوف، والغزل، والأقمشة، والشحن، وآل فليمينغ، وحقوق الصيد، وأرقام المبيعات السنوية... هذا ما يجب أن تكون عليه الحياة، لكونها متزوجة من مورغان وويليامز، ولكون آل وويليامز أسرة كبيرة في بوتتي... ولكنّ الأمور لم تكن كذلك. فقد أفسد والتر كلّ شيء.

استقام بحذر ولكنّ جسده كان متصلّباً. فقد كان كلّ جزء منه يؤلمه. سيكون الألم أقوى غداً، وفي اليوم الثالث ستظهر آثار الكدمات وسيكون عليه أن يجيب عن أسئلة الناس عن سببها. حينذاك، سيكون قد رحل بعيداً، ولن يحاسبه أحد كما يظنّ، لأنّ أحداً لن يعرفه أو يهتمّ لأجله. سيعتقدون أنّه معتاد على تلقّي ضربات من هذا النوع.

تناول المال قائلاً: "شكراً لك على المال، مورغان وويليامز. اعتنِ بشقيقتي، وانتبه إلى أعمالك. إلى اللقاء يوماً ما".
حدّق إليه مورغان وويليامز.

أوشك أن يبتسم، وربما كان سيفعل ذلك لولا أنّ تلك الحركة كانت ستفتح جروح وجهه. كلّ تلك الأيام التي أمضاها في منزل آل وويليامز، هل ظنّوا أنّه كان يأتي فقط لتناول العشاء؟

قال مورغان ببطء: "حظاً سعيداً".
قال: "إن تبعث النهر، فهل هذا جيد؟".
"إلى أين تريد الوصول؟".
"إلى البحر".

للحظة، بدا أنّ مورغان ويليامز يشعر بالأسف لما وصلت إليه الأمور. قال: "هل ستكون بخير، توم؟ أعدك، إن أتت بيلا كي تبحث عنك، فلن أرسلها جائعة إلى بيتها. ستعطيها كات فطيرة".

يمكنه إيجاد طريقه على طول النهر، ولكنه يخشى لو رآه أحد معارف والتر وأصدقائه أن يخبروه، ويلحق به. فهؤلاء الرجال يفعلون أي شيء مقابل كأس من الشراب. ما فكر فيه في البداية هو الصعود على متن إحدى سفن المهربين التي تتطلق من باركينغ، تيلبوري. ولكنه فكر بعد ذلك في أنّ فرنسا هي المكان الذي تدور فيه حروب. هذا ما قاله بعض الأشخاص الذين يتحدّث إليهم - فهو يتحدّث إلى الغرباء بسهولة - والذين يعتقدون الاعتقاد نفسه. إذاً، إلى دوفر. وانطلق على الطريق.

إن ساعدت في تحميل الأغراض على عربة، يمكنك الركوب فيها، في أغلب الأحيان. وهذا ما ذكره بمدى قلة مهارة الناس في تحميل العربات. فيحاولون المرور عبر بوابة ضيقة مع صندوق خشبي كبير. ولكن مجرد تغيير وضعية الشيء تُحل الكثير من المشاكل. وهناك الأحصنة أيضاً، فقد تعاطى دائماً مع الأحصنة، لا سيّما الأحصنة المذعورة. فحين يكون والتر غير نائم في الصباح تحت تأثير الشراب، يلتفت إلى عمله، كبيطار وحدّاد. وربما كان نفسه الحادّ، أو صوته القويّ، أو سلوكه العامّ هو الذي يخيف حتى الأحصنة المعتادة على زيارة البيطار، والتي تبدأ بهزّ رأسها والتراجع بعيداً عن الحرارة. فكانت يدا والتر تقبضان على حوافرها، بينما ترتجف خوفاً. وكان عمله يقوم على احتضان رؤوسها، والتحدّث إليها وهو يملس على المساحة الفاصلة بين أذنيها، ويخبرها كم تحبّها أمهاتها، ويتحدّث إليها قائلاً إنّ والتر سينتهي قريباً.

لم يتناول طعاماً ليوم كامل تقريباً، وكان يتصوّر جوعاً. حين وصل إلى دوفر، كان الشقّ الكبير في رأسه قد التأم، وأعضاؤه الداخلية قد تعافت: كليته ورئتاه وقلبه. عرف من نظرات الناس إليه أنّ الرضوض لا تزال بادية على وجهه. كان مورغان

ويليامز قد قام بجردة عليه قبل أن يغادر: الأسنان ما زالت في مكانها، والعينان سليمتان، الذراعان، الساقان: ماذا تريد بعد؟

راح يسير على أرصفة الميناء بين الناس وهو يسألهم، هل تعرفون أين تدور حرب الآن؟

كان كلّ رجل يسأله يحدّق إليه، ثمّ يتراجع قائلاً: "أنت أخبرني!". كانوا يستمتعون بذلك كثيراً، ويضحكون على نكثتهم، بحيث واصل السؤال لمجرّد إمتاع الناس.

اكتشف فجأة أنّه سيغادر دوفر أغنى ممّا كان عليه حين وصل. فقد رأى رجلاً يقوم بخدعة الثلاث ورقات، وحين تعلّمها بدأ يقوم بها بنفسه. وبما أنّه صبي، كان الناس يتوقّفون للمحاولة، فيخسرون.

جمع ما لديه وما أنفقه، وحسم مبلغاً صغيراً للاستمتاع قليلاً. وهذا أمر لا يمكنه فعله في بوتني، ويمبيلدون، أو مورتلايك. ليس من دون أن يعرف آل ويليامز، وتصبح سيرته على كلّ لسان في ويلز.

رأى ثلاثة عجايز اسكتلنديين يحاولون حمل أغراضهم، فقدّم إليهم المساعدة. كانت الرزم ليّنة وضحمة، وعبارة عن نماذج لأقمشة صوفية. وجد موظف المرفأ مشاكل في أوراقيهم وراح يصيح في وجوههم. فتسلّل خلفه، مدّعياً أنّه اسكتلندي أحمق، وأخبر التجّار وهو يرفع أصابعه بالمبلغ المناسب لرشوته. قال أحدهم بإنكليزية ثقيلة للموظف: "أرجوك، هل يمكنك الاعتناء بهذه القطع النقدية الإنكليزية؟ لقد فاضت عني". فجأة ابتسم الموظف، وابتسم الاسكتلنديون، وكانوا على استعداد لدفع المزيد. وحين أصبحوا على متن السفينة قالوا له: "الصبيّ معنا".

باننتظار انطلاق السفينة، سألوه عن سنّه. قال إنّهُ في الثامنة عشرة من عمره، ولكنّهم ضحكوا وقالوا، غير ممكن. قال لهم إنّهُ في الخامسة عشرة، فتشاوروا ثمّ قبلوا بذلك. كانوا يظنّونه أصغر سنّاً ولكنّهم لم يرغبوا في أن يُخلّطوه. سألوه عمّا حلّ بوجهه، كان بإمكانه قول أشياء عدّة ولكنّه قرّر إخبارهم بالحقيقة، فهو لم يشأ أن يظنّوه سارقاً. تحدّثوا مع بعضهم، ثمّ قال له الرجل الذي يتحدّث الإنكليزية: "كنا نقول إنّ الإنكليز قساة مع أولادهم، وباردون. إذ يجدر بالابن الوقوف حين يدخل أبوه إلى الغرفة. وعليه أن يقول دائماً لأبيه سيّدي، ولأمّه سيّدي".

فوجئ بكلامهم. هل ثمة أشخاص في العالم غير قساة مع أولادهم؟ للمرّة الأولى، شعر أنّ الثقل يخفّ عن صدره قليلاً، وظنّ أنّه قد يكون ثمة أماكن أفضل. راح

يتحدّث ويخبرهم عن بيلاً، فبدا عليهم الأسف، ولم يقولوا كلاماً تافهاً مثل أنّه يستطيع الحصول على كلب آخر. أخبرهم عن بيغاسوس، وعن مقهى أبيه وكيف أنّ والتر يُغرّم مرتين في السنة على الأقلّ بسبب الشراب الفاسد. وأخبرهم كيف يدفع الغرامات لسرقته الحطب، وقطع أشجار الغير، والماعز التي يتركها تسير في الأراضي العامة. كانوا مهتمّين بذلك. راحوا يعرضون أمامه نماذج الصوف ويتناقشون حول الوزن والحياكة، ويلتفتون إليه من وقت إلى آخر لإشراكه في الحديث وتعليمه. لم تكن الأقمشة الإنكليزية تعجبهم عموماً، ولكنّ هذه العينات قد تدفعهم إلى تغيير رأيهم... ثمّ توقّف عن الإصغاء حين حاولوا إخباره عن أسباب ذهابهم إلى كاليه ومختلف الأشخاص الذين يعرفونهم هناك.

أخبرهم عن عمل أبيه كحدّاد، فسألته المتحدّث بالإنكليزية ما إذا كان يستطيع صنع حدوة فرس. فراح يقلّد لهم كيفية القيام بذلك، حديد حام وأب سيئ الطباع في مكان ضيق. ضحكوا جميعاً، كانوا يحبّون رؤيته وهو يحكي لهم عن نفسه. قال أحدهم إنّه متحدّث جيّد. قبل أن ينزلوا إلى الرصيف، وقف أكثرهم صمتاً وألقى خطاباً رسمياً غريباً، فهزّ الآخر رأسه وبدأ الثالث يترجم: "نحن ثلاثة أخوة. هذا شارعنا. إن قمت بزيارة بلدتنا، فستجد سريراً وموقداً وطعاماً لك".

قال لهم، الوداع. الوداع وحظاً سعيداً، يا تجار الأقمشة. اعتنوا بعملكم. لن يتوقّف إلى أن يجد حرباً.

كان الطقس بارداً ولكنّ البحر هادئ. لقد أعطته كات ميدالية، فعلقها حول عنقه بحبل. كان يشعر ببرودتها فوق بشرته. حلّها ولمسها بشفتيه، أملاً أن تمنحه الحظ. تركها تسقط، فصدر عنها صوت كالهمس وهي تخترق الماء. سيتذكّر أوّل مرّة رأى فيها البحر: مساحة رمادية مجعّدة، وكأنّها بقية من حلم.

إذاً: ستيفن غاردينر. كان يدخل ويخرج. كان الطقس ممطراً، وبالنسبة إلى ليلة من ليالي نيسان/إبريل، كان دافئاً على غير عادة. ولكن غاردينر يرتدي الفراء الذي يبدو أشبه بالريش الأسود الكثيف والدهني. وقف وراح يشدّ ثيابه ويجمعها حول جسده الطويل وكأنّها أجنحة طائر أسود.

قال السيّد ستيفن مستاءً: "لقد تأخّر الوقت".

كان لطيفاً. "بالنسبة إليّ أم إلى حضرتك".

"بالنسبة إليك". انتظر قليلاً.

"كنّا نحتسي الشراب عند النهر. يقول المراكبيون إنّها ليلة عيد لديهم".
"وهل صليت؟".

"سأصلي في أيّ وقت، يا ستيفن، إلى أن أصل إلى الياسة".

"أنا مستغرب لأنك لم تحمل مجذافاً بنفسك. لا بدّ من أنّك أبحرت في النهر حين كنت صبياً".

عزف ستيفن دائماً على نوتة واحدة. والدك الفاسد، أصلك الوضيع. إذ افترض أنّ دماً نصف ملكي يجري في عروق ستيفن لكونه ابناً غير شرعي. فقد قام بتربيته أشخاص كتومون في بلدة صغيرة وكأنّه ابنهم، مقابل مبلغ من المال الذي دفع لهم سرّاً. كانوا تجار صوف، وكان السيّد ستيفن يستاء منهم ويتمنّى نسيانهم. وبما أنّه هو نفسه عرف جميع تجار الصوف، فلقد عرف الكثير أيضاً عن ماضي ستيفن، أكثر ممّا ينبغي. يا لليتيم المسكين!

شعر السيّد ستيفن بالاستياء حيال كلّ ما يتعلّق بوضعه. استاء لكونه ابن عمّ غير معترف به للملك. واستاء لأنّه وُضع في الكنيسة، مع أنّ الكنيسة أحسنت معاملته. واستاء لأنّ شخصاً آخر تحدّث في ساعة متأخرة إلى الكاردينال، وهو أمين سرّه الموثوق. واستاء لأنّه رجل طويل القامة ومسطح المعدة، كما أنّ وزنه ليس ثقيلًا. واستاء لمعرفة أنّهما لو التقيا في ليلة مظلمة، لكان السيّد توس كرومويل هو الذي سار بعيداً وهو ينفض يديه ويبتسم.

قال غاردينر وهو يسير في تلك الليلة الدافئة على غير عادة: "باركك الله".

قال كرومويل: "شكراً".

قال الكاردينال وهو يكتب من دون أن يرفع عينيه: "توماس. أما زالت تمطر؟ توقّعت حضورك في وقت أبكر".

مراكبي. نهر. كان يسافر منذ الصباح الباكر، وعلى سهوة الجواد معظم الوقت، لمدة أسبوعين لإنجاز عمل للكاردينال. وقد أتى الآن من يوركشاير مجتازاً مراحل صعبة. مرّ بموظفيه في فندق غرايز إن واقترض ملابس كتّانية نظيفة. ذهب إلى شرق المدينة لتقصّي الأخبار عن السفن الآتية وللتحقّق من مكان بضاعة يتوقّع وصولها. ولكنّه لم يأكل ولم يذهب إلى بيته بعد.

وقف الكاردينال ثمّ فتح باباً وتحدّث إلى خدّمه الذين يحومون في المكان. "كرز! ماذا، لا يوجد كرز؟ تقول أننا في نيسان/إبريل؟ أما زلنا في نيسان/إبريل؟ إذاً، ينبغي لنا بذل مجهود كبير لاسترضاء ضيفي". تتهدّ قائلاً: "أحضر ما لديك. ولكنّ ذلك لن ينعف كما تعلم. لمّ الخدمة سيئة عندي بهذا الشكل؟".

سرعان ما بدأت الغرفة تعجّ بالحركة: أحضر الطعام والشراب، وأضربت النار. أخذ رجل ملابسه المبلّلة وهو يتمتم بقلق. كان جميع خدّم الكاردينال على هذا الشكل. إذ كانوا مرتاحين، وهادئين، ومعتذرين على الدوام. وجميع زوّار الكاردينال عوملوا بالطريقة نفسها. ولو زرت بيته كلّ ليلة لعشر سنوات، وجلست متجهماً وعابساً في وجهه كلّما رأيته، ستظلّ ضيفاً عزيزاً.

ابتعد الخدم، واتّجهوا إلى الباب. قال الكاردينال: "ماذا تحبّ أيضاً؟".

"أن تشرق الشمس؟".

"في هذه الساعة المتأخّرة؟ هذا يتجاوز قدراتي".

"سأكتفي بالفجر".

أحنى الكاردينال رأسه قائلاً لخدمه: "سأهتّم بهذا الطلب بنفسي". قال ذلك برزانة، وبرزانة تمتموا وانسحبوا.

ضمّ الكاردينال يديه وأطلق تنهيدة عميقة وهو يبتسم، وكأنّه فهد يتمدّد في بقعة دافئة. نظر إلى رجل أعماله، ونظر رجل أعماله إليه. كان الكاردينال في سنّ الخامسة والخمسين لا يقلّ وسامة عمّا كان عليه في شبابه. والليّلة لم يكن يرتدي رداءه القرمزي اليومي، بل الأرجواني المائل إلى السواد، والمزيّن بالتخريم الأبيض الجميل: وكأنّه أسقف متواضع. كان فارغ الطول، وكان بطنه المنتفخ الذي ينبغي أن ينتمي إلى رجل أكثر خمولاً، يشكّل عنصراً آخر من عناصر الفخامة في شخصه، وكان غالباً ما يمدّد فوقه يده الكبيرة والبيضاء المزيّنة بالخواتم. كان رأسه الكبير

المصمم بالتأكيد ليحمل التاج البابوي يعلو كتفيه العريضتين، اللتين تحملان سلسلة اللورد تشانسلور البريطاني العظيمة، وإن كان لا يضعها في تلك اللحظة. أحنى الكاردينال رأسه ثم قال بنبرته المعسولة المعروفة من هنا إلى فيينا: "والآن، أخبرني كيف وجدت يوركشاير".

جلس مجيباً: "كريهة. الطقس، الناس، السلوك، الأخلاق".
"حسناً، أفترض أنك في المكان المناسب للتدمر. مع أنني أجري بعض الوسائط بخصوص الطقس".

"آه، والطعام. لا تبعد سوى خمسة أميال عن البحر، ومع ذلك لا تجد فيها سمكاً طازجاً".

"ولا أمل بإيجاد ليمون حامض، حسب ما أفترض. ماذا يأكلون؟".
"أبناء لندن، حين يتمكنون من إيجادهم. لم يسبق لي أن رأيت همجيين بهذا الشكل. يعيشون في الكهوف ولكنهم يعتبرون أنفسهم متمدنين". على الكاردينال أن يذهب ويرى بنفسه. فهو أسقف يورك، ولكنه لم يزر يوماً أبرشيته. "أمّا بالنسبة إلى أعمال غببتكم...".

قال الكاردينال: "أنا أصغي، لا، بل حديثك يأسرني".
بينما كان الكاردينال يصغي، راحت ترتسم على وجهه تجاعيد التركيز دائم الأنيسة. ومن وقت إلى آخر، كان يدون رقماً يعطيه إيّاه. تناول رشفة من شرابه الفرنسي الجيد ثم قال: "توماس... ماذا فعلت؟ أمّ حامل؟ اثنتان، ثلاث؟ أم، دعني أرى... هل أضرمت النار في ويتبي في إحدى نزواتك؟".

في حالة مساعده كرومويل، كان لدى الكاردينال مزحتان، تجتمعان أحياناً في مزحة واحدة. الأولى هي أن يخرج طالباً الكرز في نيسان/إبريل والخس في كانون الأول/ديسمبر، والأخرى هي اتهامه أنه يذهب إلى البلدة ويرتكب الفظائع التي يتحمل الكاردينال مسؤوليتها. وللكاردينال نكات أخرى، يطلقها بين وقت وآخر.

كانت الساعة العاشرة تقريباً، وكان لهب الشموع ينحني باحترام للكاردينال ثم يستقيم مجدداً. راحت قطرات المطر، التي لم تتوقف منذ آخر أيلول/سبتمبر، تسيل على زجاج النافذة. قال: "في يوركشاير، لم يلق مشروعك ترحيباً".

كان مشروع الكاردينال الذي نال إذناً من البابا يقوم على دمج نحو ثلاثين مؤسسة رهبانية صغيرة سيئة الإدارة في مؤسسات أكبر، وتحويل مدخول هذه المؤسسات، الفاسدة ولكنها في الأغلب قديمة جداً، إلى إيراد لكليتين يقوم بإنشائهما: كلية

الكاردينال في أوكسفورد، وكلية في بلدته الأم، إسويتش، التي عُرف فيها بكونه الابن المتعلم لجزّار ثريّ وتقيّ، عضو في النقابة ومالك لفندق كبير وحسن الإدارة، من نمط تلك الفنادق الجيدة التي يستخدمها المسافرون. الصعوبة... لا، بل في الواقع، ثمة صعوبات عدّة. فالكاردينال، الذي نال شهادة بكالوريوس في الفنون في سنّ الخامسة عشرة، وبكالوريوس في اللاهوت في أوسط (منتصف) العقد الثالث من عمره، خبير في المسائل القانونية ولكنه يستاء من التأخير. وحين حاول مرّة، كمجرّد اختبار، أن يشرح للكاردينال أمراً بسيطاً في القانون العقاري يتعلّق - في الواقع، لا يهم، كان أمراً بسيطاً - نفذ صبر الكاردينال فجأة وقال: "توماس، ماذا أعطيك لإقناعك بعدم ذكر ذلك أمامي مجدّداً؟ يجب أن تجد طريقة لفعل ذلك". هذا ما يقوله حين تُثار المشاكل؛ وحين يسمع أنّ أحداً ما يعترض مخطّطه الكبير، يقول: "توماس، أعطه بعض المال لينصرف عنّا".

وجد الفرصة للتفكير في ذلك لأنّ الكاردينال كان يحدّق إلى مكتبه، إلى الرسالة التي لم يُنه كتابتها. رفع نظره إليه قائلاً: "توم..."، ثمّ قال: "كلاً، لا يهمّ. أخبرني لماذا أنت عابس هكذا".

"يقول الناس هناك إنهم سيقتلونني".

قال الكاردينال: "حقاً؟". رأى على وجهه أمارات الاستغراب والخيبة. "وهل سيقتلونك؟ ما رأيك؟".

تدلّت من خلف الكاردينال سجّادة معلّقة على طول الجدار تصوّر ملكاً وملكة. "برأيي، إن كنت تنوي قتل رجل، افعل ذلك وحسب. لا تكتب إليه رسالة عن ذلك. لا تغضب ولا تهدّد ولا تحدّر".

"إن كنت تنوي أخذ الحيطة يوماً ما، أخبرني بذلك، فهذا أمر أودّ رؤيته. هل تعرف من... ولكن أفترض أنّهم لا يوقعون رسائلهم. لن أتخلّى عن مشروعني. لقد قمت باختيار تلك المؤسّسات شخصياً وبعناية. ومن يعترضون عليه يسيئون فهم نواياي. فما من أحد يودّ تشريد الرهبان العجائز".

هذا صحيح. يمكن إعادة توزيعهم على أديرة أخرى، أو إحالتهم إلى التقاعد، أو إعطاؤهم تعويضات. يمكن التفاوض بنية حسنة من الجانبين. انحن أمام المحتوم، احترم الكاردينال، ثق برعايته الحسنة والأبوية، صدّق أنّ عينه الذكية مركّزة على صالح الكنيسة. تلك هي الجمل التي يمكن التفاوض بها. الفقر، العفّة، الطاعة: هذا ما تشدّد عليه حين تملي على أحدهم ما ينبغي له أن يفعل. قال: "هم لا يسيئون

الفهم، بل يريدون التصرف بمفردهم".

"في المرة التالية التي تذهب فيها شمالاً، اصطحب معك حارساً مسلحاً".

كان الكاردينال، الذي يفكر في آخرة كل مسيحي، قد أمر بتصميم قبر له، على يد نحات من فلورنسا. فالكليتان ستكونان نُصبه التذكري الحي. وستعملان وتستمران طويلاً بعد رحيله: سيحمل الأولاد والتلامذة الفقراء إلى العالم نكاء الكاردينال وإحساسه بالجمال، وحبّه للزخرفة والمتعة، وذوقه الرفيع. لا عجب أن يهزّ رأسه رافضاً. فالمرء لا يحتاج عادةً إلى إعطاء حارس مسلح لمحام. والكاردينال يكره إظهار القوة. يجد ذلك تصرفاً غير ذكي. فحين يأتي إليه أحياناً أحد معارفه، لنقل ستيفن غاردينر، ويخبره بوجود خلية مهرطقين في المدينة، يقول له بجدية. "يا لتلك الأرواح الجاهلة المسكينة. ادعُ لأجلهم يا ستيفن، وأنا سأدعو لأجلهم، وسنرى إذا كنا نستطيع تحسين حالتهم الذهنية. وأخبرهم أن يحسنوا سلوكهم وإلا سيقبض عليهم توماس مور ويسجنهم، ولن نسمع حينها إلا الصراخ".

نظر إليه قائلاً: "والآن، توماس. هل تعرف الإسبانية؟".

"قليلاً. اللغة العسكرية، كما تعلم. لا أتقنها تماماً".

"أظن أنك خدمت في الجيش الإسباني".

"لا، بل الفرنسي".

"آه، بالفعل. وهل تأخيت معهم؟".

"ليس تماماً. يمكنني شتم الناس بالقشتالية".

قال الكاردينال: "سأحاول تذكر ذلك. سيحين وقتك، ولكن الآن... كنت أفكر في

أنه من الجيد أن يكون لدينا مزيد من الأصدقاء في قصر الملكة".

يعني جواسيس. ليرى كيف ستتلقى الأنباء. ليرى ما ستقوله الملكة كاتالينا، حين تكون بمفردها وتطلق العنان لأحاسيسها، بعد أن تتخلى عن اللاتينية الدبلوماسية التي ستتلقى بها خبر رغبة الملك بالزواج من سيّدة أخرى، بعدما أمضيا معاً عشرين عاماً. الزواج من أيّ سيّدة، أيّ أميرة ذات علاقات جيّدة يظنّ أنّها قد تتجب له وريثاً.

أسند الكاردينال ذقنه إلى يده وراح يفرك عينيه بإصبعه وإبهامه. قال: "استدعاني

الملك هذا الصباح، في وقت مبكر جداً".

"ماذا كان يريد؟".

"الشفقة، وفي تلك الساعة المبكرة. حضرت قدّاساً معه، وتحدّث طيلة الوقت

خلاله. أحبّ الملك، الله يعلم كم أحبّه. ولكنني أفقد أحياناً قدرتي على المواسة". رفع كأسه ونظر من فوقها. "تخيّل نفسك، يا توم. تخيّل هذا. أنت رجل في الخامسة والثلاثين من عمرك، تتمتع بالصحة وبشهيّة جيّدة، أمعاؤك في حالة ممتازة، مفاصلك مرنة، عظامك قوية، وبالإضافة إلى كلّ ذلك، أنت ملك إنكلترا. ولكن...، هزّ رأسه وتابع قائلاً: "ولكن! لو أنه أراد شيئاً أكثر بساطة. حجر الفيلسوف، إكسبير الشباب، أحد تلك الصناديق المليئة بالذهب التي يُحكى عنها في القصص".

"وحيث تأخذ منها، تمتلئ من جديد؟".

"بالضبط. بالنسبة إلى صندوق الذهب، لديّ بعض الآمال بإيجاده. وكذلك الأمر بالنسبة إلى إكسبير الشباب، وغير ذلك. ولكن من أين أبدأ البحث عن ابن ليحكم هذه البلاد من بعده؟".

خلف الكاردينال كانت صورة الملك والملكة آنفة الذكر والتي ذكرته ابتسامة الملكة فيها، بالأرملة الشابة التي سكن معها حين عاش في أنتويرب. هل كان ينبغي له الزواج منها؟ هذا ما يقتضيه الشرف. ولكن لو كان قد تزوّج أنسيلما لما كان قد تزوّج ليز، ولكان أولاده مختلفين عن أولاده الآن.

قال: "إن كنت عاجزاً عن إيجاد ابن له، فعليك أن تجد له ما يريحه في الكتاب المقدّس".

بدا أنّ الكاردينال يبحث عنه على مكتبه. "في الواقع، يوصي سفر التثنية في الكتاب المقدّس أن يتزوّد الرجل من أرملة أخيه. تماماً كما فعل". تتهدّ الكاردينال ثمّ أضاف: "ولكنّه لا يحبّ سفر التثنية".

لا حاجة إلى السؤال عن السبب. ولا حاجة إلى اقتراح أنّه إن كان سفر التثنية يأمر بالزواج من أرملة الأخ، وسفر اللاويين يمنع ذلك، وإلّا فلا تُتجب، عليك أن تحاول العيش مع هذا التناقض، وقبول أنّ مسألة الأولوية بين الأمرين نوقشت في روما من قبل مطارنة بارزين قبل عشرين عاماً حين أصدرت الأحكام وحملت الختم البابوي.

"لا أفهم لماذا يتمسك إلى هذا الحدّ بسفر اللاويين، مع أنّ لديه ابنة على قيد الحياة".

"ولكن أظنّ أنّه من الواضح عموماً في الكتاب المقدّس أنّ كلمة أطفال تعني أبناء".

يبرّر الكاردينال النصّ بالرجوع إلى اللغة العبرية، وذلك بصوت لطيف وهادئ.

كان يحبّ التعليم حيث تكون لديه الرغبة في ذلك. لقد عرفا بعضهما منذ سنوات عدّة، ومع أنّ الكاردينال يحتلّ رتبة عالية، إلا أنّهما تخلّيا عن الرسميات شيئاً فشيئاً. قال: "تعلم بالطبع أنّ لديّ ابناً. فليسامحني الله، إنّهُ نقطة ضعفي".

بدا ابن الكاردينال، الذي يسمّونه توماس وينتر، ميالاً إلى العِلْم والحياة الهادئة، مع أنّ لدى أبيه أفكاراً مختلفة. وللكاردينال ابنة أيضاً، فتاة شابة لم يرها أحد. وقد أطلق عليها الكاردينال اسم دوروثيا. وهي تعيش في دير، تصلّي فيه من أجل أبويها. قال الكاردينال: "ولديك ابن، أو ربّما يجدر بي القول لديك ابن أعطيته اسمك. ولكن أظنّ أنّك تملك ربّما أبناء لا تعرفهم، يجرون على ضفاف التايمز؟".

"لا أظنّ ذلك. لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة من عمري حين هربت".
عدم معرفة توماس لسنّه الفعلية تُضحك وولزي. يحدّق الكاردينال عبر طبقات المجتمع، إلى طبقة أدنى من تلك التي ينتمي إليها بكثير، إلى ابن جرّار، إلى مكان وُلد فيه هذا الشاب، في يوم مجهول، في الظلام التام. كان أبوه يلهو من دون شكّ عند مولده، وكانت أمّه منشغلة بالطبع. فأعطته كات تاريخاً، وهو ممتنّ لذلك.

قال الكاردينال: "حسناً، الخامسة عشرة... ولكن أفترض أنّك تستطيع فعلها في سنّ الخامسة عشرة؟ أعرف ذلك. والآن، أنا لديّ ابن، قائد مركبك لديه ابن، المتسوّل في الشارع لديه ابن، الأشخاص الذين سيقتلونك في يوركشاير لديهم أبناء سيُجبرون من دون شكّ على القسم على أن يلاحقوك لجيل قادم، وأنت نفسك كما سبق وقلنا، قد خلّفت وراءك قبيلة من المشاكسين على ضفاف النهر، إلاّ الملك، وحده ظلّ بلا ذرّية. خطأ من هذا؟".

"القدر؟".

"بل أقرب من ذلك".

"الملكة؟".

"شخص مسؤول عن كلّ شيء أكثر من الملكة".

لم يتمكّن من كبت ابتسامة عريضة وهو يقول: "غبطتك".

"غبطتي. ماذا سأفعل حيال ذلك؟ سأخبرك. يمكنني إرسال السيّد ستيفن إلى روما

ليستطلع آراء مجلس الشيوخ. ولكنني أحتاج إليه هنا...".

نظر وولزي إلى تعابير وجهه، وضحك. أتباعه المتتارحرون! كان يعرف جيّداً أنّهم يتنافسون ليصبح أحدهم ابنه المفضّل، لكونهم غير قانعين بأصولهم. "مهما كان ظنّك بالسيّد ستيفن، فإنّه يفهم جيّداً القانون الكنسي، كما أنّه شخص مقنع جدّاً، إلاّ

حين يحاول إقناعك. اسمع..."، توقّف، ثمّ انحنى إلى الأمام، وأسند رأسه الأشبه برأس أسد إلى يديه، الرأس الذي كان سيُوضع عليه التاج البابوي لو أنّ المبلغ المناسب من المال دُفع للأشخاص المناسبين في الانتخابات الأخيرة. قال الكاردينال: "لقد توسّلت إليه، يا توماس. ركعت على ركبتَيّ، وبتلك الوضعية الذليلة حاولت رده. قلت له، يا جلالة الملك، ثق بي. لن تكسب شيئاً إن أردت التخلّص من زوجتك، في ما عدا المشاكل والنفقات".

"وماذا قال؟".

"رفع إصبعه محدّراً وقال، أبدأ. سمّ تلك السيّدة العزيزة زوجتي، إلى أن تتمكن من أن تبين لي لماذا هي كذلك، وكيف. حتّى ذلك الوقت، سمّها أختي، أختي العزيزة، بما أنّها كانت بالتأكيد زوجة أخي، قبل أن أعقد زواجي عليها".

لا يمكنك أبدأ أن تأخذ من وولزي كلمة فيها خيانة للملك. قال: "هذا..."، تردّد ثمّ تابع قائلاً: "هذا برأيي... منافٍ للعقل. مع أنّ رأيي لا يخرج بالطبع من هذه الغرفة. آه، أنا لا أشكّ في أنّه ثمّة أشخاص رفعوا حواجبهم دهشةً عند صدور الحكم. وعاماً بعد عام، ثمّة من كانوا يهمسون في أذن الملك. ولكنّه لم يكن يصغي، مع أنّني أظنّ الآن أنّه كان يسمع. ولكنك تعرف أنّ الملك هو من أكثر الرجال المفتونين بزوجاتهم. فأبعدت جميع الشكوك". وضع يده بهدوء وحزم على مكتبه مضيفاً: "سُحقت تماماً".

ولكن لا شكّ في ما يريده من هنري الآن. إبطال الزواج. الإعلان أنّ زواجه لم يكن. قال الكاردينال: "ثمانية عشر عاماً عاش فيها مخطئاً. قال لكاهن الاعتراف إنّ لديه ثمانية عشر عاماً من الخطايا التي يحتاج إلى التكفير عنها".

انتظر ردّ فعل صغيراً مرضياً. ولكنّ الشاب نظر إليه: بدا أنّه من المسلّم به أن تُخرق سرّيّة الاعتراف بحسب مشيئة الكاردينال.

قال: "إذاً، إن أرسلت السيّد ستيفن إلى روما، فسيضفي ذلك على نزوة الملك شيئاً من...".

هزّ الكاردينال رأسه وكأنّه يقول: يمكنك قولها.

"... شرعية دولية؟".

"يمكن للسيّد ستيفن أن يذهب سرّاً، وكأنّه يسعى إلى مباركة بابوية خاصّة".

"أنت لا تفهم روما".

لا يستطيع وولزي أن يعارضه في ذلك. فهو لم يشعر يوماً بتلك القشعريرة في

الجزء الخلفي من عنقه، التي تدفعك إلى الالتفات إلى الخلف حين تصل إلى مساحة واسعة معتمة بعد أن تعبر نور التبير الذهبي. فخلف أحد الأعمدة المتهالكة، أو بين الآثار المهجورة، قد ينتظرك لصوص النزاهة. كان يشعر أحياناً أنه محظوظ لكونه خرج من تلك المدينة بروح نقيّة.

قال: "ببساطة، سيعرف جواسيس البابا ما ينوي ستيفن فعله ما إن يبدأ بحزم أغراضه، وسيكون للكرادلة وأمناء السرّ الوقت لتحديد أسعارهم. إن كنت تريد إرساله فعلاً، أعطه الكثير من المال. فهؤلاء الكرادلة لا يقبضون الوعود، ما يريدونه حقاً هو كيس من الذهب لاسترضاء مصرفيهم، لأنّ رصيدهم يكون قد نفذ على الأرجح". هزّ كتفيه مضيفاً: "أعرف ذلك".

قال الكاردينال بمرح: "عليّ إرسالك أنت. يمكنك أن تعرض قرصاً على البابا كليمنت".

لم لا؟ فهو يعرف أسواق المال، يمكن على الأرجح ترتيب الأمر. لو أنّه مكان كليمنت، لاقترض مالاً وفيراً هذا العام لتأليف جيش يحيط بأراضيه. على الأرجح، فات الأوان. ففي موسم القتال الصيفي، عليك أن تبدأ بالتجنيد من بداية شباط/فبراير. قال: "ماذا لو بدأت دعوة الملك بنفسك؟ اجعله يتخذ الخطوات الأولى، إلى أن يتأكد من أنّه يريد فعلاً ما يقوله".

"هذا ما أنويه. فأنا أفكر في الدعوة إلى انعقاد محكمة صغيرة هنا في لندن. سنتعامل مع الموضوع على نحو فيه شيء من الصدمة: جلالة الملك هاري، يبدو أنّك عشت كلّ تلك السنوات بطريقة غير شرعية، مع امرأة ليست زوجتك. فهو يكره أن يبدو خاطئاً، وهذا ما يجب أن نشعره به بشدّة. ربّما سينسى أنّ الشكوك الأولى صدرت عنه. ربّما سيصرخ في وجوهنا، وسينفجر غاضباً في وجه الملكة. في حال العكس، سيكون عليّ إبطال الحكم، هنا أو في روما، وإن نجحت في فصله عن كاثرين، فسأزوّجه، بذكاء، من أميرة فرنسية".

لا حاجة إلى السؤال ما إذا كان لدى الكاردينال أميرة معيّنة في ذهنه. لم تكن لديه أميرة واحدة، بل اثنتان أو ثلاث. فهو لا يعيش أبداً في واقع واحد، بل في عدد من الإمكانيات الدبلوماسية المتبدّلة. فبينما يبذل جهده للحفاظ على زواج الملك من الملكة كاثرين وارتباطه بعائلة إمبراطورية إسبانية، وذلك بالتوسّل للملك لينسى شكوكه، يخطّط أيضاً لعالم بديل، يتمّ فيه الإصغاء إلى شكوك الملك، وإبطال زواجه من كاثرين. وما إن يتمّ الاعتراف بذلك الإبطال، ومحو ثمانية عشر عاماً من

الخطيئة والعذاب، سيعيد ضبط ميزان أوروبا، وذلك بإقامة تحالف بين إنكلترا وفرنسا، مشكلاً جبهة لمعارضة الإمبراطور الشاب تشارلز، ابن أخت كاثرين. وستكون جميع النتائج محتملة، وجميعها قابلة للتدبير والتعديل بحسب الرغبة: الصلاة والضغط، الضغط والصلاة، كل شيء سيتم كما قُدر له، وبعد أن يكون الكاردينال قد قال فيه كلمته. كان معتاداً على قول: "الملك سيفعل كذا وكذا"، ثم بدأ يقول: "سنفعل كذا وكذا". أما الآن، فأصبح يقول: "هذا ما سأفعله".

سأل: "ولكن ماذا سيحلّ بالملكة؟ إلى أين ستذهب إن تركها؟".
"من شأن الأديرة أن تكون مكاناً مريحاً".

"ربّما ستعود إلى إسبانيا".

"كلاً، لا أظنّ ذلك. لقد أصبحت بلداً مختلفاً الآن. فقد مضى - كم؟ - سبعة وعشرون عاماً منذ أن حطّت رحالها في إنكلترا". تنهّد الكاردينال، ثمّ تابع قائلاً: "أذكر وصولها. كانت سفينتها، كما تعلم، قد تأخرت بسبب الطقس، وظلت عالقة في القناة، تتقاذفها الأمواج يوماً بعد يوم. توجه الملك القديم جنوباً، مصمماً على ملاقاتها. كانت قد وصلت إلى دوغميرسفيلد، إلى قصر أسقف باث، وتقدّم ببطء باتجاه لندن. كنّا في تشرين الثاني/نوفمبر، ونعم، كانت تمطر. عند وصوله، أصرت أسرتها على عاداتها الإسبانية: على الأميرة أن تبقى منقبة إلى أن يراها زوجها يوم زفافها. ولكن، أنت تعرف الملك القديم!".

لم يقبل، بالطبع. كان قد وُلد في تاريخ ميلاد الملك القديم تقريباً، الذي كان متمرداً ولاجئاً طيلة حياته، وكافح للوصول إلى العرش. تحدّث وولزي وكأنّه شهد كل شيء بأمّ العين، لقد فعل ذلك نوعاً ما، لأنّ الماضي القريب يترتّب على نحو يرضي عقله وعينه. ابتسم وقال: "كانت أبسط الأشياء تثير شكوك الملك القديم، في سنواته الأخيرة. تراجع وجعلهم يعتقدون أنّه يتشاور مع مرافقيه، ثمّ وثب عن صهوة جواده، وكان لا يزال رشيح الحركة، وقال للإسبانيين مواجهاً إياهم إنّه يريد رؤيتها. الأرض أرضي والقانون قانوني، هذا ما قاله، ما من نقاب هنا. لماذا لا يمكنني رؤيتها، هل خُدت، أهي مشوّهة، هل تعرضون تزويج ابني آرثر من امرأة قبيحة؟".

فكر توماس أنّه كان ويلزياً على نحو غير ضروري.

"في تلك الأثناء، اصطحبت المرافقات الفتاة الصغيرة إلى السرير، أو ربّما قلن ذلك لاعتقادهنّ أنّ السرير سيكون آمناً من تطفله. ولكن إطلاقاً. فقد اقتحم الملك هنري جناح الأميرة، وبدا وكأنّه ينوي تمزيق أغطية السرير. ألبستها خادمتها شيئاً من

الملابس اللائقة، قبل أن يدخل الغرفة. حين رآها، نسي اللاتينية. تلعثم وتراجع وكأنه صبيّ مربوط اللسان". ضحك الكاردينال وتابع: "و حين رقصت للمرة الأولى في البلاط، جلس أميرنا المسكين آرثر وهو يبتسم، ولكنّ الفتاة الصغيرة بالكاد كانت قادرة على الجلوس على مقعدها. لم يكن ثمّة من يعرف الرقصات الإسبانية، فأخذت ترقص مع إحدى السيّدات في حاشيتها. لن أنسى أبداً كيف كانت تدير رأسها، وتلك اللحظة التي سقط فيها شعرها الأحمر الجميل على إحدى كتفيها... ما من رجل رآها ولم يتخيّل، مع أنّ الرقصة كانت رزينة جداً في الواقع... آه يا الله. كانت في السادسة عشرة من عمرها".

شرد الكاردينال فقال توماس: "ليسامحك الله؟".

"ليسامحنا جميعاً. كان الملك القديم يأتي دائماً للاعتراف. توفيّ الأمير آرثر، وسرعان ما لحقت به الملكة. وحين وجد الملك القديم نفسه أرملاً، فكّر في الزواج من كاثرين. ولكن..."، رفع كتفيه الأميريتين ثمّ تابع: "لم يتمّ الاتّفاق على المهر، أنت تعلم. الثعلب العجوز، فيرديناند، أبوها. فهو قادر على خداع أيّ كان لعدم دفع مال متوجّب عليه. ولكنّ ملكنا الحالي كان في العاشرة من عمره حين رقص في حفل زفاف شقيقه، وأظنّ أنه أغرم بالعروس منذ ذلك الحين".

جلسا يفكران لبعض الوقت. يا له من وضع حزين، كلاهما عرفا ذلك. جمدها الملك العجوز في المملكة، وأبقاها فقيرة، لعدم رغبته في خسارة جزء من المهر الذي قال إنّّه لا يزال يدين به، كما أنّه لم يكن راغباً في أن يدفع لها حصّتها كأرملة ويدعها تذهب. ولكنّ المثير للاهتمام أيضاً هو العلاقات الدبلوماسية الواسعة التي كوّنتها الفتاة الصغيرة خلال تلك السنوات، والخبرة التي اكتسبتها في تغليب مصلحة على الأخرى. وحين تزوّجها هنري، كان في الثامنة عشرة، وكان ساذجاً. فما إن مات والده حتّى طالب بكاترين لنفسه. كانت تفوقه سنّاً، وكانت سنوات القلق قد أضفت عليها رزانة وسلبتها شيئاً من جمالها. ولكنّ المرأة الحقيقيّة كانت أكثر حياةً من تلك التي في خياله، وكان طامعاً بما امتلكه أخوه الأكبر. شعر مجدداً برعشة يدها حين وضعتها على ذراعه عندما كان ابن عشرة أعوام. وكأنّها وثقت به، وكأنّها أدركت أنّها لن تكون أبداً زوجة آرثر إلاّ بالاسم، هذا ما قاله لأصدقائه المقربين. كان جسدها محفوظاً لأجله، الابن الثاني، الذي حوّلت إليه عينيها الزرقاوين الرماديتين الجميلتين وابتسامتها المطيعة. لطالما أحبّنتي، هذا ما كان يقوله الملك. سبعة أعوام تقريباً من الدبلوماسية، إن كان ممكناً تسميتها كذلك، أبعدتني عنها.

ولكنني لم أعد مضطراً الآن لخشية أحد. روما قد عفت وأقامت العدل، والأوراق رُتبت، والأحلاف أُقيمت. قد تزوجت من عذراء، لأنّ أخي المسكين لم يلمسها. تزوجت حلفاً، مع أقاربها الإسبانين. والأهمّ من هذا كلّهُ، تزوجت بداعي الحبّ. والآن؟ اختفى كلّ ذلك، أو كأنّه اختفى. نصف عمر ينتظر ليُمحي، ليُشطب من السجّل.

قال الكاردينال: "أه، وماذا ستكون النتيجة؟ للملك مخططاته الخاصّة، ولكن بالنسبة إليها، سيكون الانتقال صعباً".

ثمّة قصّة أخرى عن كاثرين، قصّة مختلفة. فقد ذهب هنري إلى فرنسا لخوض حرب صغيرة، وترك كاثرين وصيّة على العرش. فزحف الاسكتلنديون جنوباً، ولكنهم هُزموا وتمّ قطع رأس ملكهم في فلودن. كانت كاثرين، هي التي اقترحت إرسال رأس الملك في كيس في أوّل حملة، لإسعاد زوجها في مخيمه. إلا أنّهم أثنوا عن ذلك، قائلين لها إنّهُ عمل غير إنكليزي. عوضاً من ذلك، أرسلت إليه رسالة، ومعها المعطف الذي مات فيه الملك الاسكتلندي، والذي كان متصلباً، ومسوداً، وهشّاً بفعل دمائه التي تشبّع بها.

خدمت النار، ولم يتبقّ منها سوى قطعة حطب رمادية. نهض الكاردينال عن مقعده، وهو لا يزال غارقاً في أحلامه وركلها بنفسه. وقف ينظر إلى الأسفل، وهو يعبت بالخواتم الموضوعّة في أصابعه، وبدا مستغرقاً في أفكاره. هزّ رأسه وقال: "كان يوماً طويلاً. اذهب إلى بيتك ولا تفكّر في أهالي يوركشاير".

كان توماس كرومويل قد تجاوز الأربعين عاماً بقليل. وكان رجلاً قويّ البنية، غير طويل القامة. تزاخمت في وجهه تعابير عدّة ولكنّ أحدها كان مقروءاً: تعبير المرح المكبوت. كان شعره داكناً، كثيفاً، و متموجاً، وكانت عيناه الصغيرتان، اللتان تتمتّعان ببصر حادّ، تتألّقان في أثناء الكلام: هذا ما سيخبرنا به السفير الإسباني، قريباً. يُقال إنّهُ حفظ عن ظهر قلب العهد الجديد بأكمله باللاتينية، وكما ينبغي أن يكون خادم الكاردينال، كان جاهزاً لتقديم المساعدة حين يتلعثم رؤساء الأديرة في عظاتهم. كان حديثه سريعاً ومنخفضاً، وسلوكه واثقاً، سواء أكان في قاعة محكمة، أم في ميناء، أم في قصر أسقف، أم في فندق. استطاع كتابة عقد، وتدريب صقر، ورسم خريطة، وإيقاف شجار في الشارع، وتأثيث منزل. كان يمكنه أن يقتبس لك عبارة جميلة لأدباء قدماء، من أفلاطون إلى بلوتو، وبالعكس. كان مطلعاً على الشعر الحديث، ويستطيع إلقاءه بالإيطالية. كان يعمل طيلة ساعات النهار، وكان أوّل من يستيقظ،

وأخر من يخلد إلى النوم. كان يجني المال وينفقه، ويراهن على أي شيء. نهض ليرحل قائلاً: "إن استجيببت صلواتك وأشرققت الشمس، فسيخرج الملك لركوب الخيل مع حاشيته، فلو لم يكن قلقاً ومحبوساً، لما كانت معنوياته بهذا الشكل، ولما فُكر في سفر اللاويين، ولكانت حياتك أسهل".

"أنت لا تفهمه تماماً. فمتعته باللاهوت لا تقلّ تقريباً عن متعته بركوب الخيل". حين وصل إلى الباب، قال وولزي: "للمناسبة، بخصوص الأحاديث الدائرة في البلاط... كان يتذمّر سموّ دوق نورفولك من أنني أرسلت شيئاً جالياً للشر ليتبعه. إن ذكر أحدهم شيئاً كهذا أمامك... أنكره وحسب".

وقف عند الباب وهو يبتسم ببطء. ابتسم الكاردينال أيضاً وكأنّه يقول، احتفظت بالأخبار الجيدة للنهاية. ألا أعرف كيف أسعدك؟ ثمّ خفض الكاردينال رأسه فوق أوراقه. بالكاد كان هذا الرجل الذي يعمل في خدمة إنكلترا يحتاج إلى النوم. أربع ساعات تكفيه لاستعادة نشاطه، ويستيقظ قبل أن ترن أجراس ويستمينستر إيذاناً بحلول صباح يوم آخر من أيام نيسان/إبريل الممطرة، والغائمة، والمعتمة. قال: "تصبح على خير. باركك الله يا توم".

كان رجاله ينتظرون في الخارج حاملين المصابيح لمرافقته إلى بيته. كان يملك منزلاً في ستيني ولكنه يقصد الليلة منزله في البلدة. شعر بيد على ذراعه، كانت يد رايف سادلر، وهو شاب نحيل شاحب العينين. "كيف كانت رحلتك إلى يوركشاير؟". ارتجفت ابتسامة رايف، وهبت ريح كادت تُطفئ الشعلة.

"لا ينبغي التحدّث عنها، إذ يخشى الكاردينال أن تسبّب لنا الكوابيس". عبس رايف. خلال أعوامه الأحد والعشرين، لم يسبق له أن رأى أحلاماً مزعجة، فهو ينام بأمان تحت سقف كرومويل منذ أن كان في السابعة من عمره، أولاً في شارع فينتشيرتش والآن في أوستن فرايرز. هكذا كبر صافي الذهن، واقتصرت همومه الليلية على الهموم المنطقية: اللصوص، الكلاب المشردة، والحفر المفاجئة في الطريق.

قال: "دوق نورفولك..."، ثمّ عدل عن رأيه وقال: "لا، لا يهمّ. من سأل عنّي في أثناء غيابي؟".

كانت الشوارع الرطبة خالية، والضباب يزحف من جهة النهر. اختفت النجوم خلف الغيوم. في المدينة، كانت تفوح الرائحة الحلوة والعفنة لخطايا الأمس المنسية. ركع نورفولك، وأسنانته تصطك، قرب سريرته؛ راح قلم الكاردينال يخربش في ساعة متأخرة،

وكأنه جرد تحت فراشه. وبينما أخذ رايف، الذي يسير بحانبه، يوجز له المستجدات في غيابه، راح يصوغ إنكاره، إلى من يهّمه الأمر: "غبطة الكاردينال يرفض رفضاً قاطعاً أيّ تهمة توجه إليه بأنه أرسل شيئاً جالياً للشرّ لملاحقة دوق نورفولك. وهو يستكر هذا الأمر على نحو شديد اللهجة. لم يتمّ إرسال عجل بلا رأس، ولا أي شيء على شكل كلب متدلّي اللسان، ولا ملاءة متمايلة، ولا جثة حيّة من قبل غبطته لملاحقة سموه، ولا أيّ ملاحقة كهذه مُعلّقة".

تناهى إليه صراخ من أرصفة الميناء. سمع غناء بحّارة، أعقبه صوت غوّصة قصيرة بعيدة في الماء؛ ربّما كانوا يغرقون شخصاً. "يصدر غبطة الكاردينال هذا البيان من دون المساس بحقه في مضايقة سموّ دوق نورفورلك وتكديره هدوئه بأيّ فانتازما قد يختارها، في أيّ وقت في المستقبل، ومن دون إشعار مسبق، وفقاً لرأي غبطة الكاردينال في المسألة وحسب".

هذا الطقس يجدد ألم الندوب القديمة. ولكنّه دخل منزله وكأنّه في منتصف النهار: بيتسم وهو يتخيّل الدوق المرتعش فزعاً. كانت الساعة الواحدة. وكان نورفولك، في خياله، لا يزال راكعاً، وخلفه كائن أسود اللون يحمل رمحاً ذا ثلاثة رؤوس يخز به عقبه الغليظتين.

في أوستن فرايرز

1527

كانت ليز لا تزال مستيقظة. حين سمعت الخدم يدخلونه، خرجت حاملة كلبته الصغيرة تحت ذراعها وهي تقاوم وتتبع محتجة.

"هل نسيت أين تقطن؟".

تنهد.

"كيف كانت يوركشاير؟".

هز كتفيه.

"والكاردينال؟".

هز رأسه.

"هل أكلت؟".

"أجل".

"هل أنت متعب؟".

"ليس فعلاً".

"هل ترغب في شراب؟".

"نعم".

"رينيش؟".

"لَمْ لا".

كانت الكُسوة مطلية. فمشى عبر وميض أخضر وذهبي. "غريغوري...".

"رسالة؟".

"رديئة".

أعطته الرسالة والكلبة، بينما راحت تسكب الشراب. جلست وتناولت كأساً هي

أيضاً.

"يحيينا، وكأنه يوجه الرسالة إلى أحدنا. لاتينيته رديئة".

قالت: "آه، حقاً".

"إذاً، اسمعي. يتمنى أن تكوني بخير. يتمنى أن أكون بخير. يتمنى أن تكون

شقيقته الحبيبتان آن وغرايس الصغيرة بخير. هو نفسه بخير. لم يعد لديه الوقت

لكتابة المزيد، ابنك المطيع، غريغوري كرومويل".

قالت: "المطيع؟ هذا فقط؟".

"هذا ما يعلمونه إياه".

راحت الكلبة بيلا تعضّ أنامله، وعيناها البريئتان المستديرتان تلمعان وكأنهما قمران غريبان. بدت ليز جميلة، باستثناء التعب الذي بدا عليها بسبب يومها الطويل. كانت الشموع الطويلة تبدو خلفها. وكانت تضع عقد اللؤلؤ والعقيق الأحمر الذي أهداها إياه ليلة رأس السنة.

قال: "النظر إليك أحلى من النظر إلى الكاردينال".

"هذه أصغر مجاملة تتلقاها امرأة".

"وكنت أتدرب عليها طيلة الطريق من يوركشاير". هزّ رأسه قائلاً: "آه، حسناً!".

حمل بيلا في الهواء، فراحت تركل بقوائمها بمرح. "كيف عمك؟".

قامت ليز ببعض العمل في الحرير. صنعت أشرطة لأختام الوثائق، وأوشحة رقيقة لسيدات البلاط. لديها فتاتان تتعلمان في المنزل وهي مطلّعة على الموضة. ولكنها تدمرت، كالعادة، من السماسرة وسعر الخيط. قال: "علينا الذهاب إلى جينيو، سأعلمك كيف تنظرين إلى المُرودين وجهاً لوجه".

"أودّ ذلك، ولكنك لن تبتعد أبداً عن الكاردينال".

"حاول إقناعي الليلة بضرورة التعرّف إلى أشخاص في أسرة الملكة، المتحدّثين بالإسبانية".

"آه؟".

"أخبرته أنني غير بارع بالإسبانية".

ضحكت قائلةً: "غير بارع؟ أيّها الماكر".

"ليس من الضروري أن يعرف كلّ ما أعرفه".

قالت: "كنت أزور أشخاصاً في تشيبسايد". ونكرت اسم إحدى صديقاتها القديمات، زوجة جوهري كبير. "هل تودّ سماع آخر الأنباء؟ طُلب حجر زمرد كبير ليوضع في إطار خاتم، خاتم نسائي". أخذت تصف له الزمردة، التي تعادل حجم ظفر إبهامها. "وصل الحجر، بعد بضعة أسابيع من الانتظار، وكان يُقصّ في أنتويرب". فتحت أصابعها مضيئةً: "وكان محطماً!".

"ومن تحمّل الخسائر؟".

"قال المسؤول عن قصّه إنّه خُدع وأنّ الحجر يحتوي على عيب خفيّ في قاعدته. وقال المصدر، إن كان العيب خفياً إلى هذا الحدّ، فكيف له أن يعلم بوجوده؟ فقال

المسؤول عن القَصِّ، إذاً، خذوا التعويض من الممّون (المزوّد)...".
"سيمضون سنوات في المحاكم. هل يمكنه الحصول على حجر آخر؟".
"يحاولون. لا بدّ من أن يكون الملك، هذا ما نظّنه. فما من أحد آخر في لندن
يشترى حجراً بهذا الحجم. إذاً، لمن هو؟ فهو ليس للملكة".

كانت بيلا الصغيرة ممّدة على ذراعه، عيناها تلمعان، وذيلها يهتّز قليلاً. راح
يفكّر في أنّه سيشعر بالفضول لدى رؤية خاتم زمردني. سيخبرني الكاردينال. إذ يقول
الكاردينال إنّّه لا بأس من سعي الملك وراء الهدايا، ولكنّه سيأخذها إلى سريره هذا
الصيف بالتأكيد، وبحلول الخريف سيكون قد سئم منها، وسيصرفها. وإن لم يفعل فأنا
سأفعل. إن كان وولزي ينوي استقدام أميرة فرنسية صبيّة، فلن يريد إفساد أسابيعها
الأولى هنا بمشاهد حقد مع عشيقات سابقات. على الملك، برأي وولزي، أن يكون
أكثر قسوة مع نساءه.

انتظرت ليز قليلاً، إلى أن عرفت أنّها لن تحصل منه على جواب، ثمّ قالت:
"والآن، ماذا عن غريغوري. الصيف اقترب. هل سيمضيه هنا أم لا؟".

أوشك غريغوري على بلوغ الثالثة عشرة من عمره. كان في كامبريدج مع مدرّسه.
كان قد أرسل أبناء أخته بيت إلى المدرسة معه، وهو أمر سرّه فعله للعائلة. الصيف
هو فرصتهم، ماذا سيفعلون في المدينة؟ غريغوري لا يهتمّ كثيراً بالكتب حتّى الآن،
مع أنّه يحبّ سماع القصص، قصص عن التنين، وعن أناس خضر اللون يعيشون
في الغابة. ويمكنك أن تستدرجه لقراءة مقطع لاتيني إن أفنعتّه أنّه تمّ فيه ذكر ثعبان
ماء أو شبح. يحبّ التّنزّه في الغابات والحقول كما يحبّ الصيد. لا يزال صغيراً،
ونتمنّى أن يكبر ليصبح رجلاً طويلاً وقويّ البنية. إذ كان طول جدّ الملك لأمه يبلغ،
على حدّ قول العجائز، 6.4 أقدام (192 سم). (ولكنّ والده كان أقرب إلى طول
مورغان ويليامز). يبلغ طول الملك 6.2 أقدام (186 سم)، ويستطيع الكاردينال النظر
إليه وجهاً لوجه. يحبّ هنري أن يكون محاطاً برجال مثل صهره تشارلز براندون،
بطوله المهيب نفسه وعرض كتفيه القويتين. لم يكن الطول رائجاً في الأروقة
الخلفية، وبالطبع ليس في يوركشاير.

ابتسم. ما يقوله عن غريغوري هو أنّه على الأقلّ ليس كما كان عليه وهو في مثل
سنّه. وحين يسأله الناس كيف كنت، يجيب، آه، كنت معتاداً على طعن الناس
بالخناجر. لا يمكن لغريغوري أن يفعل ذلك إطلاقاً. لذلك هو لا يمزحج، أو يمزحج
أقلّ ممّا يظنّ الناس، إن كان ابنه غير بارع بعد في تصريف الأفعال. وحين يخبره

الناس بما فشل غريغوري في فعله، يقول: "إنّه مشغول بالنمو". كان يفهم حاجته إلى النوم، فهو لم يحصل أبداً على قسط وافٍ من النوم، بوجود والتر في الجوار. وبعدما هرب، كان دائماً إمّا على متن سفينة أو على الطريق، قبل أن يجد نفسه بين صفوف الجيش. والشيء الذي لا يفهمه الناس عن الجيش هو أنك نادراً ما تجد الوقت للراحة: عليك أن تسعى إلى إيجاد الطعام، تُرسل لتخيّم في مكان ما يرتفع فيه مستوى الماء لأنّ قائدك المجنون أمر بذلك، تُنقل فجأة في منتصف الليل إلى وضعية غير مريحة إطلاقاً، وهكذا لا تنام أبداً بالفعل، وتكون معدّاتك ناقصة، وجنود المدفعية لا يتوقّفون عن إطلاق القذائف الصغيرة غير المرغوبة، وحاملو القوس والنشاب إمّا يلهون، أو يصلّون، تُطلب الأسهم ولكنّها لا تصل، يظلّ ذهنك قلقاً من عدم سير الأمور على ما يرام، لأنّ القائد، أو أيّاً يكن المسؤول اليوم، ليس بارعاً في العمل الأساسي. لم يطل به الأمر قبل أن يترك القتال شتاءً. ففي إيطاليا، يمكنك دائماً القتال صيفاً، إن رغبت. إن أردت الخروج.

قالت ليز: "هل أنت نائم؟".

"كلاً، بل أحلم".

"وصل صابون قشتالة، وكتابك من ألمانيا. كان مغلفاً وكأنّه شيء آخر، حتّى إنني كدت أصرف الصبي".

في يوركشاير، العابقة برائحة الرجال الذين لا يستحمّون، والذين يرتدون جلد الخرفان ويتعرّفون غضباً، كان يحلم بصابون قشتالة.

سألته ليز لاحقاً: "إذاً، من هي السيّدة؟".

أجابها حائراً: "ماذا؟". هل تظنّ أنّه خرج مع امرأة في يوركشاير؟ تمدّد على ظهره وهو يتساءل كيف يقنعه بعكس ذلك. إن اضطرّ، سيأخذها إلى هناك لتري بنفسها.

قالت: "صاحبة حجر الزمرد؟ أنا أسأل لأنّ الناس يقولون إنّ الملك ينوي فعل أمر غريب جدّاً، ولا أصدّق ذلك فعلاً. ولكن هذه هي الشائعة المنتشرة في المدينة".

حقاً؟ لقد انتشرت الشائعة خلال الليلة التي سافر فيها شمالاً.

قالت: "إن حاول ذلك، فسيعارضه نصف سكّان العالم".

فكّر، وكذلك فكّر وولزي، أنّ الإمبراطور وإسبانيا هما اللذان سيعارضان وحسب. الإمبراطور وحده. ابتسم في الظلام، ووضعاً يديه خلف رأسه. لم يسأل من هم الناس الذين سيعارضون، بل انتظر أن تخبره ليز. قالت: "جميع النساء. جميع نساء إنكلترا، وجميع النساء اللواتي لديهن ابنة ولكن ليس لديهنّ ولد، وجميع النساء اللواتي خسرن

طفلاً، وجميع أولئك اللواتي فقدن أيّ أمل بالإنجاب. جميع النساء اللواتي بلغن الأربعين".

وضعت رأسها على كتفه. كانا متعبين جداً للتحدّث، فاستلقيا إلى جانب بعضهما، بين الملاءات الكتّانية الرقيقة، تحت غطاء مضربّ من الساتان الأصفر. كانت رائحة الشمس والأعشاب تفوح من جسديهما. تذكر أنّه يستطيع شتم الناس بالقشتالية. "هل أنت نائم الآن؟". "كلاً، بل أفكّر".

قالت وقد بدت مصدومة: "توماس، إنّها الثالثة وفقاً للساعة". ثمّ أصبحت السادسة. حلم أنّ جميع نساء إنكلترا نائمات في السرير، ويدفعنه لينهض منه. فنهض لقراءة كتابه الألماني، قبل أن تتمكّن ليز من فعل شيء حيال ذلك.

هذا لا يعني أنّها تقول شيئاً، أو تقول فقط حين تُستقرّ: "كتاب الصلاة جيّد لي". وبالفعل، هي تقرأ كتاب الصلاة، تتناوله بشرود في منتصف النهار، من دون أن تتوقّف تماماً عمّا تفعله، وتقطع ابتهالاتها المنخفضة بالتعليمات التي تُعطي الأسرة إياها. كان الكتاب هدية زفاف من زوجها الأوّل، الذي كتب فيه اسمها الجديد، إليزابيث وويليامز. أحياناً، كان يشعر بالغيرة، ويودّ لو يكتب أشياء أخرى، مشاعر مغايرة: كان يعرف زوج ليز الأوّل، ولكنّ هذا لا يعني أنّه أحبّه. كان قد قال لها، ليز، هذا كتاب تيندايل، عهده الجديد موجود في الصندوق المقفل هناك، اقرّأه، إليك المفتاح. أجابته، أنت اقرّأه لي إن كنت ترغب، فأجابها، إنّهُ بالإنكليزية، اقرّأه بنفسك: تلك هي الفكرة منه، يا ليزي. اقرّأه أنت، وستُفاجئين ممّا لن تجديه فيه.

ظنّ أنّ هذا التلميح سيجذبها، ولكن لا يبدو ذلك. لا يمكنه أن يتخيّل نفسه وهو يقرأ لأهل بيته، فهو ليس مثل توماس مور، كاهن فاشل، مبشّر محبّط. قلّما يرى مور، ذاك النجم الساطع في سماء أخرى، الذي يحيّيه بهرّة خفيفة من رأسه، من دون أن يرغب في سؤاله، ما خطبك؟ أو ما خطبي؟ لماذا كلّ ما تعرفه، وكلّ ما تعلّمته، يؤكّد ما كنت تعتقد به سابقاً؟ ولماذا في حالتي أنا، فإنّ كلّ ما نشأت معه، وظننت أنّني أعتقد به، يُقطع قليلاً من هنا وقليلاً من هناك، قطعة تلو الأخرى. ومع كلّ شهر يمضي، تزول بعض حقائق هذا العالم، والعالم الآخر أيضاً. أرني أين ورد في الكتاب المقدّس: "آثار مقدّسة"، و"رهبان"، و"راهبات". أرني أين ورد "البابا".

حوّل تركيزه إلى كتابه الألماني. كان الملك قد ألّف كتاباً ضدّ لوثر بمساعدة

توماس مور، منحه عليه البابا لقب المدافع عن الإيمان. هذا لا يعني أنه يحب الأخ مارتن، فهو والكاردينال متفقان على أنه كان من الأفضل لو أن لوثر لم يولد قطّ أو لو أنه وُلد أكثر ذكاءً. مع ذلك، كان يحب متابعة ما يكتب وما يُهرَّب عبر موانئ القناة وخلجان إيست أنغليان الصغيرة، تلك الخلجان المديّة التي يمكن للقوارب الصغيرة ذات الحمولات المُرِية أن تُدفع فيها إلى الشاطئ ومن ثمّ إلى عرض البحر، في ضوء القمر. كان يُبقي الكاردينال على اطلاع على ما يكتب، وهكذا حين يقتحم مور وأصدقاؤه الكهنة المكان، والشرر يتطاير من أعينهم، احتجاجاً على هرطقة جديدة، يمكن للكاردينال تهدئتهم قائلاً: "أيّها السادة، أنا على علم مسبق بذلك". يمكن لولزي أن يحرق كتباً لا رجالاً. قام بذلك في تشرين الأوّل/أكتوبر الفائت، عند صليب سان بول، وأضرم محرقة للغة الإنكليزية، تحوّلت فيها كمية هائلة من الأوراق والحبر الأسود إلى رماد.

كان الكتاب المقدّس الذي يحتفظ به في الصندوق عبارة عن نسخة مزوّرة من أنتويرب، وهي نسخة يمكن الحصول عليها بسهولة أكبر من الطبعة الإنكليزية الأصلية. كان يعرف ويليام تيندايل. فقبل أن يصبح جوّ لندن حارّاً بالنسبة إليه، أقام ستّة أشهر مع هامفري مونماوث، كبير تجار الأجوّاح في المدينة. كان رجلاً ذا مبادئ، قويّ البنية، يسمّيه توماس مور الوحش. بدا وكأنّه لم يضحك يوماً في حياته. ولكن، علام يضحك المرء حين يكون بعيداً عن وطنه الأمّ؟ كان كتابه المقدّس مؤلّفاً من ورق بحجم قطع الثمن، وهو ورق رخيص ورديء النوعية. وكانت صفحة العنوان، التي ينبغي أن تشتمل على معلومات عن الناسخ وزمان النسخ ومكانه، تحمل الكلمات التالية، "طُبِع في يوطوبيا". كان يتمنّى لو أنّ توماس مور يرى هذا الكتاب. شعر بالرغبة في أن يريه إيّاه لمجرّد مشاهدة ردّ فعله.

أغلق الكتاب الجديد. حان الوقت لبدأ يومه. كان يعرف أنّه لا يملك الوقت لترجمة الكتاب بنفسه إلى اللغة اللاتينية، لذا، يمكن تداوله سرّاً. سيطلب من أحدهم فعل ذلك لأجله، مقابل الحبّ أو المال. فمن الغريب كم يوجد حبّ هذه الأيام بين من يقرأون الألمانية.

بحلول الساعة السابعة، كان قد حلق ذقنه وتناول فطوره وارتدى ملابس جميلة ونظيفة من الكتّان والصوف الداكن الأنيق. أحياناً، كان يشتاقي في هذه الساعة إلى والد ليز، ذاك العجوز الطيّب الذي ينهض دائماً في ساعة مبكرة ويضع يده على رأسه قائلاً، استمتع بيومك توماس، على حسابي.

لقد أحبّ وايكيز العجوز. قصده لأول مرّة في مسألة قانونية. كان حينها في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من عمره، عاد إلى الوطن قبل فترة قصيرة، وكان يبدأ جملة بلغة وينهيها بلغة أخرى. كان وايكيز رجلاً داهية، وكوّن ثروة كبيرة من تجارة الصوف. صحيح أنّ أصله من بوتتي، ولكنّه لم يستخدمه لهذا السبب، بل لأنّه أتى إليه بتوصية، وأتى متواضعاً. في لقائهما الأوّل، قال له وايكيز وهو يطّلع على الأوراق: "أنت ابن والتر، أليس كذلك؟ إذًا، ماذا حدث؟ فوالله، لم أرَ أحداً أكثر خشونة منك عندما كنت غلاماً".

لكان شرح لو عرف أيّ نوع من الشرح يفهمه وايكيز. تركت القتال لأنني، حين عشت في فلورنسا، كنت أشاهد اللوحات الجصّية كلّ يوم؟ فأجاب: "وجدت طريقة أسهل للحياة".

في ما بعد، تعب وايكيز، وأهمّل العمل. كان لا يزال يصدّر أقمشة الجوخ إلى سوق ألمانيا الشمالية، بينما يجدر به، في رأيه، وبسبب قلّة الصوف المحاك بجودة هذه الأيام، أن يبدأ بتجارة قماش الكرزي، الذي يتمّ تصديره من أنتويرب إلى إيطاليا. ولكنّه أصغى إلى شكوى العجوز، وكان مستمعاً جيّداً، وقال: "الأمور تتغيّر. دعني أصطحبك إلى معرض الأقمشة هذه السنة".

كان وايكيز يعرف أنّ عليه الذهاب إلى أنتويرب وبورغين، ولكنّه لا يحبّ السفر. قال للسيدة وايكيز: "سيكون بخير معي، فأنا أعرف عائلة جيّدة يمكننا المكوث عندها".

أجابت: "حسناً، توماس كرومويل، تذكر التالي. ابتعدا عن المشروبات الألمانية الغربية، والنساء، والمبشّرين المحظورين في الأقبية. أنا أعرف ماذا تفعل".
"لا أعرف إن كنت أستطيع الابتعاد عن الأقبية".

"فلنعقد اتّفاقاً. يمكنك اصطحابه إلى عِظة إن لم تأخذه إلى بيت بغاء".
في رأيه، كانت توجد رحمة لدى عائلة يحفظ أفرادها كتابات جون ويكيليف ويقتبسونها، ولطالما عُرف فيها الكتاب المقدّس باللغة الإنكليزية، وخبّنت فيها قصاصات من الكتابات، واحتفظ بالأقوال الممنوعة في الأذهان. تمّ تناقل هذه الأمور مع الأجيال، تماماً مثل العيون والأنوف، مثل اللحم أو الشغف، مثل قوّة الجسد أو الرغبة في المخاطرة. إن كنت ترغب في المخاطرة هذه الأيام، فمن الأفضل اختيار المبشّر على المومس وتجنّب حمّى الضنك، المعروفة في فلورنسا بالحمّى النابوليتانية، وفي نابولي، بلا شكّ، بالعفن الفلورنسي. حسن الإدراك ساعد على

تجنّب المحظورات، في أيّ جزء من أوروبا، بما في ذلك هذه الجزر. فحياتنا محدودة بهذه الطريقة، على عكس حياة أجدادنا.

على متن المركب، راح يصغي إلى الشكاوى المعتادة للركّاب: البحارة النذلاء، الأزقة غير المعرّفة، الاحتكار البريطاني. كان تجار هانز يودون لو أنّ رجالهم هم الذين أحضروا السفن إلى غرايفساند: فقد يكون الألمان عصابة لصوص، ولكنهم يعرفون كيف يقودون مركباً عكس التيار. شعر وايكيز العجوز بالغثيان حين أبحروا. ظلّ على متن المركب وحاول القيام بشيء مفيد. فقال له أحد أفراد الطاقم، لا بدّ من أنّك عملت على متن سفينة في صغرك، أيّها السيّد. حين وصلا إلى أنتويرب، توجّهوا إلى هولي غوست. صرخ الخادم الذي فتح الباب: "إنّه توماس، لقد عاد إلينا". وكأنّه بُعث من بين الأموات. وحين خرج الرجال العجائز الثلاثة، الأخوة الثلاثة الذين تعرّف إليهم على متن المركب، راحوا يقولون: "توماس، يا صديقنا اللقيط المسكين، يا صديقنا الهارب، الصغير، المظلوم. أهلاً بك، ادخل وتدفّأ، فالجوّ بارد!".

إنّه المكان الوحيد الذي لا يزال فيه ذاك الصبيّ الصغير الهارب المضروب. أمطرته زوجاتهم، وبناتهم، وكلابهم بالقبل. ترك وايكيز العجوز قرب المدفأة. من الغريب كيف أنّ لغة العجائز هي لغة عالمية. فسرعان ما بدأوا بتبادل النصائح حول مراهم الأوجاع، واسوا بعضهم بتعاسة مثيرة للشفقة، وتناقشوا في نزوات ومطالب زوجاتهم. قام الشقيق الأصغر بالترجمة، كالعادة، وظلّ وجهه محجماً عن الضحك، حتى حين تصبح التعابير تشريحية.

خرج لتناول الشراب مع الأبناء الثلاثة للأخوة الثلاثة. سأله أحدهم مماًزحاً: "ماذا تريد؟ تجارة العجوز؟ أم زوجته حين يموت؟". أجابه وقد فوجئ هو نفسه: "كلاً، بل أظنّ أنّي أريد ابنته". "أهي شابة؟".

"إنّها أرملة. ولكنّها شابة".

حين عاد إلى لندن، أدرك أنّه يستطيع إدارة الأعمال. مع ذلك، كان لا يزال بحاجة إلى التفكير في الأمور اليومية. فقال لوايكيز: "رأيت مستودعك، ورأيت حساباتك. عزّفني الآن إلى موظّفيك".

ذاك كان السرّ، بالطبع، سرّ كسب الأرباح. الناس دائماً هم السرّ، ولو نظرت إلى وجوههم، يمكنك بالتأكيد أن تعرف ما إذا كانوا صادقين وملائمين لعملهم. طرد رئيس العمّال المريب، قائلاً له، إمّا أن تذهب أو نذهب جميعنا إلى المحكمة، واستبدله

بشباب يتأتى، قيل له إنه أحمق. كان الشاب خجولاً وحسب. أخذ يطلع على عمله كل ليلة، ويشير بهدوء وصمت إلى كل خطأ أو هفوة. وبعد أربعة أسابيع، أصبح الشاب كفوءاً وبارعاً، وأصبح يرافقه كظله. أربعة أسابيع من العمل، وبضعة أيام على الأرصفة، لمراقبة البضاعة، ومع نهاية السنة، استعاد وايكيز أرباحه. مشى وايكيز بتثاقل مبتعداً بعد أن أطلعته على الأرقام. نادى ابنته قائلاً: "ليزي؟ ليزي؟ انزلي".

نزلت.
"تريدين زوجاً جديداً. هل يناسبك هذا الشاب؟".
وقفت ورمقته من رأسه إلى قدميه. "أبي، أنت لم يقع اختيارك عليه لأجل مظهره".
نظرت إليه، ورفعت حاجبيها، ثم سألته: "هل تريد زوجة؟".
قال وايكيز العجوز: "هل أترككما لتناقشا الأمر؟". بدا محتاراً، وكأنه يظن أنّ عليهما الجلوس وكتابة عقد هناك حالاً.

وهذا ما فعلاه تقريباً. كانت ليزي ترغب في إنجاب أطفال، وهو يريد زوجة لديها علاقات في المدينة وبعض المال. تزوجا خلال أسابيع، وولد غريغوري في السنة نفسها. كان قويّ البنية، وكان يبكي. رفعه من مهده بعد ساعة من ولادته وقبّل رأسه قائلاً: "سأكون حنوناً معك كما لم يكن أبي معي. فما الغاية من إنجاب الأطفال إن لم يكن كلّ جيل أفضل من الذي سبقه؟".

هكذا راح يتساءل هذا الصباح، الذي استيقظ فيه باكراً وهو يفكر في ما قالت ليز في الليلة الماضية، لماذا تقلق زوجتي على النساء اللواتي لم ينجبن أولاداً؟ ربّما كان ذلك من عادات النساء، فهنّ يمضين الوقت في تخيل أنفسهن مكان بعضهنّ. فكر في أنّه يمكن للمرء أن يتعلّم من ذلك.

دقّت الساعة الثامنة، فنزلت ليزي، وكان شعرها معصوباً تحت غطاء كتّاني وكماها مرفوعين. قال لها ضاحكاً: "أه، ليز، تبدين وكأنّك زوجة خبّاز".
قالت له: "انتبه إلى كلامك، أيّها الشاب".

أتى رايف قائلاً: "ستذهب أولاً للقاء غبطة الكاردينال؟". فأجابته: "إذاً، إلى أين؟".
جمع الأوراق التي يحتاج إليها، ثمّ ربّت على كتف زوجته، وقبّل كلبته، وخرج من المنزل. كان الصباح ممطراً، ولكنّه مضيء، وقبل أن يبلغا قصر يورك، عرف أنّ صلوات الكاردينال قد استجيبت. إذ سطعت الشمس فوق النهر، شاحبة وباردة.

القسم الثاني

الزيارة 1529

كانوا يفكّون منزل الكاردينال. راح رجال الملك يجردون قصر يورك من مالكة، غرفةً غرفة. كانوا يحزمون أوراق ولفائف الرقّ، والكتب المقدّسة، والمذكّرات الرسمية، ومجلّدات حساباته الخاصّة. حتّى إنّهم أخذوا الحبر والريش، ونزعوا عن الجدران الألواح التي رُسم عليها شعار النبالة العائد إلى الكاردينال.

في يوم من أيّام الأحد، أتى نبيلان إسبانيان حاقدان: دوق نورفولك، بعينيه اللامعتين كعيني صقر، ودوق سوفولك، الذي لم يكن يقلّ عنه حماسة. أخبرا الكاردينال أنّه عُزل من وظيفته كرئيس لمجلس اللوردات، وطلبا تسليمهما ختم إنكلترا العظيم. وضع كرومويل يده على ذراع الكاردينال، وكلمه بسرعة. فالتفت إليهما الكاردينال بوقار قائلاً إنّ من الضروري إحضار طلب خطّي من الملك على ما يبدو، هل كنتما تملكان واحداً؟ آه، هذا إهمال منكما. كان الموقف يحتاج إلى قوّة أعصاب كبيرة للحفاظ على الهدوء، ولكنّ الكاردينال يمتاز بالتجاسر.

بدا الذهول على تشارلز براندون. سأله قائلاً: "تريدنا أن نعود إلى ويندسور؟ من أجل ورقة؟ مع أنّ الوضع بسيط؟".

من صفات سوفولك الاعتقاد أنّ ورقة قانونية هي من الكماليات. همس للكاردينال مجدّداً، فقال الكاردينال: "كلاً، أظنّ أنّه من الأفضل إخبارهما، يا توماس... وعدم إطالة الأمر أكثر ممّا ينبغي... أيّها السيّدان، يقول المحامي إنني لا أستطيع تسليمكما الختم، مع طلب خطّي أو من دونه. ويقول إنّه ينبغي تسليمه إلى رئيس السجلات شخصياً. لذلك، من الأفضل إحضاره معكما".

ثمّ أضاف بمرح: "عليكما أن تكونا مسرورين لأنني أخبرتكما بذلك. وإلاّ، لاحتجتما إلى ثلاث رحلات، أليس كذلك؟".

ابتسم نورفولك قائلاً: "أنا ممتنّ لك، سيّدي".

حين رحلا، استدار وولزي إليه واحتضنه بمرح. فمع أنّ هذا كان آخر انتصاراتهما، وهما كانا يعرفان ذلك، غير أنّه كان لا بدّ من التصرف ببراعة. فالأمر يستحقّ كسب أربع وعشرين ساعة من الوقت حين يكون الملك متقلّب المزاج إلى هذا الحدّ. أضف إلى هذا أنّهما استمتعا بذلك. قال وولزي: "رئيس السجلات. هل تعرف ذلك أم أنّك اخترعته؟".

عاد الدوقان صباح يوم الاثنين. كانا يحملان تعليمات بإخراج ساكني القصر في اليوم نفسه، لأنّ الملك يوّد إرسال فريقه الخاصّ من البنّاءين والمؤثّنين لتجهيز القصر قبل تسليمه إلى الليدي آن، التي احتاجت إلى منزل خاصّ بها في لندن. كان مستعدّاً للوقوف ومجادلتها في الموضوع: هل فاتني شيء ما؟ هذا القصر انتمى إلى أبرشية يورك. متى رُسمت الليدي آن رئيسة أساقفة؟

ولكنّ جيشاً من الرجال تدفق عبر السلاالم وأبعدهما. كما أنّ الدوقين اختفيا عن الساحة، ولم يكن ثمة من يتحدّثان إليه. يا له من مشهد مريع، قال أحدهم: السيّد كرومويل أحبّ قتلًا. والآن أصبح الكاردينال مستعدّاً للرحيل، ولكن إلى أين؟ كان يرتدي فوق ثوبه القرمزي المعتاد عباءة سفر تعود لشخصٍ آخر. فقد صادروا ملابسه كلّها، فاضطرّ إلى اختطاف ما استطاع منها. كانوا في فصل الخريف، ومع أنّه رجل قويّ البنية، إلاّ أنّه شعر بالبرد.

راحوا يقبلون الصناديق ويفرغونها من محتوياتها. بعثروا على الأرض رسائل البابا، ورسائل تلامذة أوروبا: من يوتريتشت، من باريس، من سان ديبغو دي كومبوستيلا، من إيرفورت، من ستراسبورغ، من روما. أخذوا يحزمون كتبه لأخذها إلى مكنتبات الملك. بدت الكتب ثقيلة وغريبة وكأنّها تتنفس، إذ كانت صفحاتها مصنوعة من جلود العجول حديثة الولادة، ومزخرفة بالرسومات الملونة بالأزرق والأخضر.

أخذوا السجّاد المزركش الذي يزيّن الجدران وتركوها عارية. حتّى إنّهم أخذوا الصورة التي تمثّل الملك والملكة. ثمّ أنزلت لوحات الصيد الخاصّة بالكاردينال، مشاهد المتعة الدنيوية: قرويون يسبحون في البرك، إيلان عند الخليج، كلاب صيد تجري، الكلاب الصغيرة مقيدة برسن من الحرير، والكلاب الضخمة بأطواقها المعدنية، الصيادون بأحزمتهم وخناجرهم، والسيدات على الجياد بقبعاتهنّ الأنيقة، البركة المحاطة بالنباتات، الخروف الوديع في المرعى، وقمم الأشجار بأوراقها المائلة إلى الزرقة، لتمتدّ مسافة طويلة من الأشجار المثمرة، إلى مشهد من الجروف البيضاء وسما البحر الصافي.

نظر الكاردينال إلى الرجال وهم يقومون بعملهم. فقال: "هل لدينا شراب لزوّارنا؟". في الغرفتين الكبيرتين الملحقتين بالبهو، وضعوا الطاولات المنصيبة. كانت كلّ منها بطول عشرين قدماً (6 أمتار)، وكانوا يحضرون المزيد. في غرفة الذهب، أخرجوا جميع أطباق الكاردينال الذهبية، ومجوهراته، وأحجاره الكريمة، وكانوا يتحصّون الجردات ويقدّرون وزن الطبق. في قاعة مجلس الشورى، راحوا يجمعون

الأدوات الفضية والذهبية. وبما أن كل شيء كان مسجلاً في لوائح، حتى آخر مقلاة قديمة في المطبخ، فقد وضعوا سلالاً تحت الطاولات لرمي كل ما لا يثير اهتمام الملك. راح السير ويليام غاسكوني، أمين صندوق الكاردينال، يتنقل باستمرار بين الغرف مشغولاً، وهو يتحدث، ويلفت انتباه المفوضين إلى أي زاوية أو خزانة أو صندوق قد يفوتهم.

أخذ يتنقل خلفه جورج كافنديش، حاجب الكاردينال. كان وجهه متجهماً ومرعوباً. فقد أخرجوا ملابس الكاردينال وأثوابه. كانت قاسية بزینتها من تطريز ولؤلؤ وأحجار كريمة، وبدت وكأنها تقف بمفردها. راح المغيرون يجمعونها من دون أي اعتبار. فبعد أن يسجلوا الثوب، يُركعونه على ركبتيه ثم يكسرون عموده الفقري، ويحشرونه في صناديق السفر. أجفل المنظر كافنديش، فقال لهم: "بالله عليكم، أيها السادة، ضعوا في هذه الصناديق طبقتين من القماش الكمبريكي. هل تريدون إتلاف عمل دقيق استغرق الراهبات عمراً كاملاً؟". ثم التفت وقال: "سيد كرومويل، هل تظن أننا نستطيع إخراج هؤلاء الرجال قبل حلول الظلام؟".

"فقط إن ساعدناهم. إن كان الأمر محتوماً، فلنحرص على تنفيذه بالشكل الصحيح".

كان مشهداً غير لائق: الرجل الذي حكم إنكلترا، يُجرّد من رتبته. كانوا قد أحضروا الأثواب المصنوعة من النسيج الهولندي الثمين، والمخمل، والغروسجران، والسرسنيت، والتافتا، والأثواب القرمزية إلى الباحة: الحرير القرمزي الذي يرتديه في حرّ صيف لندن، وأثواب البروكاد القرمزية المقصّبة التي تدفئ جسده حين يتساقط الثلج على ويستمينستر، ويدور بخفة في دوّامات شبه متجمّدة فوق التايمز. كان الكاردينال يرتدي اللون الأحمر حين يخرج إلى الأماكن العامّة، اللون الأحمر وحسب. تتفاوت تموجاته ودرجات الصباغ، ولكنها جميعاً من أجود الأنواع، أجود ألوان الأحمر التي يمكن الحصول عليها بالمال. كان الكاردينال يخرج أحياناً مختالاً ويقول: "والآن، سيد كرومويل، بكم تقدّر ثمني؟".

فيجيبه: "دعني أرى". ويمشي بتمهّل حول الكاردينال، ثم يقول: "هل تسمح لي؟". ويلمس كمّه بين أصابعه الخبيرة، ثم يتراجع لينظر إليه، ويقدر محيط خصره - كان الكاردينال يزداد وزناً عاماً بعد عام - ثم يعطيه رقماً. فيصقّ الكاردينال مسروراً ويقول: "ليمت الحساد غيظاً! هيّا، هيّا، هيّا". فيتشكّل موكبه، وحرّاسه الحاملون فؤوساً من الذهب: فالكاردينال لم يكن يذهب إلى أيّ مكان عامّ من دون موكب.

هكذا، ويومياً، كان يخمّن ثمن سيّده بناء على طلبه، ولبعث السرور في نفسه. والآن، أرسل الملك جيشاً من الكتّبة لفعل ذلك. ولكنّه كان يودّ لو يستطيع أخذ أرقامهم بالقوّة والكتابة على جرداتهم: توماس وولزي لا يُقدّر بثمن.

قال الكاردينال وهو يربّت على كتفه: "والآن، توماس، كلّ ما أملكه هو من الملك. الملك أعطاني إيّاه، وإن كان يسرّه أخذ قصر يورك بكامل أثاثه، فأنا واثق أننا نملك منازل أخرى، لدينا سقوف أخرى نحتمي تحتها. فنحن لسنا في بوتتي، كما تعلم". ثمّ ضغط على ذراعه وأضاف: "لذا، أنا أمنعك من ضرب أحد". وتظاهر بأنّه يضغط ذراعيه على جانبيه، مبتسماً. كانت أصابع الكاردينال ترتجف.

أتى أمين الصندوق غاسكوني وقال: "سمعت أنّ غبطتكم ستذهبون مباشرةً إلى البرج".

قال: "حقّاً؟ أين سمعت ذلك؟".

قال الكاردينال وهو يشدّد على الاسم: "سير ويليام غاسكوني، ماذا فعلتُ برأيك كي يرسلني الملك إلى البرج؟".

قال لغاسكوني: "من شيمك أن تنشر كلّ قصّة تسمعها. أهذا كلّ ما بمقدورك تقديمه، أن تدخل إلى هنا لنقل الشائعات البغيضة؟ لا أحد سيذهب إلى البرج. نحن ذاهبان..."، انتظر أهل البيت حابسين أنفاسهم، بينما ارتجل قائلاً: "... إلى إيشر. ومهمّتك..."، لم يقاوم دفع غاسكوني قليلاً في صدره، "هي مراقبة هؤلاء الغرباء والتأكّد من أنّ كلّ ما يخرج من هنا يذهب إلى المكان الذي ينبغي له أن يوضع فيه، وألاً يضيع شيء في الطريق، وإلاً ستجد نفسك تطرق على أبواب البرج وتتوسّل إليهم لإدخالك هرباً منّي".

سُمت أصوات مختلفة، صادرة بمعظمها من خلف الغرفة، وكأنّها أصوات ابتهاج مكتوم. من الصعب عدم الإحساس أنّهم في مسرحية، والكاردينال إحدى شخصياتها: الكاردينال ومساعدوه. وأنّها تراجيديا.

نظر إليه كافنديش بقلق، وهو ينضح عرقاً. "ولكن سيّد كرومويل، منزل إيشر خالٍ. ليس فيه أواني مطبخ، أين سينام الكاردينال، أشكّ في وجود سرير مهوّى، ليس فيه بياضات ولا حطب ولا... وكيف سنصل إلى هناك؟".

قال الكاردينال لغاسكوني: "سير ويليام، اعذر السيّد كرومويل ولكن خذ كلامه بجديّة. بما أنّ كلّ ما أملكه هو من الملك، ينبغي أن يرجع إليه كلّ شيء". التفت بعيداً، وكانت شفّته ترتعشان. باستثناء ذلك الوقت الذي أثار فيه غيظ الدوقين

البارحة، لم يبتسم منذ شهر. قال: "توم، أمضيت سنوات وأنا أعلمك ألا تتحدّث على هذا النحو".

قال كافنديش له: "لم يحجزوا مركب سيّدي الكاردينال ولا خيوله".
وضع يده على كتف كافنديش قائلاً: "حقاً؟ سنبحر في النهر، إلى حيث يأخذنا المركب. يمكن للخيول ملاقاتنا في - في بوتتي، في الواقع - ثم... سنقترض ما نحتاج إليه. هيّا، جورج كافنديش، تصرف بشيء من البراعة. لقد قمنا في السنوات الأخيرة بأشياء أكثر صعوبة من أخذ سگان هذا المنزل إلى إيشر".
حقاً؟ لم يسبق له أن انتبه كثيراً إلى كافنديش من قبل؛ كان رجلاً حسّاساً يكثر من الحديث عن أغطية الطاولات. ولكنّه يريد بثّ روح عسكرية فيه، وأفضل طريقة لذلك هي الإيحاء إليه أنّهما كانا رفيقَي سلاح.

قال كافنديش: "نعم، نعم، سنأمر بإعداد المركب".
قال: "جيد"، وقال الكاردينال: "بوتتي؟". وحاول أن يضحك. قال: "في الواقع يا توماس، أنت قلت لغاسكوني ذلك، أنت فعلت. ثمّة شيء في ذاك الرجل لم أحبه أبداً. فسأله: "ولماذا أبقيته؟". أجاب الكاردينال: "أه، في الواقع، هذا يحدث". ثمّ قال الكاردينال مجدداً: "بوتتي إذا؟".

قال: "أياً يكن ما نواجهه في نهاية الرحلة، لا ينبغي لنا أن ننسى كيف قام غبطتكم قبل تسع سنوات بإنشاء مدينة ذهبية في حقول رطبة بائسة في بيكاردى، من أجل اجتماع ملكين. ومنذ ذلك الحين، ازداد غبطتكم حكمة، وعظم شأنكم في عيني الملك".

كان يتحدّث ليُسمع الجميع، وفكّر في أنّ تلك المناسبة كانت مناسبة سلام وطني، أمّا هذه المناسبة، فلا يعلم ماهيّتها. إنّهُ اليوم الأوّل من حملة قد تكون طويلة أو قصيرة، ومن الأفضل لنا التقدّم آملين أن تصمد صفوفنا. "أظنّ أنّنا سنتمكّن من إيجاد مكاو وأوانٍ للحساء وكل ما يظنّ جورج كافنديش أنّنا لا نستطيع البقاء من دونه. أتذكّر حين مؤّن غبطتكم جيوش الملك العظيمة التي ذهبت للقتال في فرنسا".

قال الكاردينال: "نعم، وجميعنا نعرف ما كان رأيك بحملاتنا، توماس".
سأل كافنديش: "ماذا؟". وأجاب الكاردينال: "جورج، ألا تذكر ما قاله مساعدى كرومويل في مجلس العموم، قبل خمس سنوات تقريباً، حين احتجنا إلى إعانة مالية من أجل الحرب الجديدة؟".
"ولكنّه تحدّث ضدّ غبطتكم!".

قال غاسكوني، الذي تمسك بعناده بهذا الموضوع: "أنت لم تخدم نفسك إطلاقاً هناك، سيدي، وأنت تتحدّث ضدّ الملك وضدّ سيدي الكاردينال، لأنني أذكر خطابك، وأؤكد لك أنّ كثيرين يذكرونه. لم تكسب أيّ تأييد هناك، كرومويل".
هزّ كتفيه، مجيباً: "لم أكن أسعى إلى كسب التأييد. لسنا جميعنا مثلك، يا غاسكوني. لقد أردت إعطاء مجلس العموم بعض الدروس من المرّة السابقة، وتذكيرهم بما حدث".
"قلت إنّنا سنخسر".

"قلت إنّنا سنفلس. ولكن أؤكد لك أنّ جميع حروبنا كانت ستنتهي على نحو أسوأ لو لم يموّنها سيدي الكاردينال".
قال غاسكوني: "عام 1523...".
قال الكاردينال: "هل سنتشاجر مجدداً الآن؟".

"... خمسون ميلاً فقط كانت تفصل دوق سوفولك عن باريس".
قال: "أجل، وهل تعرف ما تعني خمسون ميلاً لعنصر في المشاة يتضوّر جوعاً في الشتاء، ينام على الأرض الرطبة، ويستيقظ في البرد القارس؟ هل تعرف ما تعني خمسون ميلاً لقطار أمتعة، عجلاته مطمورة في الوحل؟ أمّا بالنسبة إلى أمجاد 1513، فلينجنا الله".

صرخ غاسكوني: "تورنيه! تيروان! ألا ترى ما حدث؟ تمّ الاستيلاء على بلديتين فرنسيّتين! لقد استبسل الملك في ساحة المعركة!".
فكّر في أنّهم لو كانوا في ساحة المعركة الآن، لبصق على قدميه. "إن كنت تحبّ الملك إلى هذا الحدّ، اذهب واعمل لديه. أم أنّك تعمل لديه أساساً؟".
قحّ الكاردينال بلطف. قال كافنديش: "جميعنا نعمل لديه". وقال الكاردينال: "توماس، نحن أدوات بين يديه".

حين خرجوا واستقلّوا مركب الكاردينال، كانت أعلامه ترفرف. قال كافنديش، وهو محمق العينين: "انظروا إلى جميع هذه القوارب الصغيرة، التي تعلق وتنخفض".
للحظة، ظنّ الكاردينال أنّ أهالي لندن أتوا لتوديعه. ولكن حين صعد على متن المركب، تعالت أصواتهم من الزوارق بصياح الاستهجان والاستهزاء. غصّت الضفّة بالحشود، ومع أنّ رجال الكاردينال صدّوهم، إلّا أنّ نيّتهم كانت واضحة. بدأ المركب يتحرّك شمال النهر وليس جنوبه، نحو البرج، فارتفعت أصوات الاحتجاج والتهديد.
عندها فقط، انهار الكاردينال. جلس على مقعده، وبدأ يتحدّث، ويتحدّث، ويتحدّث

طيلة الطريق إلى بوتني. "هل يكرهونني إلى هذا الحد؟ ماذا فعلت باستثناء جعل تجارتهم تزدهر وإظهار حسن نيتي لهم؟ هل زرعت الحقد؟ كلاً. لم ألاحق أحداً. جلبت الأدوية كل عام، حين كان القمح قليلاً. وعندما تمرّدوا، توسّلت الملك راکعاً على ركبتني، والدموع في عيني، ليعفو عنهم، بينما وقفوا وأعناقهم مطوّقة بالحبال التي كانوا سيُشنقون بها".

قال كافنديش: "العامّة تسعى دائماً إلى التغيير. لا يرون رجلاً عظيماً إلا ويرغبون بشدّه إلى الأسفل، لمجرّد التغيير".

"قاضي قضاة لخمسة عشر عاماً. عشرون عاماً في خدمته، وفي خدمة أبيه من قبله. لم أوفّر جهداً يوماً... أستيقظ في الصباح الباكر، وأبقى ساهراً على راحته...".

قال كافنديش: "هكذا هي خدمة الأمراء! عليك أن تحذر من تقلّبات مزاجهم".
قال: "الأمراء ليسوا ملزّمين بالثبات على مبدأ معيّن". فكّر، قد أنسى نفسي، وأدفعك عن متن المركب.

لم ينسَ الكاردينال نفسه، بل على العكس. راح يفكّر في بداية وصول الملك الشاب إلى العرش، قبل عشرين عاماً. "قال البعض يوماً، دعه يعمل. ولكنني قلت، كلاً، إنّه شابّ. فليتسلّ بالصيد، والمبارزة، وتطبير صقوره ونسوره...".

قال كافنديش: "وعزف الموسيقى. كان دائم الانشغال بشيء أو بآخر. والغناء".
"جعلته يبدو وكأنّه نيرون".

قال كافنديش مجفلاً: "نيرون؟ لم أقلّ هذا أبداً".

قال الكاردينال: "كان ألطف الأمراء في العالم المسيحي وأكثرهم حكمة. لم أسمع كلمة ضدّه من أيّ كان".
قال: "ولن تسمع".

"ولكن، ما الذي كنت سأفعله له! أعبر القناة وكأنتني أخطو فوق ماء آسن في الشارع". هزّ الكاردينال رأسه مضيئاً: "أنهض وأنام، على ظهر الفرس أو على مسبحتي... عشرين عاماً...".

سأل كافنديش بجديّة: "هل للأمر علاقة بالإنكليز؟". كان يفكّر في الصخب الذي رافق رحيلهم. ولا يزال الناس هناك حتّى الآن يسيرون على الضفّة ويقومون بإشارات مهينة وهم يصفرون. "أخبرنا، سيّد كرومويل، فقد كنت في الخارج. هل هم شعب ناكر للجميل؟ يبدو لي أنّهم يحبّون التغيير لمجرّد التغيير وحسب".

"لا أظنّ أنّ للأمر علاقة بالإنكليز، بل بالناس عموماً. فهم يأملون دائماً الحصول

على شيء أفضل".

أصرّ كافنديش قائلاً: "ولكن ماذا ينالون من التغيير؟ يستبدلون كلباً متخماً بكلب جائع ينهشهم حتى العظم. يخلعون رجلاً مشبعاً بالشرف، ليضعوا مكانه رجلاً جائعاً وخاوياً".

أغمض عينيه. تمايل المركب فوق مياه النهر. راح كافنديش، المتكى إلى يمينه وكأنه مستشار فاضل، يتمتم بكلمات نصح فات أوانها، ويخفض رأسه بأسف. كان جالساً إلى اليسار، وكانت يد الكاردينال الضخمة، بأصابعها المزينة بالعقيق الأحمر والثرمالين، تقبض على يده بألم. كان يودّ حقاً إلقاء جورج في النهر، لولا أنّ ما يقوله، على الرغم من تفاهته، يولد شعوراً غريباً. فكّر، ولماذا؟ ستيفن غاردينر. قد لا يكون من اللائق وصف الكاردينال بالكلب المتخم السمين، ولكنّ ستيفن هو بالتأكيد رجل جائع وهزيل، وقد قام الملك بترقيته وجعله أمين سرّه الخاصّ. ليس من الغريب بالنسبة إلى مساعدي الكاردينال أن يحصلوا على ترقية من هذا النوع، بعد أن يكونوا قد تتلمذوا في مدرسة وولزي، ولكنّ هذا يجعل من ستيفن، إن قام بواجباته على أكمل وجه، أقرب الناس إلى الملك، باستثناء، ربّما، السيّد الذي يناوله منديلاً في بيت الخلاء. وفكّر أنّه لن يمانع كثيراً لو حصل ستيفن على تلك الوظيفة.

أغمض الكاردينال عينيه. راحت الدموع تسيل من تحت جفنيه. قال كافنديش: "في الحقيقة، إنّ القدر ليس ثابتاً، بل هو متقلب ومتحوّل...".

كلّ ما عليه فعله هو القيام بحركة خنق سريعة، بينما تكون عينا الكاردينال مغمضتين. وضع كافنديش يده حول عنقه، وكأنّه فهم ما يدور في خده. ثمّ نظرا إلى بعضهما بعضاً، بارتباك. قال أحدهما الكثير، والآخر شعر بالكثير. ليس من السهل معرفة نقطة التوازن. أمعن النظر في ضفاف التايمز بينما ظلّ الكاردينال يبكي وهو قابض على يده.

مع تقدّم المركب شمال النهر، كان الصخب يهدأ على اليابسة. ليس لأنّ الإنكليز في بوتني هم أقلّ تقلّباً، ولكنّ الأنباء لم تصلهم بعد.

كانت الجياد بانتظارهم. لطالما اعتلى الكاردينال، بصفته رجل دين، بغلاً قوياً وكبيراً. مع أنّه، منذ أن بدأ يرافق الملوك إلى الصيد لمدة عشرين عاماً، أصبح إسطبله مثار حسد كلّ النبلاء. كانت الدابة واقفة، تهزّ أذنيها الطويلتين، وكانت مزينة بسرجهما القرمزي المعتاد. وقف قربها السيّد سيكستون، مهرج الكاردينال. سأل توماس كافنديش: "ماذا يفعل هنا بحقّ الله؟".

تقدّم سيكستون وهمس بشيء في أذن الكاردينال، فضحك هذا الأخير قائلاً:
"حسناً، باتش. والآن ساعدني لأعتليه، أيها الرجل الطيب".

ولكنّ باتش، أي السيّد سكستون، لم يكن أهلاً لهذه المهمة. فقد بدا الكاردينال ضعيفاً، وكأنّه شعر بثقل جسده البدين. نزل كرومويل عن صهوة جواده، ثمّ أشار إلى ثلاثة من الخدم الأقوياء، وقال: "سيّد باتش، أمسك رأس كريستوفر". وحين ادّعى باتش أنّه لا يعرف أنّ كريستوفر هو اسم البغل، وطوّق رأس الرجل الواقف قريبه، قال، بالله عليك، سيكستون، ابتعد من الطريق، وإلاّ وضعتك في كيس ورميتك في النهر.

أحسّ الرجل وكأنّ رأسه يُقتلع من مكانه، وراح يفرك عنقه. شكر السيّد كرومويل، ثمّ تقدّم ليمسك اللجام. أمّا كرومويل، فاستعان برجلين آخرين لرفع الكاردينال إلى ظهر البغل. شعر الكاردينال بالخجل. "شكراً لك، يا توم". ضحك مضطرباً وأضاف:
"هذا ما قلته، باتش".

كانوا مستعدّين لبدء رحلتهم. نظر كافنديش إلى الأعلى وقال: "ليحمنا الله!". كان ثمّة خيال يتوجّه نحوهم مسرعاً من أعلى التلّة. "اعتقال!".
"برجل واحد؟".

قال كافنديش: "إنّه مرافق". فقال هو، بوتني وعرة، ولكن لا حاجة إلى إرسال كشّافين. ثمّ صرخ أحدهم: "إنّه هاري نوريس". قفز هاري عن صهوة جواده. أيّاً يكن ما أتى من أجله، فهو قلق وفي عجلة من أمره. هاري نوريس واحد من أصدقاء الملك المقربّين، وهو تحديداً وصيف بيت الخلاء، أي السيّد الذي يناول المنديل. أدرك وولزي على الفور أنّ الملك لم يرسل نوريس لاعتقاله. "والآن، سير هنري، التقط أنفاسك، ثمّ أخبرنا عن سبب مجيئك واستعجالك".

قال نوريس، أستمحيك عذراً سيّدي، سيّدي الكاردينال، ثمّ نزع قبعته المزيّنة بالريش، ومسح وجهه بذراعه، وابتسم بكلّ تهذيب. تحدّث إلى الكاردينال باحترام: أمره الملك باللحاق بغبطته، ومواساته، وإعطائه الخاتم الذي عرفه جيّداً ما إن فتح راحة يده المكسوّة بالققاز.

نزل الكاردينال عن دابّته وسقط على الأرض. أخذ الخاتم وضغطه على شفّتيه. راح يدعو ويشكر نوريس، ويدعو لمولاه. "لا أملك شيئاً أرسله إليه. لا أملك شيئاً ذا قيمة أرسله إلى الملك". نظر حوله، وكانّ عينيه ستقعان على شيء يمكن إرساله؛ شجرة؟ حاول نوريس أن يوقفه على قدميه، فأنتهى به الأمر بالركوع قريبه، هذا الرجل

النظيف والساحر راعع في وحل بوتتي. كانت الرسالة التي ينقلها إلى الكاردينال تفيد على ما يبدو أنّ الملك يدّعي الاستياء، ولكنه ليس كذلك بالفعل، وأنّه يعرف أنّ للكاردينال أعداء، وأنّه هو نفسه، هنريكوس ريكس، ليس واحداً منهم، وأنّ هذا الإظهار للقوة كان لمجرد إرضاء أولئك الأعداء، وأنّه قادر على مكافأة الكاردينال بضعف ما أخذ منه.

بدأ الكاردينال بيكي. أخذ المطر ينهمر، والرياح تتفخ ماء المطر على وجوههم. تحدّث الكاردينال إلى نوريس بسرعة، بصوت منخفض، ثمّ نزع سلسلة من حول عنقه وحاول أن يضعها حول عنق نوريس، فتشابكت برباط معطفه واندفع أشخاص عدّة للمساعدة ولكنهم فشلوا. فنهض نوريس وبدأ ينفذ ملابسه بيد ويمسك السلسلة باليد الأخرى. رجاه الكاردينال قائلاً: "ضعها، وحين تنظر إليها، فكّر فيّ، وأوص الملك بي".

صُدم كافنديش، وقال: "مذخّره! يعطيه إيّاها هكذا! إنها قطعة أصلية!" جورج مضطرب ومشدوه.

"سنحصل له على واحدة أخرى. أعرف رجلاً في بيزا يصنع عشرًا منها مقابل خمس فلورينات. كما تحصل على شهادة تحمل بصمة سان بيتر، للتأكيد على أنّها حقيقية".

قال كافنديش وهو يبتعد بجواده: "يا للعار!".
بدأ نوريس الآن يتراجع هو أيضاً، بعد أن سلّم رسالته، وأخذوا يحاولون مساعدة الكاردينال على اعتلاء دابّته. هذه المرّة تقدّم أربعة رجال أقوياء، وكأنّه روتين معتاد. تحوّلت المسرحية إلى مشهد كوميدي، وفكّر أنّ باتش موجود هنا لهذا السبب. اعتلى صهوة جواده، وقال، وهو ينظر إلى نوريس: "نوريس، هل يمكننا كتابة كلّ ذلك؟".
ابتسم نوريس قائلاً: "هذا صعب، سيّد كرومويل. كانت رسالة خاصّة موجّهة إلى سيّدي الكاردينال وحده".

"وماذا عن تلك المكافأة التي ذكرتها؟".
ضحك نوريس، كما يفعل دائماً لتخفيف العدائية، وهمس: "أظنّ أنّها قد تكون مجازية".

"وأنا أظنّ ذلك". ضعف أملاك الكاردينال؟ هذا يفوق دخل هنري. "أعطنا ما أخذنا، نحن لا نطلب الضعف".

وضع نوريس يده على السلسلة المعلّقة حول عنقه. "ولكن كلّ شيء أتى من

الملك، لا يمكنك اعتباره سرقة".

"أنا لم أعتبره سرقة".

هزّ نوريس رأسه مفكراً وقال: "ولم تقل عكس ذلك".

"ما كان يجدر بهم أخذ الملابس. فهي تنتمي إلى الكاردينال كرجل دين. ماذا سيأخذون أيضاً؟ رتبته الكنسية؟".

"إيشر؛ وهو المكان الذي تقصدونه، أليس كذلك؟؛ هو بالطبع واحد من المنازل التي يملكها سيدي الكاردينال كأسقف وينشستر".
"إذا؟".

"يبقى لفترة من الوقت في ذلك المنزل، ويحافظ على لقبه، ولكن... هل علينا القول... ينبغي أن يدخل ذلك في اعتبارات الملك؟ أنت تعلم أن سيدي الكاردينال متهم أنه يؤكّد سلطة قضائية غريبة في البلاد".
"لا تعلمني القانون".

طأطأ نوريس رأسه.

فكّر في أنه كان يجدر به منذ أن بدأت الأمور تسوء في الربيع الماضي، إقناع الكاردينال بنقل جزء من أمواله إلى الخارج، بحيث يستطيعان الحصول عليها عند الحاجة. ولكنه لم يكن ليقرّ في ذلك الوقت بوجود أيّ خطب. لماذا تركته يعيش مرتاح البال؟

وضع نوريس يده على لجام جواده. قال: "لطالما أعجبت بسيّدك، وأتمنى أن يتذكّر ذلك في شدّته".

"ظننت أنه ليس في شدّة، استناداً إلى ما قلته".

كم كان من البسيط، لو أنه يُسمح له، أن يمدّ يده، ويستخرج بعض الإجابات من نوريس. ولكن الأمر ليس بتلك البساطة، هذا ما تعاون الكاردينال والعالم على تعليمه إيّاه. قال في نفسه، كان يجدر بي أن أعلم في هذه السنّ. فلا يكفي أن تكون مميّزاً، ولا يكفي أن تكون لامعاً، أو تكون قوياً. عليك أن تكون محتالاً. وفكّر أنّ نوريس هكذا، نوعاً ما، وشعر بشيء من الكره غير العقلاني يتولّد في داخله. حاول إبعاده، لأنّه يفضّل أن يكون كرهه عقلانياً، ولكنه يمرّ بظروف قاسية، الكاردينال الراكع في الوحل، الصراع المذلّ لإعادته إلى ظهر الدابّة، الكلام، الكلام في المركب، والأسوأ، الكلام، الكلام على ركبتيه، وكأنّ وولزي ينحلّ، في خيط من النسيج القرمزي الذي قد يعيدك إلى متاهة قرمزية، في قلبها وحش مُحْتَضِر.

قال نوريس: "سيد كرومويل؟".
بالكاد كان قادراً على البوح بما يدور في خلدته. فنظر إلى نوريس، ولانت تعابيره،
ثم قال: "شكراً على هذا القدر من المواساة".

"حسناً، خذ سيدي الكاردينال بعيداً عن المطر. سأخبر الملك كيف وجدته".
"أخبره كيف ركعنا معاً في الوحل. قد يستمتع بذلك".

بدا نوريس كئيباً وهو يجيب: "أجل، لا تعرف أبداً ما قد يمتعه".
في تلك اللحظة، بدأ باتش يصرخ. يبدو أن الكاردينال، خلال بحثه عن هدية، قد
أعطى الملك إياه. فغالباً ما كان يقول، باتش يساوي ألف باوند. عليه الذهاب الآن
مع نوريس، فما من وقت أفضل، واحتاج ذلك إلى أربعة من رجال الكاردينال
لإخضاعه. قاومهم وراح يعض ويضرب بيديه وقدميه. أخيراً، ألقي على ظهر بغل
للأمتعة، وقيد عليه. ثم بدأ يبكي، ويحوزق، فتهتّر أضلاعه وقدماه المتدلّيتان. كان
معطفه قد تمزّق وكُسرت الريشة التي تزيّن قبّعته.

قال الكاردينال: "ولكن باتش، يا صديقي العزيز. ستراني كثيراً، حين نتفاهم مجدداً
أنا والملك. عزيزي باتش، سأرسل إليك رسالة، رسالة خاصة بك. سأكتبها الليلة،
وأضع عليها ختمي الكبير. سيحبك الملك، فهو من أطف الناس في العالم
المسيحي".

راح باتش ينتحب وكأنه اعتقل من قبل العثمانيين الذين سيعذبونه على الخازوق.
قال لكافنديش إنه أحمق فعلاً. فما كان يجدر به أن يلفت إليه الأنظار.

إيشر: ترجل الكاردينال في ظلّ قلعة أسقف واينفليت القديمة، التي تعلوها أبراج
مثمّنة الأضلاع. كانت بوابتها موجودة في سور منيع يعلوه ممرّ ضيق. بدت القلعة
كئيبه للوهلة الأولى، ولكنها كانت مبنية من الآجر، ومزخرفة على نحو جميل. قال:
"لا يمكنك تحصينها". التزم كافنديش الصمت. جورج، يفترض بك القول، ولكن لن
تكون هناك حاجة إلى ذلك أبداً".

لم يستخدم الكاردينال المكان منذ أن بنى قصر هامبتون. بعثوا رسائل مسبقاً، ولكن
لا يبدو أن شيئاً قد حدث. قال، خذوا سيدي الكاردينال ليرتاح، ثم توجه مباشرة إلى
المطبخ. في قصر هامبتون، كان المطبخ يحتوي على مياه جارّية. أمّا هنا، فما من
شيء جار سوى أنوف الطهارة. كافنديش على حق. المكان هو في الواقع أسوأ ممّا
كان يظن. كانت خزائن اللحوم فارغة، وسوء الإدارة واضحاً. رأى سوساً في الدقيق،
وروث فئران في المكان الذي يُعجن فيه الطحين. كانوا تقريباً في أواسط تشرين

الثاني/نوفمبر، ولم يفكروا حتى في تمليح لحم العجل. كما كانت قدر مرق اللحم متعفنة. وجد عدداً من الصبية جالسين قرب الموقد، وكان من الممكن دفعهم للعمل والتنظيف ببعض المال. فالأولاد يحبون كل جديد، ويبدو أن فكرة التنظيف جديدة بالنسبة إليهم.

قال، سيدي الكاردينال يريد أن يأكل ويشرب على الفور، وسيحتاج إلى تناول الطعام والشراب... لا نعرف إلى متى. هذا المطبخ بحاجة إلى ترتيب من أجل الشتاء. وجد شخصاً يستطيع الكتابة، فأملى عليه أوامره. ثبتت عينيه على طاولة المطبخ. أخذ يعدد الأغراض الموجودة إلى يساره: افعل كذا، ثم كذا، ثم كذا. بيده اليمنى، راح يكسر بيضاً في قدر. كسر كلاً منها بنقرة محترف، وسال البياض بين أصابعه، لزجاً وبطيئاً. "كم عمر هذه البيضة؟ غير الممّون. أريد جوزة طيب. جوز الطيب؟ زعفران؟" انظروا إليه وكأنه يتكلم اليونانية. كان صراخ باتش لا يزال يرنّ في أذنيه. بعد ذلك، عاد إلى البهو.

كان الوقت قد تأخر قبل أن يضعوا الكاردينال في سرير لائق. أين هو المشرف على الأسرة؟ أين هو مراقب النفقات؟ في تلك اللحظة، شعر بالفعل أنه وكافنديش مقاتلين قديمين في حملة. ظلّ مستيقظين - لم يكن ثمّة أسرة أساساً حتى لو رغبا في النوم - يعملان على تأمين راحة معقولة للكاردينال. كانوا بحاجة إلى طبق، ما لم يكن الكاردينال سيأكل من آنية معدنية مهترئة، وكانوا بحاجة إلى ملاءات للسرير، وأغطية للطاولة، وحطب. قال: "سأرسل بعض الأشخاص لترتيب المطبخ. سيكونون إيطاليين. ستكون الأمور عنيفة في البداية، ولكن بعد ثلاثة أسابيع سيصبح كل شيء على ما يرام".

ثلاثة أسابيع؟ يريد أن يطلب من أولئك الأولاد تنظيف الأواني النحاسية. سأل: "هل يمكننا الحصول على ليمون حامض؟". وفي الوقت نفسه قال كافنديش: "إذاً، من سيكون قاضي القضاة الآن؟".

فكّر في نفسه: أتساءل، ما إذا كان ثمّة فنران هناك. وقال كافنديش: "هل سيعيد تعيين أسقف كانتربروري؟".

إعادة تعيينه، بعد خمسة عشر عاماً من إبعاد الكاردينال له؟ "كلاً، وارهام مسنّ جداً". وعنيد جداً، ومتصلّب جداً إزاء رغبات الملك. "وليس دوق سوفولك" - لأنّ تشارلز براندون برأيه ليس أكثر ذكاءً من البغل كريستوفر، مع أنّه أفضل في مجال القتال والأزياء والتباهي - "ليس سوفولك، لأنّ دوق نورفولك لن يقبل به".

هزّ كافنديش رأسه قائلاً: "والعكس بالعكس. أسقف تونستال؟".
"كلاً. بل توماس مور".

"ولكن، شخص عادي ومن العامّة؟ ومعارض جدّاً لزواج الملك؟".
هزّ رأسه، أجل، أجل، أجل سيكون مور. فالملك معروف بإصغائه إلى صوت ضميره. ربّما يأمل أن ينقذه من نفسه.
"إن عرض الملك ذلك - وأرى أنّه قد يفعل - فمن المؤكد لن يقبل توماس مور؟".
"بل سيفعل".

قال كافنديش: "أتراهن على ذلك؟".

اتفقا على الشروط وتصافحا. وهذا ما صرف تفكيرهما عن المشكلة الملحة المتمثلة بالفئران، والبرد، وبكيفية نقل خدم منزل يبلغ عددهم مئات عدّة، ظلّوا في ويستمينستر، إلى هذا المكان الأصغر بكثير. إذ يبلغ عدد موظفي الكاردينال، العاملين في منزله الرئيسية، بدءاً من الكهنة والكتبة وحتى الخدم الذين يكنسون الأرض ويغسلون الملابس، نحو ستمئة نسمة. وكانوا يتوقّعون أن يلحق بهم ثلاثمئة منهم على الفور. قال كافنديش: "في ظلّ هذه الظروف، سيتعيّن علينا خفض عدد الموظفين، ولكننا لا نملك ما لاً جاهزاً لدفع الرواتب".

قال: "اللجنة عليّ إن ذهبوا من دون أن يقبضوا رواتبهم". وقال كافنديش: "أظنّ أنّك ملعون بأيّ حال".

نظر إلى عين جورج وبدأ يضحكان. على الأقلّ وجدا شيئاً للشرب، فالأقبية كانت ممثلة، وهو أمر اعتبره كافنديش جيّداً، لأنّهم سيحتاجون إلى الشراب في الأسابيع القادمة. قال جورج: "ماذا تظنّ أنّ نورييس كان يعني بكلامه؟ كيف يمكن للملك أن يتصرّف وكأنّه يملك عقليين؟ كيف يُعزل سيّدي الكاردينال ما لم يكن راغباً في عزله؟ كيف يمكن للملك أن ينصاع لأعداء سيّدي الكاردينال؟ أليس الملك هو السيّد، وكلمته فوق كلمة جميع الأعداء؟".
"هذا ما تظنّه".

"أم أنّها هي؟ لا بدّ من ذلك. فهو يخشاها، كما تعلم. إنّها مشعوذة".
قال له، لا تكن أحمق. فقال جورج، إنّها بالفعل ساحرة، فدوق نورفولك يقول ذلك، وكذلك عمّها، لا بدّ من أنّه يعرف.

دقّت الساعة الثانية، ومن ثمّ الثالثة. من المريح أحياناً أن تفكّر في أنّك لست مضطراً إلى الخلود إلى النوم لأنّه ما من سرير. ليس عليه التفكير في العودة إلى

البيت، فهو لم يعد يملك عائلة. من الأفضل له أن يكون هنا مع كافنديش، يشرب وهو جالس في زاوية من زوايا القاعة الكبرى في إيشر، وهو يشعر بالبرد والتعب والخوف من المستقبل، عوضاً من التفكير في عائلته وما خسرته. قال: "غداً، سأحضر موظفي من لندن ونحاول تحديد الأملاك التي لا تزال لدى سيدي الكاردينال، وهو أمر لن يكون سهلاً لأنهم أخذوا جميع الوثائق. ولن يكون مدينوه مستعدين للدفع حين يعرفون ما حدث. ولكن الملك الفرنسي يدفع له راتباً، وعلى حد علمي، لا يزال في المتأخرات... ربّما يُرسل إليه كيساً من الذهب، بانتظار نيّله مجدداً حظوة الملك. أمّا أنت، فيمكنك الذهاب لنهب الغنائم".

كان كافنديش غائر الخدين والعينين حين ألقاه على ظهر الفرس مع حلول أولى ساعات الفجر. "اطلب بعض الخدمات. فما من رجل في هذه البلاد لا يدين بشيء لسيدي الكاردينال".

كانوا في أواخر تشرين الأوّل/أكتوبر، وبالكاد بدأت الشمس تبرز في الأفق. قال كافنديش: "أبقه مرحاً، واجعله يتحدّث على الدوام، يتحدّث عمّا قاله هاري نوريس...".

"هيا انطلق. وإن رأيت الجمرات التي أُحرق بها سان لورانس، فسيمكننا الاستفادة منها هنا".

رجاه كافنديش قائلاً: "آه، توقّف". لقد تغيّرت حاله كثيراً منذ الأمس، وأصبح قادراً على سرد النكات حول الأشخاص المبجلين، ولكنه شرب كثيراً الليلة الماضية، والضحك يؤلمه. غير أنّ عدم الضحك مؤلم أيضاً. انخفض رأس جورج، وتحرك الحصان تحته، وبدا في عينيه الإرباك الشديد. راح يسأل: "كيف وصلت الأمور إلى هذا الحدّ؟ سيدي الكاردينال راعع في الوحل. كيف حدث ذلك؟ كيف حدث ذلك بالله عليك؟".

قال: "فلتحضر الزعفران، والعنب، والتفاح، والقططة. أحضر قططة، قططة كبيرة جائعة. لا أعرف يا جورج من أين تُحضر القططة؟ آه، انتظر! هل تظنّ أنّنا نستطيع إيجاد طيور حجل؟".

إن تمكّنّا من إيجاد طيور حجل، يمكننا تقطيع لحمها، وطهوها. كلّ ما نستطيع إعداده بهذه الطريقة، سنعدّه، وهكذا، لن يتسمّ سيدي الكاردينال.

حقة خفية في تاريخ بريطانيا 1529-1521

كان في قديم الزمان ملك يونانيّ لديه ثلاث وثلاثون ابنة. انتفضت كلّ واحدة من تلك البنات وثارَت على زوجها وقتلته. احتار الملك كيف قام بتربية أولئك المتمردات، ولكنّه لم يرغب بقتل بنات من لحمه ودمه. فنفاهنّ على متن سفينة بلا مرساة وبلا دفة انساقت مع العاصفة على غير هدى.

مَوّن السفينة لستّة أشهر. ومع انقضاء تلك المدّة، قادتهما الرياح والمدّ إلى أطراف الأرض المعروفة. فرست السفينة على شاطئ جزيرة غارقة في الضباب. وبما أنّ الجزيرة لم يكن لها اسم، أعطتها أكبر الأخوات القاتلات اسمها: ألبينا.

حين وصلن إلى الشاطئ، كنّ جائعات ومتهلّفات إلى الرجال. ولكن لم يكن ثمة رجل واحد على تلك الجزيرة. لم تكن الجزيرة مسكونة سوى بالكائنات الغريبة.

تزوّجت الأميرات الثلاث والثلاثون من هذه الكائنات وأنجبن سلالة من العمالقة، الذين تزوّجوا بدورهم من أمّهاتهم وأنجبوا المزيد من بني جنسهم. انتشر أولئك العمالقة في جميع أنحاء بريطانيا. لم يكن حينها ثمة كهنة، ولا كنائس، ولا قوانين. كما لم تكن هناك وسيلة لتحديد الزمن.

دام حكمهم ثمانية قرون، إلى أن أطاح بهم بروتوس، من طروادة. وُلد بروتوس، ابن حفيد أيبينياس، في إيطاليا. توفيت أمه في أثناء ولادته، ومات أبوه بسهم أصابه عرضاً. هرب من مسقط رأسه، وأصبح زعيماً لعصابة من الرجال الذين كانوا عبيداً في طروادة. أبحروا معاً في رحلة إلى الشمال، وقادتهم الرياح والمدّ إلى شاطئ ألبينا، كما حدث مع الأخوات في الماضي. حين وصلوا إلى هناك، أُجبروا على خوض معركة مع العمالقة، الذين كانوا تحت قيادة غوغماغوغ. فهُزم العمالقة وألقي قائدهم في البحر.

كيفما نظرت إلى القصّة، ترى أنّ كلّ شيء بدأ بالقتل. حكم بروتوس الطروادي وسلالته حتّى مجيء الرومان. وقبل أن تسمّى لندن مدينة لود، كانت تُدعى طروادة الجديدة، وكنّا طرواديين.

يقول البعض إنّ آل تيودور يتجاوزون هذا التاريخ الدموي والشيطاني، وإنّهم يتحدّرون من بروتوس، عبر سلالة قسطنطين، ابن سانت إيلينا، الذي كان بريطونياً. كان آرثر، الملك الأعلى لبريطانيا، حفيد قسطنطين. تزوّج ثلاث نساء، جميعهنّ

يدعين غونيفير، ويقع قبره في غلاستونبوري، ولكن يُزعم أنه ليس ميتاً حقاً، بل ينتظر الوقت المناسب للعودة مجدداً.

وُلد الأمير آرثر، أمير إنكلترا، المتحدّر من سلالته، عام 1486، وهو الابن الأكبر لهنري، أوّل ملوك تيودور. تزوّج آرثر من كاثرين، أميرة أراغون، وتوفي في سنّ الخامسة عشرة، ودُفن في كاتدرائية وورسيستر. ولو كان حياً الآن، لكان هو ملك إنكلترا. وكان شقيقه الأصغر هنري رئيس أساقفة كانتربوري، على الأرجح، ولما كان يلاحق امرأة لم يسمع عنها الكاردينال شيئاً حسناً (على الأقلّ، هذا ما نأمله حقاً): امرأة كان يجدر به أن يصرف انتباهه عنها قبل سنوات عدّة من مجيء الدوقات لهبه، امرأة يحتاج إلى فهم تاريخها، قبل أن تدمره. تحت كلّ تاريخ، يرقد تاريخ آخر.

ظهرت الليدي في القصر في الخامس والعشرين من كانون الأوّل/ديسمبر عام 1521، وهي ترقص بثوب أصفر اللون، وكانت في العشرين من عمرها تقريباً. كانت ابنة الدبلوماسي توماس بولين. نشأت منذ طفولتها في البلاط البورغوندي في ميشلين وبروسيلز، وعاشت مؤخراً في باريس، تنتقل في حاشية الملكة كلود بين قصور اللوار الجميلة. تتحدّث الآن لغتها الأمّ بلكنة خفيفة غير محدّدة، وتطعمّ جملها بكلمات فرنسية، حين تدّعي أنها لا تتذكّر الإنكليزية. في شروفتايد، رقصت في حفل تنكّريّ. كانت السيّدات متتكرّات بأزياء الفضائل، وقد اختارت هي فضيلة المثابرة. رقصت على نحو جميل ورشيق، وعلى وجهها تعبير المرح، مع ابتسامة قاسية وغير شخصية، وكأنّها تقول لا تلمسني. وسرعان ما التفتّ حولها مجموعة من الرجال السفهاء، الذين أخذوا يتبعونها، فضلاً عن سيّد غير سخيّف تماماً. وسرت شائعات أنّها ستزوّج من هاري بيرسي، إيرل نورثمبيرلاند.

استدعى الكاردينال والدها، وقال له: "سير توماس بولين، إمّا أن تتحدّث أنت إلى ابنتك، أو أفعل ذلك أنا. لقد أحضرناها من فرنسا كي نزوّجها من وريث أسرة باتلر، في إيرلندا. فلماذا تتلكأ؟".

بدأ السير توماس يقول: "أسرة باتلر...". فقال الكاردينال: "نعم؟ ماذا عن أسرة باتلر؟ مهما كانت مشكلتك معهم، فأنا سأحلّها. ما أودّ معرفته هو هل هيأتها لذلك؟ لأنني أراها تتأمر في الزوايا مع ذاك الصبيّ الطائش. ولأكون صريحاً معك أيّها السير توماس، لن أسمح بذلك. ولن يسمح الملك بذلك. يجب وضع حدّ لهذا الأمر." "أنا لم أتواجد كثيراً في إنكلترا في الأشهر الماضية. لا يمكن أن تفكّر، غبطتك،

في أنني مطلع على الموضوع".
"حقاً؟ ستُفاجأ بما أفكر فيه. أهذا هو أفضل أعذارك؟ لا تستطيع السيطرة على أولادك؟".

بدا السير توماس ساخرًا، وقد رفع يديه. كان على وشك أن يقول: شباب هذه الأيام... ولكن الكاردينال أوقفه. كان الكاردينال يشك - وقد باح بشكّه - في أنّ الشابة ليست مبالغة إلى فكرة العيش في قصر كيلكيني، مع حياة الاقتصاد التي تسود فيه، ولا إلى نوع الحياة الاجتماعية التي ستجدها هناك حين ستمرّ أحياناً في طرقات دبلن الفقيرة والقدرة.

قال بولين: "من هذا الواقف هناك في الزاوية؟".
لوح الكاردينال بيده مجيباً: "إنّه أحد موظفي القانونيين وحسب".
"أصرفه".

تنهّد الكاردينال.

"هل يدوّن ملاحظات عن حديثنا؟".

نادى الكاردينال قائلاً: "هل تفعل ذلك، يا توماس؟ إن كنت تفعل ذلك، فتوقّف على الفور".

نصف العالم يُدعى توماس. بعد ذلك، لم يعد بولين متأكّداً ما إذا كان هو المعني. قال بصوته الذي راح يعلو وينخفض بدبلوماسية: كان صريحاً، رجل مجتمع، وكان ابتسامته كانت تقول، وولزي، وولزي، أنت رجل مجتمع أيضاً: "في الواقع، سيدي، إنهم شبّان. لقد جذبت انتباه الشاب، وهذا طبيعي. يجب عليّ إيقافها عن ذلك، فهي تعرف أنّ هذا لا يمكن أن يستمرّ. إنّها تدرك مكانتها".

قال الكاردينال: "جيد، لأنّ هذا لا يليق بشخص من آل بيرسي. أعني، بالمعنى الأسري. أنا لن أتحدّث عمّا يمكن للمرء أن يفعله على تلة قشّ في ليلة دافئة".

"الشاب لا يقبل. قالوا له أن يتزوَّج من ماري تالبوت، ولكن..."، وضحك بولين متابعاً: "هو لا يوّد الزواج من ماري تالبوت. يظنّ أنّه حرّ في اختيار زوجته".

قاطعته الكاردينال قائلاً: "اختيار زوجته! لم أسمع أبداً بمثل هذا. هو ليس غلاماً من الريف. إنّه رجل يتحمّم عليه حكم شمال بلادنا يوماً، وإن لم يفهم موقعه في العالم، فعليه أن يتعلّم، وإلا خسره. الترتيب الذي أقيم مع ابنة شروزبيري هو ترتيب ملائم له. وهو ترتيب أنا اقترحتّه، ووافق عليه الملك. وأؤكّد لك أنّ إيرل شروزبيري لن يوافق إطلاقاً على هذه التصرفات الطائشة من قبل شاب موعود لابنته".

"المشكلة هي..."، أمسك بولين عن الكلام قليلاً، ثم تابع قائلاً: "أظن أن هاري بيرسي وابنتي ذهبا بعيداً بعض الشيء في هذه المسألة".
"ماذا؟ هل تعني أننا نتحدث فعلاً عن كومة قشّ وليلة دافئة؟".
كان يراقب من مكانه في الظلام. فكّر في أن بولين هو أكثر الرجال الذين رأهم في حياته برودة وهدوءاً.

"بحسب ما قاله لي، تعهدا لبعضهما أمام شهود. إذاً، كيف يمكن إلغاء ذلك؟".
ضرب الكاردينال قبضته على الطاولة. "سأخبرك كيف. سأحضر أباه من الحدود، وإن تحدّاه هذا الابن المبذّر، فسبحرمة من ميراثه. فالإيرل له أولاد آخرون، أفضل منه. وإن لم تكن تريد أن يتمّ إلغاء الزواج من وريث أسرة باتلر، ورؤية ابنتك وهي تذبذب من دون زواج في سوسيكس وتكلّفك السكن والشراب لبقية حياتها، فعليك أن تكفّ عن الحديث عن العهود والشهود. ومن هم أولئك الشهود؟ أعرف ذاك النوع من الشهود الذين لا يظهرون إطلاقاً حين أرسل بطلبهم. لذا، لا أريد أن أسمع أيّ كلام في هذا الموضوع. عهود. شهود. عقود. يا الله!".

ظلّ بولين مبتسماً. كان رجلاً رصيناً ورشيقاً، وقد احتاج إلى كلّ عضلة من عضلات جسده المدربة لإبقاء تلك الابتسامة مرتسمة على وجهه.

تابع وولزي بلا هوادة: "أنا لا أسألك ما إذا كنت قد طلبت نصيحة أقربائك في أسرة هاورد في هذه المسألة. ولا أودّ التفكير في أنك مشيت في هذه الخطّة بموافقتهم. إذ يؤسفني أن أسمع أن دوق نورفولك يعلم بذلك، لا بل يؤسفني جداً. لذا، لا أريد أن أسمعك تتحدّث عن الموضوع، اتفقنا؟ اذهب واطلب من أقاربك نصيحة جيّدة. زوج الفتاة في إيرلندا قبل أن تبلغ أسرة باتلر شائعات أن الفتاة أفسدت سمعتها. هذا لا يعني أنني قلت شيئاً، ولكنّ الناس في البلاط يتحدّثون".

ظهرت بقعتان حمراوان من الغضب على خدي السير توماس. قال: "هل أنهيت سيدي الكاردينال؟".
"أجل. انصرف".

استدار بولين، وسُمع حفيف ملابسه الحريريّة الداكنة. أهي دموع الغضب، تلك التي يراها في عينيه؟ كان الضوء خافتاً، ولكنّ كرومويل يتمتع ببصر حادّ. قال الكاردينال: "أه، لحظة واحدة، سير توماس..."، ارتفع صوته عبر الغرفة وشدّ ضحيّته مجدداً: "سير توماس، تذكر أجدادك. أظنّ أن أسرة بيرسي هي أنبل الأسر في المنطقة. في حين أن أسرة بولين كانت تعمل في التجارة في الماضي، هذا بغضّ

النظر عن حسن حظك في الزواج من سيّدة من آل هاورد، أليس كذلك؟ فثمّة شخص يحمل اسم عائلتك كان عمدة لندن، أليس كذلك؟ أم أنّي خلطت سلاتك مع أشخاص أكثر نبلاً يحملون اسم بولين".

شحب وجه السير توماس واختفت البقعتان القرمزيتان عن خديّه، وكان على وشك أن يُغمى عليه من شدّة الغضب. همس وهو يخرج من الغرفة: "ابن جرّار". وحين مرّ أمام الكاتب، الذي كان يضع يده السمينّة بكسل على مكتبه، تمتم: "كلب جرّار". صُفّق الباب. قال الكاردينال: "اخرج، أيّها الكلب". جلس يضحك، واضعاً مرفقيه على مكتبه ورأسه بين يديه. قال له: "راقب وتعلّم. لا يمكن للمرء أبداً أن يحسّن نسبه، والله يعلم، يا توم، أنّ نسبك هو أقلّ شرفاً من نسبي، لذا، يكمن السرّ في إعادتهم دائماً إلى مكانتهم الأصليّة. هم من وضعوا القوانين، لذا، لا يمكنهم التذمّر من أنّي أطبقها بصرامة. أسرة بيرسي هي أشرف من أسرة بولين. من يظنّ نفسه؟".

"هل تظنّ أنّ إثارة حفيظة الناس هي سياسة جيّدة؟".
"آه، كلاً. ولكنّ هذا يسليني. حياتي قاسية وأجدني راغباً في التسلية". رماه الكاردينال بنظرة لطيفة، فشعر بأنّه قد يكون موضع مزيد من التسلية هذا المساء، بعد أن مُزّق بولين، ورمي على الأرض وكأنّه قشرة برتقالة. "من يحتاج إلى التأديب؟ آل بيرسي، آل ستافورد، آل هاورد، آل تالبوت: أجل. استعمل عصا طويلة والكزهم بها، إن تحتمّ ذلك. أمّا بالنسبة إلى بولين، في الواقع، فالملك يشعر بعطف نحوه، كما أنّه رجل قادر. لهذا السبب، أنا أفتح جميع رسائله، وقد فعلت ذلك لسنوات".
"إذاً، هل سمع غبظتكم... كلاً، اعذرني، ليس من الملائم ذكر ذلك أمامكم".
سأل الكاردينال: "ماذا؟".

"إنّها مجرد شائعة. لا أودّ تضليل غبظتكم".
"لا يمكنك أن تتحدّث ثمّ تصمت. عليك إخباري الآن".
"إنّه مجرد كلام تتناقله النساء. نساء الحرير وزوجات تجار الأقمشة". انتظر مبتسماً، ثمّ أضاف: "وأنا واثق من أنّه لا يثير اهتمامك".
ضحك الكاردينال ودفع كرسيه إلى الخلف، فارتفع ظلّه معه. راح يزحف على الجدار في ضوء النار. امتدّت يده بحركة مفاجئة، لمسافة بعيدة، وبدت وكأنّها غير بشرية.

تراجع الكاردينال، فتمايل ظلّه، تمايل ثمّ استقرّ. جمد في مكانه. سجّل الجدار حركة أنفاسه. انخفض رأسه. في هالة من النور، بدا أنّه يتوقّف، ويتحصّص قبضة يده

الخالية. بسط أصابعه، ويده الضخمة التي كانت تضيئها النار. بسطها على مكتبه. اختفت وذابت في القماش الأحمر. جلس مجدداً، وأحنى رأسه. كان وجهه نصف معتم.

استردّ توماس، أو توموس، أو توماسو، أو تومايس كرومويل، ذواته الماضية في جسده الحالي، وتراجع شيئاً فشيئاً إلى حيث كان من قبل. انزلق ظلّه الوحيد على الجدار، وكأنّه زائر غير واثق من أنّه مرحّب به. أيّ توماس منهم رأى الضربة قادمة؟ ثمّة لحظات تنتقل فيها الذكرى عبرك تماماً. فتُجفل، وتراجع، وتجري، أو يتناول الماضي يدك ويحرّكها، من دون تدخل الإرادة. ولنفرض أنّك تملك سكيناً في يدك؟ هكذا تقع حوادث القتل.

قال شيئاً، وقال الكاردينال شيئاً. سكتا فجأة. ضاعت الجملتان هباءً. عاد الكاردينال إلى مقعده. تردّد أمامه، ثمّ جلس. قال الكاردينال: "أحبّ حقاً شائعات لندن. ولكنني لم أتوقع سماعها منك".

أحنى الكاردينال رأسه، وعبس في ورقة على مكتبه. كان يتيح للحظة الصعبة أن تمرّ، وحين تحدّث مجدداً كانت نبرته رصينة وسلسة، وكأنّه رجل يحكي النوادر بعد العشاء. "حين كنت صغيراً، كان لدى أبي صديق - زبون، في الحقيقة - متورّد الوجه". لمس كمّه قائلاً: "مثل هذا... قرمزيّ الوجه. كان اسمه ريفيل، مايلز ريفيل". بسط راحته مجدداً فوق القماش المائل إلى السواد. "لسبب ما، كنت أظنّ... مع أنّه برأيي كان مواطناً صالحاً، ويحبّ تناول الشراب الجيّد... كنت أظنّ أنّه يحبّ شرب الدماء. لا أعرف... أفترض أنّي سمعت قصّة من مربيتي أو من ولد تافه آخر... وحين سمع الصبية الذين يتعلّمون لدى أبي بذلك، لأنني كنت أحرق إلى حدّ الصراخ والبكاء، كانوا يصيحون: ها هو ذا قد أتى ريفيل لشرب كأس من الدم، اركض يا توماس وولزي... فكنت أجري وكأنّ كائناً غريباً يلاحقني. وأبتعد عن السوق بأكملها. أتعجّب كيف لم تدهسني عربة. فقد كنت أجري من دون أن أعي شيئاً. وحتىّ اليوم، تناول ختم شمع عن المكتب، وراح يقلّبه رأساً على عقب، ثمّ وضعه متابعاً: "حتىّ اليوم، حين أرى رجلاً متورّد الوجه، لنقل دوق سوفولك، أشعر بالرغبة في البكاء". سكت قليلاً، وهدأ نظره، ثمّ تابع: "إذاً، توماس... ألا يمكن لرجل دين أن يقف في وجهك من دون أن تظنّ أنّه يسعى إلى مصّ دمك؟". تناول الختم مجدداً وراح يقلّبه بين أصابعه. حوّل بصره، وبدأ يلعب بالكلمات وتابع قائلاً: "هل يمكن لأسقف أن يسبّب لك الإرباك؟ ولموظف أبرشية أن يبعث في نفسك الرعب؟ ولشمّاس أن يصيبك

بالإحباط؟".

قال: "ما هي الكلمة؟ لا أعرف الإنكليزية... estoc...؟".

لا توجد ربّما كلمة إنكليزية تعبّر عنها... السكين الصغير، الذي يُغرز في الأضلاع، في الأحياء الضيّقة. قال الكاردينال: "وكان ذلك...؟".

كان ذلك قبل عشرين عاماً تقريباً. تعلّم الدرس، وتعلّمه جيّداً. ليل، جليد، في قلب أوروبا الساكن. غابة، بحيرات تتلألأ كالفضّة تحت سماء الشتاء المرصّعة بالنجوم، غرفة، نور مدفأة، وظلّ ينزلق على الجدار. لم يرَ قاتله، ولكنّه رأى ظلّه يتحرّك.

قال الكاردينال: "كلّه سيان... مضت أربعون عاماً على المرة الأخيرة التي رأيت فيها السيّد ريفيل. أفترض أنّه مات منذ زمن بعيد. وماذا عن رجلك؟"، تردّد ثمّ سأل: "هل مات منذ زمن بعيد هو أيضاً؟".

إنّها الطريقة الأكثر كياسة التي يمكن استنباطها لسؤال رجل ما إذا كان قد قتل أحدهم.

"وأصبح في الجحيم، على ما أظنّ. إن سمحتم لي بهذا التعبير".

ابتسم وولزي، ليس على ذكر الجحيم، بل لذاك الخضوع أمام سلطته. "إذاً، لو هاجم أحدهم الشاب كرومويل، يذهب مباشرةً إلى الجحيم؟".

"لو أنّك رأيتّه، سيّدي. كان قدراً جيّداً. يقال لنا أنّ دم الحمل يفعل الكثير، ولكنني أشكّ في أنّه كان لينظّف ذاك الرجل".

قال وولزي: "كم أتوق إلى عالم نظيف". بدا عليه الحزن. "هل اعترفت كما ينبغي؟".

"كان هذا منذ زمن بعيد".

"هل اعترفت كما ينبغي؟".

"سيّدي الكاردينال، كنت جندياً".

"الجنود لديهم أمل بغير الجحيم".

نظر إلى وجه وولزي. لم تكن تعابيره توحى بما يعتقد به. قال: "جميعنا لدينا أمل". الجنود، المتسوّلون، البحّارة، الملوك.

قال الكاردينال: "إذاً، كنت وحشياً في شبابك". ثمّ تمتم بالفرنسية: "لا بأس في ذلك. هذا الشخص القدر الذي هاجمك... هل كان يملك رتبة دينية؟".

ابتسم قائلاً: "لم أسأله".

قال الكاردينال: "يا للذاكرة كيف تخوننا... توماس، سأحاول ألاّ أتحرك من دون

إعلامك. وبهذه الطريقة، سنتدبر أمورنا جيداً معاً".

ولكنّ الكاردينال راح يتفحصه، لا يزال يبدو حائراً. كانت شراكتها في بداياتها وكانت شخصيته، التي ابتكرها الكاردينال، في حالة نموّ في تلك المرحلة. ربّما بدأت منذ ذلك المساء؟ في السنوات القادمة، سيردّد الكاردينال: "غالباً ما أتساءل عن المثل الأعلى الرهباني، لا سيّما ذاك الذي يُطبّق على الشباب. فخادمي كرومويل، مثلاً، كانت طفولته منعزلة، أمضاها بأكملها تقريباً في الصيام والصلاة ودراسة آباء الكنيسة. لهذا السبب، نراه شديد الشراسة الآن".

وحين يسأل الناس، أهو كذلك؟ ويتذكرون، قدر الإمكان، الرجل الذي يبدو شديد التكتّم؛ حين يسألون، حقاً؟ خادمك كرومويل؟ يهزّ الكاردينال رأسه ويقول، ولكنني أحاول إصلاح الأمور، بالطبع. فحين يكسر النوافذ، نرسل بإحضار الزجاجين وندفع الكلفة. أمّا بالنسبة إلى موكب الشابات الحزينات... يا لتلك المسكينات، أنا أدفع لهنّ...

ولكنّه الليلة عاد إلى العمل، وكانت أصابعه متشابكة فوق مكتبه، وكأنّه يحافظ على تماسك الأمسية. "هيا، توماس، كنت تخبرني عن شائعة".
"تري النساء، بحسب الطلبات الموضوعة لدى تجّار الحرير، أنّ لدى الملك..."
سكت قليلاً ثمّ قال: "سيّدي، ماذا نسّمّي المومس حين تكون ابنة فارس؟".
قال الكاردينال وهو يندمج في المشكلة: "آه، في وجهها، سيّدي. ومن وراء ظهرها، حسناً، ما اسمها؟ أيّ فارس؟".

أشار إلى حيث كان يقف بولين قبل عشر دقائق.

بدا القلق على وجه الكاردينال: "لم لم تتحدّث؟".

"كيف كنت لأدخل في الموضوع؟".

وافق الكاردينال على صعوبة ذلك.

"ولكنّها ليست الليدي بولين التي وصلت حديثاً إلى البلاط. ليست امرأة هاري بيرسي، بل شقيقتها".

"فهمت". استند الكاردينال إلى ظهر كرسيّه. "بالطبع".

ماري بولين هي فتاة شقراء قصيرة القامة، يقال إنّها تنقلت بين جميع رجال البلاط الفرنسي قبل مجيئها إلى هذا البلاط، مع شقيقتها الصغرى التي تجري دائماً في أعقابها.

قال الكاردينال: "بالطبع، كنت قد تبعت اتجاه نظر جلالته". هزّ رأسه مضيفاً: "هل

هما مقربان؟ هل تعرف الملكة بعلاقتكما؟ أم أنك لا تدري؟".
هزّ رأسه، فتنهّد الكاردينال. "إنّ كاثرين قديسة. مع ذلك، لو كانت قديسة، ومملكة،
لشعرت ربّما أنّ ماري بولين ليست مصدر خطر. إذاً، هو يقدّم إليها الهدايا، أيّ نوع
منها؟ تقول إنّها ليست شديدة الإسراف؟ إذاً، أنا آسف لأجلها. عليها أن تستغلّ هذه
الفرصة ما دامت موجودة. ليس لأنّ لملكنا الكثير من المغامرات، مع أنّه يقال...
يقال إنّّه حين كان جلالته شاباً، ولم يتوّج ملكاً بعد، كانت زوجة بولين هي أولى
عشيقاته".

"إليزابيث بولين؟" كان قلماً يُفاجأ بشيء. "أمّ هذه المرأة؟".
"هي نفسها. ربّما كان الملك يفتقر إلى بعض الخيال في هذا المجال. لا أعني
أنّني صدّقت هذا الأمر... فلو كنّا على الضفّة الأخرى، أنت تعرف"، وأشار ناحية
دوفر، "لما حاولنا حتّى أن ننتبّع عدد النساء. يقال إنّ صديقي الملك فرنسوا نظر إلى
المرأة التي كان معها في الليلة الماضية، فقبّل يدها بلياقة، ثمّ سألها عن اسمها،
وتمنّى أن يصبح صديقين". هزّ رأسه، معجباً بنجاح قصّته. "ولكنّ ماري لن تسبّب
المشاكل. فهي سهلة المعشر. كان في بإمكان الملك أن يختار أسوأ منها".
"ولكنّ عائلتها ستسعى إلى كسب شيء من ذلك. علام حصلوا في الماضي؟".
"على فرصة أن يكونوا أشخاصاً نافعين". توقّف وولزي ودوّن ملاحظة. كان
يستطيع تخيل محتواها: ما يمكن لبولين أن يحصل عليه إن طلبه بلطف. نظر
الكاردينال إلى الأعلى. "إذاً، هل كان يجدر بي أن أكون، في مقابلتي مع السير
توماس، كيف أقولها، أكثر لطفاً؟".

"لا أظنّ أنّه كان في استطاعتك أن تكون أكثر لطفاً من ذلك. انظر إلى وجهه
حين غادرنا، كان مثلاً للامتنان والهدوء".

"توماس، من الآن فصاعداً، أحضر لي جميع أخبار النميمة في لندن إلى هنا".
لمس القماش القرمزي، أحضر ذا الوجه القرمزي إليّ. "لا تأبه بالمصدر. دعني أنا
أهتمّ به. وأعدك بالأّ أهاجمك أبداً، صدّقني".
"نسيت الأمر".

"أشكّ في ذلك. ليس إن كنت قد حملت الدرس معك كلّ هذه السنوات". استند
الكاردينال إلى ظهر كرسيّه، وراح يفكّر. "على الأقلّ، هي متزوّجة". كان يعني ماري
بولين. "فإنّ أنجبت، يمكنه أن يعترف بالطفل، أو لا، بحسب رغبته. لديه ابن من
ابنة جون بلاونت، ولن يرغب في الحصول على الكثير منهم".

شكّلت كثرة الأطفال الملكيين عبئاً على الملك. فتاريخ أمّتنا وغيرها من الأمم أظهر كيف أنّ الأمهات تصارعن على المكانة الأعلى، وحاولن إدخال أولادهنّ في الأسرة الحاكمة. الابن الذي اعترف به هنري عُرف باسم هنري فيدزروي، وهو صبيّ أشقر وسيم وُلد على صورة الملك. منحه والده لقب دوق سومرسييت ودوق ريتشموند. ولم يكن قد بلغ العاشرة بعد حتّى أصبح من أهمّ نبلاء إنكلترا.

الملكة كاثرين، التي توفي جميع أبنائها، تتحلّى بالصبر إزاء هذا الأمر: وهذا كان يعني أنّها تتعذب.

حين ترك الكاردينال، كان يشعر بالبوّس والغضب. عندما فكّر في حياته الماضية، ذاك الصبيّ شبه الميت فوق الحصى في بوتتي، لم يشعر بأيّ شفقة نحوه، بل بشيء من نفاذ الصبر: لماذا لم ينهض؟ وعندما فكّر في ذاته لاحقاً، وهو لا يزال ميّالاً إلى العراك، أو على الأقلّ التواجد في مكان قد يدور فيه عراك، شعر بشيء أشبه بالازدراء مصحوب بالقلق. ذاك هو العالم: سكين في الظلام، حركة جانبية شبه مرئية، سلسلة من التحذيرات التي تحوّلت إلى جسد. لقد تسبّب للكاردينال بصدمة، وهذا ليس من ضمن مهامّه. عمله كان يقوم، كما عرّفه في ذلك الوقت، على تزويد الكاردينال بالمعلومات، وتهدئة غضبه، وفهمه، ومشاركته مزاحه. كان الخطأ ناتجاً عن مشكلة توقيت وحسب. لو لم يتحرّك الكاردينال بتلك السرعة، لو لم يكن بتلك الحدّة، بحيث لم يعرف كيف يشير إليه ليتحدّث على نحو أقلّ استبداداً مع بولين. المشكلة مع إنكلترا، برأيه، هو ضعفها في مجال الإشارات. كان يجدر بنا أن نبتكر إشارة يدوية تفيد ما معناه: "تراجع، أميرنا يعاشر ابنة هذا الرجل". استغرب أنّ الإيطاليين لم يبتكروها. ربّما فعلوا ذلك، ولكنّه لم ينتبه.

في عام 1529، سيتذكّر تلك الأمسية، ولم يكن قد مضى وقت طويل على خسارة الكاردينال لحظوة الملك.

كان في إيشر، في تلك الليلة التي غاب عنها النور والنار، بعدما خلد الرجل العظيم إلى سريريه (الرطب ربّما)، ولم يكن ثمّة أحد غير جورج كافنديش لإبقائه مبتهجاً. سأل جورج، ماذا حدث في ما بعد مع هاري بيرسي وأن بولين؟

كان يعرف القصة بلسان الكاردينال الذي رواها بأسلوبه البارد وغير المكترث. ولكنّ جورج قال: "سأخبرك بما حدث. والآن، قف يا سيّد كرومويل". وقف. "استدر قليلاً إلى اليسار. والآن، من تحبّ أن تكون؟ سيّدي الكاردينال، أم الوريث الشاب؟". "آه، فهمت، أهي مسرحية؟ قم أنت بتأدية دور الكاردينال، فأنا لا أشعر بأنني أليق

به".

عدّل كافنديش وضعيته، وجعله يدير ظهره إلى النافذة، حيث كان الليل والأشجار العارية من الأوراق جمهورهما الوحيد. شرد نظره في الفراغ كأنه يرى الماضي: جسدان مبهمان، يتحركان في تلك الغرفة المظلمة. سأله جورج: "هل تستطيع أن تبدو مضطرباً؟ وكأنك كنت تفكر في التحدث بتمرد، ولكنك لا تجرؤ على التكم؟ لا، لا، ليس هكذا. أنت شاب، رأسك متدلّ، ووجهك محمرّ خجلاً". تنهّد كافنديش متابعاً: "أظنّ أنّ الاحمرار لم يعلّ وجهك يوماً، يا سيّد كرومويل. اسمع". وضع كافنديش يديه، بلطف، على زندي كرومويل. "فلنبدلّ الأدوار. اجلس هنا. أنت ستكون الكاردينال".

على الفور، رأى كافنديش يتبدّل. أخذ جورج ينتفض ويتلعثم؛ أصبح هاري بيرسي المرتعش، الشابّ المغرم. راح يبكي قائلاً: "لماذا لا أستطيع الزواج منها؟ مع أنّها مجرد فتاة بسيطة...".

قال: "فتاة؟ بسيطة؟".

حدّق إليه جورج. "لم يقل الكاردينال ذلك أبداً!".

"ليس في ذلك الوقت، أوافقك".

"والآن، أنا هاري بيرسي مجدّداً: مع أنّها مجرد فتاة بسيطة، والدها مجرد فارس، ولكن أصلها جيّد...".

"إنّها من قريبات الملك، أليس كذلك؟".

"من قريبات الملك؟" توقّف كافنديش مجدّداً عن تأدية دوره، وبدا عليه الاستنكار.

"كان سيّد الكاردينال ليسلسل أصلها بكلّ دقّة، كلّه مكتوب لديه".

"إذاً، ماذا أفعل؟".

"ادّع وحسب! والآن: يجادلّه بيرسي قائلاً إنّ أسلافها من أصل عريق. ولكن كلّما جادل الشابّ، كلّما ازداد غضب سيّد الكاردينال. قال الشابّ، أجرينا عقد زواج، وهو يُعتبر زواجاً حقيقياً...".

"حقاً؟ أهو كذلك؟".

"أجل، هذا هو الغرض منه. إنّه يُعتبر زواجاً حقيقياً".

"وماذا فعل سيّد الكاردينال عندها؟".

"قال، يا الله، ماذا تقول أيّها الولد؟ إن كنت قد ورّطت نفسك بإجراءات مزيفة من هذا النوع، لا بدّ من أن يكون الملك قد سمع بذلك. سأرسل بطلب والدك، وسنحاول

معاً إلغاء هذا العمل المتهور الذي فعلته".

"وماذا قال هاري بيرسي؟".

"لم يقل الكثير. اكتفى بطأطأة رأسه".

"أتساءل ما إذا كانت الفتاة تكن له أي احترام".

"كلاً، اللقب هو كل ما تسعى وراءه".

"فهمت".

"بعد ذلك، أتى الأب من الشمال وقال: هل تريد أن تكون الإيرل أم الشاب؟".

"الشاب. صرت أعرف كيف أودّي دوره".

قفز واقفاً، وقلد دور النادم. بدا أنّ الإيرل والكاردينال أجريا حديثاً مطوّلاً في رواق طويل، ثمّ تناولوا كأساً من الشراب. لا بدّ من أنّ الحديث كان قويّاً. راح الإيرل يسير على طول الرواق، ثمّ جلس، على حدّ قول كافنديش، على مقعد كان يجلس عليه الصبية للانتظار. نادى وريثه ليقف أمامه، ثمّ أخذه جانباً أمام الخدم. قال كافنديش: "سيدي، لطالما كنت فخوراً، وقحاً، متعجباً، ومبذراً كبيراً. إنّها بداية جيّدة، أليس كذلك؟".

قال: "تعجبني قدرتك على تذكر الكلمات بدقّة. هل كتبتها في ذلك الوقت؟".

بدت تعابير المكر على وجه كافنديش: "لا أحد يجاريك في قوّة الذاكرة. يطلب منك سيدي الكاردينال حساباً لشيء أو آخر، فتأتي بجميع الأرقام والمعلومات الجاهزة".

"ربّما اخترعها".

بدت الصدمة على كافنديش، وقال: "آه، لا أظنّ ذلك. لا يمكنك القيام بذلك لوقت طويل".

"إنّها طريقة للتذكّر تعلّمتها في إيطاليا".

"ثمّة أشخاص في هذا المنزل وغيره، يدفعون الكثير لتعلّم كلّ ما تعلّمته في إيطاليا".

هزّ رأسه. لا شكّ في ذلك. "ولكن أين كنّا؟ هاري بيرسي، الذي كان يُعتبر متزوّجاً، على حدّ قولك، من الليدي آن بولين، كان واقفاً أمام أبيه، وكان أبوه يقول...؟".

"إنّه إن ورت اللقب، فستكون نهاية أسرته النبيلة، وسيكون آخر إيرل لنورثمبيرلانند. وقال، الحمد لله الذي رزقني بأبناء آخرين... وعاد يمشي. ترك الصبي يبكي. كان قد وقع في غرام الليدي آن. ولكنّ الكاردينال زوّجه من ماري تالبوت، وهما الآن بائسان

مثل فجر أربعاء الرماد. وقالت الليدي أن - في الواقع، جميعنا ضحكنا في ذلك اليوم - قالت، إن أمكنها الإساءة إلى الكاردينال فلن تتردد في ذلك. هل يمكنك أن تتخيل كم ضحكنا؟ فتاة وقحة، أعذرتني، ابنة فارس، تهدد سيدي الكاردينال! ثار غضبها لأنها لم تتمكن من الزواج من إيرل! ولكننا لم نعلم حينذاك كم ستعلو منزلتها".

ابتسم.

قال كافنديش: "إذاً، أخبرني، بماذا أخطأنا؟ أنا سأخبرك. لقد تمّ تضليلنا طيلة الوقت، الكاردينال، الشاب هاري بيرسي، أباه، أنت، أنا، لأنه حين قال الكاردينال، الليدي أن لن تتزوج من نورثمبيرلاند، ظننت... ظننت، أن الملك أعجب بها، منذ كل ذلك الوقت".

"بينما كان على علاقة بماري، كان يفكر في أختها أن؟".
"أجل، أجل!".

قال: "أتساءل، كيف يمكن للملك، على الرغم من اعتقاد جميع أولئك الناس أنهم يعرفون كيف يسعدونه، أن يواجه عائقاً عند كل منعطف". عند كل منعطف، يواجه عائقاً: الغضب والحيرة. الليدي أن، التي اختارها لإمتاعه، بينما أبعدت زوجته القديمة وأحضرت زوجته الجديدة، ترفض الانصياع له. كيف ترفض؟ لا أحد يعرف. بدا كافنديش مكتئباً لأنهما لم يكملا المسرحية. قال له: "لا بدّ من أنك تعبت".
"كلاً، أنا أفكر وحسب. كيف أمكن سيدي الكاردينال..."، أراد أن يقول، أن يغفل عن تلك الخدعة، ولكنها ليست طريقة محترمة للتحدّث عن الكاردينال. رفع رأسه.
"تابع. ماذا حدث بعد ذلك؟".

في أيار/مايو من عام 1527، كان الكاردينال في مزاج سيئ، ففتح محكمة تحقيق في قصر يورك، للبحث في شرعية زواج الملك. كانت محكمة سرّية، ولم يكن مطلوباً من الملكة المثل أمامها أو حتى أن تكون ممثّلة فيها، لا بل لم يكن من المفترض بها أن تعلم، ولكنّ أوروبا بأسرها كانت تعلم بذلك. كان مطلوباً من هنري أن يمثل، وأن يبرز الحكم الذي أتاح له الزواج من أرملة شقيقه. فعل ذلك، وكان واثقاً من أنّ المحكمة ستجد عيباً ما في الوثيقة. كان وولزي مستعداً للقول إنّ الزواج مفتوح على الشكّ. ولكنّه أخبر هنري أنّه لم يعرف ما كان يمكن للمحكمة فعله من أجله بعد هذه الخطوة الإعدادية، لا سيّما وأنّ لكاثرين الحقّ بالاستئناف في روما. عاشت كاثرين والملك على أمل إنجاب وريث ستّ مرّات (على حدّ علم العالم).

قال وولزي: "أذكر طفل الشتاء. أفترض، يا توماس، أنك لم تكن قد عدت إلى إنكلترا حينها. يومذاك، شعرت الملكة بآلام غير متوقّعة، ووُلد الأمير باكراً، عند نهاية العام. حملته بين يديّ، ولم يكن عمره يتجاوز الساعة من الزمن، وكان الثلج يتساقط خارج النوافذ، والغرفة مضاءة بنار المدفأة، كان الظلام قد حلّ عند الساعة الثالثة، بينما أخفى الجليد آثار الطيور والوحوش تلك الليلة. مُسحت جميع آثار العالم القديم، وزالت الآمنا. أسمىناه أمير العام الجديد، وقلنا إنّه سيكون الأغنى، والأكثر وسامة وإخلاصاً. أضاءت الاحتفالات لندن بأكملها... لم يعيش سوى اثنين وخمسين يوماً، عدت كلّ يوم منها. أظنّ أنّه لو عاش، لكان ملكنا، لن أقول ملكاً أفضل، فهذا صعب، بل لكان مسيحياً أكثر قناعة".

كان الطفل الثاني صبيّاً توفي بعد ساعة من مولده. وعام 1516، وُلدت طفلة، الأميرة ماري، وكانت صغيرة ولكنها قوية. في العام التالي، أجهضت الملكة جنيناً ذكراً، وعاشت له أميرة صغيرة أخرى بضعة أيام فقط، كانت ستُدعى إليزابيث، على اسم والدة الملك.

قال الكاردينال إنّ الملك تحدّث أحياناً عن أمّه، إليزابيث بلانتاجينيت، ففاضت عيناه بالدموع. كانت، كما تعلم، سيّدة في غاية الجمال والهدوء، تتقبّل بخنوع تقلّبات الدهر. أنعم الله عليها وعلى زوجها الملك بعدد من الأطفال، ومات بعضهم. ولكن، قال الملك، وُلد أخي آرثر خلال عام من زواج أمي وأبي، وتبعه بعد مدّة غير طويلة ابن جميل آخر، هو أنا. لماذا إذاً أجد نفسي، بعد عشرين عاماً، مع ابنة ضعيفة واحدة يمكن لأيّ هبة ريح أن تهلكها؟

والآن، وبعد زواج دام طويلاً، تساءل هذان الزوجان ما إذا كانا قد عاشا في الخطيئة. ربّما كان يقول البعض إنّه من الأفضل تحريرهما؟ قال الكاردينال: "أشكّ أنّ كاثرين ستفكّر على هذا النحو. لو أنّ ضمير كاثرين مثقل بخطيئة ما، صدّقني أنّها كانت ستعترف بها. حتّى لو استغرق ذلك عشرين سنة قادمة".

سأل هنري الكاردينال: "ماذا فعلت؟ ماذا فعلت، وماذا فعلت هي، ماذا فعلنا معاً؟". لم يجد الكاردينال جواباً، مع أنّ قلبه كان ينزف دماً على أميره المحبّ للخير. لم يجد جواباً، كما أنّه شعر بشيء غير صادق تماماً في السؤال. كان يفكّر، مع أنّه لن يقول ذلك إلاّ في غرفة صغيرة وحده مع رجل أعماله، وهو يظنّ أنّ الملك عاقل. قال: "انظر إلى الأمثلة الموجودة أمامنا. دين كوليت، ذاك العالم العظيم. إنّه واحد من اثنين وعشرين طفلاً، وهو الوحيد الذي تجاوز سنّ الطفولة. قد يقول البعض، لا

بدّ من أنّ السير هنري وزوجته كانا شخصين ظالمين وخاطئين في العالم المسيحي، ليستحقّ هذا العقاب الإلهي. ولكن في الواقع، كان السير هنري عمدة لندن...".
"مرتين".

"... وجمع ثروة فاحشة، وبالتالي، لا يمكن القول إطلاقاً إنّه لم ينل نصيباً من الخير في الحياة، بل كان فضل الخالق عليه كبيراً".
إن ما يقتل أطفالنا هي الأمراض، والجوع، والحرب وعضّات الجرذان، والهواء الفاسد، وبخار المياه الآسنة؛ قلّة المحصول، كما حدث في هذا العام والعام الفائت؛ إهمال المربيات. قال لولزي: "كم عمر الملكة الآن؟".
"أفترض أنّها في الثانية والأربعين".

"ويقول الملك إنّها لا يمكن أن تتجب المزيد من الأطفال؟ كانت أمي في الثانية والخمسين حين أنجبتني".
حدّق إليه الملك، وقال: "هل أنت واثق؟". ثمّ ضحك على نحو بهيج وسلس يدفعك على الاعتقاد أنّه من الجيّد أن تكون أمير كنيسة.
"في الواقع، تقريباً في هذه السنّ. فوق سنّ الخمسين". لم تكن عائلة كرومويل دقيقة في هذه المسائل.
"وهل ظلت على قيد الحياة؟ أهنتكما أنتما الاثنان. ولكن لا تخبر الناس بذلك، اتّفقنا؟".

كانت ثمرة كلّ المرّات التي أنجبت فيها الملكة هي ماري قصيرة القامة، والتي لا تُعتبر أميرة كاملة، بل ربّما ثلثي أميرة. كان قد رآها عندما زار البلاط مع الكاردينال، وفكّر يومذاك في أنّها بحجم ابنته آن، التي تصغرها بسنتين أو ثلاث.
كانت آن كرومويل فتاةً صغيرة وقوية، بإمكانها التهام أميرة عند الإفطار. لم تكن تبدي كثيراً من الاحترام للناس، وكانت عيناها، الصغيرتان والثابتتان كعيني أبيها، تنظران ببرود إلى من يمرّون أمامهما. كانت مزحة العائلة هي كيف ستكون لندن حين تصبح آن عمدتها. أمّا ماري تيودور، فكانت دميةً باهتة، وذكية، ذات شعر بلون وبر الثعلب، تتحدّث بحدّة تفوق حدّة أسقف عادي. لم تكن قد تجاوزت العاشرة من عمرها حين أرسلها والدها إلى لادلو، كأميرة ويلز. هناك، تزوّجت كاترين، وهناك توفي زوجها آرثر، وهناك أوشكت على الموت بسبب الوباء الذي انتشر في ذلك العام، فتركت مريضة، ضعيفة، ومنسيّة، إلى أن دفعت زوجة الملك القديم من مالها الخاصّ لإحضارها إلى لندن، على حمالة، في رحلة دامت أياماً مؤلمة. لقد أخفت

كاثرين، وهي تخفي الكثير، أي حزن حيال رحيلها مع ابنتها. فهي نفسها ابنة ملكة حاكمة. إذاً، لم لا تحكم ماري إنكلترا؟ كانت قد اعتبرت ذلك إشارة على كون الملك راضياً.

ولكنها تعرف الآن أنّ هذا غير صحيح.

ما إن التّأمت جلسة الاستماع السريّة، حتّى أخرجت كاثرين جميع الأحزان التي تعتمل في نفسها. بالنسبة إليها، كانت المسألة برمتها من خطأ الكاردينال. قال وولزي: "قلت لك، قلت لك إنّ هذا سيحدث. ماذا عن يد الملك في هذا؟ ماذا عن رغبة الملك؟ كلاً، لا ترى ذلك. فالملك في عينيها منزّه عن الخطأ".

منذ أن عمل وولزي في خدمة الملك، كانت الملكة تدّعي أنّه يسعى إلى إزاحتها من مركزها كأمانة أسرار هنري وناصحته. استخدم جميع السبل - على حدّ قولها - لإبعادي عن الملك، كي لا أعلم شيئاً عن مشروعاته، وكي يسيّر الكاردينال الأمور على هواه. منعني من الاجتماع بسفير إسبانيا. وضع جواسيس في منزلي، فجميع نسائي جاسوسات لحسابه.

قال الكاردينال بسأم: "أنا لم أفضل الفرنسيين، ولا الإمبراطور أيضاً، بل سعيت وراء السلام. أنا لم أمنعها من رؤية السفير الإسباني، بل تقدّمت بطلب منطقي جدّاً، وهو ألاّ تراه بمفردها، كي أراقب التلميحات والأكاذيب التي يقولها لها. سيّدات قصرها هنّ نساء إنكليزيات لديهنّ الحقّ بالعناية بملكتهنّ؛ أمن الممكن بعد ثلاثين عاماً تقريباً من وجودها في إنكلترا، ألاّ تخدمها سوى الإسبانيات؟ أمّا بالنسبة إلى إبعادها عن الملك، كيف لي فعل ذلك؟ لقد ظلّ الملك يرّد لسنوات، يجب أن ترى الملكة هذا، وستحبّ كاثرين سماع ذلك، فلنذهب إليها على الفور. ما من سيّدة مطلّعة أكثر منها على شؤون زوجها".

إنّها تعرفهما، وللمرّة الأولى، لا تريد الانصياع لهما.

هل المرأة ملزمة بطاعة زوجها، حين تكون النتيجة إخراجها من مكانتها كزوجة؟ كان كرومويل معجباً بكاترين: معجباً بطريقتها في التقلّب في القصور الملكية، بقامتها الطويلة، وأثوابها العريضة المطعّمة بالأحجار الكريمة والتي تبدو وكأنّها مصمّمة، لا للجمال، بل لردّ ضربات السيوف. كانت تجمع شعرها الأحمر، الذي بهت لونه وخطّه الشيب، إلى الخلف تحت قبعتها مثل جناح دوريّ. وكانت ترتدي تحت ثوبها ملابس راهبة فرانسيسكانية. فقد قال له وولزي: حاول دائماً أن تعرف ما يرتديه الناس تحت ملابسهم. في مرحلة سابقة من حياته، لفاجاه هذا القول، فقد كان يظنّ أنّ

الناس لا يرتدون تحت ملابسهم سوى جلدهم.

قال الكاردينال إنّه ثمة سوابق عدّة يمكن أن تساعد الملك في قضيتّه الحالية. فقد سُمح للملك لويس الثاني عشر بالانفصال عن زوجته الأولى. وثمة مثال أقرب يتمثّل بشقيقته مارغريت، التي تزوّجت أولاً من ملك اسكتلندا، والتي طلّقت زوجها الثاني ثمّ تزوّجت مجدّداً. كما أنّ صديق الملك، تشارلز براندون، المتزوّج الآن من شقيقته الصغرى ماري، كان قد ألغى زواجاً سابقاً في ظروف لم تخضع لأيّ تحقيق. ولكن في المقابل، لم تكن الكنيسة مستعدّة لحلّ زيجات مشرّعة أو تحويل أطفال شرعيين إلى غير شرعيين. إن كان في الحكم عيب تقني، أو عيب من أيّ نوع آخر، فلم لا يمكن تحسينه بحكم جديد؟ هذا ما قد يفكّر فيه البابا كليمنت، على حدّ قول وولزي.

حين قال ذلك، راح الملك يصرخ. كان قادراً على التصرف بقلة اكرثا إزاء الصراخ، فالمرء يعتاد على ذلك، وراقب كيف تصرف الكاردينال، مع هبوب العاصفة فوق رأسه. رسم على وجهه نصف ابتسامة مهذّبة ونادمة، وانتظر الهدوء الذي عقب العاصفة. ولكنّ وولزي بدأ يضطرب، بانتظار ابنة بولين، ليست تلك سهلة المعشر، بل شقيقتها الصغرى، مسطّحة الصدر، لتنتهي مفاوضاتها الحبيّة وترضي الملك. إن فعلت ذلك، ستتغيّر نظرة الملك إلى الحياة ويتوقّف عن الإصغاء إلى تأنيب ضميره. فكيف يمكن له ذلك وسط علاقة حبّ؟ ولكنّ بعض الناس يظنّون أنّها تساوم الملك، ويرى بعضهم الآخر أنّها تريد أن تكون الزوجة الجديدة، وهذا أمر مثير للضحك، على حدّ قول وولزي. ولكنّ الملك متيمّ بها، وهو لن يرفض ربّما، ليس في وجهها. كان قد لفت انتباه الكاردينال إلى خاتم الزمرد الذي تضعه الليدي آن حول إصبعها الآن، وأخبره عن مصدره وثمانه. فبدت الصدمة على وجه الكاردينال.

بعد مسألة هاري بيرسي، قام الكاردينال بإرسال آن إلى منزل عائلتها في هيفر، ولكنّها تسلّلت عائدة إلى البلاط، بين وصيفات الملكة، والآن لم يعد يعرف أبداً أين ستكون، وما إذا كان هنري سيفلت من قبضته لأنّه يلاحقها في جميع أنحاء البلاد. فكّر في الإرسال بطلب والدها، السير توماس، لوضع حدّ لها مجدّداً، ولكن، حتّى من دون ذكر الشائعة القديمة عن هنري والليدي بولين، كيف يمكنك أن تشرح لرجل أنّه، ما دامت ابنته الأولى مومساً، كذلك ستكون ابنته الثانية: ملمحاً إلى أنّها مهنة عائلية يدفعهنّ إلى ممارستها؟

قال: "بولين ليس ثرياً. سأطلب مقابلته، وأحدّد له الثمن، الجانب الدائن والجانب

المدين".

قال الكاردينال: "آه نعم، ولكنك سيّد الحلول العملية، أمّا أنا، وبصفتي رجل دين، فعليّ أن أحرص على عدم السعي فعلياً إلى نصح ملك بلادي بالتورط في علاقة زنى مدروسة". حرّك المحابر فوق مكتبه، وقلّب بعض الأوراق. "توماس، لو كنت يوماً... كيف أقولها؟".

لم يستطع أن يتخيّل ما سيقوله الكاردينال لاحقاً.

"لو كنت يوماً مقرّباً من الملك، ووجدت، ربّما بعد رحيلي..."، ليس من السهل الحديث عن عدم الوجود، حتّى لو كنت قد سبق وأوصيت بصنع التابوت. فولزي لم يكن يستطيع تخيّل العالم من دون وولزي. "في الواقع، أعرف أنّني أفضل أن تكون أنت في خدمته، وعدم البقاء بعيداً، ولكنّ الصعوبة...".

هو كان يعني بوتني، تلك الحقيقة الفضة. وبما أنّه ليس رجل دين، ما من ألقاب كنسية لتليينها، كما قاما بتليين حقيقة إبسويتش الفضة.

قال وولزي: "أتساءل ما إذا كنت ستمك صبراً على ملكنا. حين ينهض في منتصف الليل ليشرب ويضحك مع براندون، أو يغني، وتكون أوراق النهار تنتظر توقيعه، وحين تحته على ذلك يقول: سأخذ الآن إلى النوم، غداً سنذهب إلى الصيد... إن أتحت لك فرصة خدمته، فسيتحتّم عليك القبول به كما هو، أمير محبّ للمتعة. وسيكون عليه القبول بك كما أنت، أي مثل واحد من كلاب القتال مرتبة الشكل التي يجرّها الرجال بالحبال. هذا لا يعني أنّك لا تتمتع بتوقّعات منقطّعة، يا توم".

إنّ فكرة تمكّنه هو أو أيّ شخص آخر من امتلاك السلطة التي لدى وولزي على الملك هي أشبه بتوقّع أن تصبح آن كرومويل عمدة لندن. ولكنّه لم يُسقط الأمر تماماً من اعتباره. فسبق له أن سمع بجان دارك، وليس من الضروري أن ينتهي به الأمر بين السنة النيران.

عاد إلى البيت وأخبر ليز عن كلاب القتال. كانت تظنّ هي أيضاً أنّه قادر على ذلك. ولكنّه لم يخبرها عن توقّعاته المنقطّعة، فربّما كان الكاردينال هو الوحيد الذي يمكن أن يراه.

كانت محكمة التحقيق على وشك أن تحلّ وتوجّل القضية لمزيد من المشاورات، حين وصلت أنباء من روما تفيد أنّ جيوش الإمبراطور الإسبانية والألمانية، التي لم تتقاض راتبها منذ أشهر، تجوب أرجاء المدينة على هواها، تنهب كنوزها وترجم

أعمالها الفنية بالحجارة. كان الجنود الذين يرتدون الملابس المسروقة قد عمدوا إلى اغتصاب زوجات وعذارى روما، وحطّموا التماثيل على الأرصفة. سرق أحد الجنود رأس الرمح وعلّقه بنصل سلاحه القاتل. وقام زملاؤه بنهب القبور القديمة وأخرجوا منها الرماد البشري، ثم ذروه في الهواء. كان نهر التيبر يعجّ (يطفح) بالجنث المطعونة والمذبوحة التي تتدافع إلى الشاطئ. أمّا أسوأ الأنباء، فأفادت أنّ البابا سقط أسيراً. وبما أنّ الإمبراطور الشاب تشارلز، هو المسؤول اسماً عن تلك الجيوش، ومن المفترض أن يؤكّد سلطته ويستغلّ الوضع، فقد وُضعت قضية زواج الملك هنري جانباً. تشارلز هو ابن أخت الملكة كاثرين، وبما أنّ البابا كليمنت بين يديه (في عهدته)، ليس من المرجّح أن ينظر بعين العطف إلى أيّ استئناف قد يُرفع من ممثّل البابا في إنكلترا.

قال توماس مور إنّ جيوش الإمبراطور تقوم بشواء الأطفال لمجرد المتعة. قال توماس كرومويل، آه، ليس غريباً أن يقول شيئاً كهذا. اسمع، الجنود لا يفعلون ذلك، فهم مشغولون جدّاً بحمل كلّ ما يمكن تحويله إلى مال.

من المعروف أنّ مور كان يرتدي تحت ملابسه سترة طويلة من شعر الحصان. كان يجلد نفسه بسوط صغير، من نوع تلك السياط المستعملة في بعض الرهبانيات. فكّر توماس في أن ثمة من يصنع تلك الأدوات المستعملة في التعذيب اليومي. ثمة من يمشط شعر الحصان في خصل خشنة، ويعقدّها، ويقصّ أطرافها، وهو يعرف أنّها ستُستعمل ليضرب بها الجلد وتخلف فيه القروح المؤلمة. هل الرهبان هم الذين يصنعونها، يعقدونها يقصونها في فورة استقامة حانقة، ويضحكون وهم يفكّرون في الألم الذي ستسببه لأشخاص مجهولين؟ هل يُدفع المال لقرويين بسطاء لصنعها؟ كم للدرّينة الواحدة يا ترى؟ هل هذا ما يشغل عمّال المزارع خلال أشهر الشتاء الطويلة؟ حين يقبض الصناع المال مقابل عملهم الصادق، هل يفكّرون في الأيادي التي ستمسك بالبضاعة؟

فكّر، لا حاجة إلى دعوة الألم، فهو بانتظارنا عاجلاً أم آجلاً. اسأل عذارى روما. فكّر أيضاً أنّه ينبغي إيجاد مهن أفضل للناس.

قال الكاردينال عندئذٍ، دعنا نتراجع خطوة إلى الخلف لتكون نظرتنا أكثر موضوعية. كان يشعر بقلق حقيقي. لطالما كان مؤكّداً بالنسبة إليه أنّ أحد أسرار الاستقرار في أوروبا هو أن تكون البابوية مستقلة، وبمناى عن تدخّل فرنسا أو الإمبراطور. ولكنّ عقله الذكي بدأ يبحث عن مصلحةٍ لهنري.

قال، افرض - لأنه في هذه الحالة الطارئة، سيتوجّه البابا كليمنت إليّ للحفاظ على تماسك العالم المسيحي - افرض لو أنني أعبّر القناة، وأتوقّف في كاليه لأطمئن شعبنا هناك، وأقمع الشائعات المؤذية، ثم أسافر إلى فرنسا وأتحدّث إلى ملكهم وجهاً لوجه، قبل أن أوصل طريقي باتجاه أفينيون، التي يعرف أهلها كيف يستضيفون اجتماعاً بابوياً، والتي عاش فيها الجرّارون والخبّازون، وصانعو الشموع، والنواطير، وحتى المومسات في الأمل كلّ تلك السنوات. ثمّ أدعو الكرادلة إلى ملاقاتي هناك، وأقيم مجلساً، بحيث يتمّ تنفيذ الأعمال الكنسية في أثناء وجود البابا في ضيافة الإمبراطور القسرية. وإن كانت الأعمال التي تُرفع إلى هذا المجلس تشتمل على قضية الملك الخصوصية، هل من مبرّر لنا عندها أن ندع هذا الملك المخلص لدينه ينتظر حلّ أحداث عسكرية في إيطاليا؟ ألا يمكننا أن نصدر حكماً في قضيّته؟ لن يكون من الصعب على الناس إرسال رسالة إلى البابا كليمنت، حتّى وإن كان في الأسر، وعودة أولئك الناس بردّ يؤيّد حكمنا بالتأكيد، لأننا سنكون قد سمعنا جميع الوقائع. وبالطبع، عندما يحين الوقت، وجميعنا نتطع إلى ذلك اليوم، ويستعيد البابا كليمنت حريّته التامّة، سيكون ممثلاً لحسن سير الأمور في غيابه، وستكون مسألة التواقيع والأختام مجرد شكليات. وهكذا، يصبح ملك إنكلترا أعزب.

قبل حدوث ذلك، يتعيّن على الملك التحدّث إلى كاثرين. إذ من غير الممكن أن يذهب ويستمتع بوقته في مكان آخر، بينما هي تنتظره بصبر وثبات، وتعدّ له مكاناً للعشاء في جناحها الخاصّ. حدث ذلك في حزيران/يونيو من عام 1527؛ كان الملك قد حلق ذقنه وسرّح شعره، وبدا طويلاً وشاباً من بعض الزوايا. كان يرتدي ملابس حريرية بيضاء، وهو يشقّ طريقه إلى جناح زوجته. مشى في هالة من عطر الورود، وكأنّه يملك جميع الورود، وجميع ليالي الصيف.

تحدّث بصوت منخفض، ولطيف، ومقنع، ومليء بالندم. قال، لو أنّه كان حرّاً، ولم يكن ثمة عائق، لكان اختارها هي وحدها، قبل أي اعتبار آخر عن كلّ النساء، زوجةً له. لن يهّمه عدم إنجاب الأبناء، تلك هي مشيئة الله. لن يفضّل شيئاً على الزواج منها مجدّداً، وقانونياً هذه المرّة. ولكن، لا سبيل إلى ذلك. كانت زوجة أخيه، وكان زواجهما مخالفاً للقانون الكنسيّ.

كان بالإمكان سماع ما قالته كاثرين. فذاك الجسد المحطّم، الذي تحافظ على تماسكه التخاريم والأشرطة، يضمّ صوتاً يمكنك سماعه حتّى كاليه. فهو يدويّ من هنا حتّى باريس، وحتّى مدريد، وحتّى روما. أصرت على مركزها، وأصرت على

حقوقها. ارتجت النواذ من هنا حتّى القسطنطينية.
يا لها من امرأة، قال توماس بالإسبانية، من دون أن يتوجّه إلى شخص معيّن.

في أواسط تموز/يوليو، بدأ الكاردينال يستعدّ لرحلته عبر القنال. حرّ لندن أخلى المدينة من سكانها. فقد غادرها بعض سكانها، بينما كان كثير غيرهم يفكرون في ضرورة الرحيل، ويتذمّرون من الصداق وآلام المفاصل. كانت كلّ الأحاديث في المتاجر تدور حول الأقراص ووصفات الشراب، بينما يمارس الرهبان في الشوارع تجارة مربحة بالقلائد ذات القيمة الدينية. وصلنا هذا الطاعون عام 1485، مع الجيوش التي أحضرت إلينا أوّل هنري تيودور. وهو الآن يملأ المقابر كلّ بضع سنوات، إذ يقتل المصاب خلال يوم واحد. فيقول الناس ساخرين: يكون المرء بألف خير في الصباح، ويموت عند الظهر.

هكذا، كان الكاردينال مسروراً لمغادرة المدينة، مع أنّه لا يستطيع ركوب السفينة من دون حاشية ملائمة لأمير كنيسة. عليه إقناع الملك فرنسوا بالجهود التي ينبغي بذلها، في إيطاليا، لتحرير البابا كليمنت بعمل عسكري، وعليه أن يؤكّد لفرنسوا صداقة ملك إنكلترا ودعمه، ولكن من دون أن يعد بأيّ جيوش أو أموال. ولو جرت الرياح كما يشتهي، فلن يرجع بالغاء للزواج فحسب، بل وبمعاهدة تعاون متبادل بين إنكلترا وفرنسا، ستبعث الرعشة في مفاصل الإمبراطور الشاب، وتستدرّ دمعة من عينه الهابسبورغية الصغيرة.

إذاً، لماذا لا يشعر بسعادة أكبر وهو يسير نحو غرفته في قصر يورك؟ "علام سأحصل، يا كرومويل، إن فزت بكلّ ما أطلبه؟ سيتمّ إبعاد الملكة، التي لا تحبّني. وإن واصل الملك جنونه، سيدخل آل بولين، الذين لا يحبّونني أيضاً. فالفتاة حاقدة عليّ، هزئت بوالدها لسنوات، وخالها نورفولك يتمنّى لو يراني ميتاً. هل تظنّ أنّ موجة الطاعون ستكون قد انتهت حين أعود؟ عليك الخروج من المدينة أنت أيضاً في أثناء غيابي".

تنهّد؛ هل الكاردينال هو عمله الوحيد في المدينة؟ كلاً، إنّهُ السيّد الذي يحتاج إلى اهتمام متواصل وحسب. العمل يتزايد دائماً. حين يعمل للكاردينال، في لندن أو في مكان آخر، يغطّي نفقاته ونفقات الأشخاص الذين يرسلهم في أعمال وولزي من ماله الخاصّ. قال له الكاردينال: ادفع لنفسك ما أنفقته، ويمنحه الثقة بأخذ نسبة عادلة فوق ذلك. لم يراوغ، لأنّ ما يناسب توماس كرومويل يناسب توماس وولزي، والعكس بالعكس. كانت أعمال المحاماة تزدهر، وكان قادراً على إقراض المال بالرّبا، وترتيب

ديون أكبر حجماً في السوق الدولية، وتقاضي رسوم سمسار. فالسوق متقلّبة، والأنباء التي تأتي من إيطاليا ليست جيّدة على الدوام، ولكنه يحبّ المخاطرة. وثمة عدد من النبلاء المدينين له بالمال، ليس لأنّه ربّب لهم القروض، بل لأنّه رفع قيمة إيرادات أملاكهم. ولم يعمد في سبيل ذلك إلى ابتزاز المستأجرين، بل زوّد المالك بدراسة دقيقة لقيمة الأراضي، ومردود المحاصيل، وإمدادات المياه، والأملاك المبنية، ثمّ قيّم مردودها جميعاً. بعد ذلك، عيّن أشخاصاً لامعين لإدارة تلك الأملاك، وتعاون معهم لوضع نظام محاسبة سنوي يمكن مراقبته. فكان تجّار المدينة يطلبون مشورته بالنسبة إلى شركائهم في الخارج. إلى جانب ذلك، كان يمارس التحكيم، الذي تركّز حول المنازعات التجارية عموماً، لا سيّما وأنّ قدرته على تقييم وقائع القضية وإعطاء قرار سريع وغير متحيّز موثوقة هنا، وفي كاليه، وآنويرب. فإن اتّفقت أنت وخصمك على الأقلّ على توفير تكاليف المحكمة وتأجيلاتها، فإنّ كرومويل هو الرجل الذي تحتاج إليه، وغالباً ما ينجح في إعطاء حلّ يرضي الجانبين.

كلّ يوم يكسب فيه نزاعاً، هو يوم جميل بالنسبة إليه. يقول له السير توماس مور شيئاً ما. ولكن حين يستيقظ مور، ذاك العالم الموقر في جميع أنحاء أوروبا، في تشيلسي من أجل أداء الصلاة الصباحية باللاتينية، ينهض هو للذهاب إلى الأسواق. وحين يُخضع مور نفسه لجلسة جلد ذاتي، يكون هو ورايف مسرعين باتجاه شارع لومبارد لمعرفة أسعار صرف العملات لذلك اليوم. هو لا يسرع تماماً، فثمة إصابة قديمة تعيقه أحياناً، وحين يتعب تستدير إحدى قدميه إلى الداخل، وكأنّه يسير باتجاه نفسه. يقول الناس إنّها من مخلفات صيف مع سيزار بورجا. كان يحبّ القصص التي تُروى حوله. ولكن أين هو سيزار الآن؟ لقد مات.

يقول الناس: "توماس كرومويل؟ إنّهُ رجل عبقرى. هل تعرف أنّهُ يحفظ العهد الجديد عن ظهر قلب؟". إنّهُ الرجل المناسب للتحدّث حين يدور جدل ديني، وهو الرجل المناسب لإعطاء مستأجري أملاكك اثني عشر سبباً يثبت أنّ الإيجار عادل. إنّهُ الشخص المناسب لتخليصك من شرك قانوني علقته فيه منذ ثلاثة أجيال، أو إقناع ابنتك الصغرى بالزواج من شخص أقسمت على عدم الزواج منه. يستخدم مع الحيوانات، والنساء، والخصوم الخجولين أسلوباً لطيفاً وسلساً، ولكنه يدفع دائنيك إلى البكاء. يمكنه أن يتحدّث إليك عن القياصرة أو أن يشتري لك آنية زجاجية من البندقية بسعر منطقي جدّاً. لا يمكن لأحد مجاراته بالكلام، إن أراد التكلّم. لا يمكن لأحد التصرّف بحكمة أكثر منه حين تنهار الأسواق ويقف الرجال في الشارع ويكون

ويمزقون كتب الاعتماد. قال في إحدى الليالي: "ليز، أظن أننا خلال عام أو عامين سنصبح أثرياء".

كانت تطرّز قمصاناً لغريغوري برسم أسود، الرسم نفسه الذي تستعمله الملكة، لأنها تخط قمصان الملك بنفسها.

قال: "لو كنت مكان كاثرين، لتركيت الإبرة فيها".

ابتسمت مجيبة: "أعرف أنك كنت لتفعل".

بدأت ليزي صامته وجدّية منذ أن أخبرها كيف تحدّث الملك في لقائه مع كاثرين. فقد أخبرها أنّ عليهما الانفصال، بانتظار حكم بخصوص زواجهما. ربّما يتعيّن عليها الخروج من القصر؟ رفضت كاثرين، وقالت إنّ هذا مستحيل. قالت إنّها ستستشير محامين كنسيين، وإنّ عليه هو نفسه طلب مشورة محامين أفضل، وكهنة أفضل. وبعد الصراخ، سمع الناس الذين كانوا يضغطون آذانهم على الجدار بكاء كاثرين. "لا يحبّها أن تبكي".

تناولت ليز المقصّ قائلةً: "يقول الرجال، لا أحتمل رؤية دموع النساء، تماماً كما يقول الناس، لا أحتمل هذا الطقس الممطر. وكأنّ البكاء لا علاقة له بالرجال على الإطلاق، بل هو واحد من الأمور التي تحدث وحسب".

"لم أدفعك يوماً على البكاء، أليس كذلك؟".

قالت: "فقط البكاء من الضحك".

حلّ صمت بينهما. كانت تطرّز أفكارها الخاصّة، وكان يفكّر في ما يفعله بماله. كان يساعد طالبين شابين، لا ينتميان إلى العائلة، يدرسان في جامعة كامبريدج. فكّر في أنّه يستطيع زيادة تلك المنح، وقال: "أفترض أنّه يتعيّن عليّ كتابة وصيّة".

وضعت يدها على يده قائلةً: "توم، لا تمت".

"ربّاه، كلا. أنا لا أقترح ذلك".

فكّر في أنّه قد لا يكون ثرياً بعد، ولكنّه محظوظ. انظر كيف نهضت من تحت حذاء والتر، من صيف سيزار، ومن سلسلة من الليالي السيّئة في الشوارع الخلفية. يُفترض أن يرغب الرجال في نقل حكمتهم إلى أبنائهم، وهو مستعدّ لإعطاء الكثير لحماية ابنه من ربع ما يعرف. من أين أتى غريغوري بأطباعه الدمثة؟ لا بدّ من أنّها نتيجة أدعية والدته. فريتشارد وويليامز ابن كات، هو صبيّ حادّ، وعنيف، ومتطرّف. كريستوفر، ابن شقيقته بيت، ذكي ومطيع أيضاً. لديه أيضاً رايف سادلر، الذي يثق به كما لو أنّه ابنه. فكّر في أنّها ليست سلالة، بل بداية. وهذه اللحظات الهادئة

نادرة، لأنّ منزله يعجّ بالناس كلّ يوم، بأشخاص يريدون أن يصطحبهم إلى الكاردينال. منهم فنانون يبحثون عن موضوع، وطلاب ألمان وقورون يحملون كتباً تحت إبطهم، وتجار من لوبيك، وموسيقيون يمرّون في طريقهم لدوزنة آلات غريبة، وعملاء من مصارف إيطالية. منهم خيميائيون يقدّمون وصفات، وعلماء فلك يتوقّعون أموراً جيّدة، وتجار فراء من بولندا يبحثون عن شخص يتحدّث لغتهم. منهم طابعون، ونقاشون، ومترجمون، وكاتبو شيفرات. ومنهم شعراء، ومصمّمو حدائق، وقبلايين، ومهندسون. أين هم الليلة؟

قالت ليز: "صه، أصغ إلى المنزل".

في البداية، لم يسمع أيّ صوت. ثمّ بدأت الأصوات تعلو. سمع الطيور المعشعشة في المدافئ تتنقّل. هبّت نسمة من النهر، وحركت أوراق الأشجار قليلاً. سمعا صوت أنفاس الأطفال النائمين، وتخيّلاهم نائمين في غرفهم. قال لها: "تعالى إلى السرير". ليس بمقدور الملك قول ذلك لزوجته، ولا للمرأة التي يقال إنّه يحبّها.

الآن، كانت حقائب الكاردينال قد حُزمت للسفر إلى فرنسا. وكان سيمرّ في طريقه قبل أن يركب السفينة عبر دارتفورد، روتشستر، فافرشام، كانتربروري لثلاثة أو أربعة أيام، ويقوم صلوات في مزار بيكيت.

قال، توماس، إنّ عرفت أنّ الملك حصل على آن، ابعت إليّ برسالة في اليوم نفسه. لن أصدّق ذلك ما لم أسمع منك. كيف تعرفون أنّه حدث؟ أظنّ أنّك ستعرف من وجهه. وماذا إن يكن لكم شرف رؤيته؟ سؤال وجيه. أتمنّى لو أنّي عرّفتك إليه، كان يجدر بي اقتناص الفرصة حين توفّرت لي.

قال للكاردينال: "إنّ لم يسأم الملك من آن بسرعة، فلا أرى ماذا ستفعل. تعلم أنّ الأمراء يمتّعون أنفسهم، ومن الممكن عادةً إضفاء بريق على أعمالهم. ولكن ماذا عن حالة ابنة بولين؟ ماذا ستقدّم إليه تلك الفتاة؟ لن يحصل لا على معاهدات، ولا على أراضٍ، ولا على أموال. كيف يمكن اعتباره زواجاً مشرفاً على الإطلاق؟".

جلس وولزي وأسند مرفقيه إلى مكتبه، ثمّ راح يربّت بأصابعه على جفنيه المغمضين. أخذ نفساً عميقاً، ثمّ بدأ يتحدّث عن إنكلترا.

قال، لا يمكنك أن تعرف ألبيون*، ما لم ترجع إلى ما قبل زمانها. عليك الرجوع إلى ما قبل جيوش قيصر، إلى الزمن الذي كانت فيه عظام الحيوانات الضخمة والناس ملقياً على الأرض في المكان الذي ستبنى فيه لندن يوماً ما. عليك الرجوع إلى زمن طروادة الجديدة، والقدس الجديدة، وخطايا وجرائم الملوك الذين حاربوا تحت

رايات آرثر البالية والذين تزوجوا نساء خرجن من البحر أو فقسن من البيوض، نساء بحراشف وزعانف وريش، يبدو إلى جانبهنّ الزواج من آن أقلّ غرابة. قال، هذه قصص قديمة، ولكن لنتذكّر أنّ بعض الناس يصدّقونها.

تحدّث عن وفاة الملوك: كيف تلاشى ريتشارد الثاني في قصر بونتفراكت، وقُتل هناك أو مات جوعاً؛ كيف مات هنري الرابع، الذي اغتصب العرش، بسبب الجُذام الذي شوّه جسده، وقلّصه، حتّى أصبح بحجم قزم أو طفل. تحدّث عن انتصارات هنري الخامس في فرنسا والثن الذي دُفع في معركة آجينكور، ولم يكن مالاً. تحدّث عن الأميرة الفرنسية التي تزوّجها ذاك الأمير العظيم. كانت سيّدة جميلة ومحبّبة، ولكنّ أباهما كان مختلاً ويظنّ أنّه مصنوع من زجاج. من هذا الزواج بين هنري الخامس وأميرة الزجاج، ولد هنري آخر، حكم إنكلترا مظلمة كالشتاء، باردة، قاحلة، ومنكوبة. وأنت أولى بوادى الربيع مع إدوارد بلانتاجينيت*، ابن دوق يورك: كان ينتمي إلى برج الحمل.

حين أصبح إدوارد في الثامنة عشرة من عمره، استولى على المملكة، وفعل ذلك بسبب إشارة تلقّاهما. كان الإرباك والتعب من الحرب قد بلغا من جيوشه مبلغاً، في أظلم فترة من أظلم عام عرفه العالم. حينذاك، كان قد سمع الأنباء التي كان من المتوقّع أن تقصم ظهره. فقد وقع أبوه وأخوه الأصغر أسيرين لدى القوات اللانكاسترية، التي أدلتها وذبحتها. وصله النبا في الثاني من شباط/فبراير، فجلس في خيمته مع جنرالاته، وطلب الرحمة للمذبوحين للروحين المذبوحتين. حلّ الثالث من شباط/فبراير، وكان يوماً مظلماً وجليدياً. وفي العاشرة صباحاً، أشرقت ثلاث شمس في السماء: ثلاثة أقراص فضّية، لمعت عبر جزيئات الضباب والجليد. ألقت بنورها فوق الحقول الكئيبة، وغابات الحدود الويلزية الرطبة، وفوق جيوشه المحبّطة التي لم تتقاض أجورها بعد. ركع رجاله يصلّون على الأرض الجليدية، وانحنى فرسانه للسماء، وحلّقت حياته بأكملها. في ذلك النور الساطع، رأى مستقبله. رأى في الوقت الذي لم يكن أحد فيه قادراً على رؤية شيء: وهذا معنى أن تكون ملكاً. في معركة صليب مورتيمر، أسر شخصاً يدعى أوين تيودور. فقطع رأسه في سوق هيرفورد وثبّته على صليب في الساحة. فقامت امرأة مجهولة بإحضار حوض من الماء وغسلت الرأس المقطوع وسرّحت شعره الدامي.

منذ ذلك الحين، منذ الثالث من شباط/فبراير، واليوم الذي سطعت فيه الشمس الثلاث، لم يلمس سيفه إلا لينتصر. بعد ثلاثة أشهر أصبح في لندن، ملكاً. ولكنّه لم

يرَ المستقبل مجدّداً، ليس بالوضوح الذي رآه به في ذلك العام. تعرّض مبهوراً بين أنسابه وكأنّه يسير في الضباب. كان يهتمّ كثيراً بعلماء الفلك، والكهنة، ومحبي الفانتازيا. لم يتزوَّج كما ينبغي للمصالح الخارجية، بل ارتبط بعدد من الوعود، التي لم يقطعها تماماً ولم ينكث بها تماماً، لعدد غير معروف من النساء. كانت إحداهن تنتمي إلى عائلة تالبوت، وكان اسمها إليانور، ولكن، بِمَ كانت تتميز؟ يقال إنّها تتحدّر، في أصلها النسائي، من امرأة كانت بجعة. ولماذا استقرت عاطفته أخيراً على أرملة فارس لانكاستري؟ هل لأنّ جمالها الأشقر البارد أثاره، كما يظنّ البعض؟ لم يكن هذا هو السبب تماماً، بل لأنّها ادّعت أنّها تتحدّر من امرأة أفعى، ميلوسين، التي نراها مرسومة على الأوراق القديمة، تلتفّ حول شجرة المعرفة وتشرف على اتّحاد الشمس والقمر. تظاهرت ميلوسين في حياتها أنّها أميرة عادية، وفانية، ولكنّ زوجها رآها عارية في أحد الأيام ورأى ذيلها الذي يشبه الأفعى. ومع إفلاتها من قبضته، توقّعت أنّ أولادها سيجدون سلالة تحكم إلى الأبد: سلطة بلا حدود. قال الكاردينال: "أفلتت وهربت ولم يرها أحد مجدّداً".

انطفأت بعض الشموع، ولكنّ وولزي لم يرسل بطلب مزيد منها. قال: "كما ترى، كان مستشارو الملك إدوارد يخطّطون لتزويجه من أميرة فرنسية، كما... كما كنت أنوي. وانظر ماذا حدث عوضاً من ذلك. انظر ماذا اختار".

"كم مضى على ذلك؟ منذ ميلوسين؟"

كان الوقت قد تأخّر، إذ كان قصر يورك العظيم هادئاً بأكمله، والمدينة نائمة. كان النهر يجري بصمت ويغرق ضفافه بالطمي. قال الكاردينال: "في هذه المسائل، لا يمكن قياس الزمن. فتلك الأرواح تنزلق من أيدينا وتفلت من العصور خلسةً".

"ولكنّ المرأة التي تزوّجها الملك إدوارد، ألم تطالب بعرش قشتالة؟ القديم جدّاً، الغامض جدّاً؟"

هزّ الكاردينال رأسه قائلاً: "ذاك كان معنى الشموس الثلاث. عرش إنكلترا، وعرش فرنسا، وعرش قشتالة. وهكذا، حين تزوّج ملكنا الحالي من كاثرين، كان يقترب من حقوقه القديمة. مع أنّي لا أتخيّل أنّ أحداً تجرّأ على قول ذلك للملكة إيزابيلا والملك فرديناند. ولكن، لا بأس من أن نتذكّر، ونقول من وقت إلى آخر، إنّ ملكنا هو حاكم ثلاث ممالك، وإن كان لكلّ منها ملكها الخاصّ".

"حسب روايتكم، سيّدي، فإنّ أحد أجداد ملكنا المنتمي إلى أسرة بلانتاجينيت قطع رأس أحد أجداده المنتمي إلى أسرة تيودور".

"لا بأس من معرفة ذلك، ولكن لا داعي لذكره".
"وماذا عن آل بولين؟ أظنّ أنهم كانوا تجّاراً، ولكن هل كان لديهم أنياب أفعى، أو أجنحة؟".

"أنت تسخر منّي، سيّد كرومويل".
"في الواقع، كلا. ولكنني أريد الحصول على أفضل المعلومات، إن كنت ستتركني لأراقب الوضع من أجلك".

تحدّث الكاردينال في ما بعد عن القتل. تحدّث عن الخطيئة، وعمّا ينبغي تكفيره. أخبره عن الملك هنري السادس، الذي قتل في البرج؛ عن الملك ريتشارد، الذي ينتمي إلى برج العقرب، برج الصفقات السريّة، والمحن، والشرّ. ففي بوسورث، التي توفي فيها هذا الملك، اتّخذت خيارات غير صائبة؛ فقد حارب دوق نورفولك إلى جانب الفريق الخاسر، وأخرج ورثته من أملاكهم. وكان عليهم بذل جهد كبير وطويل لاستعادتها. قال: "إذاً، هل تتساءل لماذا يرتعش دوق نورفولك خوفاً أحياناً، إن ثار غضب الملك؟ هذا لأنّه يخشى أن يخسر ما لديه، في فورة غضب الملك".

لاحظ الكاردينال أنّ خادمه يدوّن ملاحظات في ذهنه؛ تحدّث عن العظام المرتخية التي تخشخش تحت البرج، تلك العظام التي صنّعت منها السلاالم وطُحنت في وُحول التايمز. تحدّث عن ولدي الملك إدوارد اللذين اختفيا، وعن أصغرهما حتّى أنّه أوشك على الإطاحة بهنري تيودور. تحدّث عن القطع النقدية التي سكّها المطالب بالعرش، وطبع عليها رسالته إلى الملك التيودوري: "أيامك أصبحت معدودة. لقد وُضعت في الميزان، ولم ترجح كفتك".

تحدّث عن الخوف من عودة الحرب الأهلية حينذاك. فقد تمّ الاتفاق على تزويج كاثرين في إنكلترا، وسُمّيت أميرة ويلز منذ أن كانت في الثالثة من عمرها. ولكن قبل أن تسمح لها عائلتها بالإبحار من كورونا، طلبت ثمناً من الدم والعظام. فقد لفتت نظر هنري إلى المطالب الأوّل بالعرش، المنتمي إلى أسرة بلانتاجينيت، ابن شقيق الملك إدوارد والملك ريتشارد البغيض، الذي سجنه في البرج منذ أن كان في العاشرة من عمره. تحت شيء من الضغط، استسلم هنري. فتمّ إخراج الوردة البيضاء، وكان يبلغ الرابعة والعشرين من عمره، إلى النور والهواء، لقطع رأسه. ولكن ثمة دائماً وردة بيضاء أخرى. فال بلانتاجينيت ينجبون الأطفال، وإن لم يكن من دون مراقبة. سيكون دائماً ثمة حاجة إلى مزيد من القتل. قال الكاردينال: "على المرء أن يملك قوّة قلب لذلك، على ما أفترض، وإن كنت لا أظنّ أنّي أتمتع بهذه الصفة. فأنا أشعر

دائماً بالغبغان عندما يتم إعدام شخص ما، فأصلي لأجله، وأصلي للأموات. حتى إنني أصلي للملك ريتشارد البغيض أحياناً، مع أن توماس مور أخبرني أنه يحترق في الجحيم".

نظر وولزي إلى يديه، وحرك الخواتم الموضوعة حول أصابعه. تمتم قائلاً: "أتساءل، أيّ منها هو". فحساد الكاردينال قالوا إن لديه خاتماً يمكن صاحبه من الطيران، ويتيح له قتل أعدائه، يكشف السموم، ويحول الوحوش الضارية إلى حيوانات غير مؤذية، ويجلب رضى الأمراء، ويحميه من الغرق. "أفترض أن الآخرين يعلمون، سيدي. لأنهم استخدموا مشعوذين لصنع نسخة عنه".

"لو علمت، لصنعت نسخة عنه بنفسى، وأعطيتك إيّاها".

"التقطت يوماً أفعى في إيطاليا".

"ولماذا فعلت ذلك؟".

"كان رهاناً".

"هل كانت سامّة؟".

"لا أعرف، فهذا كان الهدف من الرهان".

"هل لسعتك؟".

"بالطبع".

"لماذا بالطبع؟".

"ما كانت القصة لتكون مشوّقة، لو أنني وضعتها على الأرض من دون أن أصاب بأذى، لتزحف بعيداً".

ضحك الكاردينال تلقائياً ثم قال: "ماذا سأفعل من دونك بين أولئك الفرنسيين المنافقين؟".

في المنزل في أوستن فرايرز، راحت ليز تتقلب في نومها. كانت شبه مستيقظة، لفظت اسمه واقتربت لتنام بين ذراعيه. قبل شعرها وقال: "جدّ ملكنا تزوّج من أفعى". تمتت ليز: "هل أنا مستيقظة أم نائمة؟". ثم استدارت إلى الجانب الآخر ومدّت إحدى ذراعيها. تساءل بماذا ستحلم. ظلّ مستيقظاً يفكر. كلّ ما فعله إدوارد، معاركه، وانتصاراته، فعله بمال ميديسي. كانت كتب اعتمادهم أهمّ من الإشارات والأعاجيب. لو لم يكن الملك إدوارد، كما يقول كثير من الناس، ابن أبيه إطلاقاً، لو لم يكن ابن دوق يورك؛ ولو أنّ أمّ الملك إدوارد، كما يظنّ بعض الأشخاص، قد أنجبته من

جندي إنكليزي مخلص، رام يدعى بلايبورن؛ وتزوج إدوارد من امرأة أفعى، لكان أولاده... غير موثوقين؛ هي الصفة التي تخطر على البال. ولو صدقنا جميع القصص القديمة، وعلينا أن نتذكر أن بعض الأشخاص يصدّقونها فعلاً، يكون ملكنا ابناً غير شرعي لرام، وثعباناً خفياً، وويلزياً، وبأصوله الثلاثة جميعها، مديناً للمصارف الإيطالية... سرعان ما غفا هو أيضاً. ضاعت حساباته، وغاب في عالم من الأشباح، اختفت فيه الأرقام. قال الكاردينال: "حاول دائماً أن تعرف ما يرتديه الناس تحت ملابسهم، لأنهم لا يرتدون جلدهم وحسب. جرد الملك من ملابسه، وستجد حراشف أسلافه، جلده الأفعواني الدافئ والصلب".

حين التقط أفعى في إيطاليا في رهان، كان عليه إمساكها حتى يعدّوا إلى العشرة. عدّوا ببطء، بأبطأ اللغات: آينز، تسفاي، دراي،... عند الرقم أربعة، حرّكت الأفعى رأسها ولسعته. بين الرقم أربعة وخمسة، شدّد قبضته. فصرخ بعضهم: "بالله عليك، أفلتها!". منهم من صلّى ومنهم من شتم، ومنهم من واصل العدّ. بدا على الأفعى أنها على وشك الاختناق؛ حين وصلوا جميعاً إلى الرقم عشرة، وليس قبل ذلك، وضع الأفعى الملتقّة بلطف على الأرض، وتركها تزحف نحو مستقبلها.

لم يشعر بأيّ ألم، ولكنّ الجرح الناتج عن اللسعة كان واضحاً. قام تلقائياً بلعقه، وعضّ رسغه تقريباً. لاحظ متفاجئاً جلده الإنكليزي الأبيض الذي يكسو الجهة الداخلية من ذراعه. رأى شرايينه الزرقاء الضيقة التي بثّت فيها الأفعى سمّها.

جمع المال الذي كسبه. انتظر الموت، ولكنّه لم يمُت. وإن كانت اللسعة قد تركت فيه أيّ أثر، فكان أن أصبح أقوى، سريعاً في الاختباء، وسريعاً في توجيه الضربات. ما من زعيم حيّ في ميلانو كان يستطيع مجاراته في الصياح، ولا من قبطان بيرني لا يستسلم أمام سمعته المخيفة أولاً، ثمّ يساومه لاحقاً. كانت ليلة حارّة من ليالي تموز/يوليو. وكان نائماً، يحلم. في مكان ما من إيطاليا، ثمّة ثعبان ملك أطفالاً. سمّى أولاده توماس، حملوا في رؤوسهم صوراً للتايمز، لضفاه الموحلة التي لا يصلها المدّ، ولا الماء.

حين استيقظ في اليوم التالي، كانت ليز لا تزال نائمة، والملاءات رطبة. بدت دافئة ومتورّدة، وبدا وجهها ناعماً وكأنّها فتاة صغيرة. قبل جبينها، وشعر بطعم الملح. تمتمت: "أخبرني متى ستعود إلى البيت؟".

قال: "ليز، أنا لست راحلاً. أنا لن أرافق وولزي". تركها. أتى حلاقه ليحلق له. رأى عينيه في مرآة مصقولة. بدتا مليئتين بالحياة، مثل عيني ثعبان. قال في نفسه، يا له

من حلم غريب.

حين نزل، اعتقد أنه يرى ليز تتبعه. اعتقد أنه يرى وميض غطاء رأسها الأبيض. التفت، وقال: "ليز، عودي إلى السرير..."، ولكنها لم تكن هناك. كان مخطئاً. تناول أوراقه، وذهب إلى فندق غراي.

كان يوم عطلة، والعمل فيه ليس مشروعاً. دارت الأحاديث حول الكتب، ومكان تيندايل (في مكان ما في ألمانيا)، وكانت المشكلة المباشرة تتعلق بمحام (إذاً، من سيقول إنه ينبغي له ألا يكون هناك، يزور غرايز إن؟) يدعى توماس بيلني، وهو كاهن أيضاً، وعضو في ترينيتي هول. كان يُدعى بيلني الصغير، بسبب قامته القصيرة وشبهه بالدودة. جلس يتلو على مقعد، ويتحدث عن إرسالته إلى المجذومين.

قال بيلني الصغير، وهو يدير مؤخرته الهزيلة، ويهز ساقيه المنكشيتين: "أستمع جداً بالكتاب المقدس".

قال له: "بالله عليك، يا رجل. لا تظن أنك تستطيع أن تزحف من جحرك لأن الكاردينال خارج البلاد. فأسقف لندن حرّ اليمين، هذا من دون أن نذكر صديقنا في تشيلسي".

قال بيلني: "القداديس، والصيام، وصلوات المساء، والمغفرة... كلّها بلا جدوى. أعلم ذلك. في الحقيقة، كلّ ما يبقى هو الذهاب إلى روما ومناقشة الأمر مع قداسته. أنا واثق أنه سيوافقني الرأي".

قال بكآبة: "هل تظن أن وجهة نظرك فريدة من نوعها؟ في الواقع، قد تكون كذلك، أيها الأب بيلني، إن كنت تظن أن البابا سيرحب بنصيحتك في هذه المسائل".
خرج قائلاً إنه ثمّة من سيقفز في النار، لو دعي إليها. كونوا حزينين، أيها السادة.

لم يكن يصطحب رايف إلى هذه الاجتماعات. فهو لن يجزّ أي فرد من أهل بيته إلى صحبة خطيرة. منزل كرومويل لم يقلّ تديناً عن أي منزل آخر في لندن. ووجب برأيه أن يبقى منزهاً عن العيوب.

لم تكن بقية النهار جدية بالذكر. كان عليه العودة إلى البيت باكراً، لو أنه لم يرتّب لقاء في المقاطعة الألمانية، في الستيلارد*، مع رجل من روستوك، أحضر معه صديقاً من ستيتين، عرض أن يعلمه شيئاً من البولندية.

قال بعد نهاية الأمسية: "إنها أسوأ من الويلزية. سأحتاج إلى كثير من الممارسة.

تعاليا إلى منزلي. أخبراني متى تستطيعان وسنتناول بعضاً من سمك الرنكة، وإلا، فمن حواضر البيت".

حين كانت تعود إلى البيت عند الغروب وترى المشاعل مضاءة، يكون ثمّة خطب ما. كان الهواء عذباً يشعر بكثير من الاسترخاء حين تدخل، فتحسّ أنّك شابّ، خالٍ من الندوب. ثمّ ترى الوجوه الكئيبة، التي تستدير عند رؤيتك.

أنت ميرسي ووقفت أمامه. رجاها قائلاً: "قولها".

نظرت بعيداً وقالت: "أنا آسفة جداً".

فكّر في أنّه غريغوري، فكّر في أنّ ابنه مات. ثمّ بدأ يدرك نصف حقيقة ما يجري، أين ليز؟ رجاها مجدداً: "قولها".

"بحثنا عنك. قلنا لرايف، اذهب لترى ما إذا كان في غرايز إن، وأحضره، ولكنّ الحراس قالوا إنّهم لم يروك طيلة النهار. قال رايف، ثقي بي سأجده، حتّى لو بحثت عنه في المدينة بأكملها. ولكن، لم نجد أثراً لك".

تذكّر أنّه رأى في الصباح الملاءات الرطبة وجبينها المتعرق. قال في نفسه، ليز، ألم تقاومي؟ لو رأيت الخطر يداهمك، لفعلت المستحيل لإبعاده.

كانت الفتاتان الصغيرتان ما زالتا مستيقظتين، مع أنّ أحدهم ألبسهما ملابس النوم، وكأنّها ليلة عادية. كانت أقدامهما عارية وغطاءاً رأسيهما الليليان المخرمان اللذان خاطتهما لهما والديهما معقودتين بيدين حازمتين تحت ذقنيهما. بدا وجهه أنّ كالحجر، وهي تمسك بيد غرايس بقوة. نظرت إليه غرايس، وبدأت متشككة. لم تكن تراه على الإطلاق تقريباً، لماذا هو هنا؟ ولكنّها كانت تثق به، فتركته يحملها بين ذراعيه من دون اعتراض. نامت على كتفه على الفور، بعد أن أحاطت عنقه بذراعيها، وأسندت جبينها تحت ذقنه. قال: "والآن، أن، علينا أخذ غرايس إلى السرير لأنّها صغيرة. أعرف أنّك لست جاهزة للنوم بعد، ولكن عليك النوم بجانبها، لأنّها قد تستيقظ وتشعر بالبرد".

قالت آن: "وأنا قد أشعر بالبرد".

سارت ميرسي أمامه إلى غرفة الأطفال. وضع غرايس في السرير من دون أن تستيقظ. كانت أن تبكي، ولكن بصمت. قالت ميرسي، سأجلس معهما. ولكنّه قال: "أنا سأفعل". انتظر إلى أن توقفت آن عن ذرف الدموع، وتراخت يدها في يده.

هذه الأمور تحدث، ولكن ليس لنا نحن.

قال: "والآن، أريد رؤية ليز".

الغرفة التي كانت هذا الصباح غرفة نومهما وحسب، هي الآن عابقة برائحة الأعشاب التي تُحرق لمنع العدوى. أشعلوا شموعاً فوق رأسها وقدميها. ربطوا فكّها بالكِتّان، فبدت مختلفة عمّا كانت عليه. بدت كالأموات، غير خائفة، وكأنّها تستطيع أن تحكم عليك. بدت أكثر سكوناً وشحوباً من الأشخاص الذين رأهم في ساحات الحرب، وقد خرجت أحشاؤهم من بطونهم.

نزل إلى الأسفل ليسأل عمّا حدث، ويتحدّث مع أهل المنزل. قالت ميرسي: "عند الساعة العاشرة من هذا الصباح، جلست وقالت: ربّاه، كم أنا متعبة. في منتصف النهار، قالت: لا أشعر أنّي طبيعية. فقلت: كلاً، لا تبدين كذلك، ليز. وضعت يدي على جبينها، وقلت: ليز، عزيزتي... تمدّدي، نامي في السرير، يجب أن تتعرّقي. قالت: كلاً، أعطني بضع دقائق، أشعر بالدوار، ربّما أحتاج إلى تناول شيء ما. ولكن حين جلسنا إلى المائدة، دفعت الطعام بعيداً...".

ودّ لو أنّها تختصر روايتها، ولكنّه فهم حاجتها إلى إخراج روايتها من داخلها، لحظة بلحظة، وقولها بصوت عالٍ، وكأنّها حقيبة من الكلمات، تصنعها، وتسلمه إيّاها: إنّها لك الآن.

"في منتصف النهار، تمدّدت إليزابيث. كانت ترتجف، مع أنّ حرارتها مرتفعة جدّاً. قالت: هل رايف في المنزل؟ قولي له أن يذهب لإحضار توماس. وقد ذهب رايف، كما ذهب عدد من الأشخاص، ولم يجدوك.

عند الساعة الثانية عشرة والنصف، قالت: اطلبي من توماس الاعتناء بالأولاد. ثمّ ماذا؟ تدمّرت من ألم رأسها. ولكن لا شيء لي، لم تترك رسالة؟ كلاً، قالت إنّها تشعر بالعطش، هذا كلّ شيء. ولكنّ ليز لم تقل وقتنّذ الكثير.

عند الساعة الواحدة، طلبت إحضار كاهن. وعند الساعة الثانية، اعترفت. قالت إنّها التقطت يوماً ثعباناً في إيطاليا. قال الكاهن إنّها تهذي بفعل الحمّى. غفر لها، وأسرع بمغادرة المنزل، على حدّ قول ميرسي، لأنّه كان يخشى التقاط العدوى والموت.

عند الساعة الثالثة من بعد الظهر، تدهورت حالتها. وعند الرابعة، لفظت آخر أنفاسها.

قال: "أفترض أنّها تودّ أن تُدفن مع زوجها الأول".

"لماذا تظنّ ذلك؟".

"لأنّني أتيت حديثاً". ومشى بعيداً. لا جدوى من كتابة التعليمات المعتادة حول

ملابس الحداد، والمصلين، والشموع. إذ كان ينبغي دفن ليز بسرعة، شأنها شأن كل من يموت بهذا المرض. لن يتمكن من إحضار غريغوري أو جمع العائلة. كان يتحتم على أهل البيت تعليق رزمة من القش خارج الباب كإشارة إلى انتشار العدوى، والحد من عدد الداخلين إلى المنزل لمدة أربعين يوماً، والخروج أقل ما يمكن منه. دخلت ميرسي وقالت: "قد تكون أي حمى، ليس علينا الإقرار أنها الوباء... إن مكثنا جميعنا في بيوتنا، ستتوقف الحركة تماماً في لندن". قال: "كلاً، علينا ذلك. سيدي الكاردينال هو الذي وضع تلك القوانين ولا ينبغي لنا خرقها".

قالت ميرسي: "أين كنت على أي حال؟". نظر إلى وجهها، وقال: "تعرفين بياني الصغير؟ كنت معه. حذرت، وقلت له إنه سيقفز في النار. وبعد ذلك؟ بعد ذلك كنت أتعلم البولندية". قالت: "بالطبع كنت كذلك".

لم تتوقع فهم السبب، ولم يتوقع هو أبداً أن يفهم السبب أكثر منها. حفظ العهد الجديد عن ظهر قلب، ولكن كان عليه أن يجد نصاً عن ذلك. لاحقاً، حين كان يفكر في هذا الصباح، كان يودّ لو يلتقط ثانياً ذاك الوميض لغطاء رأسها الأبيض، مع أنه حين التفت، لم يرَ أحداً. كان يحب أن يتخيلها مع صخب ودفء البيت خلفها، وهي واقفة عند الباب، تقول: "متى ستعود إلى البيت؟"، ولكنه لم يكن يستطيع أن يتخيلها إلا وحدها عند الباب، وخلفها أرض قاحلة، وضوء مائل إلى الزرقة.

فكر في ليلة زفافهما، بفستانها الطويل المصنوع من التافتا، وحركتها القلقة وهي تحتضن مرفقيها. في اليوم التالي، قالت: "إذاً، كل شيء على ما يرام". وابتسمت. هذا كل ما تركته له. ليز التي لم تقل يوماً الكثير.

لازم المنزل شهراً، أمضاه في القراءة. قرأ الكتاب المقدس، ولكنه كان يعرف ما فيه. قرأ بترارك الذي أحبه، قرأ كيف تحدّى الأطباء: حين استسلموا وتركوه فريسة للحمى، ولدى عودتهم في الصباح التالي، وجدوه جالساً يكتب. لم يثق الشاعر بأي طبيب بعد ذلك الحين، ولكن ليز غادرته بسرعة كبيرة ليطلب نصيحة طبيب، ماهراً كان أم لا، أو نصيحة صيدلاني، مع أدويته من القرفة الصينية ونبات السعد والأفستين، وبطاقاته التي طبعت عليها الصلوات.

كان قد اشترى كتاب نيكولو ماكيافيلي، الإمارات. كانت طبعة لاتينية طبعت على

نحو رديء في نابولي، وبدا أنّها مرّت على عدد كبير من الأيدي. فكّر في نيكولو في ساحة المعركة، وفي نيكولو في غرفة التعذيب. أحسّ بأنّه في غرفة تعذيب ولكنّه عرف أنّه سيخرج منها يوماً ما، لأنّه هو الذي ملك المفتاح. سأله أحدهم: "ماذا يوجد في كتابك الصغير؟". فأجاب: "بعض الحُكْم والحقائق البديهية، لا شيء لم نكن نعرفه".

كلّما أرفع نظره عن كتابه، رأى رايف سادلر أمامه. كان رايف صبيّاً نحيلاً، وكانت لعبة ريتشارد والآخريّن تقوم على الادّعاء بعدم رؤيته، والقول: "أتساءل أين رايف؟". وكانوا يضحكون من هذه المزحة وكأنّهم مجموعة من الأولاد الذين لم يتجاوزوا الثالثة من العمر. كانت عينا رايف زرقاوين، وشعره بنيّاً، ولم يمكن اعتباره من آل كرومويل. ولكنّه بقي مع ذلك مصدر سرور للرجل الذي ربّاه: فهو عنيد، ساخر، وسريع البديهة.

قرأ هو ورايف كتاباً عن الشطرنج. كان الكتاب قد طُبِع قبل ولادته، ولكنّه اشتمل على صور. عبسا وهما يحدّقان إليها ويحسّنان مهارتهما. جلسا لوقت بدا وكأنّه ساعات، ولم يتحرّك أيّ منهما. قال رايف، وقد وضع إصبعه على أحد الأحجار: "كم أنا أحمق، كان عليّ إيجادك. حين قالوا إنّك لست في غرايز إن، كان عليّ أن أعرف أنّك هناك".

"كيف كان لك أنّ تعلم؟ أنا لا أكون دائماً في المكان الذي لا ينبغي أن أكون فيه. هل ستحرّك هذا الحجر أم تربّت عليه وحسب؟".
أبعد رايف يده.

جلسا لوقت طويل يحدّقان إلى أحجارهما، "نحن ماهران جدّاً لنلعب ضدّ بعضنا بعضاً".

"ربّما يجدر بنا اللعب ضدّ أشخاص آخرين".
"لاحقاً، حين يمكننا أن نُبيد كل الوافدين".

قال رايف: "آه، انتظر!". أمسك بفارسه وقام بخطوة، ثمّ نظر إلى النتيجة مبهوراً.
"رايف، أنت فاشل".

"ليس بالضرورة". وحكّ جبينه مضيئاً: "قد تقوم أنت أيضاً بعمل أحمق".
"صحيح. أنت تعيش في الأمل".

سمع همهمة أصوات، وأشرق الشمس في الخارج. شعر بأنّه يستطيع النوم تقريباً، ولكن حين كان ينام، تعود ليز وايكيز، سعيدة وسليمة، وحين كان يستيقظ، يحتاج

إلى الاعتياد على غيابها مجدداً.

سمعت صوت بكاء طفل من غرفة بعيدة، تبعه صوت أقدام في الأعلى. توقفت البكاء. تناول ملكه ونظر إلى قاعدته، وكأنه يرى كيف صنع. ثم أعاده إلى مكانه.

جلست أن كرومويل معه، بينما راح المطر ينهمر، وكتبت بلغتها اللاتينية المبتدئة في دفترها. بحلول ذكرى سان جون، أصبحت تعرف جميع الأفعال الشائعة. كانت أسرع من أخيها في التعلم، وقد أخبرها بذلك. قال لها وهو يمدّ يده لتناول دفترها: "دعيني أرى". وجد أنها كتبت اسمها تكراراً، أن كرومويل، أن كرومويل... وصلت أخبار من فرنسا عن انتصارات الكاردينال، المواكب الاستعراضية، القدايس العامة، وخطاباته اللاتينية المرتجلة. بدا أنه، منذ وصوله إلى اليايسة، وقف على كلّ مذبح في بيكاردي ومنح المصلّين غفراناً على خطاياهم. وهذا كان يعني أنه ثمة بضعة آلاف من الفرنسيين الذين حصلوا على فرصة لبداية جديدة.

كان الملك يقيم في بوليو بشكل أساسي، في منزل في إسيكس اشتراه مؤخراً من السير توماس بولين، الذي منحه لقب فيكونت روتشפורد. كان يذهب إلى الصيد كلّ يوم، ولا يعيقه المطر. أمّا المساء، فيمضيه في اللهو. وكان دوق سوفولك ودوق نورفولك ينضمّان إليه في جلسات العشاء الخاصة، مع الفيكونت الجديد. كان دوق سوفولك صديقاً قديماً، ولو قال له الملك، قم بحياكة بعض الأجنحة كي أطيّر، لأجابه، أيّ لون تريد؟ كان دوق نورفولك بالطبع رئيس عائلة هاورد وصهر بولين، وكان رجلاً صغيراً عصبياً يجري دائماً وراء مصلحته الخاصة.

لم يكتب إلى الكاردينال لإخباره أنّ جميع من في إنكلترا يقولون إنّ الملك يريد الزواج من آن بولين. لم يكن يملك الأخبار التي يريدها الكاردينال، فلم يكتب إليه على الإطلاق، بل كلّف الموظفين بذلك، وباطلاع الكاردينال بانتظام على شؤونه القانونية والمالية. قال لهم: "أخبروه أنّنا جميعاً بخير، وانقلوا إليه احترامي وحبّي. أخبروه كم اشتقنا إلى رؤيته".

لم يصب أحدٌ آخر بالمرض في بيته. هذا العام أفلتت لندن بخسائر قليلة، أو على الأقلّ هذا ما يقوله الجميع. أقيمت صلوات شكر في كنائس المدينة أو ربّما يجدر تسميتها صلوات مواساة؟ في الاجتماعات الخاصة الصغيرة، كان الناس يتساءلون عن الجدوى من الأمراض. كانت لندن تعرف أنّها تخطئ.

في أوائل أيلول/سبتمبر، اختفى الطاعون، وتمكّنت العائلة من الاجتماع للصلاة من أجل ليز. أصبح في الإمكان إقامة الشعائر التي فاتتهم حين غادرتهم ليز بتلك

السرعة. أعطيت معاطف سوداء لاثني عشر فقيراً في الرعية، وهم الأشخاص أنفسهم الذين سيسيرون خلف نعشها. ونذر كلّ رجل في العائلة سبع سنوات من القداديس لراحة نفسها. في اليوم المحدّد، صحا الطقس قليلاً، وكان الجوّ بارداً. "مرّ الحصاد، وانتهى الصيف، ولم ننجُ".

استيقظت الطفلة غرايس ليلاً، وقالت إنّها رأت أمّها في كفنها. لم تبك كما يبكي الأطفال، بصوت عالٍ وهي تشهق، بل كامراًة، تمسح دموع الخوف. "كلّ الأنهار تصبّ في البحر، ولكنّ البحور لم تمتلئ بعد".

* * *

كان مورغان وويليامز ينكمش عاماً بعد عام. واليوم بدا قصيراً وأشيب ومنزعجاً وهو يشدّ على ذراعه قائلاً: "لِمَ يرحل أفضل الناس؟ آه، لماذا؟". ثمّ أضاف: "أعرف أنّك كنت سعيداً معها، يا توماس".

عادوا إلى أوستن فرايرز في حشد من النساء والأطفال والرجال الأقوياء، ومجموعة من المحامين والتجار، والمحاسبين والسماصرة. ها هي أخته، بيت ويليبيد، ابناها، وابنتها الصغيرة أليس. ها هي كات، كانت الأختان تتحدّثان، وتتناقشان في من ينبغي لها الانتقال إلى هنا لمساعدة ميرسي في تربية الفتاتين، "إلى أن تتزوَّج مجدداً، توم".

كانت ابنتا شقيقتيه، الصغيرتان الطيبتان، ما زالتا تمسكان بمسبحتيهما. راحتا تحدّقان حولهما، غير واثقتين ممّا يجب فعله الآن. بما أنّ جميع الناس كانوا منصرفين عنهما، يتحدّثان فوق رأسيهما، استندتا إلى الجدار، والتفتت كلّ منهما إلى الأخرى. راحتا تنزلقان ببطء، وظهراهما مستقيمان، إلى أن أصبحتا بطول فتاتين في سنّ الثانية، وأخذتا تؤرجحان جسديهما. قال أحدهم بصوت لاذع: "أليس! جوان!". ببطء، نهضتا، ووقفتا بشكل لائق. اقتربت منهما غرايس، فأحاطتا بها، ونزعتا قبعتيهما، ثمّ بدأتا تضفّران شعرها. وبينما راح صهرا يتحدّثان عمّا يفعله الكاردينال في فرنسا، وجّه انتباهه نحوها. اتّسعت عينا غرايس بينما راحت ابنتا عمتيها تشدّان شعرها إلى الخلف. فتحت فمها في شهقة وكأنّه فم سمكة. وحين صدرت منها أنّة، نهضت جوان الكبرى، أخت ليز، وعبرت الغرفة ثمّ حملتها. نظر إلى جوان، وفكّر، كما يفعل غالباً، كم تشبه الأختان بعضهما بعضاً، أو بالأحرى كم كانتا تشبهان بعضهما بعضاً.

أدارت ابنته آن ظهرها إلى النساء، ووضعت يدها بيد زوج عمتها. قال لها مورغان: "إنّنا نتحدّث عن تجارة البلدان المنخفضة".

"ثمّة أمر واحد مؤكّد، عمّي، وهو أنّهم لن يكونوا مسرورين في أنتويرب إن وقع وولزي معاهدة مع الفرنسيين".

"هذا ما كنّا نقوله لأبيك. ولكنّه سيقف بالتأكيد إلى جانب الكاردينال. هيّا، توماس! أنت لا تحبّ الفرنسيين أكثر منّا".

كان يعرف، على عكسهم، كم يحتاج الكاردينال إلى صداقة الملك فرنسوا. فكيف سيحصل الملك على الطلاق من دون دعم إحدى القوى الرئيسة في أوروبا؟

"معاهدة سلام دائم؟ أخبروني، متى كان آخر سلام دائم؟ لا أظنّ أنّه دام أكثر من ثلاثة أشهر". كان ويليفيد، زوج أخته، هو الذي يتحدّث، وهو يضحك. وسأل جون ويليامسون، زوج جوان، ما إذا كانوا يراهنون على ذلك: ثلاثة أشهر، ستّة؟ ثمّ تذكر أنّهم في مناسبة كئيبة. فقال: "آسف، توم"، وراح يقحّ مربكاً.

قالت جوان: "إن استمرّ المقامر العجوز في السعال بهذا الشكل، فسيفضي عليه الشتاء، فأتزوجك أنت، يا توم".

"هل ستفعلين؟".

"آه، بالتأكيد. شرط أن أحصل على الوثيقة الصحيحة من روما".

ابتسم الحاضرون وأخفوا ابتساماتهم. ثمّ راحوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً نظرات عارفة. قال غريغوري: "ما المضحك في ذلك؟ من غير الممكن الزواج بشقيقة زوجتك، أليس كذلك؟". وذهب هو وأبناء عمّاته إلى زاوية يتحدّثون في موضوعات خاصّة، ابنا بيت، كريستوفر وويل، وابنا كات، ريتشارد ووالتر. لماذا أسميا ذاك الطفل والتر؟ هل هم بحاجة إلى شخص يذكّرهم بأبيهم، ولا يفارقهم بعد موته، ليذكّرهم بالألّ يفرحوا كثيراً؟ لم تكن العائلة تجتمع أبداً ولكنّه يحمّد الله على أنّ والتر لم يعد موجوداً بينهم. فكّر في أنّه يجدر به أن يكون أكثر لطفاً تجاه أبيه، لكنّ لطفه لا يتجاوز دفع تكاليف القداديس التي تقام لراحة نفسه.

في العام الذي سبق عودته إلى إنكلترا نهائياً، عبّر البحر مرّات عدّة متردداً. كان لديه عدد كبير من الأصدقاء في أنتويرب، إضافة إلى العمل الجيّد والعلاقات، وبدا له أنّه المكان المناسب للاستقرار. ولكن عندما يشعر بالحنين إلى الوطن، يكون ذلك لإيطاليا: النور، واللغة، وتوماسو، كما كانوا يسمّونه هناك. فالبنديقية شفّته من حنينه إلى ضفاف التايمز. وأعطته فلورنسا وميلانو أفكاراً أكثر مرونة من أفكار أولئك الذين ظلّوا في الوطن. ولكنّ شيئاً ما شدّه للعودة، فضوله لمعرفة من مات ومن وُلد، ورغبته في رؤية شقيقتيه مجدداً، والضحك حول نشأتهم، فثمّة دائماً ما يمكن أن

يضحكك. كتب لمورغان ويليامز يخبره أنه يفكر في العودة إلى لندن. ولكن لا تخبر أبي. لا تخبره أنني عائد إلى الوطن.

خلال الأشهر الأولى حاولوا إقناعه. اسمع، والتر استقر الآن، ما عدت تعرفه. عاد للشرب مجدداً. في الواقع، يعرف أن هذا يقتله. ولكنه لم يعد يزور قاعات المحاكم هذه الأيام. حتى إنه خدم كوكيل كنيسة.

قال: ماذا؟ ولم يرتكب الحماقات هناك، أو يسرق المال المخصص للشموع؟". لم يتمكنوا من إقناعه بالعودة إلى بوتني. انتظر أكثر من عام، إلى أن تزوج وأصبح أباً. حينذاك، شعر بالأمان للعودة.

كان قد مضى على خروجه من إنكلترا أكثر من اثني عشر عاماً، وقد فاجأه مدى تغيير الناس. تركهم في ريعان الشباب، وتقدمهم في السن جعلهم إما أكثر ليونة أو أكثر حدة. فمن كان مرناً رشيق الجسد، أصبح هزياً ومتصلب الجسد. أصبح البدين أكثر بدانة، والملامح الجميلة خبت ولانت. العيون البراقة انطفأت. ثمة أشخاص لم يعرفهم على الإطلاق، ليس من النظرة الأولى.

ولكنه كان ليعرف والتر أينما كان. فبينما كان أبوه يسير نحوه، فكر في أنه يرى نفسه بعد عشرين أو ثلاثين عاماً، إن ظلّ على قيد الحياة. قالوا إنّ الشراب قضى عليه تقريباً، ولكنه لم يبدو شبه ميت. بدا تماماً كما عرفه، وكأنه يستطيع أن يضربه، وقد يقرّر ذلك. كانت قامته القصيرة والقوية قد أصبحت أعرض وأكثر خشونة، وشعره الكثيف الأجدد خلا من أي أثر للشيب. أمّا نظرتة فكانت خارقة. عيناه صغيرتان لامعتان، بلون بني مذهب. كان يقول: "الحدادة تحتاج إلى قوة بصر. ينبغي لبصرك أن يكون قوياً أينما كنت، وإلا نهبوك".

قال والتر: "أين كنت؟". كان في الماضي ليبدو غاضباً، ولكنه بدا الآن منزعجاً وحسب، وكأنه ذهب لإيصال رسالة إلى مورتلايك، واستغرق وقتاً أطول من اللازم. أجاب: "أه... هنا وهناك".

"تبدو وكأنك غريب".

"أنا غريب بالفعل".

"إذاً، ماذا كنت تفعل؟".

تخيّل نفسه يجيب: "هذا وذاك". وهذا ما قاله بالفعل.

"وأي نوع من هذا وذاك أنت تفعل اليوم؟".

"أنا أدرس القانون".

قال والتر: "القانون! لو لا ذاك القانون المزعوم، لكننا الآن أسياداً. أسياد القصر، وكثير من القصور الأخرى في الجوار".

فكّر في أنّها كانت ملاحظة مثيرة للاهتمام. فإن كان ممكناً للمرء أن يصبح سيّداً بالقتال، وبالصرّاح، وبكونه أكبر، وأفضل، وأكثر جرأة، وأقلّ حياءً من الآخر، فلا شكّ في أنّ والتر سيكون سيّداً. ولكنّ الأسوأ هو ظنُّ والتر أنّ له الحقّ بذلك. فقد سمعه يردّد ذلك كثيراً حين كان فتياً: كانت أسرة كرومويل ثريّة في ما مضى، وكان لدينا أملاك. فيسأل: "متى؟ أين؟" فيجيب والتر: "في مكان ما في الشمال، هناك!". ثمّ يصرخ في وجهه لأنّه يراوغ. كان أبوه يكره تكذيبه حتّى حين يروي كذبة صريحة. كان يسأله: "إذاً، كيف وصلنا إلى هذا المستوى المتدنّي؟". فيجيب والتر أنّ هذا بسبب المحامين والمخادعين، والمحامين المخادعين، الذين يسرقون الأرض من ملائكتها. وكان يقول: "افهم إن استطعت، لأنّني لا أفهم، وأنا لست غيباً أيّها الصبيّ. كيف يجروون على جرّي إلى محكمة وتغريمي لأنّني تركت الحيوانات في الأملاك العامّة؟ إن كانت الأملاك العامّة للجميع، فلا شكّ في أنّ لي حصّة فيها".

والآن، إن كانت أملاك العائلة في الشمال، كيف يمكن ذلك؟ لا جدوى من السؤال، لأنّها أسرع طريقة لأخذ درس من قبضة والتر. كان يصرّ قائلاً: "ولكن ألم يكن ثمة أموال؟ ماذا حلّ بها؟".

مرّة واحدة، حين كان والتر غير واع، قال شيئاً بدا صحيحاً، لا بل وفصيحاً نسبةً إلى تفكيره. قال: "أظنّ... أظنّ أنّنا بددناها. أظنّ أنّ المال إن ذهب، فلن يعود. أظنّ أنّه حين يضيع الحظّ، لا يزورك مجدداً".

فكّر في ذلك على مرّ السنوات. وفي ذلك اليوم الذي عاد فيه إلى بوتتي، سأله: "إن كان آل كرومويل أغنياء في الماضي، ولاحقاً تلك الثروة، هل سيرضيك ذلك؟". تحدّث إليه بنبرة لطيفة، ولكن لم يكن من الصعب تهدئة والتر، الذي نهه قائلاً: "آه أجل، ومشاركتها معك، على ما أظنّ؟ أنت ومورغان اللعين الذي تحبّه كثيراً. هذا مالي أنا".

"سيكون ذلك مال العائلة". فكّر، ماذا نفعل، نتشاجر بعد خمس دقائق من لقائنا حول ثروته التي لا وجود لها؟. أضاف بصوت منخفض: "لديك حفيد الآن، وأنت لا تعرفه بعد".

قال والتر: "آه، لديّ أحفاد. من تزوجت، امرأة ألمانية؟". أخبره عن ليز وايكيز، وأقرّ بالتالي أنّه مكث في لندن فترة كافية للزواج وإنجاب

طفل. قال والتر وهو يضحك بصوت منخفض: "عثرت لنفسك على أرملة ثرية. أفترض أنّ هذا كان أكثر أهميّة من المجيء لرؤيتي. ربّما اعتقدت أنّني متّ. إذاءً، محام؟ لطالما كنت متكلماً، ولم تسكتك صفة على فمك".
"ولكنّ الله يعلم أنّك حاولت".

"أظنّ أنّ العمل في الحدادة لم يعد يليق بك الآن. ولا مساعدة عمّك جون والنوم بين قشارة اللفت".

أجاب: "ربّاه، أبي، لم يكونوا يأكلون اللفت في قصر لامبيث. الكاردينال مورتون يأكل اللفت! ماذا تظنّ؟".

حين كان صبياً صغيراً، وكان عمّه طاهي الرجل العظيم، كان يهرب إلى لامبيث، إلى القصر، لأنّه يحصل على طعام أفضل هناك. كان يتسكّع عند المدخل الأقرب إلى النهر، فحينذاك، لم يكن مورتون قد بنى بوّابته الكبيرة، ويراقب الناس وهم يدخلون ويخرجون، يسأل عمّن يكونون، ويتعرّف إليهم في المرّة الثانية من ألوان ملابسهم والحيوانات والأشياء المرسومة على تروسهم. فيقول له الناس: "لا تقف هكذا، بل قم بعمل مفيد".

كان ثمة فتية آخرون يعملون في المطبخ في جلب الأغراض وحملها، ويشغلون أصابعهم الصغيرة في نتف الطيور وتقطيع الفراولة. وعند وقت العشاء، يصطفّ الخدم في الممرات المؤدية إلى المطبخ ويحملون أغطية الطاولات ولوازم العشاء. كان عمّه جون يقيس الأرغفة، وإن لم تكن بالمقاس المناسب، تُقذف في سلّة ليتناولها الخدم. أمّا الأرغفة التي تجتاز الاختبار، فيعدّها وهي تمرّ أمامه. كان يقف بقربه، مدّعياً أنّه مساعده، وهكذا تعلّم العدّ. تُنقل إلى القاعة الكبرى للحوم والأجبان، والفاكهة المحلّاة والرقائق المحتوية على التوابل، وتوضع على طاولة رئيس الأساقفة، الذي لم يكن قد أصبح كاردينالاً بعد. وعندما تعود البقايا والفتات، يتمّ تقسيمها. يذهب أفضلها للعاملين في المطبخ. والباقي يُرسل إلى المأوى، والمستشفى، والمتسولين عند البوابة. وما لا يصلح لهم، يُرسل إلى أسفل الهرم، إلى الأولاد والحيوانات المقرّزة.

كان الصبية يكسبون قوتهم كلّ صباح ومساءً بالجري على السلالم حاملين الشراب والخبز لوضعه في الخزائن من أجل الشبان الذين يعملون كوصفاء للكاردينال. كان الوصفاء ينتمون إلى عائلات جيّدة. وكانوا يقفون قرب المائدة، وهكذا يصبحون مقرّبين من الرجال العظماء. كانوا يسمعون كلامهم ويتعلّمون منهم. وحين لم يكونوا

قرب موائد الطعام، فإنهم كانوا يقرأون المجلدات الكبيرة، ويتعلمون منها ومن أساتذة الموسيقى وغيرهم من الأساتذة، الذين مروا في المنزل حاملين باقات الأزهار والعطور، وتحدّثوا اليونانية. كان يُشار إلى أحد الوصفاء باسم السيّد توماس مور، وقد قال عنه رئيس الأساقفة نفسه إنّه سيكون رجلاً عظيماً بسبب عمق معرفته وطرافة حديثه.

في أحد الأيام، أحضر رغيفاً من الحنطة ووضعها في الخزانة، ثمّ تمهّل قبل أن يغلقها. قال له السيّد توماس: "ما الذي يؤخرك؟". ولكنّه لم يرمه بأيّ شيء. سأله: "ماذا يوجد في هذا الكتاب الكبير؟". أجاب السيّد توماس مبتسماً: "كلمات، كلمات، مجرد كلمات".

قال أحدهم إنّ السيّد مور سيبلغ الرابعة عشرة هذه السنة، وسيذهب إلى أوكسفورد. لم يكن يعرف أين تقع أوكسفورد، أو ما إذا كان مور يودّ الذهاب إلى هناك، أم سيُرسل وحسب. فمن المألوف أن يتمّ إرسال الصبية، والسيّد توماس ليس رجلاً بعد. الرابعة عشرة هي ضعف السابعة. سأل: "هل أنا في السابعة من عمري. لا تقل أجل وحسب، أخبرني هل أنا في السابعة؟". قال أبوه: "بالله عليك، كات، اخترعي له ذكرى ميلاد. قللي له أيّ شيء، المهمّ أن يسكت".

عندما كان والده يقول له: "سئمت من رؤيتك، كان يغادر بوتتي ويتوجّه إلى لامبيث. وحين كان يقول له عمّه جون: لدينا كثير من الصبية هذا الأسبوع، ولا يجدر بك الجلوس من دون عمل، كان يعود إلى بوتتي. أحياناً، كان يحضر معه هدية إلى البيت. كانت الهدية أحياناً زوجاً من الحمام، يربط قوائمهما معاً. ثمّ يسير على ضفة النهر وهو يلوح بهما فوق رأسه، فتبدوان وكأنّهما تطيران، إلى أن يصرخ أحدهم به، كفّ عن ذلك! لم يستطع فعل شيء من دون أن يصرخ به شخص ما. كان جون يقول: هل لا غرّو في ذلك، ما دمت طرفاً في كلّ مشكلة، وتميل إلى الردّ على كلّ ما يقال لك، وتتواجد دائماً في الأماكن التي لا داعي لك التواجد فيها؟

في غرفة صغيرة باردة في أروقة المطبخ، كان ثمة امرأة تدعى إيزابيلا، تصنع أشكالا من حلوى المرصبان، ليلعب بها رئيس الأساقفة وأصدقائه بعد العشاء. كان بعضها على شكل أبطال، كالأمير ألكسندر، والأمير قيصر. وبعضها على شكل قديسين، فنقول: اليوم أنا أصنع القديس توماس. في أحد الأيام صنعت حيوانات وأعطته أسداً. قالت له: يمكنك أكله. كان يودّ الاحتفاظ به، ولكنّ إيزابيلا أشارت إلى أنّه سرعان ما يتفتّت. قالت: "أليس لديك أمّا؟".

تعلم القراءة من الطلبات التي تُدَوّن لشراء دقيق القمح، أو الحبوب المجفّفة، أو الشعير، أو بيض البطّ، التي تخرج من حجر المؤن الخاصّة بوكلاء القصر. بالنسبة إلى والتر، كانت الفائدة من تعلم القراءة تكمن في استغلال الأشخاص الأميين، وهو نفسه الهدف من تعلم الكتابة أيضاً. هكذا، أرسله والده إلى الكاهن. ولكنّه أخطأ كعادته دائماً، لأنّ للكهنة قوانين غريبة. عليه أن يأتي إلى الدرس خصيصاً، وليس في طريقه وهو آتٍ من مكان آخر، ولا ينبغي له أن يأتي حاملاً ضفدعاً في كيس، أو سكاكين تحتاج إلى سنّ، ولا أن يأتي مجروحاً أو مكسوّاً بالكدمات، بسبب أحد تلك الأبواب (أبواب تدعى والتر) التي يصطدم بها دائماً. كان الكاهن يصرخ به، وينسى إطعامه، فيعود إلى لامبيث.

عندما يرجع إلى بوتتي، كان أبوه يسأله، أين كنت بحقّ الله، ما لم يكن مشغولاً في الداخل مع زوجةٍ ما. كانت بعض زوجات أبيه يمكنن لفترة قصيرة جداً، إذ ما إن يسأم أبوه منهن، حتّى يطردهن فور عودته إلى البيت. ولكنّ كات وبيت كانتا تخبرانها عنهنّ وهما تضحكان عالياً. في أحد الأيام، عاد إلى المنزل متنسخاً ومبلاً، فقالت المرأة التي كانت زوجة أبيه في ذلك اليوم: "ابن من هذا الصبي؟"، وحاولت طرده من البيت.

في أحد الأيام، عثر قرب منزله على بيلاً الأولى ممدّدة في الشارع، ورأى أنّ لا أحد يريدّها. لم يكن طولها يتجاوز طول جرد صغير، وكان يبدو عليها الخوف والبرد إلى حدّ عجزها حتّى عن النباح. حملها إلى البيت بإحدى يديه، وحمل باليد الأخرى قطعة جبن صغيرة ملفوفة بورق المريمية.

ماتت الكلبة، فقالت له أخته بيت إنّه يستطيع إحضار كلبة أخرى. بحث في الشارع ولكنّه لم يجد واحدة. كان ثمّة كلاب، ولكنّها تنتمي جميعها إلى أشخاص آخرين.

كانت المسافة بعيدة من بوتتي إلى لامبيث، وأحياناً يأكل ما يجده، ما لم يكن فجّاً. ولكن إن لم يحصل إلاّ على ملفوفة، كان يركلها ويلقّها ويسحقّها، إلى أن يهشّمها تماماً، تماماً.

في لامبيث، كان يتبع وكلاء القصر، وحين يقولون رقماً، كان يحفظه. فيقول الناس، إن لم يكن لديك الوقت لتدوينه، فقله لابن أخ جون. كان يراقب كيس الأغراض المطلوبة، ثمّ يحذّر عمّه ليتحقّق ممّا إذا كان الوزن صحيحاً. حين يحلّ المساء في لامبيث، وقبل أن تغيب الشمس تماماً، وتكون جميع الأواني

قد نُظِّفَت، يخرج الصبية ويلعبون كرة القدم. فيرتفع صراخهم في الهواء. يشتمون ويتدافعون، ويبقى ثمة من يصرخ لهم للتوقّف. ولكنهم يستمرّون في العراك بأيديهم وأحياناً يعضّون بعضهم بعضاً. من النافذة المفتوحة في الأعلى، يقف الشباب ويغنّون بصوتٍ عالٍ كما تعلّموا.

أحياناً، كان يظهر وجه السيّد توماس مور. لوح له، ولكن السيّد توماس نظر إلى الأطفال الذين يلعبون في الأسفل من دون أن يتعرّف إليه. ابتسم ثمّ أغلق النافذة بيده البيضاء. طلع القمر، فخلد الوصفاء إلى أسرّتهم ذات العجلات. أمّا أولاد المطبخ فلقوا أنفسهم بالأكياس وناموا قرب الموقد.

ذكر أنّه في إحدى ليالي الصيف وقف لاعبو الكرة صامتين ونظروا إلى الأعلى. كانت الشمس تغرب. خرجت نوتة وطارت في الهواء، رفيعة وخارقة. التقط شحرون النوتة، وأخذ يزقزق عند البوابة القريبة من الماء، فصفر له بخار من النهر.

1527: حين عاد الكاردينال من فرنسا، أمر على الفور بإعداد الموائد. كان يتوقّع وصول سفراء فرنسيين لختم اتّفاقيته. قال: "لا شيء، لا شيء لائق بأولئك السادة". غادرت المحكمة بوليو في 27 آب/أغسطس. وبعد ذلك بوقت قصير، التقى هنري بالكاردينال، وجهاً لوجه للمرّة الأولى منذ أوائل حزيران/يونيو. قال وولزي: "ستسمع أنّ استقبال الملك لي كان بارداً، ولكن أوكد لك أنّه لم يكن كذلك. هي، الليدي آن، كانت موجودة... هذا صحيح".

على ما يبدو، مُني جزء كبير من مهمته بالفشل. فالكرادلة لم يقبلوا بلقائه في أفينيون، بحجة أنّهم لا يريدون السفر جنوباً في الحرّ. قال: "ولكن الآن، لديّ خطة أفضل. سأطلب من البابا أن يرسل إليّ موفداً رسمياً، وسأحاول حلّ قضية الملك في إنكلترا".

قال: "حين كنت في فرنسا، توفّيت زوجتي إليزابيث". نظر إليه الكاردينال، ووضع يديه على قلبه. زحفت يده اليمنى إلى رمز النصر الديني الذي كان يعلّقه حول عنقه. سأله كيف حدث ذلك. أصغى إليه. راح يمرّر إبهامه على رمز النصر الديني، مراراً وتكراراً، وكأنّه مجرد قطعة معدنية. خفض رأسه، وتمتم بكلمات عزاء، ثمّ جلسا صامتين. لكسر الصمت، أخذ يطرح على الكاردينال أسئلة غير ضرورية.

بالكاد كان يحتاج إلى تقرير عن أحداث الصيف الماضي. وعد الكاردينال بالمساعدة على تمويل جيش فرنسي كان سيتمّ إرساله إلى إيطاليا لمحاولة إخراج

الإمبراطور. في أثناء ذلك، فإنّ البابا، الذي لم يخسر الفاتيكان فحسب، بل منزلته البابوية أيضاً، والذي رأى فلورنسا تطيح بأقاربه من أسرة ميديسي، سيكون ممنوناً ومديناً للملك هنري. أمّا بالنسبة إلى أيّ تقارب طويل الأمد مع الفرنسيين، كان كرومويل يشارك أصدقاءه في المدينة شكوكهم. فلو كنتَ في شوارع باريس أو روين، ورأيتَ أمّا تجرّ طفلها بيدها، وتقول: "إن لم تتوقّف عن الصراخ، فسأنادي إنكليزياً"، سيتولّد لديك شعور أنّ أيّ اتفاق بين البلدين لن يتعدّى كونه اتّفاقاً رسمياً عابراً. فالإنكليز لن يُسامحوا إطلاقاً على حبّ الدمار الذي يظهره دائماً حين يخرجون من جزيرتهم. لقد جرّت الجيوش الإنكليزية الخراب على الأراضي التي عبرتها. ارتكبت على نحو منهجي جميع الأفعال التي تُشينها الشهامة وخرقت جميع قوانين الحرب. لم تكن المعارك هي المعنية، بل ما فعلوه بين المعارك هو ما خلف ذلك الأثر. سرقوا واغتصبوا على شعاع أربعين ميلاً حول خطّ سيرهم. أحرقوا الجثث في الحقول، والمنازل بسكانها. تقاضوا الرشى، نقداً وسلعاً، عندما خيموا في حيّ جعلوا سكانه يدفعون عن كلّ يوم لا يتعرّضون فيه للمضايقة. قتلوا الكهنة وشنقوهم عرأةً في الأسواق. نهبوا الكنائس، وكأنتهم غير مؤمنين، وسرقوا كؤوس القربان، واستعملوا الكتب النفيسة وقوداً للنار التي يطبخون عليها طعامهم. أضاعوا الآثار المقدّسة وجردوا مذابح الكنائس من محتوياتها. وجدوا عائلات الأموات وطلبوا فدية من الأحياء. وإن لم يتمكّن الأحياء من الدفع، كانوا يحرقون الجثث أمام أعينهم، من دون أيّ اعتبار، ومن دون صلاة، وكأنّها جيف ماشية مريضة.

لذلك، من شأن الملوك أن يسامحوا بعضهم بعضاً، أمّا الشعب فلا يسامح. لم يقل ذلك لـوولزي، الذي كان بانتظاره ما يكفي من الأنباء السيئة. فخلال غيابه، أرسل الملك موفده الخاصّ إلى روما للقيام بمفاوضات سرّية. اكتشف الكاردينال ذلك، ولم يتمّ التوصل إلى شيء بالطبع. "ولكن إن لم يكن الملك صريحاً معي، فهذا لن يساعد في قضيتنا".

لم يسبق له التعامل مع صفقة مزدوجة كهذه. في الحقيقة، كان الملك يعرف أنّ قضيته ضعيفة أمام القانون. عرف ذلك، ولكنّه لم يردّ قبوله. أقنع نفسه أنّه لم يتزوَّج أبداً وأنّه حرّ الآن في الزواج. لنقل إنّ إرادته هي التي اقتنعت، ولكن ليس ضميره. كان يعرف القانون الكنسي، وما لم يعرفه منه جعل نفسه خبيراً فيه. فقد تمّت تنشئة هنري، بصفته الشقيق الأصغر، لدخول الكنيسة، ودُرّب على ذلك، ليحتلّ أرفع المناصب فيها. قال وولزي: "لو أنّ جلالته الملك آرثر ظلّ على قيد الحياة، لأصبح

جلالة الملك هنري كاردينالاً عوضاً منّي. هل تعرف يا توماس، أنا لم أحصل على يوم عطلة منذ... منذ أن كنت على متن المركب، على ما أظنّ. منذ أن شعرت بدوار البحر، بدءاً من دوفر".

سبق لهم أن عبروا القنال معاً. فأمضى الكاردينال الرحلة في الأسفل، يصلي، بينما ظلّ هو على متن المركب، لكونه معتاداً على الرحلة، وأمضى الوقت في رسم الأشرعة والصواري، والسفن الخيالية ذات الصواري الخيالية، وفي محاولة إقناع القبطان - قائلاً له: "مع احترامي لك" - أنه ثمة طريقة للتحرك على نحو أسرع. فكّر القبطان في الأمر وقال: "حين يصبح لديك سفينة تجارية ملكك أنت، يمكنك فعل ذلك. بالطبع، أيّ سفينة مسيحية ستظنّ أنكم قراصنة، لذا، لا تنتظر الحصول على المساعدة إن واجهت المصاعب". وشرح له قائلاً: "البحارة لا يحبّون التجديد". قال له: "ولا غيرهم من الناس، ليس بقدر ما يمكنني أن أرى".

من غير المستطاع إيجاد أشياء جديدة في إنكلترا. كان يمكن إيجاد أشياء قديمة مجدّدة، أو أشياء جديدة يدّعون أنها قديمة. للحصول على ثقة الناس، كان على الأشخاص الجدد أن يحدثوا لأنفسهم نسباً قديماً، كما فعل والتر، أو أن يدخلوا في خدمة عائلات قديمة. لا تحاول الخروج عن القاعدة، وإلاّ اعتُبرت قرصاناً. هذا الصيف، مع عودة الكاردينال إلى اليايسة، تذكّر تلك الرحلة. انتظر مجيء العدو وبدء العراك.

ولكنّه نزل إلى المطبخ ليرى ماذا يحضرون لإثارة إعجاب الموفدين الفرنسيين. كانوا قد تمكّنوا من صنع برج الكنيسة على شكل سان بول من عجينة السكر، ولكنهم يواجهون صعوبة مع رمز النصارى الديني والكرة فوقه. قال: "اصنعوا أسوداً من المرصبان، فالكاردينال يريدّها".

نظروا إلى الأعلى بسأم وقالوا: "ألن ننتهي منها أبداً؟".

منذ عودة سيدهم من فرنسا، أصبح حادّ الطبع على نحو غير اعتيادي. لم يكن إخفاقه فحسب هو الذي يدفعه إلى التذمّر، بل الأعمال القذرة التي تدور خلف الكواليس. كانت مقالات النقد الساخر والافتراء تُطبع وتُنشر ضده، وكلّما أسرع في شرائها، نُشرت دفعة أخرى في الشارع. بدا وكأنّ جميع اللصوص في فرنسا اتّفقوا على سرقة أمتعته. ففي كومبيان، ومع أنّه أوكل حارساً يقوم على السهر على ممتلكاته ليل نهار، عثر على صبيّ صغير يصعد وينزل السلالم الخلفية، ويناول أطباقه الذهبية إلى لصّ محترف قام بتدريبه.

"وماذا حدث، هل قبضتم عليه؟".

"وُضع اللصّ في المُشَهْرَة*، ولكنّ الصبيّ هرب. وفي إحدى الليالي، دخل شخص ماكر إلى غرفتي، وعلّق شيئاً على النافذة...". وفي صباح اليوم التالي، تسلّل شعاع من نور الشمس عبر الضباب والمطر، وأضاء مشنقة تتدلّى منها قُبعة كاردينال.

مرّة أخرى أتى الصيف ممطراً. كان يستطيع أن يقسم أنّه لم يرَ نور الشمس يوماً خلاله. لا شكّ في أنّ المحاصيل ستتلف. راح الملك والكاردينال يتبادلان وصفات للأدوية. تمدّد الملك وكان يخشى أن ينتابه العطاس، فوصف لنفسه يوماً من الراحة يستمع فيه إلى الموسيقى أو يتنزّه في حدائقه، إن توقّف المطر. بعد الظهر، كان ينسحب هو وأن ويجلسان بمفردهما. في المساء، كانا يتناولان الشراب لمكافحة البرد، وأشارت آن، التي كانت تقرأ الكتاب المقدّس، إلى وصايا قوية من أجله. بعد العشاء، كان يجلس مفكراً، ويقول إنّه يظنّ أنّ ملك فرنسا يسخر منه، وكذلك الإمبراطور. وحين كان يخيم الليل، يصبح الملك مريضاً بالحبّ. فتنتابه الكآبة، ولا يمكن التحدّث إليه أحياناً. فيشرب وينام، ينام وحيداً. ولكن بما أنّه رجل قويّ وشابّ، فإنّه ظلّ متفائلاً. لذلك كان يستيقظ صافي الذهن ومستعدّاً ليوم جديد. في ضوء النهار، رأى قضيتته مفعمة بالأمل.

لم يتوقّف الكاردينال عن العمل إن كان مريضاً، بل كان يجلس إلى مكتبه، يعطس، ويتألّم، ويتذمّر.

عند استعادة الماضي، من السهل رؤية اللحظة التي بدأ فيها انحطاط الكاردينال. ولكن في ذلك الوقت، لم يكن الأمر سهلاً. انظر إلى الوراء، وستتذكّر يوم كنت في البحر. كان الأفق رمادياً، والشاطئ غارقاً في الضباب.

حلّ شهر تشرين الأوّل/أكتوبر، فأخذت شقيقتاه وميرسي وجوان ملابس زوجته المتوقّاة وقمن بقصّها بعناية لصنع أشياء جديدة. لم يضع شيء. كلّ قطعة صالحة من القماش تُستعمل لصنع شيء آخر. في الميلاد، راح القصر يغني.

* * *

ربيع عام 1528: مشى توماس مور بتمهّل. قال: "الرجل وحسب. توماس، توماس كرومويل. أريد رؤية الرجل وحسب".

كان عبقرياً، كان عبقرياً دائماً. وكانت ياقة قميصه قذرة. "هل أنت ذاهب إلى فرانكفورت هذا العام، سيّد كرومويل؟ لا؟ ظننت أنّ الكاردينال قد يرسلك إلى

المعرض، للاطلاع على آخر كتب الهرطقات. فهو ينفق قدراً كبيراً من المال لشرائها، ولكن موجة البذاءة لا تتوقف أبداً.

وصف مور الألمان، في كتاباته ضد لوثر، أنهم قذارة. من الغريب أن تسمع كلمات كهذه تخرج من فم توماس مور، ولكن هذا هو الواقع. فما من أحد استخدم اللغة اللاتينية على هذا النحو البذيء.

قال كرومويل: "كتب الهرطقة ليست من شأني حقاً. فالهرطقات التي تحدث في الخارج، يتم التعامل معها في الخارج. الكنيسة عالمية".

"أه، ولكن ما إن يصل رجال الكتاب المقدس هؤلاء إلى أنتويرب، أنت تعرف... أيّ بلدة هي! ما من أسقف، ولا جامعة، ولا مقعد ملائم للتعليم، ولا سلطات ملائمة لوضع حدّ للتراجم المزعومة، تراجم الكتاب المقدس، التي هي برأيي مأكرة ومضللة... ولكنك تعرف ذلك بالطبع، فقد أمضيت سنوات عدّة هناك. والآن يقال إنّ تيندايل شوهد في هامبورغ. أنت تعرفه، أليس كذلك، إن رأيتة؟".

"وكذلك أسقف لندن. وأنت نفسك، ربّما".

"صحيح، صحيح". فكّر مور في الأمر، وعضّ شفته ثمّ أضاف: "وستقول لي إنّ المحامين غير مسؤولين عن ملاحقة التراجم المزيّفة. ولكنني آمل إيجاد وسائل لملاحقة الأخوة بتهمة التحريض على الفتنة، ما رأيك؟". قال: الأخوة. كانت تلك مزحته الصغيرة، وكان يفيض ازدياءً. "إن كان ثمة جريمة ضدّ الدولة، فسنتمكّن من استخدام معاهداتنا، وأستطيع تسليمهم إلى القضاء. وهكذا يدافعون عن أنفسهم ضمن سلطان قضائي أضيق".

"هل وجدت تحريضاً على الفتنة في كتابات تيندايل؟".

"أه، سيّد كرومويل!"، فرك مور يديه وأضاف: "أنت تعجبني، حقاً. ينتابني الآن شعور شبيه بشعور جوزة الطيب وهي تُبرش. إنّ رجلاً أدنى مرتبة، أو محامياً أقلّ ذكاءً، كان ليقول: قرأت أعمال تيندايل، ولم أجد فيها أيّ عيب. ولكنّ كرومويل لا يزلّ، بل يجيبي، هل قرأت أنت تيندايل؟ وأنا أقرّ أنّي قرأت أعمال الرجل، وحلّلت تراجمه المزعومة، حرفاً حرفاً. قرأته، بالطبع فعلت. بترخيص من أسقفي".

"لأنّ كتاب إكليزياستيكوس ورد فيه: من يلمس القذارة يتلوّث. إلّا إن كان اسمه توماس مور".

"في الواقع، أعرف أنّك قارئ جيّد للكتاب المقدس! وأنك بارع جدّاً في هذا المجال. ولكن إن سمع كاهن ما اعترافاً من أحد الأشخاص، وكانت المسألة تشتمل على

فسق، فهل يجعل ذلك من الكاهن شخصاً فاسقاً؟". من باب التسلية، نزع مور قبّعته، وثاها بين يديه. ثناها نصفين. نظر حوله بعينيه اللامعتين المتعبتين، وكأنّ الاعتراضات ستوجّه إليه من كلّ جانب، ثمّ أضاف: "وأظنّ أنّ كاردينال يورك نفسه أجاز لكهنّته الشباب في الكلية الكاردينالية قراءة كتابات المنتمين إلى طوائف أخرى. وربّما شملك بتلك التراخيص، ألم يفعل؟".

قد يكون من الغريب أن يشمل محاميه بذلك، إلّا أنّه أساساً عمل غريب على المحامين. قال: "نحن ندور في حلقة مفرغة".

ابتسم له مور قائلاً: "في النهاية، نحن في فصل الربيع. وقريباً سنرقد حول سارية نور. الطقس جميل لرحلة بحرية. قد تغامر بالمتاجرة قليلاً بالصوف، ما لم تكن تكتفي بنهب الرجال هذه الأيام. وإن طلب منك الكاردينال الذهاب إلى فرانكفورت، أظنّ أنّك ستفعل؟ وإذا أراد هدم دير صغير، إن ظنّ أنّه يملك أوقافاً جيّدة، أو أنّ الرهبان متقدّمون في السنّ، باركهم الله، وما عادوا يصلحون للقيام بمهامهم، إن ظنّ أنّ الحظائر ممتلئة، والبرك زاخرة بالسّمك، والماشية السمينّة، ورئيس الدير عجوز ونحيل... ينطلق توماس كرومويل. شمالاً، جنوباً، شرقاً أو غرباً. هو وتلامذته الصغار".

لو أنّ رجلاً آخر قال ذلك، لفهم أنّه يسعى إلى بدء شجار. ولكن، من فم توماس مور، فإنّها أدّت إلى دعوة عشاء. قال: "تعال إلى تشيلسي. الحديث الذي يدور هناك رائع، ونودّ أن تشارك فيه. طعامنا بسيط، ولكنّه جيّد".

يقول تيندايل إنّ صبيّاً يغسل الصحون في المطبخ يرضي الله بقدر مبشّر على منبر. فكّر: ربّما، لن أذكر رأي تيندايل.

ربّت مور على ذراعه وقال: "ألا تخطّط للزواج مجدّداً، يا توماس؟ لا؟ قد يكون هذا حكيماً. كان أبي يقول دائماً إنّ اختيار زوجة هو أشبه بوضع يدك في كيس مليء بالكائنات المتلويّة، إنكليس واحد مع ستّ أفاع. فما هي فرص إخراج الإنكليس؟".

"كم مرّة تزوّج أبوك، ثلاث مرّات؟".

"بل أربع مرّات". وابتسم. كانت ابتسامته حقيقية، جعلت زاوية عينيه. قال وهو يبتعد: "سأصلي من أجلك، توماس".

حين توفيت زوجة مور الأولى، كانت خليفتها في المنزل قبل أن تبرد جثّتها. كان مور يودّ لو يصبح كاهناً، ولكنّه لم يستطع مقاومة إغراء الجسد البشري. وبما أنّه لم

يشأ أن يكون كاهناً سيئاً، أصبح زوجاً. كان قد أُعزم بفتاة في السادسة عشرة من عمرها، ولكن أختها البالغة سبعة عشر عاماً لم تكن قد تزوجت بعد، فتزوج الكبرى، كي لا يُجرح شعورها. لم يحبها، فهي لم تكن تعرف لا القراءة ولا الكتابة. كان يأمل تحسن الوضع، ولكن عبثاً. حاول أن يعلمها العظات عن ظهر قلب، ولكنها استاءت وكانت عنيدة في جهلها. أخذها إلى أبيها، الذي اقترح ضربها، فخافت إلى حد أنها أقسمت على عدم التذمر. قال مور: "ولم تعد تتذمر أبداً، مع أنها لم تتعلم أي عظة". يبدو أنه وجد المفاوضات مرضية، لأنها حفظت كرامة الجميع. أنجبت له زوجته العنيدة الأطفال. وحين توفيت في الرابعة والعشرين من عمرها، تزوج أرملة من المدينة، أكبر منها وأكثر عناداً: امرأة أخرى لا تعرف القراءة. فإن كنت متساهلاً جداً مع نفسك وأصررت على العيش مع امرأة، فافعل ذلك، لمصلحتك، مع امرأة لا تعجبك إطلاقاً.

كان الكاردينال كومبيجيو، الذي يرسله البابا إلى إنكلترا بطلب من وولزي، رجلاً متزوجاً قبل أن يكون كاهناً. وهذا ما جعله ملائماً جداً لمساعدة وولزي، الذي لم يملك بالطبع تجربة في المشاكل الزوجية، في المرحلة التالية من محاولاته إعاقه سعي الملك وراء قلبه. ومع أن جيوش الإمبراطور كانت قد انسحبت من روما، إلا أنه لم يتم التوصل إلى أي نتائج حاسمة بعد ربيع من المفاوضات. ذهب ستيفن غاردينر إلى روما، حاملاً رسالة من الكاردينال، يثني فيها على الليدي آن، ويحاول أن يزيل من ذهن البابا أي شكوك في كون الملك يختار عروساً على نحو متعمد ومتهور. أنفق الكاردينال وقتاً طويلاً في كتابة الرسالة التي ذكر فيها فضائل الليدي، وكتبها بخط يده. "التواضع الأنثوي... العفة... هل أستطيع ذكر العفة؟". "من الأفضل لك ذكرها".

نظر إليه الكاردينال. "أتعرف شيئاً؟". تردّد، وعاد إلى رسالته. "قادرة على الإنجاب؟ في الواقع، عائلتها أنجبت الأطفال. ابنة محبة ومخلصة للكنيسة... ربما يمكننا أن نذكر... يقال إن لديها كتاباً مقدساً باللغة الفرنسية في غرفتها، تسمح لوصيفاتها بقراءته، ولكن ليس لدي معلومات أكيدة بهذا الشأن...". "الملك فرنسوا يسمح بامتلاك الكتاب المقدس باللغة الفرنسية. أظن أنها تعلمت قراءته هناك".

"آه، ولكن النساء، كما تعرف. النساء اللواتي يقرأن الكتاب المقدس، هذا موضع جدل آخر. هل هي تعرف ما رأي الأخ مارتن بمكانة المرأة؟ يقول، لا يجدر بنا أن

نحزن إن ماتت زوجتنا أو ابنتنا في أثناء الولادة، فهي تقوم بدورها. كم هو قاس وعنيد، الأخ مارتن. وربما هي لا تقرأ الكتاب المقدس. قد يكون افتراءً. ربما هي قليلة الصبر مع رجال الكنيسة. أتمنى لو أنها لم تلمني على مصاعبها، لو أنها لم تلمني إلى هذا الحد".

كانت الليدي آن تبعت برسائل ودّية إلى الكاردينال، ولكنه لا يظنّ أنها تعنيها حقاً. فقد قال وولزي مرّة: "إن رأيت إمكانية إبطال زواج الملك، فسأذهب بنفسني إلى الفاتيكان، وأفتح شراييني، وأسمح بكتابة الوثائق بدمي. هل تظنّ، لو أنّ آن عرفت بذلك، فستكون راضية؟ كلا، لا أظنّ ذلك، ولكن إن رأيت شخصاً من آل بولين، فاعرض عليه الأمر. للمناسبة، أظنّ أنّك تعرف شخصاً يدعى هامفري مونماوث؟ إنّه رجل أسكن تيندايل في منزله ستّة أشهر، قبل أن يهرب لا أدري إلى أين. يقال إنّه لا يزال يرسل إليه المال، ولكن لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لأنّه لا يعرف مكانه. مونماث... أنا أذكر اسمه وحسب. لأنّه... لماذا أذكر اسمه؟". أغمض الكاردينال عينيه. "لأنّني أذكر اسمه وحسب".

كان أسقف لندن قد سبق وملاً سجونه. إذ حبس أتباع لوثر والهرطقة في نيوغايت وفي فليت، مع المجرمين العاديين. سيقون هناك إلى أن يتوبوا ويقوموا بكفارة عامّة. وإن ارتدّوا مجدداً سيُحرقون، ما من فرصة أخرى.

حين تمّت مدهمة منزل مونماوث، وُجد خالياً من الكتابات المشبوهة، وكأنّه تلقى تحذيراً مسبقاً. لم يتمّ العثور على أيّ كتب أو رسائل تربطه بتيندايل أو أصدقائه. مع ذلك، اقتيد إلى البرج. سبّب ذلك الرعب لعائلته. فمونماوث هو رجل لطيف وحنون، تاجر أجواخ معروف ومحبوب في نقابته وفي المدينة بأسرها. كان يحبّ الفقراء ويشترى الملابس حتّى عندما يسوء وضع التجارة، كي لا يتوقّف الحائكون عن العمل. لا شكّ في أنّ السجن كان يهدف إلى إفلاسه، فأعماله كانت قد تراجعت حين أطلق سراحه. كان عليهم أن يخلوا سبيله لنقص الأدلّة، ذلك أنّ كومة رماد في موقد لا تثبت شيئاً.

كان مونماوث نفسه سيتحوّل إلى كومة رماد لو أنّ الأمور جرت كما يريد توماس مور. قال: "لم تأت لزيارتنا بعد، سيّد كرومويل. ألا تزال تكسر الخبز الجاف في الأقبية؟ هيا، لساني لاذع أكثر ممّا تستحقّ. علينا أن نكون صديقين، أنت تعلم". بدا كلامه وكأنّه تهديد. ابتعد مور وهو يهزّ رأسه: "علينا أن نكون صديقين". رماد، خبز جاف. يقول الكاردينال، إنّ إنكلترا كانت دائماً بلاداً بائسة، مأوى

لشعب منبوذ ومشرّد، يعمل ببطء لنيل حرّيته، وتزوره بلايا خاصّة من وقت إلى آخر. وإن كان ثمة لعنة على إنكلترا، بدا أنّها زالت لفترة من الزمن، مع الملك الذهبي وكارديناله الذهبي. ولكنّ تلك السنوات الذهبية انقضت، وفي هذا الشتاء سيتجمّد البحر، والأشخاص الذين سيرون ذلك المشهد سيتذكّرونه طيلة حياتهم.

انتقلت جوان إلى المنزل في أوستن فرايرز مع زوجها جون وويليامسون وابنتها جوان الصغيرة، التي يناديها الأولاد جو، لأنّها تبدو لهم صغيرة جداً على اسم كامل. كانت أعمال كرومويل تحتاج إلى مساعدة جون وويليامسون. سألته جوان: "توماس، ما هو عمك بالضبط هذه الأيام؟".

بتلك الطريقة، كانت تدفعه إلى التحدّث. قال: "عملنا يقوم على جعل الناس أثرياء. ثمة وسائل عديدة لذلك، وجون سيساعدني في هذا العمل".

"ولكن لن يكون على جون التعامل مع سيّدي الكاردينال، أليس كذلك؟". سرت شائعة مفادها أنّ أشخاصاً نافذين اشتكوا للملك، وأنّ الملك اشتكى لـ"ولزي"، بشأن الأديرة التي أغلقت. فهم لم يفكروا في الاستعمال الأكثر نفعاً الذي استغلّت فيه تلك الأملاك، ولا في كليات الكاردينال، والطلاب الذين يدعمهم، والمكتبات التي يؤسّسها. كلّ ما كان يهمهم هو الحصول على منفعة خاصّة. وبما أنّهم لم يحصلوا على شيء، ادّعوا أنّ الرهبان تركوا عراًّ ينوحون في الطرقات. ولكنّ ذلك ليس صحيحاً. فقد نُقلوا إلى أماكن أخرى، إلى منازل أكبر حجماً وأفضل إدارة. وبعض الرهبان الأصغر سنّاً، تركوا ليذهبوا في سبيلهم. فعند سؤالهم، كان يجد أنّهم لا يعرفون شيئاً، وأنّ المزاعم بكون الأديرة منارات للعلم هو مجرد هراء. كان في إمكانهم أن يتلوا صلاةً لاتينية، ولكن حين تسألهم عن معناها، كانوا يقولون: "معناها، سيّدي؟" وكان لا علاقة إطلاقاً بين الكلمات ومعانيها.

قال لجوان: "لا تشغلي بالك بما يقوله الناس. أنا أتحمّل مسؤولية هذا الأمر، وحدي".

تلّقى الكاردينال الشكاوى بترفع كبير. دوّن بكأبة أسماء المشتكين في ملفّه، ثمّ أخرج اللائحة من ملفّه وأعطى مساعدَه إيّاها، وهو يبتسم ابتسامة متوترة. لم يكن يهتمّ إلا بمبانيه الجديدة، وراياته المرفرفة، وشعاره المنقوش على الأجر، وطلابه في أكسفورد. كان يبحث في كامبريدج عن ألمع الأطباء الشبان لإحضارهم إلى الكلية الكاردينالية. وقعت مشاكل قبل الفصح، حين وجد العميد في حوزة ستّة من الرجال الجدد عدداً من الكتب الممنوعة. قال وولزي حينذاك: "احبسهم. وحاول التقاهم معهم.

إن لم يكن الطقس حاراً جداً ولا ماطرًا جداً، قد آتي لأتفاهم معهم بنفسني".
ولكن لا جدوى من شرح ذلك لجوان. فكلّ ما كانت تريد معرفته هو أنّ زوجها بعيد
عن مرمى الافتراءات التي يتمّ إطلاقها هذه الأيام. "أفترض أنّك تعرف ماذا تفعل".
ثمّ نظرت إلى الأعلى وأضافت: "على الأقلّ، توم، تبدو دائماً وكأنّك تعرف".
كان صوتها، وخطواتها، وحاجباها المرفوعان، وابتسامتها، كلّ ما فيها يذكره بليز.
أحياناً يلتفت معتقداً أنّ ليز دخلت إلى الغرفة.

أربكت الترتيبات الجديدة غرايس. كانت تعرف أنّ زوج أمّها الأوّل كان يدعى توم
ويليامز، لأنّهم كانوا يذكرونه في صلواتهم المنزلية. فسألتهم، هل عمّي ويليامسون
هو ابنه؟

حاولت جوان أن تشرح لها. قالت آن: "وقري كلامك". ربّبت على رأسها، وطرقت
بأصابعها الصغيرة البيضاء على حبّات اللؤلؤ التي تزيّن غطاء رأسها قائلةً: "إنّها
بطيئة الفهم".

قال لها لاحقاً: "غرايس ليست بطيئة الفهم، بل هي صغيرة وحسب".

"لا أذكر أبداً أنّني كنت بتلك الحماسة".

"إذاً، هم جميعاً بطيئو الفهم، باستثنائنا نحن؟ أهدأ صحيح؟".

كان وجه آن يوحي بأنّ هذا صحيح. "لماذا يتزوّج الناس؟".

"لإنجاب الأطفال".

"الأحصنة لا تتزوّج، ومع ذلك لدينا مهور".

قال: "يشعر معظم الناس أنّ الزواج يزيدهم سعادة".

قالت آن: "آه، إذاً، هكذا. هل أستطيع اختيار زوجي؟".

قال: "بالطبع". وكان يعني إلى حدّ معيّن.

"إذاً، أختار رايف".

لدقيقة، أو دقيقتين، شعر أنّ حياته قد تتغيّر. ثمّ فكّر، كيف لي أن أطلب من
رايف الانتظار؟ هو بحاجة إلى تكوين عائلة خاصّة به. حتّى بعد خمس سنوات،
ستكون آن عروساً صغيرة جداً.

قالت: "أعرف، والوقت يمرّ ببطء شديد".

هذا صحيح، فنحن ننتظر دائماً شيئاً ما. قال: "يبدو أنّك فكّرت جيّداً في
الموضوع". لا تحتاج إلى أن تهجّئي لها الكلمات، فهي تعرف ذلك بمفردها. لا تحتاج
إلى توجيه تلك الطفلة في الحديث بالتحويلات والاعتراضات التي تحتاج إليها معظم

النساء. فهي ليست مثل زهرة أو عندليب، بل هي مثل... مثل تاجر مغامر. تنظر في عينيك لتفهم نواياك، ثم تصافحك لعقد الصفقة.

نزعت غطاء رأسها. راحت تلعب بحبات اللؤلؤ التي تزينه بأصابعها، وتسحب خصلة من شعرها الأسود، تشدّها ثم تلفّ بقية شعرها حول عنقها. قالت: "أستطيع فعل ذلك مرّتين، لو كان عنقي أصغر". أضافت بكآبة: "تظنّ غرايس أنّي لا أستطيع الزواج من رايف لأننا قريبان. فبرأيها الأشخاص الذين يعيشون في بيت واحد هم أقرباء".

"أنت لست قريبة رايف".

"هل أنت واثق؟".

"أنا واثق. أن... أعيدي وضع الغطاء على رأسك. ماذا كانت خالتك لتقول؟".

قلّدت وجه خالتها وتمتمت قائلةً: "آه، توماس، أنت دائماً واثق من نفسك!".

رفع يده ليخفي ابتسامته. للحظة، بدت جوان أقلّ قلقاً. قال لها بلطف: "ضعي الغطاء".

أعادته إلى رأسها. فكّر أنّها صغيرة جدّاً، ولكنّ خوذة ستلائمها أكثر. سألته: "كيف

أتى رايف إلى هنا؟".

* * *

أتى إلى هنا من إسكس، لأنّ والده كان هناك في ذلك الوقت. كان أبوه هنري وكيل قصر السير إدوارد بيلكناب، وهو قريب لأسرة غراي، كما تربطه قرابة قوية بماركيز دورسيت، وكان الماركيز رئيس وولزي، عندما كان الكاردينال طالباً في أكسفورد. بالتالي، القرابة موجودة. ومع أنّه لم يكن قد مضى على عودة كرومويل إلى إنكلترا أكثر من عام أو اثنين، إلّا أنّه أصبح مقرباً من الكاردينال، مع أنّه لم يرَ الرجل العظيم شخصياً. عمل لعائلة دورسيت في مختلف قضاياهم المتشابكة. كانت الماركيزة العجوز تطلب منه شراء ستائر الأسرة والسجاد. أرسل هذا، تعال إلى هنا. بالنسبة إليها، كان العالم كلّه في خدمتها. إن أرادت سرطان بحر أو سمكاً، كانت ترسل بطلبه، وإن أرادت نوقاً حسناً، ترسل بطلبه بالطريقة نفسها. كانت الماركيزة تمرّر يدها فوق حرائر فلورنسا وتعبّر عن إعجابها، ثمّ تقول: "أنت اشتريتها، سيّد كرومويل، وهي جميلة جدّاً. مهمّتك التالية هو إيجاد طريقة لندفع ثمنها".

في هذه المتاهة من الواجبات، التقى بهنري سادلر، واتفق معه على استخدام ابنه في منزله. اقترح عليه هنري بشيء من الخوف: "علّمه كلّ ما تعرفه". كان قد ربّب لاصطحاب رايف في طريق عودته من عمله، ولكنّه اختار يوماً سيئاً: وحول،

وأطار غزيرة، وغيوم تتدافع من الساحل. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية حين طرق الباب، مع ذلك، كان الضوء خفيفاً. قال له هنري سادلر: ألا يمكنك المكوث، لا تستطيع الوصول إلى لندن قبل إغلاق الأبواب. ولكنّه قال: يجب أن أحاول العودة إلى البيت الليلة. عليّ الذهاب إلى المحكمة، ورؤية جامعي ضرائب الليدي دورسيت، وأنت تعرف مدى صعوبة ذلك... نظرت السيّد سادلر بخوف إلى الخارج، ومن ثمّ إلى ابنها الذي سيتعيّن عليها مفارقتها الآن، وتركه، في سنّ السابعة، لمخاطر الطقس والطرق.

لم يكن هذا قاسياً، بل كان معتاداً. ولكنّ رايف كان صغيراً جداً حينذاك بحيث ظنّه قاسياً تقريباً. كانت خصلات شعره الطفولية قد قُصّت، فوقف شعره الأشقر عند أعلى رأسه. ركع أبوه وأمه وربّتا على رأسه. بعدها، راحا يلقّانه بطبقات عديدة من الملابس بحيث انتفخ جسده وأصبح أشبه ببرميل صغير. نظر إلى الصبيّ ومن ثمّ إلى المطر المنهمر في الخارج وفكّر، ينبغي لي أحياناً أن أكون دافئاً وجافاً كغيري من الرجال. كيف يتمكّنون من ذلك، وأنا لا؟ ركعت السيّد سادلر ووضعت وجه ابنها بين يديها. همست له قائلةً: "تذكّر كلّ ما قلناه لك. لا تنسَ تلاوة صلواتك. سيّد كرومويل، أرجوك، احرص على أن يتلو صلواته".

حين نظرت إليه، رأى أنّ عينيها مغرورقتان بالدموع ورأى أنّ الصبيّ لم يكن قادراً على احتمال ذلك، وكان يرتعش داخل الغطاء وعلى وشك الانفجار باكياً. لفّ معطفه حوله، فطارت منه قطرات المطر وعمّدت المشهد. "حسناً، رايف، ما رأيك؟ هل أنت رجل شجاع بما يكفي؟". مدّ يده المكسوّة بالقفاز، فوضع الصبيّ يده فيها. "هل نرى إلى أيّ مسافة يمكننا الوصول؟".

قال في نفسه، سنفعل ذلك بسرعة كي لا نتظر إلى الورا. أبعدت الرياح والمطر الوالدين عن الباب المفتوح. ألقى رايف على صهوة الجواد، وراح المطر ينهمر عليهما أفقياً. في ضواحي لندن، هدأت الرياح. كان يعيش في شارع فانتشيرتش حينذاك. عند الباب، مدّ أحد الخدم ذراعيه لإنزال رايف، ولكنّه قال له: "نحن رجالان مبلّان وسنبقى معاً".

كان رايف قد أصبح ثقيلاً بين ذراعيه، منكمشاً داخل سبع طبقات من الصوف المشبع بالماء. وضع رايف أمام النار، فراحت الأبخرة تتصاعد منه. أعاد إليه الدفء طاقته، فرفع أصابعه الصغيرة المتجلّدة وبدأ يحاول نزع الأغطية عنه. سأل بنبرة مهدّبة: "أيّ مكان هذا؟".

أجابه: "لندن، شارع فانتشيرتش. نحن في البيت". تناول منشفة كتّانية وبدأ يمسح عن وجهه آثار الرحلة. فرك شعره، فانتصب واقفاً. دخلت ليز. "ربّاه، صبيّ هذا أم قنفذ؟". التقت رايف إليها، وابتسم، ثمّ نام واقفاً على قدميه.

* * *

حين انتشر الطاعون مجدّداً في صيف عام 1528، قال الناس، كما فعلوا في العام السابق، إنك لن تصاب به إن لم تفكّر فيه. ولكن كيف لك ذلك؟ أرسل الفتاتين خارج لندن، أولاً إلى منزل ستيني، ومن ثمّ إلى مكان أبعد. هذه المرّة، التقط سكان القصر العدوى. حاول هنري الهرب من الطاعون، متنقلاً من كوخ صيد إلى آخر. أرسلت آن إلى هافر. ولكنّ الطاعون تقشّى بين عائلة بولين وكان والد الليدي هو أوّل من أصيب به. ظلّ على قيد الحياة، ولكنّ زوج أختها ماري توفي. مرضت آن ولكنها عادت تقف على قدميها خلال أربع وعشرين ساعة. مع ذلك، من شأن المرض أن يؤثّر في مظهر المرأة. قال للكاردينال، لا يعرف المرء من أجل من وماذا يصلي. قال الكاردينال: "أنا أصلي من أجل الملكة كاثرين... والليدي آن العزيزة أيضاً. أصلي من أجل جيوش الملك فرنسوا في إيطاليا، كي يحالفها الحظ، ولكن ليس إلى حدّ نسيان مدى حاجته إلى صديقه وحليفه الملك هنري. وأصلي من أجل جلالته الملك وجميع مستشاريه، ومن أجل الحيوانات في البراري، ومن أجل قداسة البابا والإدارة البابوية، كي يهديهم الله في قراراتهم. أصلي من أجل مارتين لوثر، وكلّ من اتّبع هرطقته، وجميع من يعارضونه، لا سيّما مستشار دوقية لانكاستر، صديقنا العزيز توماس مور. وخلافاً للعقل والمنطق، أصلي من أجل محصول جيّد وأطلب توقّف المطر. أنا أصلي من أجل الجميع، أصلي من أجل كلّ شيء. فهذا ما يعنيه أن تكون كاردينالاً.

حين وصلت العدوى إلى قصر هامبتون، عزل الكاردينال نفسه عن العالم. لم يسمح سوى لأربعة خدم بالاقتراب منه. وحين عاد للظهور، بدا فعلاً وكأنّه كان يصلي.

في نهاية الصيف، حين عادت الفتاتان إلى لندن، بدتا أكبر سنّاً وبدأ شعر غرايس أفتح لوناً بفعل الشمس. كانت خجولة منه، وتساءل ما إذا كانت تذكر تلك الليلة التي حملها فيها إلى السرير، بعدما قيل لها إنّ أمّها ماتت. قالت آن، مهما يحصل في الصيف القادم، أفضل البقاء معك. كان المرض قد اختفى من المدينة، ولكنّ صلوات الكاردينال لم تُستجب جميعها. فالمحصول كان سيئاً، وكان الفرنسيون يواجهون

خسارة فادحة في إيطاليا، بعد أن مات قائدهم بالطاعون.
حلّ فصل الخريف. عاد غريغوري إلى معلّمه، وكان تمنّعه واضحاً، مع أنّ قليلاً من الأمور المتعلقة بغريغوري تبدو واضحة له. سأله: "ما الأمر؟ هل ثمة خطب ما؟". ولكنّ الصبيّ لم يجب. كان مشرقاً ومليئاً بالحياة مع بقيّة الناس، ولكنّه مهذب ومتحفّظ مع والده، وكأنّه يحاول الحفاظ على مسافة بينهما. قال لجوان: "هل غريغوري خائف منّي؟".

التفتت إليه بسرعة وقالت: "هو ليس قديساً". ثمّ لانت نبرة صوتها وأضافت: "توماس، لماذا يخافك؟ أنت أب لطيف. في الواقع، أظنّ أنّك بالغ اللطف مع أولادك".

"إن كان لا يريد العودة إلى معلّمه، فسأتمكّن من إرساله إلى أنتويرب، إلى صديقي ستيفن فوغان".

"غريغوري لن ينجح أبداً كرجل أعمال".
"كلاً". لم يكن يستطيع تخيّلوه وهو يعقد صفقة بمعدّلات ربا مع أحد عملاء فوغرز أو أحد موظفي ميديسي الماكارين. "إذاً، ماذا أفعل معه؟".
"سأخبرك ماذا تفعل. حين يصبح جاهزاً، زوّجه من فتاة جيّدة. غريغوري هو سيّد لائق. يمكن لأيّ كان رؤية ذلك".

كانت آن متشوّقة إلى تعلّم اليونانية، وكان يفكّر في الشخص الأفضل لتعليمها ويسأل في الجوار. يريد مدرّساً مناسباً يمكنه التحدّث إليه خلال العشاء، طالباً شاباً يعيش في المنزل. فقد ندم على المعلّم الذي اختاره لابنه ولأبناء شقيقته، ولكنّه لا يستطيع تغييره الآن. فالرجل ميّال إلى الشجار، وقد وقعت حادثة محزنة حين اشتعلت النيران في غرفة أحد الصبية، لأنّه كان يقرأ في السرير على ضوء شمعة. قال بشيء من الأمل: "لا يمكن أن يكون غريغوري، أليس كذلك؟". وبدأ أنّ المعلّم رأى أنّه يتعامل مع الموضوع وكأنّه مزحة. كما أنّه يرسل إليه دائماً فواتير يظنّ أنّها مدفوعة؛ قال في نفسه، أحتاج إلى محاسب في بيتي.

جلس إلى مكتبه الذي تراكمت عليه الرسومات والمخطّطات من إيسويتش والكلية الكاردينالية، فضلاً عن تخمينات الحرفيين وفواتير المخطّطات الزراعية الخاصّة ببولزي. تفحص ندبة في كفّ يده، ناتجة عن حرق قديم، وبدت له كأنّها حبل مجدول. فكّر في بوتتي، وفي والتر. فكّر في الخطى الهائجة لحسان جفول، وفي رائحة المقهى. فكّر في مطبخ لامبيث، وفي الصبيّ ذي الشعر الكتّاني الذي كان

يحضر سمك الإنكليس. ذكر أنه أمسك ذاك الصبي من شعره وغمر رأسه في حوض من الماء، وأبقاه في الأسفل. ففكر: هل فعلت ذلك حقاً؟ أتساءل لماذا. الكاردينال محقّ على الأرجح، من الصعب أن أنال الخلاص. كانت الندبة تسبّب له الحكاك أحياناً، وكانت قاسية كالعظم. ففكر: أحتاج إلى محاسب، وأحتاج إلى مدرّس للغة اليونانية، وأحتاج إلى جوان، ولكن من أين لي أن أنال ما أحتاج إليه؟

فتح رسالة. كانت من كاهن يدعى توماس بيرد. كان بحاجة إلى المال، وبدأ أن الكاردينال يدين له ببعض منه. دون ملاحظة للتحقق من الأمر ودفع المال، ثم تناول الرسالة مجدداً. ورد ذكر رجلين، طالبين، هما كليرك وسومنر. كان يعرف الاسمين، فهما اثنان من الطلبة الستة في أكسفورد الذين وجدت كتب لوثر في حوزتهم. كان الكاردينال قد قال، احبسهم وحاول التفاهم معهم. حمل الرسالة وشرّد نظره بعيداً عنها. عرف أن شيئاً سيئاً سيحدث، لأنّ ظلّه كان يتحرّك على الجدار. تابع القراءة. كليرك وسومنر توفياً. قال المرسل، لا بدّ من أن الكاردينال عرف بالأمر. فنظراً إلى عدم وجود مكان آمن آخر، قرّر العميد حبسهما في أقبية الكلية، وهي أقبية عميقة وباردة، مخصّصة لتخزين السمك. وحتّى في ذلك المكان الهادئ، والسري، والجليدي، أصابهما طاعون الصيف، فماتا في الظلام ومن دون كاهن. صلينا طيلة الصيف ولكننا لم نصلّ بما يكفي. هل نسي الكاردينال مهرطقيه بكلّ بساطة؟ قال في نفسه، عليّ الذهاب لإخباره.

كانوا في الأسبوع الأوّل من أيلول/سبتمبر. تحوّل حزنه المكبوت إلى غضب. ولكن ماذا يمكنه أن يفعل بغضبه؟ عليه كبتة هو أيضاً.

ولكن حين انتهى العام أخيراً، وقال الكاردينال، توماس، ماذا أقدم إليك كهدية لحلول العام الجديد؟ أجابه: "أعطني بيلني الصغير". ومن دون أن ينتظر جواب الكاردينال، تابع قائلاً: "سيدي، إنّه مسجون في البرج منذ عام. البرج يخيف أيّ رجل كان، ولكنّ بيلني هو رجل خجول وليس قوياً، وأخشى أنّهم يضيقون عليه. تذكر، سيدي، كيف مات سومنر وكليرك. سيدي، استخدم سلطتك، ابعث الرسائل، استرحم الملك إن استلزم الأمر. أطلق سراحه".

أسند الكاردينال ظهره، وشبك أصابعه ببعضها، ثمّ قال: "توماس، عزيزي توماس كرومويل. حسناً، ولكن على الأب بيلني العودة إلى كامبريدج. عليه التخلّي عن مشروع ذهابه إلى روما والتحدّث إلى البابا والتأثير في تفكيره. فأقبية الفاتيكان عميقة جدّاً، وذراعي لن تطاله هناك".

كان على وشك القول: "أنت لا تطال أقبية كُأيتك"، ولكنه أمسك لسانه. فقد كانت الهرطقة واحدة من الأمور الصغيرة التي يتساهل الكاردينال معه فيها. كان يسرّ دائماً بقراءة آخر الكتب السيئة، والاطّلاع على الشائعات الصادرة من الستيليارد حيث يعيش التجّار الألمان. كان يسرّ بقراءة كتاب أو اثنين ويستمتع بالمناقشة بعد العشاء. ولكن بالنسبة إلى الكاردينال، كلّ نقطة مثيرة للنزاع تحتاج إلى تخفيفها بالكلمات الرقيقة. وأيّ رأي خطير ينبغي أن يُحاط بالاعتذارات الضاحكة ليصبح سميناً وغير مؤذٍ مثل الوسادة التي تنام عليها. صحيح أنّه حين وصل الكاردينال نبأ موت الشبّان تحت الأرض، تأثّر وسالت دموعه. قال: "كيف لم أعلم بذلك؟ يا لأولئك الشباب الطيّبين!".

كان يبكي بسهولة في الأشهر الأخيرة، ولكنّ هذا لا يعني أنّ دموعه لم تكن حقيقية. وقد مسح الآن دموعه، لأنّه عرف القصة: بياني الصغير في غرايز إن، الرجل الذي يتحدّث البولندية، الأشخاص الذين تمّ إرسالهم عبثاً، الأطفال المصدومون، وجه إليزابيث كرومويل الذي غيَّبه الموت. اتّكأ فوق مكتبه وقال: "توماس، أرجوك لا تيأس. لا يزال لديك أبناءك. وفي الوقت المناسب، قد ترغب في الزواج مجدداً".

فكّر، أنا إنسان تصعب مواساته. وضع الكاردينال يده على يده. لمعت الأحجار الغريبة في الضوء، وبدا عمقها. حجر عقيق أحمر أشبه بكرة من الدم، حجر فيروزي يلمع كالفضّة، وحجر ألماسي يلمع بلون رمادي مصفرّ، وكأنّه عين هرة. لن يخبر الكاردينال أبداً عن ماري بولين، مع أنّه سيحتاج إلى ذلك. قد يضحك وولزي، وقد يُصدم. عليه أن ينقل إليه المحتوى ويحذف السياق.

خريف عام 1528: كان في القصر في عمل للكاردينال. رأى ماري تجري نحوه، رافعةً ثوبها، الذي بدا منه زوج من الجوارب الحريرية الخضراء. هل شقيقتها أن تلاحقها؟ انتظر ليري.

توقّفت فجأة، وقالت: "آه، هذا أنت!".

لم يتوقّع أنّ ماري تعرفه. وضعت يداً على الجدار، محاولةً التقاط أنفاسها، واليد الأخرى على كتفه، وكأنّه مجرد جزء من الجدار. كانت ماري لا تزال تتمتع بجمال باهر. قالت: "كان خالي هذا الصباح، الخال نورفولك، غاضباً منك. سألت شقيقتي، من يكون هذا الرجل الرهيب، وقالت...".

"إنّه الرجل الذي يبدو كالجدار؟".

أبعدت ماري يدها. ضحكت، واحمرّ وجهها، وأخذت نفساً عميقاً وهي تلهث.
"ما الذي كان يزعج لورد نورفولك؟".

"آه..."، وراحت تلوّح بيدها متابعة: "قال: الكرادلة، والموفدون الرسميون، لم تكن الحياة في إنكلترا ممتعة يوماً بوجود كرادلة بيننا. قال إنّ كاردينال يورك ينهب منازل النبلاء، وأنه يسعى كي يحكم بنفسه، ويعامل اللوردات وكأنهم أولاد مدارس. لم يكن هذا يعني أن تأخذ ما قلته في الاعتبار...".

بدت ضعيفة، ولا تزال تلهث، ولكنّ عينيه شجّعتها على الكلام. ضحكت قليلاً وقالت: "أخي جورج كان غاضباً أيضاً. قال إنّ كاردينال يورك وُلد في مستشفى للفقراء وإنه يستخدم رجلاً ولد في بالوعة. قال السيّد أبي، هيّا عزيزي، لن نخسر شيئاً إن كنت أكثر دقة. هو لم يولد في بالوعة بل في مقهى، على ما أظنّ، لأنّه ليس سيّداً بالتأكيد". تراجعت ماري خطوة إلى الوراء، مضيفةً: "ولكنك تبدو كسيّد. يعجبني هذا المخمل الرمادي، من أين أتيت به؟".

"من إيطاليا".

أحسّ بأنّه رُقي من كونه جداراً. امتدّت يد ماري ثانيةً وتفحصت سترته بلطف.
"هل يمكنك أن تحضر لي منه؟ مع أنّ لونه داكن ربّما بالنسبة إلى امرأة؟".

قال في نفسه، ليس بالنسبة إلى أرملة. ولا بدّ من أنّ التفكير انعكس على وجهه لأنّ ماري قالت: "كما تعرف، توقّي ويليام كاري".

أحنى رأسه باحترام. قالت ماري: "البلاط يفتقده، وربّما أنت أيضاً".
تنهّدت. "كان لطيفاً، نظراً إلى الظروف".

"لا بدّ من أنّ الأمر كان صعباً عليك".

"حين حوّل الملك اهتمامه نحو آن، فكّر، نظراً إلى كيفية سير الأمور في فرنسا، في أنّها قد تقبل... أن يكون لها منصب معيّن في البلاط، وفي قلبه، على حدّ قوله. قال إنّّه سيتخلّى عن جميع عشيقاته الأخريات. الرسائل التي كتبها بخطّ يده...".
"حقاً؟".

كان الكاردينال يقول دائماً إنّّه من المستحيل دفع الملك لكتابة رسالة بنفسه، حتّى لو كانت موجّهة إلى ملك آخر، وحتّى لو كانت موجّهة إلى البابا. حتّى لو كانت ستحدث فرقاً.

"أجل، منذ الصيف الماضي. كان يكتب إليها، وأحياناً، حيث ينبغي له أن يوقع هنريكوس ريكس..."، تناولت يده، وفتحت كفّه، ورسمت بسبّابتها شكلاً. "حيث ينبغي

له أن يوقع اسمه، يرسم عوضاً منه قلباً، ويضع أحرف اسميهما الأولى فيه. آه، لا تضحك...". لم تكن قادرة عن إبعاد الابتسامة عن وجهها. "يقول إنه يتعذب".

أراد أن يقول: ماري، هل تستطيعين سرقة تلك الرسائل لي؟
"تقول أختي، هذه ليست فرنسا، وأنا لست حمقاء مثلك، ماري. تعرف أنني كنت عشيقه هنري وترى ما حلّ بي. تتعلم درساً من تجربتي".
كان يحبس أنفاسه تقريباً. ولكنها طائشة الآن، ستتقدّ كلامها.

"صدّقني، سيفعلان المستحيل من أجل الزواج، لقد تعهدا بذلك. تقول أن إنها ستفوز به، وإنها لا تأبه لو غرقت كاثرين وكلّ الإسبان في البحر. ما يريد هـنري سيحصل عليه، وما تريده أن ستحصل عليه، أقول ذلك لأنني أعرفهما جيداً، فمن يعرفهما أكثر منّي؟". كانت عيناها الرقيقتان تفيضان بالدموع. قالت: "لهذا السبب، أفترقد إلى ويليام كاري، لأنها أصبحت كلّ شيء الآن، بينما يتمّ إبعادي بعد العشاء وكأنني نبتة ذابلة. لم أعد زوجة أحد، يمكنهم نعتي بأيّ شيء الآن. يقول أبي إنني فم عليه إطعامه، ويقول الخال نورفولك إنني مومس".

وكأنه ليس هو من جعلك كذلك. "هل تحتاجين إلى المال؟".
أجابت: "آه، أجل! أجل، أجل، أجل، ولا أحد يفكر في ذلك حتّى! لم يسألني أحد ذلك من قبل. لديّ أولاد، كما تعلم. أحتاج..."، ضغطت أصابعها على فمها، لمنعه من الارتجاف. "لو رأيت ابني... لم تظنّ أنني أسميته هنري؟ كان يجدر بالملك الاعتراف به ابناً له، تماماً كما اعترف بريتشموند، ولكنّ شقيقتي تمنعه من ذلك. وهو يفعل ما تريده. تريد أن تتجب له أميراً بنفسها، ولهذا السبب لا تريد طفلي في حضانتها".

كان الكاردينال قد استلم تقارير تفيد أنّ طفل ماري بولين هو صبيّ بصحة جيّدة، ذو شعر ذهبي محمّر وشهية جيّدة. لديها ابنة، أكبر سنّاً، ولكن في هذا السياق، لا أهميّة لذلك. سألتها: "ما هو عمر ابنك الآن، ليدي كاري؟".

"سيبلغ الثالثة من عمره في آذار/مارس. ابنتي كاثرين في الخامسة من عمرها".
لمست شفيتها بذعر مرّة أخرى. "لقد نسيت... زوجتك توفّيت. كيف نسيت ذلك؟".
تعجّب، كيف عرفت بذلك، ولكنها أجابته على الفور: "آن تعرف كلّ شيء عن الأشخاص الذين يعملون لدى الكاردينال. تسأل الأسئلة وتدوّن الأجوبة في دفتر. نظرت إليه وسألته: "وهل لديك أولاد؟".

"أجل... هل تعرفين، لا أحد يسألني عن ذلك أيضاً؟". أسند كتفه على اللوح

الخشبي الذي يكسو الجدار، واقتربت منه قليلاً، ربّما بسبب ألمهما المعتاد، وشعورهما بالحرمان. قال: "لديّ ابن كبير، وهو في كامبريدج مع أستاذ خاصّ. ولديّ ابنة صغيرة تدعى غرايس، جميلة وشقراء الشعر، مع أنّي لست أشقر... لم تكن زوجتي فائقة الجمال، وأنا كما ترين. ولديّ آن، آن تريد تعلّم اليونانية".

قالت: "ربّاه، بالنسبة إلى امرأة، أنت تعلم...".
"أجل، ولكنّها تقول: لمّ ينبغي أن تكون ابنة توماس مور أكثر تفوّقاً؟ لديها تعابير رائعة، وتستخدمها جميعاً".
"إنّها المفضّلة لديك".

"جدّتها تعيش معنا، وكذلك أخت زوجتي، ولكنه ليس... بالنسبة إلى آن، ليس الترتيب الأفضل. كان في إمكاني إرسالها إلى منزل آخر، ولكنها... تودّ تعلّم اليونانية... وبالكد أنا أراها". شعر أنّه أطول حديث شارك فيه منذ بعض الوقت، باستثناء أحاديثه مع وولزي. قال: "ينبغي لأبيك الإنفاق عليك كما يجب. سأطلب من الكاردينال التحدّث إليه". وفكّر في أنّ الكاردينال سيستمتع بذلك.

"ولكنني أحتاج إلى زوج جديد، كي يتوقّفوا عن شتمي. هل يستطيع الكاردينال إيجاد أزواج؟".

"يستطيع الكاردينال فعل أيّ شيء. أيّ نوع من الأزواج تريدين؟".
فكّرت، ثمّ قالت: "أريد شخصاً يعتني بأطفالي، ويمكنه الوقوف في وجه عائلتي. شخص لا يموت". أخذت تلعب بأصابعها.

"عليك أن تطلبي رجلاً شاباً ووسيماً أيضاً. إن لم تطلبي ما تريدين، فلن تنالينه".
"حقاً؟ لقد نشأت في عادات مختلفة".

إذاً، كانت تربيتك مختلفة عن تربية أختك. "هل تذكرين الحفل التتكري في قصر يورك... هل كنت الجمال أم اللطف؟".

"أه..."، ابتسمت قائلةً: "لا بدّ من أنّ ذلك كان قبل سبع سنوات؟ لا أذكر. فقد بدّلت ملابس مرّات عديدة".

"بالطبع، لا تزالين الاثنتين".
"هذا كلّ ما كنت أهتمّ به، الملابس. ولكنني أذكر أنّ آن كانت المثابرة".

قال: "قد يتمّ امتحان أهمّ فضائلها".
أتى الكاردينال كامبيجيو إلى هنا برسالة بابوية من روما للاعتراض. الاعتراض والتأجيل. افعل أيّ شيء، ولكن تجنّب إصدار حكم.

"أن تكتب الرسائل دائماً، أو تكتب في دفترها الصغير. تصعد وتنزل، تصعد وتنزل. حين ترى السيّد أبي، تمدّ له يدها ولا تجرؤ على الكلام... وحين تراني، تقرصني، هكذا..."، قرصت ماري الهواء بأصابع يدها اليسرى. "هكذا". ومرّرت أصابع يدها اليمنى فوق حلقها، إلى أن وصلت إلى الحفرة الصغيرة النابضة عند أسفل رقبتها. قالت: "هنا. وأحياناً تخلف مكانها بقعة زرقاء. إنّها تفكّر في تشويهي". قال: "سأتحدّث إلى الكاردينال". "افعل ذلك". وانتظرت.

كان يحتاج إلى الذهاب، فليده ما يقوم به. قالت: "لم أعد أريد الانتماء إلى عائلة بولين، ولا إلى عائلة هاورد. لو أنّ الملك يريد الاعتراف بابني لاختلف الأمر، ولكن، والحال كذلك، لم أعد أبه لتلك الحفلات والتتكر بأزياء الفضائل. فهم لا يملكون فضائل على الإطلاق، هذا مجرد تمثيل. إن كانوا لا يريدونني، فأنا أيضاً لا أريدهم. أفضل أن أكون متسوّلة". "حقاً... ليس من الضروري أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ، ليدي كاري". "هل تعرف ما أريده؟ أريد زوجاً يثير غضبهم. أريد الزواج من شخص يخيفهم". أضاءت عيناها الزرقاوان فجأة، وخطرت لها فكرة. وضعت إصبعاً على سترته المخملية الرمادية التي أعجبتها، وقالت بنعومة: "إن لم تطلب ما تريده، فلن تحصل عليه".

توماس هاورد خالك؟ توماس بولين أبوك؟ والملك، يوماً ما، زوج أختك؟ قال: "سيقتلونك".

لم يشأ أن يسهب في الحديث في هذه النقطة، بل اكتفى بذكرها. ضحكت وعصّت شفتها ثمّ قالت: "بالطبع. بالطبع سيفعلون. ماذا ظننت؟ على أيّ حال، أنا ممتنة لك على ما فعلته حتّى الآن. ممتنة على هذا الصباح الهادي، لأنّهم حين يصيحون في وجهك، لا يصيحون في وجهي. يوماً ما، سترغب أن بالتحدّث إليك. سترسل بطلبك وستطري عليك. إمّا ستعرض عليك عملاً، أو تطلب نصيحة. لذا، وقبل حدوث ذلك، سأعطيك نصيحتي. استدر، وامش مبتعداً". قبلت رأس إصبعها ووضعت على شفتيه.

لم يكن الكاردينال يحتاج إليه تلك الليلة، فقصّد منزله في أوستن فرايرز. شعر أنّه يودّ الابتعاد عن جميع أفراد أسرة بولين. بعض الرجال قد يُفتنون بامرأة كانت عشيقته ملكين، ولكنّه ليس واحداً منهم. فكّر في شقيقة آن، لماذا كانت تهتمّ له. ربّما لديها

معلومات من خلال ما سمّاه توماس مور أخويتك الإنجيلية، ومع ذلك، الأمر مثير للاستغراب. إذ لم يبدو أنّ آل بولين يفكرون كثيراً في أرواحهم. فالخال نورفولك لديه كهنة يفعلون ذلك من أجله، لأنّه كان يكره الأفكار ولا يقرأ أبداً. أمّا الأخ جورج فكان يهتمّ بالنساء، والصيد، والملابس، والمجوهرات، والتنس. والسير توماس بولين، الدبلوماسي الساحر، لا يهتمّ سوى بنفسه.

كان يودّ إخبار شخص ما بما حدث، لكن ما من أحد يستطيع إخباره، فأخبر رايف. قال رايف بنبرة صارمة: "أظنّ أنّه من نسج خيالك". حلق بعينه حين روى له حكاية الأحرف الأولى داخل القلب، لكنّه لم يبتسم حتّى. وقال متشككاً عندما أخبره بعرض الزواج: "لا بدّ من أنّها كانت تعني شيئاً آخر".

هزّ كتفيه، من الصعب رؤية ذلك الشيء. قال رايف: "سينقضّ علينا الدوق نورفولك مثل قطع من الذئب، ويضرم النار في منزلنا". وهزّ رأسه. "ولكن ماذا عن القرص، ما علاجه؟".

أجاب رايف: "درع، بالطبع".

"قد يدفع ذلك للتساؤل".

"لا أحد ينظر إلى ماري هذه الأيام". وأضاف بنبرة اتّهامية: "باستثناءك أنت".

بوصول الموفد البابوي إلى لندن، زالت الصفة شبه الملكية عن منزل آن بولين. لم يكن الملك يريد أيّ إرباك في القضية. فالكاردينال كامبيجيو أتى لبحث موضوع الشبهة في زواجه من كاثرين، وهو أمر سيصرّ على كونه منفصلاً تماماً عن أيّ مشاعر لديه تجاه الليدي آن. فحزمت حقائبها إلى هافر، ومعها أختها. سارت شائعة في لندن، تقيد أنّ ماري حامل. قال رايف: "سيدي، هل أنت واثق من أنّك اتكأت على الجدار وحسب". كانت تقول عائلة الزوج الميت إنّ الطفل لا يمكن أن يكون طفله، والملك كان ينكره هو أيضاً. من المحزن رؤية الخفة التي افترض بها الناس أنّ الملك كان يكذب. وما ردّ فعل آن؟ لديها الوقت للتخلّص من عبوسها، في أثناء وجودها في الريف. قال رايف: "ستُقرص ماري حتّى تكتسي بالبقع السوداء والزرقاء".

أخبره الناس في مختلف أنحاء البلدة بالشائعة، من دون أن يدركوا مدى اهتمامه. أحزنه الأمر، وأثار ريبته، وجعله يتساءل عن أفراد أسرة بولين. أصبح يرى ويسمع كلّ ما جرى بينه وبين ماري على نحو مختلف. اقشعرّ بدنه وهو يفكر في أنّه لو تأثر بكلامها وإطرائها، لو استجاب لها، سرعان ما كان سيصبح أباً لطفل لا يشبه آل كرومويل بشيء، بل يشبه آل تيودور كثيراً. أمّا بالنسبة إلى الخدعة، فهي مثيرة

للإعجاب. قد تبدو ماري كالدمية، ولكنها ليست غبية. فبينما هي تجري في الرواق كاشفة عن زوج الجوارب الأخضر، كانت تطارد فريسة. آل بولين كانوا يستعملون الناس ثم يتخلصون منهم، من دون أي اعتبار لمشاعر الآخرين، أو سمعتهم، أو اسم عائلتهم.

ابتسم لفكرة أنّ آل كرومويل يملكون اسم عائلة، أو سمعة يدافعون عنها. مهما كان ما حدث، لم ينتج عنه شيء. ربّما كانت ماري مخطئة، أو أنّ الشائعة كانت تهدف إلى إيذائها وحسب. الله يعلم أنّ العائلة تجذب هذا النوع من الشائعات. ربّما كان ثمة طفل، وأجهضته. تلاشت القصة، من دون خلاصة حاسمة. لم يولد أيّ طفل. كانت مثل قصص الكاردينال الخيالية الغريبة، التي تصوّر الطبيعة نفسها على أنّها فاسدة والنساء أفاع يظهرن ويختفين حسب مشيئتهنّ.

كان لدى الملكة كاثرين طفل اختفى. ففي العام الأوّل من زواجها من هنري، أجهضت، ولكنّ الأطباء قالوا إنّها كانت حاملاً بتوأم. ويذكر الكاردينال أنّه رآها في البلاط بثوب واسع، تعلو شفيتها ابتسامة غامضة. ثمّ ذهبت إلى جناحها للولادة، وخرجت بعد فترة بثوب ضيق، وبطن مسطح، ومن دون طفل.

لا بدّ من أنّها صفة خاصّة لدى آل تيودور.

بعد فترة قصيرة، سمع أنّ آن أصبحت وصيّة على ابن أختها، هنري كاري. تساءل ما إذا كانت تتوي تسميمه، أم أكله.

العام الجديد، 1529: ستيفن غادرينر في روما يطلق بعض التهديدات للبابا كليمنت، لصالح الملك. لم يتمّ كشف محتوى التهديدات للكاردينال. كان كليمنت يصاب بالذعر بسهولة، ولم يكن مستغرباً، أن ينهار مع تهديدات السيّد ستيفن. قيل إنّّه قد يموت، فأخذ عملاء الكاردينال يروحون ويجيئون في أوروبا، يستطلعون الآراء. سيكون حلّ مشكلة الملك سريعاً لو أصبح وولزي هو البابا. تذرّ قليلاً من هذا الاحتمال، فالكاردينال أحبّ بلاده، أكاليل أزهارها الربيعية، وغناء عسافيرها. كان في كوابيسه يرى الإيطاليين وهم يبصقون عليه، أو يرى غابة من المشانق، أو سهلاً مزروعاً بالجنث. "سأطلب منك مرافقتي، توماس. يمكنك الوقوف بجانبني والتحرّك بسرعة إن حاول أحد أولئك الكرادلة طعني".

تخيّل جسد سيّده مزروعاً بالخناجر، كما زرع جسد سان سيباستيان بالأسهم. "لماذا ينبغي لمقرّ البابا أن يكون في روما؟ أين كُتب ذلك؟".

أضاعت ابتسامة صغيرة وجه الكاردينال. "تستطيع جلب المقرّ البابوي إلى إنكلترا،

لم لا؟". أحبّ تلك الخطط الجريئة. "لا أستطيع نقله إلى لندن، على ما أظنّ؟ لو أنّي رئيس أساقفة كانتربوري، لجعلت مقرّي البابوي في قصر لامبيث... ولكنّ وارهام العجوز يتسكّع هناك طيلة الوقت، وهو يعيقني دائماً...".

"يمكن لغببتك الانتقال إلى مقرّك الخاصّ".

"يورك بعيدة جدّاً. ألاّ أستطيع جعل المقرّ البابوي في وينشستر، ما رأيك؟ إنّها عاصمتنا البريطانية القديمة؟ وبذلك أكون أقرب إلى الملك؟".

سيكون هذا نظام حكم غير اعتيادي بلا ريب. الملك جالس إلى طاولة العشاء، مع البابا، الذي يحتلّ أيضاً منصب قاضي القضاة... هل سيناولة الملك منديله، ويصبّ له الطعام أولاً؟

حين وصلت أنباء شفاء كليمنت، لم يقل الكاردينال، ضاعت منّي فرصة عظيمة، بل قال، توماس، ماذا نفعل الآن؟ علينا فتح المحكمة المنتدبة، لم يعد من الممكن تأجيلها. قال: "اذهب واعثر لي على رجل يدعى أنطوني بوينيس".

جلس مكتوف اليدين، ينتظر تفاصيل أكثر دقّة.

"حاول البحث عنه في جزيرة وايت. أحضر إليّ السيّد ويليام توماس، أظنّ أنّك ستجده في كارمارثين. وهو متقدّم في السنّ، لذا، اطلب من رجالك عدم الإسراع". هزّ رأسه مجيباً: "أنا لا أستخدم أشخاصاً بطيئين، مع ذلك سألفت انتباههم إلى عدم قتل الشهود".

كانت المحاكمة في قضية الملك الكبرى قد أصبحت وشيكة. وكان الملك ينوي الإثبات أنّ الملكة كاثرين لم تكن عذراء حين تزوّج منها، وأنّ زواجها بشقيقه آرثر كان مكتملاً. في سبيل ذلك، جمع السادة الذين خدّموا الزوجين بعد الزفاف في قصر باينارد، ومن ثمّ لاحقاً في ويندسور، إلى حيث أرسل كأمير وأميرة ويلز. قال وولزي: "لكان آرثر بسنّك تقريباً، لو ظلّ على قيد الحياة". أمّا الخدم، الشهود، فهم أكبر سنّاً بعقد على الأقلّ. وقد انقضت سنوات عديدة منذ ذلك الحين، عشرون عاماً تحديداً. كم ستكون ذاكرتهم قويّة يا ترى؟

ما كان ينبغي للأمر أن تصل إلى هذا الحدّ، إلى هذا الفضح العلني غير اللائق. كان الكاردينال كامبيجيو قد توّسل إلى كاثرين كي ترضخ لإرادة الملك، وتقبل ببطلان زواجها وتتسحب إلى أحد الأديرة. قالت بلطف، ستصبح راهبة بالتأكيد، إن قبل الملك أن يصبح راهباً.

في تلك الأثناء، عرّضت أسباب عدم وجوب نظر المحكمة المنتدبة في القضية.

أولاً، هي لا تزال معروضة على القضاء في روما. ثانياً، قالت إنها غريبة في بلد غريب، وتجاهلت العقود التي كانت مطلّعة فيها على كلّ شاردة وواردة في السياسة البريطانية. ادّعت أنّ القضاة متحيّزون ضدها، وبالتأكيد، لديها أسباب لتظنّ ذلك. وضع كامبيجيو يده على قلبه، مؤكداً أنّه سيصدر حكماً نزيهاً، حتّى وإن كان في ذلك تهديد لحياته. غير أنّ كاثرين وجدته مقرباً جداً من الممثل البابوي. فكّرت في أنّ كلّ من يمضي وقتاً طويلاً مع وولزي، ينسى معنى النزاهة.

من هو مستشار كاثرين؟ جون فيشر، أسقف روشستر. قال الكاردينال: "هل تعرف ما الذي لا أستطيع احتمالاه في ذلك الرجل؟ إنّهُ جلد على عظم. كم أمقت ذلك الأسقف الهزيل. يجعلنا نبذو سيئين... ماديين".

كان في أبهى حلّته المادّية القرمزية عندما تمّ استدعاء الملك والملكة أمام الكاردينالين في بلاكفرايرز. ظنّ الجميع أنّ كاثرين سترسل مندوباً عنها، ولكنّها حضرت شخصياً. اجتمع كلّ الأساقفة. أجاب الملك حين نُوديّ باسمه، بصوت ممتلئ وجهوري، الذي خرج من صدره العريض المزيّن بالجواهر. لكان نصحه كرومويل بتحيّة خفيفة من رأسه، بتمتمة، بخفض رأسه أمام سلطة المحكمة. أيّ تواضع هو برأيه ادّعاء، ولكنّ الادّعاء قد يفيد أحياناً.

كانت القاعة تغصّ بالحضور، وكان هو ورايف يراقبان من بعيد. في ما بعد، حين أدلت الملكة بشهادتها، وشوهد بعض الرجال يذرفون الدموع، خرجا إلى نور الشمس. قال رايف: "لو كنّا نقف على مسافة أقرب، لأمكننا رؤية ما إذا كان الملك قد تجرّأ على النظر إلى عينيها".

"أجل، هذا بالفعل هو كلّ ما يحتاج الجميع إلى معرفته".

"أنا آسف لما سأقوله، ولكنني أصدّق كاثرين".

"كفى، لا تصدّق أحداً".

شيء ما حجب النور. كان ذلك هو ستيفن غاردينر، الذي بدا أسوداً ومتجهماً. رحلته إلى روما لم تغيّر شكله إطلاقاً.

قال: "سيّد ستيفن! كيف كانت رحلتك إلى الوطن؟ من المؤسف أن تعود خالي الوفاض. أظنّ أنّك فعلت ما في وسعك".

ازداد عبوس غاردينر. "إن لم تتمكّن هذه المحكمة من إعطاء الملك ما يريده، فسيقضى على سيّدك. وحينئذ، أنا من سيشعر بالأسف عليك".

"ولكنك لن تفعل".

وافقه قائلاً: "ولكنني لن أفعل"، وانصرف.

لم ترجع الملكة لحضور الأجزاء المحرجة من الجلسات، بل تحدّث مستشارها عنها. كانت قد أخبرت كاهن الاعتراف أنّ لياليها مع آرثر تركتها عذراء، وقد أعطته الإذن بكسر ختم الاعتراف وإعلان تأكيدها ذلك.

بالإضافة إلى ذلك، ثمّة أمر آخر عرفه الجميع. فبعد وفاة آرثر، عُرض عليها الزواج من عريسين محتملين، إمّا الملك السابق، أو الأمير الشاب، كعروس عذراء. كان بمقدورهم إحضار طبيب ليفحصها. صحيح أنّها كانت ستخاف وستبكي، ولكنها كانت ستتصاع إلى ذلك. ربّما كانت تتمنى حينها لو أنّهم فعلوا ذلك، لو أنّهم أحضروا رجلاً غريباً ذا يدين باردتين. ولكنهم لم يسألوها أبداً إثبات ادّعائها. ربّما لم يكن الناس قليلي الحياء بهذا الشكل في تلك الأيام. فقد كان يفترض بالإعفاءات التي صدرت لإباحة زواجها من هنري أن تشمل مسألة ما إذا كانت عذراء أم لا. والوثائق الإسبانية مختلفة عن الوثائق البريطانية، وهذا ما يجب أن نبحث فيه الآن، البنود الثانوية. يجب أن نتفحص الحبر والورق، عوضاً من الجدل في محكمة حول جلد ممزّق وبقعة من الدم على غطاء سرير.

لو كان مستشار الملكة، لأبقاها في المحكمة، مهما ناحت وانتحبت. فهل كان الشهود ليتكلّموا في حضورها مثلما فعلوا في غيابها؟ كانت ستشعر بالخجل لمواجهتهم، وهم يتحدّثون بشراسة، متسلّحين بذاكرة في غاية الدقّة. إلاّ أنّه كان سيطلب منها أن تلقي عليهم التحية بمودّة، وتعلن لهم أنّها ما كانت لتتعرّف إليهم أبداً بعد كلّ تلك السنوات. ستسألهم بعد ذلك إن كان لديهم أحفاد، وما إذا كانت حرارة الصيف تخفّف من أوجاع أجسادهم المسنّة. سيكون شعورهم بالخجل أكبر. ألن يتردّدوا، ألن يتلعنوا تحت نظرات عيني الملكة الصادقتين؟

في غياب كاثرين، تحوّلت المحاكمة إلى جلسة ترفيهية فاسقة. وقف إيرل شروزبيري أمام المحكمة، وهو رجل حارب مع الملك السابق في بوسورث. تذكر ليلة زفافه التي مضى عليها زمن طويل، حين كان، مثل الملك آرثر، في الخامسة عشرة من عمره، ولم يعرف امرأة من قبل، ولكنه قام بواجبه تجاه زوجته. في ليلة زفاف آرثر، قام هو وإيرل أوكسفورد باصطحاب الأمير إلى غرفة كاثرين. قال: "نعم، أنا وماركيز دورست كنّا هناك". استلقت كاثرين تحت غطاء السرير، وتمدّد الأمير قريبا. همس رايف: "لا أحد يريد أن يقسم على أنّه صعد معهما إلى السرير، ولكن أتساءل ما إذا كانوا قد وجدوا شخصاً ما".

كانت الأدلة التي أعطيت في صباح اليوم التالي كافية لتعتمد عليها المحكمة. فقد خرج الأمير من غرفة نوم العروسين، وقال إنه يشعر بالعطش، ثم طلب من السير أنطوني ويلوغبي كأساً من الشراب. قال: "في الليلة الماضية، كنت في إسبانيا". كان مزاح صبيّ، حين تفكّر في الأمر الآن. فخلال السنوات الثلاثين الماضية، كان الصبيّ مجرد جثة. كم يشعر المرء بالوحدة إن مات شاباً، فهو يدفن في حفرة من دون رفقة! لم يكن موريس سانت جون هناك معه، في قبو كاتدرائية وورسيستر، ولا السيد كرومر، ولا ويليام وودال، ولا أيّ من الرجال الذين سمعوه يقول: "أيّها السادة، من الممتع إمضاء الوقت مع زوجة".

حين استمعا إلى كلّ ذلك، وخرجا إلى الهواء الطلق، شعر ببرودة غريبة. وضع يده على وجهه ولمس خده. قال رايف: "لكان من المخزي لو خرج العريس في الصباح وقال: صباح الخير، أيّها سادة. لم يحدث شيء! كان يتباهى، أليس كذلك؟ هذا كلّ شيء. قد نسوا ما يكون عليه المرء في الخامسة عشرة".

في أثناء اجتماع المحكمة، كان الملك فرانسوا في إيطاليا يخسر معركة. وكان البابا كليمنت يستعدّ لتوقيع معاهدة جديدة مع الإمبراطور، ابن أخت الملكة كاثرين. لم يكن يعرف ذلك حين قال: "هذا يوم عمل سيّئ. لدينا الآن الأسباب جميعها لنكون محطّ سخرية أوروبا".

نظر جانبياً (شزراً) إلى رايف. كان واضحاً أنّ مشكلته الأساسيّة تتلخّص في عدم قدرته على تخيل أيّ كان، حتّى صبيّ في الخامسة عشرة من عمره، يرغب في معايشة كاثرين. إذ يبدو له الأمر أشبه بمعايشة تمثال. لم يسمع رايف بالطبع الكاردينال وهو يتحدّث عن جمال الملكة في شبابها. "حسناً، أنا أتحدّث على الحكم. وهذا ما ستفعله المحكمة، فهو كلّ ما يستطيعون فعله. رايف، أنت أدري بكثير في هذه المسائل، نظراً إلى صغر سنّك، فأنا لا أذكر كيف كنت في الخامسة عشرة".

"حقاً؟ ألم تكن في الخامسة عشرة تقريباً حين سافرت إلى فرنسا؟".

"بلى، أظن ذلك". وولزي: "لكان آرثر في سنّك الآن، يا توماس، لو ظلّ على قيد الحياة". تدكّر امرأة في دوفر، مستندة إلى جدار، بعظامها الصغيرة الهشّة، ووجهها الشابّ الكئيب والشاحب. انتابه شعور عابر بالذعر، والخسارة. ماذا لو كان الكاردينال محقّاً، وكانت الأرض مزروعة بأطفال منه، ولم يحسن معاملتهم؟ فالشيء الوحيد الصادق الذي يمكن للمرء فعله، هو الاعتناء بأطفاله. قال: "رايف، هل تعلم أنّني لم أكتب وصيّتي؟ قلت إنّني أنوي ذلك، ولكنني لم أفعل أبداً. أظنّ أنّه يجدر بي

الذهاب إلى البيت لكتابتها".

سأله رايف مذهولاً: "لماذا؟ لماذا الآن؟ سيحتاج الكاردينال إليك".

"هيا إلى البيت". جذب ذراع رايف. لمست يده اليسرى: أصابع من دون لحم. رأى شبحاً يسير: آرثر، بوجهه الجاد والشاحب. فكر، الملك هنري، أنت من رفعه، والآن أنزله.

* * *

تموز/يوليو 1529: توماس كرومويل، سيد من لندن. يوصي، متمتعاً بكامل قواه الجسدية والذهنية، إلى ابنه غريغوري بستمئة وستة وستين باونداً وثلاثة عشر شيلينغ وأربعة بينسات. كما يوصي إليه بفُرش محشوة بالريش، والوسائد، ولحاف الساتان الأصفر المضرب، والسريز المزدوج المصنوع لدى فلاندرز، والخزائن المنقوشة، والأواني الذهبية والفضية، واثنيتي عشرة ملعقة فضية. يشرف منقذو الوصية على المزارع المؤجرة إلى أن يبلغ سنّ الرشد، كما يوصي إليه بمئتي باوند (الباوند يساوي 453 غراماً) من الذهب عند بلوغه تلك السنّ. يوصي بالمال إلى منقذو وصيته من أجل تربية ابنته آن وابنته الصغرى غرايس، ويخصص جزءاً منه لدوطة زواجهما. يوصي بدوطة زواج لابنة شقيقته أليس ويليفيد، وبالأطقم والسترات لأبناء شقيقته. يوصي إلى ميرسي بجميع الأغراض المنزلية، وبعض الأواني الفضية، وكلّ ما يرى منقذو وصيته أنه ينبغي لها أخذه. يوصي بالمال إلى شقيقة زوجته المتوفاة جوان، وزوجها جون ويليامسون، وبدوطة زواج إلى ابنتهما، المدعوة أيضاً جوان. كما يوصي بالمال إلى خدمه. أربعون باونداً تقسم بين أربعين خادمة فقيرة يوم زواجهنّ. هذا فضلاً عن عشرين باونداً لتحسين الطرقات، وعشرة باوندات لإطعام الفقراء في سجون لندن.

يوصي بدفن جنته في الرعية التي يموت فيها، أو حسبما يقرّر منقذو وصيته. أمّا بقية أملاكه، فتُنفق على إقامة قداديس لراحة نفس والديه. يوصي بروحه إلى الله، وبكتبه إلى رايف سادلر.

حين تفشى الطاعون مجدداً ذلك العام، سأل ميرسي وجوان ما إذا كان ينبغي إخراج الأطفال من المدينة.

سألته جوان: في أيّ اتجاه نرسلهم؟ ولم تكن تقصد تحديده، بل تسأل وحسب. قالت ميرسي: هل يمكن لأحد تجنبه؟ أراحهم الاعتقاد أنه ما دام الوباء قد قتل العديد من الأشخاص في العام الفائت، فلن يكون عنيفاً هذا العام، وهو أمر لا يظنّ

أنه صحيح بالضرورة، بل رأى أنهم يمنحون هذا الوباء نكاءً بشرياً، أو على الأقل حيوانياً: فالذئب يهاجم الخراف، ولكنه لا يأتي في الليالي التي يكون فيها الناس والكلاب بانتظاره. إلا إن كانوا يظنون أن الوباء هو أكثر من حيواني أو بشري. عندما وصلت الأنباء السيئة من إيطاليا، عن المعاهدة الجديدة التي عقدها كليمنت مع الإمبراطور، أحنى وولزي رأسه وقال: "سيدي كثير النزوات". ولم يكن يعني الملك.

في آخر أيام تموز/يوليو، قام الكاردينال كامبيجيو بتأجيل المحكمة المنتدبة، قائلاً إنها فترة عطلة في روما. ووصلت أنباء عن أن دوق سوفولك، صديق الملك المقرب، لكم الطاولة بقبضته أمام وولزي، وهدهده وجهاً لوجه. كان الجميع يعلم أن المحكمة لن تلتئم مجدداً، وأدركوا أن الكاردينال قد فشل.

في تلك الأمسية مع وولزي، ظن للمرة الأولى أن سقوط الكاردينال أصبح وشيكاً. وفكر في أنه لو سقط، فسيسقط معه. فسمعته أصبحت سوداء. وكان مزحة الكاردينال قد تجسدت: وكأنه يخوض في بحور من الدم، مخلفاً وراءه أثراً من الزجاج المحطم والنيران، ومن الأرامل والأيتام. قال الناس، كرومويل، هذا رجل سيئ. لن يتحدث الكاردينال عما جرى في إيطاليا أو في المحكمة. قال: "قيل لي إن الطاعون تقشّى مجدداً. ماذا سأفعل؟ هل سأموت؟ قد قاومته أربع مرّات. في عام... أيّ عام؟... أظنّ أنه عام 1518... ستضحك الآن، ولكن هذا ما حدث، فحين شفيت من المرض، بدوت أشبه بالأسقف فيشر. كنت نحيلاً جدّاً، ولكن الله أنجاني وأعاد إليّ عافيتي".

سأله محاولاً الابتسام: "غبطتك كنت نحيلاً؟ أتمنى لو أنك طلبت رسم لوحة لك حينذاك".

قال الأسقف فيشر في المحكمة، قبل بدء العطلة الرومانية، إنه ما من سلطة بشرية أو كنسية يمكنها حلّ زواج الملك من الملكة. إن كان ثمة شيء يودّ تعليمه لفيشر، فهو عدم إطلاق تصريحات مبالغ فيها على هذا النحو. إنه يعرف ما يمكن للقانون فعله، وهو مختلف تماماً عما يظنّه الأسقف فيشر.

حتى هذا اليوم، لو قلت لولزي إنه ثمة أمر مستحيل، لاكتفى بالضحك. الليلة قال: "لقد هُزم صديقي الملك فرنسوا، وأنا هُزمت أيضاً. لا أعرف ماذا أفعل. أظنّ أنني ميّت بالطاعون أو من دونه".

قال: "عليّ العودة إلى البيت. ولكن هلاً باركتني؟".

ركع أمامه. رفع وولزي يده، ثم تركها معلقة في الهواء، وكأنه نسي ماذا يفعل. قال: "توماس، أنا لست مستعداً بعد".

نظر إلى الأعلى، مبتسماً.

"أتمنى أن تكون معي عندما أموت".

"ولكن سيكون ذلك بعد عمر طويل".

هز رأسه ثم قال: "لو أنك رأيت كيف ثار غضب سوفوك في وجهي اليوم. هو ونورفوك، وتوماس بولين، وتوماس لورد دارسي، كانوا جميعاً ينتظرون ذلك، ينتظرون فشلي مع هذه المحكمة، وقد سمعت أنهم يدونون لائحة من الاتهامات في سجل، يصفون فيها كيف أهنت طبقة النبلاء، وما إلى ذلك. ماذا سيسمون ذلك الكتاب، عشرون عاماً من الإهانات؟ إنهم يعدون قدراً يصبون فيها كل التفاهات، وهم يقصدون بذلك كل الحقائق التي قتلها لهم". أخذ نفساً عميقاً، ثم نظر إلى السقف الذي زُخرف بوردة تيودور.

قال: "لن تكون ثمّة قدر من هذا النوع في مطبخ غبطتكم". نهض ثم نظر إلى الكاردينال، ولم ير سوى مزيداً من العمل بانتظاره.

قالت ميرسي: "ما كانت ليز وايكيز لترغب في جرّ ابنتيها في أنحاء الريف، لا سيّما وأنّ آن تبكي حين لا تراك".

فوجئ وسألها: "آن؟ آن تبكي؟".

سألته ميرسي بشيء من الحدة: "وماذا ظننت؟ أتظنّ أنّ أولادك لا يحبونك؟". تركها تتخذ القرار. ظلّت الفتاتان في البيت. كان قراراً غير مناسب. علقت ميرسي على بابهم علامة الإصابة بالطاعون. سألت، كيف حدث ذلك؟ كنا نظهر المنزل وننظف الأرض، لا أظنّ أنّه ثمّة بيت في لندن أنظف من بيتنا. كما أننا نتلو صلواتنا بانتظام. لم أر طفلاً يصلي كما تفعل آن. تصلي وكأنّها تخوض معركة.

سقطت آن أولاً فريسة المرض. راحت ميرسي وجوان تصرخان وتهزّانها لإبقائها مستيقظة، إذ يقال إن نام المريض يموت. ولكن المرض كان أقوى منهما، فسقطت مرهقة على وسادتها، تجاهد لأخذ أنفاسها، وسيطر عليها السكون، بحيث لم تحرك سوى يدها، وكانت أصابعها تنقبض وتفتح. أخذ يدها بيده وحاول تهدئتها، ولكنها كانت مثل يد جندي يصارع العدو.

نهضت لاحقاً، وطلبت أمّها. طلبت الدفتر الذي كتبت فيه اسمها. عند الغروب، زالت الحمى، فذرفت جوان دموع الفرح، وأرسلتها ميرسي لتنام. جاهدت آن للجلوس،

كانت تراه بوضوح، فابتسمت ولفظت اسمه. أحضروا لها حوضاً من الماء الذي أضيفت إليه بتلات الورد، وغسلوا وجهها. مدّت إصبعها محاولة دفع البتلات تحت الماء، فتحوّلت كلّ منها إلى سفينة تحمل المياه، أو إلى كوب، أو كأس معطرّة. ولكن حين أشرقت الشمس، عاودتها الحمّى. لم يسمح لهما بالبدا من جديد بقرصها وهزّها وضربها لإبقائها مستيقظة. سلّمها إلى مشيئة الله، وطلب منه أن يكون رؤوفاً بها. تحدّث إليها، ولكن لم يبْدُ عليها أنّها تسمع. لم يكن يخشى التقاط العدوى. إن تمكّن الكاردينال من البقاء على قيد الحياة أربع مرّات، أنا واثق أنّي لست في خطر، وإن متّ، فقد كتبت وصيّتي. جلس معها، وراقب صدرها يعلو وينخفض، وشاهد صراعاها وهزيمتها. لم يكن هناك حين ماتت، لأنّ غرايس كانت قد التقت المرض، وكان يضعها في السرير. إذًا، كان خارج الغرفة، و فقط حين أدخلوه، استرخى وجهها الصغير الكئيب. بدت مستسلمة وهادئة، وكانت يدها ثقيلة، ثقيلة أكثر ممّا يحتمل.

خرج من الغرفة، وقال: "كانت تتعلّم اليونانية". قالت ماري: "بالطبع، فقد كانت طفلة رائعة، كانت ابنتك بحق". اتكأت على كتفه وبكت، ثمّ قالت: "كانت ذكية وطيبة، وكانت جميلة، على طريقتها".

أمّا هو ففكّر: كانت تتعلّم اليونانية، ربّما أصبحت تعرفها الآن. ماتت غرايس بين ذراعيه. ماتت بسهولة، على نحو طبيعي، تماماً كما وُلدت. وضعها على الملاءة الرطبة، كانت فتاة بالغة الكمال، أصابعها مبسوطة وكأنّها أوراق بيضاء رقيقة. فكّر: لم أعرفها أبداً، لم أعرف أنّي أملكها. بدا له دائماً مستحيلاً أن تكون غرايس قد أتت إلى الحياة إثر عمل قام به هو، عمل قام به هو وليز من دون تفكير، في ليلة لا يذكرها. كانا ينيوان تسمية الطفل هنري إن كان صبيّاً، وكاثرين إن كانت فتاةً، ويومها قالت ليز إنّه سيكون تكريماً لملكك كات أيضاً. ولكن حين رآها، ملفوفة في مهدها، جميلة، وكاملة، لفظ اسماً مختلفاً تماماً، ووافقت عليه ليز. لا نستطيع امتلاك النعمة، نحن لا نستحقّها.

سأل الكاهن ما إذا كان بالإمكان دفن ابنته الكبرى مع دفناتها، الذي كتبت فيه اسمها، آن كرومويل. ولكنّ الكاهن أجاب إنّه لم يسبق له سماع شيء كهذا. كان شديد التعب والغضب ليجادل.

ابنتاه هما الآن في مكان ذي نيران بطيئة وجبال من الجليد. قال تيندايل، أخلص للإيمان، والأمل، والحبّ، ساوٍ بينها. ولكنّ أعظمها هو

الحبّ.

رأى توماس مور أنّه أسوأ مترجم ماكر، وأصرّ على كلمة إحسان. فهو مستعدّ لشنق رجل على سوء الترجمة، مستعدّ لقتل رجل بسبب اختلاف في لغته اليونانية. تساءل مجدداً ما إذا كان الأموات يحتاجون إلى مترجمين. ربما كانوا، في لحظة تحوّل من الوجود إلى اللاوجود، يعرفون كلّ ما يحتاجون إلى معرفته. يقول تيندايل، الحبّ لا يزول أبداً.

حلّ شهر تشرين الأوّل/أكتوبر. كان وولزي يرأس، كعادته، اجتماعات مجلس الملك. ولكن في المحاكم القانونية، كانت الأوامر القضائية موجّهة ضدّ الكاردينال. اتّهم بالنجاح، واتّهم بممارسة السلطة. اتّهم خصوصاً بتأكيد سلطان قضائي أجنبي في أراضي الملك، ما يعني، ممارسة دوره كممثل بابوي. كانوا يعنون التالي: إنّه ألتر ريكس، أي ملك آخر. إنّه، كما كان دائماً، ملكياً أكثر من الملك. وإن كانت تلك جريمة، فهو مذنب.

هكذا، راح دوق سوفولك ودوق نورفولك يختالان في قصر يورك. كان سوفولك يبدو بلحيته الشقراء أشبه بحيوان مقرّز بين نباتات الكمأة. إنه رجل متورّد الوجه، يثير غثيان سيّدي الكاردينال. بدا نورفولك قلقاً، وبينما كان يتنقل فوق أملاك الكاردينال، بدا واضحاً أنّه يتوقّع إيجاد تماثيل من الشمع، ربّما له هو، وربّما هي تحتوي على دبابيس مغروزة فيها. حقّق الكاردينال إنجازاته عبر تعاونه مع الشيطان، هذا كان رأيه.

أرسلهما كرومويل بعيداً، ولكنّهما عادا، عادا بتفويضات أعلى، وتواقع أفضل، وأحضرا معهما رئيس السجالات. أخذوا الختم الأعظم من سيّدي الكاردينال. رمقه نورفولك شزراً، وارتسمت ابتسامة ماكرة على شفّتيه، لم يعرف سببها. قال الدوق: "تعالَ لرؤيتي". "لماذا، سيّدي اللورد؟". "لم يجب نورفولك". "متى؟".

أجاب نورفولك: "لستُ في عجلة. تعالَ بعدما تكون قد عدّلت سلوكك". كان ذلك في 19 تشرين الأوّل/أكتوبر 1529.

إمّا النجاح أو الفشل

ذكرى جميع القديسين 1529

ذكرى جميع القديسين: إنّه الوقت الذي يُصلي فيه الأحياء للأموات. في هذا الوقت من العام، كان يشارك هو وليز في صلوات المساء مع أبناء رعيتهم. كانا يصلّيان من أجل هنري وايكيز، أبيها، ومن أجل زوج ليز المتوفى، توماس ويليامز، ومن أجل والتر كرومويل، وأقارب بعيدين، من أجل أسماء شبه منسيّة، ونصف شقيقات وأشقاء غيبهم الموت منذ زمن بعيد. في الليلة الفائتة، صلي وحيداً. استلقي مستيقظاً، وتمنّى لو أنّ ليز تعود، انتظرها لتأتي وتستلقي بجانبه. صحيح أنّه في إيشر مع الكاردينال، وليس في بيته في أوستن فرايرز. ولكنّه فكّر: ستعرف كيف تجدني. ستبحث عن الكاردينال، الذي سقط في الفضاء، بين عوالم من البخور وضوء الشموع. وحيث يكون الكاردينال، أكون أنا. لا بدّ من أنّه غفا في لحظة من اللحظات. وعندما أشرقت شمس الصباح، بدت الغرفة خالية، خالية حتّى منه.

ذكرى جميع القديسين: أتى الحزن في موجات. كان يهدّد بقلبه. لم يكن يصدّق أنّ الأموات يعودون، ولكنّ هذا لم يمنعه من الشعور بلمسة أناملهم، وأطراف أجنحتهم، على كتفه. منذ الليلة الماضية، كانوا أقلّ شبهاً بالأشكال والوجوه الفردية، وأقرب إلى كتلة مجملّة متراصّة، أجسادهم تتراطم وتتصادم، نسيجهم كثيف كمخلوقات البحر، ووجوههم سميكة تلمع وكأنّها تحت الماء.

وقف أمام إحدى النوافذ، حاملاً كتاب ليز الخاصّ بالصلاة. كانت ابنته غرايس تحبّ تصفّحه، وكان يشعر اليوم ببصمات أصابعها الصغيرة تحت بصماته. هذه صلوات سيّدتنا، صفحاتها مضاءة بحمامة وإناء من أزهار السوسن.

قلّب صفحات الكتاب، وشعر أنّ غرايس الصغيرة تقلّب معه الصفحات بصمت. نظر إلى الأعلى. اغرورقت عيناه بالدموع وأصبح ما حوله ضبابياً. رمش بعينه، ورأى أحدهم يسير نحوه. كان ذاك جورج كافنديش، وقد تقنّع بقناع القلق.

راح يصلي كي يتابع طريقه من دون أن يتحدّث إليه. قال: "سيدّ كرومويل، يبدو لي أنّك تبكي. ما الخطب؟ هل ثمة أبناء سيّئة عن سيّدنا؟".

حاول إغلاق كتاب ليز، ولكنّ كافنديش تناوله من يده. "آه، أنت تصلي". وبدت

عليه الدهشة.

لا يمكن لكافنديش رؤية أصابع ابنته وهي تلمس الصفحة أو يدي زوجته تحملان الكتاب. اكتفى جورج بالنظر إلى الصور المقلوبة رأساً على عقب. أخذ نفساً عميقاً وقال: "توماس...؟".

أجاب: "أنا أبكي على نفسي. سأخسر كل شيء، كل ما عملت من أجله، طيلة حياتي، لأنني سأنهار مع الكاردينال... كلاً، جورج، لا تقاطعني... لأنني فعلت ما طلبه مني، وكنت صديقه، وذراعه اليمنى. لو أنني التزمت بعملتي في المدينة، عوضاً من الطواف في الأرياف وتكوين الأعداء، لكنت الآن رجلاً ثرياً، ولكنك دعوتك إلى منزلي الجديد، وطلبت نصيحتك بخصوص الأثاث والحديقة. ولكن انظر إلي! لقد انتهيت".

حاول جورج الكلام، ولكن لم تصدر عنه سوى أنة مواساة.
قال: "إلا إذا... إلا إذا، جورج. ماذا تظن؟ لقد أرسلت غلامي رايف إلى ويستمينستر".
"ماذا سيفعل هناك؟".

ولكنه بدأ يبكي مجدداً. راحت الأشباح تتجمع، وشعر بالبرد، لقد خسر منصبه تماماً. تعلم في إيطاليا طريقة تمكّنه من تذكر كل شيء، كل مرحلة من المراحل التي أوصلته إلى هنا. قال: "أظن أن عليّ اللحاق به".
قال كافنديش: "رجاءً، ليس قبل العشاء".
"لماذا؟".

"لأننا نحتاج إلى التفكير في كيفية تسديد رواتب خدم سيدي الكاردينال".
مرّت لحظة. فتح كتاب الصلاة، وحمله بين ذراعيه. كان كافنديش قد أعطاه ما يحتاج إليه، ألا وهو مشكلة حسابية. قال: "جورج، هل تعلم أن قسيسي الكاردينال احتشدوا هنا لملاحقته، وجميعهم يكسبون... كم؟ مئة، مئتي باوند في السنة بفضل سخائه؟ لذا، أظن... أننا سنجعل القسيسين والرهبان يدفعون رواتب خدم المنزل، لأنه، كما أظن، وكما لاحظت، الخدم يحبون الكاردينال أكثر من كهنته. فلنذهب الآن إلى العشاء، وبعد العشاء سأجعل الكهنة يشعرون بالخجل، ويُخرجون ما معهم من أموال. علينا أن ندفع للخدم رواتب فصل على الأقل، ومقدم أتعاب عن اليوم الذي يرجع فيه سيدي الكاردينال".

قال جورج: "في الواقع، إن كان ثمة أحد يستطيع فعل ذلك، فهو أنت".

ابتسم. ربّما كانت ابتسامة كئيبة، ولكنّه لم يتوقّع أبداً أن يبتسم اليوم. قال: "حين يتمّ ذلك، سأترككما. سأعود حالما أوّمن مكاناً لي في البرلمان".
"ولكنّه سيجتمع خلال يومين... كيف ستتدبّر مكاناً الآن؟".
"لا أعرف، ولكن على أحدهم الدفاع عن الكاردينال، وإلاّ قتلوه".
رأى ملامح الخوف والصدمة. أراد استرجاع كلماته، لكنّ هذا صحيح. قال: "ليس بيدي حيلة سوى المحاولة. إمّا أن أنجح أو أفشل، قبل أن أراك مجدّداً".
انحنى له جورج تقريباً. تتم: "إمّا أن تنجح أو تفشل. لطالما كان هذا قولك المأثور".

أخذ كافنديش يمشي بين الخدم وهو يقول، توماس كرومويل كان يقرأ كتاب صلاة. توماس كرومويل كان يبكي. لم يدرك جورج مدى خطورة الوضع سوى الآن.

كان في تيسالي مرّة شاعر يدعى سيمونيدس. طُلب منه مرّة حضور مأدبة أقامها رجل يدعى سكوباس وإلقاء قصيدة يمدح فيها مضيفه. كان للشعراء أهواء غريبة، فضمنّ سيمونيدس في قصيدته أبياتاً مدح فيها كاستور وبولوكس، الكائنين الخرافيين التوأم. انزعج سكوباس، وقال إنّه سيدفع نصف الأتعاب وحسب: "أمّا الباقي، فخذ من التوأم".

بعد فترة وجيزة، أتى خادم إلى القاعة. همس لسيمونيدس قائلاً إنّ شابين في الخارج يطلبانه بالاسم.

قام من مكانه وترك القاعة. بحث عن الشابين، ولكنّه لم يجد لهما أثراً.
حين استدار للعودة ومتابعة عشائه، سمع صوت ضجيج عظيم، وصوت أحجار تتهاوى وتسقط. سمع صراخ المحتضرين، مع انهيار سقف القاعة على رؤوسهم. من بين جميع المدعوين، كان هو الوحيد الذي نجا وظلّ على قيد الحياة.

كانت جثث القتلى مهشّمة ومشوّهة بحيث تعذرّ على أقارب الموتى التعرف إليهم. ولكنّ سيمونيدس كان لامعاً. فكلّ ما يراه كان ينطبع في ذهنه. هكذا قاد كلّ قريب عبر الدمار ودلّه على الجثّة المسحوقة قائلاً، هذا من تبحت عنه. استخدم مخطّط الجلوس الذي حُفر في رأسه وربط بين الأموات وأسمائهم.

شيشرون هو الذي روى لنا تلك القصة. أخبرنا كيف ابتكر سيمونيدس في ذلك اليوم فنّ التذكّر. تذكّر الأسماء، والوجوه، بعضها كان حاداً ومنتفخاً، وبعضها كان مرحاً، وبعضها الآخر كان قد أعياها الملل. تذكّر بالضبط أين كان يجلس كلّ مدعو لحظة انهيار السقف.

القسم الثالث

خدعة الثلاث ورقات

شتاء عام 1529 - ربيع عام 1530

جوان: "هل قلتَ له، رايف اذهب وجد لي مقعداً في البرلمان الجديد، فانطلق، وكأنَّه خادمة تُلب منها إدخال الغسيل؟".

قال رايف: "لم يكن الأمر بتلك السهولة".

قالت جوان: "كيف تعرف؟".

كانت مقاعد مجلس العموم بمعظمها بيد اللوردات؛ اللوردات، والأساقفة، والملك نفسه. زمرة ضئيلة من الناخبين الذين يفعلون عادةً ما يؤمرون به، إن مُرس عليهم ضغط من الأعلى.

حصل له رايف على ما يريد. ما كانوا ليسمحوا له بالدخول لو أنّ الملك لم يوافق، ولو أنّ توماس هاورد لم يوافق. كان قد أرسل رايف إلى لندن ليستكشف نوايا الدوق الخفية، ويعرف ما كان يخبئ خلف تلك الابتسامة الماكرة.

الآن أصبح يعلم. قال رايف: "يظنّ دوق نورفولك أنّ سيدي الكاردينال دفن كنزاً وأنك تعرف مكانه".

تحدّثا بمفردهما. قال رايف: "سيطلب منك الذهاب والعمل لأجله".

"أجل. ربّما باختصار أكثر".

راقب وجه رايف وهو يزن الوضع. يُعدّ نورفولك، باستثناء ابن الملك غير الشرعي، أهمّ نبيل في البلاد. قال رايف: "أكّدت له مدى احترامك، و... وتقديرك، ورغبتك للعمل تحت...".

"إمرته؟".

"شيء من هذا القبيل".

"وماذا قال؟".

"همهم" وقلّد له صوته.

ضحك ثمّ قال: "وهل كانت نبرته كذلك؟".

"كانت كذلك".

"وهزّ رأسه متجهماً؟".

"أجل".

جيد جداً. جفّفت دموعي، دموع ذكرى جميع القديسين. جلست مع الكاردينال، قرب

نار المدفأة في إيشر. قلت له، سيدي، هل تظن أنني سأتحلى عنك؟ عثرت على الرجل المسؤول عن المدافئ والمواقد. فأعطيته الأوامر، ثم انطلقت إلى لندن، إلى بلاكفرايرز. كان يوماً ضبابياً. وجدت نورفولك بانتظاري، ليخبرني أنه سيكون سيّداً طيباً.

كان الدوق قد ناهز الستين من عمره، ولكنّه لا يقرّ بذلك. كان وجهه كالحجر، وعيناه تتقدان ذكاء. كان هزياً وكأنّه عظمة منخورة، وبارداً مثل طرف الفأس. تبدو مفاصله وكأنّها محبوكة معاً بواسطة سلاسل مرنة، وتصدر عنه خشخشة بالفعل وهو يتحرّك، لأنّ ملابسه تخفي تحتها آثاراً مبرّجة، على شكل علب مجوهرات صغيرة وُضعت فيها نتف شعر، وقلائد تحتوي على كسر عظام شهداء. أحياناً، كان يتناول إحدى القلائد أو الحلي المعلقة بملابسه ويقبلها بحرارة، ويذكر اسم القديس ليكبح غضبه. لم يكن من السهل تخيل الدوق صبيّاً صغيراً، أو أكثر شباباً ممّا هو عليه الآن. حسب ظنّه، فإنّ الكتاب المقدّس ليس ضرورياً لغير رجال الدين، مع أنّه يفهم أنّ الكهنة يجدون فيه نفعاً. برأيه، قراءة الكتب ليست سوى تكلف ويتمنى لو أنّها أقلّ من ذلك في البلاط. ابنة أخته، آن بولين، تقرأ باستمرار، وربّما كان هذا هو سبب عدم زواجها على الرغم من بلوغها الثامنة والعشرين من عمرها. لا يفهم لماذا يقوم سيّد بالكتابة، فهذا من عمل الكتبة.

رمقه الآن بنظرة نارية. "كرومويل، أنا سعيد لأنك في البرلمان".
أحني رأسه. "سيدي".

"تحدّثت عنك إلى الملك، وهو سعيد أيضاً. سنتلقّى تعليماته في مجلس العموم، وتعليماتي أنا أيضاً".

"وهل ستكون متشابهة، سيدي؟".

عبس الدوق. مشى بضع خطوات، وصدرت عنه خشخشة. أخيراً انفجر قائلاً:
"اللعنة، كرومويل، لماذا أنت... هكذا؟".

انتظر، مبتسماً. كان يعرف ما يعنيه الدوق. إنّهُ شخص، لديه حضور. كان يعرف كيف يدخل غرفة من دون أن يراه أحد، ولكنّ تلك الأيام انقضت ربّما.

قال الدوق: "ابتسم. منزل وولزي كان وكرّاً من الأفاعي. لا أعني..."، لمس إحدى قلائده مجفلاً، وأضاف: "لا سمح الله...".

يقارن أمير كنيسة بأفعى. كان الدوق يريد مال الكاردينال، ويريد مكانه قرب الملك، ولكنّه لا يريد الاحتراق في الجحيم. عبر الغرفة وهو يفرك يديه. استدار قائلاً: "الملك

يستعدّ للشجار معك، أيّها السيّد. نعم. سيتفضّل عليك بمقابلة لأنّه يودّ أن يفهم شؤون الكاردينال، ولكنّه يتمتّع، كما ستكتشف، بذاكرة قوية جدّاً، ويتذكّر، أيّها السيّد، حين كنت مواطناً في البرلمان سابقاً، وتحدّثت ضدّ حربه".
"أتمنى أن يكون قد تخلّى عن فكرة اجتياح فرنسا".
"اللعنة عليك! وأيّ إنكليزي لا يفكّر في ذلك! نحن نملك فرنسا. علينا أن نستعيد ما هو لنا".

تراقصت عضلة في خدّه، وأخذ يسير مهتاجاً. التفت، وفرك خدّه، فتوقّف الارتعاش، وقال بصوت طبيعي جدّاً: "في الواقع أنت على حق".
انتظر. قال الدوق: "لا يمكننا أن ننتصر، ولكن علينا القتال وكأننا نستطيع ذلك. مهما كلف الأمر، مهما كان الثمن، من مال ورجال وخيول وسفن. تلك هي مشكلة وولزي، هو دائماً على طاولة المعاهدات. كيف يمكن لابن جرّار أن يفهم...".
"المجد؟".

"هل أنت ابن جرّار؟".

"ابن حدّاد".

"حقّاً؟ بيطار؟".

هزّ كتفيه. "أجل. ولكنني لا أستطيع أن أتخيّل...".

"لا تستطيع؟ ماذا تستطيع أن تتخيّل؟ ساحة حرب، مخيماً، عشية معركة...؟ هل تستطيع تخيّل هذا؟".

"لقد كنت جندياً، أنا نفسي".

"هل كنت كذلك؟ أنا واثق أنّك لم تكن في جيش إنكليزي. أرايت؟". ابتسم الدوق، ولكن من دون عدائية. "عرفت أنّه ثمّة أمر فيك. أمر لم يعجبني، ولكن لم أستطع وضع إصبعي عليه. أين كنت؟".

"في غاريغليانو".

"مع من؟".

"مع الفرنسيين".

"أطلق الدوق صفرة. "كنت مع الفريق غير المناسب أيّها الشاب".

"لاحظت ذلك".

ضحك قائلاً: "مع الفرنسيين، مع الفرنسيين. وكيف خرجت من تلك الكارثة؟".
"ذهبت شمالاً، دخلت مجال..."، أراد أن يقول المال، لكنّ الدوق لن يفهم معنى

التجارة بالمال. فقال: "القماش. الحرير، إجمالاً. أنت تعرف السوق".
"آه، أجل! جوني فيلانس... يحمل ماله على ظهره. يا لهؤلاء السويسريين! وكأنهم
فرقة من الممثلين. تخاريم، أشرطة، قبّعات. هدف سهل، هذا كلّ شيء. هل تمارس
الرماية؟".

"من وقت إلى آخر".

"أنا أيضاً. ولكننا لن نربح معارك كثيرة بهذه الطريقة بعد الآن".
"إذاً، ماذا لو نتوقّف عن القتال؟ لم لا نفاوض، سيّدي؟ فالمفاوضات أقلّ كلفة".
"أتعلم كرومويل؟ كنت بالغ الجرأة بمجيئك إلى هنا".
"سيّدي، أنت أرسلت بطلي".

"حقاً؟". بدا القلق على وجه اللورد. "هل وصلت الأمور إلى هذا الحدّ؟".

كان مستشارو الملك يجهّزون عدداً لا يقلّ عن أربع وأربعين تهمة ضدّ الكاردينال.
كانت التهم تتراوح من خرق القانون preamunire، أي دعم سلطان قضائي أجنبي في
بلاد الملك، إلى شراء اللحوم لمنزله بالسعر نفسه الذي يشتريه الملك؛ ومن الفساد
المالي، إلى الفشل في الحدّ من انتشار الهرطقة اللوثرية.

يرجع القانون preamunire إلى القرن السابق، ولم يكن ثمّة أحد من الأحياء يعرف
معناه. ويبدو أنّه يعني من يوم إلى آخر ما يقول الملك إنّه يعنيه. كانت المسألة
موضع نقاش في كلّ متجر من متاجر أوروبا. في تلك الأثناء، كان الكاردينال
يجلس، يتمتم أحياناً بينه وبين نفسه، ويتحدّث أحياناً أخرى بصوت عالٍ قائلاً:
"توماس، كلّيّاتي! مهما حدث لشخصي أنا، يجب إنقاذ كلّيّاتي. اذهب إلى الملك.
مهما يكن الانتقام الذي يودّ تنفيذه بحقيّي على أيّ إساءة كانت، فلا يمكنه إطفاء نور
العلم".

كان الكاردينال يروح ويجيء في منفاه في إيشر. ذاك العقل اللامع الذي كان يدير
في ما مضى شؤون أوروبا، أصبح يرثي خسارته طيلة الوقت. غرق في الصمت
والسكون، يفكر مع هبوط الليل. توّسل إليه كافنديش قائلاً: "بالله عليك، توماس، لا
تخبره أنّك آت إن لم تكن آتياً بالفعل".

قال: "لن أفعل، وسأعود، ولكنني أتأخّر أحياناً. قبل أن أغادر ويستمينستر، عليّ
أن أجمع الرسائل والاستدعاءات للكاردينال، وأتحدّث إلى جميع الأشخاص الذين
يريدون إرسال رسائل ولكنني لا أريد منهم كتابتها".

قال كافنديش: "أنا أفهم. ولكن توماس، لا تتخيّل كيف هو الوضع هنا في إيشر.

سيدي الكاردينال يسأل طيلة الوقت، كم الساعة الآن؟ متى يعود كرومويل؟ وبعد ساعة يسأل مجدداً: كافنديش، كم الساعة؟ ثم يطلب منّا الخروج حاملين المصابيح لنخبره عن الطقس، وكأنك شخص قد تعيقه العواصف أو الجليد. وفي اليوم التالي يسأل: ماذا لو وقع له حادث على الطريق؟ الطريق من لندن مليء باللصوص، حقول وبرار، ومع حلول الظلام، ينشط الأشرار. ومن هنا، سينتقل إلى القول: هذا العالم مليء بالأشراك والأوهام، وفيها سقطت، أنا المخطئ البائس.

عندما خلع كرومويل معطفه أخيراً وتهاوى على مقعد قرب الموقد، انقضّ عليه الكاردينال قبل أن يلتقط أنفاسه: "ماذا قال اللورد سوفولك؟ كيف بدا اللورد نورفولك؟ والملك، هل رأيته، هل تحدّثت معه؟ والليدي آن، أهي بصحة جيّدة ولا تزال جميلة؟ هل وجدت طريقة لإسعادها؟ لأنه علينا إسعادها، كما تعلم".

قال: "ثمّة طريقة واحدة ومباشرة لإسعاد تلك السيّدة، ألا وهي تتويجها ملكة". وأغلق شفّتيه على موضوع آن ولم يعد لديه ما يقوله. قالت ماري بولين إنّها لاحظته، ولكنّ آن لم تُبدِ أيّ إشارة على ذلك حتّى الآن. مرّ نظرها عليه وهي تبحث عن شخص يهتمّها أكثر. كانتا عينيّن سوداوين، جاحظتين قليلاً، تلمعان وتتحركان باستمرار، وهي تقوم بحسابات لمصلحتها الخاصّة. ولكن لا بدّ من أنّ الخال نورفولك قال لها: "هذا رجل يعرف أسرار الكاردينال"، لأنّه حين يمرّ أمامها الآن، يشربّ عنقها الطويل، وتتحرك عيناها السوداوان اللامعتان من الأعلى إلى الأسفل وهي تتفحصه لتقرّر كيف يمكن الاستفادة منه. يظنّ أنّها بصحة جيّدة، لأنّ العام أوشك على نهايته، ولم تكن تقحّ كحصان مريض مثلاً، ولا يبدو عليها الضعف. ويظنّ أنّها لا تزال جميلة، إن كان هذا ما يعجبك.

في إحدى ليالي الأسبوع الأخير من العام، وصل متأخراً إلى إيشر، ووجد الكاردينال يجلس وحيداً، يستمع إلى صبيّ يعزف على المزهر. قال: "مارك، شكراً لك، يمكنك الانصراف الآن". انحنى الصبيّ للكاردينال، وحيّاه بهزّة من رأسه بالكاد ثلاثم ممثلاً في البرلمان. في أثناء انسحابه من الغرفة، قال الكاردينال: "مارك صبيّ بارع، يبعث السرور في النفس. في قصر يورك، كان عضواً في الكورس. لا أظنّ أنّه يتعيّن عليّ إبقاؤه هنا، بل إرساله إلى الملك، أو ربّما إلى الليدي آن، فهو شابّ رائع. هل سيعجبها؟".

تمهّل الصبيّ عند الباب ليسمع مديح الكاردينال له. ولكنّ نظرة من كرومويل، توازي في مفعولها مفعول ركلة، أرسلته إلى خارج الغرفة. كان يتمنّى لو أنّ الناس

يتوقفون عن سؤاله عما يعجب الليدي أن ولا يعجبها.
قال الكاردينال: "هل بعث إليّ قاضي القضاة مور أيّ رسالة؟".
وضع كومة من الأوراق على الطاولة، قائلاً: "تبدو مريضاً، سيّدي".
"أجل، أنا مريض. توماس، ماذا سنفعل؟".

أجاب: "سنرشو الناس. سنكون ليبراليين ومنفتحين مع الأملاك التي تركها
غبطتكم، لأنكم لا تزالون تملكون أرباحاً يمكنكم التصرف بها، ولا تزال لديكم أراض.
سيّدي، إن أخذ الملك كلّ ما لديكم، سيسأل الناس ما إذا كان الملك يستطيع فعلاً
منح ما ينتمي إلى الكاردينال. لا أحد ممّن سيهبهم شيئاً، سيكون واثقاً من حقّه فيه،
ما لم تؤكّدوا أنتم ذلك. بالتالي، لا تزالون تملكون، سيّدي، أوراقاً بيدكم".

"ولكن، إن كان ينوي اتّهامي بالخيانة العظمى..."، ارتعش صوته: "إن...".
"لو كان ينوي اتّهامكم بالخيانة العظمى، لكنتم الآن في البرج".

"بالفعل، وبماذا أفيدته إن كان رأسي في مكان وجسدي في مكان آخر؟ ما حدث هو
التالي: فكّر الملك في أنّه بتجريدي من منصب، يلقن البابا درساً لن ينساه. أراد أن
يقول له: بصفتي ملك إنكلترا، أنا سيّد مملكتي. آه، ولكن، هل هو كذلك؟ أم أنّ
الليدي أن هي السيّد، أم توماس بولين؟ هذا سؤال لا يمكن طرحه خارج هذه الغرفة".
كانت معركته تتمثّل الآن بمقابلة الملك بمفرده، ومعرفة نواياه، هذا إن كان هو
نفسه يعرفها، وعقد اتّفاق. وكان التحدّي الأوّل هو حاجة الكاردينال العاجلة إلى
المال. انتظر الحصول على مقابلة مع الملك، يوماً بعد يوم. كان الملك يمدّ يده،
ويأخذ منه الرسائل التي يقدّمها إليه، ملقياً نظرة على ختم الكاردينال. لم يكن ينظر
إليه، بل يشكره بشرود. وفي أحد الأيام نظر إليه، وقال: "سيّد كرومويل، نعم... لا
أستطيع التحدّث عن الكاردينال". وحين فتح فمه ليتكلم، قال الملك: "ألا تفهم؟ لا
أستطيع التكلّم عنه". كانت نبرته لطيفة ومربكة. ثمّ أضاف: "سنفعل في يوم آخر.
سأرسل بطلبك، أعدك بذلك".

حين سأله الكاردينال: "كيف كان الملك اليوم؟". أجاب: "بدا وكأنّه لم ينم".
ضحك الكاردينال ثمّ قال: "إن كان لا ينام، فهذا لأنّه لا يذهب إلى الصيد. هذا
الجليد يجعل الأرض قاسية جدّاً بالنسبة إلى كلاب الصيد، لا يمكنها الخروج. السبب
هو حاجته إلى الهواء العذب، توماس، وليس ضميره".
سيدكر لاحقاً تلك الليلة من أواخر كانون الأوّل/ديسمبر، التي وجد فيها الكاردينال
يستمتع إلى الموسيقى. سيستعيدها في ذهنه مراراً وتكراراً.

هذا لأنه، حين غادر منزل الكاردينال، وخرج يتأمل الطريق، والليل، سمع صوت صبيّ يتحدّث خلف بابٍ شبه مفتوح. كان مارك، عازف المزهري. "... لذا، قال إنه يفضل إرساله إلى الليدي آن، نظراً إلى مواهبه. وهذا سيسرني، لأنه ما النفع من بقائي هنا ما دام الملك قد يقطع رأس العجوز في أي لحظة؟ أظنّ أنه يجدر به ذلك، لأنّ الكاردينال متكبر جداً. هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها كلمة حسنة منه".

حلّ الصمت لوقت قصير. تحدّث أحدهم بصوت مكتوم، ولم يستطع معرفة صاحبه. ثمّ قال الصبيّ: "أجل، بالطبع سيسقط المحامي معه. أقول المحامي، ولكن من هو؟ لا أحد يعرف. يقال إنه قتل رجالاً بيديه ولم يعترف بذلك أبداً. ولكن هؤلاء الرجال القساة يبقون دائماً عندما يرون حبل المشنقة".

لا شكّ في أنّ عنق مارك هو الذي سيعلّق في حبل المشنقة. تابع الصبيّ من خلف الجدار: "إذاً، حين أصبح عند الليدي آن، ستلاحظني بالتأكيد، وتقدّم إليّ الهدايا". سمع ضحكة. "وستعجب بي، ألا تظنّ ذلك؟ من يعرف إلى من تتحوّل وهي تستمرّ برفض الملك؟".

وبعد برهة من الصمت، قال مارك: "هي ليست عذراء، هذا مؤكّد".

يا لهذا الحديث الشيق، حديث الخدم. سُمع الصوت المكتوم مجدّداً، ثمّ قال مارك: "لا يمكن أن تكون في البلاط الفرنسي، ثمّ تعود عذراء، أليس كذلك؟ شأنها شأن أختها. فقد عرفت ماري عدداً كبيراً من الرجال".

ولكنّ هذا الحديث لا يساوي شيئاً، لقد خاب أمله. كان يأمل سماع تفاصيل دقيقة، ليس مجرد قيل وقال. مع ذلك، تردّد، ولم يبارح مكانه.

"بالإضافة إلى ذلك، كانت عشيقته توم ويات، والجميع يعرفون ذلك في كينت. سبق وذهبتُ إلى بينشورست مع الكاردينال. منزل آل ويات يقع على مقربة من ذاك القصر القريب من هافر، الذي تقطن فيه عائلة الليدي".

شهود؟ تواريخ؟

ولكنّ الشخص الآخر قال: "صه!". وسمعت ضحكة مجدّداً.

لا يمكن استعمال هذه المعلومات في شيء، باستثناء حفظها في الذاكرة. كان الحديث يدور باللغة الفلمنكية، وهي لغة مارك الأمّ.

حلّ رأس السنّة، وأمضاه الملك والملكة كاثرين في غرينيتش. كانت آن في قصر يورك، وكان بإمكان الملك المجيء لرؤيتها. تقول النساء إنها امرأة متطلّبة جداً. كانت زيارات الملك قصيرة، قليلة، وسريّة.

في إيشر، لازم الكاردينال سريه. ما كان ليفعل ذلك في الماضي، مع أنه يبدو مريضاً بما يكفي. قال: "لن يحدث شيء بين الملك والليدي أن في سهرة رأس السنة. سيكونان في أمان حتى ليلة ذكرى الغطاس". حرّك رأسه فوق الوسائد قائلاً بحدّة: "حباً بالله، كرومويل، اذهب إلى بيتك".

كان المنزل في أوستن فرايرز مزيناً بأكاليل الإيلاكس واللبلاب، والغار والطقسوس. وكان المطبخ يعجّ بالحركة، حيث يتمّ إعداد الطعام، ولكنهم استغنوا هذا العام عن الأغاني المعتادة في مثل هذه المناسبة. ما من عام أتى بهذا القدر من الخراب. كانت أخته كات وزوجها مورغان وويليامز قد غابا من حياته بالسرعة التي غابت فيها ابنتاه. فبعد أن كانا مفعمين بالحياة، يتحدّثان ويمشيان، أصبحا في اليوم التالي باردين كالصخر، ودُفنا في قبريهما على ضفّة نهر التايمز، بعيداً عن المياه، بعيداً عن مرأى ورائحة النهر، وعن صوت جرس كنيسة بوتتي المكسور، ورائحة الحبر الرطب، والعشب، والشعير المنبت، والرائحة الحيوانية لرُزم الصوف. بعيداً عن رائحة الصنوبر وشموع التفاح الخريفية، ورائحة الكعك المخبوز. مع انتهاء العام، أضيف يتيمان إلى منزله، ريتشارد والصغير والتر. كان مورغان وويليامز ثرثاراً كبيراً، ولكنّه كان داهية على طريقته، وقد عمل جاهداً من أجل عائلته. أمّا كات، فلم تفهم أخاها أكثر ممّا فهمت حركات النجوم. قالت له مرّة: "لا أستطيع أبداً فهم حساباتك، يا توماس". وكان هذا خطأه وحده، فمن غيره علّمها العدّ على أصابعها، وإرباك التجار؟

إن كان ثمة نصيحة يُعطي نفسه إياها في مثل هذه المناسبة، لقال: اترك الكاردينال الآن وإلاّ ستجد نفسك في الشارع مجدداً مع خدعة الثلاث وراقات. ولكنّه لا يعطي النصائح إلاّ لمن قد يأخذ بها.

كانت لديهم في أوستن فرايرز نجمة ذهبية كبيرة، يعلّقونها في القاعة الكبرى ليلة رأس السنة، فتلمع لأسبوع لاستقبال زوّارهم في ذكرى الغطاس. مع بداية الصيف، كان يبدأ هو ووليز بالتفكير في أزياء الملوك الثلاثة، فيجمعان قصاصات القماش الغربية والتعريقات الجديدة. وابتداءً من شهر تشرين الأول/أكتوبر، تقوم ليز بالخياطة سرّاً، ترقّع ملابس السنة الفائتة، وتحسّنها، وتصنع كلّ عام تيجاناً جديدة رائعة. كما يفكران في الهدايا التي يحملها الملوك في صناديقهم. في إحدى المرّات، أفلت أحد الملوك صندوقه مصدوماً حين بدأت الهدية بالغناء.

هذا العام، لم يجرؤ أحد على تعليق النجمة، ولكنّه زارها في مستودع أغراضهم

المظلم. أخرجها من كيس القنب الذي يحمي لمعانها وتأكد من أنها لم تُكسر ولم يتغير لونها. ستأتي سنوات أفضل، وسيعلقونها فيها مجدداً، مع أنه لا يستطيع تخيلها. أعادها إلى الكيس، متعجباً كيف صُنعت بدقة وإتقان. كانت أثواب الملوك الثلاثة موضوعة في صندوق، وكذلك جلود الخرفان التي يرتديها الأطفال الذين يمثلون دور الخراف. وُضعت عصوات الرعاة في إحدى الزوايا. أبعد الشمعة، ثم رفع الجلود عن الوتد ونفضها قليلاً. صدر عنها حفيف ناعم، وفاحت منها رائحة العنبر في الهواء. علّقها مجدداً على الوتد، ومرّر فوقها راحة يده لتسكين ارتعاشها. تناول الشمعة، ثم خرج وأغلق الباب. أطفأ النور، ثم أقفل الباب وأعطى جوان المفتاح. قال لها: "أتمنى لو أنّ لدينا طفلاً، فقد مضى زمن طويل منذ أن كان لدينا طفل في المنزل".

قالت جوان: "لا تنظر إليّ".

ولكنه كان ينظر، بالطبع. قال: "ألا يقوم جون وويليامسون بواجبه تجاهك هذه الأيام؟".

أجابت: "واجبه لا يسرني".

ابتعد عنها وهو يفكر في أنه ما كان يجدر به خوض حديث كهذا. يوم رأس السنة، حين هبط الظلام، كان جالساً إلى مكتبه، يكتب رسائل الكاردينال، وأحياناً يعبر الغرفة نحو لوح العدّ، ويدفع العدّادات. يبدو أنّ الملك، رداً على التماس رسمي بخصوص التهم الموجهة إلى الكاردينال، سيعفو عن حياة الكاردينال، ويمنحه مجالاً من الحرية. ولكنّ المال الذي سيُعطى إياه للحفاظ على أملاكه لن يتجاوز جزءاً من دخله السابق. كان قصر يورك قد أخذ منه، وخسر قصر هامبتون منذ وقت طويل، وكان الملك يفكر كيف يفرض الضرائب على أبرشية وينشيستر الثرية ويسلبها أملاكها.

دخل غريغوري قائلاً: "أحضرت لك شموعاً. قالت لي خالتي جوان، اذهب إلى أبيك".

جلس غريغوري وانتظر. تملل، وتتهّد. نهض، وسار نحو مكتب أبيه ووقف أمامه. ثمّ، وكأنّ شخصاً قال له، قم بعمل نافع، مدّ يده بخجل وبدأ يرتّب الأوراق. استرق نظرة إلى ابنه، ولكنه أبقى رأسه منخفضاً فوق أوراقه. ربّما كانت المرّة الأولى، التي يلاحظ فيها يدي غريغوري منذ أن كان طفلاً، وصدمة ما رآه. لم تكونا يدي طفل، بل كانت يدين ناعمتين، بيضاوين وكبيرتين لابن سيّد. ماذا يفعل

غريغوري؟ كان يضع الوثائق في كومات مرصوفة. على أيّ أساس يفعل ذلك؟ لا يستطيع قراءتها، فهي مقلوبة رأساً على عقب. لم يكن يرتبها بحسب الموضوع، هل يرتبها بحسب التاريخ؟ حباً بالله، ماذا يفعل؟

كان مضطراً إلى إنهاء جملته، بجميع تفاصيلها الحيوية. نظر إلى الأعلى مجدداً، وفهم على أيّ أساس كان غريغوري يعمل. فقد استعمل نظاماً بالغ البساطة: الأوراق الكبيرة في الأسفل، والصغيرة في الأعلى.

قال غريغوري: "أبي..."، تنهّد ثمّ سار نحو لوح العدّ، ودفع بإصبعه العدّادات. ثمّ جمعها بقبضته، وراح يرتبها الواحد تلو الآخر.

نظر إليه أخيراً قائلاً: "كانت تلك عملية حسابية. أنا لم أتركها هكذا ببساطة".

قال غريغوري بتهذيب: "آه، أنا آسف". جلس قرب النار، وحاول التنفّس بهدوء. أحياناً، تكون أكثر النظرات هدوءاً محمّلة بالمعاني. سأل أمام نظرة ابنه: "ما الأمر؟".

"هل يمكنك التوقّف عن الكتابة؟".

أجاب: "دقيقة واحدة"، وهو يرفع يده. وقّع الرسالة كالمعتاد: صديقكم المخلص، توماس كرومويل. إن كان غريغوري سيخبره أنّ شخصاً آخر في المنزل أصيب بمرض قاتل، أو أنّه، أي غريغوري، قد وعد الخادمة المسؤولة عن غسل الملابس بالزواج، أو أنّ جسر لندن قد انهار، فعليه أن يكون قوياً ويتلقّى النبأ كرجل. ولكن عليه أولاً ختم هذه الرسالة. نظر إليه وقال: "نعم؟".

حوّل غريغوري نظره بعيداً. أهو يبكي؟ لا يفاجئه ذلك، فقد بكى هو نفسه، وعلناً. سار نحوه. جلس أمام ابنه، قرب الموقد. نزع قبّعته المخملية ومرّر يديه في شعره.

لم يتحدّث أيّ منهما لوقت طويل. نظر إلى يديه، إلى أصابعه الضخمة، وآثار الندوب والحروق التي تخفيها راحتاه. فكّر: سيّد؟ أهكذا تسمّي نفسك، ولكن على من تكذب؟ وحدهم الأشخاص الذين لم يروك أبداً، أو الناس الذين تبقيك اللياقات الاجتماعية على مسافة منهم، الزبائن القانونيون وزملاؤك في مجلس العموم، زملاؤك في غرايز إن، خدم أفراد الحاشية، وأفراد الحاشية أنفسهم... تحوّل ذهنه إلى الرسالة التالية التي عليه كتابتها، ثمّ قال غريغوري، وكان صوته خافتاً وكأنّه تراجع عبر الزمن: "هل تذكر تلك المناسبة، حين كان ثمة عملاق في المهرجان؟".

"هنا في الرعية؟ أجل أذكر".

قال: أنا عملاق، واسمي مارلينسبايك. قالوا يومها إنّه طويل مثل سارية نوار في

كورنهيل. ماذا كانوا يعنون؟".
"لقد أسقطوا تلك السارية في العام الذي وقعت فيه أحداث شغب. كانوا يسمّونه يوم
أيار/مايو المشؤوم. كنت حينذاك صغيراً".
"وأين هي السارية الآن؟".
"وُضعت في مخزن المدينة".
"هل سنعلّق نجمتنا مجدداً في العام القادم؟".
"إن كنا محظوظين".
"هل سنصبح فقراء الآن بسقوط الكاردينال؟".
"كلاً".

راح غريغوري ينظر إلى الشعلات الصغيرة وهي تتمايل. "هل تذكر العام الذي
صبغت فيه وجهي باللون الأسود، ولُففت بجلد عجل أسود؟ كنتُ يومها الشرير في
المسرحية".
"أجل، أذكر". ولانت ملامحه.

يومها أرادت أن تصبغ وجهها هي أيضاً، ولكنّ أمّها قالت لها إنّ هذا لا يليق
بفتاة صغيرة. يتمنى لو أنّه قال، يجب أن تحصل أن علي دورها، حتّى لو اضطرت،
وقد صبغت وجهها بالأسود، أن تضع شعراً مستعاراً أصفر اللون، يتدلّى من
الجانبين، أو يسقط على عيون الصغار.

العام الذي كانت فيه غرايس تمثّل دورها، كان لديها جناحان مصنوعان من ريش
الطاووس، صنعهما لها هو بنفسه. كان لدى الفتيات الصغيرات الأخريات أجنحة
مزرية من ريش البطّ التي كانت تسقط كلّما لامست الجدران. ولكنّ غرايس وقفت
تتلاًّ بينهنّ، بشعرها المضفرّ بخيوط الفضة، وكتفيها المزينتين بالجناحين الكبيرين
الملوّنين، وكان الهواء الذي تتنفسه معطراً. قالت ليزي: "توماس، أنت تفاجئني دوماً".
كان جناحاهما هما الأجل في المدينة.

وقف غريغوري، واقترب ليقبّله قبل الخلود إلى السرير. للحظة، اتكأ ابنه عليه
وكأنّه طفل صغير، أو كأنّ الماضي، والصور التي رآها في النار مشتتة، أفقدته
وعيه. ما إن خلد الصبيّ إلى النوم، حتّى أخذ الأوراق من الكومة التي رتبها ابنه
فيها، وأعاد طيها وترتيبها بحيث يكون التوقيع ظاهراً، لتكون جاهزة للأرشفة. فكّر في
يوم أيار/مايو المشؤوم. لم يسأل غريغوري عن سبب أعمال الشغب. كان الشغب
ضدّ الأجانب. وحينذاك لم يكن قد مضى زمن طويل على عودته إلى الديار.

مع بداية عام 1530، لم يقدّم مائدة لمناسبة ذكرى الغطاس، لأنّ كثيراً من الناس سيضطرونّ إلى رفض دعوته بسبب ما حلّ بالكاردينال. عوضاً من ذلك، اصطحب الشباب إلى غرايز إن. ولكنّه ندم على الفور تقريباً، لأنّ احتفال هذا العام كان أكثر ضجّة وفسوقاً من أيّ عام مضى.

أدى طلاب الحقوق مسرحية عن الكاردينال. جعلوه يهرب من قصر يورك، إلى مركبه الراسي في نهر التايمز. قام بعض الأشخاص بالتلوّح بملاءات مصبوغة، تمثّل النهر، بينما راح آخرون يرشّونهم بالماء من دلاء جلدية. ومع صعود الكاردينال إلى مركبه، تعالّى الصراخ، ودخل أحرق إلى القاعة مع زوج من كلاب الصيد المقيدة، بينما أتى آخرون بشباك وصنابير صيد، لإعادة الكاردينال إلى الضفّة. أظهر المشهد الثاني الكاردينال راكعاً في الوحل في بوتتي، في أثناء هربه إلى إيشر. راح الطلاب يبتعدون حين أخذ الكاردينال ينتحب ويرفع يديه بالدعاء. تساءل، من من بين جميع الناس الذين شاهدوا هذا الاحتفال هو الذي قدّمه ككوميديا؟ لو يعرف، أو حتّى يشكّ في هويته، لأذاقه الأمرين.

تمدّد الكاردينال على ظهره، فبدأ أشبه بجبل قرمزي. راح يلوّح بيديه، وعرض تقديم أبرشية وينشيستر إلى من يتمكّن من إعادته إلى ظهر البغل. مثلّ بعض الطلاب، الواقفين تحت إطار مغطّى بجلد الحمار، دور البغل، الذي راح يدور ويطلق النكات المبتذلة باللاتينية، ويطلق الغازات في وجه الكاردينال. فكّر في أنّ هذا اللعب على الكلام قد يبدو ذكياً من فم كنّاسي الشوارع، أمّا طلاب الحقوق، فينبغي لهم أن يأتوا بشيء أفضل. قام من مكانه، مستاءً، وما كان من مرافقيه إلّا أن نهضوا وخرجوا معه.

وقف للتحدّث إلى بعض أعضاء مجلس العموم: كيف يُسمح باستمرار شيء كهذا؟ كاردينال يورك هو رجل مريض، وقد يفارق الحياة، كيف ستقفون أنتم وطلابكم يوم الحساب؟ أيّ نوع من الشباب تُنشئون هنا، يشعرون أنّهم شجعان في الانقضاض على رجل عظيم بعد سقوطه، رجل، كانوا قبل بضعة أسابيع يتوسّلون عطفه؟ تبعه أعضاء مجلس العموم، وهم يعتذرون، لكنّ أصواتهم ضاعت في موجة الضحك التي ارتفعت من القاعة. كان الشباب الذين يرافقونه يسيرون متمهلّين، ويسترقون بضع نظرات إلى الخلف. كان الكاردينال جالساً ينوح على الأرض، ويقدمّ حريمه اللواتي يبلغ عددهنّ أربعين عذراء إلى من يساعده على الركوب. في الخارج، كانت المصابيح تشتعل ضعيفة في الهواء الجليدي. قال: "إلى البيت".

سمع غريغوري يهمس: "لا يمكننا أن نضحك إلا إن سمح لنا".
ثم سمع رايف يجيب: "في النهاية، هو من يملك زمام القيادة".
تراجع خطوة إلى الوراء، للتحدّث إليهما: "على أيّ حال، كان بابا بورجيا الماكر،
ألكسندر، هو الذي يملك أربعين امرأة. ولم يكن بينهما عذراء واحدة، أوكد لكما ذلك".
لمس رايف كتفه. كان ريتشارد يسير إلى يساره، ملتصقاً به. قال له بلطف: "لا
داعي إلى سندي، فأنا لست الكاردينال". توقّف، ثم ضحك وقال: "أظنّ أنه كان...".
قال ريتشارد: "أجل، كان مسلماً. لا بدّ من أن محيط خصر غبطته كان يبلغ خمس
أقدام".

كانت أضواء المصابيح تنير الليل في أثناء عودتهم. مرّ عدد من الأشخاص
المتكرّين بزّي أحصنة، وهم يغنون، وتبعتهم مجموعة من الرجال الذين يضعون
قرون وعل، ويعلقون أجراساً في أقدامهم. حين اقتربوا من المنزل، مرّ بهم صبيّ
متنكر بزّي برتقالة، مع صديقه الذي يرتدي زيّ ليمون حامض. هتفا قائلين:
"غريغوري كرومويل!"، ورفعوا لتوماس، عوضاً من القبعات، مجموعة من لحاء
الشجر. "عاماً سعيداً".

أجابهما: "عاماً سعيداً لكما أيضاً. وأضاف لصاحب زيّ الليمون الحامض: "قل
لأبيك المجيء لرؤيتي بخصوص إيجار تشيبسايد".
وصلوا إلى المنزل، فقال لهم: "اذهبوا إلى النوم، لقد تأخّر الوقت". وشعر أنّ عليه
أن يضيف: "حفظكم الله حتّى الصباح".

تركوه، فجلس إلى مكتبه. تدكّر غرايس في نهاية تلك الأمسية التي تنكّرت فيها
بزّي ملاك، ووقفت أمام المدفأة. كان وجهها شاحباً من شدّة التعب، وعيناها تتلألآن،
وعيون ريش الطاووس تلمع في ضوء النار، كأحجار التوباز، ذهبية، داكنة. قالت
ليز: "ابتعدي عن النار، حبيبتي، لئلا يحترق جناحاك". تراجعت ابنتها الصغيرة إلى
الظلّ، وأصبح جناحها بلون الرماد وهي تتجّه نحو السلم، فقال لها: "غرايس، هل
ستأمين بجناحيك؟".

أجابت وهي تنظر إلى الخلف من فوق كتفها: "إلى أن أتلو صلواتي". تبعها، خائفاً
عليها، خائفاً من النار ومن خطر آخر، ولكنه لم يدرك ماهيته. صعدت إلى غرفتها،
وكان جناحها يرتعشان، ويتحوّل لون ريشهما إلى الأسود.

فكّر في نفسه قائلاً: "على الأقلّ لن يكون عليّ إعطاؤها إلى شخص آخر. لقد
ماتت ولم يعد عليّ أن أعطيها إلى رجل يسعى وراء مهرها. لو أنّ غرايس بقيت على

قيد الحياة، لأرادت امتلاك لقب. ولظننت أنها، لكونها فتاة جميلة، عليه أن يشتري لها واحداً: الليدي غرايس. أتمنى لو أنّ ابنتي آن كانت هنا، أتمنى لو أنّ آن كانت هنا، وموعودة لرايف سادلر. لو أنّ آن كانت أكبر سنّاً، وكان رايف أصغر سنّاً. لو أنّ آن لا تزال على قيد الحياة".

أحنى رأسه مجدداً فوق رسائل الكاردينال. كان وولزي يكتب إلى حكّام أوروبا طالباً منهم دعمه في قضيتّه. وكان توماس كرومويل يتمنى لو أنّ الكاردينال لا يفعل ذلك، أو أن تكون الرسائل أكثر غموضاً. أليس تحريض وولزي لهم لإعاقة هدف الملك خيانة عظمى؟ قد يعتبرها هنري كذلك. الكاردينال لا يطلب منهم شنّ حرب على هنري لصالحه، بل مجرد سحب موافقتهم على ملك يحبّ كثيراً نيل الإعجاب. استرخى في كرسيّه، ووضع يديه على فمه، وكأنّه يحجب رأيه عن نفسه. فكّر في نفسه قائلاً: "أنا سعيد لأنني أحبّ الكاردينال. فلو كنت أحد أعدائه، لو كنت سوفولك، أو نورفولك، أو الملك، لأخضعته للمحاكمة في الأسبوع القادم".

فُتح الباب. "ريتشارد؟ ألم تستطع النوم؟ حسناً، عرفت ذلك. كانت المسرحية مثيرة جداً بالنسبة إليك".

كان من السهل الابتسام الآن، لكنّ ريتشارد لم يبتسم، بل كان وجهه متجهماً. قال: "سيدي، لديّ سؤال. لقد مات أبونا، وأنت الآن حلت مكانه".

ريتشارد ويليامز، ووالتر ويليامز، المسمّى والتر تيمناً بأبيه، هما ابناه الآن. قال له: "اجلس".

"هل نغيّر كنيّتنا لنحمل كنيّتك عوضاً منها؟".

"أنت تفاجئني. فالأشخاص الذين يحملون اسم كرومويل، يودّون لو أنّه في وسعهم تغيير اسمهم إلى ويليامز".

"لو كنت أحمل اسمك، لما تخلّيت عنه أبداً".

"هل كان والدك ليوافق على ذلك؟ فهو يعتقد، كما تعلم، أنّه يتحدّر من أمراء ويلزيين".

"آه، بالفعل. فحين يشرب، كان يقول: من يعطيني شيلينغ واحداً مقابل إمارتي؟".

"مع ذلك، أنت تتحدّر بالفعل من أسرة تيودور".

قال ريتشارد: "لا تبدأ رجاءً، يصعب عليّ كثيراً تحديد ماهية تلك العلاقة".

ضحك قائلاً: "ليس الأمر بهذه الصعوبة. اسمع، كان لدى الملك السابق عمّ يدعى جاسبر تيودور. وكان لدى جاسبر ابنتان غير شرعيتين، هما جوان وهيلين. هيلين

هي والدة غاردينر. أمّا جوان فتزوّجت من ويليام إيفان، وتلك كانت جدّتك".
"أهذا كلّ شيء؟ لماذا كان أبي يجعل الأمر يبدو عميقاً جدّاً؟ ولكن إن كنت قريب
الملك"، سكت قليلاً ثمّ تابع: "وستيفن غاردينر قريب... بماذا يفيدني ذلك؟ نحن لسنا
في البلاط، ومن غير المرجّح أن نكون هناك، أمّا بالنسبة إلى الكاردينال... في
الواقع..."، أشاح نظره، ثمّ قال: "سيدي... حين كنت في أسفارك، هل فكرت يوماً في
أنك ستموت؟".

"أجل. آه، أجل".

نظر ريتشارد إليه: "كيف كان شعورك؟".

قال: "شعرت بالانزعاج. فقد بدا لي ذلك عبثياً، أن آتي كلّ هذه المسافة، وأعبر
البحر، لأموت، من أجل..."، هزّ كتفيه متابعاً: "الله أعلم".
قال ريتشارد: "إنني أشعل شمعة كلّ يوم من أجل والدي".
"هل يساعدك ذلك؟".

"كلاً، ولكنني أقوم بذلك وحسب".

"هل يعرف أنك تفعل هذا؟".

"لا أستطيع أن أتخيّل ما يعرفه. ما أعرفه هو أنّ على الأحياء مواساة بعضهم
بعضاً".

"هذا يواسيني، ريتشارد كرومويل".

قام ريتشارد وقبّل خدّه. "تصبح على خير، نم جيّداً".

كانت تلك عبارة مألوفة بين الأشخاص المقربين الذين يعيشون في منزل واحد.
تُستعمل مع الآباء، ومع الأخوة. إنّ الاسم الذي نختاره مهمّ، وكذلك الاسم الذي
نصنعه. يخسر الناس أسماءهم حين يموتون في ساحة المعركة، الجثث العادية التي
لا تملك نسباً، ولا أحد يبحث عنها، ولا كنيسة، ولا صلوات دائمة. نسب مورغان لن
يضيع، كان واثقاً من ذلك، مع أنّه مات في عام كثر فيه الموت، ولم تخلع فيه لندن
السواد. لمس عنقه، الذي كان يعلّق فيه قلادته، القلادة التي أعطته إيّاها كات،
وفوجئت أصابعه لغيابها. للمرّة الأولى فهم لماذا نزعها ورماها في البحر، كي لا
تأخذها يد أخرى. لقد أخذتها الأمواج، ولا تزال تحتفظ بها.

كان الدخان لا يزال ينبعث من موقد إيشر. ذهب إلى دوق نورفولك، الذي كان
مستعدّاً دائماً لرؤيته، وسأله عمّا عليه فعله بخصوص خدم الكاردينال.

في هذه المسألة، كان الدوقان كلاهما نافعين. إذ قال نورفولك: "ما من شيء أسوأ

وأكثر خطورة من رجل لا يملك سيّداً. مهما يكن رأينا بكاردينال يورك، إلا أنه كان يملك أناساً يخدمونه بشكل حسن. أرسلهم إليّ، فسيعملون تحت خدمتي ويكونون رجالي".

نظر إلى كرومويل، الذي أشاح بنظره. كان يعرف أنه محطّ طمع، فكسا وجهه تعبير أشبه بتعبير وريثة: ماكر، خجول، بارد.

كان يرتب قرصاً من أجل الدوق. ولم يكن معارفه الأجانب مسرورين. قال، بعد سقوط الكاردينال، سطع نجم الدوق، مثل شمس الصباح، وأصبح ذراع هنري اليمنى. قالوا: "توماسو، أخبرنا بجدّية، ما هي الضمانة التي تقدّمها إلينا؟ دوقاً عجوزاً قد يموت غداً، يقال إنه مصاب بالكوليرا؟ هل تقدّم إلينا دوقية كضمانة، في جزيرتكم البربرية، التي تتخبّط دائماً في الحروب الأهلية؟ كما أنّ حرباً أخرى ستتدلّع، إن أزاح ملككم خالة الإمبراطور جانباً، وتوجّ مكانها تلك المومس ملكة".

مع ذلك، سيتوصّل إلى اتّفاق في مكان ما.

قال تشارلز براندون: "ها أنت ذا مجدّداً، سيّد كرومويل، مع لوائح أسماء؟ هل ثمة شخص معيّن توصيني به؟".

"أجل، ولكن أخشى أنه من طبقة وضيعة، لذا، من الأفضل أن أتباحث مع الخادم المسؤول عن المطبخ...".

قال الدوق: "كلاً، أخبرني". لم يكن يحتمل التشويق.

"إنّه عامل المدافئ، ليست مسألة تستحقّ البحث مع سموّكم...".

قال تشارلز براندون: "سأخذه، سأخذه. أحبّ العناية بمدافئي".

كان توماس مور، قاضي القضاة، أول من وقّع على جميع الأحكام التي صدرت ضدّ وولزي. ويقال إنّ تهمة غريبة أضيفت إلى تلك الموجهة إليه. فالكاردينال متّهم أنّه همس في أذن الملك وتنفّس في وجهه. وبما أنّ الكاردينال مصاب بمرض الجدري الفرنسي، فقد كان ينوي نقل العدوى إلى ملكنا.

حين سمع بذلك، قال في نفسه: "تخيّل العيش في رأس قاضي القضاة. تخيّل كيف قام بكتابة تهمة كهذه، وأخذها إلى المطبعة، ونشرها في البلاط وفي المملكة، ووضعها في مكان يصدّق الناس فيه كلّ شيء، ليراها الرعاة على سفوح التلال، وعجّان تيندايل، والمتسوّلون على الطرقات، والحيوانات المريضة في حظائرهم. هناك، في مهبّ رياح الشتاء القارسة، وتحت شمس الصباح الباهتة، وحبّات الثلج المتساقطة على حدائق لندن".

كان صباحاً شاحباً، سماؤه ملبّدة بغيوم منخفضة. وكان النور المتسرّب عبر الزجاج بلون القصدير. بدا الملك زاهي الألوان، وكأنّه ملك في رزمة جديدة من ورق اللعب. بدت عيناه الزرقاوان المسطّحتان صغيرتين جدّاً.

كان هنري تيودور محاطاً بحشد من السادة الذين تجاهلوا وصوله. هاري نوريس هو الوحيد الذي ابتسم وحيّاه بتهذيب. ابتعد الرجال بإشارة من الملك. كانوا يرتدون عباءاتهم استعداداً لركوب الخيل، والذهاب إلى الصيد. تفرّقوا، وداروا، وتجمّعوا. همس واحداهم للآخر، وراحوا يتحدّثون بهزّ رؤوسهم وأكتافهم.

نظر الملك من النافذة، ثمّ سأله: "إذاً، كيف حال...". بدا متردداً في لفظ اسم الكاردينال.

"لا يمكن أن يكون بخير حتّى ينال عفو جلالتم".

قال الملك: "أربع وأربعون تهمة، أربع وأربعون أيّها السيّد".

"مع احترامي لجلالتم، ثمّة جواب عن كلّ منها، يمكننا إعطاؤها في جلسة استماع".

"هل تستطيع تقديمها هنا الآن؟".

"إن تفضّل جلالتم بالجلوس".

"سمعت أنّك رجل جاهز دائماً".

"وهل من الممكن أن أحضر إلى هنا من دون أن أكون جاهزاً؟".

تحدّث من دون تفكير تقريباً. ابتسم الملك. كانت شفته الحمراء مثنية برقّة، فبدا فمه جميلاً، أشبه بغم امرأة، وصغيراً جدّاً بالنسبة إلى وجهه. قال: "سأختبرك في يوم آخر، ولكنّ اللورد سوفولك ينتظرنني. هل ستنتشع الغيوم برأيك؟ أتمنّى لو أنّني خرجت قبل القدّاس".

أجاب: "أظنّ أنّها ستنتشع. إنّهُ يوم جميل للصيد".

"سيّد كرومويل؟". التفت الملك، ونظر إليه مدهوشاً. "أنت لست من رأي توماس مور، أليس كذلك؟".

انتظر، ولم يعرف ما سيقوله الملك.

"أعني الصيد، إذ يظنّه عملاً بريئاً".

"آه، فهمت. كلاً، جلالتم، أنا أفضل أيّ رياضة أقلّ كلفة من الحروب. هذا أفضل...". كيف يعبر له؟ "في بعض البلدان، يصطادون الدببة، والذئاب، والحيوانات المقرّزة البرية. كانت هذه الحيوانات تعيش أيضاً في إنكلترا حين كانت

لدينا غاباتنا العظيمة".

"لدى ملك فرنسا حيوانات مقرزة بريّة. يقول من وقت إلى آخر إنّه سيشحن لي بعضاً منها. ولكن أشعر...".

تشعر بأنّه يسخر منك.

"نقول عادةً"، نظر هنري إليه مباشرةً، "نقول عادةً، نحن النبلاء، إنّ الصيد يعدّنا للحرب. وهذا ما يعيدنا إلى نقطة شائكة، سيّد كرومويل".
قال بمرح: "بالفعل".

"قلت، في البرلمان، قبل ستّة أعوام تقريباً، إنني لا أستطيع تحمّل نفقات حرب".
كان ذلك قبل سبعة أعوام، عام 1523. وكم دامت تلك الكلمة؟ سبع دقائق؟ سبع دقائق وكان خلالها واثقاً ممّا يقوله. لم يكن ثمة جدوى من التراجع، إن فعلت، فسيلاحقك هنري. ولكن إن تقدّمت، فقد يتراجع هو. قال: "ما من حاكم في التاريخ كان قادراً على احتمال نفقات حرب. فالحروب ليست من الأمور التي يمكن احتمالها. ما من أمير قال يوماً: هذه هي ميزانيتي، إذاً، هذه هي الحرب التي أستطيع خوضها. ما إن تخوض حرباً، حتّى تستنفد كلّ مالك، ثمّ تتسبّب بإفلاسك".
"حين قمت باجتياح فرنسا عام 1513، سيطرت على بلدة تيروان، التي أسميتها في خطابك...".

"وجار كلاب، جلالتكم".

كرّر الملك: "وجار كلاب. كيف أمكنك قول ذلك؟".

هزّ كتفيه مجيباً: "سبق لي أن كنت هناك".

ومضت عينا الملك غضباً. "وأنا أيضاً، على رأس جيشي. اسمع، أيّها السيّد. قلت إنّه لا يجدر بي القتال لأنّ الضرائب ستفلس بلادي. ما هو واجب البلاد، ما لم يكن دعم أميرها في مشروعه؟".

"أظنّ أنّي قلت، مع احترامي لجلالتكم، إنّنا لا نملك ما يكفي من الذهب لتغطية حملة عام. فالحرب ستبتلع كلّ ما تملكه البلاد من ذهب. لقد قرأت أنّ الناس اضطروا في وقت من الأوقات إلى تبادل عملات جلدية بسبب نقص العملات المعدنية. قلت إنّنا سنعود إلى تلك الأيام".

"قلت إنّه لا يجدر بي قيادة جيوشي. قلت إنّني لو أسرت، فلن تتمكّن البلاد من دفع الفدية. إذاً، ماذا تريد؟ تريد ملكاً لا يقاتل؟ تريدني أن أبقى داخل قصري وكأنتي فتاة مريضة؟".

"سيكون هذا مثالياً، من الناحية الضريبية".
أخذ الملك نفساً عميقاً. كان يصرخ، ولكنه قرّر الآن أن يضحك. "أنت تتنادي
بالحذر. الحذر فضيلة، ولكن ثمة فضائل أخرى للأمرء".
"الثبات".

"أجل، الثبات واحدة منها".
"لا يعني ذلك التحلي بالشجاعة على أرض المعركة".
"هل تعطيني درساً؟".

"إنّه يعني الثبات على الهدف. يعني التحمل، ويعني امتلاك القوّة للعيش مع ما
يقيدك".

عبر هنري القاعة، وصدر صوت منتظم عن حذاء ركوب الخيل. كان جاهزاً
للصيد. استدار ببطء لإعطاء تأثير أكبر لجلالته: عريضاً، مربعاً، وبراقاً. "سنتابع
هذا الحديث. ما الذي يقيدني؟".

أجاب: "المسافة، الموانئ، الأرض، الناس. مطر الشتاء والوحل. حين حارب
أسلاف جلالتك في فرنسا، استولت إنكلترا على مقاطعات بأكملها. منها تمكّننا من
جلب المؤن. أمّا الآن، فنحن لا نملك سوى كاليه، كيف سنتمكّن من دعم جيش في
الداخل؟".

حدّق الملك إلى الصباح الفضي. عضّ على شفته، وبدا أنّ غضباً بطيئاً يغلي في
داخله. التفت، وكانت ابتسامته مشرقة. قال: "أعرف. لذا، حين نتوجّه إلى فرنسا في
المرّة القادمة، فسنحتاج إلى شاطئ".

"بالطبع. نحتاج إلى الاستيلاء على النورماندي، أو بريتاني، هذا كلّ ما في
الأمر".

قال الملك: "تفكيرك جيّد، وأنا لا أضمر لك أيّ شعور سيّئ. ولكنني أفترض أنّك
لا تملك خبرة في السياسة أو في إدارة حملة".
هزّ رأسه نافياً. "إطلاقاً".

"قلت، أعني في ذلك الخطاب الذي ألقيته في البرلمان، إن هناك مليون باوند من
الذهب في المملكة".

"أعطيت رقماً مدوراً (تقريباً) حينها".
"ولكن كيف وجدت ذلك الرقم؟".

"تدرّبت في مصارف فلورنسية، وفي البندقية".

حدّق إليه الملك مذهولاً. "قال هاورد إنك كنت جندياً عادياً."
"صحيح، كنت كذلك أيضاً".

"وهل كنت شيئاً آخر؟".

"ماذا يوّد جلالتم أن أكون؟".

نظر إليه الملك مباشرة، وكان هذا شيئاً نادراً. ثمّ نظر إلى الخلف، وكانت تلك عادة لديه. "سيّد كرومويل، لديك سمعة سيئة".
أحنى رأسه.

"ألن تدافع عن نفسك؟".

"يمكن لجلالتم أن يكون عني رأيه الخاص".

"يمكنني، وسأفعل".

عند الباب، أبعد الحراس رماحهم. ابتعد السادة خطوة وانحنوا، بينما دخل سوفولك محدثاً صوتاً مع وقع قدميه. بدا تشارلز براندون دافئاً جداً بملابسه. قال للملك: "هل أنت جاهز؟ أه، كرومويل". ابتسم مضيفاً: "كيف حال كاهنك السمين؟".
احمرّ وجه الملك استياءً، ولكنّ براندون لم يلاحظ ذلك، بل ضحك قائلاً: "أتعلم، يقولون إنّ الكاردينال خرج للتّنزه على صهوة الجواد مع خادمه، ولكنّه أوقف جواده عند أعلى وادٍ، ونظر ليرى كنيسة جميلة جداً وأراضيّ محيطة بها. فقال لخادمه، روبين: من يملك هذه الكنيسة؟ أريدها أن تكون ملكي! فأجاب روبين: إنّها لك، سيّدي، إنّها لك".

لم تلقَ قصّته استحساناً كبيراً، لكنّه ضحك عليها هو نفسه.

قال: "سيّدي، تُروى هذه القصّة في جميع أنحاء إيطاليا، عن كاردينال أو آخر".

بدت الخيبة على وجه براندون. "ماذا، ماذا، القصّة نفسها؟".

"نفسها، مع التعديلات اللازمة، فالخادم لا يُدعى روبين".

التقى نظره بنظر الملك الذي ابتسم.

همّ بالمغادرة، ومّرّ من أمام السادة، ليلتقي بوزير الملك. حيّاه قائلاً: "صباح الخير، صباح الخير!". لم يكن معتاداً على التكرار، ولكنّ اللحظة بدت له مناسبة لذلك.

كان غاردينر يفرك يديه الضخمتين الزرقاوين معاً. قال: "الطقس بارد، أليس كذلك؟ وكيف كان ذلك، كرومويل؟ سيئاً؟".

أجاب: "بل على العكس. أه، وهو خارج مع سوفولك، سيكون عليك الانتظار".

مشى، ولكنّه استدار. شعر بألم في أعماق صدره وهو يقول: "غاردينر، ألا نستطيع نسيان هذا؟".

أجاب غاردينر: "كلاً، كلاً، لا أظنّ أننا نستطيع ذلك".
قال: "حسناً"، ومشى في طريقه. قال في نفسه: انتظر. قد يتحمّم عليك الانتظار لعام أو عامين، ولكن انتظر وحسب.

إيشر، بعد يومين: ما إن عبر البوابة، حتّى اندفع كافنديش نحوه وهو يجري في الباحة. "سيّد كرومويل! البارحة، أرسل الملك...".
قال له: "اهداً، جورج".

"... البارحة أرسل إلينا أربع عربات محمّلة بالأثاث، تعال لترى! هناك سجّاد، أطباق، وملاءات. هل كانت زيارتك هي السبب؟".

من يدري؟ لم يطلب شيئاً بشكل مباشر. ولو فعل، لكان أكثر تحديداً. لا أريد هذه السجادة، بل تلك، التي يحبّها سيّدي الكاردينال، كما أنّه يفضّل الأواني الزجاجية الإيطالية عوضاً من تلك الأواني الفضية القديمة.

راح يتحقّق من الأغراض الجديدة بازدياء. قال وولزي: "أنتم لا تستحقّون سوى الأفضل". ثمّ أضاف وكأنّه يعتذر تقريباً: "ربّما كان ما أرسل إليّ هو غير ما أمر به الملك. وهذا التبديل السافل قام به أناس سفلاء".
قال: "هذا ممكن جدّاً".

"مع ذلك، سنكون مرتاحين أكثر بوجودها".
قال كافنديش: "المشكلة أنّنا نحتاج إلى الانتقال، فهذا المنزل يحتاج إلى التنظيف والتهوئة".

قال الكاردينال: "هذا صحيح".
"إذاً، هل ستطلب ذلك من مجلس الملك؟".

تنهّد مجيباً: "جورج، ما الجدوى من ذلك؟ اسمع، أنا لا أتحدّث إلى توماس هاورد، ولا إلى براندون، بل أتحدّث إليه هو".
ابتسم الكاردينال ابتسامة أبوية مشرقة.

فوجئ بمدى قدرة هنري على حفظ التفاصيل، وهما يبحثان في تسوية مالية للكاردينال. لطالما قال وولزي إنّ الملك ذكيّ وسريع البديهة كوالده، ولكنّه واسع الإدراك أكثر منه. كان الملك السابق قد أصبح ضيق الأفق مع تقدّمه في السنّ،

وظلَّ يحكم إنكلترا بيد من حديد. لم يكن ثمة نبيل غير مدين له، وقد قال بصراحة، إن لم يكن شعبه يحبه، يريد أن يخشاه. أمّا هنري، فكان يمتاز بطبيعة مختلفة، ولكن ما هي؟ ضحك وولزي وقال: "عليّ أن أوّلّف لك كتيباً". ولكن في أثناء تنزّه الكاردينال في حدائق المنزل الصغير في ريتشموند، الذي سمح له الملك بالانتقال إليه، تشوّش ذهنه، وتحدّث عن توقّعات، وعن سقوط كهنة إنكلترا، والذي قال إنّه مُتوقّع، وقد أصبح وشيكاً.

حتى وإن كنت لا تعتقد بالتوقّعات، وهو لا يعتقد بها شخصياً، يمكن رؤية المشكلة. فإن كان الكاردينال مذنباً بجريمة تأكيد سلطانه كموفد رسمي، فهل يُعتبر جميع رجال الدين، بدءاً من الأساقفة، الذين وافقوا على ذلك، مذنبين هم أيضاً؟ لا يمكن أن يكون الشخص الوحيد الذي يفكّر في ذلك، ولكن أعداء الكاردينال لا يستطيعون الرؤية أبعد منه، ومن حضوره القرمزي الهائل في الأفق. كانوا يخشون أن يظهر مجدّداً، بنية الانتقام. قال براندون، حين التقيا ثانية: "إنّها أوقات عصيبة بالنسبة إلى الأساقفة الفخوريين". تحدّث بمرح وكأنّه يحاول الحفاظ على رباطة جأشه: "لسنا بحاجة إلى كرادلة في هذه المملكة".

قال الكاردينال غاضباً: "وهو، براندون، حين تزوّج من شقيقة الملك على الفور، حين تزوّج منها بعد أيام من وفاة زوجها، مع أنّه يعرف أنّ الملك كان ينوي تزويجها من ملك آخر، لكان رأسه فصل عن جسده لو لم أَدافع عنه، أنا الكاردينال البسيط، أمام الملك".

أنا، الكاردينال البسيط.

"وما هو العذر الذي قدّمه براندون؟ أه، جلالة الملك، لقد بكت شقيقتكم ماري. كم بكت وتوسّلت إليّ كي أتزوجها! لم يسبق لي أن رأيت امرأة تبكي بهذا الشكل!". فجفّ دموعها ونصّب نفسه على رأس دوقية! والآن يتحدّث وكأنّه يملك اللقب منذ عهد طويل. "اسمع، توماس، لو أتى إليّ رجال يمتنعون بالعلم والأهليّة، مثل أسقف تونستال، أو مثل توماس مور، وقالوا إنّ الكنيسة تحتاج إلى الإصلاح، لأصغيت إليهم. ولكن براندون! يتحدّث عن الأساقفة الفخوريين! ماذا كان هو؟ سانس جياذ الملك! حتىّ إنني أعرف جياذاً تتمتع بذكاء أكثر منه".

قال كافنديش: "سيدي، كن أكثر اعتدالاً. تشارلز براندون، كما تعلم، ينتمي إلى أسرة قديمة، وهو سيّد نبيل بالولادة".

"سيّد؟ هو؟ إنّه مجرد مدّع. ذاك هو براندون". جلس الكاردينال منهكاً. "رأسي

يؤلمني. كرومويل، اذهب إلى البلاط وائت لي بأخبار أفضل".
هكذا كان يتلقى يومياً تعليمات وولزي في ريتشموند، ويتوجه إلى حيث يوجد الملك. شعر بأن الملك هو أشبه ببحر يتقدم فيه، ولكن ما من شاطئ لتزويده بالمؤونة.

فهم ما تعلمه هنري من الكاردينال: دبلوماسيته وغموضه. ورأى كيف طبق الملك هذا العلم للقضاء على وزيره على نحو بطيء ومريب، من دون ترك أثر. كان هنري يُرفق كل عمل طيب بعمل سيئ، مضيفاً تهمة أو إساءة أخرى، إلى أن قال الكاردينال متألماً: "أريد الرحيل".

اقترح قائلاً: "وينشستر، سيدي الكاردينال يود الانتقال إلى قصره هناك".
قال براندون: "ماذا؟ إلى هذه المسافة القريبة من الملك؟ نحن لسنا أغبياء، سيدي كرومويل".

بصفته رجل الكاردينال، كان ظهوره غالباً مع هنري قد أثار شائعات في مختلف أنحاء أوروبا عن أن وولزي سيستعيد منصبه. قال الناس إن الملك يعقد صفقة للحصول على ثروة الكنيسة مقابل عودة وولزي إلى منصبه. وتسربت شائعات من بين أعضاء المجلس تفيد أن الملك لم يحب مساعدته الجدد. إذ تبين أن نورفولك جاهل، فيما اتهم سوفولك أنه يضحك على نحو مثير للأعصاب.

قال: "سيدي الكاردينال لن يذهب شمالاً، فهو ليس مستعداً لذلك".
قال هاورد: "ولكنني أريده أن يذهب شمالاً، أخبره بذلك. أخبره أن نورفولك يقول إن عليه الرحيل من هنا. وقل له، إن لم يفعل، سأتي إليه وأقطع إرباً بأسناني".
انحنى قائلاً: "سيدي، هل أستطيع استبدال كلمة أقطع بكلمة أعض؟".

اقترب منه نورفولك، ووقف على مسافة قريبة جداً. كانت عيناه تقدحان شرراً. قال: "لا يمكنك استبدال شيء، أيها السافل... وراح ينخس كتفه بسبابته مضيفاً: "أيها... النكرة، أيها المحامي، المحتال".

وقف هناك، ينخسه، وكأنه خباز يضغط إصبعه في أرغفة العجين. ولكن لحم كرومويل كان صلباً وكثيفاً، فكان إصبع الدوق يرتد إليه.

قبل أن يغادروا إيشر، أنجبت إحدى القططة التي أحضروها لقتل الحشرات مجموعة من الجراء في غرفة الكاردينال. يا لوقاحة ذاك الحيوان! ولكن، لحظة، حياة جديدة في جناح الكاردينال؟ هل يمكن لذلك أن يكون فال خير؟ في أحد الأيام، بدأ يخشى فالاً من نوع آخر: طائراً ميتاً يسقط من المدخنة، وحينذاك، آه، الويل لنا! لن

ينتهي أبدأً من هذا الحديث.

ولكنّ الكاردينال كان سعيداً في الوقت الحاضر. إذ وضع الجراء الصغيرة على وسادة في صندوق مفتوح، وراقبها وهي تكبر. كان أحدها أسود وجائعاً، شعره كالصوف، وعيناه بدتا صفراوين. حين فُطم، أحضره إلى المنزل. أخرجته من تحت رداءه، حيث كان ينام متكوراً على كتفه، وحمله أمام ابنه قائلاً: "غريغوري، انظر. أنا عملاق، واسمي مارلينسبايك".

نظر إليه غريغوري حائراً. أجفل وأبعد يده قائلاً: "الكلاب ستقتله".

عاش مارلينسبايك في المطبخ، ليكبر ويزداد وزناً. الصيف قريب، مع أنّه لا يستطيع تخيل الأفراح التي يخبئها. أحياناً، كان يراه وهو يتنزّه في الحديقة، قطّ صغير، يستلقي متكاسلاً على أغصان شجرة تفاح، أو يخرخر قرب حائط تحت أشعة الشمس.

ربيع عام 1530: دعاه التاجر أنطونيو بونفيزي إلى العشاء في منزله الجميل قرب بيشوبسغايت. قال لريتشارد: "لن أتأخر"، وتوقع أن يجد الحشد المعتاد الذي يكون فيه الكلّ جائعين، فحتّى الإيطالي الثري الذي يملك مطبخاً ممتازاً لا يستطيع إيجاد مئة طريقة مع الإنكليز المدخن أو سمك القدّ المملح. فالتجّار في فترة الصوم يفتقدون إلى لحم الضأن، وشرابهم الشعبي، والفراش الذي اعتادوا النوم عليه. ومن الآن وحتّى أول أيّام الصوم، سيسعون إلى تحقيق ربح ما.

ولكنّ الحفل كان أكبر ممّا توقع. فقاضي القضاة كان هناك، بين مجموعة من المحامين وأعضاء المجلس التشريعي. كان هامفري مونماوث، الذي سجنه مور مرّة، يجلس بعيداً عن الرجل العظيم. بدا مور مرتاحاً، وكان يستحوذ على انتباه مرافقيه بإحدى قصصه عن العالم العظيم إيراسموس، صديقه العزيز. ولكن حين رأى كرومويل، صمت في منتصف الجملة. وأشاح بنظره بعيداً، وكسا وجهه تعبير مبهم ومتحجّر.

سأله: "هل كنت تتحدّث عنيّ؟ يمكنك فعل ذلك بحضوري، يا حضرة الرئيس، فأنا أتمتع برحابة صدر". ضحك مضيئاً: "هل تعرف ما يقوله عنيّ براندون؟ لا يستطيع فهم حياتي، وأسفاري. نعتني منذ أيام أنّي يهودي متشرّد".
سأله مضيئاً بتهذيب: "وهل كان ذلك في وجهك؟".

"كلاً، بل أخبرني الملك. غير أنّ سيدي الكاردينال يعتبر براندون سائس جيداً".
قال هامفري مونماوث: "من تظنّ نفسك يا توماس؟ هل ظننت أنّك أصبحت من

رجال البلاط؟". ابتسم الحاضرون حول الطاولة، ذلك أنّ الفكرة بالطبع سخيفة جدّاً، فهذا الوضع مؤقت. كان أصدقاء مور من أهل المدينة، وليسوا أعلى مقاماً، ولكنه عالم يتمتع بالذكاء. قال مور: "ربّما يجدر بنا عدم التشديد على هذه النقطة، فثمّة مسائل حسّاسة هنا ويُسْتَحْسَن الصمت أحياناً".

مال نحوه أحد الأعضاء المتقدّمين في السنّ في نقابة تجّار الأقمشة، وحدّره بصوت منخفض: "قال توماس مور، حين جلس، إنّه لن يتحدّث في موضوع الكاردينال ولا الليدي".

نظر كرومويل إلى الجالسين، وقال: "مع ذلك، يفاجئني ما يسمح به الملك". سأله مور: "لك أنت؟".

"بل لبراندون. كانا ذاهبين إلى الصيد، فدخل وناداه قائلاً، هل أنت جاهز؟". قال بونفيزي: "لقد عانى سيّدك الكاردينال كثيراً في سنوات الحكم الأولى لمنع أصدقاء الملك من رفع الكلفة معه".

قال مور: "كان يريد أن يرفع الكلفة مع الملك هو وحده". "علماً أنّ الملك يمنح حظوته لمن يشاء، بالطبع".

قال بونفيزي: "إلى حدّ معيّن، توماس". وسُمع ضحك أحدهم. "كما أنّ الملك يستمتع بصحبة أصدقائه. هذا أمر جيّد بالتأكيد؟". "هذا كلام لطيف منك، سيّد كرومويل".

قال مونماوث: "على الإطلاق. السيّد كرومويل معروف أنّه يفعل أيّ شيء لأصدقائه".

قال مور: "أظنّ..."، سكت قليلاً، ونظر إلى الطاولة، ثمّ تابع: "في الحقيقة، لست واثقاً ما إذا كان من الممكن اعتبار أمير صديقاً".

قال بونفيزي: "هذا ممكن بالتأكيد، فأنت تعرف هنري منذ كان طفلاً". "صحيح، ولكن ينبغي أن تكون الصداقة أقلّ إجهاداً... ينبغي أن تكون مجدّدة، وليست مثل..."، نظر إلى مور، للمرّة الأولى، وكأنّه يدعوّه إلى التعليق. "أشعر أحياناً أنّها أشبه... بالصراع".

قال: "ومن يدري ما سبب ذلك الصراع؟". "أجل، من يدري؟".

قال مور: "عندما تتحدّث إلى هنري، أرجو أن تتحدّث إلى القلب الطيب، وليس إلى الإرادة القوية".

أراد متابعة الكلام، ولكن تاجر القماش العجوز لوح طالباً مزيداً من الشراب، وسأله: "كيف حال صديقك ستيفن فوغان؟ ما الجديد في أنتويرب؟" فانقل الحديث إلى التجارة، والنقل البحري، ومعدّلات الفائدة، ولم يتعدّ كونه ثرثرة ومضاربة جامحة. ولو دخلت غرفة وقلت: هذا ما لن نتحدّث عنه، فسيتبيّن لاحقاً أنّك لا تتحدّث عن شيء آخر. لو أنّ قاضي القضاة لم يكن هنا، لاقتصر الحديث على رسوم الاستيراد والمستودعات المرهونة، ولما فكّرنا في الكاردينال القرمزي، ولا انشغلت عقولنا الجائعة الصائمة بأهواء الملك. استند إلى ظهر كرسيه وركّز نظره على توماس مور. في وقت معيّن هدأ الحديث. وبعد ربع ساعة لم يتحدّث فيها قاضي القضاة، قال بصوت منخفض وغازب، وهو ينظر إلى بقايا طعامه: "يطمع كاردينال يورك دائماً بالسيطرة على الآخرين".

قال بونفيزي: "سيدي، أنت تنظر إلى طعامك وكأنك تكرهه".

قال الضيف اللبق: "ما من خطب في السمك".

انحنى إلى الأمام، جاهزاً للقتال. فهو لم يكن ينوي تجاهل الموضوع. "الكاردينال هو رجل شعبي، شأنك أنت. هل يتعيّن عليه التتصّل من دور شعبي؟". نظر إليه مور قائلاً: "أجل، أجل. أظنّ أنّ عليه ذلك، قليلاً. ربّما أصبحت شهيته أقلّ وضوحاً بعض الشيء".

قال مونماوث: "فات الأوان لتلقين الكاردينال درساً في التواضع".

"لقد قام أصدقاؤه الحقيقيون بذلك منذ زمن طويل، ولكنّه تجاهلهم".

"وهل تعتبر نفسك واحداً من أصدقائه؟". استند إلى ظهر كرسيه، شابكاً ذراعيه وأضاف: "سأخبره بذلك، سيدي، وأنا واثق أنّه سيجد عزاءً فيه، وهو جالس في منفاه يتساءل لماذا افتريت عليه لدى الملك".

قام بونفيزي عن كرسيه بحدّة وقال: "أيّها السادة...".

قال: "كلّاً، اجلس. فلنتحدّث بصراحة. سيقول توماس مور: كنت لأصبح راهباً بسيطاً، ولكنّ أبي أراد أن أدخل مجال الحقوق. لكنك أمضيت حياتي في كنيسة، لو أنّ الخيار كان بيدي. فأنا، كما تعلم، لا أبالي بالثروة، بل أكرّس نفسي للمسائل الروحية. رأي الناس لا يعني لي شيئاً". نظر إلى الجالسين وقال: "إذاً، كيف أصبح قاضي القضاة؟ هل حدث ذلك بمحض الصدفة؟".

فُتح الباب، فقفز بونفيزي واقفاً، وبدت الراحة على وجهه. قال: "أهلاً وسهلاً. أيّها السادة، لقد وصل سفير الإمبراطور".

إنّه أوستاش شابوي، الذي وصل مع التحلية. كان كما يسمّيه البعض، السفير الجديد، مع أنّه في منصبه منذ الخريف. وقف عند عتبة الباب، كي يراه الجميع ويبدون إعجابهم به. كان رجلاً قصير القامة، يرتدي سترة منفوخة ذات شقّ طويل، بدا منه الساتان الأزرق من تحت القماش الأسود، وبدت من تحتها ساقاه الصغيرتان السوداوان. قال: "آسف على التأخير". ثمّ أضاف بالفرنسية: "البرقيات، البرقيات لا تتوقّف".

"تلك هي حياة السفراء". نظر إلى الأعلى، وابتسم قائلاً: "توماس كرومويل".
"آه، إنّهُ اليهودي المتشرّد!".

اعتذر السفير على الفور، وابتسم للحضور، وكأنّه أربك من نجاح مزحته.
قال بونفيزي: "اجلس، اجلس"، وأخذ الخدم يروحون ويجيئون، والمدعوون يرتّبون أماكنهم على نحو أقلّ رسمية، باستثناء قاضي القضاة الذي لم يبارح مكانه. تمّ تقديم الفاكهة الخريفية المحفوظة، والشراب، وجلس شابوي في مكان الشرف قرب مور.
قال بونفيزي: "سنتحدّث الفرنسية، أيّها السادة".

الفرنسية هي لغة سفير الإمبراطورية ولغة إسبانيا الأولى. وشأنه شأن غيره من الدبلوماسيين، لم يتكبّد عناء تعلم الإنكليزية. فعلامٌ سيساعده ذلك في منصبه التالي؟ قال: "هذا لطف منكم"، وجلس على الكرسي المحفور الذي أفرغه له مضيفه، ولكنّ قدميه لم تلامسا الأرض تماماً. حينئذ، راح مور يتحدّث إلى السفير على انفراد. راقبهما، وكانا ينظران إليه باستياء أحياناً، ولكنّ النظر مجاني.

قاطعهما في لحظة توقّف وجيزة. "سيّد شابوي؟ كنت أتحدّث مؤخراً إلى الملك عن تلك الأحداث المؤسفة، حين قامت جيوش إمبراطوركم بنهب روما. ربّما أمكنك تقديم النصيحة إلينا، فنحن لم نفهمهم بعد".

هزّ شابوي رأسه قائلاً: "كانت أحداثاً مؤسفة جداً".

"برأي توماس مور، فإنّ العناصر السريّة في جيشكم هي التي خرقت الأنظمة، آه، وبالطبع شعبي أنا أيضاً، اليهود المشرّدون. ولكن قبل هذا، قال إنّ الألمان، اللوثريين تحديداً، كانوا هم من اغتصب العذارى المسكينات ودنّس الآثار المبجلة. بجميع الأحوال وكما يقول قاضي القضاة، على الإمبراطور ألاّ يلوم إلاّ نفسه. ولكن على من نرمي الملامة؟ هل تستطيع مساعدتنا؟".

"عزيزي القاضي!، بدا السفير مصدوماً. نظر إلى توماس مور وسأله: "هل قلت ذلك عن سيّد الإمبراطور؟". ظهر الارتباك في نظرتة، ثمّ بدأ يتحدّث باللاتينية.

جلس الحضور، الذين كانوا يعرفون اللاتينية، وابتسموا له. فنصحه بمرح: "إن كنت تبغي شيئاً من السرية، فجرّب اليونانية. هيّا، سيّد شابوي، تحدّث! قاضي القضاة سيفهمك".

سرعان ما انصرف الحضور بعد ذلك، ونهض قاضي القضاة ليذهب. ولكن قبل أن يفعل، قال للحضور بالإنكليزية: "يبدو لي أنّ منصب السيّد كرومويل لا يمكن الدفاع عنه. فهو ليس صديقاً للكنيسة، كما نعلم جميعنا، بل هو صديق لكاهن واحد، وهذا الكاهن هو الأكثر فساداً في العالم المسيحي".

حيّاهم بهزّة خفيفة من رأسه، وانصرف. تبعه السفير بنظراته المرتابة وهو يعضّ شفته، وكأنّه يقول: توقّعت قدراً أكبر من المساعدة والصدّاقة هنا. لاحظ أنّ تصرفات شابوي تشبه تصرفات الممثلين. فحين يفكّر، ينظر إلى الأسفل ويضع إصبعين على جبينه. وعندما يحزن، يتنهد. أمّا إن شعر بالحيرة، فيهرّ ذقنه ويبتسم نصف ابتسامة. كان أشبه برجل دخل على نحو غير مقصود في مسرحية، ووجدتها كوميدية، فقرّر البقاء ومتابعتها حتّى النهاية.

انتهى العشاء، وانصرف المدعوون واحداً تلو الآخر مع بداية الغسق. قال ليونفيزي: "هل انصرفوا أبكر ممّا توقّعت؟".

"توماس مور هو صديق قديم، ما كان عليك المجيء ومضايقته".
"آه، هل أفسدت سهرتك؟ أنت دعوت مونماوث، ألم يكن ذلك لمضايقته؟".
"كلاً، هامفري مونماوث صديقي أيضاً".
"وماذا عنّي؟".
"بالطبع".

أخذا يتحدّثان الإيطالية على نحو طبيعي. قال: "ثمّة ما يثير فضولي. أريد أن أعرف شيئاً عن توماس ويات". كان ويات قد ذهب إلى إيطاليا، والتحق بمهمة دبلوماسية على نحو مفاجئ نوعاً ما، قبل ثلاث سنوات. أمضى هناك وقتاً عصبياً، ولكننا سنتحدّث عن ذلك في أمسية أخرى. السؤال هو، لماذا غادر البلاط الإنكليزي بتلك السرعة؟

قال بونفيزي: "آه، ويات والليدي آن. إنّها قصّة قديمة على ما أظنّ؟".
قال: "ربّما"، ولكنّه أخبره عن الصبيّ مارك، عازف المزهر، الذي بدا واثقاً أنّ ويات حصل عليها. فإن كانت القصّة تنتقل في أرجاء أوروبا، على ألسنة الخدم، ما هي احتمالات ألا يكون الملك قد سمع بها؟

قال بونفيزي: "أفترض أنه من فنّ الحكم أن تعرف متى تسدّ أذنيك. ويات هو شابّ وسيم، بحسب المقاييس الإنكليزية بالطبع. فهو طويل وأشقر، يثير عجب الرجال في بلادي. من أين تتجبن هؤلاء الأشخاص؟ كما أنه واثق من نفسه، بالطبع، وشاعر!".

سخر من صديقه، لأنه، ككلّ الإيطاليين، لا يستطيع قول ويات بشكل صحيح، بل تخرج من فمه، غويات، أو شيء من هذا القبيل. كان ثمة رجل يدعى هاوكوود، فارس من إيسيكس، معتاداً على الاغتصاب والحرق والقتل في إيطاليا، في زمن الفروسية. وكان الإيطاليون يسمّونه أكيوتو، أي الإبرة.

"أجل، ولكنّ آن..."، شعر، من حديثه عنها، أنّها لن تتأثر بشيء زائل كالجمال. "في السنوات الأخيرة، كانت بحاجة ماسة إلى زوج، إلى اسم، إلى مؤسسة، إلى مكان تستطيع الوقوف فيه والتفاوض مع الملك. والآن، أصبح ويات متزوجاً. ماذا يستطيع أن يقدم إليها؟".

أجاب التاجر: "أبيات شعر؟ لم تكن الدبلوماسية هي التي أخرجته من بريطانيا، بل رحل لأنها كانت تعذّبه. لم يعد يجرؤ على التواجد معها في غرفة واحدة، أو قصر واحد، أو بلد واحد". هزّ رأسه وأضاف: "أليس الإنكليز غريبين؟".

أجاب: "يا الله، أليسوا كذلك؟".
"عليك الاحتراس، فعائلة الليدي تضغط على الملك في مسألة حدود ما يمكن فعله. يقولون، لماذا ننتظر البابا؟ ألا يمكننا إتمام عقد زواج من دونه؟".
"قد تكون تلك الطريقة المباشرة".

"جرب إحدى هذه الحبات من اللوز المحلّى".
ابتسم. قال بونفيزي: "توماسو، هل أعطيك نصيحة؟ لقد انتهى الكاردينال".
"لا تكن واثقاً إلى هذا الحدّ".

"بلى، ولو لم تكن تحبّه، لعرفت أنّ ما أقوله صحيح".
"كان الكاردينال طيباً معي".
"ولكن عليه الرحيل شمالاً".

"سيلاحقه العالم. اسأل السفراء، اسأل شابوي. اسألهم إلى من يعطون تقاريرهم. لقد أتوا إلى إيشر وإلى ريتشموند. البرقيات لا تتوقّف. هكذا نحن".
"ولكن هذا ما يتهمونه به؟ بحكم بلد داخل بلد؟".
تنهّد قائلاً: "أعرف".

"وماذا ستفعل حيال ذلك؟".

"أطلب منه أن يكون أكثر تواضعاً؟".

ضحك بونفيزي وقال: "آه، توماس. أتعرف؟ حين يرحل الكاردينال شمالاً، ستصبح رجلاً من دون سيّد، تلك هي المسألة. أنت تقابل الملك، ولكن هذا مؤقت، إلى أن يجد طريقة لصرف الكاردينال بهدوء. ولكن ماذا بعد ذلك؟".

تردّد ثمّ قال: "الملك يُحبني".

"الملك منقلب الأهواء".

"ليس مع آن".

"هذا ما عليّ تحذيرك منه. آه، ليس بسبب غويات... ليس بسبب أيّ شائعات أو مزاعم... ولكن لأنّ كلّ هذا سينتهي قريباً... ستستسلم، فهي مجرد امرأة... فكّر كم كان سيبدو أحمق لو أنّه ربط مصيره بمصير شقيقة الليدي، التي سبقتها".

"أجل، أنت على حقّ".

جال نظره حول الغرفة. هناك جلس قاضي القضاة. إلى يساره، التجار الجياح، وإلى يمينه، السفير الجديد. هناك، جلس هامفري مونماوث، المهروطق. وهناك، أنطونيو بونفيزي. هنا، توماس كرومويل. كما وُضع مقعدان خاليان، لدوق سوفولك الضخم والأصلع، ولنورفولك الذي يهزّ قلائده ويصرخ "يا الله!". كان ثمّة مقعد للملك، وللملكة القصيرة والبدينة، الجائعة في فصل التوبة هذا، والتي يهتّر بطنها تحت درع ملابسها المنيع. وثمّة مكان لليدي آن، التي تنظر حولها بعينيها السوداوين اللتين لا تهدآن، لا تأكل شيئاً، ولا يفوتها شيء، فيما تعبت بحبّات اللؤلؤ حول عنقها الصغير. وكان ثمّة مكان لويليام تيندايل، ومكان للبابا. نظر كليمنت إلى قطع السفرجل المحلّاة، والتوت شفتاه الميديسيّتان. وهناك جلس الأخ مارتن لوثر، بجسده البدين، يحدّق إليهم جميعاً، ويبصق الحسك من فمه.

دخل خادم وقال: "سيّدي، في الخارج شابان يسألان عنك بالاسم".

رفع بصره، وسأل: "نعم؟".

"السيد ريتشارد كرومويل والسيد رايف. ومعهما خدم من منزلك، ينتظرون لاصطحابك إلى البيت".

فهم أنّ الهدف من الأمسية كان تحذيره: سيتذكّر الأماكن المشؤومة، إن تبين أنّها مشؤومة. تلك الهسهسة الناعمة، والهمس، الصادرين عن الحجر المتداعي. ذاك الصوت البعيد للجدران وهي تنزلق، والجصّ الذي يتهاوى، والأحجار التي تتحطّم

فوق الجماجم البشرية. كان ذاك صوت سقف العالم المسيحي، يتهاوى على رؤوس الناس.

قال بونفيزي: "لديك جيش خاص، توماسو. أظنّ أنّ عليك الانتباه إلى نفسك".
"تعرف أنّي أفعل". وجالت نظرتة في الغرفة مرّة أخيرة. "ليلة سعيدة. كان عشاءً شهياً، وقد أحببت السمك. هلاً أرسلت طبّاخك ليرى طبّاخي؟ لديّ صلصة جديدة شهية. فالمرء يحتاج إلى جوز الطيب والزنجبيل، وبعض أوراق النعناع المقطّعة...".
قال صديقه: "أرجوك، أتوسّل إليك أن تكون حذراً".
"... القليل، القليل جدّاً من الثوم...".
"أينما تناولت العشاء في المرّة التالية، أرجو ألا...".
"... ومن الخبز المحمّص، حفنة صغيرة...".
"... تجلس مع آل بولين".

كرومويل المحبوب جداً

الربيع - كانون الأول/ديسمبر 1530

وصل باكراً إلى قصر يورك. كانت طيور النورس المعذبة، المحبوسة في أقفاصها، تصرخ لأخواتها الحرّة على ضفاف النهر، التي تدور وهي تصرخ وتغطس عند جدران القصر. كان سائقو العربات ينقلون البضائع الآتية من النهر، وكانت باحات القصر عابقة برائحة الخبز الساخن. راح بعض الأطفال يحضرون باقات من نبات الأسل الطازج، ويحيونه باسمه. فأعطى كلّ واحد منهم قطعة نقدية، مكافأة على لياقتهم، وتوقفوا للتحدّث إليه. "إذاً، هل أنت ذاهب لرؤية السيّدة الشريرة. لقد سحرت الملك، هل تعلم ذلك؟ هل لديك قلادة أو تميمة لحمايتك، سيّدي؟".

"كانت لديّ قلادة، ولكنني أضعتها".

قال أحد الأطفال: "عليك أن تطلب من كاردينالنا أن يعطيك واحدة أخرى". فاحت رائحة الأسل الأخضر، حادّة وقوية، وبدا الصباح جميلاً. كانت غرف قصر يورك مألوفة لديه، وحين مرّ بإحدى الغرف الداخلية، رأى وجهاً شبه مألوف، وقال: "مارك؟".

ابتعد الشاب عن الجدار الذي كان يسند ظهره إليه. "استيقظت باكراً، كيف حالك؟".

اكتفى بهزّ كتفيه بعبوس.

"لا بدّ من أنّ العودة إلى قصر يورك، بعد كلّ هذه التغييرات التي طرأت، تبدو غريبة".
"كلّاً".

"ألا تعتقد إلى سيّدي الكاردينال؟".
"كلّاً".

"هل أنت سعيد؟".

"أجل".

"سيّسر سيّدي بمعرفة ذلك". وقال في نفسه، وهو يبتعد: ربّما كنت لا تفكّر فينا إطلاقاً يا مارك، ولكننا نفكّر فيك. أو على الأقلّ، أنا أفعل، أفكّر فيك وأنت تتعتني بالمجرم وتتوقّع موتي. صحيح أنّ الكاردينال يقول دائماً، ما من أماكن آمنة، ولا غرف معزولة، ولا فرق بين الوقوف على تشيبسايد والصراخ بأعلى صوتك بخطاياك

أو الاعتراف لكاهن في أيّ مكان من إنكلترا. ولكن حين تحدّثت إلى الكاردينال عن القتل، حين رأيت ظلّاً على الجدار، لم يكن ثمّة من يسمع. بالتالي، إن كان مارك يحسبني مجرماً، فهذا لأنّه يظنّ أنّي أبدو كذلك وحسب.

ثماني حجات للانتظار: في آخر حجرة منها، حيث يجب أن يكون الكاردينال، وجد أن بولين. ها هي صورة الملك والملكة قد علقّت مجدّداً على الجدار. كانت الملكة تميل نحوه، وردية وممتلئة، فتعرّف إليها: أنسيلما، امرأة الصوف، ظننت أنّي لن أراك مجدّداً.

كان قد بعث برسالة سرّية إلى أنتويرب ليتحصّى أخبارها. فقال له ستيفن فوغان إنّ أنسيلما تزوّجت، ومن رجل أصغر سنّاً، مصرفيّ. فقال له، إن غرق أو أصابه شيء ما، أخبرني. فكتب له فوغان: توماس، ماذا دهاك، أليست إنكلترا مليئة بالأرامل، وبالفتيات الشابات؟

هذه الملكة جعلت أن تبدو شاحبة وحادّة. كانت تقف قرب النافذة، وتعبث بعُصين من إكليل الجبل بأصابعها. حين رآته، أوقعت العُصين واختبأت يداها مجدّداً في أكمامها الطويلة.

أقام الملك في كانون الثاني/يناير مأدبة احتفالية لمناسبة نيل أبيها منصب إيرل ويلتشاير. وبما أنّ الملكة كانت في مكان آخر، جلست آن في المكان الذي ينبغي أن تجلس فيه كاثرين، فتوتّرت الأجواء. وصل الخبر لاحقاً إلى منزل وولزي. كانت دوقة نورفولك (الغاضبة دائماً من شيء ما) غاضبة لأنّ ابنة أختها لا تملك الأسبقية. أمّا دوقة سوفولك، شقيقة هنري، فرفضت تناول الطعام. ولم تتحدّث أيّ من هاتين السيّدتين العظيمتين إلى ابنة بولين. مع ذلك، احتلّت آن مكانها كسيّدة المملكة الأولى.

ولكنّ الصوم انتهى الآن، وعاد هنري إلى زوجته. فهو لا يجرؤ على مرافقة عشيقته مع اقتراب أسبوع الآلام. كان والدها في الخارج، في مهامّ دبلوماسية، وكذلك شقيقها جورج، الذي أصبح لورد روتشפורد. كما أنّ توماس ويات، ذاك الشاعر الذي عدّبتّه، كان غائباً هو أيضاً. هكذا، وجدت نفسها وحيدة وضجّرة في قصر يورك، فأرسلت بطلب توماس كرومويل لترى ما إذا كان يستطيع أن يقدّم إليها شيئاً من التسلية.

خرجت من تحت تنوّرتها ثلاثة كلاب صغيرة واندفعت نحوه وهي تنبح. قالت آن: "لا تدعها تخرج"، فحملها بيديه اللطيفتين الخبيرتين. كانت الكلاب تشبه بيلاً، بأذنانها

وذيلها الصغيرة، من النوع الذي ترغب زوجة أيّ تاجر في تربيته. وإلى أن أعادها إليها، كانت قد عضت أصابعه ومعطفه، ولعقت وجهه ونظرت إليه بأعينها الجاحظة، وكأنّها تآقت طويلاً إلى رؤيته.

وضع اثنين منها بلطف على الأرض، وأعطى آن أصغرها. قالت له بالفرنسية: "أنت لطيف". ثم تابعت بلغتها: "وكم يحبّك صغاري! أنا لم أحبّ تلك القردة التي تحتفظ بها كاثرين. تلك القردة الموثوقة، بأيديها الصغيرة وأعناقها المقيدة. صغاري يحبونني لما أنا عليه".

بدأت صغيرة جداً. عظامها دقيقة، وخصرها نحيلاً جداً. وإن كان طالبا حقوق يشغلان كاردينالاً واحداً، فإنّ اثنين من آن يشغلان كاثرين واحدة. كان ثمة نساء عدّة جالسات على مقاعد منخفضة، يظنّ أو يتظاهرن بالخياطة. كانت بينهنّ ماري بولين، التي أبقت رأسها منخفضة. وكانت بينهنّ أيضاً ماري شيلتون، وهي من قريبات بولين، امرأة جريئة، بيضاء ووردية، تفحصته بنظراتها، ومن الواضح أنّها قالت في نفسها: ربّاه، هذا أفضل ما ظنّت الليدي كاري أنّها تستطيع الحصول عليه؟ وفي الظلّ، كانت ثمة فتاة أخرى، أدارت وجهها إلى الجانب الآخر، محاولةً الاختباء. لم يكن يعرف من هي، ولكنه فهم لماذا تنظر إلى الأرض. بدا أنّ تدفع المرء على ذلك، فبعد أن وضع الكلاب من يديه، فعل الشيء نفسه.

قالت آن بلطف: "ألور (إذاً)، فجأة، أصبحت محور كلّ شيء. الملك لا يكفّ عن اقتباس أقوال السيّد كرومويل". ذكرت اسمه وكأنّها تجد صعوبة في التحدّث بالإنكليزية: كريمةويل. "إنّه محقّ، إنّه محقّ في كلّ ما يقوله... أيضاً، يجب ألاّ ننسى، مستر كريمةويل يضحكنا".

"أرى أنّ الملك يضحك أحياناً. ولكن، ماذا عنك سيّدي؟ في هذا الوضع الذي أنت فيه؟".

ألقت نظرة كئيبة من فوق كتفها. "أنا نادراً ما أضحك. ولكنني لم أفكّر في ذلك".
"هذا ما أصبحت عليه حياتك".

تساقطت الأوراق الجافة والأغصان على ثوبها. حدّقت إلى سماء الصباح.
قال: "اسمحي لي بسؤالك، منذ أن جرّد الكاردينال من مكانته، كم من التقدّم أحرزت في قضيتك؟".

"لم أحرز أيّ تقدّم".
"لا أحد يفهم ما يدور في البلدان المسيحية مثل سيّدي الكاردينال. إنّه أكثر

الأشخاص قرباً من الملوك. فكّري كم سيكون مديناً لك، ليدي آن، لو أنّك عملتِ على إزالة سوء التفاهم وأرجعته إلى حظوة الملك".

لم تجب بشيء.

قال: "فكّري. إنّ الرجل الوحيد في إنكلترا الذي يستطيع مساعدتك على الحصول على ما تريدينه".

"جيد. دافع عنه، لديك خمس دقائق".

"هذا لأنك مشغولة فعلاً كما أرى".

نظرت إليه آن بنفور، وتحدّثت بالفرنسية قائلةً: "من أين لك أن تعرف كيف أشغل وقتي؟".

"سيدتي، هل سنتحدّث بالإنكليزية أم الفرنسية؟ الخيار لك، ولكن، لنختَر إحداهما، ما رأيك؟".

رأى حركة من زاوية عينه. فقد رفعت الفتاة شبه المختبئة رأسها. كانت عادية وشاحبة، وبدت عليها الصدمة.

سألته آن: "هل الأمر سهل عندك؟".

"أجل".

"حسناً، بالفرنسية".

أخبرها مجدداً أنّ الكاردينال هو الرجل الوحيد الذي يستطيع الحصول على حكم جيد من البابا. إنّ الرجل الوحيد الذي يستطيع إراحة ضمير الملك تماماً.

أصغت إليه. لطالما تساءل عن مدى حسن سمع النساء تحت أوشحتهن وقبعاتهن، ولكنّ آن أعطته الانطباع أنّها تسمع ما يقوله. انتظرت حتى يُنهي كلامه على الأقلّ.

لم تقاطعه، إلى أن قالت أخيراً: إذاً، إن كان الملك يريد ذلك، والكاردينال يريد ذلك، أرى أنّ الأمر استغرق وقتاً طويلاً، مستر كريمويل! أضافت شقيقتها من مكانها،

بصوت بالكاد كان مسموعاً: "كما أنّها لا تزداد شباباً".

لم تضيف النساء قطبة واحدة منذ أن دخل إلى الغرفة.

سألها، محاولاً إقناعها: "هل أستطيع المتابعة، هل لي بدقيقة بعد".

"آه أجل، ولكن دقيقة واحدة فقط. ففي فترة الصوم، يقلّ صبري".

طلب منها ألا تصغي إلى المفترين الذين ادّعوا أنّ الكاردينال أعاق قضيتها.

أخبرها كم يحزن الكاردينال على عدم نيل الملك مراده، والذي هو مراد الكاردينال أيضاً. أخبرها كيف أنّ جميع رعية الملك يعلّقون آمالهم عليها، لإنجاب وليّ للعهد،

وكيف أنه واثق من أنهم محقون في ذلك. ونكّرها بالرسائل العديدة التي أرسلتها إلى الكاردينال في ما مضى، والتي يحتفظ بها كلها في ملف خاصّ. قالت حين أنهى كلامه: "جميل جدّاً، جميل جدّاً، سيّد كرومويل، ولكن حاول مجدّداً. فثمة أمر واحد، أمر بسيط واحد طلبناه من الكاردينال، ولم يقبل به. أمر بسيط واحد".

"تعلمين أنه لم يكن بتلك البساطة".

قالت: "ربّما كنتُ شخصاً بسيطاً. هل تجدني كذلك؟".

"ربّما كنتِ كذلك، فأنا بالكاد أعرفك".

أغضبها الجواب، ورأى شقيقتها تتكلف الابتسام. قالت له آن: "يمكنك الانصراف"، فقفزت ماري على أثره.

مرّة أخرى رأى خدي ماري متورّدين وشفتيها منفرجتين. أحضرت معها قطعة القماش التي تقوم بتطريزها، وهذا ما اعتبره أمراً غريباً. ولكن، ربّما لو تركتها خلفها، لسحبت آن القطب. "أنتِ تلهئين مجدّداً، ليدي كاري؟". "ظننا أنها ستجري خلفك وتصفحك. هل ستأتي مجدّداً؟ أنا وشيلتون نتوق إلى ذلك".

قال: "تستطيع احتمال ذلك"، وقالت ماري، إنّ أختها تحبّ أن تتناوش مع شخص بمستواها. سألتها، ماذا تطرّز، وأرته عملها. كان شعار النبالة الجديد الخاصّ بآن. قال: "أفترض أنها تطرّزه على كلّ شيء"، فابتسمت ابتسامة عريضة وأجابت: "آه أجل، على تتانيرها، ومناديلها، وأوشحتها. لديها ملابس لم يسبق لأحد أن ارتداها من قبل، لمجرّد أن تطرّز عليها شعارها، هذا من دون ذكر السجّاد المعلق على الجدران، وأغطية الطاولة...".

"وكيف حالك؟".

نظرت إلى الأسفل، وابتعد نظرها عنه. "منهكة، متعبة. كان الميلاد...".

"سمعت أنّهما تشاجرا".

"تشاجر أولاً مع كاثرين، ثمّ أتى بحثاً عن التعاطف هنا. ولكنّ آن قالت له، ماذا! قلت لك ألاّ تشاجر مع كاثرين، تعرف أنّك تخسر دائماً. لو لم يكن ملكاً، لبدا مثيراً للمشفقة. حياته بينهما أشبه بحياة كلب".

"وصلتني شائعات أنّ آن...".

"أجل، ولكنّها غير صحيحة. لكنّك أوّل من يعرف. لو ازداد مقاسها إنشاً (2.5)

سم) واحداً، أنا من ستتخلص من ملابسها. أضف إلى أن هذا غير ممكن، لأنهما لا يفعلان. لم يفعلًا".

"وهل ستخبرك لو حدث شيء بينهما؟".

"بالطبع، نكاية بي!". مع ذلك، لم تنظر ماري إلى عينيه مباشرةً. ولكن يبدو أنها شعرت أنها تدين له بمعلومات. "عندما يكونان بمفردهما، تسمح له بفكّ الجزء الأعلى من ثوبها".

"على الأقلّ، لا يناديك لفعل ذلك".

"يحتضنها ويقبلها".

"أهنئه، إن سمحت له".

ضحكت ماري ضحكة خبيثة. وبدا أنها كانت مسموعة، لأنّ الباب فُتح على الفور تقريباً وظهرت فيه الفتاة الصغيرة التي كانت مختبئة. بدت ملامحها جادة ومتحفظة تماماً. كانت بشرتها صافية إلى حدّ الشفافية تقريباً. قالت: "ليدي كاري، الليدي آن تريدك".

لفظت اسميهما وكأنّها تعرّف صرارين إلى بعضهما.

قالت ماري بصوت لاذع: "آه، ربّاه!". واستدارت على عقبيها، ملوحةً بتورتها الطويلة خلفها ببراعة.

فوجئ حين التقى نظره بالفتاة الصغيرة الشاحبة، التي رفعت عينها إلى السماء خلف ظهر ماري بولين.

عندما مرّ مجدداً من أمام غرف الانتظار الثماني، عائداً أدراجه، عرف أن آن وقفت في مكان يستطيع رؤيتها منه، كان نور الصباح يضيء عنقها الطويل. رأى حاجبيها المقوسين، وابتسامتها، ورأسها المستدير فوق عنقها النحيل. رأى سرعتها، وذكاءها، وقسوتها. لم يكن يظنّ أنّها ستساعد الكاردينال، ولكن ماذا سيخسر بالسؤال؟ قال في نفسه: إنه أول اقتراح أعرضه عليها، وعلى الأرجح، لن يكون الأخير.

في لحظة معيّنة، أعطته آن كلّ انتباهها، ورأى نظرتها القائمة الثاقبة. الملك، هو أيضاً، كان يعرف كيف ينظر، بعينه الزرقاوين الخدّاعتين. أهكذا كانا ينظران إلى بعضهما بعضاً؟ أم بشكل آخر؟ لم يكن يفهم تماماً. وقف قرب إحدى النوافذ، وحطّ سرب من الطيور بين الأشجار العالية. فتحت الطيور أجنحتها السوداء، وبدأت ترفرف وترقزق، محرّكة كلّ ما حولها، الهواء، الأجنحة، مثل نوتات موسيقية سوداء.

أدرك أنه يراقبها مستمتعاً، وأن شيئاً مختلفاً تقريباً، وكأنه حركة صغيرة نحو المستقبل، أصبح مستعداً لاستقبال الربيع. كان يتوق إلى الفصح على نحو يائس، وانتهاء فترة الصوم والتوبة. ثمّة عالم خلف هذا العالم الأسود، هو عالم الممكن. العالم الذي تستطيع فيه أن تصبح ملكة، هو العالم الذي يستطيع فيه كرومويل أن يكون كرومويل. كان يظهر ثمّ يختفي. لحظة هاربة، لا يمكن استعادتها مجدداً. فمن غير الممكن العودة إلى اللحظة التي كنت فيها من قبل.

في فترة الصوم، ثمّة جزّارون يبيعونك لحماً أحمر، إن عرفت أين تذهب. في أوستن فرايرز، ذهب للتحدّث إلى الطهاة، وقال لرئيسهم: "الكاردينال مريض، وهو معفى من الصوم".

رفع الطاهي قبّعته وسأل: "من قبل البابا؟".
"بل من قبلي أنا". مرّ بنظره على صفّ السكاكين الموضوعة في أماكنها، والسواطير المخصّصة لكسر العظام. تناول أحدها، ونظر إلى نصله، وقرّر أنّه بحاجة إلى سنّ، ثمّ قال: "هل تظنّ أنّي أبدو مجرماً؟ برأيك أنت؟".

بعد شيء من الصمت، قال ثورستون: "في هذه اللحظة، سيّدي، عليّ القول...".
"كلاً، بل افترض أنّي ذاهب إلى غرايز إن... هل تستطيع تخيل الصورة؟ أحمل ملفاً من الأوراق ومحبرة؟".

"أفترض بالفعل أنّ كاتباً يحمل هذه الأشياء".

"إذاً، لا تستطيع تخيل الصورة؟".

رفع ثورستون قبّعته مجدداً وقلبها إلى الخارج. نظر إليها وكأنّ دماغه قد يكون موجوداً فيها، أو على الأقلّ شيئاً ما يلهمه بما يجيب. "أرى كيف يمكن أن تبدو كمحام. ليس كمجرم، لا. ولكن إن تسامحني، سيّدي، أنت تبدو دائماً مثل رجل يعرف كيف يقطع ذبيحة".

طلب من الطهاة إعداد الزيتون بلحم البقر للكاردينال، محشواً بالمرمية والمردقوش، ومرتباً بعناية جنباً إلى جنب في الصواني، بحيث لا يحتاج الطهاة في ريتشموند سوى إلى خبزه. "أرني أين ينهى الكتاب المقدّس عن أكل لحم البقر بالزيتون في أذار/مارس".

فكّر في الليدي آن، وميلها إلى الشجار، وفكّر في السيّدات الكئيبات من حولها. أرسل إلى تلك السيدات سلالاً مسطّحة تحتوي على قطع كعك صغيرة، مصنوعة من البرتقال المحفوظ والعسل. وأرسل إلى آن طبقاً من قشدة اللوز. كانت منكّهة بماء

الورد ومزينة ببتللات الورد المحفوظة والبنفسج المحلى. خرج حاملاً الطعام بنفسه. لم تمض سنوات عديدة منذ أن كان في مطبخ فريسكوبالدي في فلورنسا، أو ربّما بلى. ولكن ذكرياته واضحة ودقيقة. كان ينظف قائمة عجل، وهو يثرثر بلغته التي كانت مزيجاً من الفرنسية والتوسكانية ولهجة أهل بوتني، حين ناداه أحدهم: "توماسو، يريدونك في الأعلى". هزّ رأسه بلا عجلة لصبيّ يعمل في المطبخ، أحضر له حوضاً من الماء. غسل يديه، وجفّفهما بفضة، ثمّ خلع منزره وعلقه على أحد الأوتاد. كان يعلم أنّها لا تزال هناك.

رأى شاباً، أصغر منه، راكعاً على يديه وركبتيه، ينظف الدرج. كان يغني وهو يعمل:

**Sacramella va alla guerracolla lancia et la roltellala zombero boro borombetta,la"
"...boro borombo**

قال له: "لو سمحت، جاكومو". ابتعد جانباً ليتيح له المرور. تغيّر اتجاه الضوء، فمسح الفضول عن وجهه، وسلبه لونه، فاختفى الماضي في الماضي، واتّضح المستقبل. ساكراميللا ذهب إلى الحرب... ولكن، أنا كنت في الحرب.

صعد إلى الطابق العلوي، وكانت أذناه ترنّاناً بأنغام الأغنية العسكرية. صعد إلى الأعلى ولم ينزل أبداً. ففي زاوية من مكتب فريسكوبالدي للمحاسبة، كان ثمة طاولة بانتظاره. أخذ يدندن، ساكراميللا ذهب يمرح. وقد أخذ مكانه. تناول ريشة، واعتملت في رأسه أفكار بالتوسكانية والبوتنية والكاستيلية. ولكن حين نقلها إلى الورق، خرجت باللاتينية وبسلاسة متناهية.

حتى قبل أن يخرج من المطبخ في أوستن فرايرز، كانت نساء المنزل يعرفن أنّه ذهب لرؤية آن.

سألته جوان: "إذاً، طويلة أم قصيرة؟".

"لا هذا ولا ذاك".

"سمعت أنّها طويلة جداً. وشاحبة، أليس كذلك؟".

"أجل، شاحبة".

"يقال إنّها بارعة في الرقص".

"لم نرقص".

قالت ميرسي: "ولكن ما رأيك؟ أهي متديّنة؟".

هزّ كتفيه مجيباً: "لم نصل".

سألته أليس، ابنة أخته الصغيرة: "ماذا كانت ترتدي؟".
"آه، يمكنني إخباركّ بذلك". راح يقيّم ثمن ملابسها ومصدرها، من رأسها حتّى
أخمص قدميها. كانت آن تعتمر قبّعة فرنسية الطراز، وكانت حافتها المستديرة تحيط
بعظام وجهها الرقيقة. شرح لهنّ ذلك، ومع أنّ نبرته كانت باردة وتجارية، إلّا أنّها لم
تعجب النساء.

قالت أليس: "لا تعجبك، أليس كذلك؟"، فأجابها أنّه ليس مطلوباً منه تكوين رأي
عنها، ولا منك أيضاً، يا أليس، واحتضنها وهي تضحك. قالت الصغيرة جو، سيّدنا
حسن المزاج اليوم. قالت جوان، أظنّ أنّك كنت على مقربة منها.
قالت ميرسي: "هل أسنانها جيّدة؟".
"بالله عليك، يا امرأة، حين تغرزها في جلدي سأخبرك".

حين سمع الكاردينال أنّ دوق نورفولك سيأتي إلى ريتشموند ليقطّعه بأسنانه،
ضحك وقال: "توماس، حان وقت الرحيل".

ولكن من أجل الرحيل شمالاً، يحتاج الكاردينال إلى المال. رُفعت المشكلة إلى
مجلس الملك، الذي واصل الجدل في جلسته. قال تشارلز براندون: "في النهاية، لا
يمكن طرد أسقف وكأنّه خادم سرق الملاعق".

قال نورفولك: "لقد سرق أكثر من الملاعق. التهم عشاءً يُطعم إنكلترا بأسرها، سرق
أغطية الطاولات، وترك القبو جافاً من الشراب".

يعرف الملك أحياناً كيف يتملّص. ففي أحد الأيام، وكان يظنّ أنّه على موعد مع
هنري، وجد نفسه مع وزيره عوضاً منه. قال غاردينر: "اجلس، اجلس وأصغ إليّ.
أمسك أعصابك وكن صبوراً بينما أوضح لك بعض المسائل".

راقبه وهو يروح ويجيء. كانت أمارات وجهه الشريرة تفيض بالتهديد. كان غاردينر
يتمتّع بيدين كبيرتين مكسوّتين بالشعر، وكانت براجم أصابعه تططق حين يضمّ
قبضة يده اليمنى في كفّه اليسرى.

وصله التهديد والرسالة. وقف عند الباب، وقال بلطف: "أحمل لك سلاماً من
قريبك". حدّق إليه غاردينر. انتصب شعر حاجبيه، مثل شعر كلب. فكّر في أنّ
كرومويل يعني...

قال بنبرة مهدّئة: "ليس الملك، ليس جلالته. بل أعني قريبك ريتشارد ويليامز".

قال غاردينر مذهولاً: "تلك القصة القديمة!".

قال: "آه، هيّا، ليس معيباً أن تكون ابناً ملكياً غير شرعي، أو على الأقلّ، هكذا

نظنّ في عائلتي".

"في عائلتك؟ ماذا يعرفون عن اللياقة؟ أنا لست مهتمّاً لهذا الشابّ ولا أعترف بأيّ قرابة بيني وبينه، كما أنّي لن أفعل له شيئاً".

"أنت لست بحاجة إلى ذلك. فقد أصبح يسمّي نفسه ريتشارد كرومويل الآن".
وبينما كان ذاهباً، فعلاً هذه المرّة، أضاف: "لا تجعل الأمر يؤرّقك، ستيفن. لقد سبق ومررتُ بذلك. ربّما كان ثمّة قرابة تربطك بريتشارد، ولكن ليس بي".

ابتسم، ولكنّه كان يغلي غضباً من الداخل، وكأنّ دمه كان رقيقاً ومليئاً بالسّم، مثل دم الثعبان الذي لا لون له. ما إن وصل إلى منزله في أوستن فرايرز، حتّى احتضن رايف سادلر جاعلاً جسده يقشعر. "ربّاه، ربّاه، صبيّ هذا أم قنفذ؟ رايف، ريتشارد، أشعر بالندم".

قال رايف: "إنّه الموسم".

قال: "أريد أن أصبح هادئاً تماماً. أريد أن أكون قادراً على دخول القنّ من دون إثارة ريش الدجاج. أريد أن أكون أقلّ شبهاً بالخال نورفولك وأكثر شبهاً بمارلينسبايك".

تحدّث طويلاً بالويلزية مع ريتشارد، الذي راح يضحك لأنّه لم يعد يذكر الكلمات القديمة، بل يميل شيئاً فشيئاً إلى التحدّث بالإنكليزية المشوبة بلكنة سكان الحدود. أعطى بنات أخته الصغيرات أساور اللؤلؤ والمرجان التي اشتراها لهنّ قبل أسابيع، ولكنّه نسيّ تقديمها إليهنّ. نزل إلى المطبخ وأعطاهم بعض الاقتراحات، وكانوا جميعاً مسرورين.

دعا عمّال بيته وكتبته إلى الاجتماع. قال: "علينا التخطيط كي تكون رحلة الكاردينال شمالاً مريحة. يريد التقدّم ببطء ليتمكّن الناس من رؤيته. وعليه الوصول إلى بيتربورو في أسبوع الآلام، ومن هناك ينتقل على مراحل إلى ساوثويل، ومنها سيخطّط لرحلته إلى يورك. يحتوي قصر رئيس الأساقفة في ساوثويل على غرف جيّدة، ولكننا قد نحتاج مع ذلك إلى بنائين...".

كان جورج كافنديش قد أخبره أنّ الكاردينال اعتاد على تمضية بعض الوقت في الصلاة. ثمّة رهبان في ريتشموند سعى إلى مرافقتهم، وراحوا يخبرونه بقيمة الأشواك في الجلد، والملح على الجرح، وحسنات الخبز والماء والجلد الذاتي. قال منزعجاً: "آه، هذا يكفي، علينا الرحيل. سيكون أفضل حالاً في يوركشاير".

قال لنورفولك: "حسناً، سيّدي اللورد، كيف نفعل ذلك؟ هل تريده أن يرحل أم لا؟

بلى؟ إذاً، تعالَ معي لرؤية الملك".

انزعج نورفولك. بُعثت الرسائل، وبعد يوم تقريباً، وجدا نفسيهما معاً في غرفة انتظار. انتظرا، بينما أخذ نورفولك يسير بعصبية. قال الدوق: "آه، حباً بالله! هل لنا ببعض الهواء المنعش؟ أم أنكم لا تحتاجون إليه أنتم المحامون؟".

أخذاً يتنزّهان في الحديقة، أو بالأحرى كان هو يتنزّه، بينما يضرب الدوق الأرض بقدميه. سأله قائلاً: "متى تتفتّح الأزهار؟ حين كنت صبياً صغيراً، لم يكن لدينا أزهار أبداً. بوكينغهام هو الذي أتى بهذا الطراز من الحدائق. ربّاه، كم كان رفيع الذوق!".

كان دوق بوكينغهام جنائياً بارعاً، ولكنّه عُوقِب على خيانتة بقطع رأسه. حدث ذلك عام 1521، أي قبل أقلّ من عشر سنوات. بدا من المحزن ذكر ذلك الآن، في هذا الجوّ الربيعي، الذي تزقزق فيه الطيور في كلّ مكان.

تمّ استدعاؤهما. في طريقيهما إلى المقابلة، راح الدوق يتوقّف متردداً، ينظر إلى الأعلى، بينما تخرج أنفاسه قصيرة. حين وضع الدوق يده على كتفه، اضطرّ إلى تخفيف سرعته. فراحا يجزّان أقدامهما، بينما يقاوم رغبته في نزع يده عن كتفه، إذ شعر وكأنّهما محاربين قديمين في موكب للمتسوّلين. ساكراميلاً ذهب إلى الحرب... كانت يد نورفولك ترتجف.

لم يفهم تماماً كم يتأثر الدوق العجوز بوجوده في غرفة واحدة مع هنري تيودور إلاّ حين أصبح في حضرة الملك. كان الحضور الملكي المذهّب يجعله ينكمش في ملبسه. حيّاهما هنري بمودة. قال إنّهُ يوم رائع وعالم رائع جداً. راح يدور في الغرفة فاتحاً ذراعيه وملقياً بعض الأبيات التي ألفها بنفسه. كان مستعداً للتحدّث عن أيّ شيء، باستثناء الكاردينال. احمرّ وجه نورفولك غضباً، وبدأ يتمتم. صرفهما هنري، وبدأ يتراجعان عائدين، إلاّ أنّه ناداه قائلاً: "آه، كرومويل...".

تبادل هو والدوق النظرات. تتمم الدوق: "حباً بالله...".

وضع يده خلف ظهره وأشار إليه بالذهاب، قائلاً إنّهُ سيتحدّث إليه لاحقاً. وقف هنري شابكاً ذراعيه، ينظر إلى الأرض. لم يقل شيئاً، إلى أن اقترب كرومويل. همس هنري: "ألف باوند؟".

كان على وشك أن يقول إنّها بداية للعشرة آلاف التي تدين بها على حدّ علمي للكاردينال منذ عقد من الزمن.

ولكنّه لم يقل شيئاً بالطبع. ففي لحظات كتلك، يتوقّع منك هنري أن تجثو على ركبتيك، أكنت دوقاً، أم إيرلاً، أم شخصاً من العامة، نحيلاً كنت أم سميناً، عجوزاً

كنت أم شاباً. وهذا ما فعله. شعر بندوب جسده تتمدد. في الواقع، قلّة منّا يبلغون الأربعين من دون أن يملكو ندوباً. أشار إليه الملك، يمكنك الوقوف. أضاف بنبرة فضولية: "يبدو أنّه ثمة صداقة بينك وبين الدوق نورفولك".

كان يعني اليد التي وضعها على كتفه. الارتجاف الخفيف وغير المتوقع ليد دوق على كتف شخص من العامة. قال: "الدوق حريص على الحفاظ على الفوارق الطبقيّة". بدا هنري مرتاحاً.

هنا خطرت له فكرة. ماذا لو حدث وسقطت مريضاً، يا هنري تيودور، عند قدمي؟ هل من المسموح لي رفعك عن الأرض أم عليّ الإرسال بطلب إيرل ليفعل ذلك؟ أو أسقف؟

ابتعد هنري، ثم التفت وقال بصوت منخفض: "أفتقد إلى كاردينال يورك كلّ يوم". صمت ثم أضاف هامساً: "خذ المال مع مباركتنا. لا تخبر الدوق بذلك، ولا تخبر أيّاً كان. اطلب من سيّدك الصلاة من أجلي، وقل له إنّ هذا أفضل ما يمكنني فعله". كان الشكر الذي قدّمه إليه، وهو ما زال راکعاً، فصيحاً وموسّعاً. نظر إليه هنري وقال: "ربّاه، سيّد كرومويل، أنت بارع في الكلام، أليس كذلك؟".

خرج بوجه متماسك، وكان يقاوم الرغبة في الابتسام. ساكراميلاً ذهب ليمرح... "أفتقد إلى كاردينال يورك كلّ يوم".

سأله نورفولك: "ماذا، ماذا، ماذا قال؟". أجاب: "آه، لا شيء. مجرد بضع كلمات خاصّة أراد منّي نقلها إلى الكاردينال".

* * *

وُضع مخطّط الرحلة. حُمّلت أغراض الكاردينال على مراكب لتؤخذ إلى هول، ومن هناك إلى اليايسة. وقام هو بنفسه بمساومة أصحاب المراكب للحصول على سعر معقول.

قال لريتشارد: "ألف باوند ليس بالمبلغ الكبير إن كنت تحاول نقل كاردينال". سأله ريتشارد: "وكم وضعت من مالك في هذه العملية؟".

قال: "بعض الديون لا ينبغي تسجيلها أبداً. أنا نفسي، أعرف ما هو متوجّب عليّ، ولكنني أعرف أيضاً ما أدين به". سأل كافنديش: "كم من الخدم يصطحب معه؟". "فقط مئة وستين خادماً".

"فقط". هزّ رأسه. "صحيح". هاندون. رويستون. هانتينغدون. بيتيربورو. كان قد سبقه عدد من الرجال مع تعليمات محدّدة.

في تلك الليلة الأخيرة، أعطاه وولزي مغلفاً. كان في داخله شيء صغير وصلب، إمّا ختم أو خاتم. "افتحه بعد رحيلي".

كان الناس يدخلون ويخرجون من غرفة الكاردينال، يحملون الصناديق ووزم الأوراق. مرّ كافنديش حاملاً وعاء قربان فضّي. سأله الكاردينال: "هل ستأتي شمالاً؟".

"سأتي لإحضارك حالما يستدعيك الملك". كان يعتقد ولا يعتقد أنّ هذا سيحدث. وقف الكاردينال. كان الجوّ متوتراً. ركع كرومويل لينال بركته. فمدّ الكاردينال يده ليقبّلها. كان خاتمه الفيروزي غير موجود، ولم يفته ذلك. بقيت يد الكاردينال على كتفه للحظة، أصابعه ممدودة، وإبهامه في الفجوة تحت عنقه.

حان وقت الرحيل. قيل بينهما كلام كثير بحيث لم يعد ثمة حاجة إلى إضافة ملاحظات هامشية، والوقت لم يكن مناسباً ليحتضنا بعضهما. فإن لم يكن لدى الكاردينال ما يضيفه، بالطبع لن يكون لديه ما يقوله. قبل أن يبلغ الكاردينال الباب، استدار نحو الموقد. جرّ كرسيّاً باتجاه النار، ورفع يده لتغطية وجهه، ولكنّ يده لم تكن بينه وبين النار، بل بينه وبين الباب المنغلق.

وصل إلى الباحة. ترنّح، ثمّ اتكأ على الجدار في زاوية مظلمة، وراح يبكي. قال في نفسه: لن أدع جورج كافنديش يأتي ويراني، ثمّ يكتب عني مسرحية.

راح يشتم بلغات عديدة، كان الخدم يمزّون قائلين: "جواد مستر كرومويل هنا! عربة مستر كرومويل عند البوابة!". انتظر إلى أن سيطر على نفسه، ثمّ خرج وهو يوزّع القطع المعدنية.

لدى وصوله إلى البيت، سأله الخدم ما إذا كان يتعيّن عليهم إزالة شعار الكاردينال. ولكنّه أجاب: "كلاً، بل على العكس، أعيّدوا طلاءه". وقف لإلقاء نظرة. "يمكن للغربان أن تبدو أكثر حياةً. كما يمكننا استعمال لون قرمزي أفضل للقبعة". بالكاد استطاع النوم. حلم بليز وتساءل ما إذا كانت ستعرفه، ما إذا كانت ستعرف الرجل الذي سيصبح عليه قريباً: عنيداً، لطيفاً، محافظاً على سلام الملك.

غفا عند الفجر، واستيقظ وهو يفكّر في أنّ الكاردينال يمتطي حصانه الآن. لماذا لست معه؟ كانوا في الخامس من نيسان/إبريل. لاقته جوان على السلم وقبّلت خدّه.

همست إليه: "لماذا تلاحقك المصاعب؟".

تمتم قائلاً: "لا أشعر بأننا سنتجاوزها".

قال: "ربّما يجدر بي الذهاب إلى ساوثويل بنفسي". فقال له رايف: "سأذهب عوضاً

منك". أعطاه لائحة، وقال له: "اطلب تنظيف قصر رئيس الأساقفة بأكمله. سيحضر سيدي الكاردينال سريره الخاص به. تحقق من الحظائر، وأحضر موسيقيين. آخر مرة مررت فيها من هناك، لاحظت وجود زرائب حيوانات مقرزة محاذية لجدار القصر. ابحث عن مالكةها، وادفع له، وقم بإزالتها".

قال ريتشارد: "سيدي... حان الوقت لتترك الكاردينال وشأنه".

"هذا انسحاب تكتيكي، وليس هزيمة".

كانوا يظنون أنه رحل، ولكنه انسحب إلى غرفة خلفية وحسب. سمع ريتشارد يقول: "قلبه هو الذي يقوده".

"إنه قلب خبير".

"ولكن هل يستطيع الجنرال تنظيم انسحاب من دون أن يعرف مكان العدو؟ فالملك لديه موقف مزدوج في هذه المسألة".

"يمكنه الانسحاب إلى ذراعيه مباشرة".

"رباه، تظن أن سيدنا مزدوج الموقف هو أيضاً؟".

قال رايف: "لا بل ثلاثي على الأقل. اسمع، لم يكن سيكسب شيئاً من التخلي عن الرجل العجوز. ربّما ننال شيئاً من ثباتنا، كلنا".

"إذاً، اذهب أيها الشاب. من غيره سيفكر في حظائر الحيوانات المقرزة؟ توماس مور مثلاً؟ لم يفكر فيها أبداً".

"أو ربّما سيحرّض مرّبي الحيوانات المقرزة. لقد اقترب الفصح...".

"- هل أنت مستعدّ لتناول العشاء الربّاني؟" ضحك رايف. "للمناسبة، ريتشارد، هل أنت مستعدّ؟".

قال ريتشارد: "أستطيع الحصول على قطعة خبز في أيّ يوم من أيام الأسبوع".

خلال أسبوع الآلام، وصلت تقارير من بيتيربورو تفيد أن حشوداً غير متوقّعة من الناس تجمّعت لمشاهدة وولزي. ومع رحلة الكاردينال شمالاً، راح يتتبّعه في الخريطة التي يحفظها في رأسه. ستامفورد، غرانثام، نيوارك. وصلت القافلة إلى ساوثويل في 28 نيسان/إبريل. فكتب إليه كرومويل لتهدئته ولتحذيره. كان يخشى أن يكون آل بولين أو نورفولك، أو كلاهما، قد وجدا طريقة لزرع جاسوس في حاشية الكاردينال.

اقترب منه السفير شابوي، الذي خرج مسرعاً من مقابلة مع الملك، ولمس كمّه ليقوده جانباً. "سيد كرومويل، كنت أفكر في زيارتك في بيتك، فنحن جيران كما تعلم".

"على الرحب والسعة".

"ولكنّ الناس أخبروني أنّك غالباً ما تكون مع الملك الآن، وهذا أمر جيّد، أليس كذلك؟ تصلني أخبار من سيّدك السابق كلّ أسبوع. لقد أصبح قلقاً على صحة الملكة. يسأل ما إذا كانت معنوياتها جيّدة، ويرجوها انتظار عودتها قريباً إلى مكانها السابق في جوار الملك، وسريره". ابتسم شابوي، وبدا أنّه يستمتع. "لم تساعده العشيقّة، فنحن نعلم أنّك قد حاولت معها وفشلت. لذا، يلتفت الآن إلى الملكة". اضطرّ إلى سؤاله: "وماذا قالت الملكة؟".

"قالت، أتمنّى أن يغفر الله للكاردينال، لأنّني لن أتمكّن من ذلك أبداً". انتظر شابوي ولكنّه لم يتحدّث. فاستأنف السفير قائلاً: "أظنّ أنّك تعي الورطة التي سنجد أنفسنا فيها لو مُنح هذا الطلاق، أو بالأحرى انتزع من قداسة البابا؟ فمن شأن الإمبراطور أن يشنّ حرباً على إنكلترا، غيرة على عمته. إن حدث ذلك، فسيخسر أصدقاؤك التّجار مصدر رزقهم، وكثير منهم سيخسرون حياتهم. وقد يسقط ملككم، وتصبح الطبقة النبيلة القديمة حرّة في فعل ما تشاء".

"لماذا تقول لي ذلك؟".

"أنا أقول ذلك لكلّ إنكليزي".

"وهل تطرق باب كلّ منهم؟".

كان يُفترض به إيصال تلك الرسالة إلى الكاردينال: لقد خسر ثقة الإمبراطور. وهذا لن يفيد سوى في جذبته إلى الملك الفرنسي. وفي الحالتين، الخيانة موجودة. تخيل الكاردينال جالساً في ساوثويل، على مقعده في المبنى الملحق بالدير، يترأس اجتماعات الكهنة تحت القناطر العالية وكأنّه أمير، مكّلاً بنقوش الأوراق والأزهار. كانت النقوش دقيقة إلى حدّ بدت معه الأعمدة وكأنّها أضلع تدبّ فيها الحياة، وكأنّ الحجر نبتت فيه الأزهار. تيجان الأعمدة مزينة بأوراق التوت، وقممها عبارة عن أغصان ملتوية، الورود تحيط بالأعمدة، والأزهار تتفتّح عليها. من بين الأوراق، بدت وجوه الكلاب والأرانب الوحشية والماعز. وبينها وجوه بشرية أيضاً، بدت حيّة إلى حدّ أنّها تستطيع ربّما تغيير تعابيرها. ربّما كانت تحدّق مذهولة إلى سيّدها القرمزي المهيّب. وربّما، في صمت الليل، حين ينام الرهبان، كانت تلك الوجوه الحجرية تصفر وتغني.

تعلم في إيطاليا طريقة للتذكّر وملاها بالصور. أخذ بعضها من الغابات والحقول، ومن المروج والخمائل: حيوانات مختبئة، أعينها تلمع في الظلام. فيها الثعالب

والغزلان، وفيها الغرافين والتنانين. فيها رجال ونساء: راهبات، محاربون، أطباء من الكنيسة. في أيديهم وضع أشياء غريبة. إذ أعطى القديسة أرسولا قوساً ونشاباً، والقديس جيروم منجلاً، بينما حمل أفلاطون مغرفة حساء، وأخيل عدداً من حبّات الخوخ في وعاء خشبي. فلا فائدة من محاولة التذكّر بمساعدة أشياء عادية ووجوه مألوفة. بل يحتاج المرء إلى وضع الأشياء بقرب بعضها بعضاً على نحو مثير للاستغراب، وتكوين صور غريبة، مثيرة للسخرية، وحتى غير لائقة. حين تكوّن تلك الصور، توزّعها في العالم في الأماكن التي تختارها، ومع كلّ منها مجموعة من الكلمات، والوجوه، التي ستساعدك عند الحاجة. في غرينيتش، قد تقفز أمامك قطعة حلقة من خلف خزانة، وفي قصر ويستمينستر، قد ترمقك أفعى وتلفظ اسمك وهي تهسهس.

بعض تلك الصور مسطّحة، تستطيع السير وفقها، وبعضها مكسوّة بالجلد تسير في غرفة، ولكنها قد تكون عبارة عن رجال رؤوسهم مستديرة إلى الخلف، أو ذوي أظافر طويلة، كأظافر الفهود في شعارات النبالة. بعض هؤلاء الرجال يعبسون في وجهك مثل نورفولك، أو يحملون في وجهك مثل اللورد سوفولك، مذهولين. وبعضهم الآخر يتحدثون... يحتفظ بهذه الصور، بترتيب شديد، في صالة عينه العقلية. ربّما لأنّه معتاد على تكوين هذه الصور، فإنّ رأسه حافل بشخصيات تكفي لآلاف المسرحيات، وآلاف الفصول. ويسبب هذه العادة، كثير ما يلمح زوجته واقفة على سلّم، وجهها الأبيض مقلوباً رأساً على عقب، أو يراها تتعطف بخفة عند إحدى زوايا أوستن فرايرز، أو منزل ستيني. والآن، بدأت صورتها تمتزج بصورة أختها جوان، وكلّ ما كان ينتمي إلى ليز بدأ ينتمي إليها: نصف ابتسامتها، نظرتها المتسائلة. إلى أن قال: "كفى"، وأبعدها عن ذهنه.

انطلق رايف حاملاً إلى وولزي رسائل سرّية جدّاً بحيث لا يمكن كتابتها. كان يودّ الذهاب بنفسه، ولكن على الرغم من تأجيل البرلمان، لم يستطع الذهاب، لأنّه كان يخشى أن يقال شيء عن وولزي ولا يكون موجوداً للدفاع عنه. كما أنّ الملك قد يرغب في رؤيته، أو الليدي آن. كتب قائلاً: "وعلى الرغم من عدم وجودي معك شخصياً، كن واثقاً بأنني، وسأكون دائماً، مع غبطتك بالقلب، والروح، والدعاء، والعمل...".

أجاب الكاردينال: "إنّه الشخص الأكثر طيبة، وثقة، وأمانة الذي ألجأ إليه في مصيبتني. إنّه صديقي كرومويل المحبوب تماماً".

كتب يطلب سُماني، وكتب يطلب بذور أزهار. سألت جوان: "بذوراً؟ هل يخطط ليستقرّ هناك؟".

طلع الفجر على ملك كئيب، وحمل معه يوماً فاشلاً جديداً في حملته للزواج مجدداً. فهو ينكر بالطبع أنه متزوج من الملكة. قال: "كرومويل، أحتاج إلى إيجاد طريقة لامتلاك تلك..."، نظر جانبا، غير راغب في قول ما يعنيه. "أفهم وجود صعوبات قانونية. لا أدعي أنني أفهمها، وقبل أن تبدأ، لا أريد من أحد شرحها لي". كان الكاردينال قد وهب للوقف كلية أوكسفورد، ومدرسة إيبسويتش، مع أرض تنتج إيرادات دائماً. وكان هنري يريد أطباقهما الفضية والذهبية، وكتابتهما، وإيراداتهما السنوية، والأرض التي تنتج الإيرادات. ولم يكن يفهم لماذا لا يستطيع الحصول على ما يريده. كانت إيرادات تسعة وعشرين ديراً قد ذهبت إلى هاتين المؤسستين، بعد أن أعطيت إذناً من البابا شرط أن تستعمل إيراداتها للكليتين. قال هنري: "ولكن، هل كنت تعلم؟ أصبحت لا أكثرث كثيراً للبابا وما يأذن به".

كان الصيف في بدايته، أتى بأمسياته الطويلة، وعشبه وهوائه المعطرين. قد يظنّ المرء أنّ رجلاً مثل هنري، في ليلة كتلك، يستطيع الذهاب إلى السرير الذي يعجبه. فالقصر مليء بالنساء التواقات إلى استقباله. ولكن بعد هذه المقابلة، تنزّه في الحديقة مع الليدي آن، وكانت يدها على ذراعه، غارقين في الحديث. وبعدها خلد إلى فراشه الخالي، وهي، إلى فراشها.

كما يفترض المرء. حين سأله الملك ماذا سمع من الكاردينال، أجاب إنه مشتاق إلى نور محيا الملك، وإنّ استعدادات ترسيمه في يورك تسير كما يجب. "إذاً، لماذا لا يذهب إلى يورك؟ يبدو لي أنه يؤجّل ويؤجّل". يحدّق إليه هنري مضيفاً: "سأقول لك شيئاً، ابقَ إلى جانب سيّدك".

"أنا لم أتمتع بأي شيء من الكاردينال غير اللطف، لماذا أفعل غير ذلك؟". "ليس لديك سيّد آخر. سألني السيّد سوفولك ما هو أصلك، فقلت له إنّ أفراد أسرة آل كرومويل موجودون في ليسيسترشاير، نورثامبتونشاير، وإنّهم ملاك أراضٍ، أو كانوا كذلك. أفترض أنّك تتحدّر من فرع غير محظوظ من تلك العائلة؟". "كلاً".

"ربّما كنت لا تعرف أسلافك. سأطلب من أحد المبعوثين البحث في الأمر". "هذا لطف من جلالتك، ولكنهم لن ينجحوا في ذلك". بدأ السخط يظهر على الملك. لم يكن يعرف كيف يستغلّ عرضاً: نسباً، مهما بدا

ضئيل الأهمية. "أخبرني سيدي الكاردينال أنك يتيم، وأنتك نشأت في دير".
"آه، هذه إحدى قصصه القصيرة".

"هل كان يروي لي قصصاً قصيرة؟". تعاقبت تعابير عدّة على وجه الملك:
انزعاج، تسلية، ورغبة في استعادة الماضي. "أظنّ ذلك. فقد أخبرني أنك كنت
تضمر حقداً لرجال الدين. لهذا السبب أتقنت عملك لديه".
نظر إليه مجيباً: "لم يكن ذلك هو السبب. هل أستطيع الكلام؟".
أجاب هنري متوسلاً: "آه، بالله عليك أن تفعل".

فوجئ، ثمّ فهم. كان هنري يريد التحدّث، في أيّ موضوع كان، موضوع لا علاقة
له بالحبّ، ولا بالصيد، ولا بالحرب. فالآن بعد رحيل وولزي، لم يعد لديه مجال
لأحاديث من هذا النوع، إلاّ إن أراد التحدّث مع كاهن ما. ولو أرسل بطلب كاهن، بيم
سيفيده ذلك؟ بيم سيفيد حبه، أو آن، أو رغبته في نيل ما لا يستطيع؟

"إن سألتني عن الكهنة، فسأتحدّث عن تجربة، وليس عن أحكام مسبقة. فلو أراد
جلالتكم رؤية استعراض للخطايا السبع المميتة، فسينبغي له ألاّ ينظّم حفلاً تنكرياً في
القصر، بل يذهب لزيارة دير. لقد رأيت رهباناً يعيشون مثل لوردات عظماء، على
هبات أناس فقراء يفضّلون شراء بركة على شراء الخبز، وهذا ليس سلوكاً مسيحياً.
ولا أعتقد أنّ الأديرة هي منابع العلم كما يظنّ بعض الأشخاص. فهل كان غروسم
ناسكاً، أم كوليت، أم ليناكر، أم غيرهم من العلماء العظماء؟ لقد كانوا طلاب
جامعات. الرهبان يأخذون الأطفال ويستعملونهم كخدم، حتّى إنّهم لا يعلمونهم شيئاً
من اللاتينية. أنا لا ألومهم على الرخاء الجسدي، فهم لا يستطيعون الصوم طيلة
حياتهم. ما لا أطيعه هو النفاق، الاختلاس، الخمول، ذخائرهم البالية، وقلة إبداعهم.
متى كان آخر شيء جيّد أتى من دير؟ هم لا يخترعون، بل يكرّرون. وما يكرّرونه
فاسد. حمل الرهبان القلم منذ مئات السنين، وما كتبوه هو ما نعتبره تاريخنا، ولكنني
لا أصدّق ذلك. أظنّ أنّهم حذفوا التاريخ الذي لا يعجبهم، وكتبوا ما يعجب روما".
بدا أنّ هنري ينظر عبره مباشرة، إلى الجدار خلفه. انتظر، إلى أن قال هنري: "إذاً
أهي أوجرة كلاب؟".

ابتسم.

قال هنري: "تاريخنا... كما تعلم، أنا أجمع أدلّة، مخطوطات، آراء، مقارنات، مع
كيفية تنظيم الأمور في بلدان أخرى. ربّما تستطيع التشاور مع أولئك السادة
المتعلّمين، وتوجيه جهودهم. تحدّث إلى د. كرانمر، سيخبرك ما هم بحاجة إليه.

الملك فرنسوا أكثر ثراء مني بكثير، فأنا لا أملك عشر رعيته، التي يفرض عليها الضرائب كيفما شاء. من جهتي، عليّ دعوة البرلمان. وإن لم أفعل، فستقع أعمال شغب". أضاف بمرارة: "وحتى إن فعلت، فستقع أعمال الشغب".

قال: "لا تأخذ دروساً من الملك فرنسوا. فهو يحبّ الحرب كثيراً، والتجارة قليلاً". ابتسم هنري ابتسامة باهتة. "أنت لا تظنّ ذلك، ولكن بالنسبة إليّ هذه هي واجبات الملوك".

"يمكن فرض ضرائب أعلى إن كانت التجارة جيّدة. وإن لم يتمّ دفع الضرائب، ثمة طرائق أخرى".

هزّ هنري رأسه: "جيّد جدّاً، ابدأ بالكليتين. اجلس مع محاميّ". كان هاري نوريس هناك ليقوده إلى خارج غرفة الملك الخاصّة. قال له بجديّة، ولم يكن يبتسم للمرّة الأولى: "لن أكون جابي ضرائب لديه". قال في نفسه: هل يجب أن أعيش أهمّ اللحظات في حياتي تحت عين هاري نوريس؟

"لقد قتل أفضل رجال أبيه. إمبسون، دادلي. ألم يحصل الكاردينال على أحد منازلهم؟".

خرج عنكبوت من تحت دلو وأتى معه بتلك الذكرى: "منزل إمبسون في شارع فليت. مُنح في التاسع من تشرين الأوّل/أكتوبر، أوّل أعوام هذا الحكم". قال نوريس: "هذا الحكم المجيد"، وكأنّه يصحّ خطأً.

بلغ غريغوري الخامسة عشرة في بداية الصيف. كان يمتطي صهوة الحصان بمهارة، كما كان بارعاً في المبارزة. أمّا يونانيتها... في الواقع، لقد ظلّت على حالها. ولكن، كان ثمة مشكلة. "الناس في كامبريدج يسخرون من كلاب الصيد التي أملكها".

"لماذا؟". كان الكلبان الأسودان متشابهيّن، كانا ذوي عنقين مقوسين وقوائم جميلة. كانا ينظران إلى الأسفل، بلطف واستحياء، إلى أن يريا فريسة.

"يقولون، لماذا تملك كلاباً لا يستطيع الناس رؤيتها في الليل؟ وحدهم المجرمون يملكون كلاباً كذلك. يقولون إنني أصطاد في الغابات، وأخالف القانون. يقولون إنني أصطاد حيوانات الغرير، مثل فلاح بخيل".

سأله: "ماذا تريد؟ كلاباً بيضاء، أم كلاباً مرقطة؟".

"أيّ منها يفني بالغرض".

"سأخذ كلبك الأسودين". صحيح أنه لا يملك الوقت للخروج، لكن ريتشارد أو رايف سيستعملانها.

"ولكن ماذا إن سخر الناس؟".

قالت جوان: "ماذا دهاك، غريغوري؟ هذا أبوك. أوكد لك أن أحداً لن يجرؤ على السخرية منه".

حين يكون الطقس ممطراً وغير ملائم للصيد، يجلس غريغوري لقراءة الأسطورة الذهبية. كان يحب حياة القديسين. قال: "بعض هذه الأشياء صحيحة، وبعضها لا". قرأ *Le Morte D'Arthur*، وبما أنها كانت طبعة جديدة، تجمّعوا حوله ينظرون من فوق كتفه إلى صفحة الغلاف. "هنا يبدأ الكتاب الأوّل للأمير النبيل والشريف، الملك آرثر، ملك بريطانيا العظمى يوماً ما...". كانت الصفحة الأولى تصوّر زوجين يقبلان بعضهما بعضاً، فضلاً عن رجل يمتطي صهوة حصان ويعتمر قبعة مصنوعة من أنابيب معقوفة وكأنّها أفاع سمينة. سألته أليس: "سيدي، هل اعتمرت قبعة كهذه حين كنت شاباً؟"، أجابها: "كانت لديّ قبعة لكلّ يوم من أيام الأسبوع، ولكنّ قبعتي كانت أكبر حجماً".

خلف هذا الرجل، كانت تركب امرأة. سأله غريغوري: "هل تظنّ أن هذه المرأة تمثّل الليدي أن؟ يقولون إنّ الملك لا يحبّ الانفصال عنها، لذا، فهو يجعلها تمتطي صهوة الحصان خلفه مثل زوجة مزارع". كانت المرأة ذات عينيّن كبيرتين، وتبدو متعبة من امتطاء صهوة الحصان. بدت تماماً وكأنّها آن. كان ثمة قصر صغير، لا يتجاوز طوله طول رجل، مع لوح خشبي يصوّر جسراً متحرّكاً. بدت الطيور التي تحوم فوقه أشبه بالخناجر الطائرة. قال غريغوري: "ملكنا يتحدّر من آرثر هذا. هو لم يمت فعلاً، بل ينتظر في غابة، أو ربّما في بحيرة، ويبلغ عمره قرناً عدّة. ميرلن هو ساحر ويأتي لاحقاً. سترون. يحتوي الكتاب على واحد وعشرين فصلاً. إن تواصل المطر، فأنا أنوي قراءتها كلّها. بعض هذه الأشياء صحيحة، وبعضها مجرد أكاذيب، ولكنّها كلّها قصص جيّدة".

في المرّة التالية التي طلب منه الملك فيها الحضور إلى القصر، كان يريد بعث رسالة إلى وولزي. فقد كان ثمة تاجر بريتوني استولى الإنكليز على سفينته قبل ثماني سنوات، وهو يتدّمّر لأنّه لم يحصل بعد على التعويض الذي وُعد به. لم يتمكّن أحد من إيجاد المستندات، وكان الكاردينال هو الذي يتولّى القضية، فهل يذكرها؟ قال: "أنا واثق أنّه سيتذكّر. أهي السفينة المحمّلة باللؤلؤ وقرون وحيد القرن".

قال تشارلز براندون: "لا سمح الله!". ولكن الملك ضحك وقال: "تلك هي".
"إن كانت المبالغ مشكوكاً فيها، أو القضية بأكملها، هل لي أن أتولّأها؟".
تردّد الملك، ثمّ قال: "لست واثقاً من أنّك تستطيع حلّ المسألة".
في هذه اللحظة، أعطاه براندون شهادة غير متوقّعة على الإطلاق. "هاري، اتركه.
حين ينتهي هذا الرجل من القضية، سيدفع لك البريتاني المال".
دار الدوقات في دوائر خاصّة بهم. وعندما كانوا يتشاورون، لا يكون ذلك من باب
الاستمتاع بصحبة بعضهم بعضاً، بل لأنّهم يحبّون أن يكونوا محاطين بحاشية
خاصّة بهم، برجال يعكسون صورتهم ويكونون أتباعاً لهم. كان من الممكن أن
يستمتعوا بصحبة الشخص الذي يعتني بحيواناتهم، كما بصحبة دوق آخر. هكذا
أمضى ساعة ودودة مع براندون، يتفقدان كلاب الصيد التي يملكها الملك. لم يكن
موسم صيد ذكور الأيل قد حلّ بعد، لذا، كانت الكلاب شبعانة في وجارها، وكان
نباحها الموسيقي يعلو في سماء الليل، بينما التزمت كلاب التعقّب الصمت كما تمّ
تدريبها، ووقفت على قوائمها الخلفية تراقب، واللعب يسيل من أفواهها مع وصول
العشاء. كان الأولاد المسؤولون عن العناية بالكلاب يحملون سلال الخبز والعظام،
وأوعية تحتوي على فضلات اللحم. اشتّمها تشارلز براندون بإعجاب وكأنّه نبيلة
مسنّة في حديقة ورود.

أتى سيّاد بكلبة بيضاء مرقّطة ببقع بنية، اسمها باربادا، تبلغ من العمر أربعة
أعوام. وقف فوقها، ورفع رأسها ليريه عينيها، اللتين كانتا مظلّلتين بغشاء رقيق. قال
إنّه يكره قتلها، ولكن يشكّ في أن تكون ذات فائدة هذا الموسم. أمسك كرومويل بفكّ
الكلبة وقال: "يمكنك سحب الغشاء بواسطة إبرة معقوفة. رأيتهم يفعلون ذلك. تحتاج
إلى يد ثابتة وسريعة. لن تحبّ ذلك، ولكنّها لن تحبّ أيضاً أن تصبح عمياء". مرّر
يده فوق أضلاعها، وشعر بنبض قلبها الصغير المذعور. "ينبغي أن تكون الإبرة
رفيعة جدّاً، وبهذا الطول". وأراهما الطول اللازم بين سبّابته وإبهامه. "دعني أتحدّث
إلى حدّادك".

نظر إليه سوفولك شزراً وقال: "أنت رجل مفيد".

سارا مبتعدين، وقال الدوق: "اسمع، المشكلة هي زوجتي". انتظره حتّى تابع:
"لطالما أردت أن يحصل هنري على ما يريد، ولطالما كنت مخلصاً له، حتّى حين
ذكر رغبته في قطع رأسي لأنّني تزوّجت من شقيقته. ولكن ماذا أفعل الآن؟ كاثرين
هي الملكة، وكانت وزوجتي دائماً صديقة لها. وقد بدأت تقول: لا أدري، أنا مستعدّة

لأعطي الملكة حياتي، كلام من هذا القبيل. وليس من الممكن أن أعطي ابنة أخت نورفولك الأولوية على زوجتي، التي كانت ملكة فرنسا. هل تفهم؟".
هزّ رأسه قائلاً: "أفهم". تابع الدوق: "بالإضافة إلى ذلك، سمعت أنّ ويات سيعود من كاليه". أجل، وإذا؟ "أتساءل ما إذا كان يجدر بي إخباره. أعني، إخبار هنري. يا للمسكين".

قال: "سيدي، دع هذا الأمر". فانحدر الدوق تدريجياً إلى ما يمكن تسميته، لدى رجل آخر، أفكاراً صامتة.

حلّ فصل الصيف، وخرج الملك إلى الصيد. إن أرادته، فعليه مطارده، وإن أرسل بطلبه، يذهب. زار هنري، في رحلاته الصيفية، أصدقاءه في ويلتشاير، وفي سوسيكس، وفي كينت، أو مكث في منزله، أو المنازل التي أخذها من الكاردينال. أحياناً، حتّى الآن، كانت تمتطي الملكة سهوة حصانها، بجسدها القصير والبدين، حين كان يخرج الملك للصيد في إحدى حدائقه الشاسعة، أو في حديقة أحد اللوردات، التي كانوا يجذبون إليها الغزلان ليصطادها الرماة. وكانت تمتطي الليدي أن سهوة الحصان أيضاً، في مناسبات مختلفة، وتستمع بالمطاردة. ولكنّ ثمة فصلاً كانت تُترك فيه السيّدات في المنزل، ويخرج الرجال إلى الغابة مع كلاب الصيد. كانوا يستيقظون فيه قبل بزوغ الشمس تماماً، يتشاورون مع الصيادين، ثمّ يعثرون على صيدهم. لم تعرف أين تنتهي المطاردة، أو متى.

قال له هاري نوريس وهو يضحك: "سيحين دورك قريباً، سيّد كرومويل، إن استمرّ بمحابتك على هذا النحو. سأسدي إليك بنصيحة: مع بدء النهار، وخروجك على سهوة الحصان، اختر خندقاً. تخيّل في ذهنك، وحين تنهك ثلاثة أحصنة جيّدة، ويُنفخ في البوق لبدء مطاردة أخرى، ستحلم بذاك الخندق، وتتخيّل نفسك نائماً في داخله. فالأوراق اليابسة ومياه الخندق الباردة هي كلّ ما تتمناه حينذاك.

نظر إلى نوريس. قال في نفسه: كنت مع الكاردينال في بوتني، حين جثا على ركبتيه في الوحل. هل وصفت المشاهد التي في رأسك للبلاط، والعالم، والطلاب في غرايز إن؟ لأنّه إن لم يكن أنت من فعل ذلك، فمن غيرك؟

في الغابة، قد تضيع من دون مرافقين. قد تصل إلى نهر ليس موجوداً على خريطة، أو تضيع منك طريدتك، وتنسى سبب وجودك هناك. قد تلتقي بقزم، أو بعدوّ قديم أو جديد، شخص لا تعرفه إلى أن ترى وجهه يظهر بين الأوراق، وترى خنجره يلمع. قد تجد امرأة نائمة بين أوراق الأشجار. للحظة، وقبل أن تكتشف أنّك لا

تعرفها، قد تظنّ أنّها شخص تعرفه.

في أوستن فرايرز، من النادر أن تجد نفسك بمفردك، أو بمفردك مع شخص واحد. فكلّ حرف من حروف الأبجدية يراقبك. في مكتب المحاسبة، ثمة شاب يدعى توماس آيفيري، تدرّبه كي يتولّى حساباتك الخاصّة. وفي منتصف الرسائل، يظهر مارلنسبايك، يتمشّى في الحديقة بعينيه الذهبيتين الفضوليتين. ومع نهاية الأبجدية، يأتي توماس ريوثيسلي، وتُلفظ ريسلي. كان شاباً لامعاً، يبلغ الخامسة والعشرين من عمره تقريباً، ولديه علاقات جيّدة، ابن مبعوث يورك. عمل في منزل وولزي تحت إمرتك، ثمّ أخذه غاردينر، كأمين سرّ، للعمل لديه. والآن تجده أحياناً في القصر، وأحياناً أخرى في أوستن فرايرز. كان جاسوس ستيفن، كما يقول الأولاد، ريتشارد ورايف.

كان السيّد ريوثيسلي طويل القامة، ذا شعر أشقر مائل إلى الاحمرار، ولكنّ وجهه ليس ميّالاً، مثل بقية من يتمتّعون بلون بشرته، كالملك مثلاً، إلى التورّد حين تلقي عليه التحيّة، أو حين يغضب. كان دائماً شاحب اللون وبارداً، وسيماً، ومسيطرّاً على أعصابه. في ترينيتي هول، كان ممثلاً ممتازاً في مسرحيات الطلبة، وكان لديه بعض التكلّف، والوعي لذاته، ومظهره. اعتاد ريتشارد ورايف على تقليده من وراء ظهره، فكانا يردّدان: "اسمي ري - وث - يس - لي، ولكن لأوفّر عليكم الجهد، يمكنكم مناداتي ريسلي". ويقولان، إنّهُ يعقّد اسمه بهذا الشكل كي يتمكّن من المجيء إلى هنا وتوقيع الأوراق واستعمال حبرنا. ويقولان، تعرف أنّ غاردينر لا يحبّ الأسماء الطويلة، لذا، فهو يناديه "أنت". وكانت هذه النكتة تضحكهما، فظلاً لفترة، كلّما ظهر السيّد ريسلي، يصرخان: "هذا أنت!".

فيقول لهما: "ارحما السيّد ريوثيسلي. علينا احترام رجال كامبريدج".

كان يرغب في سؤال ريتشارد، ورايف، والسيّد ريوثيسلي الذي يحبّ أن يدعى ريسلي: هل أبدو مثل مجرم؟ ثمة شابّ يقول إنّني أبدو كذلك.

هذه السنة، لم يتفشّ الطاعون صيفاً، فركع أهالي لندن شكراً على ذلك. وفي نكري القديس جون، ظلّت المشاعل مضاءة طيلة الليل وعند الفجر، قُطف الزنبق من الحقول. فجمعته فتيات المدينة بأصابعهنّ المرتجفة في أكاليل علّقت على بوابات المدينة وأبوابها.

فكرّ في تلك الفتاة الصغيرة الأشبه بزهرة بيضاء، الفتاة التي كانت مع الليدي آن، والتي وقفت عند الباب. كان من السهل عليه إيجاد اسمها، لكنّه لم يفعل لأنّه كان

مشغولاً جداً بمعرفة الأسرار من ماري. في المرّة القادمة التي يراها فيها... ولكن ما فائدة التفكير في ذلك؟ لا شكّ في أنّها من عائلة نبيلة. كان ينوي الكتابة إلى غريغوري ليقول له: إنني رأيت فتاة جميلة، سأحاول معرفة هويتها، وإن استطعتُ تحسين أوضاع عائلتنا في السنوات القادمة، فلربّما تمكّنت من الزواج بها. لم يكتب ذلك. ففي وضعه الحالي غير المستقرّ، ستكون رسالته أشبه بالرسائل التي اعتاد غريغوري على كتابتها إليه: والذي الحبيب، أتمنّى أن تكون بخير. أتمنّى أن يكون كلبك بخير. والآن هذا كلّ شيء بسبب ضيق الوقت.

قال قاضي القضاة مور: "تعالَ لرؤيتي، وسنتحدّث عن كليّتي وولزي. أنا واثق من أنّ الملك سيفعل شيئاً للطلاب المساكين. تعالَ، تعالَ لرؤية ورودي قبل أن يفسدها الحرّ. تعالَ لرؤية سجّادتي الجديدة".

وصل إلى تشيلسي في يوم رمادي الغيوم، وكان مركب الوزير مقيداً إلى أحد الأوتاد، وعلم تيودور يتهدّل في الهواء الحارّ والرطب. خلف البوابة، كان ثمّة منزل من القرميد الأحمر، بُني حديثاً، واجهته الزاهية مطلّة على النهر. مشى نحوه، بين أشجار التوت. رأى ستيفن غاردينر واقفاً على الشرفة، تحت شجر صريمة الجدي. كان المكان مليئاً بالحيوانات الأليفة، ومع اقترابه، حيّاه مضيفه حاملاً أرنباً ذا فراء أبيض. كان يتدلّى بهدوء بين يديه، وكأنّه قفازات من الفراء الأبيض.

سأله غاردينر: "هل صهرك روبر معنا اليوم؟ يا للأسف، كنت آمل أن أراه وهو يغيّر دينه مجدداً. أردت أن أشهد على ذلك".

سأله مور: "هل توّد القيام بجولة في الحديقة؟".

"ظننت أنّنا نستطيع رؤيته يجالس أحد أصدقاء لوثر، كما كان سابقاً، ثمّ يرجع إلى الكنيسة حين يحضرون العنب".

قال مور: "ويل روبر استقرّ الآن على دين إنكلترا وروما".

قال: "لم يكن عاماً جيّداً للفاكهة الطرية".

نظر إليه مور من طرف عينيه، وابتسم. تحدّث بلطف وهو يقودهما إلى المنزل. دخل على أثرهم هنري باتينسون، وهو خادم لدى مور، يسمّيه أحياناً مهرّجه، ويسمح له بالتواجد معه. كان الرجل محبباً للشجار. فعادةً كان يؤوي المرء لديه مهرّجاً ليحميه، ولكن في حالة باتينسون، بقية الناس هم من بحاجة إلى الحماية. أهو ساذج بالفعل؟ ثمّة ناحية مأكرة في مور، وهي استمتاعه بإحراج الناس. كان يُفترض أن يكون باتينسون قد سقط من برج كنيسة على رأسه. ربط دوماً على خصره حبلًا ذا

عُقد يقول أحياناً إنه سُبحته، وأحياناً أخرى إنه سوطه. غير أنه قال أحياناً إنه الحبل الذي كان يجب أن ينقذه من السقوط.

حين كنت تدخل المنزل، كنت ترى أفراد العائلة معلقين. تراهم مرسومين على لوحات بالحجم الطبيعي قبل أن تقابلهم شخصياً. ومور، الذي كان يعي هذا الأثر المزدوج، يتوقّف ليتركك تتأمّلهم وتستوعبهم. ابنته المفضّلة، ميغ، ظهرت في اللوحة جالسة في حضان أبيها مع كتاب على ركبتيها. وكان يحيط بقاضي القضاة ابنه جون، والقاصر الموضوعة تحت وصايته، آن كريزاكر، وهي زوجة جون، ومارغريت غيغس، وهي أيضاً موضوعة تحت وصايته، فضلاً عن أبيه، السير جون مور، وابنتيه سيسيلي وإليزابيث. ووقف أيضاً باتينسون، بعينيّه الجاحظتين، وزوجته أليس، برأسها المنخفض، ورمز النصارى المعلق حول عنقها، في طرف اللوحة. جمعهم السيّد هولباين تحت نظره وثبتهم إلى الأبد، ما لم يتلف اللوحة عثاً، أو حريق، أو عفن.

عندما كان مضيفهم خارج عمله، ارتدى بذلة صوفية بسيطة. كانت السجّادة الجديدة مشدودة على حاملين. لم تكن أرضيتها قرمزية، بل حمراء اللون، ليس أحمر قانياً، بل صبغة حمراء ممزوجة بمصل اللبن. تتمم قائلاً: "كان سيدي الكاردينال يحبّ السجّاد التركي. أرسل إليه القاضي الأوّل ستين سجّادة". كان صوفها ناعماً ومصنوعاً من صوف خراف الجبال، ولكنها لم تكن خرافاً سوداء. فالأجزاء الأذكنّ بدا سطحها هشاً، بسبب الصباغ، ومع الوقت والاستعمال سيزول. قلب زاويتها، وممر أنامله فوق العُقد، يعدّها بحركته المعتادة. قال: "هذه عقدة غيورديس، ولكنّ التعريق من بيرغامون. هل ترى هناك داخل الأشكال مثمّنة الأضلاع، النجمة ذات الثماني زوايا؟". أعاد فرد الزاوية، وابتعد عنها، ثمّ التفّ قائلاً: "هناك". تقدّم، ووضع يده على العيب، مكان انقطاع الحياكة. بدا المعين وكأنّه ممزّق قليلاً. في أسوأ الأحوال، السجّادة هي عبارة عن سجّادتين مجموعتين معاً. وفي أحسن الأحوال، حاكها باتينسون في قريته، أو جمعت أجزاءها معاً في العام الماضي على يد العبيد الآتين من البندقية في مشغل في أحد الأحياء الفقيرة. كي يتأكّد، كان بحاجة إلى قلبها. قال مضيفه: "لم تكن صفقة موفّقة؟".

أجابته: "إنّها جميلة". لأنّه لم يرغب في إفساد متعته. وأضاف: "ولكن في المرّة القادمة، خذني معك". مرّر يده على سطحها الكثيف الناعم. لم يكن عيب الحياكة مهماً. فهي مجرد سجّادة تركية. ثمّة أشخاص في هذا العالم يحبّون أن يكون كلّ

شيء دقيقاً وصحيحاً، وثمة من يسمح مثلاً بإغفال نقطة غامضة في عقد إيجار، ولكنّ حدسه يشعره بأنّ العقد يحتاج أحياناً إلى عدم المبالغة في التشدد. فالعقود، والوثائق، والقوانين، جميعها تُكتب لتُقرأ، وكلّ شخص يقرأها على ضوء مصلحته الخاصة. قال مور: "ما رأيكما أيّها السيّدان؟ هل نفرشها على الأرض أم نعلّقها على الحائط؟".
"افرشها على الأرض".

"توماس، يا لذوقك المترف!". وضحكوا. يظنّ من يراهم أنّهم أصدقاء.
خرجوا إلى قفص الطيور، ووقفوا يتحدثون، بينما راحت العصافير ترفرف وتزغد.
أتى أحد الأحفاد يخبو على الأرض، ولحقت به امرأة ترتدي مئزراً. أشار الطفل إلى العصافير، وأخذ يضحك مستمتعاً، ويلوّح بذراعيه. نظر إلى ستيفن غاردينر، فقلب شفته الصغيرة إلى الأسفل. أتت المربية وحملته قبل أن يبدأ بالبكاء. سأل ستيفن: "ما هو شعورك حين تملك هذه القوّة على الأطفال؟ فعبس ستيفن.

قاده مور من ذراعه قائلاً: "والآن، بخصوص الكليتين، قد تحدّثت إلى الملك، وقام أمين السرّ هنا بأفضل ما في وسعه، حقّاً. قد يعيد الملك تمويل الكلية الكاردينالية باسمه، أمّا بالنسبة إلى إيبسويتش، فلا أرى أيّ أمل لها. في النهاية... آسف لقول ذلك، توماس، ولكنّها ليست سوى مسقط رأس رجل خرج الآن من حظوة الملك، ولم تعد تمتاز بأهمية خاصّة".

"هذا مؤسف بالنسبة إلى الطلاب".

"إنّه كذلك، بالطبع. هلاً دخلنا لتناول العشاء؟".

في الصالة الكبرى في منزل مور، دار الحديث باللاتينية حصراً، مع أنّ زوجة مور كانت لا تتقنها أبداً. كانوا معتادين على قراءة مقطع من الكتاب المقدّس. قال مور: "الليلة دور ميغ".

كان متحمّساً للتباهي بابنته المفضّلة. تناولت الكتاب، وقبّلتها، ثمّ راحت تقرأ باليونانية، على الرغم من مقاطعة المهرّج. جلس غاردينر مغمض العينين. لم يكن يبدو خاشعاً، بل غاضباً. راقب مارغريت، ربّما كانت في الخامسة والعشرين من عمرها. رأسها أملس ونحيل، مثل رأس الثعلب الصغير الذي قال مور إنّهُ روضه. كان ذلك سيان، لأنّه أبقاه في قفص، من باب الاحتياط.

أتى الخدم، وكانوا ينظرون إلى عينيّ أليس وهم يضعون الأطباق، هنا، سيّدتي، وهنا؟ بالطبع لم تكن العائلة المجتمعة في اللوحة تحتاج إلى خدم، فهي مكتفية

بذاتها، معلقة على الجدار. قال مور: "كلوا، كلوا، جميعكم باستثناء أليس، فهي تكاد تنفجر في ملابسها".

عند سماع اسمها، التفتت. قال مور: "تعبير الألم هذا ليس طبيعياً عندها، بل ناتج عن شعرها المشدود إلى الخلف، والذي عُزرت فيه دبابيس العاج الكبيرة. فهي تظنّ أنّ جبينها منخفض جداً، وهو كذلك بالطبع. أليس، أليس، ذكريني لماذا تزوّجتك".

قالت ميغ بصوت منخفض: "لتأسيس أسرة، يا أبي".

قال مور: "نعم، نعم. فنظرة واحدة إلى أليس تحرّرتني من دنس الشهوات".

شعر بالغرابة، وكأنّ الوقت صنع عقدة وأوقع نفسه في شرك. فقد رآهم على الجدار، كما صوّرهم هانز، وها هم يتحرّكون هنا، تعلو وجوههم تعابير مختلفة، من التحفّظ إلى التسلية، واللطف، والجمال: عائلة سعيدة. كان يودّ لو أنّ المضيف كان مثلما رسمه هانز، مثل توماس مور المعلق على الحائط، ترى أنّه كان يفكر، ولكن لا تعرف ما كان يفكر فيه، وهكذا يجب أن يكون. لقد جمعهم الرسام بمهارة بحيث لم يترك مجالاً بين الشخصيات لشخص جديد. والدخيل لا يستطيع سوى أن يقحم نفسه في المشهد، وكأنّه بقعة غير مقصودة. فكر في نفسه قائلاً: بالطبع غاردينر هو بقعة. حرّك الوزير كُمّيه الأسودين، وتجادل بحماسة مع مضيفهم. هل الهولنديون عرفوا المزاح؟ ما هو شعار النبالة المناسب لوريث دوق نورفولك؟ هل ثمة عاصفة آتية، أم أنّ الحرّ مستمرّ؟ وكما في اللوحة، لدى أليس قرد صغير مقيد بسلسلة ذهبية. بدا في اللوحة وهو يلعب بتنوّرتها. أمّا في الحياة الواقعية، فهو جلس في حضنها وتمسّك بها كأنّه طفل. أحياناً، كانت تخفض رأسها وتتحدّث إليه، بحيث لم يكن في الإمكان أن يسمعها أحد.

لم يكن مور يحتسي الشراب، مع أنّه يقدّمه إلى ضيوفه. كان ثمة أطباق عدّة، جميعها ذات مذاق واحد، لحم من نوع ما مع صلصة مبرغلة مثل وحل التايمز، تبعثها الحلوى، والجبن الذي قال إنّ إحدى بناته صنعتها، إحدى بناته، أو الفتيات اللواتي يعشن تحت وصايته، أو كَنّاته، إحدى النساء اللواتي يحفل بهنّ المنزل. قال: "لأنّه ينبغي إبقاؤهنّ مشغولات بشيء ما. لا يمكن أن يقرن طيلة الوقت، والشابات ميّالات إلى الكسل وارتكاب الأخطاء".

تمتم: "بالتأكيد، ثمّ ستجدهنّ يتشاجرن في الشوارع". اتّجه نظره عن غير قصد إلى الجبن. بدا محفراً وطرياً مثل وجه غلام الإسطل بعد تمضيته ليلة في الخارج.

قال مور: "هنري باتينسون سريع الاهتياج الليلة، أتمنى ألا يكون قد تناول غذاءً

دسماً جداً".

قال غاردينر: "آه، أنا لا أقلق من هذه الناحية".

أتى جون مور الكبير، الذي يجب أن يكون في الثمانين الآن، ليتناول العشاء معهم، فتركوا له الحديث. كان مولعاً برواية القصص. "هل سبق أن سمعتم عن دوق هامفري من غلوسستر والمتسول الذي ادعى أنه أعمى؟ هل سبق أن سمعتم عن الرجل الذي لم يكن يعرف أن مريم العذراء كانت يهودية؟". كان المرء يتوقع أكثر من ذلك من محام قديم وذكي، حتى في مرحلة الخرف. ثم بدأ يروي قصصاً مضحكة عن نساء طائشات، وكان لديه الكثير منها. وحتى حين استغرق في النوم، كان لديه المزيد. جلست الليدي أليس عابسة، بينما كان غاردينر، الذي سمع كل تلك القصص من قبل، يصرّ على أسنانه.

قال مور: "انظر إلى كنتي آن". أحنّت الفتاة رأسها، وتوتّرت كتفاها، بانتظار ما سيقوله. "كانت آن تتمنى، هل لي أن أخبرهم بذلك عزيزتي؟ كانت تتمنى الحصول على عقد من اللؤلؤ. أعجبها كثيراً ولم تكفّ عن التحدّث عنه، أنت تعرف الفتيات. لذا، حين أحضرت لها علبة تخشخش، تخيل فرحتها. تخيل وجهها حين فتحته، وماذا كان في داخله؟ حبوب بازلاء مجفّقة!".

أخذت الفتاة نفساً عميقاً، ورفعت رأسها. رأى الجهد الذي بذلته. قالت: "أبي، لا تنس إخبارهم عن قصة المرأة التي لم تصدّق أنّ الأرض كروية".
قال مور: "كلاً، هذه قصة جيّدة".

حين نظر إلى أليس، وراها تنظر إلى زوجها بتعبير متألّم، فكّر في أنّها لا تزال لا تصدّق ذلك.

بعد العشاء، تحدّثوا عن الملك ريتشارد الماكر. بدأ توماس مور بكتابة كتاب عنه قبل سنوات عديدة. لم يستطع أن يقرّر بأيّ لغة يكتبه، بالإنكليزية أو اللاتينية، فكتبه باللغتين، مع أنّه لم ينته حتى الآن، ولم يرسل أيّ جزء منه إلى المطبعة. قال مور، لقد وُلد ريتشارد ليكون شريراً، هذا مكتوب على جبينه منذ ولادته. هزّ رأسه قائلاً: "اللعاب الملوك دموية".

قال المهرّج: "أيّام سوداء".

"أتمنى ألا تعود أبداً".

"آمين". أشار المهرّج إلى الضيوف وقال: "أتمنى ألا يعود هؤلاء أيضاً".

ثمّة أشخاص في لندن قالوا إنّ جون هاورد، جدّ نورفولك، كان مهتماً بمسألة

اختفاء الأولاد الذين أرسلوا إلى البرج ولم يخرجوا مجدداً. قال أهالي لندن، إن آخر مرة شوهد فيها الأمراء كانت في مناوبة هاورد، مع أن توماس مور ظن أن كونستابل براكينبوري هو الذي سلم المفاتيح إلى القتلة. مات براكينبوري في بوسورث، ولم يعد يستطيع الخروج من قبره والشكوى.

في الواقع، كان توماس مور على علاقة جيدة بنورفولك، كما كان متحمساً لإنكار أن أحد أسلافه ساعد في اختفاء أي كان، فما بالك بشخصين يحملان دماً ملكياً. فهو تخيل الدوق الحالي كرجل يحمل بإحدى يديه جثة صغيرة دامية ذات شعر ذهبي، وباليدين الأخرى سكيناً صغيراً كذلك الذي يستعمله المرء لتقطيع اللحم في طبقه.

عاد إلى الواقع: كان غاردينر يلکم الهواء محاولاً إقناع قاضي القضاة بحجته. أصبحت دمدمة المهرج وأنيبه لا يُحتملان. قالت مارغريت: "أبي، أرجوك أخرج هنري من هنا". وقف مور ليوبّخه وقاده من ذراعه. كانت كلّ الأعين مثبتة عليه. ولكن غاردينر استغلّ الهرج والمرج، فمال إليه وتحدّث بالإنكليزية بصوت منخفض: "بالنسبة إلى السيّد ريوتسلي، ذكّرني، أهو يعمل لديّ أم لديك؟". "لديك، فقد أصبح كاتب الختم. هم يساعدون الوزير، أليس كذلك؟". "ولماذا هو دائماً في منزلك؟".

"ليس تلميذاً ملزماً، يمكنه المجيء والذهاب متى شاء". "أظنّ أنّه سئم من رجال الكنيسة. يريد أن يعرف ماذا يستطيع أن يتعلّم من... ماذا تسمّي نفسك، هذه الأيام؟".

قال بهدوء: "شخصاً. يقول دوق نورفولك إنني شخص". "السيّد ريوتسلي يبحث عن مصلحته". "جميعنا نفعل ذلك، وإلاّ، فلماذا أعطانا الله عينين؟". "يفكر في تكوين ثروة، وكلّنا نعلم أنّ يدك تجذبان المال". "مثل الحشرات التي تجذبها ورود مور. تتهدّ قائلًا: "كلّا، بل يمرّ عبرهما، للأسف. أنت تعرف يا ستيفن كم أحبّ الترف. أرني سجّادة، فسأمشي عليها".

عاد إليهم مور بعد أن وبّخ المهرج وأبعده. "أليس، سبق ونبّهتك بخصوص الشراب. لقد تورّد أنفك". تصلّب وجه أليس بفعل النفور الممزوج بشيء من الخوف. كانت النساء الأصغر سنّاً يفهمن كلّ ما يقال، فأحنين رؤوسهنّ ينظرن إلى أيديهنّ، ويلعبن بخواتمهنّ لعكس أشعة الضوء. فجأة، حطّ شيء على الطاولة بصوت مكتوم،

وصرخت أن كريزاكر بلغتها الأم غاضبة: "هنري، كفّ عن ذلك!". كان ثمّة شرفة فوقهم ذات نوافذ ناتئة، انحنى المهرج عبر إحداها، وراح يرشّ عليهم كسر الخبز. صاح بهم قائلاً: "لا تخافوا، أيّها السادة".

أصابت إحدى الكسر الرجل العجوز، الذي استيقظ مجفلاً. نظر السير جون حوله، ثمّ تناول فوطته ومسح ذقنه. ناداه مور قائلاً: "والآن، هنري. لقد أيقظت أبي، كما أنّك تبدّد الخبز".

قالت أليس بصوت لاذع: "ربّاه، إنّه يستحقّ الجلد". نظر حوله، وشعر بما يشبه الشفقة. كان يظنّ أنّ أليس تملك قلباً طيباً، وظلّ يعتقد ذلك حتّى عندما قالت له وهو يهّم بالانصراف، ويشكرها بالإنكليزية: "توماس كرومويل، لماذا لا تتزوّج مجدداً؟".

"ما من امرأة ستقبل بي، ليدي أليس".
"هراء. ربّما تدهورت أحوال سيّدك، لكنك لست فقيراً. تملك مالاً في الخارج، هذا ما قيل لي. وتملك منزلاً جيّداً، أليس كذلك؟ كما تملك أيضاً أذنّاً مصغية لدى الملك، على حدّ قول زوجي. وبحسب شقيقتي في المدينة، كلّ شيء لديك يسير على خير ما يرام".

قال مور: "أليس!". ابتسم، وأمسك برسغها، ثمّ هزّها قليلاً. ضحك غاردينر، ضحكة عميقة منخفضة، كتلك التي تُسمع من شقّ في الأرض.
حين خرجا إلى مركب الوزير، كان الهواء عابقاً برائحة الورود. قال ستيفن: "يخلد مور إلى السرير عند الساعة التاسعة".

"مع أليس؟".
"كلّاً، حسبما يقوله الناس".
"لديك جواسيس في المنزل؟".
لم يجب ستيفن.

كانت الشمس تغيب، والأضواء تتمايل فوق النهر. قال الوزير: "ربّاه، كم أنا جائع! أتمنّى لو أنّي احتفظت بإحدى كسر الخبز التي رماها المجنون. أتمنّى لو أنّي وضعت يدي على الأرنب الأبيض، لأكلته حياً".

قال: "أتعرف؟ لا يجرؤ على التكلّم بصراحة".
قال غاردينر: "بالفعل، لا يجرؤ". جلس تحت الأشجار، محدودب الظهر، وكأنّه يشعر بالبرد. "ولكننا جميعاً نعرف آراءه، التي أظنّ أنّها ثابتة وغير قابلة للجدل".

فحين تولّى منصبه، قال إنّه لن يتدخّل بقضية الطلاق، وقبل الملك بذلك، ولكن أتساءل إلى متى سيقبل".

"لم أكن أقصد التكلّم بصراحة أمام الملك، بل أمام أليس".
ضحك غاردينر قائلاً: "صحيح، لو فهمت ما قاله لأرسلته إلى المطبخ وطلبت تقطيعه وشيّه".

"ماذا لو ماتت؟ سيأسف حينها".
"سيحضر زوجة أخرى قبل أن تبرد جثّتها. زوجة أكثر قبلاً منها".
فكّر، ورأى فرصة بعيدة للمراهنة، ثمّ قال: "تلك المرأة الشابة، آن كريزاكر. هي وريثة، هل تعلم ذلك؟ يتيمة؟".

"ثمّة فضيحة ما بخصوصها، أليس كذلك؟".
"بعد وفاة أبيها سرقها جيرانها، ليزوّجوها من ابنهم. ولكنّ الشاب اعتدى عليها، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها. حدث ذلك في يورك شاير... هكذا تجري الأمور هناك. غضب سيّدي الكاردينال حين سمع بذلك، وهو الذي أتى بها، ووضعها تحت رعاية مور لأنّه ظنّ أنّها ستكون بأمان".

"وهي كذلك".
ليس بسبب الذلّ. "منذ أن تزوّجها ابن مور، وهو يعيش من ريع أراضيها. فهي تدرّ عليها مئة في السنة".

"هل تظنّ أنّ ابن مور خيب ظنّه؟ فهو ليس ماهراً في الأعمال. مع ذلك، سمعت أنّ لديك ابناً أنت أيضاً. وقريباً، سنتبحث له عن وريثة". لم يجب. هذا صحيح، جون مور، غريغوري كرومويل، ماذا فعلنا لولدينا؟ جعلناهما شابّين كسولين. ولكن من يلومنا لأننا أردنا لهما حياة سهلة لم نحصل عليها؟ فمن المعروف أنّ مور لم يتكاسل ساعة واحدة في حياته، بل أمضاها في القراءة والكتابة والتحدّث عمّا يظنّ أنّه من مصلحة المجتمع المسيحي. قال ستيفن: "بالطبع، قد تتجب أبناء آخرين. ألسنت تواقّاً إلى رؤية الزوجة التي ستجدها لك أليس؟ يبدو أنّها تمدحك كثيراً".

شعر بالخوف. مثل مارك، عازف المزهر. الناس يتخيّلون ما لا يستطيعون معرفته. كان واثقاً أنّهما كانا متكتمين هو وجوان. قال: "ألا تفكّر أبداً في الزواج؟".

ارتعش سطح المياه. "أنا أنتمي إلى رهبة".
"أه، ستيفن، لا بدّ من أنّ لديك نساء. أليس كذلك؟".

ران صمت طويل، إلى حدّ أنّه استطاع سماع المجاذيف وهي تغوص في مياه

التايمز والصوت الذي تحدثه وهي تخرج منها. سمع نباح كلب على الضفة الجنوبية. سأله الوزير: "أيّ استجواب هذا؟".

استمرّ الصمت حتى ويستمينستر، ولكن الرحلة لم تكن سيئة عموماً. وكما ذكر وهما يترجّلان من المركب، لم يبق أحدهما بإلقاء الآخر في النهر. قال غاردينر: "سأنتظر إلى أن تصبح المياه أكثر برودة، وأقيدك بالأثقال. لا شكّ في أنّك تعرف خدعة للصعود إلى السطح مجدّداً، أليس كذلك؟ بالمناسبة، لماذا أحضرتك إلى ويستمينستر؟".

"أنا ذاهب لرؤية الليدي آن".

استكر غاردينر الأمر قائلاً: "لم تخبرني بذلك".

"وهل يتعيّن عليّ إعطاؤك تقريراً عن مخططاتي؟".

يعرف أنّ غاردينر كان ليفضّل ذلك. المشكلة هي أنّ الملك أصبح قليل الصبر مع مستشاريه. فهو يصرخ بهم: "كان الكاردينال أفضل منكم جميعاً في إدارة الأمور". قال في نفسه: إن عاد سيدي الكاردينال - وهذا قد يحدث مع نزوة من نزوات الملك في أيّ وقت - فسيقضى عليكم جميعاً، نورفولك، غاردينر، مور. وولزي رجل رؤوف، ولكن إلى حدّ معيّن بالتأكيد.

كانت ماري شيلتون بصحبتها. نظرت إليه، وابتسمت. كانت أن ترتدي ثوب نوم أنيقاً من الحرير الداكن، وقد أسدلت شعرها، وانتعلت في قدميها الصغيرتين خفّاً من جلد الجدي. كانت تجلس متكاسلة على مقعد، وكأنّ النهار أنهكها. ولكن حين نظرت إليه، بدت عيناها براقنتين وعدائيتين. "أين كنت؟".

"في المدينة الفاضلة"*.

"بدت عليها الحماسة. "آه، وماذا حدث؟".

"كان لدى السيدة أليس قرد صغير جلس على ركبتها في أثناء تناولنا الطعام".

"أكره القردة".

"أعرف ذلك".

مشى في الغرفة. كانت آن تسمح له بمعاملتها على نحو طبيعي، باستثناء الأوقات التي تتابها فيها نوبة غرور مفاجئة وتعامله بتكبر. قالت وهي تتأمّل طرف خفّها: "يقولون إنّ توماس مور مغرم بابنته".

"أظنهم ربّما على حقّ".

ضحكت أن بصوت مكتوم. "أهي فتاة جميلة؟".

"كلاً، ولكنّها متعلّمة".

"هل تحدّثوا عنّي؟".

"لا يذكرونك أبداً في ذاك المنزل". وقال في نفسه: أوّد لو أسمع رأي أليس.

"إذاً، حول ماذا دار الحديث؟".

"عيوب وطيّش النساء".

"أظنّ أنّك شاركت فيه؟ هذا صحيح على أيّ حال. فمعظم النساء متهورات، وفاسدات. لقد رأيت ذلك، لأنّني عشت طويلاً بين النساء".

قال: "نورفولك وسيدي اللورد، والدك، مشغولان جداً بمقابلة السفراء. فرنسا، البندقية، رَجُل الإمبراطور، فقط خلال هذين اليومين الأخيرين".

فكّر في نفسه قائلاً: إنّهم كانوا يعملون للإيقاع بالكاردينال، عرفت ذلك.

"لم أكن أظنّ أنّك تستطيع الحصول على تلك المعلومات الجيّدة. مع أنّهم يقولون إنّك أنفقت ألف باوند على الكاردينال".

"أتوقّع استعادة المبلغ، من هنا وهناك".

"أفترض أنّ الناس ممتنون لك، إن كانوا قد حصلوا على هبات من أراضي الكاردينال".

قال في نفسه: وماذا عن شقيقك جورج، اللورد روتشفوردي، ووالدك توماس، إيرل ويلتشاير، ألم يزدادوا ثراءً بسقوط الكاردينال؟ انظري إلى ما يرتديه جورج هذه الأيام، انظري إلى المال الذي ينفقه على الأحصنة والنساء. ولكنني لا أرى أمارات الامتنان على وجوه آل بولين. قال: "أنا لا آخذ سوى نفقات تحويل الملكية".

ضحكت قائلة: "لا تبدو سيّئة".

"تعرفين، ثمّة طرائق عديدة... أحياناً، يقول لي الناس أشياء وحسب".

كانت تلك دعوة. حفزت أنّ رأسها. كانت على وشك أن تصبح واحدة من أولئك الناس، ولكن ليس الليلة ربّما. "يقول والدي، لا يمكن أن يثق المرء أبداً بذلك الشخص، لا يمكن أن تعرف لحساب من يعمل. كان عليّ أن أفكّر - وإن كنت مجرد امرأة - في أنّه من الواضح أنّك تعمل لحسابك الخاصّ".

قال في نفسه: هذا جعلنا متشابهين، ولكنّه ليس كافياً.

تتأبّت أنّ، على نحو شبيه بتثاؤب القططة، ثم قال: "أنت متعبة، سأذهب.

بالمناسبة، لماذا أرسلت بطلي؟".

"حبّ أن نعرف أين تكون".

"إذاً، لماذا لم يرسل بطلمي والدك أو شقيقك؟". نظرت إليه. ربّما كان الوقت متأخراً، ولكن ليس على ابتسامة آن الذكيّة. "ظنّا أنّك لن تأتي".

شهر آب/أغسطس: كتب الكاردينال إلى الملك رسالة شكوى، قال فيها إنّه مطارّد من قبل دائنيّه، "وانّه يعيش في البؤس والخوف". ولكنّ الأخبار أتت مختلفة. إذ قيل إنّه كان يقيم المأدب ويدعو جميع العائلات الأرستقراطية المحليّة. كان يتصدّق بسخائه القديم، يسوّي الدعاوى القانونيّة، ويراضي بين الأزواج ليعيشوا من جديد تحت سقف واحد.

كان ريوثيسلي في ساوثويل في حزيران/يونيو، مع ويليام بريريتون من مجلس الملك الخاصّ، للحصول على توقيع الكاردينال على عريضة ينشرها الملك وينوي إرسالها إلى البابا. كان نورفولك هو الذي أتى بفكرة جعل الأمراء والأساقفة يوقّعون على تلك الرسالة طالبين من كليمنت منح الملك حرّيته. كانت تحتوي على بعض التهديدات الغامضة وغير المحدّدة، ولكنّ كليمنت كان معتاداً على التهديد، وما من أحد يضاهيه في التهرّب من الأسئلة، أو تحريض فريق على آخر.

بدا الكاردينال بخير، بحسب ريوثيسلي. كما أنّ أعمال البناء تجاوزت على ما يبدو الإصلاحات وبعض التجديدات. فقد كان يطوف البلاد بحثاً عن الزجّاجين والنجّارين والسمكريين. وحين فكّر سيدي الكاردينال في تحسين الشروط الصحيّة، كان ذلك نذير شؤم. فكلما استلم كنيسة، جعل برجها أعلى، وأينما أقام، وضع خططاً لشبكات تصريف المياه. قريباً كانت ستبدأ أعمال الحفر، وتمدّ المجاريير والأنابيب. وبعدها سيبنّي النوافير. أينما حلّ، كان يهلّل له الناس.

قال نورفولك: "الناس؟ يهلّلون للقردة. من يأبه لمن يهلّلون؟ جميعهم يستحقّون الشنق".

قال: "ولكن على من نفرض الضرائب عندها؟". فنظر إليه نورفولك، غير واثق ممّا إذا كان يمزح.

كانت الشائعات حول شعبية الكاردينال لا تسرّه، بل تخيفه. كان الملك قد عفا عن الكاردينال، ولكن إن أثار حفيظته مرّة، من الممكن أن يثيرها مجدّداً. وإن كانوا قد عثروا له على أربع وأربعين تهمة، ففي إمكانهم إيجاد أربع وأربعين تهمة أخرى، ما دامت الفانتازيا غير مقيدة بالحقيقة.

رأى نورفولك وغاردينر يتهامسان. نظرا إليه. حدّقا إليه من دون أن يتكلّما.

ظلّ ريوثيسلي معه، يلازمه كظله، يكتب إليه رسائله الأكثر سرية، الموجهة إلى الكاردينال والملك. لم يشتك أبداً، ولم يتذمّر، وتذكّر كلّ ما يُطلب منه. حتّى رايف لم يكن أفضل منه.

حان الوقت لإدخال الفتيات في أعمال العائلة. كانت جوان تتذمّر من عدم براعة ابنتها بالخياطة، وبدا أنّ الابنة، وهي تمرّر الإبرة خلسة باليد غير المناسبة، ابتكرت قطبة صغيرة خرقاء يصعب تقليدها. فحصلت على وظيفة خياطة رسائله إلى الشمال.

شهر أيلول/سبتمبر 1530: ترك الكاردينال ساوثويل، مسافراً على مراحل إلى يورك. تحوّل الجزء التالي من رحلته إلى موكب نصر. توافد إليه الناس من جميع أنحاء الريف، وتجمهروا على جانب الطريق، ليضع يديه المباركتين على أولادهم. كانوا يسمّون ذلك "تثبيت التعميد" ولكنّه بدا سرّاً مبجلاً أكثر قديماً. توافدوا إليه بالآلاف وصلى من أجلهم جميعاً.

قال غاردينر، وهو يمر من أمامه: "وضع المجلس الكاردينال تحت المراقبة. وقد أفلوا جميع الموانئ".

قال نورفولك: "أخبره إنني إن رأيت مجدداً فسأمضغه، بعظمه ولحمه وغضاريفه". كتب تلك الجملة حرفياً وأرسلها: "بعظمه ولحمه وغضاريفه". كان يستطيع سماع أسنان الدوق وهي تنهش وتطحن.

في الثاني من تشرين الأوّل/أكتوبر، وصل الكاردينال إلى قصره في كاوود، على بعد عشرة أميال من يورك. كان ترسيمه قد حدّد في 7 تشرين الثاني/نوفمبر. نُشرت أنباء عن أنّه دعا الكنيسة الشمالية إلى الاجتماع في يورك يوم ترسيمه. كانت إشارة إلى استقلاله، وقد يظنّ بعض الأشخاص أنّها إشارة تمرد. فهو لم يخبر الملك، ولا وارهام العجوز، رئيس أساقفة كانتربوري. كان يستطيع سماع صوت الكاردينال، الناعم والمرح، وهو يقول: توماس، لم أحتاج إلى إخبارهم؟

استدعاه نورفولك. كان وجهه قرمزي اللون، بينما تجمّع زبد حول فمه حين بدأ يصرخ. كان صانع الدروع عنده، لقياس درع جديد، وكان لا يزال يرتدي أجزاء مختلفة منه، فبدا وكأنّه قدر معدنيّة تغلي. "هل يظنّ أنّه يستطيع أن يصنع لنفسه مملكة هناك؟ ألا تكفيه قبعة الكاردينال؟ ألن يرضي توماس وولزي ابن الجزّار اللعين سوى تاج؟ اسمع، اسمع...".

خفض نظره خوفاً من أن يقرأ الدوق أفكاره. قال في نفسه: كان سيدي الكاردينال

ليكون ملكاً رائعاً. فهو كريم، وواثق، ولطيف في تعاملاته، كما أنه عادل، وفطن، وذكي. لكننا عرفنا في عهده أفضل حكم وأفضل رعيّة. وكم كان ليستمتع بمركزه. نظر إلى الدوق وهو يرغي ويزيد. ولكنّه فوجئ حين استدار الدوق وضرب فخذه المعدنية، فيما تفرقت في عينه دمعة ألم أو شيء آخر ربّما. "آه، تظنّ أنّي رجل قاسٍ، يا كرومويل. أنا لست قاسياً إلى حدّ عدم إدراك الحال التي إلّت إليها. هل تعرف ما أظنّ؟ أظنّ أنّه ما من رجل في إنكلترا يفعل ما فعلته لرجل بعد سقوطه. الملك يقول ذلك. حتّى هو، شابوي، سفير الإمبراطور، يقول إنّنا لا نستطيع لومك. وأنا أقول، من المؤسف أنّك عرفت وولزي. من المؤسف أنّك لا تعمل لديّ".

قال: "حسناً، جميعنا نريد الشيء نفسه. نريد أن تصبح ابنة أختك ملكة. ألا يمكننا العمل معاً؟".

صرّ نورفولك على أسنانه. ثمّة خطأ برأيه في كلمة "معاً"، ولكنّه لم يستطع قوله. "لا تنسَ منزلتك".

انحنى قائلاً: "أنا أعني مدى عطف سيادتكم".

"اسمع، كرومويل، أتمنّى لو تأتي لرؤيتي في منزلي في كينينغ هول، وتحدّث إلى الليدي زوجتي. إنّها امرأة متطلّبة جدّاً. تظنّ أنّه لا يتعين عليّ الاحتفاظ بامرأة في المنزل لمتعتي الخاصّة. أسألها، إذاً، أين يجب أن تكون؟ هل تريدني أن أزجج نفسي في ليلة شتاء وأخاطر على الطرقات الجليدية؟ لا يبدو أنّي أنجح في التعبير عن نفسي بشكل صحيح، لذا هل تظنّ أنّ في استطاعتك المجيء لإقناعها بوجهة نظري؟"، ثمّ أضاف بسرعة: "ليس الآن، بالطبع. لا. ثمّة أمر عاجل أكثر... اذهب لرؤية ابنة أختي...".

"كيف حالها؟".

قال نورفولك: "برأبي، هي على وشك ارتكاب جريمة دموية. تريد وضع أحشاء الكاردينال في طبق وإطعامها لكلابها، وتثبيت أطرافه فوق أبواب يورك".

كان صباحاً قاتماً، تتحوّل فيه عينا المرء بشكل طبيعي إلى آن، ولكن كان ثمّة ظلّ يتمايل عند أطراف دائرة الضوء. قالت آن: "عاد د. كرانمر للتوّ من روما. لم يأت إلينا بأخبار جيّدة بالطبع".

كانا يعرفان بعضهما بعضاً. فقد كان كرانمر يعمل لدى الكاردينال من وقت إلى آخر، شأنه شأن الجميع. وكان حالياً ناشطاً في العمل على قضية الملك. تعانقا بحذر. طالب من كامبريدج وشخص من بوتتي.

قال: "سيدي؟ لماذا لا تأتي إلى كليتنا؟ أعني إلى كلية الكاردينال؟ كان غبطته يودّ لو تفعل. لكنك استرحت لدينا كثيراً".

قالت آن ساخرة: "أظنّ أنه أراد استمرارية أكبر".
"مع احترامي، ليدي آن، قال الملك تقريباً إنّه سيأخذ على عاتقه مؤسّسة أوكسفورد". وابتسم مضيفاً: "ربّما يتمّ إطلاق اسمك عليها؟".
كانت آن تضع هذا الصباح قلادة ذهبية، تعبت بها بأصابعها بنفاد صبر، أحياناً، ثمّ تعود إلى إخفاء يديها في أكمامها. كانت تلك عادة لديها، إلى حدّ أنّ الناس يقولون إنّ لديها ما تخفيه، تشوّه ربّما، ولكنّه يظنّ أنّها امرأة لا تحبّ إظهار يدها. "يقول خالي نورفوك إنّ وولزي يتنقّل مع ثمانمئة رجل مسلّح خلفه لحمايته. ويقولون إنّه يستلم رسائل من كاثرين، أهذا صحيح؟ وإنّ روما ستصدر مرسوماً تأمر فيه الملك بالانفصال عني".

قال كرانمر: "سيكون هذا خطأ فادحاً من جانب روما".
"صحيح، فهو لن يقبل بأن توجّه إليه الأوامر. أهو موظّف أم ملك إنكلترا؟ أم طفل؟ ما كان هذا ليحدث في فرنسا. ملكهم يُبقي رجال الدين تحت سيطرته. يقول السيّد تيندايل: "ملك واحد، وقانون واحد، ذلك هو القانون في كلّ مملكة". لقد قرأت كتابه، إذعان المسيحي. أريته بنفسه للملك وأشرت إلى المقاطع التي تتعلّق بسلطته. على الرعيّة أن تطيع ملكها كما تطيع ربّها، أليس كلامه واضحاً؟ سيعرف البابا مكانته".

نظر إليها كرانمر وعلى فمه نصف ابتسامة. كانت مثل طفل تُعلّمه القراءة، ثمّ يفاجئك بذكاء غير متوقّع.

قالت: "انتظر، أريد أن أريك شيئاً". حوّلت نظرها قائلة: "ليدي كاري...".

قالت ماري: "آه، رجاء. لا تعرها انتباهاً".

قطّقت آن ببراجمها، فأتت ماري بولين لتقف في الضوء، وومض شعرها الأشقر. قالت آن: "أعطني إيّاها". كانت ورقة، فتحتها. "وجدتها في سريري، هل تصدّق؟ حدث ذلك في ليلة نزعت فيها تلك الفتاة المتسلّلة ذات الوجه الأبيض الحريري الأغطية. وبالطبع لم أتمكّن من فهم شيء منها، فهي تبكي إن نظرت إليها شزراً. وهكذا، لم أعرف من وضعها هناك".

كان على الورق رسم لثلاثة أشخاص. في الوسط، بدا رسم الملك. كان كبيراً ووسيماً، وحرصاً على تأكيد هويّته، كان يضع تاجاً على رأسه. قالت: "تلك هي

الملكة، كاثرين. وهذه أنا". ضحكت مضيفة بالفرنسية: "آن بلا رأس".
مدّ د. كرانمر يده قائلاً: "أعطني إياها، سألتفها".

جعدت الورقة في قبضتها قائلة: "أستطيع إتلافها بنفسني. ثمّة من توقع أنّ إحدى ملكات إنكلترا ستموت حرقاً. لا يخيفني ذلك، وحتى لو كان صحيحاً، أنا مستعدة للمخاطرة".

وقفت ماري كالتمثال في المكان الذي تركتها فيه آن. كانت تضمّ يديها وكأنّ الورقة لا تزال فيهما. قال في نفسه: آه، ربّاه، لو أنّها خارج هذا المكان. لو يستطيع أخذها إلى مكان تنسى فيه أنّها من أسرة بولين. طلبت منّي مرّة وخذلتها. ولو طلبت مرّة أخرى، سأخذلها مجدداً.

التفتت آن نحو الضوء. كانت وجنتاها مجوّفتين - كم أصبحت نحيلة الآن - وعيناها مشتعلتين. قالت: "هذا ما سيحدث. أيّاً يكن من يعارض ذلك، سيحدث. أنوي أن أحصل عليه".

في الطريق إلى الخارج، لم يتحدّث مع د. كرانمر، إلى أن لمحا الفتاة الصغيرة الشاحبة آتية نحوهما، المتسلّلة ذات الوجه الأبيض الحريري، حاملة بياضات مطوية. قال: "أظنّ أنّها الفتاة التي تبكي. لذا، لا تنتظر إليها شزراً".

قالت: "سيّد كرومويل، قد يكون الشتاء طويلاً. أرسل إلينا مزيداً من كعك البرتقال." "لم أرك منذ وقت طويل... ماذا كنت تفعلين، أين كنت؟"

أجابت عن كلّ سؤال على حدة: "أخيط معظم الوقت. حيثما يتمّ إرسالني".
"وتتجسّسين على ما أظن".

هزّت رأسها موافقة. "لست بارعة في ذلك".

"لا أعرف. أنت قصيرة جداً ولا تلفتين الأنظار".

كان يقصد مجاملتها، فأغمضت عينيها شاكرة. "أنا لا أتكلّم الفرنسية، لذا، لا تفعل، رجاء، لأنني لن أتمكّن من الإجابة".

"لحساب من تتجسّسين؟"

"أشقائي".

"هل تعرفين د. كرانمر؟"

"كلاً". ظنّنت أنّه سؤال حقيقي.

"والآن، يجب عليك إخبارنا من تكونين".

"آه، حسناً. أنا ابنة جون سيمور. من وولف هول".

فوجئ بجوابها. "ظننت أنّ بناته مع الملكة كاثرين".
"أجل، أحياناً. كما قلت لك، أذهب إلى حيث يتم إرساله".
"ولكن ليس إلى حيث يتم تقديرك".

"يقدرونني هنا، إلى حدّ ما. فالليدي آن لن ترفض أيّاً من السيدات الموجودات في
حاشية الملكة واللواتي يرغبن بتمضية وقت برفقتها". نظرت إلى الأعلى، ولمعت
عينها ببريق شاحب عابر. "قلّة منهنّ يرغبن في ذلك".
كلّ عائلة صاعدة تحتاج إلى المعلومات. وبما أنّ الملك يعتبر نفسه أعزب، يمكن
لأيّ فتاة صغيرة أن تحمل مفتاح المستقبل، ولن ينفق كلّ ماله على آن. قال:
"حسناً، أتمنى لك التوفيق. سأحاول التحدّث إليك بالإنكليزية".
"أنا ممتّنة لك". انحنّت. "د. كرانمر".

التفت يراقبها وهي تتوجّه نحو آن بولين. ساوره شكّ عابر، بخصوص الورقة التي
وضعت في السرير. فكّر في نفسه: ولكن لا، هذا غير ممكن.
قال د. كرانمر مبتسماً: "أنت تعرف جيّداً سيّدات البلاط".
"ليس كثيراً. لا أزال لا أعرف أيّ ابنة هي، لديه ثلاث على الأقلّ. وأظنّ أنّ أبناء
سيمور يتمتّعون بالطموح".

"لا أعرفهم جيّداً".
"الكاردينال هو الذي أشرف على تنشئة إدوارد. إنّهُ شابّ ذكيّ، وتوم سيمور ليس
أحمق كما يدّعي".
"وماذا عن الأب؟".
"يقيم في ويلتشاير. لا نراه أبداً".
تمتم كرانمر: "أنا أحسده".

حياة الريف، ورغد العيش في القرية هما أمران لم يعرفهما أبداً. "كم مضى عليك
في كامبريدج قبل أن يستدعيك الملك؟".
ابتسم كرانمر: "ستة وعشرون عاماً".
كانا يرتديان كلاهما ملابس ركوب الخيل. "هل أنت عائد إلى كامبريدج اليوم؟".
"لا أعرف. فالعائلة - وكان يعني آل بولين - تريدني قريباً منها. وماذا عنك، سيّد
كرومويل؟".

"لديّ زبون خاصّ. لا أستطيع أن أكسب رزقي من نظرات الليدي آن الكئيبة".
كان الغلمان بانتظارهما مع جواديهما. أخرج د. كرانمر من ثنايا ملابسه أشياء

ملفوفة بالقماش. كان أحدها جزرة مقطّعة بالطول بعناية، والآخر تفاحة مقسّمة إلى أرباع. وكأنّه طفل يتقاسم معه الحلوى، أعطاه قطعتين من الجزر ونصف تفاحة لإطعام جواده. قال في أثناء ذلك: "أنت تدين بالكثير لأن بولين. أكثر ممّا تظنّ ربّما. لقد كوّنت رأياً جيّداً بك. أنا واثق أنّها ترغب في أن تكون أخت زوجتك...".

أحنى الجوادان عنقيهما، وراحا يمضغان الطعام، ويهزّان آذانهما مستمتعين. كانت لحظة سلام. قال: "ما من أسرار هنا، أليس كذلك؟".

"كلاّ، كلاّ. على الإطلاق". هزّ الكاهن رأسه مضيّفاً: "سألّنتي لماذا لا أذهب إلى كليّتكم".

"كان ذلك لمجرّد فتح حديث".

"مع ذلك... كما سمعنا في كامبريدج، قمتم بعمل رائع من أجل المؤسّسة... الطلاب والزملاء يثنون عليكم... لا يفوت السيّد كرومويل أيّ تفصيل. مع ذلك، تلك الراحة التي تفخرون بها..."، لم تتغيّر نبرته الناعمة، "في قبو السمك؟ حيث مات الطلبة؟".

"لم يستخفّ سيّدي الكاردينال بالموضوع".

قال كرانمر باستخفاف: "ولا أنا".

"لم يكن سيّدي الكاردينال يوماً من الرجال الذين يستبدّون بالناس بسبب آرائهم. لكنّك آمنّا هناك".

"أوكدّ لك أنّه ما كان ليجدني مهرطقاً. حتّى السوربون ما كانت لتجد فيّ عيباً. ليس لديّ ما أخشاه". ابتسم بشحوب: "ولكن ربّما... آه حسناً... ربّما كنت أنتمي إلى كامبريدج بالقلب".

قال لريوثيسلي: "أهو مستقيم في معتقداته بالفعل؟".

"تصعب معرفة ذلك. فهو لا يحبّ الرهبان".

"هل كان محبوباً في كليّة يسوع؟".

"يقال إنّّه كان مستجوباً قاسياً".

"أظنّ أنّ لا شيء يفوته. مع ذلك. يظنّ أنّ آن هي سيّدة فاضلة". تنهّد مضيّفاً: "وماذا نظنّ نحن؟".

ضحك ريوثيسلي ساخراً. كان قد تزوّج للتوّ من إحدى قريبات غاردينر، ولكنّ علاقاته بالنساء لم تكن لطيفة عموماً.

قال: "يبدو أنّه رجل كئيب، من النوع الذي يحبّ العيش في عزلة عن بقية العالم".

ارتفع حاجبا ريوثيسلي الجميلان، على نحو غير ملحوظ تقريباً. "هل أخبرك عن الساقية".

حين وصل كرانمر إلى المنزل، أطعمه لحم الغزال الطريّ. تناولوا العشاء بمفردهما، وعرف قصّته منه، ببطء ويسر. سأله من أين هو، وحين أجابه أنّه لن يعرف المكان، قال له: "جرّني، فقد زرت معظم الأماكن".

"إن ذهبت إلى أسلوكتون، فلن تعرف أنّك كنت هناك. فلو ابتعد المرء خمسة عشر كيلومتراً إلى نوتينغهام، وأمضى فيها الليلة، فستختفي أسلوكتون من ذهنه تماماً". قريته لا تحتوي حتّى على كنيسة. ليس فيها سوى بعض المنازل الفقيرة، ومنزل أبيه الذي عاشت فيه عائلته لثلاثة أجيال. "والدك سيّد؟".

"أجل، في الواقع". بدا كرانمر مصدوماً بعض الشيء، ماذا يكون غير ذلك؟ "آل تامورث من لينكولنشاير هم من أقاربنا، وكذلك آل كليفتون من كليفتون، وأسرة مولينوكس، التي لا بدّ من أن تكون قد سمعت بها، أم أنّك لم تفعل؟".

"وهل تملكون الكثير من الأراضي؟".

"لو خطر لي، لأحضرت معي الدفاتر".

"أعذرنى. فنحن معشر رجال الأعمال...".

ثبّت كرانمر نظره عليه، يقيّمه، ثمّ هزّ رأسه قائلاً: "مساحة صغيرة من الأراضي، وأنا لست ابنه البكر. ولكنّه ربّاني تربية حسنة. فقد علّمني الفروسية، وأعطاني أوّل قوس لي، وأوّل صقر لأدريه".

فكّر في الأب الذي مات منذ زمن طويل. لا يزال يبحث عن يده في الظلام.

"حين أصبحت في الثانية عشرة من عمري، أرسلني إلى المدرسة. عانيت هناك. فقد كان المعلّم قاسياً".

"معك أنت؟ أم مع الآخرين أيضاً؟".

"لأكون صادقاً، لم أفكّر إلاّ في نفسي. كنت ضعيفاً، بلا شكّ. وأظنّ أنّه كان يكره الضعف. هكذا هم معلّمو المدارس".

"لِمَ لم تشتك لوالدك؟".

"أتساءل الآن لماذا لم أفعل. ولكنّه مات بعد فترة، وكنت في الثالثة عشرة من عمري حينها. وبعد عام، أرسلتني أمّي إلى كامبريدج. كنت سعيداً بالهرب من عصاه. ليس لأنّ شعلة العلم كانت متوهّجة، فالرياح الشرقية أطفأتها. كانت

أوكسفورد كلّ شيء في تلك الحقبة، لا سيّما ماغداين، حيث كان كاردينالك".
قال في نفسه: لو أنّك ولدت في بوتني، ورأيت النهر كلّ يوم، وتخيّلته وهو يتّسع ليصبّ في البحر. حتّى لو لم تسبق لك رؤية المحيط، لكنك كوّنت صورة له في خيالك ممّا قاله لك الغرباء. ولعرفت أنّك يوماً ما ستخرج إلى عالم من الأرصفة الرخامية والمغرورين، من التلال التي يسودها الحرّ، ورائحة الأعشاب المسحوقة التي تفوح من حولك وأنت تمشي. ولخطّطت لما ستجلبه لك رحلاتك: لمسة الطين الدافئ، سماء الليل في مناخ آخر، أزهاراً غريبة، النظرة الحجرية لقدّيسي أشخاص آخرين. ولكن إن كنت قد ولدت في أسلوكتون، في حقول مسطّحة تحت سماء واسعة، لن تتخيل على الأرجح سوى كامبريدج، ولا شيء أبعد منها.
قال د. كرانمر: "قال الكاردينال لزميل لي في الكلية إنّك خطّفت من قبل القراصنة حين كنت صغيراً".

حدّق إليه للحظة، ثمّ ابتسم. "كم أنا مشتاق إلى سيّدي. بعد أن رحل إلى الشمال لم يعد ثمّة من يؤلّف عنّي الحكايات".
قال د. كرانمر بحذر: "إذاً، أليس هذا صحيحاً؟ لأنّني أتساءل ما إذا كان ثمّة شكّ في مسألة تعميدك. وفي هذه الحالة، ثمّة مشكلة".
"ولكنّ هذا لم يحدث أبداً، حقّاً. لكان القراصنة أعادوني".
عبس د. كرانمر. "كنت فتى مشاكساً؟".
"لو عرفتك حينئذٍ، لكنت ضربت معلّمك لأجلك".

توقف كرانمر عن الأكل، مع أنّه لم يأكل الكثير. قال في نفسه: سيظن هذا الرجل دائماً، عند أحد مستويات كيانه، أنّي وثني، ولن أحرره من وهمه الآن. قال: "هل تشتاق إلى دراساتك؟ فقد اختلفت حياتك منذ أن جعلك الملك سفيراً واضطرتت إلى السفر عبر البحار".

"في خليج بيسكاي، حين كنت آتياً من إسبانيا، كنّا نحملّ الأمتعة على السفينة. وهناك، سمعت اعترافات البحارة".

ضحك قائلاً: "لا بدّ من أنّها كانت مشوّقة، وهم يصرخون للتغطية على ضجيج العاصفة".

بعد ذلك النهار المضني، كان كرانمر ليعود إلى حياته القديمة، لو أنّه لم يذكر، وهو يلتقي بغاردينر، أنّه قد تتمّ دعوة الجامعات الأوروبية إلى التصويت على قضية الملك. جرّبتم المحامين الكنسيين، جرّبوا الآن علماء اللاهوت. لمّ لا؟ قال الملك،

أحضر لي د. كرانمر وكلفه بالمهمّة. قال الفاتيكان إنّه ليس ضدّ الفكرة، شرط ألاّ يُعرض المال على الكهنة. وهذا تحذير يبعث السرور في النفس، حين يأتي من بابا يحمل اسم عائلة دو ميديسي. بالنسبة إليه، تبدو هذه المبادرة بلا جدوى تقريباً، ولكنّه فكّر في آن بولين، وفكّر في ما قالتها أختها: هي لا تزداد شباباً. "اسمع، لقد وجدتّ مئة عالمٍ وعدداً كبيراً من الجامعات، وبعض الأشخاص يقولون إنّ الملك على حق...".

"معظم...".

"ولو وجدتّ مئتين غيرهم، ما أهمية ذلك؟ إقناع كليمنت مستحيل حالياً. الضغط هو الوسيلة الوحيدة، ولا أعني الضغط المعنوي".

"ولكن كليمنت ليس الوحيد الذي يجب علينا إقناعه بقضية الملك، بل أوروبا بأسرها، وجميع المسيحيين".

"وأخشى أنّ إقناع النساء المسيحيات سيكون أصعب".

أحنى كرانمر رأسه. "لم أستطع يوماً إقناع زوجتي بأيّ شيء. ما كنت لأفكّر حتّى في المحاولة". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "نحن أرملان، على ما أظن، سيّد كرومويل، وإنّ كنا سنصبح زميلين، لن أتركك مع التساؤلات، أو تحت رحمة القصاص التي يرونها لك الناس".

كانت الشمس تغيب وهو يتحدّث، وبدا وكأنّه يجرّ صوته، بكلّ همسة، وكلّ تردّد، بتثاقل مع المغيب. سُمع من خارج الغرفة التي جلسا فيها، وكان المنزل غارقاً في روتينه المسائي، صوت قرع وصرير، وكأنّ أحدهم ينقل طاولات، كما تعالّى صوت هتاف. ولكنّه تجاهله، وركّز انتباهه على الكاهن. قال: "كانت جوان خادمة يتيمة في منزل سيّد اعتاد على زيارته. لم تكن لديها عائلة، ولا دوطّة، فأشفق عليها". قال د. كرانمر: "لم أستطع مقاومة الزواج منها، وكيف يمكن لرجل مقاومة الزواج أساساً؟". فسُحبت عضويّته في الكليّة، بالطبع، ذلك أنّه من غير المسموح دخول أعضاء متزوّجين. وبالطبع، تعيّن عليها ترك منزلها. لم يعرف ما يفعل معها، فأسكنها في الدولفين، الذي كان يديره أحد معارفه، أحد - اعترف وهو يخفض نظره - أحد أقاربه، نعم صحيح، فأحد أقاربه يدير الدولفين.

"لا داعي للخجل. فالدولفين هو منزل جيّد".

"آه، أنت تعرفه، وعضّ على شفته".

تأمّل د. كرانمر: طريقته في الرمش بعينيّه، الإصبع الحذر الذي يضعه على ذقته،

عينيه الفصيحيتين ويديه الشاحبتين المتضرعتين. قال في نفسه: لم تكن جوان، لم تكن في الواقع، ساقية، مهما قال الناس عنها، وأعرف ما يقولون. كانت زوجة حاملاً، وكان هو طالباً فقيراً، يستعدّ ليعيش معها حياة صادقة وفقيرة. ولكنّ هذا لم يحدث في النهاية. ظنّ أنّه قد يعثر على وظيفة أمين سرّ لأحد النبلاء، أو معلّم، أو أنّه قد يكسب رزقه بقلمه، ولكنّ كلّ هذا التخطيط كان بلا جدوى. فكّر في الانتقال من كامبريدج، وحتىّ من إنكلترا، ولكنّه لم يضطرّ إلى ذلك، في النهاية. كان يأمل أن يساعده أحد معارفه، قبل ولادة الطفل، ولكنّ جوان ماتت في أثناء الولادة، ولم يستطع أحد فعل شيء من أجله. "لو عاش الطفل، لعوّض عليّ بعضاً من خسارتي. ولكنّ والحال كذلك، لم يعرف أحد ما يقوله لي. لم يعرفوا ما إذا كان يجدر بهم مواساتي على موت زوجتي أم تهنّئي على عودتي إلى الكليّة. فدخلت في الرهينة، لم لا؟ فكلّ ما جرى، زواجي، والطفل الذي ظننت أنّي سأحصل عليه، بدا أنّ زملائي اعتبروه خطأ في التقدير. كما يحدث حين تضلّ طريقك في الغابة. فتعود إلى البيت، ولا تفكّر في الأمر مجدّداً".

"ثمّة بعض الأشخاص الباردين والغريبين في هذا العالم. إنهم الكهنة، برأيي. مع احترامي لك، ولكنهم يدرّبون أنفسهم على العيش من دون مشاعر طبيعية. بالتأكيد، يفعلون ذلك بنية حسنة".

"لم تكن غلطة. عشنا معاً لعام كامل. لا أزال أفكّر فيها كلّ يوم".

فُتح الباب، ودخلت أليس حاملة المصباح. "أهذه ابنتك؟".

فضّل عدم الشرح، فقال: "هذه حبيبتي أليس. هذا ليس عمك، أليس؟".

هزّت رأسها في تحية مقتضبة للكاهن. "كلاً، ولكنّ رايف والآخرين يريدون أن يعرفوا عمّ تتحدّثان كلّ هذا الوقت. وهم ينتظرون ليعرفوا ما إذا كان ثمّة رسالة إلى الكاردينال الليلة. جو تنتظر مع الإبرة والخيط".

"قولي لهم إنني سأكتبها بخطّ يدي وأرسلها غداً. بإمكان جو الذهاب إلى السرير".

"آه، لسنا ذاهبين إلى السرير. فنحن نجعل كلاب غريغوري تجري في القاعة، ونصدر أصواتاً من شأنها إيقاظ الأموات".

"أفهم. الآن لماذا لا تريدون النوم".

قالت أليس: "نعم، هذا رائع. سلوكنا مثل سلوك عاملات المطابخ. لن يرغب أحد بالزواج منا أبداً. لو أنّ خالتنا ميرسي تصرفت على هذا النحو حين كانت فتاة صغيرة، لضربت على رأسها حتىّ تسيل الدماء من أذنيها".

قال: "إِذَا، نحن نعيش في زمن سعيد".

حين ذهبت، وأغلق الباب خلفها، سأله كرانمر: "ألا تعتفون الأولاد؟".

"نحاول تعليمهم بالقذوة، كما اقترح إيراسموس، مع أننا نحبّ جميعاً جعل الكلاب تتسابق في الردهة وإصدار الضجيج، وبالتالي، لسنا مثلاً جيّداً في هذا المجال". لم يعرف ما إذا كان يجدر به الابتسام. لديه غريغوري، ولديه أليس، وجوان والصغيرة جو، وفي زاوية عينه، على طرف مجال بصره، الفتاة الصغيرة الشاحبة التي تتجسّس على آل بولين. لديه صقور في الإسطبلات تطير إليه حين تسمع صوته. ماذا يملك هذا الرجل؟

قال د. كرانمر: "أفكّر في مستشاري الملك، أولئك الرجال الذين يرافقونه الآن". ولديه الكاردينال، هذا إن ظلّ الكاردينال يحبه بعد كلّ ما حدث. وإن مات، فليديه كلاب ابنه السوداء، لتجتو عند قدميه.

قال كرانمر: "إنّهم رجال قادرين على فعل كلّ ما يريد. ولكن، يبدو لي - لا أعرف كيف يبدو لك ذلك - أنّهم لا يفهمون وضعه تماماً... ويفتقرون إلى الضمير واللفظ والمحبة".

"هذا ما يجعلني أظنّ أنّه سيعيد الكاردينال".

تأمّل كرانمر وجهه ثمّ قال: "أخشى أنّه لا يمكن لذلك أن يحدث الآن". كان يتمنى أن يتحدّث ويعبّر عن الغضب والألم اللذين يعتملان في داخله. فقال: "لقد عمل الناس على إحداث سوء التفاهم بيننا. أفنعوا الكاردينال أنّي لا أعمل لما فيه مصلحته، بل لمصلحتي الشخصية، وأنّه قد تمّ شرائي، وأنني أرى أنّ كلّ يوم...".

"أنت بالطبع تراها...".

"إِذَا، كيف لي أن أعرف خطوتي التالية؟ لا يمكن لسيدي أن يعرف أو يفهم كيف هي الأمور هنا الآن".

قال كرانمر بلطف: "ألا يجدر بك الذهاب إليه؟ وجودك سيبدّد كلّ شكوكه".

"ما من وقت لذلك. لقد نُصِبَ الشرك له، ولا أجرؤ على التحرك".

أصبح الطقس بارداً. طارت عصافير الصيف وتجمّع المحامون بأجنحتهم السوداء في حقول لينكولن وغرايز إن من أجل الفصل الجديد. قريباً، سينتهي موسم الصيد، أو على الأقلّ الموسم الذي يخرج فيه الملك إلى الصيد كلّ يوم. ومهما يكن ما يحدث في أماكن أخرى، مهما تكن الخيبات والمشاكل، يمكنك نسيانها في الحقل.

الصيد هو من أكثر الناس براءة. فالعيش في اللحظة يجعله يشعر بالنقاء. عندما عاد في المساء، كان جسده يؤلمه وعقله مليئاً بصور الأوراق والسماء. لم يشأ قراءة المستندات، فمشاعر البؤس والحيرة تراجعت، وستبقى بعيدة، شرط أن يحرص، بعد الطعام والشراب، والضحك وتبادل القصص، على النهوض عند الفجر لفعل ذلك من جديد.

ولكنّ الملك الشتوي، الذي سيكون أقلّ انشغالاً، سيبدأ بالتفكير في ضميره. سيبدأ بالتفكير في كبريائه. سيبدأ بإعداد الجوائز لمن يستطيع أن يأتي له بالنتائج. كان يوماً خريفياً، شمس الشاحبة ترسل أشعتها من بين الأوراق الصفراء المرتعشة. خرجا إلى الحديقة. كان الملك يحبّ القيام بأكثر من شيء واحد في الوقت نفسه. فراح يتحدث ويصوّب الأسهم نحو هدف. قال: "هنا سنكون وحدنا، وسأكون حرّاً في فتح قلبي لك".

في الواقع، كان حولهما عدد من الأشخاص يكفي لإعمار قرية صغيرة، كأسلوكتون مثلاً. لم يكن الملك يعرف ما يعني أن يكون المرء وحده. هل سبق له أن كان بمفرده يوماً، حتّى ولو في أحلامه؟ "وحده" كانت تعني من دون نورفولك الذي يحوم حوله. "وحده" كانت تعني من دون تشارلز براندون، الذي أشار إليه الملك، في نوبة غضب صيفية، بالبقاء بعيداً وعدم الاقتراب لأكثر من خمسين ميلاً من القصر. "وحده" كانت تعني فقط مع يَوْمَن* القوس وخدمه، "وحدني مع سادة المجلس الخاص، وهم أصدقائي المختارون والمقربون". اثنان من هؤلاء السادة ينامان عند أسفل سريره، ما لم يكن مع الملكة. تلك كانت مهمتهما منذ بضع سنوات.

حين رأى هنري يشدّ قوسه، قال في نفسه، أرى الآن أنّه ملكي. كان الملك يحبّ ممارسة الرماية مرات عدة في الأسبوع، كما ينبغي لأيّ إنكليزيّ، أكان في بلاده أم في الخارج، في أوقات الحرب أو السلم، وفي السراء والضراء. كان يستخدم طوله الفارع، وعضلات ذراعيه وأكتافه وصدرة الجميلة المدربة، ليرسل أسهمه إلى عين الهدف مباشرة. ثمّ كان يمدّ ذراعه ليقوم أحدهم بترخية أو شدّ درع الذراع، وتغيير قوسه. حمل أحد العبيد فوطه ليمسح بها الملك جبينه، ثمّ لمّها من حيث أوقعها. وحين كانت تقشّر رمية أو رميتان، يشعر ملك إنكلترا بالسخط، لأنّه لا يستطيع أن يطقق بأصابعه لتغيير اتجاه الريح.

صرخ الملك: "تصلي نصائح مختلفة أنّه بمقدوري اعتبار زواجي لاغياً في نظر أوروبا المسيحية، والزواج مجدّداً كما أشاء، وقریباً".

لم يصرخ وهو يجيبه.
"ولكنّ الآخرين يقولون..."، هبّ النسيم، وحمل كلماته نحو أوروبا.
"أنا واحد من الآخرين".

قال هنري: "ربّاه، هذا سيفقدني شجاعتي. كم تظنّ أنه سيدوم صبري؟".
تردّد في القول: "أنت لا تزال تعيش مع زوجتك. تعيشان تحت سقف واحد، في قصر واحد. أينما ذهبتما، تذهبان معاً، هي من جهة الملكة وأنت من جهة الملك. قلت للكاردينال إنّها أختك وليست زوجتك، ولكن إن لم توفّق اليوم في الرماية، إن جرت الرياح عكس ما تشتهي، أو فاضت عيناك بدموع مفاجئة، فلا يمكنك إخبار أحد سوى الأخت كاثرين. ليس بمقدورك الاعتراف بضعفك أو فشلك لأن بولين".
تأمّل هنري وهو يمارس الرماية. وقام برماية سهم بعد أن دعاه إلى ذلك، ما سبّب الاستياء في صفوف السادة الذين كانوا يسيرون على العشب أو يتكئون على جذوع أشجار التوت والخوخ. مع أنّ هنري ماهر في الرماية، إلّا أنّه لا يتمتع بحركة رام بالفطرة. الرامي بالفطرة يلقي بكلّ جسده داخل القوس. ما عليك سوى مقارنة بريتشارد وويليامز، أو ريتشارد كرومويل، كما أصبح اسمه الآن. كان جدّه إيفان فتاناً مع القوس. لم يسبق له أن رآه، ولكنّه واثق من أنّ عضلاته كانت كالحبال، يسخرها كلّها في أثناء الرماية. وحين يتأمّل الملك الآن، يشعر بالرضى لأنّ جدّ جدّه لم يكن الرامي بلايبورن، كما تفيد القصة، بل ريتشارد، دوق يورك. كان جدّه ملكياً، وكذلك أمّه. كان يرمي مثل سيّد هاو، وهو ملك تماماً.

قال الملك: "لديك ذراع جيّدة، وعين جيّدة في الرماية". قال باستخفاف: "آه، من هذه المسافة". ثمّ أخبره: "كنا نقيم مباراة كلّ أحد، أنا وأهل بيتي. كنا نذهب إلى الصلاة، ومن ثمّ إلى مورفيلدز. هناك، كنا نلتقي زملائي من أعضاء النقابة ونهزم الجزّارين والبقّالين، ثمّ نتناول العشاء معاً. كنا نقيم مباريات حامية مع بائعي الشراب...".

التفت إليه هنري باندفاع، وقال: "ماذا لو أتيت معكم في إحدى المرّات؟ ماذا لو أتيت متتكرراً؟ العامّة ستحبّ ذلك، ما رأيك؟ يمكنني أن أرمي من أجلكم؟ على الملك الظهور أحياناً، أليس كذلك؟ سيكون هذا ممتعاً، ألا تظنّ ذلك؟".

قال في نفسه، ليس كثيراً. لم يكن يستطيع أن يجزم، ولكنّه ظنّ أنّه رأى دموعاً في عيني هنري. فقال: "بالتأكيد سنربح". هذا ما يقال لطفل. "سيزارأ بائعو الشراب غضباً كالأسود".

بدأ رذاذ المطر يتساقط، فمشيا نحو مأوى تحت الأشجار التي سقط ظلّ أوراقها على وجه الملك. قال: "نان كانت تهدّد بتركي. قالت إنّ ثمة رجالاً آخرين وإنّها كانت تضيع شبابها سدى".

بدأ نورفولك يشعر بالذعر في ذاك الأسبوع الأخير من شهر تشرين الأوّل/أكتوبر، من عام 1530: "اسمعوا، هذا الرجل"، وأشار بإبهامه، بفضاظة، إلى براندون، الذي عاد بالطبع إلى القصر، "هذا الرجل، هاجم الملك في الميدان قبل بضع سنوات، وكاد يقتله. يومها لم يكن هنري قد وضع مقدّمة خوذته، الله يعلم السبب، ولكنّ هذه الأمور تحدث أحيانا. فصوّب هذا السيّد رمحه - بام! - إلى خوذة الملك، وتحطّم الرمح على بعد إنش، إنش واحد، من عينه".

كان نورفولك قد آذى يده اليمنى، في حماسة حديثه. أجفل، ولكنّه تابع بغضب وجدية: "وبعد عام من تلك الحادثة، كان هنري يلاحق صقره - وأنتم تعرفون أنّ أرض البلاد المسطّحة خدّاعة - فوصل إلى خندق. وضع فوقه عموداً لمساعدته على العبور، ولكنّ العمود انكسر، فقد كان مهترئاً، وهكذا سقط جلالته على وجهه في عمق قدم من المياه والوحل، ولو لم ينتشله أحد الخدم، يربعني التفكير في ما كان سيحلّ به".

قال في نفسه: ها قد أُجبت عن أحد الأسئلة. حين كان يواجه خطراً، يمكنك انتشاله، أو اصطياده.

سأل نورفولك: "لنفرض أنّه مات. لنفرض أنّه أصيب بحمّى قاتلة أو سقط عن ظهر جواده ودقّ عنقه؟ من سيحلّ مكانه؟ ابنه غير الشرعي، ريتشموند؟ ليس لدي شيء ضده، ريتشموند هو صبيّ رائع، وأن تقول إنّ عليّ أن أزوجه ابنتي ماري. أن ليست حمقاء، وعلى حدّ قولها، علينا أن نضع شخصاً من آل هوارد في كلّ مكان، أينما نظر الملك. أنا لست على خلاف مع ريتشموند، باستثناء أنّه أنجب خارج الزواج. فهل يستطيع أن يحكم؟ اطرحوا هذا السؤال على أنفسكم. كيف حصلت أسرة تيودور على التاج؟ باللقب؟ كلاً. بالقوّة؟ بالضبط. فازوا بالمعركة بفضل الله. كان لدى الملك السابق قبضة لم نرّ مثلها، كانت لديه كتب عظيمة وضع فيها أحقاده ومتى عفا؟ لم يعفُ إطلاقاً! هكذا يحكم المرء، أيّها السادة". التقت إلى الحضور، إلى المستشارين الذين ينتظرون ويراقبون، وإلى سادة البلاط وغرفة النوم، إلى هنري نوريس، وإلى صديقه ويليام بريريتون، إلى الوزير غاردينر، وعلى نحو عرضي، إلى توماس كرومويل، الذي يراه على نحو متزايد في أماكن لا يجدر به التواجد فيها.

قال: "الملك السابق أنجب أبناء بفضل الله. ولكن حين مات آرثر، راحت أوروبا تشذ سيفوها للاستيلاء على هذه المملكة. لم يكن هنري قد تجاوز التاسعة من عمره حينئذٍ، ولو لم يعيش الملك السابق لبضع سنوات إضافية، لاندلعت الحروب من جديد. لا يمكن لفتى صغير أن يتسلم مقاليد الحكم في إنكلترا، فما بالكم بولدٍ غير شرعي؟ ليمنحني الله القوة! وها قد حلّ تشرين الثاني/نوفمبر مجدداً!".

من الصعب مجادلة الدوق في ما قاله. كان يفهم الوضع جيداً. حتى تلك الصرخة الأخيرة، التي خرجت من قبل الدوق. ها قد حلّ تشرين الثاني/نوفمبر، ومرّ عام منذ أن دخل هاورد وبراندون قصرَ يورك وطردا الكاردينال من منزله.

حلّ الصمت، ثمّ قحّ أحدهم، وتنهّد آخر، فيما ضحك أحد الحضور، وكان على الأرجح هنري نوريس. كان هو الذي تحدّث. "لدى الملك ابنة شرعية". التفت إليه نورفولك واحمرّ وجهه بعمق. قال: "ماري؟ ذاك المخلوق الصغير؟". "ستكبر".

قال سوفولك: "نحن ننتظر. لقد بلغت الرابعة عشرة من عمرها الآن، أليس كذلك؟". قال نورفولك: "ولكنّ وجهها لا يتجاوز حجم ظفر إبهامي". وأظهر الدوق إصبعه للحاضرين. "امرأة على عرش إنكلترا، هذا مخالف للطبيعة".

"كانت جدّتها ملكة قشتالة".

"لا تستطيع قيادة جيش".

"إيزابيلا فعلت".

قال الدوق: "كرومويل، لم أنت هنا؟ تصغي إلى حديث السادة وحسب؟".

"سيدي، بمقدور متسوّلي الشوارع سماع صراخك، حتى كاليه".

كان غاردينر قد التفت إليه باهتمام. "إذاً، هل تظنّ أنّه بمقدور ماري أن تحكم؟".

هزّ كتفيه: "يعتمد الأمر على من يقمّ إليها المشورة، وعلى من ستتزوج".

قال نورفولك: "علينا التصرّف سريعاً. لدى كاترين نصف محامي أوروبا، يقمّون

عنها الأوراق. هذا الإعفاء، وذاك الإعفاء، وإعفاء بصياغة مختلفة يقولون إنهم

حصلوا عليه في إسبانيا. لا يهمّ. القضية تجاوزت مسألة الأوراق".

سأل سوفولك: "لماذا؟ هل ابنة أختك حامل؟".

"كلاً! لكان ذلك أفضل. لأنّها لو كانت حاملاً، لاضطرّ إلى فعل شيء؟"

قال سوفولك: "وما هو؟".

"لا أدري. يمنح نفسه الطلاق؟".

صدرت حركة، وأنة، ومن ثمّ تتهدّد. نظر بعض الحاضرين إلى الدوق، وبعضهم إلى أحذيتهم. لم يكن ثمة رجل في القاعة لا يريد أن يحصل هنري على مبتغاه. فحياتهم وثروتهم اعتمدت على ذلك. نظر إلى الطريق الممتدّ أمامهم: طريق من العذاب عبر أرض مسطّحة، الأفق صافٍ على نحو مضلّ، البلاد تتخللها الخنادق، وكمية من الوحل تلوّث جسد ووجه الملك التيودوري الحالي، الذي انتشل وهو يتنشّق الهواء النقي. قال: "ما اسم ذاك الرجل الطيّب الذي انتشل الملك من الخندق؟". قال نورفولك، بجفاف: "السيد كرومويل يحبّ سماع أخبار العامّة". لم يكن يظنّ أنّ أحداً منهم يعرف اسمه، ولكنّ نوريس قال: "أنا أعرف. كان اسمه إدموند مودي".

قال سوفولك: "بل كان على الأرجح مادي"*. وانفجر ضاحكاً، فيما حدّقوا إليه.

كما قال نورفولك، حلّ تشرين الثاني/نوفمبر مجدّداً. أتت أليس وجو للتحدّث إليه، تقودان خلفهما بيلاً، بيلاً تلك الأيام، بشريط من الحرير الوردي. نظر إليهما: كيف أخدمكما أيّتها الأنستان؟".

قالت أليس: "سيدي، مضت أكثر من سنتين ونصف على وفاة الخالة إليزابيث، زوجتك. هلاً كتبت إلى الكاردينال لتطلب منه أن يسأل البابا أن يخرجها من حيث هي، من ذاك المكان...".

قال: "وماذا عن الخالة كات؟ وعن ابنتي الصغيرتين؟".

تبادلت الفتاتان النظرات. "لا نظنّ أنهنّ ما زلن هناك. آن كرومويل كانت فخورة بإتقانها الحساب، وتتباهى أنّها تتعلّم اليونانية. أمّا غرايس، فكانت تعترّ بشعرها، واعتادت على القول إنّ لديها جناحين، كانت تلك كذبة. نظنّ أنّهما يجب أن تتعدّبا أكثر. ولكن بمقدور الكاردينال أن يحاول".

قال في نفسه: إن لم تطلب ما تريده، فلن تتاله.

قالت أليس مشجّعة: "كنت ناشطاً جدّاً في أعمال الكاردينال بحيث إنّه لن يرفض. ومع أنّ الملك لم يعد يحبّ الكاردينال، إلّا أنّ البابا يحبه بالتأكيد؟".

قالت جو: "وأنا أظنّ أنّ الكاردينال يكتب إلى البابا كلّ يوم، مع أنّي لا أعرف من يخطب رسائله. وأظنّ أنّ الكاردينال قد يرسل إليه هدية، أعني بعض المال. تقول الخالة ميرسي إنّ البابا لا يفعل شيئاً بلا ثمن".

قال: "تعاليا معي". تبادلت الفتاتان النظرات، ولكنّه دفعهما أمامه. جرت خلفهم بيلاً بقوائمه الصغيرة. ومع أنّ جو أفلتت الشريط، إلّا أنّ بيلاً راحت تركض خلفهم.

كانت مرسي وجوان الكبرى جالستين معاً. لم يكن الصمت أنيساً. كانت ميرسي تقرأ، وتتمتع بكلمات بينها وبين نفسها. كانت جوان تحدّق إلى الجدار، وتخيّط. وضعت ميرسي إشارة إلى حيث وصلت، ثمّ قالت: "ما هذا، هيئة سفراء؟".

قال: "أخبراهما. جو، أخبري والدتك ماذا كنت تطلين مني".
بدأت جو بالبكاء. كانت أليس هي التي تحدّثت وعرضت قضيتها.
سألها: "ماذا كنتما تعلّمانهما؟".

هزّت جوان كتفيها: "كثير من الكبار يعتقدون بذلك".
"ربّاه، ما الذي يدور تحت سقف هذا المنزل؟ تظنّ هاتان الفتاتان أنّ البابا يستطيع النزول إلى الجحيم ومعه سلسلة من المفاتيح. بينما ينكر ريتشارد السرّ المبجل...".

فغرت جوان فاها: "ماذا؟ ماذا يفعل؟".

قالت ميرسي: "ريتشارد على حقّ...".

قالت أليس: "طبعاً، إنه محقّ".

حدّقت إليها جوان. "أيتها الوقحة الصغيرة".

"لو كانت أمّي هنا، لصفعتك على ذلك".

قال: "لا تتشاجرن، رجاء". كان أوستن فرايرز كالعالم نوعاً ما. وخلال هذه السنوات الأخيرة، كان أقرب إلى ساحة قتال منه إلى منزل، أقرب إلى مخيم ينظر فيه الجنود الذين ظلّوا على قيد الحياة إلى أطرافهم الممزّقة وآمالهم المبعثرة. ولكنّ قيادة هؤلاء الجنود الذين بقوا في الميدان هي مهمّته. إن لم يشأ أن يُقتلوا في الهجوم التالي، فعليه أن يعلمهم فنّ الدفاع عن النفس ومواجهة السبيلين، الإيمان والعمل، البابا والرهبان الجدد، كاثرين وأن. نظر إلى ميرسي، التي كانت تبتسم بتكأف. نظر إلى جوان، التي علا خديها الاحمرار. أشاح بنظره عن جوان وعن أفكاره، التي لم تكن دينية تماماً. قال للفتاتين: "لم ترتكبا أيّ خطأ". ولكنّ الصدمة كانت بادية على وجهيهما. فلاطفهما قائلاً: "سأعطيكما هدية، واحدة لجو، على خياطة رسائل الكاردينال، وأخرى لك أنت، أليس، وأنا واثق أنّنا لا نحتاج إلى سبب. سأعطيكما قردين".

نظرت الفتاتان إلى بعضهما بعضاً. أغرت الفكرة جو. "هل تعرف من أين تحضرهما؟".

"أظنّ ذلك. فقد ذهبت إلى منزل قاضي القضاة، وكان لدى زوجته حيوان من هذا النوع، يجلس على ركبتيها ويصغي إلى كلّ ما تقوله".

قالت أليس: "ولكنّها ليست رائجة هذه الأيام".

قالت ميرسي: "مع ذلك، نشكرك".

كرّرت أليس: "مع ذلك، نشكرك. ولكنّ القردة لم تعد تتواجد في القصر منذ مجيء الليدي آن. الجراء مثل بيلا هي أكثر رواجاً".

قال: "كلّ شيء في حينه". "ربما". كانت الغرفة مليئة بالتيارات التحتية التي لا يفهمها كلّها. حمل كلبته تحت ذراعه، وذهب ليرى كيف يؤمّن مزيداً من المال للأخ جورج روتشفورد. وضع بيلا على مكتبه، لتغفو بين أوراقه. كانت تمتصّ طرف شريطها، وتحاول بنكاء فكّ العقدة من حول عنقها.

في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1530، أعطي هاري بيرسي، إيرل نورثامبرلاند الشاب، تفويضاً باعتقال الكاردينال. وصل الإيرل إلى كاوود لاعتقاله، قبل ثمان وأربعين ساعة من وصوله إلى يورك من أجل حفل تقليده رتبته. فتّم اصطحابه إلى قصر بونتفراكت تحت الحراسة، ومن هناك إلى دونكاستر، ومنها إلى شيفيلد بارك، منزل إيرل شروزبيري. هناك في منزل تالبوت، أصيب بالمرض. في 26 تشرين الثاني/نوفمبر، وصل شرطيّ البرج، مع أربعة وعشرين جندياً، لاقتياده جنوباً. ومن هناك سافر إلى دير ليسيستر. وبعد ثلاثة أيام، فارق الحياة. ماذا كانت إنكلترا قبل وولزي؟ جزيرة صغيرة، فقيرة وباردة.

وصل جورج كافينديش إلى أوستن فرايرز. كان يبكي وهو يتحدّث، وأحياناً، كان يجفّف دموعه ويعبّر عن خواطره. ولكنّه كان يبكي معظم الوقت. قال: "لم نكن قد أنهينا عشاءنا. كان سيّدي يتحدّث عن التحلية حين دخل هاري بيرسي. كان مكسوّاً بالوجل من الطريق، ويحمل في يده المفاتيح، التي سبق وأخذها من الحارس، وأوقف حرساً على السلاّم. وقف سيّدي وقال: هاري، لو عرفت، لانتظرتك على العشاء. أخشى أنّنا أنهينا السمك. هل أصليّ لحدوث معجزة؟ همستُ له قائلاً: سيّدي، لا تجدّف. ثمّ تقدّم هاري وأعلن قائلاً: سيّدي، أنا أعتقلك بتهمة الخيانة العظمى.

صمت كافينديش. هل انتظره كي ينفجر غاضباً؟ إلاّ أنّه شبك أصابعه، وكأنّه ينوي الصلاة. قال في نفسه، أنّ هي التي رتبت لذلك، ولا شكّ في أنّ ما فعلته منحها متعة سرّية كبيرة. فقد انتقمت لنفسها ولحبيبها القديم، ذاك الذي عنّفه الكاردينال وأبعده عن البلاط. قال: "كيف بدا؟ أعني هاري بيرسي؟".

"كان يرتعش من رأسه حتى قدميه".
"سيدي الكاردينال؟".

"طلب رؤية المذكّرة، التفويض. قال بيرسي، ثمّة أمور في التعليمات التي لديّ لا يمكنك الاطلاع عليها. فقال سيدي: إن لم تُرني إياها، فلن أستسلم لك. ثمّ قال لي سيدي: تعالَ جورج، سنذهب للتشاور في غرفتي. فسار مرافقو الإيرل في أعقابهم، ولكنني وقفت عند الباب وقطعت عليهم الطريق. دخل سيدي الكاردينال إلى غرفته، وسيطر على أعصابه، وحين التفت قال: كافينديش، انظر إلى وجهي، أنا لا أخشى أيّ رجل على وجه الأرض".

ابتعد كرومويل، كي لا يرى البؤس الذي يشعر به الرجل. نظر إلى الجدار، إلى الألواح الجديدة المنجّدة، ومرّر إصبعه في أخايدها. "حين أخرجوه من المنزل، كان أهل البلدة متجمّعين في الخارج. ركعوا على الطريق وراحوا يبكون. وطلبوا من الله الانتقام من هاري بيرسي".
فكر: سيكون ذلك على يديّ.

"توجّهنا إلى الجنوب. كان الطقس يسوء حالاً. وصلنا إلى دونكاستر في ساعة متأخّرة. في الشارع، كان الناس مصطفين يحملون الشموع لإنارة المكان. ظننا أنّهم سيتفرّقون، ولكنهم وقفوا طيلة الليل على الطريق، والشموع في أيديهم. هكذا إلى أن بدأ الفجر يبرّغ".

"لا بدّ من أنّ هذا المشهد رفع معنويّاته، مشهد الحشود".
"نعم، ولكنّه بعد ذلك - لم أخبرك، مع أنّه كان يجدر بي إخبارك - انقطع عن الطعام لمدّة أسبوع".
"لماذا؟ لم فعل ذلك؟".

قال بعض الأشخاص إنّّه كان ينوي تدمير نفسه. لا أصدّق ذلك. "طلبت له طبقاً من الإجاص المحفوظ والمشوي مع التوابل، هل أحسنت فعلاً؟".
"وهل أكل؟".

"قليلاً. ولكنّه وضع يده بعد ذلك على صدره. قال إنّّه يشعر بشيء بارد هناك، بارد وقاسٍ مثل المشخذ. وهنا بدأ كلّ شيء". نهض كافينديش، وراح يدور هو أيضاً في الغرفة. "طلبت له صيدلانياً، صنع له مسحوقاً، وجعلته يشربه على ثلاث دفعات. حتىّ إنني شربت واحدة، وجعلت الصيدلاني يشرب هو أيضاً. سيّد كرومويل، لم أكن أثق بأحد. تناول سيدي المسحوق وهذا الألم، وقال: الطقس عاصف. فضحكنا،

واعتقدتُ أنه سيصبح أفضل حالاً في اليوم التالي".
ثم أتى كينغستون".

"أجل. كيف لنا أن نخبر سيدي أن شرطيّ البرج أتى لأخذه؟ جلس سيدي على إحدى الحقائق، وقال: ويليام كينغستون؟ ويليام كينغستون؟ وظلّ يردد اسمه".
وطيلة الوقت، ظلّ يشعر بالثقل في صدره، مشحذ، فولاذ، سكين حادّ في أحشائه.
"قلت له: انظر إلى الجانب الإيجابي، سيدي. الآن ستتمكن من رؤية الملك وتبييض صفحتك أمامه. وقال له كينغستون الشيء نفسه، ولكن سيدي قال: أنتما تخذعاني. أعرف ما ينتظرنني، وأيّ مية أعدت لي. لم ننم تلك الليلة، فقد أخرج سيدي دماً أسود من أمعائه. وفي الصباح التالي، كان شديد الضعف ليتمكّن من الوقوف، وامتطاء الجواد. ولكن بعد ذلك امتطينا الجياد وأتينا إلى ليسبيستر".
"كانت الأيام قصيرة جداً، والإنارة ضعيفة. صباح يوم الاثنين، استيقظ عند الساعة الثامنة. كنت في أثناء ذلك أحضر الشموع، وأضعها على الحامل. قال: ظلّ من هناك على الجدار؟ وصرخ باسمك. ليسامحني الله، قلت له إنك في الطريق. قال: الطرقات غدارة. فأجبتة: أنت تعرف كرومويل، لا يؤخره شيء، إن قال إنه في الطريق، فسيأتي".

"جورج، أوجز أرجوك، لم أعد أحتمل".
ولكن على جورج أن يقول كلمته: "في الصباح التالي، عند الساعة الرابعة، أحضرت له طبقاً من حساء الدجاج، ولكنّه لم يأكله. أليس يوم صيام؟ وطلب أخذ الحساء. كان قد مضى على مرضه ثمانية أيام، يفرغ خلالها أمعائه باستمرار، وينزف ويتألم. وقال: صدّقني، الموت هو نهاية ما أنا فيه.
كان سيدي يعرف دائماً كيف يخرج من المحن. بذكائه وبراعته، كان يجد مخرجاً. سمّ؟ في هذه الحال، هو من سمّ نفسه بيده.

عند الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، لفظ آخر أنفاسه. لم يكن يُسمع حول سريره سوى صوت حبّات المسبحة. أمّا في الخارج، فكانت الخيول ترتاح في الإسطبلات، وقمر شتائي يرسل أشعته الباهتة على طريق لندن".
"هل مات في نومه؟". كان يتمنى لو أنّ آخر أيامه كانت أقلّ ألماً. قال جورج:
"كلاً، كان يتحدّث حتى آخر لحظة".

"هل تحدّث عني مجدداً؟ أيّ شيء؟ كلمة؟".
قال جورج: "غسلته وهيّأته للدفن. وجدت تحت قميصه الهولندي الجميل حزاماً من

الشعر... أنا آسف لإخبارك بذلك، أعرف أنك لا تحب تلك الممارسات، ولكن هذا ما حدث. أظن أنه لم يفعل ذلك أبداً إلى أن أصبح في ريتشموند مع الرهبان".

"وماذا حلّ بذاك الحزام؟".

"احتفظ به رهبان ليسيستر".

"ربّاه! سيجنون منه المال".

"هل تعلم أنهم لم يستطيعوا تأمين شيء أفضل من تابوت من الخشب الصرف؟". هنا فقط، استسلم جورج كافينديش وباح بمشاعره، فقط حين قال ذلك، شتم وقال: "أقسم، سمعتهم يطرقون الأخشاب لصنعه. وحين أتذكر النحات الفلورنسي ونعشه، الرخام الأسود، والبرونز... ولكتني رأيتَه بملابس رئيس الأساقفة التي كان يرتديها، وفتحت أصابعه لأضع في يده صولجانَه، تماماً كما تخيلت أنني سأراه في أثناء تقليده رتبته في يورك. كان سيتم ذلك بعد يومين وحسب. كانت حقائبنا قد حُزمت وكنا جاهزين للرحيل؛ إلى أن دخل علينا هاري بيرسي".

ثم قال: "هل تعرف يا جورج؟ لقد توصلت إليه، ارض بما حصلت عليه بعد سقوطك، اذهب إلى يورك وكن سعيداً لأنك على قيد الحياة... لو قبل، لعاش عشر سنوات أخرى، أنا واثق من ذلك".

"أرسلنا بطلب العمدة وجميع الشخصيات الرسمية في المدينة، كي يروه في نعشه، ولا يقال إنه بقي على قيد الحياة وهرب إلى فرنسا. أبدى بعض الأشخاص ملاحظات حول أصله الوضيع، والله، أتمنى لو كنت هناك...".

"أنا أيضاً".

"لأنهم ما كانوا ليفعلوا ذلك في وجهك، سيّد كرومويل، ولا كانوا ليتجرأوا على ذلك. حين حلّ المساء، بقينا ساهرين، والشموع تذوب حول نعشه حتى الرابعة صباحاً، وهي ساعة كنسية، كما تعلم. ثم سمعنا القدّاس، وعند الساعة السادسة، نقلناه إلى السرداب. وهناك تركناه".

عند الساعة السادسة، من يوم أربعاء، في ذكرى سانت أندرو الحواري. أنا، كاردينال بسيط. هناك تركناه وتوجّهنا جنوباً، لنجد الملك في قصر هامبتون. قال الملك لجورج: "لن أصدّق، ولا مقابل عشرين ألف باوند، أنّ الكاردينال قد مات".

قال: "اسمع يا كافينديش، حين يسألك الناس عمّا قاله الكاردينال في أيامه الأخيرة، فلا تقل لهم شيئاً".

رفع جورج حاجبيه وقال: "هذا ما فعلته، لم أقل لهم شيئاً. سألني الملك، وكذلك

السيد نورفولك".

"إن قلت شيئاً لنورفولك، فسيحوّله إلى خيانة".

"مع ذلك، أصبح هو أمين الصندوق، وقد دفع لي رواتبي المتأخرة. كان لديّ متأخرات ثلاثة فصول من السنة".

"وكم دفع لك، جورج؟".

"عشرة باوندات في العام".

"كان يجدر بك المجيء إليّ".

تلك كانت الوقائع، والأرقام. لو أنّه كان من الممكن إعادة ميت إلى الحياة مقابل 20.000 باوند، لاضطرّ هنري تيودور إلى توفير المال. نورفولك أمين الصندوق؟ لا بأس، ليس مهمّاً من يحمل اللقب، من يحمل مفاتيح الصناديق الخالية.

قال: "هل تعلم؟ لو أنّ الكاردينال يستطيع أن يسألني، كما كان يفعل في ما مضى، توماس، ما هي الهدية التي تريدها للعام الجديد، لقلت، أودّ إلقاء نظرة على حسابات المملكة".

تردّد كافينديش. بدأ يتكلّم، ثمّ أمسك عن الكلام هنيهة، واستأنف مجدداً. "قال الملك بعض الأشياء لي، في قصر هامبتون: مشورة ثلاثة أفضل، في حال غياب اثنين".

"أظنّه مثل".

"وقال: لو عرفت أنّ قبّعتي تعرف سرّي، لألقيتها في النار".

"وهذا أيضاً مثل، على ما أظنّ".

"هو يعني أنّه لن يختار أيّ مستشار بعد اليوم، لا اللورد نورفولك، ولا ستيفن غاردينر، أو أيّ شخص آخر. لن يقبل أن يكون ثمّة شخص مقرب منه كما كان الكاردينال".

هزّ رأسه موافقاً. كان هذا التفسير معقولاً.

بدا كافينديش مريضاً. لا شكّ في أنّه كان يعاني من الإجهاد بعد ليالي السهر الطويلة، وبقائه مستيقظاً قرب النعش. كان قلقاً بخصوص مبالغ المال المختلفة التي كانت مع الكاردينال في رحلته، والتي لم تعد معه حين مات. وكان يفكر أيضاً في كيفية إحضار أغراضه من يوركشاير إلى منزله. بدا أنّ نورفولك وعده بعربة ونفقات نقل. تحدّث كرومويل عن ذلك وهو فكر في الملك، وبعيداً عن نظر كافينديش، أطبق أصابعه، واحداً تلو الآخر، على قبضة يده. كانت ماري بولين قد رسمت شكلاً

على كفّ يده. قال في نفسه: هنري، قلبك في يدي.
حين رحل كافينديش، توجّه إلى دُرجه السريّ وأخرج منه العلبة التي أعطاه إيّاها الكاردينال يوم بدأ رحلته شمالاً. فكّ الرباط الذي أحاط بها بصبر. كان قد توقع ما وجده بداخلها. تدرج الخاتم الفيروزي في كفّه، وكان بارداً وكأته خرج من القبر. تخيل يدي الكاردينال، أصابعه الطويلة البيضاء والخالية من الندوب التي قادت بثبات عجلة سفينة الدولة لسنوات طويلة. ولكنّ الخاتم لاعم إصبعه وكأته صنع من أجله.

كانت ملابس الكاردينال مطويّة وخالية. لن تضيع هباء، بل سيتم قصّها وتحويلها إلى ملابس أخرى. ومن يعرف أين ستصبح مع مرور السنوات؟ ستلفت نظرك وسادة قرمزية أو بقعة من القماش الأحمر على راية ما. سترى ومضة منها داخل كمّ سترة أحد الرجال أو في تتوّرة إحدى المومسات.

سيذهب رجل آخر إلى ليسистер ليري أين مات ويتحدّث إلى رئيس الدير. سيتكبّد رجل آخر عناء تخيل ذلك، ولكن ليس هو. في اللون الأحمر لأرضية سجادة، في صدر طائر أبي الحنّاء أو طائر الصغنج، في ختم من الشمع أو في قلب وردة: كان الكاردينال حيّاً، متجذراً في الطبيعة المحيطة به، مكفناً في عينه الداخلية، يلمحه في وميض الياقوت، وفي لون الدم، وكان حيّاً ويتحدّث. انظر إلى وجهي: أنا لا أخشى أيّ رجل على وجه الأرض.

في قصر هامبتون، عُرضت مسرحية في القاعة الكبرى تحت عنوان نزول الكاردينال إلى الجحيم. أعادته بالذاكرة إلى العام الماضي، إلى غرايز إن. تحت أعين خدم الملك، عمل النجّارون بحماسة وبأجور إضافية لصنع أطر علّقت عليها لوحات تصوّر مشاهد التعذيب. وفي آخر القاعة، علّقت ستائر مشتعلة.

كانت أحداث المسرحية على النحو التالي: شخص قرمزيّ اللون ضخّم، مستقلق على ظهره، يصرخ بينما يجره على الأرض ممثلون متنكّرون بملابس صوفيّة سوداء. كان ثمّة أربعة منهم، واحد لكلّ من أطراف الميت. وكانوا يضعون أقنعة، ويحملون أشواكاً ينخسون فيها الكاردينال الميت الذي ينتفض ويتلوّى ويتوسّل إليهم. كان قد تمنّى لو أنّ الكاردينال مات من دون أن يتألّم، ولكنّ كافينديش نفى ذلك. مات واعياً، وهو يتحدّث عن الملك. استيقظ مجفلاً من نومه وسأل: ظلّ من ذاك الذي على الجدار؟

كان دوق نورفولك يمشي وهو يضحك ويقول: "أليست جيّدة؟ تستحقّ أن تُطبع!

والله، هذا ما سأفعله! سأمر بطبعها لأخذها معي إلى البيت، ويمكننا تأديتها مجدداً في الميلاد".

جلست أن تضحك وتشير بإصبعها وتصقّق. لم يسبق له أن رآها هكذا من قبل، بتلك البهجة والإشراق. كان هنري جالساً قربها بجمود، يضحك أحياناً، ولكنّه فكّر، لو أمكنك الاقتراب منه، لبدت عيناه خائفتين. تدحرج الكاردينال على الأرض، وراح يركل ذوي اللباس الصوفي الأسود، ولكنّهم واصلوا مضايقته، بملابسهم السوداء الصوفية، وراحوا يصرخون: "وولزي، علينا أخذك إلى الجحيم، لأنّ رئيسنا ينتظرك على العشاء".

حين رفع الجبل القرمزي رأسه وسأل: "أيّ نوع من الشراب يقدّم؟"، كاد ينسى نفسه ويضحك. أعلن الرجل الميت: "لن أتناول شراباً إنكليزياً، لا أريد أيّاً من بول القططة الذي يقدّمه اللورد نورفولك".

انفجرت أن ضاحكة وهي تشير إلى خالها. علا الصخب، واختلط بالدخان المتصاعد من النيران، وبالضحك والغناء من حول الطاولات، وصراخ الأسقف البدين. أكّدوا له أنّ رئيسهم فرنسي، وعلا الصفير والغناء. لفّ ذوو اللباس الصوفي الأسود عنق الكاردينال بحبل، ثمّ رفعوه على قدميه، فراح يقاومهم. لم تكن اللكمات مصطنعة كلّها، فكان يسمع أنّينهم مع شعورهم بالألم. كان ثمّة أربعة جلاّدين، وكيس قرمزي ضخم وفارغ، يختنق ويتشبّث بهم. صرخ الحاضرون: "ارموه! ارموه حيّاً!".

رفع الممثلون أيديهم، ثمّ وثبوا إلى الخلف، وتركوه يسقط. حين تدحرج على الأرض، وهو يلهث، غرزوا أشواكهم في بطنه وأخرجوا حبالاً من الأمعاء الصوفية الحمراء.

راح الكاردينال يشتم ويطلق الغازات، واندلعت الألعاب النارية من زوايا القاعة. رأى من طرف عينه امرأة تجري، ويدها على فمها، ولكنّ الخال نورفولك تقدّم قائلاً: "انظروا، هذه أمعاؤه أخرجها الجلاّدون! ما كنت لأمانع بدفع المال لرؤية ذلك!".

صرخ أحدهم: "العار عليك، توماس هاورد، تباع روحك لتري سقوط وولزي". استدارت الرؤوس، والتفت هو أيضاً، ولكنّ أحداً لم يعرف من الذي تكلم. ظنّ أنّه قد يكون توماس ويات؟ كان المنتكرون بلباس صوفي أسود قد نفضوا عنهم الغبار والنقطة أنفاسهم. صرخوا: "الآن!", وبدأوا بجّر الكاردينال إلى الجحيم، التي كانت واقعة، كما بدا، خلف الستائر في آخر القاعة.

تبعهم خلف الستائر. ركض الغلمان حاملين الأمعاء الصوفية للممثلين، ولكنّ

هجوم ذوي اللباس الصوفي الأسود أبعدهم. فأصيب أحد الغلمان على الأقلّ بلكمة مرفق في عينه وأوقع قدر الماء المغلي على قدميه. رأى الشياطين يخلعون أقنعتهم ويرمونها في الزاوية وهم يشتمون. راقبهم وهم يحاولون خلع ملابسهم الصوفية. التفت واحداهم إلى الآخر وهم يضحكون وبدأوا يشدونّها من رؤوس بعضهم بعضاً. قال جورج بولين بينما كان نوريس يحزّه: "إنّها مثل قميص نيسوس".

رفع جورج رأسه لتسوية شعره المبعثر. كانت بشرته البيضاء متوهّجة من احتكاكها بالصوف الخشن. كان جورج وهنري نوريس اللذان يمثلان دوري اليمين، هما اللذين أمسكا الكاردينال من يديه. أمّا شيطاننا القدمين، فما زالا يتصارعان مع ملابسهما. كان أحدهما صبيّاً يدعى فرانسيس ويستون، والآخر ويليام بريريتون، الذي كان ناضجاً بما يكفي وأكثر إدراكاً، شأنه شأن نوريس. كانوا مستغرقين تماماً، يضحكون ويشتمون ويطلبون ملابس نظيفة، إلى حدّ أنّهم لم يلاحظوا من يراقبهم، وعلى أيّ حال، ما كانوا يابهون لذلك. جفّفوا عرقهم، وأخذوا القمصان من أيدي الغلمان، ثمّ أدخلوا رؤوسهم فيها.

وسط المكان الذي أخلوه، كان الكاردينال يتمدّد بلا حراك، معزولاً عن القاعة بالسئائر. ربّما كان نائماً.

تقدّم من التلّة القرمزية، ثمّ توقّف ونظر إلى الأسفل. انتظر، إلى أن فتح الممثلّ عينيه. قال: "لا شكّ في أنني في الجحيم. لا شكّ في أنني في الجحيم إن كان الإيطالي هنا".

رفع الميت قناعه. كان سيكستون، المهرّج، السيّد باتش. السيّد باتش، الذي صرخ بشدّة، منذ عام مضى، حين أرادوا إبعاده عن سيّده.

مدّ باتش يده، كي يساعده على النهوض، ولكنّه لم يمسك بيده. حاول الرجل النهوض بنفسه، وهو يشتم. بدأ ينزع ملابسه القرمزية، يشدّها ويمزّقها من حول جسده. وقف أمامه كرومويل مكتوف اليدين. كانت يده التي يكتب بها مشدودة في قبضة غاضبة. نزع المهرّج وسائد الصوف الضخمة التي كان يحشو بها ثوبه، ليبدو من تحتها جسده الهزيل وصدّره المكسوّ بالشعر. قال: "لماذا أتيت إلى بلادي، أيّها الإيطالي؟ لماذا لم تبقى في بلادك؟".

كان سيكستون مهرّجاً، ولكنّه ليس مختلاً. يعرف تماماً أنّه ليس إيطاليّاً. قال باتش، بصوته اللندني المميّز: "لو بقيت هناك، لأصبح لديك الآن بلدة محصّنة خاصّة بك، وكاتدرائية. لكان لديك كاردينال من المرصبان لك وحدك لتأكله

بعد العشاء. لك وحدك لعام أو اثنين، إلى أن يأتي وحش أكبر ويخرجك". تناول الزي الذي خلعه باتش للتوّ. كان لونه الأحمر نارياً ورخيصاً، من صباغ الخشب البرازيلي القرمزي سريع الزوال، وكانت نفوح منه رائحة عرق غريبة. "كيف أمكنك تمثيل هذا الدور؟".

"أمثّل الدور الذي يدفعون لي لتمثيله. وأنت؟". ضحك ضحكته الشبيهة بالنباح، التي تجعله يبدو مجنوناً. "لا عجب أن تكون شديد المرارة هذه الأيام، فلا أحد يدفع لك، أليس كذلك، سيّد كرومويل، أيّها المرتزق المتقاعد؟". "لست متقاعداً إلى هذا الحدّ، أستطيع أن ألقنك درساً".

"بذاك الخنجر الذي كنت تعلّقه دائماً في حزامك؟". جرى باتش وهو يقفز. أمّا كرومويل، فاستند إلى الجدار يراقبه. سمع بكاء أحدهم بعيداً عن مرمى بصره. ربّما كان الغلام الذي أصيبت عينه، ربّما ضُرب الآن لأنّه أوقع القدر، أو لمجرّد أنّه يبكي. هكذا كانت الطفولة. تُعاقب، ثمّ تعاقب مجدداً على اعتراضك. هكذا تتعلّم عدم التذمّر. درس قاس، ولكنّه لا يُنسى.

راح باتش يجربّ وضعيات مختلفة وحركات مشينة، وكأنّه يستعدّ لمسرحيات قادمة. قال: "أعرف الحفرة التي ولدت فيها، توم، وهي حفرة لا تبعد كثيراً عن حفرتي". التفت إلى القاعة، حيث يفترض أن يكون الملك، يتابع يومه الممتع، خلف الستار الحاجب. أبعد باتش ساقيه ومدّ لسانه. "قال المجنون في قلبه، لا يوجد بابا". التفت وابتسم. "عد بعد عشر سنوات، سيّد كرومويل، وأخبرني من سيكون المجنون حينئذ".

"أنت تضيّع نكاتك عليّ هباءً، باتش".

"يمكن للمجانين قول أيّ شيء".

"ليس حيث تسري أوامري".

"وأين يقع هذا المكان؟ ليس حتّى في الفناء الخلفي الذي عمّدت فيه، في حفرة موحلة. تعالّ وقابلني هنا، بعد عشر سنوات من هذا اليوم، إن بقيت على قيد الحياة".

"ستشعر بالرعب إن متّ".

"لأنّني سأقف أمامك وأدعك تقتلني".

"بإمكاني دقّ عنقك الآن. لن يفتقدك أحد".

قال السيّد سيكستون: "صحيح. سيدحرجوني في الصباح ويلقونني في مزبلة. ماذا

إن خسروا مجنوناً؟ إنكلترا مليئة بالمجانين".

فوجئ حين رأى أن الظلام لم يهبط تماماً، فقد ظنَّ أن الليل قد خيم. في هذه القصور، يبقى وولزي. فهو الذي بناها. ابحت في الزوايا، فستشعر أنك تراه، حاملاً في يديه لفيفة من مخطّط الداما. ستشعر ببهجته لامتلاكه ستين سجادة تركية، وأمله باستقدام أفضل صنّاع المرايا في البندقية. "والآن، توماس، ستضيف إلى رسالتك بعض كلمات التحبب الإيطالية، بعض الجمل المبطنّة التي ستوحى، باللهجة المحلية وأكثر الأساليب كياسة، أنني أدفع أجوراً عالية".

وسيضيف أن شعب إنكلترا يرحّب بالأجانب وأنّ مناخ إنكلترا جميل. إنّ الطيور الذهبية تغرد على الأغصان الذهبية، وأنّ الملك الذهبي يجلس على تلة من القطع النقدية، ينشد أغنية من تأليفه.

حين عاد إلى أوستن فرايرز، شعر أنّ المكان غريب وخالٍ. استغرقت عودته من قصر هامبتون ساعات، وقد تأخّر الوقت. نظر إلى البقعة التي علق فيها شعار الكاردينال على الجدار. تمّت إعادة صياغة القبعة القرمزية مؤخراً، بناء على طلبه. قال: "يمكنك إزالتها الآن".

"وماذا نرسم مكانها، سيدي؟".

"اتركه خالياً".

"يمكننا إيجاد رسم رمزي جميل؟".

"بالتأكيد". ثمّ استدار ومشى مبتعداً. "اترك مجالاً".

الأموات يتذمرون من دفنهم

موسم الميلاد 1530

سمع صوت الطرق على البوابة بعد منتصف الليل. أيقظ الحارس أهل المنزل، وحين نزل إلى الأسفل، وعلى وجهه تعبير شرس وبكامل ملابسه، وجد جوان بثياب النوم، وشعرها مسدل على كتفيها، تسأل: "ما الذي يجري؟"، أبعدها ريتشارد ورايف ورجال المنزل جانباً. فقد كان ويليام بريريتون، من مجلس الملك الخاص، هو الذي دخل إلى بهو أوستن فرايرز، يرافقه رجال مسلحون. قال في نفسه، لقد أتوا لاعتقالي. تقدّم نحو بريريتون قائلاً: "ميلاداً مجيداً، ويليام. هل استيقظت باكراً أم سهرت حتى ساعة متأخرة؟".

أنت أليس وجو، فتذكّر تلك الليلة التي ماتت فيها ليز، حين وقفت ابنتاه بحزن وحيرة، بملابس النوم، تنتظران عودته إلى البيت. بدأت جو تبكي، فأنت ميرسي وأخذت الفتاتين بعيداً. نزل غريغوري، مرتدياً ملابسه للخروج. قال بحياء: "أنا هنا إن كنت تريدني".

قال بريريتون: "الملك في غرينيتش، ويريدك الآن". كانت لديه طرائق عادية في إظهار نفاذ صبره، إذ راح يصفق قفازه على كفّ يده ويضرب بقدمه على الأرض. قال لأهل بيته: "عودوا إلى النوم، لن يأمرني الملك بالذهاب إلى غرينيتش لاعتقالي، فالأمور لا تتمّ على هذا النحو". مع أنّه بالكاد كان يدري كيف يتمّ ذلك. التفت إلى بريريتون قائلاً: "لماذا يريدني؟".

كان نظر بريريتون يجول في المكان، لرؤية كيف يعيش هؤلاء الناس. "أنا حقاً لا أستطيع إفادتك".

نظر إلى ريتشارد ورأى كم يودّ تسديد لكمة إلى فم ذاك المتعجرف. فكّر في نفسه: هذا ما كنت عليه يوماً، ولكنتي الآن أكثر عنوبة من صباح في يوم ربيعي. خرجوا، ريتشارد، رايف، وهو، إلى الظلام والبرد القارس.

كان في الخارج مجموعة من حاملي المشاعل بانتظارهم، فضلاً عن قارب متوقّف عند أقرب رصيف. كانت المسافة إلى قصر بلاسينتيا بعيدة جداً، والتايمز مظلم جداً، وكأنّهم يجذّفون في نهر أسطّقس*. جلس الشبان أمامه، في مجموعة صامتة، وكأنّهم قريب واحد مركّب، مع أنّ رايف ليس من أقاربه بالطبع. قال في نفسه: بدا أنّي أصبحت مثل د. كرانمر: آل تامورث من لينكولنشاير هم من أقاربنا، وكذلك

آل كليفتون من كليفتون، وأسرة مولينوكس، التي لا بدّ من أن تكون قد سمعت بها، أم أنّك لم تفعل؟ نظر إلى النجوم، ولكنها بدت باهتة وبعيدة جداً، وفكّر في أنّها كذلك، على الأرجح.

إذاً، ماذا توجّب عليه أن يفعل؟ هل كان يجدر به فتح حديث مع بريريتون؟ تقع أراضي العائلة في ستافوردشاير، تشيشاير، على الحدود الويلزية. توفي السير راندال هذا العام، وورث ابنه ثروة طائلة، ألفاً في العام على الأقلّ بالكراون*، وثلاثمئة تقريباً من الأديرة المحلية... راح يجمع المبلغ في رأسه. لا بدّ من أن الرجل في سنّه تقريباً. كان والده لينسجم مع آل بريريتون، تلك الأسرة المشاكسة والمعكّرة للسلام. تذكر دعوى رفعت ضدّهم في محكمة النجوم***، قبل نحو خمسة عشر عاماً... لم يبدّ الظرف مناسباً لفتح حديث. كما أنّ بريريتون لم يبدّ أنّه يودّ ذلك.

لكلّ رحلة نهاية. كلّ رحلة تنتهي عند جسر، أو رصيف مكفّن بالضباب، حيث تكون المشاعل منتظرة. ذهبوا على الفور إلى الملك، في أعماق القصر، إلى جناحه الخاصّ. كان هاري نوريس بانتظارهم، ومن غيره؟ سأله بريريتون: "كيف حاله؟" نظر نوريس إليه، ثمّ قال: "في الواقع، سيّد كرومويل، نحن نلتقي في أغرب الظروف. هل هؤلاء هم أبناؤك؟". ابتسم وهو ينظر إلى وجوههم. "لا، من الواضح أنّهم ليسوا كذلك. إلا إن كانوا من نساء مختلفات".

ذكر أسماءهم: السيّد رايف سادلر، السيّد ريتشارد كرومويل، السيّد غريغوري كرومويل. لمح مسحةً من الفرع على وجه ابنه، فوضّح قائلاً: "هذا ابن أختي، وهذا ابني".

قال نوريس: "أنت وحدك ستدخل. تعال، هو بانتظارك". قال من فوق كتفه: "يخشى الملك الإصابة بالزكام. هلاًّ أحضرت له ثوب النوم الخمري، المبطّن بفراء السمور؟".

دمدم بريريتون بجواب ما. يا له من عمل وضيع، إن كنت تستطيع أن تكون في تشيستر، توقظ الناس، وتقرع طبلاً حول جدران المدينة.

كانت غرفة فسيحة تحتوي على سرير عالٍ ومزيّن بالنقوش. جال بنظره فوقه. في ضوء الشموع، بدت ستائر السرير بلون الحبر الأسود. كان السرير خالياً. جلس هنري على مقعد مخملي. بدا أنّه بمفرده، لكن الهواء كان عابقاً برائحة جافّة، بدفء القرفة، ما جعله يعتقد أنّ الكاردينال واقف في مكان ما في الظلال، يحمل بيده البرتقالة منزوعة اللبّ، المحشوة بالتوابل، التي يحملها دائماً حين يكون في غرفة

مليئة بالناس. ولكن ما رآه في الغرفة لم يكن طيف الكاردينال السمين، بل وجه توماس كرانمر البيضاء الباهت.

التفت إليه الملك وهو يدخل. "كرومويل، أتاني شقيقي الميت في المنام". لم يجب. ما هو الجواب المعقول على كلام كهذا؟ راقب الملك. لم يشعر بالرغبة في الضحك.

قال بلطف: "وكيف بدا شقيقكم؟".

"بدا كما أذكره... ولكنّه كان شاحباً، ونحياً جداً. وكان محاطاً بنار بيضاء، نور. ولكن، كما تعلم، لكان أخي الآن في الخامسة والأربعين من عمره. أهذا عمرك؟". أجاب: "تقريباً".

"أنا بارع في تقدير أعمار الناس. أتساءل من كان آرثر ليشبه، لو ظلّ على قيد الحياة. والدي على الأرجح. أنا الآن مثل جدّي".

اعتقد أنّ الملك سيسأله من يشبه، ولكن لا. فقد قرّر أنّه لا يملك أسلافاً. "مات في لادلو، في الشتاء. كان التتقل متعذراً على الطرقات، فاضطروا إلى نقل جثمانه في عربة ثيران. أمير إنكلترا يتنقل في عربة. لا أظنّ أنّهم أحسنوا فعلاً في ذلك".

دخل بريريتون في تلك اللحظة، حاملاً المخمل الخمري المبطن بفراء السمور. وقف هنري وخلع طبقة من الملابس المخملية، واستبدلها بأخرى، أكثر سماكة. زحفت بطانة الفراء فوق يديه، وكأنّه ملك وحش، ذو جسد مكسو بالفراء. قال: "دفنوه في وورسيستر. ولكنّ هذا الأمر يقلقني، فأنا لم أراه ميتاً أبداً".

قال د. كرانمر، من خلف الظلال: "لا يعود الأموات للتذمّر من دفنهم. وحدهم الأحياء خبيرون في هذه المسائل".

ضمّ الملك ثوبه حول جسده. "لم يسبق لي أن رأيت وجهه في منامي. كان جسده يشعّ بياضاً".

قال كرانمر: "ولكن هذا ليس جسده، إنّه صورة تكوّنت في عقل جلالتك. هذه الصور هي مثل الأجساد. اقرأ أوغسطين".

لم يبدُ على الملك وكأنّه يرغب في طلب كتاب. "في منامي، وقف ونظر إليّ". بدا حزيناً، حزيناً جداً. بدا وكأنّه يقول، إنني أخذت مكانه. وكأنّه يقول: أخذت مملكتي، واستعملت زوجتي. عاد ليشعري بالخجل".

قال كرانمر، وقد بدا عليه شيء من الضيق: "إن مات شقيق جلالتك قبل أن

يتمكّن من تسلّم مقاليد الحكم، فتلك إرادة الله. أمّا بالنسبة إلى الزواج المفترض، كلنا نعلم ونعتقد أنّه مخالف لأحكام الكتاب المقدّس. نعلم أنّ الرجل الموجود في روما لا يملك السلطة للإعفاء من حكم الكنيسة. كانت تلك خطيئة، ونحن نقرّ بها. ولكنّ رحمة الله واسعة".

قال هنري: "لكنها لن تشملني؛ سيقف أخي ضديّ. عاد ليجعلني أوجل من فعلتي، وعليّ تحمّل ذلك". أثارت الفكرة غضبه. "أنا، أنا وحدي".
كان كرانمر على وشك التحدّث، ولكنّه نظر إليه وهزّ رأسه من دون أن يلفت انتباه الملك. "هل تحدّث إليكم أخوكم آرثر في اللحم؟".
"كلّا".

"هل قام بأيّ إشارة؟".
"كلّا".

"إذاً، لماذا تعتقدون أنّه يضمّر لكم شيئاً سوى الخير؟ يبدو أنّكم قرأتم على وجهه ما لم يكن يعنيه، وهذا خطأ. أصغ إليّ". وضع يده على شخص الملك، على كمّه المخملي خمري اللون، على ذراعه، وقبض عليها بشدّة ليشعر به. "هل تعرفون العبارة التي يقولها المحامون، الموت يقبض على الأحياء؟ الأمير يموت، ولكنّ سلطته تنتقل عند وفاته، لا يسقط الحقّ ولا يخلو العرش. إن زاركم شقيقكم، فهو لم يفعل ذلك ليشعركم بالوجل، بل ليذكركم أنّكم تملكون سلطة الأحياء والأموات. هذه إشارة كي تتفحصوا ملكيّتكم، وتمارسونها".

نظر هنري إليه، وأخذ يفكّر. راح يمرّر يده على طرف كمّه شارداً. "أهذا ممكن؟".
بدأ كرانمر يتحدّث مجدّداً، ولكنّه قاطعه مرّة أخرى. "هل تعلمون ماذا كُتب على قبر آرثر؟".

"الملك السابق هو الملك الآتي".

"والدكم أكّد ذلك. أمير أتى من ويلز، وحقق الوعد الذي قطعه على أسلافه. عاد من منفاه الطويل وطالب بحقه القديم. ولكن لا يكفي أن تطالبوا ببلد، بل عليكم أن تسيطروا عليه وتجعلوه آمناً، في كلّ جيل من الأجيال. إن بدا لكم أنّ أخاكم يقول إنّكم أخذتم مكانه، فهو يعني أنّ تصبّحوا الملك الذي كان يُنتظر أن يكون. لم يتمكّن هو من إتمام مهمّته، ولكنّه سلّمكم إيّاها. منه الوعد، وعليكم التنفيذ".

تحوّل نظر الملك إلى كرانمر الذي قال بتصلّب: "لا يمكنني معارضة ذلك. لا أزال أنصح بعدم الاكتراث بالأحلام".

قال: "آه، ولكن أحلام الملوك ليست كأحلام سائر البشر".
"قد تكون محققاً".

قال هنري: "ولكن لماذا الآن؟ لماذا يعود الآن؟ أنا ملك منذ عشرين عاماً".
أمسك رغبتة في القول: لأنك بلغت الأربعين وهو يطلب منك أن تنضج. كم مرّة
مثّلت قصص آرثر، كم أقمت من الحفلات التتكريّة والمهرجانات، وكم من ممثّلين
ارتدوا الدروع الورقية وحملوا سيوفاً من خشب؟ قال: "لأنّه وقت حيوي، لأنّه الوقت
المناسب لتصبحوا الحاكم الذي يجب أن تكونوا، الرئيس الأعلى والأوحد لمملكتم.
اسألوا الليدي أن، ستقول لكم الشيء نفسه".

أقرّ الملك: "قالت ذلك. قالت إنّنا يجب ألا نواصل الخضوع لروما".
"وإن أتاكم والدكم في الحلم، فافهموه كذلك أيضاً، أنّه أتى ليشدّ على يدكم. فما من
أب يودّ أن يرى ابنه يتمتّع بسلطة أقلّ من سلطته".

ابتسم هنري ببطء. من الحلم، من الليل، من ليلة الرعب، من اليرقات والديدان، بدا
أنّه يقوم ويتمطّى. وقف بوجه مشرق. كانت ألسنة النار تضيء ثوبه، وفي ثناياه
العميقة، تبدو ألوان الأرض والطين. قال: "حسناً. الآن بدأت أفهم. عرفت من طلبت.
دائماً أعرف". استدار وتحدّث في الظلام: "هاري نوريس؟ كم الساعة؟ هل دقّت
الساعة الرابعة؟ أحضر لي ثوب القسيس للذهاب إلى القدّاس".

اقترح عليه د. كرانمر قائلاً: "ربّما أستطيع القيام بالقدّاس عنك". ولكنّ هنري قال:
"كلاً، أنت متعب. فقد جعلتكم تغادرون فراشكم أيّها السادة".

كان الأمر بسيطاً وحاسماً إلى هذا الحدّ. تمّ صرفهما، ومرّ من أمام الحراس. مشياً
بصمت، عائدتين إلى أهلها، خلف بريريتون. أخيراً، قال د. كرانمر: "عمل رائع".
التفت إليه. أراد أن يضحك الآن، ولكنّه لم يجرؤ على ذلك.

"لمسة ذكية، وإن أتاكم والدكم في الحلم... أفهم من ذلك أنّك لا تحبّ النهوض
غالباً في ساعة مبكرة".

"لقد دُعر أهل بيتي".

شعر كرانمر بالأسف عند ذلك، وكأنّه تكلم من دون تفكير. تتمم قائلاً: "أنا لا أنتبه
إلى هذه الأمور لأنني غير متزوج".

"وأنا أيضاً لست متزوجاً".

"كلاً، نسيت ذلك".

"هل لديك اعتراض على ما قلته؟".

"كان ممتازاً من جميع الجوانب، وكأنتك حضّرتَه قبل مجيئِك".
"وكيف لي ذلك؟".

"بالضبط. أنت رجل نبيه. مع ذلك... بالنسبة إلى الكتاب المقدّس، أنت تعرف...".
"بالنسبة إلى الكتاب المقدّس، اعتبرها ليلة عمل جيّدة".
قال كرانمر، وكأنّه يتحدّث في نفسه: "ولكنني أتساءل، أتساءل ماذا تظنّ الكتاب المقدّس. هل تظنّه صفحات بيضاء يستطيع توماس كرومويل أن يكتب عليها ما يشاء؟".

سكت قليلاً، ثمّ وضع يده على ذراعه وقال: "د. كرانمر، انظر إليّ. صدّقني، أنا صادق. ولست مذنباً إن كان الله قد منحني مظهر رجل خاطئ. لا بدّ من أنّ لديه حكمة من ذلك".

ابتسم كرانمر. "أظنّ أنّه منحك وجهاً كوجهك كي يربك أعداءك. ويدك تلك، حين قبضت بها على ذراع الملك، أجمّلتُ أنا نفسي. وهنري، شعر بها". هزّ رأسه مضيفاً: "أنت صاحب إرادة قويّة".

بإمكان رجال الدين فعل ذلك. بإمكانهم التحدّث عن شخصيتك وإطلاق الأحكام. هذا الحكم يبدو إيجابياً، مع أنّ الدكتور لم يخبره بشيء لا يعرفه. قال كرانمر: "تعال، لا شكّ في أنّ الجميع قلقون عليك".

تحلّق رايف، غريغوري، وريتشارد حوله: ماذا حدث؟ "رأى الملك حلماً".
بدا رايف مصدوماً: "حلماً؟ أيقظنا من نومنا من أجل حلم؟".

قال برييتون: "صدّقوني، يوقظ الناس من نومهم لسبب أبسط من ذلك".
"أنا ود. كرانمر متفقان على أنّ أحلام الملوك ليست كأحلام سائر البشر".
سأله غريغوري: "وهل كان حلماً مزعجاً؟".

"في البداية، ظنّته مزعجاً. ولكنّه لم يعد يبدو له كذلك".

نظروا إليه من دون أن يفهموا، ولكنّ غريغوري فهم. "حين كنت صغيراً، حلمت بكائنات غريبة. ظننت أنّها تحت سريري، ولكنك قلت لي، هذا غير ممكن، لا توجد كائنات غريبة على ضفّة النهر التي نعيش عليها، لأنّ الحراس لا يسمحون لها بعبور جسر لندن".

قال ريتشارد: "إذاً، هل ستشعر بالخوف إن عبرت جسر لندن إلى ساوثوارك؟".
قال غريغوري: "ساوثوارك؟ ما هي ساوثوارك؟".

قال رايف بنبرة أستاذ مدرسة: "هل تعلمون، أحياناً أرى شرارة شيء في غريغوري".

بالتأكيد ليست شعلة، بل مجرد شرارة".

"لأنه يحقّ لك أن تسخر، بلحيتك هذه".

قال ريتشارد: "وهل هذه لحية؟ تلك الشعيرات القليلة الحمراء؟ ظننت أنّ الحلاق لم يحسن حلاقة ذقنك".

كانوا يحضنون بعضهم بعضاً بعد أن ارتاح بهم. قال غريغوري: "ظننا أنّ الملك قرّر أن يسجنك".

هزّ كرانمر رأسه، بتسامح ومرح: "أولادك يحبّونك".

قال ريتشارد: "لا نستطيع العيش من دون الرجل المسؤول عنّا".

ثمّة ساعات لا تزال تفصلهم عن الفجر. كان هذا الصباح المظلم شبيهاً بالصباح الذي مات فيه الكاردينال. وكانت رائحة الثلج تفوح في الجوّ.

قال كرانمر: "أظنّ أنّه سيطلب رؤيتنا مجدداً، بعد أن يفكّر في ما قلته له ويتبع أفكاره إلى حيث تقوده".

"مع ذلك، سأعود إلى المدينة لتطمئنّ عليّ عائلي". فكّر في نفسه: سأغيّر ملابسني وأنتظر. قال لبريريتون: "تعرف أين تجدني، ويليام".

حيّاه بهزّة من رأسه، وسار مبتعداً. "د. كرانمر، أخبر الليدي بما فعلناه من أجلها الليلة". أحاط كتفي ابنه بذراعه، وهمس قائلاً: "غريغوري، قصص ميرلين تلك التي قرأتها، سنكتب المزيد منها".

قال غريغوري: "آه، لم أنهها. لقد أشرقت الشمس".

في وقت لاحق من ذلك اليوم، عاد إلى غرفة ذات جدران مكسوّة بالألواح الخشبية،

في غرينيتش. كان آخر يوم من عام 1530. خلع قفازيه المصنوعين من جلد الجدي المعطر بالعنبر. راح يتلمّس خاتمه الفيروزي بأصابع يده اليمنى ويسوّيه في مكانه.

قال الملك: "مجلس الشورى ينتظر". كان يضحك وكأنّه حقّق نصراً شخصياً. "اذهب للانضمام إليهم، سيحلّفونك".

كان د. كرانمر مع الملك، وبدا شاحباً جداً وصامتاً جداً. هزّ الدكتور رأسه، تحيّة له، ثمّ فوجئ بابتسامة تملأ وجهه وتثير عصر ذلك اليوم بأكمله.

حدثت الأمور بشكل مرتجل خلال الساعة التالية. لم يشأ الملك الانتظار وتمّ استدعاء المستشارين على الفور. كان الدوقات في بلدانهم، يحتفلون بفترة الميلاد ورأس السنة. وارهام العجوز، رئيس أساقفة كانتربوري، كان معنا. مضت عشرون سنةً منذ أن أقاله وولزي من منصبه كقاضي قضاة، أو على حدّ قول الكاردينال،

أراحه من مهامه الدنيوية ليتيح له فرصة قضاء أيامه الأخيرة في الصلاة. قال: "كرومويل، أنت مستشار! إلى أين وصل العالم!". كانت التجاعيد تملأ وجهه وبدت عيناه مثل عيني سمكة ميتة. ارتعشت يداه قليلاً وهو يقدم إليه الكتاب المقدس.

كان معنا توماس بولين، إيرل ويلتشاير، والقيّم على ختم الملك. وكان قاضي القضاة هنا أيضاً. فكرّ منزعجاً: لماذا لا يحلق مور شعره أبداً بشكل لائق؟ ألا يستطيع إيجاد الوقت لذلك في جدول أعماله الحافل؟ حين اقترب مور من الضوء، لاحظ أنّه مشعث الشعر أكثر من العادة، كما بدا وجهه كئيّباً وأحاطت بعينيه هالتان بلون الخوخ. "ماذا حلّ بك؟".

"ألم تسمع بالأمر؟ مات أبي".

قال: "ذاك العجوز الطيب. سنشتاق إلى مشورته الحكيمة في القانون". وإلى قصصه المملّة. لا أظنّ ذلك.

"مات بين ذراعيّ". وبدأ مور بالبكاء، أو بالأحرى، راح يتشجّج وتسيل الدموع من جسده بأكمله. قال، كان أبي نور حياتي. نحن لسنا من أولئك الرجال العظماء، بل مجرد ظلّ لما كانوا عليه. اطلب من أهلك في أوستن فرايرز أن يصلّوا من أجله. "هذا غريب، توماس، ولكن منذ أن رحل، أحسست بكبر سنّي. وكأنّني كنت مجرد صبيّ، حتّى بضعة أيّام خلت. ولكنّي أرى الآن أفضل أيّامي ورائي".

"تعرف، بعد أن ماتت إليزابيث، زوجتي..."، أراد أن يتابع، ومن ثمّ ابنتاي، شقيقتي، وخسرت عدداً كبيراً من أهلي، لم نخلع ملابس الحداد، والآن خسرت الكاردينال... ولكنّه لن يقرّ، ولو للحظة واحدة، أنّ الحزن استنزف عزيمته. لا يمكن للمرأة الحصول على أب آخر، ولكنّه بالكاد يودّ ذلك. أمّا بالنسبة إلى الزوجات، فكلّ اثنتين ببس واحد في نظر توماس مور. "أنت لا تصدّق ذلك الآن، ولكنّ الإحساس يعود، الإحساس بالعالم وكلّ ما عليك القيام به فيه".

"أعلم أنّك عانيت من الخسائر أنت أيضاً. حسناً". تنهّد وهزّ رأسه. "دعنا نقوم بهذا العمل الضروري".

كان مور هو من بدأ بقراءة القسم عليه. أقسم على إعطاء مشورة مخلصّة، وعلى أن يكون واضحاً في حديثه، وغير متحيّز، وكتوماً، وصادقاً في ولاءه. تابع للتحدّث عن المشورة الحكيمة والتكتم، حين فتح الباب ودخل غاردينر، وكأنّه غراب يترصد لخروف ميت. قال: "لا أظنّ أنّكم تستطيعون فعل ذلك من دون الوزير". فقال وارهام بلطف: "ربّاه، هل يتعيّن علينا البدء بتحليفه مجدداً؟".

كان توماس بولين يمرر يده على ذقنه. فقد وقع نظره على خاتم الكاردينال، وتحولت تعابير وجهه من الصدمة إلى السخرية. قال: "إن كنا لا نعرف الأصول، أظن أن توماس كرومويل لديه فكرة عنها. أعطه عاماً أو عامين، وسنشعر أنه لا لزوم لنا".

قال وارهام: "أنا واثق بأنني لن أعيش حتى أرى ذلك. هل لنا أن نتابع يا حضرة القاضي؟ آه، يا للرجل المسكين! أنت تبكي مجدداً. أنا آسف جداً من أجلك، ولكن الموت هو مصيرنا جميعاً".

قال في نفسه: ربّاه، إن كان هذا أفضل ما يمكن لرئيس أساقفة كانتربوري قوله، فأنا أستطيع القيام بالعمل.

أقسم على تأييد سلطات الملك، وورثته وخلفائه الشرعيين، وفكر في الابن غير الشرعي، ريتشموند، وفي ماري، تلك المخلوقة الصغيرة، وفي دوق نورفولك الذي يرفع إبهامه للحاضرين. قال رئيس الأساقفة: "حسناً، أنهينا. وسنقول آمين، لأننا لا نملك خياراً آخر. هل لنا بكأس من الشراب الدافئ؟ فهذا البرد يخترق العظام".

قال توماس مور: "أصبحت الآن عضواً في مجلس الشورى، أتمنى أن تخبر الملك بما يتعين عليه فعله، وليس ما يستطيع فعله وحسب. لأنّ الأسد، لو أدرك قوته، لصعبت السيطرة عليه".

في الخارج، كان المطر شبه المتجمد يتساقط برقاقات داكنة فوق مياه التاييمز. كانت إنكلترا تمتدّ أمام ناظريه، بشمسها الحمراء المائلة فوق حقول مكسوة بالثلوج. تذكر اليوم الذي تمّ فيه اقتحام قصر يورك. يومذاك، وقف هو وكافينديش جانباً، بينما فُتحت الصناديق وأخرجت منها ملابس الكاردينال. كانت أثوابه مصنوعة من خيوط الذهب والفضة، تزينها تطريزات من النجوم الذهبية، والطيور، والأسماك، والأياثل، والأسود، والأزهار. وحين أعيد توبيخها في صناديق السفر، بحث رجال الملك في الصناديق التي وضعت فيها الأثواب الكهنوتية البيضاء، التي تمّ ثنيها بأيادٍ خبيرة. انتقلت من يدٍ إلى أخرى، وهي تلمع قليلاً تحت الضوء. قال أحد الرجال: افرد إحداها لنرى نوعيتها. راحت الأصابع تتحسّس الأشرطة الكتانية. فقال جورج كافينديش: دعني أفعل. حين فرد القماش، أخذ يلوح في الهواء، بلونه الأبيض المدهش، وكان رقيقاً مثل جناح فراشة. وحين رفعت أغشية صناديق الملابس، فاحت منها رائحة الأرز والتوابل، غامضة، بعيدة، وجافة كالصحراء. أمّا الملابس الرقيقة فقد وضبت بالخزّامى. هطل مطر لندن على الزجاج، وفاضت رائحة الصيف في

ذلك الأصل المعتم.

القسم الرابع

أخف عواطفك

1531

سواء أكان ذلك نتيجةً للألم، أو للخوف، أو لخلل طبيعي؛ سواء أكان بسبب حرّ الصيف، أو صوت أبواق الصيد التي ترتفع من بعيد، أو دَوّامات الغبار في الغرف الفارغة؛ أو لأنّ الصغيرة لم تتم جيّداً، بسبب خدم أبيها الذين يحومون حولها منذ الفجر في شدّ الرحال؛ مهما يكن السبب، كانت منكمشة على نفسها، عيناها بلون المياه الموحلة. بينما كان يلقي التحية بتعابير لاتينية مهذّبة، رأى قبضتها تشتدّ على ظهر كرسيّ أمّها. "سيّدتي، ينبغي لابنتك أن تجلس". وتلافياً لنشوب نزاع في الرغبات، تناول مقعداً ووضعها بحزم قرب كاثرين.

مالت الملكة إلى الخلف، وبدا جسدها متصلباً في الجزء الأعلى من ثوبها، لتهمس بشيء إلى ابنتها. كانت السيّدات الإيطاليات، اللواتي يبدون خاليات البال، يرتدين دروعاً حديدية تحت ملابسهنّ الحريرية. وكان المرء يحتاج إلى صبر متناهٍ، ليس في المفاوضات وحسب، بل لتجريدهنّ من ملابسهنّ أيضاً.

خفضت ماري رأسها لتجيب أمّها. همست، بالقشتالية، إنّها الفوضى التي تحدثها الخادّمات. التقى نظره بنظر زوجين من العيون. كانت نظرة الفتاة غير مركّزة تقريباً. رأته، كما يظنّ، وكأنّه ظلّ كبير، في مكان يفيض باليؤس. تمتت كاثرين: استقيمي، كما يجدر بأميرة إنكلترا. أخذت ماري نفساً عميقاً، وهي ممسكة بظهر الكرسي. التفتت إليه بوجهها العاديّ المتقلّص، القاسي مثل ظفر إبهام نورفولك. كان الوقت قبل الظهرية، وكان الطقس حارّاً. ألقت الشمس على الجدار ظللاً مربّعة متمايلة من اللونين الليلكي والذهبي، فيما امتدّت تحتهم حقول ويندسور الذابلة. أمّا التايمز، فانكمش عن ضفّتيه.

تحدّثت الملكة بالإنكليزيّة. "هل تعرفين من يكون؟ إنّهُ السيّد كرومويل، الذي يكتب الآن جميع القوانين".

شعر بالإرباك بين لغتين، فقال: "سيّدتي، هل نتابع بالإنكليزية أم باللاتينية؟". "كان كاردينالك طرح السؤال نفسه، وكأنّني غريبة هنا. سأقول لك كما قلت للكاردينال، إنّني لقيت بأميرة ويلز منذ أن كنت في الثالثة من عمري. وكنت في السادسة عشرة من عمري حين أتيت إلى هذه البلاد للزواج بالملك آرثر. وكنت عذراء في السابعة عشرة من عمري حين مات. وكنت في الرابعة والعشرين من

عمري، عندما أصبحت ملكة إنكلترا، وسأضيف، تجنباً لأيّ شك، أنني الآن في السادسة والأربعين من عمري، ولا أزال ملكة، وأظنّ أنني الآن امرأة إنكليزية. ولكنني لن أكرّر لك كلّ ما قلته للكاردينال. أفترض أنّه ترك لك ملاحظات عن هذه الأمور".
شعر بأنّ عليه أن يحني رأسه. قالت الملكة: "منذ بداية العام، قدّمت بعض مشروعات القوانين إلى البرلمان. حتّى الآن، كانت مواهب السيّد كرومويل محصورة في المراباة، ولكنّه يجد الآن أنّ لديه موهبة في التشريع أيضاً. فإن كنت ترغبين في قانون جديد، فما عليك سوى الطلب منه. سمعت أنّك تأخذ المسودات معك ليلاً إلى منزلك في... أين يقع منزلك؟". جعلته يبدو وكأنّها تقول: "وكرك".
قالت ماري: "لقد سنّنت هذه القوانين ضدّ الكنيسة. أتساءل كيف يسمح لورداتنا بذلك".

قالت الملكة: "أنت تعلمين أنّ كاردينال يورك كان متّهماً، بموجب القانون praemunire، باغتصاب سلطان أبيك القضائي كحاكم إنكلترا. والآن وجد السيّد كرومويل وأصدقاؤه أنّ رجال الدين متواطئون جميعاً في تلك الجريمة، فطلبوا منهم دفع غرامة تتجاوز مئة ألف باوند".
"ليست غرامة. نسمّيها صدقة".

"وأنا أسمّيها ابتزازاً". التفتت إلى ابنتها وتابعت قائلةً: "إن سألتني لماذا لا تتمّ حماية الكنيسة، لا يمكنني سوى القول إنّه ثمّة نبلاء في هذه البلاد" - كانت تعني سوفولك ونورفولك - "سُمع عنهم قولهم إنّهم سيُسقطون سلطة الكنيسة، وإنّهم لن يطبقوا أبداً - فقد استخدموا هذه الكلمة - أن يتعاضم شأن ممثل البابا مجدداً إلى هذا الحدّ. أوافق أنّنا لا نحتاج إلى وولزي آخر، ولكنني لا أوافق هجومهم على الأساقفة. كان وولزي بالنسبة إليّ عدواً، ولكنّ هذا الأمر لم يبدّل مشاعري تجاه أمّنا المبجّلة، الكنيسة".
قال في نفسه: كان وولزي بالنسبة إليّ أباً وصديقاً، وهذا لم يبدّل مشاعري تجاه أمّنا المبجّلة، الكنيسة.

"أنت ورئيس المجلس أودلي، تتآمران معاً في ضوء الشموع". ذكرت الملكة اسم رئيس المجلس وكأنّها تقول: "خادمك". "وفي الصباح، تقنعان الملك باعتبار نفسه رئيس الكنيسة في إنكلترا".

قالت ماري: "مع أنّ البابا هو رئيس الكنيسة في كلّ مكان، ومن عرش القديس بيتر، تُستمدّ شرعية كلّ الحكومات. ما من مصدر آخر لها".
قال: "ليدي ماري، هلاًّ جلست؟". كان قد لمحها وهي تثني ركبته، فساعدتها على

الجلوس على المقعد. قال لها كي لا تشعر بالخجل: "إنه الحرّ من دون شكّ". فنظرت إليه بكآبة، مع نظرة امتنان بسيط، وما إن جلست، حتّى حلّ مكان تلك النظرة تعبير صخريّ، مثل سور مدينة محاصرة.

قال لكاثرين: "تقولين ثُغنان، ولكن تعرفين جلالتك، أكثر من أيّ شخص آخر، أنّه لا يمكن إقناع الملك بشيء".

"ولكن يمكن إغراؤه". التفتت إلى ماري، التي زحفت يداها إلى بطنها. "هكذا، عُنّ والدك الملك رئيساً للكنيسة، ولإراحة ضمير الأساقفة، طلبوا إضافة الجملة التالية: إلى الحدّ الذي يسمح به قانون الكنيسة".

قالت ماري: "وما معنى هذا؟ لا شيء".

"بل يعني كلّ شيء، يا سموّ الأميرة".

"أجل، هذا في غاية الذكاء".

قال: "أرجو أن تنظري إلى الأمر بهذه الطريقة، إنّ الملك قام وحسب بتحديد منصب يشغله أساساً، فالأسلاف...".

"ابتكروه في الأشهر الأخيرة...".

"... أظهروا أنّه من حقه".

تحت غطاء الرأس المنحرف غير المثبت بإتقان، كان جبين ماري يتصبّب عرقاً.

قالت: "ما حدّد يمكن إعادة تحديده، صحيح؟".

قالت أمّها: "بالفعل، إعادة تحديده لصالح الكنيسة؛ فقط إن رضخُ لرغباتهم

وتنازلت عن كوني ملكة وزوجة".

قال في نفسه: الأميرة على حقّ، ثمّة مجال للمفاوضات. "ما من شيء هنا لا

يمكن الرجوع عنه".

"كلاً، أنت تنتظر لتري ما يمكنني جلبه إلى طاولة معاهداتك". مدّت كاثرين يديها

الصغيرتين، والبدينتين، لتظهر أنّهما خاليتان. "وحده الأسقف فيشر يدافع عني. وحده

بقي على موقفه. وحده قادر على قول الحقيقة، وهي أنّ مجلس العموم مليء

بالوثنيين". تنهّدت وسقطت يداها إلى جانبيها. "والآن، بأيّ حجة خرج زوجي من

دون وداع؟ لم يسبق له أن فعل ذلك من قبل، أبداً".

"ينوي الصيد في تشيرتسي لبضعة أيام".

قالت ماري: "مع المرأة، الشخص".

ثمّ سيمرّ في طريقه في غيلدفورد لزيارة لورد سانديز؛ يريد أن يرى صالته الجديدة

في فاين". كانت نبرته لطيفة ومهدئة، مثل نبرة الكاردينال، ربّما كثيرة الشبه بها؟
"ومن هناك، اعتماداً على الطقس، سيذهب إلى منزل ويليام بوليت في بايسينغ".
"ومتى ألحق به؟".

"سيعود بعد أسبوع، إن شاء الله".

قالت ماري: "أسبوع، وحده مع الشخص".

"قبل ذلك، سيّدتي، يتعيّن عليك الذهاب إلى قصر آخر، وقد اختار قصر مور،
في هيرتفوردشاير، تعلمين أنّه مريح جداً".

قالت ماري: "بما أنّه منزل الكاردينال، لا شكّ في أنّه بالغ الترف".

قال في نفسه: ما كانت ابنتاي لتتحدّثا أبداً على هذا النحو.

قال: "سموّ الأميرة، هلاً توقّفت، من باب المحبّة، عن قول السوء عن رجل لم
يتسبّب لك بأيّ أذى؟".

احمرّت ماري خجلاً من عنقها حتّى خطّ شعرها، ثمّ قالت: "لم أقصد ذلك".

"الكاردينال كان عزّابك، أنت تدينين له بالدعاء".

نظرت إليه، وبدت خائفة: "أنا أتلو الأدعية دائماً في أجله...".

قاطعتها كاثرين: "أرسل صندوقاً إلى هيرتفوردشاير، أرسل رزماً، ولكن لا تسع إلى
إرسالي".

"يمكنك اصطحاب حاشيتك بأكملها، فالقصر جاهز لاستقبال منّتين".

"سأكتب إلى الملك، ويمكنك أن تحمل إليه هذه الرسالة. مكاني معه".

قال: "نصيحتي أن تأخذي الموضوع بتروّ. وإلاّ، فقد...". وأشار إلى الأميرة. ثمّ
جمع يديه وأبعدهما. "يفصلكما".

كانت الفتاة تكافح الألم، وأمّها تكافح الحزن والغضب، والاشمئزاز والخوف. قالت:

"توقّعت ذلك، ولكنني لم أتوقّع أن يرسل رجلاً مثلك لإخباري". قطّب حاجبيه: هل
تظنّ أنّ الخبر سيكون أخفّ وطأة من قبل نورفولك؟ "يقال إنّك كنت حدّاداً، أهذا

صحيح؟".

هل ستأمّرنني الآن بإصلاح حدوة فرس؟

"كانت مهنة والدي".

هزّت رأسها قائلة: "بدأت أفهمك، فالحدّاد يصنع أدواته بنفسه".

نصف ميل من الجدران البيضاء كانت أشبه بالمرآة بالنسبة إلى وهج الشمس،
فعكست عليه أشعة الشمس الحارقة. في ظلّ بوابة، كان غريغوري ورايف يتدافعان

ويشتمان بعضهما بعضاً بعبارات مطبخية كان قد علمهما إيّاها. سيّدي، أنت فلاندري بدين وزبدة مدهونة على الخبز. سيّدي، أنت روماني فقير، أتمنى أن تأكل ذريتك الحلازين. كان السيّد ريوثيسلي مستلقياً في الشمس يراقبهما، وقد ارتسمت ابتسامة كسولة على وجهه، فيما أحاط برأسه إكليل من الفراشات.

قال: "آه، هذا أنت". بدا ريوثيسلي مسروراً. "تبدو جيداً بأن تُرسم، سيّد ريوثيسلي، بسترتك الزرقاء، وهذا الشعاع من الضوء الذي يغمرك تماماً".

"سيّدي؟ ماذا قالت كاثرين؟".

"قالت إنّ سوابقنا مزيفة".

رايف: "هل فهمت أنّك جلست أنت والسيّد كرانمر طيلة الليل تعملان عليها؟".

قال غريغوري: "آه، يا له من وقت عصيب! مشاهدة طلوع الفجر مع د. كرانمر!".

أحاط كتفي رايف النحيلتين بذراعه وشدّ عليهما. شعر بأنّه تحرّر حين ابتعد عن كاثرين وعن الفتاة التي كانت تجفل وكأنّها حيوان مضروب. "في إحدى المرّات، قمت أنا وجوفانينو، أحد الصبية الذين كنت أعرفهم... سكت قليلاً، وقال في نفسه: ما هذا؟ أنا لا أروي قصصاً عن نفسي.

قال ريوثيسلي: "أرجوك...".

"حسناً، طلبنا صنع تمثال، على شكل رجل ممجّد صغير، مبتسم وذو أجنحة، ثمّ ضربناه بالمطارق والسلاسل ليبدو قديماً، واستأجرنا سائس بغال، ثمّ أخذناه إلى روما وبعناه لأحد الكرادلة". كان يوماً حارّاً جدّاً حين تمّ اصطحابهم لمقابلته: ضباب، ورعد يقصف في البعيد، بينما كان الغبار الأبيض الصادر من مواقع البناء يملأ الجوّ. "أذكر أنّ عينيه فاضتا بالدموع حين دفع لنا. حين أفكّر في أنّ على هاتين القدمين الصغيرتين الجميلتين وهذه الأجنحة الحلوة ربّما وقع نظر الإمبراطور أغسطس. وحين انطلق أولاد بورتيناري إلى فلورنسا، كانوا يترنّحون تحت ثقل أكياس النقود".

"وأنت؟".

"أخذت حصّتي وبقيت لبيع البغال".

ساروا إلى أسفل التلّ، عبر الباحات الداخلية، وكان يظللّ عينيه ليري عبر الأغصان المتشابكة الممتدة في البعيد. "قلت للملكة، دعي هنري يذهب بسلام، وإلّا فلن يسمح للأميرة بالانتقال معها".

قال ريوثيسلي مستغرباً: "ولكنّ هذا قد تقرّر. ستفصلان، وستذهب ماري إلى ريتشموند".

لم يعلم بذلك. أمل ألا يكون تردده ملحوظاً.

"بالطبع. ولكنّ الملكة لم تعلم بعد، وكان الأمر يستحقّ المحاولة، أليس كذلك؟".
السيد ريوثيسلي مفيد جداً. فهو يأتينا بالمعلومات من الوزير غاردينر. قال رايف:
"من القسوة استعمال فتاة صغيرة ضدّ أمّها".

"قاس، أجل... ولكنّ السؤال هو: هل اخترت أميرك؟ لأنّ هذا ما تفعله، تختاره،
وتعلم كيف هو. ثمّ، بعد أن تختاره، تقول له أجل، أجل، هذا ممكن، أجل، يمكن
فعل ذلك. إن كان هنري لا يعجبك، غادر هذه البلاد واعثر لك على أمير آخر.
ولكنني أوكد لك، لو كانت هذه إيطاليا، لكانت كاثرين الآن جتّة منذ زمن بعيد".
قال غريغوري: "ولكنك أقسمت على أنك تحترم الملكة".

"وأنا أحترمها، كما أنني سأحترم جتتها".

"أنت لن تتأمّر لقتلها، أليس كذلك؟".

سكت قليلاً، ثمّ أمسك بذراع ابنه، وأداره لينظر إلى وجهه، وقال: "تذكّر ما قلناه
للتوّ". شدّ غريغوري ذراعه. "كلاً، اسمع، غريغوري. قلتُ، أنت تفتح الطريق لتنفيذ
رغبات الملك، هذا ما يفعله رجال الحاشية. والآن، افهم ما سأقوله، يستحيل أن
يطلب هنري منّي أو من أيّ شخص كان إيذاء الملكة، فهو ليس وحشاً. حتّى الآن،
لا يزال يشعر بعاطفة تجاهها، وكيف لا؟ فليديه روح يأمل بخلصها. يعترف كلّ يوم
لأحد القسيسين. هل تظنّ أنّ الإمبراطور يهتمّ إلى هذا الحدّ، أو الملك فرانسيس؟
أوكد لك أنّ قلب هنري فيّاض بالعاطفة. وأقسم إنّ روح هنري هي أكثر الأرواح التي
تحاسب نفسها في العالم المسيحي".

قال ريوثيسلي: "سيد كرومويل، هذا ابنك، وليس سفيراً".

أقلت ذراع غريغوري، ثمّ قال: "هلاً ذهبنا إلى ضفّة النهر؟ قد نجد هناك بعض
النسيم".

في الجناح السفلي، كان ثمة ستة أزواج من الكلاب التي تدور وتنبح في الأقفاس
ذات العجلات، التي ستقلها عبر البلاد. كانت تدفع بعضها بعضاً وهي تهزّ بأذيالها
وتحرّك آذانها، فضاعف نباحها من إحساس الذعر الذي سيطر على القصر. كان
أشبه بإخلاء قلعة منه ببداية الصيف. كان الحراس يتصبّبون عرقاً وهم ينقلون أمتعة
الملك إلى العربات. علق اثنان منهما وهما يحملان صندوقاً مرصعاً في أحد
الأبواب. تذكّر نفسه في سفره، صبّي تكسوه الكدمات، يحمل الأمتعة على العربات
للتقلّ مجاناً. تجوّل في المكان قائلاً: "كيف حدث ذلك، أيّها الأولاد؟".

ثَبَّتْ إِحْدَى زَوَايَا الصَّنْدُوقِ وَجَعَلَهُمَا يَتَرَاجَعَانِ إِلَى الدَّخْلِ. ثُمَّ عَدَّلَ زَاوِيَةَ الدَّوْرَانِ بِنَقْرَةٍ مِنْ يَدِهِ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ التَّعَثُّرِ، خَرَجَا إِلَى النُّورِ وَهُمَا يَصِيحَانِ: "هَذَا نَحْنُ ذَا!" وَكَأَنَّهُمَا فَكَّرَا فِي الحَلِّ بِنَفْسَيْهِمَا. قَالَ: "سَتَحْزَمَانِ حَقَائِبَ المَلِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهِيَ سَتَنْتَقِلُ إِلَى قَصْرِ الكَارْدِينَالِ، مَنْزِلِ مَوْرٍ". فَسَأَلَاهُ مُسْتَغْرِبِينَ: "وَمَاذَا إِنْ لَمْ تَشَأْ الذَّهَابُ؟". قَالَ: "حِينَئِذٍ سَنَلْقَاهَا فِي سَجَادَةٍ وَنَضَعُهَا عَلَى العَرَبَةِ". نَاوِلَهُمَا بَعْضَ القِطْعِ النَّقْدِيَّةِ، فَالْجَوُّ حَارٌّ جَدًّا لِهَذَا العَمَلِ الشَّاقِّ. مَشَى نَحْوَ الصَّبِيَّةِ، وَرَأَى رَجُلًا يَقُودُ جَيَادًا لِيَجْهِّزَهَا لِحَرْبِ عَرَبَاتِ كِلَابِ الصَّيْدِ. وَمَا إِنْ اشْتَمَّتْ الكِلَابُ رَائِحَتَهَا حَتَّى رَاحَتْ تَنْبَحُ بِحِمَاسَةٍ، وَظَلَّ نَبَاحُهَا يَسْمَعُ بَعْدَ رُكُوبِهَا الزُّورِقِ.

كَانَ النُّهْرُ بَنِيًّا، وَسَاكِنًا. رَأَى عَلَى ضَفَّةِ إِيْتُونِ سَرِبًا مِنَ البَجْعِ الكَسُولِ يَسْبَحُ بَيْنَ الأَعْشَابِ. تَمَائِلُ قَارِبِهِمْ، قَالَ: "أَلَسْتُ زَيْونَ مَادُوكَ؟".
"أَنْتِ لَا تَنْتَسِي الوُجُوهَ إِطْلَاقًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟".
"لَيْسَ حِينَ تَكُونِ قَبِيحَةً".

"هَلْ سَبَقَ أَنْ رَأَيْتِ نَفْسَكَ؟". كَانَ المَرَاكِبِيُّ يَأْكُلُ تَفَّاحَةً، بَلْبَهَا وَكَلَّ مَا فِيهَا، وَلَكِنَّهُ يَرْمِي البَذْرَ جَانِبًا.

"كَيْفَ حَالُ أَبِيكَ؟".

"مَاتَ". بَصَقَ زَيْونَ العُودَ. "هَلْ بَيْنَهُمْ مَنْ هُوَ ابْنُكَ؟".

قَالَ غَرِيغُورِيُّ: "أَنَا".

"وَذَلِكَ هُوَ ابْنِي". أَشَارَ زَيْونَ بِرَأْسِهِ نَحْوَ المَجْذَافِ الأُخْرَى، الَّذِي كَانَ يَحْرِّكُهُ صَبِيٌّ سَمِينٌ، أَحْمَرٌّ وَأَشَاحٌ بِنَظَرِهِ. "كَانَ وَالدُّكُ مَعْتَادًا عَلَى إِغْلَاقِ مَحَلِّهِ فِي طَقْسِ كَهَذَا، وَإِطْفَاءِ النَّارِ، وَالذَّهَابِ إِلَى الصَّيْدِ".

قَالَ: "كَانَ يَضْرِبُ المِيَاهَ بَعْصَاهُ، وَيَرْوِّعُ السَّمَكَ. يَقْفِزُ وَيَسْحَبُ السَّمَكَةَ مِنْ أَعْمَاقِ المِيَاهِ، ثُمَّ يَدْخُلُ أَصَابِعَهُ فِي خِيَاشِيمِهَا وَيَنْهَرُهَا قَائِلًا: إِلامَ تَنْظُرِينَ أَيَّتَهَا السَّافِلَةُ؟ هَلْ تَنْظُرِينَ إِلَيَّ؟".

قَالَ مَادُوكُ: "لَمْ يَكُنْ مِنَ النَّاسِ الَّذِيْنَ يَحْبُبُونَ الجُلُوسَ وَالاِسْتِمْتَاعَ بِأشْعَةِ الشَّمْسِ.

لَدَيَّ قِصَصٌ كَثِيرَةٌ عَنِ وَالتَّرِ كَرُومُوبِيلِ".

كَانَ السَّيِّدُ رِيوثِيسْلِيُّ يَجْلِسُ مَتَأَمِّلًا. لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ كَمْ يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ التَّعَلُّمُ مِنَ مَرَاكِبِيِّ. فَلَغَتَهُمُ العَامِيَّةُ السَّرِيعَةُ وَحَافِلَةُ بالكَلِمَاتِ النَّابِيَّةِ. فِي سَنِّ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ، كَانَ يَتَكَلَّمُ بِطَلَاقَةٍ، كَانَتْ لُغَتُهُ الأُمَّ. وَالأَنَ، عَادَتْ إِلَيْهِ، عَلَى نَحْوِ طَبِيعِيٍّ وَمَبْتَذَلٍ. كَانَ قَدْ أَتَقَنَ بَعْضَ اليُونَانِيَّةِ، الَّتِي يَتَكَلَّمُهَا مَعَ توماسِ كِرَانْمِرٍ وَمَعَ رِيوثِيسْلِيِّ: لُغَةٌ بَدَائِيَّةٌ،

لم تمسّ، وكأنّها فاكهة نضرة. ولكن ما من طالب يوناني يشنّف أذنيك، كما يفعل زيون الآن، برأي بوتتي بآل بولان الأندال. فقد أقام هنري علاقة مع الأمّ، حظاً سعيداً له. وأقام علاقة مع الشقيقة، إذاً لِمَ هو ملك؟ ولكن يجب أن يكون ثمة حدود، فنحن لسنا وحوشاً في غابة. نعت زيون آن بالإنكليس، وقال عنها إنّها مراوغة فاسقة، فتذكّر ما قاله عنها الكاردينال: عدوّتي الأفعوانية. قال زيون: "وهي تقيم علاقة مع شقيقها". فسأله: "ماذا؟ شقيقها جورج؟".

"أيّ شقيق. فهذا النوع من الناس يبقى الأمر ضمن العائلة. يقومون بخدع فرنسية قدرّة، مثل...".

"أيمكنك أن تخفض صوتك؟". ونظر حوله، وكأنّ الجواسيس يسبحون قرب القارب.

"... وهكذا تضمن ألاّ تستسلم لهنري، لأنّها إن فعلت، وأنجبت ولداً، سيقول لها: شكراً جزيلاً، والآن، ارحلي أيتها المرأة. لذا، تقول له: آه، جلالة الملك، لا أستطيع ذلك...".

قال، شكراً، لم أكن أعرف كيف تتدبّر أمرها.

كان الأولاد يفهمون كلمة من كلّ ثلاث كلمات. حصل زيون على بقشيش. فالتعرّف من جديد إلى مخيلة أهل بوتتي يستحقّ أيّ شيء. سيحبّ ابتسامة زيون المتكلّفة: لا تشبه أبداً أن الحقيقيّة.

بعد وصولهم إلى المنزل، سأله غريغوري: "هل يحقّ للناس التحدّث بهذه الطريقة؟ وتقاضي المال لقاء ذلك؟".

"كان يعبر عن رأيه". هز كتفيه مضيئاً: "وإذا أردت أن تطلع على أذهان الناس...".

"ريوثيسلي يخاف منك. يقول إنّك حين كنت عائداً من تشلسي مع الوزير، هدّدت بإلقائه من على متن قاربه وإغراقه".

لا يذكر أنّ الحديث دار على هذا النحو.

"وهل يظنّ ريوثيسلي أنّي قد أفعل ذلك؟".

"أجل، يظنّ أنّك قد تفعل أيّ شيء".

يوم رأس السنة، قدّم إلى آن هدية من أشواك الطعام الفضيّة، ذات قبضات من الكريستال الصخري. كان يأمل أن تستعلمها للأكل وليس لإيذاء الناس.

"من البندقيّة!". سرّت بالهدية، ورفعت الأشواك إلى الأعلى ليسقط النور على

قبضاتها ويتكسر.

كان قد أحضر معه هدية ثانية، لتمررها إلى شخص آخر. كانت الهدية ملفوفة بقطعة من الحرير الأزرق السماوي. "إنها للفتاة التي تبكي دائماً".

دهشت آن قليلاً. "ألا تعلم؟". بدا في عينيها مرح أسود. "تعال، سأوشوشك". احتكّ خدّها بخدّه. كانت بشرتها معطّرة قليلاً بالعنبر والورد. "السيد جون سيمور؟ السيد جون العزيز؟ السيد جون العجوز، كما يسمّيه الناس؟". ربّما لم يكن السيد جون يفوقه سنّاً بأكثر من عشر سنوات، ولكن مع اقتراب دخول ولديه إدوارد وتوم البلاط، أصبح يعطي انطباعاً أنّه بلغ سنّ التقاعد. تمتت آن: "نفهم الآن لماذا لا نراه أبداً. نعرف الآن ما يفعله في الريف".

"ظننت أنّه يذهب إلى الصيد".

"بالفعل، وقد أوقع في شباكه كاثرين فيلول، زوجة إدوارد. قبض عليهما بالجرم المشهود، ولكن لا أعرف أين، في سريرها، أم سريرها، أم في البريّة، أم في عليّة قشّ. أجل، الطقس بارد من دون شكّ، ولكنّهما كانا يمنحان بعضهما بعضاً الدفء. والآن اعترف السيد جون بكلّ شيء، رجل لرجل، وقال لابنه، في وجهه، إنّهُ كان يعاشرها كلّ أسبوع منذ الزفاف، أي منذ حوالي سنتين وستة أشهر، أي...".

"يمكنك تدوير الرقم عند مئة وعشرين مرّة، على افتراض أنّهما امتنعا في المناسبات الكبرى...".

"الزناة لا يمتنعون عن الزنى في فترات الصوم".

"آه، وأنا ظننت أنّهم كانوا يفعلون".

"لديها طفلان، لذا، احسب فترة الراحة بعد الولادة... وهما صبيّان، كما تعلم. لذا، فإنّ إدوارد..."، تخيلَ حال إدوارد. "سيبتراً منهما، سيكونان ابنين غير شرعيّين. أمّا كاثرين، فسيتمّ إرسالها إلى أحد الأديرة، أظنّ أنّه يتعيّن عليه وضعها في قفص! وهو الآن يطلب إلغاء الزواج. أمّا بالنسبة إلى السيد جون العزيز، لا أظنّ أنّنا سنراه في البلاط قريباً".

"لماذا نتكلّم همساً؟ أظنّ أنّي آخر من يسمع بالأمر في لندن".

"لم يسمع الملك بالقصة بعد. وأنت تعرف كم يحبّ الاستقامة. لذا، إن أتاه أحدهم يمزح في القصة، ليكن شخصاً غيرنا".

"وماذا عن ابنته؟ اسمها جاين، أليس كذلك؟".

ضحكت آن ضحكة مكبوتة. "ذات الوجه الشاحب؟ ذهبت إلى ويلتشاير. يجدر بها

في الواقع أن تلحق بزوجة أخيها إلى أحد الأديرة. شقيقتها ليزي حظيت بزواج ملائم، ولكنّ أحداً لا يرغب في شابّ مخنث، والآن ما من أحد سيرغب في الزواج منها". نظرت إلى هديّته، وقالت بحماسة وغيره مفاجئة: "ما هذا؟".

"مجرّد كتاب رسومات للتطريز".

"المهمّ ألاّ يؤثّر في ظرّفها. لماذا ترسل إليها هدية؟".

"شعرت بالأسف عليها". والآن، أكثر من ذي قبل، بالطبع.

"آه. هي لا تعجبك، صحيح؟". الجواب الصحيح هو، لا، سيّدة آن، لا يعجبني غيرك. "هل من الملائم أن ترسل إليها هدية؟".

"ليس كتاب حكايات لبوكاتشو".

ضحكت قائلةً: "بمقدور هؤلاء الأوغاد في وولف هول أن يحكوا لبوكاتشو حكاية".

* * *

أحرق توماس هيتون، وهو كاهن، مع انقضاء شهر شباط/فبراير. ألقى القبض عليه من قبل فيشر، أسقف روشستر، بتهمة تهريب كتابات تيندايل. وبعد فترة قصيرة، قام عدد من الضيوف عن مائدة الأسقف المقتصدة، وانهاروا يتقيّأون، وقد تصلّبوا من شدّة الألم. فنقلوا إلى أسرّتهم وتلقّوا عناية الأطباء وقد بدا عليهم الشحوب، وأوشك نبضهم على التوقّف. قال د. باتس إنّ الحساء هو السبب. واستناداً إلى شهادة الخدم، كان الطبق الوحيد المشترك بينهم.

ثمّة سموم تصنعها الطبيعة، ولو عاد الأمر إليه، لقام، قبل إخضاع طاهي الأسقف للتعذيب، بزيارة المطبخ، وتمرير مقشدة فوق القدر. ولكن ما من أحد آخر كان يشكّ في وقوع جريمة.

الآن، اعترف الطاهي أنّه أضاف إلى الحساء مسحوقاً أبيض، أعطاه إيّاه أحدهم. من؟ مجرّد رجل. غريب قال إنّها ستكون مزحة جيّدة لو أعطى فيشر وضيوفه مسهلاً.

كان الملك يستشيط غضباً، وخوفاً. راح يلوم المهرطقين. ولكنّ د. باتس هزّ رأسه ولوى شفته السفلى، قائلاً إنّ السمّ هو ما كان يخشاه هنري، أكثر من الجحيم.

هل يضع المرء سمّاً في عشاء أسقف لأنّ غريباً قال له إنّ الأمر سيكون مضحكاً؟ لم يشأ الطاهي قول المزيد، أو ربّما بلغ مرحلة تتجاوز القدرة على الكلام.

قال لباتس، في هذه الحالة، حدث تقصير في التحقيق، أتساءل لماذا. ضحك الطبيب بمرارة، وكان رجلاً يحبّ الكتاب المقدّس، وقال: "إن كانوا يريدون الرجل أن يتكلّم،

كان يجدر بهم استدعاء توماس مور".

بحسب الإشاعة، أصبح قاضي القضاة أستاذاً في فنّ شدّ وضغط العباد. فحين تمّ اعتقال المهرطقين، وقف قربهم في البرج في أثناء إخضاعهم للتعذيب. وكان يقال إنّه يسجن المشتبه فيهم في غرفة الحراسة في تشلسي ويقيّد أيديهم وأرجلهم في أداة تعذيب خشبية، بينما يعظّم ويضايقهم بالأسئلة: ما هو اسم من طبع الكتب، ما هو اسم ربّان السفينة التي نقلت تلك الكتب إلى إنكلترا. وكان يقال إنّه يستخدم السوط والأغلال وهيكل التعذيب الذي يسمّونه ابنة سكينغتون. وهو عبارة عن جهاز يمكن حمله، يطوى فيه الرّجل، بحيث يضمّ ركبتيه إلى صدره، ويحتوي على طوق حول الظهر. وبواسطة لولب، يتمّ شدّ الطوق إلى أن تتكسر الأضلاع. احتاج استعماله إلى مهارة كي لا يختنق السجين ويضيع معه كلّ ما يعرفه.

في الأسبوع التالي، توفّي اثنان من ضيوف العشاء. أمّا فيشر، فاستعاد قواه. فكّر في نفسه: من الممكن أن يكون الطاهي قد تكلم، ولكنّ ما قاله لم يكن موجّهاً إلى الناس العاديين.

ذهب لرؤية آن. بدت له مثل شوكة بين وردتين، إذ كانت جالسة بين ابنة خالها، ماري شيلتون، وزوجة أخيها جاين، الليدي روتشفورد. "سيّدي، هل تعلمين أنّ الملك قد ابتكر طريقة إعدام جديدة لطاهي فيشر؟ سيتمّ غليه حياً". شهقت ماري، واحمرّ وجهها وكأنّ أحد الشبان المتودّدين إليها قرصها. أمّا جاين روتشفورد، فتشدّقت قائلة: "*Vere dignum et justum est, aequum et salutare*". ترجمت لماري: "جدير به".

لم يبدُ على وجه آن أيّ تعبير. حتّى رجل متعلّم مثله ما كان ليجد ما يقرأه على وجهها. "كيف سيفعلون ذلك؟".

"لم أسأل عن الآلية. هل تريدني أن أستعلم؟ أظنّ أنّ العملية ستشتمل على رفعه بالسلاسل، كي ترى الحشود جلده وهو ينسلخ وتسمع صراخه".

من باب العدل تجاه آن، لا بدّ من القول إنك لو أتيت إليها وقلت، سيتمّ إعدامك في الماء المغلي، لهزّت كنفها على الأرجح وقالت بالفرنسية: هكذا هي الحياة.

لازم فيشر السرير لمدة شهر. وحين تماثل إلى الشفاء، بدا أشبه بجثة حيّة. فشفاعة القديسين لم تكفّ لشفاء أحشائه وإعادة اللحم إلى عظامه.

أثبتت تلك الأيام كلام تيندايل القاسي. فالقديسون ليسوا أصدقاءك ولن يقوموا بحمايتك. ليس بمقدورهم مساعدتك على الخلاص. لا تستطيع وضعهم في خدمتك بواسطة الصلوات والشموع، مثلما تستأجر عاملاً للحصاد.

آذار/مارس: أنت لوسي بيتيت، وهي زوجة بقال وعضو في مجلس العموم، لرؤيته في أوستن فرايرز. كانت ترتدي جلد الحمل الأسود، المستورد حسب ظنّه، وثوباً رمادياً متواضعاً من الصوف. تناولت أليس قفازيها منها ودست إصبعها فيهما خلسة لتخمين جودة البطانة الحريرية. نهض من خلف مكتبه وأخذ يديها، ثمّ قربها من النار وأعطاهما كأساً من الشراب الساخن. كانت يداها ترتجفان حين احتضنت الكأس فيهما قائلةً: "أتمنى لو أنّ لدى جون هذا الشراب وهذه النار".

كان الثلج يتساقط عند الفجر، يوم الغارة على لايونز كاي، ولكن سرعان ما أشرقت شمس شتوية، وطافت فوق النوافذ، لتغمر غرف منازل المدينة بنورها البارد. قالت لوسي: "هذا ما أعجز عن إخراجهِ من ذهني، البرد". ومور نفسه، بوجهه المخبأ بالفراء، يقف عند الباب مع ضباطه، مستعداً لتفتيش المستودع وغرفهم الخاصة. قالت: "كنت أول من وصل إلى هناك، فأبقيته في مكانه ورحت أمازحه لألهيه، ناديت زوجي قائلةً: عزيزي، أتى قاضي القضاة من أجل مسألة متعلّقة بالبرلمان". دفع الشراب بالدماء إلى وجهها وانحلّ لسانها. "رحت أقول له: هل تناولت الإفطار، سيدي؟ هل أنت واثق؟ وكان الخدم يمرّون من أمامه ويعيقونه"، صدرت عنها ضحكة صغيرة كئيبة مصحوبة بشهقة، "وفي ذلك الوقت، كان جون يخفي أوراقه خلف أحد الألواح الخشبية...".

"أحسنّت فعلاً، لوسي".

"حين صعدوا إلى الطابق العلوي، كان جون مستعداً لهم. قال، آه، قاضي القضاة، أهلاً بك في منزلي المتواضع. ولكنّ الرجل المسكين قليل الحظّ كان قد وضع الكتاب المقدّس تحت مكتبه، وتوجّه نظري مباشرة نحوه. أتساءل كيف أنّ أنظارهم لم تتبع نظري".

لم تثمر ساعة من التفتيش عن شيء. قال قاضي القضاة: "هل أنت واثق، يا جون، أنّك لا تملك أيّاً من تلك الكتب، لأنّ ما بلغني هو عكس ذلك؟". (وتيندايل ممدّد هناك وكأنّه بقعة سمّ على الأرض). قال جون بيتيت: "لا أعرف من أخبرك بذلك". قالت لوسي وهي ترفع كأسها طالبة مزيداً من الشراب: "شعرت بالفخر به، شعرت بالفخر لأنّه ردّ عليه". قال مور: "صحيح أنّي لم أعرّ على شيء اليوم، ولكن عليك الذهاب مع هؤلاء الرجال. حضرة الملازم، هلّا رافقته؟".

جون بيتيت ليس شاباً. وطبقاً لأوامر مور، أُجبر على النوم على فراش من القشّ على الأرض. ولم يقبل بدخول الزوّار، إلّا كي ينقلوا إلى جيرانهم أنباء عن حالته.

قالت لوسي: "أرسلنا إليه الطعام والملابس الدافئة، ولكنهم لم يسمحوا بدخولها، بأمر من قاضي القضاة".

"ثمّة تعرفه للرّشى، عليك أن تدفعي للسجّانين. هل أنت بحاجة إلى المال؟".
وضعت الكأس على مكتبه قائلةً: "إن احتجت إلى المال، فسأتي إليك. لا يستطيع أن يسجننا جميعاً".
"لديه ما يكفي من السجون".

"للأجساد، أجل. ولكن ما هي الأجساد؟ يستطيع أن يأخذ الأختيار بيننا، ولكنّ الله سيزيدنا عدداً. يمكنه أن يغلق المكتبات، ولكنّ الكتب لن تختفي. لديهم عظامهم القديمة، وقدّيسون من زجاج على النوافذ؛ لديهم شموعهم، ومزاراتهم، ولكنّ الله أعطانا المطبوعة". توهّج خذاها. نظرت إلى الخرائط على مكتبه، فسألته: "ما هذا، سيّد كرومويل؟".

"خرائط لحديقتي. أنوي شراء بعض المنازل الواقعة خلف منزلي، أحتاج إلى الأرض".

ابتسمت وقالت: "حديقة... هذا أفضل خبر سمعت به منذ فترة".

"أتمنى أن تأتي أنت وجون لزيارتنا فيها".

"وما هذا... هل ستبني ملعباً للتس؟".

"إن حصلت على الأرض. وهنا، أنوي زراعة بستان".

اغرورقت عيناها بالدموع. "تحدّث مع الملك، نحن نعتمد عليك".

سمع خطوات تقترب، كانت جوان. رفعت لوسي يدها إلى فمها. "ليسامحني الله... اللحظة، ظننتك شقيقتك".

قالت جوان: "هذا الخطأ يقع دائماً. سيّدة بيتيت، أنا آسفة جدّاً لسماع نبأ اعتقال زوجك في البرج. ولكنكم جلبتم ذلك لأنفسكم. فقد كنتم أوّل من أطلق الافتراءات على الكاردينال الراحل. ولكن أظنّ أنكم تتمنّون الآن لو أنّه لا يزال على قيد الحياة".

خرجت لوسي من دون أن تقول المزيد، واكتفت بالبقاء نظرة طويلة من خلف كتفها. في الخارج، سمع ميرسي تحيّيها. ستجد لديها مودّة أكبر. توجّهت جوان إلى النار لتدفئ يديها. "ماذا تظنّ أنّك تستطيع أن تفعل من أجلها؟".

"أذهب إلى الملك أو إلى الليدي أن".

قالت: "وهل ستفعل؟ لا، لا تذهب". مسحت دمعة بعقدة إصبعها. أزعتها لوسي.
"لن يعذّبه مور بالمخلعة. سيذاع النبأ، ولن تقبل المدينة بذلك. ولكنّه قد يموت على

أيّ حال". نظرت إليه مضيفة: "إنّها كبيرة في السن، أعني لوسي بيتيت. لا يجدر بها أن ترتدي اللون الرماديّ. ألا ترى كيف تهدّل خذاها؟ لم تعد قادرة على إنجاب مزيد من الأولاد".

قال: "فهمت قصدك".

أطبقت يداها على تنورتها. "ولكن ماذا لو فعل؟ ماذا لو عذّبه؟ وأعطاه أسماء؟". التفت إليها: "وما شأنني بذلك؟ فهو يعرف اسمي أساساً".

تحدّث مع الليدي آن. سألته: "ماذا يمكنني أن أفعل؟". قال: "أنت تعرفين كيف تسعدين الملك، على ما أظنّ". ضحكت قائلة: "ماذا؟ أفقد عذريّتي من أجل بقال؟". تحدّث مع الملك، عندما تمكّن من ذلك، ولكنّ الملك حدّق إليه بغضب وقال إنّ قاضي القضاة عرف ما فعل. قالت آن: "حاولت، ووضعت كتب تيندايل بنفسني في يده، يده الملكيّة. هل كنت تظنّ أنّ تيندايل يستطيع العودة إلى هذه المملكة؟ تفاوضوا في الشتاء، بواسطة الرسائل التي عبرت القناة. وفي الربيع، حدّد ستيفن فوغان، الرجل الذي يعمل لديه في أنتويرب، موعداً للاجتماع: عند المساء، في وقت الغروب، في حقل خارج أسوار المدينة. بكى تيندايل عندما وصلتته رسالة كرومويل. قال: أردت العودة إلى الوطن، سئمت من ذلك، أعيش ملاحقاً من مدينة إلى أخرى، ومن منزل إلى آخر. أردت العودة إلى الوطن، ولو وافق الملك، لو وافق فقط على ترجمة الكتاب المقدّس إلى لغتنا الأمّ، لأمكنه اختيار المترجم بنفسه، عندها، لم يكن بالإمكان أن أكتب مجدّداً. كان بإمكانه أن يفعل بي ما يشاء، أو يعذّبني أو يقتلني، ولكن أردت أن يسمح فقط لشعب إنكلترا بسماع الكتاب المقدّس".

هنري لم يرفض، لم يقل، أبداً. ومع أنّ ترجمة تيندايل محظورة، شأنها شأن أيّ ترجمة أخرى، إلا أنّ الملك ربما سمح بترجمة قام بها عالم وافق عليه. وكيف كان له أن يقول غير ذلك، فهو رغب في إسعاد آن.

ولكنّ الصيف حلّ، وكان كرومويل يعرف أنّه وصل إلى طريق مسدود وعليه التراجع. هنري خجول جدّاً، وتيندايل عنيد جدّاً. رسائله إلى ستيفن كانت مشوبة بنبرة ذعر. ولم يكن ينوي التضحية بنفسه في سبيل وحشية تيندايل. ربّاه، مور وتيندايل كانا يستحقّان بعضهما بعضاً لشدّة تعنّتهما. فتيندايل لم يؤيّد هنري في مسألة طلاقه، وكذلك الراهب لوثر. كان يظنّ المرء أنّهما قد يضحّيان ببعض المبادئ لكسب مودّة ملك إنكلترا، ولكن لا.

حين سأل هنري: "من يكون تيندايل كي يحاكمني؟"، ردّ تيندايل على الفور، بأسرع

ما يمكن: "كان يمكن للمسيحي أن يحاكم مسيحياً آخر".
قال: "يمكن لله أن ينظر إلى ملك". كان يحمل مارلينسبايك بين ذراعيه، ويتحدث إلى توماس آيفري، الشاب الذي يعلمه تجارته. كان آيفري مع ستيفن فوغان، يتعلم منه المهنة بين التجار هناك. ولكنه قد يأتي إلى أوستن فرايرز على متن أي مركب، حاملاً حقيبته الصغيرة، التي يضع في داخلها جركينة* صوفية وبضع القمصان. وحين كان يصل، ينادي ميرسي، وجوان، والفتاتين الصغيرتين، لإعطائهن الفاكهة المجففة وأشياء جديدة اشتراها لهن من باعة الشارع. أما ريتشارد، ورايف، وغريغوري، فوجه إليهم بضع لكلمات وكأنه كان يقول: لقد عدت. ولكن حقيبته تبقى تحت إبطه. لحق به الشاب إلى مكتبه. "سيدي، ألا تشعر أبداً بالحنين إلى الوطن في أسفارك؟".

هز كتفيه: "هذا لو كان لدي وطن". وضع الهرّ على الأرض، وفتح الحقيبة. أخرج بإصبعه مسبحة وقال: "هذه للمظاهر"، فقال له: "شاب طيب". زحف مارلينسبايك إلى المكتب، وحدّق إلى الحقيبة، ثم راح يربّت عليها بكفه. "الفران الوحيدة الموجودة هنا هي فران من السكر". شدّ الشاب أذني الهرّ وتصارع معه. "ليس لدينا حيوانات أليفة في منزل السيّد فوغان".

"إنه شديد الانشغال، وكئيب جداً هذه الأيام".
"يقول، توماس آيفري، في أي ساعة عدت أمس؟ هل كتبت إلى سيّدك؟ هل ذهبت إلى القدّاس؟ وكأنه يأبه للقدّاس!".

"في الربيع القادم، يمكنك العودة إلى بيتك".
راح يفرد الجركينة وهما يتحدثان. نفضها ليقبها على الجهة الداخلية، ثم استخدم مقصاً صغيراً لفتح درزة. "يا لها من خياطة متقنة... من قام بها؟".

تردّد الشاب، ثم تورّد وجهه وهو يجيب: "جينيك".
سحب من البطانة الورقة الرقيقة المطوية. فردّها قائلاً: "لا بدّ من أنّها تتمتع بنظر جيد".

"بالفعل".
نظر إليه مبتسماً: "وعينين جميلتين أيضاً؟". نظر إليه الشاب، وبدا مجفلاً للحظة وكأنه سيتكلم، ثم خفض رأسه واستدار.

"كنت أمارحك وحسب، توم، لا تأخذ الأمر على محمل الجدّ". أخذ يقرأ رسالة تيندايل. "إن كانت فتاة طيبة، وتعيش في منزل ستيفن، فما المشكلة؟".

"ماذا يقول تيندايل؟".

"حملت الرسالة من دون أن تقرأها؟".

"فضّلت عدم معرفة محتواها، من باب الاحتياط".

إذا وجدت نفسك في ضيافة مور. حمل الرسالة بيده اليسرى، بينما انكشيت يده اليمنى في قبضة غير محكمة. "إن فِكر في الاقتراب من أهلي، فسأجرّه من قصره في ويستمينستر وأضرب رأسه على الحصى، إلى أن يشعر بحبّ الله وما يعنيه ذلك".

ابتسم الشابّ وجلس على أحد المقاعد. نظر كرومويل إلى الرسالة مجدّداً: "يقول تيندايل إنّه لا يظن أنّ بمقدوره العودة، حتّى إن أصبحت الليدي آن ملكة... وهي مسألة لا يفعل شيئاً للمساهمة في حلّها، برأيي. يقول إنّه لن يثق بوثيقة تمنحه الأمان، حتّى إن وقع عليها الملك بنفسه، ما دام توماس مور حيّاً وفي منصبه، لأنّ مور يعتقد أنّ المرء غير مضطرّ إلى الوفاء بالوعد الذي يقطعه لمهرطق. يمكنك أن تقرأ بنفسك. فقاضي القضاة لا يحترم لا الجهل ولا البراءة".

أحجم الشابّ في البداية، ثمّ تناول الرسالة. أيّ عالم هذا الذي لا تحترم فيه الوعود؟ قال بلطف: "أخبرني من تكون جينيك. هل تريد منّي أن أكتب إلى أبيها من أجلك؟".

"كلاً". نظر إليه آيفري مجفلاً. كان العبوس يعلو وجهه عندما أضاف: "كلاً، فهي يتيمة. السيّد فوغان تكفل برعايتها، ونحن جميعاً نعلمها الإنكليزيّة".
"إذاً، ليس لديها مالٌ تعطيك إياه؟".

بدا الإرباك على الشابّ. "أفترض أنّ ستيفن سيعطيها مهرًا".

كان الطقس دافئاً لإشعال النار، والوقت مبكراً لإشعال الشموع. لذا، عوضاً من إحراق رسالة تيندايل، عمد إلى تمزيقها. راح مارلينسبايك يمضغ قصاصة منها وقد انتصبت أذناه. قال: "صديقي الهَرّ هذا، لطالما أحبّ الكتب".

Scriptura sola. وحده الكتاب المقدّس يرشدك ويواسيك. لا جدوى من الصلاة أمام عمود منحوت، أو إضاءة شمعة لوجه مرسوم. قال تيندايل، كلمة "إنجيل" تعني أنباء سارة، تعني غناء، تعني رقصاً، ضمن الحدود بالطبع. سأله توماس آيفري: "هل يمكنني حقاً العودة إلى المنزل في الربيع القادم؟".

سُمح لجون بيتيت في البرج بالنوم في سرير، ولكن لا مجال لعودته إلى منزله في لايونز كاي.

قال له كرانمر، وهما يتحدثان في ساعة متأخرة من إحدى الليالي، يقول سان أوغستين إنه لا يجدر بنا أن نسأل أين هو منزلنا، لأننا في النهاية رعايا الله.

الصوم يستنفد الروح، وهذا هو القصد منه بالطبع. ذهب إلى الليدي آن، فوجد عندها الشاب مارك، يعزف على المزهر موسيقى حزينة. فنقر إصبعه على رأسه وهو يمر من أمامه، وقال: "ابتهج، ألا تستطيع ذلك؟".

كاد مارك أن يسقط عن كرسيه. بدا له وكأن هؤلاء الناس يعانون من الدوار، ويجفلون بسهولة. خرجت آن من أحلامها، وقالت: "ماذا فعلت للتو؟".
"نخست مارك". وأظهر لها ما فعله قائلاً: "بإصبع واحد فقط".
قالت آن: "مارك؟ من؟ آه، أهذا اسمه؟".

هذا الربيع من عام 1531، قرّر أن يكون مرحاً دائماً. كان الكاردينال كثير التذمر، ولكنّه تذرّ دائماً بطريقة مسلية. وكلّما ازداد تذرّماً، ازداد خادمه كرومويل مرحاً. ذلك كان الاتفاق.

الملك كثير التذمر هو أيضاً. لديه صداع، الدوق سوفولك غبي، الطقس دافئ جداً بالنسبة إلى هذا الوقت من السنة، البلاد آيلة إلى الهلاك. كما أنّه كثير القلق أيضاً، خائف من السحر، ومن الناس الذين يسيئون التفكير فيه، على أيّ نحو، محدّد أم غير محدّد. وكلّما ازداد الملك قلقاً، ازداد خادمه الجديد هدوءاً، وأملاً، وصموداً. وكلّما ازداد الملك قسوة وشكوى، سعى ملتسو المطالب إلى صحبة كرومويل، الذي حرص دائماً على التعامل مع الجميع بلياقة واحترام.

في المنزل، أتت إليه جو وبدت عليها الحيرة. أصبحت شابّة الآن، جبينها جبين امرأة غضّنه بعض العبوس، تماماً مثل جبين أمّها. "سيّدي، ماذا نرسم على بيض العيد؟".

"ماذا رسمتم عليه في العام الماضي؟".
"كنّا نرسم عليه كلّ عام قبّعات مثل قبّعة الكاردينال". راقبت وجهه لترى أثر كلامها فيه. كانت تلك عادته بالضبط. فقال في نفسه: ليس أولادك فقط هم أولادك.
"ما الخطب؟".

"لا شيء. أتمنّى لو كنت أعلم، لكنك أخذت له واحدة. كان سيحبّها".
وضعت جو يدها الصغيره الناعمة في يده. لا تزال يد طفلة، فالجلد الذي يغطّي العُقد كان متضّرراً، والأظافر مقضومة. قال: "أنا عضو في مجلس شورى الملك الآن، يمكنك رسم تيجان إن أردت".

تلك الحماسة مع أمها، تلك الحماسة المستمرة، وجب أن تتوقف. جوان كانت تعرف ذلك أيضاً. كانت تخلق الأعذار لتكون حيث هو. ولكنها الآن كانت تذهب إلى المنزل في ستيني حين يكون في أوستن فرايرز.

تمت وهي تمرّ: "ميرسي تعلم".

ما فاجأه هو أنّ ذلك استغرق منها وقتاً طويلاً، ولكنّ ثمة درساً هنا. تظنّ أنّ الناس كانوا يراقبونك باستمرار، ولكنّ الشعور بالذنب هو الذي كان يجعلك تجفل في الظلام. ولكن، أخيراً، اكتشفت ميرسي أنّ لديها عينين في وجهها، ولساناً كي تتكلم، فاختارت وقتاً يكونان فيه بمفردهما. "قيل لي إنّ الملك وجد حلاً لإحدى مشاكله على الأقلّ، أعني، مشكلة زواجه من الليدي آن، على الرغم من أنّ شقيقتها كانت عشيقته".

قال لها: "حصلنا جميعاً على أفضل مشورة. تمّ إرسال د. كرانمر، بتوصية منّي، إلى البندقيّة، لاستطلاع الآراء حول معنى النصوص القديمة".

"إذاً، لا يعتبر ذلك سفاحاً ما لم يكن متزوجاً من إحدى الشقيقتين؟".
قال الكاهن، كلاً".

"وكم كلف ذلك؟".

"لم يعرف د. كرانمر. ذهب الكهنة والعلماء إلى طاولة المفاوضات، ثمّ لحق بهم شخص يحمل كيساً من النقود. ولم يتمكّن من اللقاء به وهو يدخل أو يغادر".
قالت: "هذا لا يفيد قضيتك".

"لا شيء يفيد قضيتي".

"تريد التحدّث إليك، أعني جوان".

"ما من شيء يقال. جميعنا نعرف...". جميعنا كنا نعرف أنّه ما من حلّ. زوجها جون ويليامسون لا يزال يعاني من السعال، وهما كانا يصغيان إليه دائماً، ترقباً لمجيئه، هنا أو في ستيني، ذاك الأزيز الذي كان يعلن مجيئه، على السلم أو في الغرفة المجاورة. ثمة أمر واحد مؤكّد بخصوص ويليامسون، وهو أنّه لم يكن ممكناً أن يفاجئك أبداً. نصحه د. باتس بهواء الريف وبالابتعاد عن الدخان. قال: "كانت لحظة ضعف". وبعد ذلك... ماذا؟ لحظة ضعف أخرى. "الله عليهم بكل شيء. هكذا قيل لي".

"عليك سماعها". حين التفتت ميرسي، بدا وجهها متوهّجاً. "أنت تدين لها بذلك".

* * *

"يبدو لي الأمر جزءاً من الماضي". كان صوت جوان غير ثابت. سوّت بأصابعها

قَبَعَتْهَا نصف الدائريَّة وألقت وشاحها الحريري على إحدى كتفيها. "مضى وقت طويل لم أصدّق فيه أنّ ليز رحلت فعلاً. توقّعت رؤيتها تدخل المنزل في أحد الأيام". لطالما أغرته فكرة رؤية جوان بالملابس الجميلة. وتعامل مع الموضوع، كما قالت ميرسي، بتبديد المال على صائغي وبزازي* لندن، بحيث أصبحت نساء أوستن فرايرز مدار حديث نساء المدينة، اللواتي كنّ يتمتمن، ولكن باحترام وتقدير: ربّاه، توماس كرومويل، لا شكّ في أنّ المال ينهمر عليه كالمطر. قالت: "والآن بتُّ أظنّ، أنّ ما فعلناه بسبب وفاتها، حين كنّا مصدومين وحزينين، ينبغي أن يتوقّف الآن. أعني، لا نزال حزينين، وسنبقى هكذا دوماً". كان يفهمها. فقد ماتت ليز في عهد آخر، عندما كان الكاردينال في أوج عظمتها، وكان هو مستشاره. قالت: "إن كنت ترغب في الزواج، فلدى ميرسي لأثحتها. ولكن، لديك على الأرجح لأثحتك الخاصّة، التي لا تحتوي على اسم نعرفه". قالت: "بالطبع، بالنسبة إلى جون ويليامسون، ليسامحني الله، ولكن كلّ شتاء أظنّه شتاءه الأخير، عندها بالطبع، من دون شكّ، أعني على الفور، توماس، حالما يصبح الأمر ملائماً، ليس وأنا ممسكة بنعشه... ولكن لن تسمح الكنيسة بذلك. لن يسمح القانون".

قال: "لا أحد يعلم".

مدّت يديها وتدقّقت الكلمات من فمها. "يقال إنك تنوي تجاوز سلطة الأساقفة وجعل الملك رئيساً للكنيسة، وأخذ إيراداته من البابا وإعطاءه إياها، بحيث يصبح هنري قادراً على سنّ القوانين إن شاء، والطلاق من زوجته، كما يرغب، والزواج من الليدي آن. هكذا يحدّد بنفسه ما هو خطيئة وما هو غير ذلك، ومن يمكنه الزواج. هكذا ستصبح الأميرة ماري، حماها الله، ابنة زنى وسينجب هنري الطفل الذي تعطيه إياه تلك السيّدة".

"جوان... عندما يجتمع البرلمان مجدّداً، هلاً أتيت وأخبرتهم بما قلته للتو؟ لأنك ستوقّرين عليهم كثيراً من الوقت".

قالت مذهولة: "لا يمكنك ذلك. لن يصوّت عليه مجلس العموم، ولا اللوردات. لن يسمح به الأسقف فيشر، ولا رئيس الأساقفة وارهام، ولا الدوق نورفولك، ولا توماس مور".

"فيشر مريض، ووارهام تقدّم في السنّ. أمّا نورفولك، فقد قال لي منذ يومين: لقد تعبت - عذراً على التعبير الذي استعمله - من القتال تحت راية مائة كاثرين

الملوثة بالدم، وإن كان آرثر قد تمتع بها، أم لم يستطع ذلك، فمن يأبه بذلك الآن؟". كان يعدل بسرعة كلمات الدوق البذيئة. قال: فلتذهب ابنة أختي وتقوم بأسوأ ما عندها".

فغرت جوان فاها وسألته: "وما هو أسوأ ما عندها؟". ستتدحرج كلمات الدوق في شارع غرايستشيرش، لتصل إلى النهر وتعبّر الجسر، إلى أن تتناقلها النساء المتبرجات في ساوثوارك. ولكن، هكذا هم آل هوارد، وآل بولين. به أو من دونه، ستنتشر أنباء أطباع آن في لندن والعالم.

قال: "إنها تستفزّ الملك. يقول إنه لم يسبق لكاثرين أن تحدّثت إليه كما تفعل آن. يقول نورفولك إنها تستخدم معه لغة لا يستخدمها المرء مع كلبه".
"رباه! أتساءل كيف لا يجلدّها".

"قد يفعل، بعد أن يتزوجا. اسمعي، إن سحبت كاثرين قضيتها من روما، أو إن خضعت إلى الحكم الصادر في قضيتها في إنكلترا، أو إن انصاع البابا لرغبات الملك، حينئذٍ، فكلّ ما قلته لن يحدث، سيكون مجرد..."، وقام بيده بحركة انسحاب خفيفة، أشبه بفرد الورق. "فلو أتى كليمنت إلى مكتبه في صباح أحد الأيام، من دون أن يكون بكامل وعيه، ووقع بيده اليسرى على إحدى الأوراق، فمن يستطيع لومه؟ وحينئذٍ أتركه، لا بل نتركه، من دون إزعاج، مع إيراداته وسلطته، لأنّ هنري لا يريد الآن سوى أمر واحد، وهو وضع آن في سريره. ولكنّ الوقت يمرّ، وقد بدأ يفكّر، صدّقيني، في أمور أخرى يريدها".
"أجل، كعادته".

"إنّه ملك، وهو معتاد على ذلك".

"وإن ظلّ البابا على موقفه؟".

"سيتوسّل لاستعادة إيراداته".

"هل سيأخذ الملك المال من الشعب المسيحي؟ الملك ثريّ".

"أنت مخطئة. الملك فقير".

"أه. وهل يعرف ذلك؟".

"لست واثقاً من كونه يعرف من أين تأتي أمواله، أو كيف يتمّ إنفاقها. عندما كان سيدي الكاردينال حياً، لم يرغب يوماً في جوهرة يزيّن بها قبّعته أو في جواد أو في منزل جميل. صحيح أنّ لدى هنري نوريس مالاً خاصاً به، ولكنّ يده مطلقة أكثر ممّا ينبغي في الإيرادات، برأيي". وتابع قبل أن تسأل: "هنري نوريس هو سَمّ حياتي". ولم

يخبرها أنه يكون دائماً مع آن حين يرغب في رؤيتها بمفردها.
"أفترض، إن أراد هنري تناول الطعام، يمكنه المجيء إلى هنا. لا أعني هنري نوريس، بل هنري ملكنا الفقير". وقفت ورأت صورتها المنعكسة في المرآة، فخفضت رأسها وكأنتها خجلت من صورتها، ورسمت على وجهها تعبيراً أكثر بهجة؛ أكثر فضولية وأقل تأثراً. رآها تفعل ذلك، ترفع حاجبيها قليلاً، وتقوس شفثيها عند الزاوية. بإمكانني رسمها، لو كنت موهوباً. نظرت إليها طويلاً، ولكن النظر لا يعيد الأموات. كلما أكثرت من النظر، كان رحيلهم أسرع. لم يظنّ أبداً أنّ ليز تبتسم من السماء وهي ترى ما يفعله مع شقيقتها. كلا، ما فعلته هو ما دفع ليز إلى الظلام.

مشت جوان في الغرفة. كانت غرفة كبيرة مغمورة بالضوء. قالت: "كلّ هذه الأشياء، هذه الأشياء التي نملكها الآن. الساعة، الصندوق الجديد الذي طلبت من ستيفن إرساله إليك من فلاندرز، المزيّن بنقوش العصافير والأزهار، سمعتك بأذنيّ وأنت تقول لتوماس أيفري، آه، قل لستيفن إنني أريده، مهما يكن ثمنه. كلّ هذه اللوحات التي تصوّر أشخاصاً لا نعرفهم، كلّ هذه المزاهر والكتب عن الموسيقى، لم نعتد على امتلاكها. حين كنت فتاة صغيرة، لم أكن معتادة على النظر إلى نفسي في المرآة، ولكنني أنظر إلى نفسي الآن كلّ يوم. والمشط، أعطيتني مشطاً عاجياً. لم أملك أبداً مشطاً خاصاً بي. كانت ليز تضفر لي شعري وتضمّمه تحت قبّعتي، ثمّ أضفر لها شعرها، وإن لم يكن مظهرنا كما ينبغي، يقول لنا أحدهم ذلك على الفور".
لِمَ نحن متعلقون إلى هذا الحدّ بقسوة الماضي؟ لِمَ نحن فخورون بكوننا تحمّلنا قسوة آبائنا وأمّهاتنا، والأيام التي افتقرنا فيها إلى النار أو اللحم، وفصول الشتاء الباردة والألسنة اللاذعة؟ لم يكن لدينا الخيار. حتّى ليز. ففي إحدى المرّات، وكانا لا يزالان شابّين، رآته يدقّ قميص غريغوري أمام النار، حتّى ليز، قالت له بحدّة: لا تفعل ذلك، وإلا سيعتاد على ذلك.

قال: "ليز... أعني، جوان...".

بدت تعابير وجهها وكأنها تقول: ارتكبت هذا الخطأ مرّات عديدة من قبل.
"أريد أن أكون طيباً معك. أخبريني ماذا يمكنني إعطاؤك".
توقّع منها أن تصرخ، كما تفعل النساء، وتقول له: هل تظنّ أنّك تستطيع شرائي؟ ولكنّها لم تفعل، بل أصغت إليه، وظنّ أنّها في حالة نشوة، بدا التصميم على وجهها، وغرقت عيناها في عينيه، وهي تتعلّم نظريته عمّا يمكن للمال شراؤه. "كان في فلورنسا راهب يدعى فرا سافونارولا، ضلل الناس وجعلهم يعتقدون أنّ الجمال خطيئة.

ظنّ بعض الناس أنّه ساحر، ووقعوا تحت سحره لفترة من الزمن. فأشعلوا النيران في الشوارع وألقوا فيها كلّ ما يحبّونه، كلّ ما صنعوه أو عملوا من أجل شرائه، من أثواب الحرير، إلى البياضات التي طرزتها أمّهاتهم لأسرة الزواج، وكتب الأشعار المكتوبة بأيدي الشعراء، والصكوك والسندات، وسجلات الإيجار، وسندات الملكية، والكلاب والقططة، والقمصان التي يرتدونها، والخواتم التي تزيّن أصابعهم، رمت النساء أوشحتهنّ، وهل تعلمين ما كان أسوأ ما فعلوه، جوان، رموا المرايا، كي لا يتمكّنوا من رؤية وجوههم ومعرفة أنّها لم تعد تختلف بشيء عن وحوش الغابات والحيوانات التي تصرخ في المحارق. وحين ذابت مراياهم، عادوا إلى منازلهم الخالية، وناموا على الأرض لأنّهم أحرقوا أسرتهم، وحين استيقظوا في اليوم التالي، شعروا بالألم في أجسادهم بسبب النوم على الأرض القاسية. ولم يكن لديهم طاولة يتناولون عليها إفطارهم، لأنّهم استعملوها لإضرام النار، ولا مقاعد يجلسون عليها، لأنّهم أتلفوها، ولم يكن لديهم خبز لأنّ الخبّازين ألقوا أحواض العجن والخميرة والدقيق والموازين. وهل تعلمين ما كان الأسوأ؟ كانوا في حالة اتزان. ففي الليلة الفائتة، أخذوا أحواض الشراب..."، ولفّ ذراعه بحركة من يرمي شيئاً في النار. "إذاً، كانوا متزيّنين وكانت أذهانهم صافية، ولكنهم نظروا حولهم ولم يجدوا ما يأكلونه أو يشربونه، ولم يجدوا ما يجلسون عليه".

"ولكن ليس هذا هو الأسوأ. قلت إنّ رمي المرايا كان الأسوأ. ألا يكونوا قادرين على رؤية أنفسهم".

"أجل. في الواقع، هذا ما أظنّه. أتمنّى أن أتمكّن دائماً من النظر إلى وجهي. وأنت جوان، يجب أن يكون لديك دوماً مرآة جميلة لتري نفسك. فأنت امرأة تسرّ الناظر إليها".

بمقدورك أن تنظم قصيدة، بمقدور توماس آيفري أن ينظم لها قصيدة، ولكنّها لن تحدث هذا الأثر... أشاحت بوجهها، ولكنّه رأى بشرتها تتورّد من خلف وشاحها الرقيق. لأنّ النساء لجوجات: قل لي، قل لي شيئاً، قل لي فيم تفكّر؛ وهذا ما فعله. انفصلا كصديقين. حتّى إنّهما انفصلا من دون مرّة أخيرة من أجل الأيام الجميلة الماضية. لم يعن ذلك أنّهما انفصلا فعلاً، ولكنّ طبيعة علاقتهما تغيّرت. قالت ميرسي: "توماس، حين تصبح جثة باردة تحت لوح من الحجر، فستتفاوض لإخراج نفسك من القبر".

كان المنزل هادئاً، تعزله البوابة عن ضجيج المدينة. وكان قد جدّد الأقفال ودعم

السلاسل. أحضرت إليه جو بيضة من بيض الفصح. "انظر، صنعنا هذه لك". كانت بيضاء اللون خالية من الشوائب. ولم يُرسم عليها شيء، باستثناء خصلة شعر واحدة ملتفة، بلون قشر البصل، تظهر من تحت تاج مائل. كانت تختار ملكك وتعرف كيف هو، أليس كذلك؟

قالت الفتاة الصغيرة: "أمي تبعث إليك برسالة: قولي لعمك إنني أريد، كهديّة، فنجاناً مصنوعاً من بيض الغرفين. إنّه مخلوق ذو رأس أسد وجناحي طائر. لقد انقرض الآن، لم يعد بإمكانك إيجاده".
قال: "سأليها أيّ لون تريد".
طبعت جو قبلة على خده.

نظر إلى المرأة، التي انعكست عليها الغرفة المضيفة بأكملها: المزهرة، واللوحات، والسجاد الحريري المعلق على الجدران. كان في روما مصرفي يدعى أغوستينو شيغي. في سيينان، التي أتى منها، كان الناس يقولون إنّه أغنى رجل في العالم. وعندما دعا أغوستينو البابا إلى العشاء، قدّم إليه الطعام في أطباق من الذهب. ثمّ نظر إلى المائدة بعد انتهاء العشاء، الكاردينال المتخم، والفوضى التي خلفوها، والعظام نصف المأكولة، وحسك السمك، وأصداف المحار، وقشر البرتقال، وقال: ارموها، لنوفّر عناء غسل الأطباق.

فراح الضيوف يلقون أطباقهم من النوافذ في التبير مباشرة. طار غطاء الطاولة المتسخ خلفها، وتبعته المناديل البيضاء، التي رفرفت وكأنّها طيور نورس جائعة، غطست لالتهام الفتات. ودوى الضحك الروماني في سماء الليل الرومانية.
كان شيغي قد وضع شباكاً عند الضفاف، وكان لديه غطّاسون وقفوا استعداداً لانتشال كلّ ما يلقي. كما وقف خادم حادّ النظر على الضفة عند الغروب، يحمل لائحة ويغرّز دبّوساً قرب كلّ غرض يتمّ انتشاله من الأعماق.

1531: كان ذاك صيف المذنب. في الغسق الطويل، وتحت ضوء القمر ونور النجم الجديد الغربي، وقف سادة بملابسهم السوداء، يمشون متشابكي الأذرع في الحديقة، ويتحدّثون عن الخلاص: توماس كرانمر، هيوغ لاتييمر، كهنة وكتبة أن الذين ابتعدوا وتوجّهوا إلى أوستن فرايرز وهم يتحدّثون عن اللاهوت: أين أخطأت الكنيسة؟ كيف نعيدها إلى الطريق القويم؟ قال وهو يراقبهم من النافذة: "سيكون من الخطأ الاعتقاد أنّ هؤلاء السادة يتفقون مع بعضهم بعضاً على أيّ مسألة في تفسير الكتاب المقدّس. لو يحصلون على فترة يرتاحون فيها من توماس مور، فسيلحقون

بعضهم بعضاً".

كان غريغوري جالساً على وسادة يلعب كلبته، يداعب أنفها بريشة وهي تعطس لتسليته. قال: "سيدي، لم تسمي كل كلابك بيلاً وكلها صغيرة إلى هذا الحد؟". خلفه، على طاولة من خشب البلوط، جلس نيكولاوس كراتزر، فلكي الملك، ووضع أمامه الأسطرلاب، والحبر، والورق. وضع القلم من يده، ونظر إليه. قال بخفة: "سيد كرومويل، إمّا أنّ حساباتي غير صحيحة، أو أنّ العالم ليس كما نظنّ". قال: "لم تعتبر المذنبات نذير سوء؟ لم ليست بشرى خير؟ لماذا تنذر بسقوط الأمم، وليس بنهوضها؟".

كان كراتزر من ميونيخ، رجلاً أسمر البشرة، في مثل سنّه، فمه طويل وظريف. أتى إلى هنا بحثاً عن الصحبة، والحديث الجيد المثقف، الذي دار بعض منه بلغة بلاده. كان الكاردينال سيده هو أيضاً، وقد صنع له مزولة ذهبية جميلة. حين رآها الرجل العظيم، تورّد وجهه من شدة السرور، وقال له: "تسعة وجوه، يا نيكولاوس! أي أكثر بسبعة وجوه من مزولة دوق نورفولك".

عام 1456، ظهر مذنب كهذا. سجّله العلماء، وحرمه البابا كاليكستوس كنسياً، وقد يكون ثمة عجز أو اثنان على قيد الحياة رأياه. كان ذيله معقوفاً كالسيف، وفي ذلك العام، ضرب العثمانيون حصاراً على بلغراد. إذًا، لا ضير من تسجيل الإشارات التي ترسلها السماء؛ وقد طلب الملك المشورة الفضلى في هذا المجال. ففي خريف عام 1524، أعقبت تراصف الكواكب في برج الحوت حروباً عظيمة في ألمانيا، وظهور طائفة لوثر، وثورات بين صفوف عامّة الشعب، ووفاة 100 ألف من رعيّة الإمبراطور، هذا بالإضافة إلى ثلاث سنوات من المطر. نهب روما تمّ توقّعه قبل عشر سنوات، في أصوات المعركة في الهواء وتحت الأرض: تصادم جيوش غير مرئية، قعقة الفولاذ على الفولاذ، وصراخ أشباح تحتضر. لم يكن في روما لسماعها، ولكنّه التقى بكثير من الرجال الذين قالوا إنّ لديهم صديقاً يعرف رجلاً كان موجوداً حينئذٍ.

قال: "حسناً، إن كنت تستطيع أن تقوم بقراءة الزوايا، يمكنني التحقق من عملك".

قال غريغوري: "د. كراتزر، إلى أين يذهب المذنب، حين لا نراه؟".

حبت الشمس نحو المغيب، وصممت العاصفير. عبقّت رائحة الأزهار من النافذة المفتوحة. كان كراتزر جامداً، شلته إمّا الصلاة أو سؤال غريغوري، وكان يحدث إلى أوراقه، شابكاً أصابعه الطويلة. في الأسفل، في الحديقة، نظر إليه د. لاتيمر ولوح

له. "هيوغ جائع. غريغوري، أدخل ضيوفنا".
"سأراجع الأرقام أولاً". هزّ كراتزر رأسه.

أحضرت الشموع من أجل كراتزر. بدا خشب الطاولة أسود اللون في ضوء الغروب، وراح ضوء الشموع يتمايل فوقها. تحرّكت شفتا العالم، مثل شفتي ناسك يؤدّي صلاة المساء، وسالت الأرقام من قلمه. استدار كرومويل إلى الباب ورآهم. مروا قرب الطاولة وذابوا في زوايا الغرفة.

أتى ثورستون، يمشي بتثاقل من المطبخ. "أتساءل ماذا يظنّ الناس أنّه يدور هنا! عليك إقامة بعض حفلات العشاء. فكلّ هؤلاء السادة الذين يخرجون إلى الصيد، وكذلك السيدات، أرسلوا إلينا ما يكفي من اللحم لإطعام جيش".

"أرسله إلى الجيران".

"يرسل سوفولك ظبياً كلّ يوم".

"السيدّ شابوي جارنا، ولا يأتيه كثير من الهدايا".

"ونورفولك...".

"وزّعه من البوابة الخلفية. اسأل أبناء الأبرشية عن الجياع".

"ولكنّ المشكلة في الذبح! في السلخ والتقسيم!".

"سأتي لمساعدتك، ما رأيك؟".

"لا يمكنك ذلك!" أخذ ثورستون يعصر مئزره.

"يسرّني ذلك". خلع خاتم الكاردينال.

"ابق في مكانك! ابق في مكانك. اعمل على إحدى القضايا، ألا يمكنك ذلك؟ قم

بسّن قانون! سيدي، عليك أن تنسى أنّك عرفت هذه الأعمال يوماً".

عاد للجلوس وهو يتنهّد. "هل يتلقّى المحسنون إلينا رسائل شكر؟ يجدر بي أن

أوقّع عليها بنفسي".

قال ثورستون: "إنّهم يشكرون ويشكرون. أكثر من عشرة كتبة يكتبون الرسائل".

"عليك أن توظّف مزيداً من الشبّان للعمل معك في المطبخ".

"وأنت مزيداً من الكتبة".

إذا أرسل الملك بطلبه، يغادر لندن إلى حيث هو. حلّ شهر آب/أغسطس وهو بين

مجموعة من أفراد الحاشية، يراقبون آن، التي وقفت في بقعة مغمورة بنور الشمس،

مرتدية ملابس مثل ملابس الليدي ماريان، تصوّب السهام إلى هدف. قال: "ويليام

بريريتون، لست في تشيشاير؟".

"بلى، على الرغم من المظاهر".
تمنيت ذلك. "ظننت أنك تمارس الصيد في قريتك".
عبس بريريتون: "هل يتعين عليّ تقديم تقرير عن تحركاتي إليك؟".
كانت آن تستشيط غضباً في ثوبها الحريري الأخضر. لم يكن قوسها كما تحب.
وفي فورة غضب، رمته على العشب.
"كانت هكذا في طفولتها". التفت ليري ماري بولين إلى جانبه، أقرب ممّا ينبغي لها
أن تكون.

"أين هو روبن هود؟" كانت عيناه على آن. "لدي رسالة له".
"لن يقرأها قبل غروب الشمس".
"ألن يكون مشغولاً في هذا الوقت؟".
"إنّها تبيع نفسها يوماً بعد يوم. جميع السادة يقولون إنك مستشارها".
رفضت آن القوس الذي قدّمته إليها السيّد شيلتون، ومشّت فوق العشب، متوجّهة
نحوهما. كان الغطاء الذهبي الذي جمعت فيه شعرها يلمع بحبات ماسيّة. "ما هذا يا
ماري؟ هجوم آخر على سمعة السيّد كرومويل؟". تعالت بعض الضحكات من بين
أفراد المجموعة. سألته: "هل تحمل لي أنباء سارة؟". لأن صوتها، كما لانت نظرتها.
وضعت يدها على ذراعه، وزالت الضحكات.
توقّفاً في مختلى شماليّ الوجهة، بعيداً عن وهج الشمس، وقالت له: "لديّ أخبار
لك، في الواقع. سيحصل غاردينر على وينشستر".
كانت وينشستر أغنى أبرشيّة لدى الكاردينال، وكان يحفظ جميع الأرقام عن ظهر
قلب. "قد يجعله هذه التمييز أسهل انقياداً".
التوى فمها في ابتسامة. "ليس معي. صحيح أنّه سعى إلى التخلّص من كاثرين،
ولكنّه يودّ لو أنّي لا أحلّ مكانها. حتّى إنّّه لا يخفي ذلك عن هنري. أتمنّى لو أنّه لم
يكن وزيره. أنت...".

"لا يزال الوقت مبكراً جداً".
هزّت رأسها قائلة: "أجل، ربّما. هل تعلم أنّهم أحرقوا بيلني الصغير؟ حدث ذلك
بينما كنّا في الغابة نشارك في لعبة اللصوص".
أخذ بيلني إلى أسقف نورويتش، إذ فُبّض عليه وهو يبشّر في الهواء الطلق، حاملاً
بيده صفحات من كتاب تيندايل المبجل. كان اليوم الذي أحرق فيه عاصفاً، فأخذت
الرياح تنفخ النيران بعيداً عنه، ما أطال وقت عذابه. "يقول توماس مور إنّّه تاب حين

كان في النار".

"ليس هذا ما سمعته من الناس الذين رأوه".

قالت آن: "إنه مجنون". كسا وجهها احمرار غضب عميق. "على الناس قول أي شيء ينقذ حياتهم، إلى أن يأتي زمن أفضل. هذا ليس خطيئة. أما كنت لتفعل ذلك؟" - لم يكن من عادته التردد - "آه، هيا، لا بد من أن تكون قد فكرت في ذلك". "بيلني هو من رمى نفسه في النار. لطالما توقعت مصيره. تاب في السابق وأطلق سراحه، لذا، لا يمكن أن يُمنح عفواً مرة أخرى".

خففت رأسها قائلة: "كم نحن محظوظون لأنّ عفو الله لا حدود له". بدت وكأنّها تهزّ نفسها. مدّدت ذراعيها، ففاحت منها رائحة الأوراق الخضراء والخزامى. في الغروب، بدت حبات الماس باردة مثل قطرات المطر. "سيعود ملك الخارجين على القانون إلى قصره قريباً. من الأفضل لنا ملاقاته". استقام ظهرها.

كان الحصاد يُجمع. وكانت الليالي بنفسجية اللون والمدنّب يلمع فوق حقول الخزامى. نادى الصيادون الكلاب. بعد الفصح، ستكون الغزلان بأمان. في طفولته، كان هذا الوقت من السنة هو الوقت الذي يعود فيه الصبية الذين يعيشون في البراري إلى البيت ويتصالحون مع آبائهم. فمذ ما قبل العنصرة، عاشوا على الكناسة وخدع المتسوّلين، كانوا ينصبون الشراك للطيور والأرانب ويطهونها في قدر حديدية، كما كانوا يلاحقون الفتيات اللواتي يجرين وهنّ يصرخن إلى بيوتهنّ. وفي الليالي الممطرة والباردة، كانوا يتسلّلون إلى الهراء والمراحيض الخارجية، ويدفّنون أنفسهم بالغناء وسرد النكات وحلّ الحزازير. وعند انتهاء الموسم، حان الوقت لبيع الرجل. فدار به من باب إلى باب ووصف مزاياه. "هذه القدر لا تخلو أبداً. إن وضعت فيها رؤوس السمك فقط، يخرج منها هلبوت".

"أهي مثقوبة؟".

"هذه القدر سليمة، وإن كنت لا تصدّقيني، سيدتي، يمكنك التبول فيها. هيا، أخبريني كم ستعطيني. ما من قدر مثلها منذ أن كان ميرلين ولداً. ضعي فيها فأراً لتجدي مكانه حيواناً مقزراً برياً مطيباً بالتوابل، وفي فمه تقاحة جاهزة".

سألته إحدى النساء: "كم عمرك؟".

"هذا سؤال لا أعرف جوابه".

"تعال في العام القادم، يمكننا النوم في سرير أبي".

تردّد قائلاً: "في العام القادم، سأهرب".

"ستسافر على الطرقات لتجربي عروضاً متقلّة؟ مع قدرك؟".
"كلاً، أظنّ أنّني سأصبح لَصّاً، أو مربّي دببة، فهذا عمل ثابت".
قالت المرأة: "أتمنّى لك التوفيق".

في تلك الليلة، بعد الحَمّام، والعشاء، والغناء، والرقص، أراد الملك أن يتنزّه. كان يحبّ الريف، ويحبّ الشراب الخفيف. ولكنّه هذه الأيام يقضي بسرعة على كأسه الأولى ويشير طلباً للمزيد. هكذا احتاج إلى ذراع فرانسيس ويستون للاتّكاء عليها وهو يغادر الطاولة. كان الندى الكثيف قد تساقط، وراح حاملو المشاعل يسحقون العشب بأقدامهم. أخذ الملك بضعة أنفاس من الهواء الرطب. قال: "غاردينر، أنتما لا تتفقان".

أجاب بلطف: "لست على خصام معه".
"إذاً، هو على خصام معك". اختفى الملك في الظلام. ثمّ تحدّث من خلف أحد المشاعل: "يمكنني تدبّر أمر ستيفن، لديّ هذه المقدرة. إنّه من النوع الغليظ الذي أحتاج إليه هذه الأيام. لا أريد رجالاً يخافون من الخلاف".
"يجدر بجلالتكم الدخول. فهذه الرطوبة الليلة غير صحيّة".
ضحك الملك قائلاً: "وكأنّ الكاردينال هو الذي يتحدّث".

اقرب من ذراع الملك اليسرى. كانت آثار الالتواء تبدو على رُكبتي ويستون، الأكثر شباباً والأضعف بنية. نصحه قائلاً: "اتكئ عليّ". أحاط الملك عنقه بذراعه، وكأنّه يتصارع معه. للحظة، ظنّ أنّ الملك يبكي.

لم يهرب في العام التالي، لتربية الدببة أو ممارسة أيّ تجارة أخرى. ففي العام التالي، هجم الكورنوليون على البلاد، وكان الثوّار يبنون إحراق لندن وأسر الملك الإنكليزي للتفاوض معه وإخضاعه لرغباتهم. سبق الرعب جيوشهم، بسبب ما كان يشاع عنهم، أنّهم يحرقون أكوام القشّ ويذبحون الماشية، يضرمون النار في المنازل بمن فيها، ويذبحون الكهنة، ويأكلون الأطفال، ويدوسون على خبز مذابح الكنائس.
تركه الملك بشكل مفاجئ. "ندسّ في أسرتنا الباردة؟ أم أنّه سريري أنا فقط؟ غداً سترافقني إلى الصيد. إن لم تكن تملك جواداً مناسباً، فسنعطيك واحداً. سأرى إن كنت أستطيع إنهاكك، مع أنّ وولزي قال إنّ هذا مستحيل. يجب أن تتفقاً أنت وغاردينر. يجب أن تُشدّوا هذا الشتاء إلى المحراث".

لم يكن بحاجة إلى ثيران، بل إلى بهائم تتصارع وتؤذي وتشوّه نفسها في المعركة لصالحه. من الواضح أنّ فرصه مع الملك ستكون أفضل إن لم يتفق مع غاردينر.

فرّق تَسُد. ولكنّه يسود على أيّ حال.

مع أنّ البرلمان لم يُدعَ إلى الاجتماع، إلاّ أنّ أواخر شهر أيلول/سبتمبر هي الأكثر انشغالاً. فالمُلفّات عن أعمال الملك كانت تصل كلّ ساعة تقريباً، ويزدحم أوستن فرايرز بالتجّار والرهبان والكهنة من مختلف الألوان، يسألونه خمس دقائق من وقته. وكأنّهم شعروا بشيء ما، بتحوّل في السلطة، بمشهد قادم. وبدأت مجموعات من أبناء لندن تتجمّع أمام بابه لعلف أو إيواء جياد الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون: خادم دوق نورفولك، خادم إيرل ويلتشاير. نظر إليهم من إحدى النوافذ وشعر أنّه يعرفهم؛ إنهم أبناء الرجال الذين كانوا يقفون كلّ خريف يثرثرون ويتدقّأون أمام دكّان أبيه. إنهم صبية كالصبيّ الذي كان عليه: لا يهدأ، ينتظر حدوث شيء.

نظر إليهم ومحا عن وجهه التعابير التي تفضح أفكاره، أخفى عواطفه. قال إيراسموس إنّ على المرء فعل ذلك كلّ صباح قبل أن يغادر منزله: "ضع على وجهك قناعاً". كان يطبّق تلك النصيحة في كلّ مكان، وكلّ قصر أو نزل، ولدى كلّ نبيل. أرسل بعض المال إلى إيراسموس، مثلما اعتاد الكاردينال أن يفعل. كان يقول: "كي يشتري العصيدة، ويؤمّن لروحه الفقيرة الحبر والریش". فوجئ إيراسموس، فهو لم يسمع السوء عن توماس كرومويل.

منذ اليوم الذي حُلف فيه وأصبح عضواً في مجلس شورى الملك، عمل على إخفاء عواطفه. أمضى الأشهر الأولى من السنة وهو يراقب وجوه الناس، ويرى متى تسجّل الشكّ، التحفظ، التمرد، ويلتقط تلك اللحظة الخاطفة، قبل أن تستقرّ على القسمات المهذّبة لرجل الحاشية المطيع. قال له رايف: لا يمكننا الوثوق بريوثيسلي، فضحك وقال: أعرف كيف أتعاطى معه. فهو ملك علاقات جيّدة مع البلاط، ولكنّ بداياته كانت في منزل الكاردينال، شأنه شأن الجميع. ولكنّ غاردينر كان سيده في ترينيتي هول، ورآنا ونحن نخرج معاً إلى العالم. رآنا ونحن نكبر، وكأنّنا كلبان يتقاتلان، ولم يستطع أن يقرّر أين يضع ماله. قال لرايف، قد أشعر بالشيء نفسه لو كنت مكانه. كان الأمر سهلاً في أيّام، ما عليك سوى إلباس قميصك لولويزي. لم يكن يخشى ريوثيسلي، ولا أيّ شخص مثله. من الممكن حساب أعمال الناس الذين يفتقرون إلى المبادئ. ما دمت تطعمهم، سيجرون وراءك. أمّا الأشخاص الذين تعذّر حساب خطواتهم، الأشخاص الأكثر خطورة، هم رجال أمثال ستيفن فوغان، رجال يكتبون إليك، كما فعل فوغان: توماس كرومويل، أنا مستعدّ لفعل أيّ شيء من أجلك. رجال كانوا يقولون إنهم يفهمونك، ويحتضنونك بقوة وإحكام إلى حدّ حملك وإلقائك في

الهاوية.

في أوستن فرايرز، طلب إرسال الشراب والخبز إلى الرجال الواقفين عند البوابة، وحين كان الصباح بارداً، أرسل إليهم الحساء. قال ثورستون، هذا إن كنت تنوي إطعام الحيّ بأسره. قال سان بول إن علينا أن نتألق في أوقات القلّة وفي أوقات الوفرة، سواء أكانت معدّنا خالية أم ممتلئة. نزل إلى المطبخ للتحدّث إلى الأولاد الذين وظّفهم ثورستون. أخبره بأسمائهم وما يستطيعون فعله وهم يصيحون، فدوّن قدراتهم في دفتر. كان ينبغي أن يتمّ تدريب هؤلاء الصبية. ويوماً ما، كانوا سيتمكّنون من الصعود إلى الطابق العلوي، والجلوس في مكتب المحاسبة. وجب أن يحصلوا جميعاً على ملابس دافئة ومناسبة، وأن يتمّ تشجيعهم على ارتدائها، لا على بيعها. فهو تذكّر، من الأيام التي أمضاها في لامبيث، البرد القارس في غرف المؤونة. في مطبخ وولزي في قصر هامبتون، الذي كانت تشتعل فيه المدافئ وتُحفظ الحرارة، رأى رقاقات الثلج تتراكم على الدعامات وتستقرّ على حوافّ النوافذ.

عندما خرج من منزله فجرّاً في الصباح البارد، مع كتبتّه، كان أبناء لندن متجمّعين. التفتوا وراقبوه، لا بمودّة ولا بعدائيّة. ألقى عليهم تحيّة الصباح مضيئاً، بارككم الله، وردّوا عليه التحيّة. رفعوا قبّعاتهم، وبما أنّه مستشار الملك، كانوا لا يردّونها إلى رؤوسهم قبل مروره.

تشرين الأوّل/أكتوبر: أتى السيّد شابوي، سفير الإمبراطور، إلى أوستن فرايرز لتناول العشاء، وكان ستيفن غاردينر على لائحة الطعام. قال شابوي: "ما إن عيّن في وينشيستر، حتّى أرسل إلى الخارج. وهل سيُعجب الملك فرانسيس برأيك؟ بِمَ يمتاز كديبلوماسي عن توماس بولين؟ وإن كنت أظنّه متحيّزاً، فهو والد الليدي. أمّا غاردينر، فهو أكثر... تردّداً؟ أكثر لا مبالاة، ذاك هو التعبير المناسب. لا أعرف ما سيحصل عليه الملك فرانسيس من دعم هذا الزواج، ما لم يكن ملككم قد عرض عليه شيئاً، ولكن ما هو؟ أهو المال؟ أم السفن الحربية؟ أم كاليه؟".

على طاولة العشاء، تحدّث السيّد شابوي بمرح عن الشعر، وفنّ التصوير، والسنوات التي أمضاها في الجامعة في تورين. التقت إلى رايف، الذي يتقن الفرنسية، وحدّثه عن الصيد بالصقور، وهو أمر يثير اهتمام الشباب. قال له رايف: "عليك الخروج مع سيّدنا، فهذه وسيلة الترفيه الوحيدة لديه هذه الأيام".

نظر السيّد شابوي إليه بعينيه الصغيرتين البراققتين. "أصبح يمارس ألعاب الملوك الآن".

نهض شابوي عن الطاولة وأثنى على الطعام، والموسيقى، والأثاث. كان من الممكن رؤية دماغه يدور ويتكك، مثل ساعة كبيرة، وهو يسجل آراءه التي سيرسلها إلى سيده الإمبراطور.

عندما جلسا لاحقاً في مكتبه، أمطره السفير بالأسئلة، من دون أن يعطيه فرصة الإجابة. "إن كان أسقف وينشستر في فرنسا، فكيف سيتصرف هنري من دون وزيره؟ قد تكون تلك فرصتك للاقترب أكثر، ألا تظن ذلك؟ أخبرني، هل صحيح أن غاردينر هو قريب الملك غير الشرعي؟ وغلارك ريتشارد، أيضاً؟ هذه المسائل تحير الإمبراطور، أعني ألا يكون الملك ملكياً بقدر ما ينبغي. لا عجب ربّما أن يسعى إلى الزواج من سيّدة فقيرة".

"لا أظن أن الليدي آن فقيرة".

"صحيح، فقد أثرى الملك عائلتها". ابتسم شابوي مضيقاً: "هل من المؤلف في هذه البلاد أن يدفع للفتاة على خدماتها مسبقاً؟".

"أجل في الواقع. تذكر، سأشعر بالأسف لرؤيتك ملاحقاً في الشارع".

"أنت تقدّم المشورة إلى الليدي آن؟".

"أتولّى حساباتها. هذا أقلّ ما يمكنني فعله لصديقة عزيزة".

ضحك شابوي بمرح. "صديقة! إنها مشعوذة، هل تعرف ذلك؟ لقد أثرت في الملك، وهو خاطر بكلّ شيء، بأن يُطرد من العالم المسيحي، وأن يلعن. وأظنّ أنه يعرف ذلك، إلى حدّ ما. لقد رأيته تحت نظرها، نكاؤه مبدّد متلاش، وروحه تتلوى وكأنّه أرنب برّي تحت عيني صقر. ربّما أثرت فيك أنت أيضاً". مال شابوي إلى الأمام ووضع على يده كفّه الصغيرة الشبيهة بكفّ قرد. "اكسر التأثير، مون شير أمي (يا صديقي العزيز). لن تتدم على ذلك. أنا أخدم أميراً بالغ التسامح".

تشرين الثاني/نوفمبر: وقف السير هنري ويات في بهو أوستن فرايرز، ونظر إلى المساحة الخالية على الجدار، حيث كان شعار الكاردينال. "لم يرحل سوى منذ عام، توماس. بالنسبة إليّ، بدا الوقت أطول. قالوا إنه حين يكبر المرء في السنّ، تصبح أيامه متشابهة. أوكد لك أنّ هذا غير صحيح".

صاحت الفتاتان الصغيرتان: "آه، هيا أيّها السيّد، لست كبيراً إلى حدّ عدم القدرة على حكاية قصّة. قادتاه إلى إحدى الأرائك المخملية الجديدة وتوجّتاه. من شأن السير هنري أن يكون والد أيّ كان، لو عاد الخيار إليهما، وجدّ أيّ كان. خدم في خزينة هنري الحاليّ، وهنري الذي سبقه. وإن كان آل تيودور فقراء، فهذا ليس

خطأه".

كانت أليس وجو في الحديقة، تحاولان الإمساك بالهرّ. كان السير هنري يحب رؤية هرّ يعامل معاملة حسنة من أهل المنزل. وشرح سبب ذلك.

قال: "في أحد الأيام، ظهر في إنكلترا طاغية يحمل اسم ريتشارد بلانتاجينيت...". قاطعته أليس قائلة: "آه، كان ثمة أشخاص خبيثون يحملون هذا الاسم. وهل تعلم أنه لا يزال بعضهم أحياء حتى الآن؟".

ضحك الجالسون، فصرخت أليس وقد تورّد خذاها: "حسناً، هذا صحيح". ".... وأنا، خادمك ويات الذي يحكي هذه القصة، قبض عليّ هذا الطاغية وسجنني في زنزانية، نمت فيها على القشّ، ولم يكن فيها إلا نافذة واحدة، أغلقت بالقضبان الحديدية...".

تابع السير هنري قائلاً: "حلّ فصل الشتاء، ولم يكن لديّ نار، ولا طعام، ولا ماء، لأنّ الحراس نسوا أمرى". جلس ريتشارد كرومويل يصغي إلى القصة، وقد وضع يده على ذقنه. تبادل نظرة مع رايف، وكلاهما نظرا إليه، فقام بحركة صغيرة، مبعداً أهوال الماضي. كانا يعرفان أنّ السير (السيد) هنري لم يطوّه النسيان في البرج. بل عمد حراسه إلى وضع سكاكين حامية على جلده، وخلع أسنانه.

قال السير هنري: "ماذا فعلت عندها؟ من حسن حظّي، كانت زنزانتى رطبة، فشربت الماء الذي سال على الجدران".

قالت جو: "وماذا عن الطعام؟". كان صوتها منخفضاً وخائفاً. قال السير (السيد) هنري: "آه، الآن وصلنا إلى الجزء الأفضل. في أحد الأيام، وكنت أشعر أنّي سأموت إن لم أكل، لاحظت أنّ شيئاً ما حجب النور المتسلل من النافذة. نظرت إلى الأعلى، لأرى شكل قطة، قطة لندنية بيضاء وسوداء. قلت لها: والآن أيتها القطة. فماتت، وفي أثناء فعل ذلك، أسقطت حملها، واحزروا ماذا أحضرت لي؟".

صاحت جو: "حمامة!".

"سيدتي، إمّا أنّك كنت سجينّة أنت نفسك، أو سبق أن سمعت القصة". نسيت الفتاتان أنّه لا يملك طاهياً، ولا مطبخاً، ولا ناراً. أمّا الشابان، فأجفلتهما الصورة التي عبرت خيالهما عن سجين يمزق بيديه المقيدتين بالأغلال، كتلة من الريش الممتلئ بقمل الطيور.

"بعد ذلك، تنهى إلى سمعي، وأنا ممدّد على القشّ، رنين الأجراس وصراخ في

الشارع، تيودوريّ! تيودوريّ! من دون تلك الهدية التي أحضرتها لي القطة، لما عشت لأسمع ذلك، أو أسمع صوت المفتاح الذي استدار في القفل، وأرى الملك هنري نفسه يبكي، ويات، أهذا أنت؟ تعال لتتال مكافأتك!".

كان في هذا الكلام بعض المبالغة التي يُعذر عليها. فهنري لم يدخل تلك الزنزانة، بل الملك ريتشارد. كان هو من أشرف على عملية تجمية السكاكين، وأصغى، برأسه المائل، إلى هنري ويات وهو يصرخ. هو من ابتعد، اشمئزاً من رائحة الجلد المحترق، وأمر بإعادة تجمية السكاكين ووضعها على جسده مرّة أخرى.

يقال إنّ بيلني الصغير عمد، في الليلة التي سبقت إحراقه، إلى وضع أصابعه في شعلة شمعة، وطلب من الله تعليمه كيف يتحمّل الألم. لم يكن ذلك حكيماً، أن تعيش الحدث قبل وقوعه. سواء أكان حكيماً أم لا، فقد فكّر فيه. قالت ميرسي: "والآن، سير هنري، عليك أن تحكي لنا قصة اللبوة، لأننا لن ننام قبل سماعها".

"في الواقع، هذه قصة ابني، يا ليته كان هنا".
قال ريتشارد: "لو كان هنا، لانشغلت الفتاتان بالتحديق إليه، والتنهّد. بلى، هذا ما كنت ستفعلينه، يا أليس، ولما اكرثتا بقصة اللبوة".

عندما شفي السير هنري بعد خروجه من السجن، أصبح واسع النفوذ في البلاط. فأرسل إليه أحد المعجبين هدية، كانت عبارة عن لبوة صغيرة. قال: "ربيتها في قصر ويلينغتون وكأنتها طفلي، إلى أن أصبحت تتمتع بشخصية خاصة بها، كأبي فتاة. وفي أحد الأيام، خرجت من قفصها، بإهمال منّي. ناديتها، ليونتينا، قفي مكانك إلى أن أعيدك، ولكنها جثمت، بصمت تام، ورمقتني بعينيها الناريّتين. حينئذٍ، أدركت أنّني لم أكن أباه، على الرغم من الحب الذي أكنّه لها، بل كنت عشاءها".
رفعت أليس يدها إلى فمها مذعورة وقالت: "سير هنري، لا بدّ من أنّك ظننت أنّ ساعتك الأخيرة قد حانت".

"بالفعل، وهذا ما كان ليحصل، لولا أنّ ابني توماس خرج صدفة إلى الفناء. أدرك على الفور أنّني هالك، فناداها: ليونتينا، انظري إليّ، فالتفتت نحوه. ما إن حوّلت انتباهها عنّي، حتّى تراجعت خطوة إلى الوراء، ومن ثمّ أخرى. قال لها توماس: انظري إليّ. في ذلك اليوم، كان يرتدي ثوباً زاهياً جدّاً، مع كمّين طويلين يلوحان في الهواء الذي تخلل ثوبه الواسع، وبدا شعره الفاتح، الذي كان طويلاً في ذلك الحين، وكأنّه شعلة نار، تتوهّج تحت الشمس. فوقفت مذهولة للحظة، بينما رحّت أبتعد أكثر...".

التفتت ليوننتينا، وجثمت. تركت الأب، وبدأت تتقدّم ببطء نحو الابن. كان من الممكن رؤية قوائمها التي تدوس الأرض بهدوء، واشتتام رائحة الدم الكريهة في أنفاسها. (في تلك الأثناء، أخذ هنري ويات، يتراجع مذعوراً، باتجاه المساعدة). أمّا توم ويات، فراح يتحدث إلى اللبوة بصوته الناعم الساحر، يتمتم لها بحنان، ويطلب من القديس فرانسيس أن يفتح قلبها الوحشي للرحمة. راقبته ليوننتينا، وأصغت إليه. فتحت فمها، ثم زارت: "ماذا تقول؟".

"في، في، فو، فوم، أشتم رائحة دم إنكليزي".
وقف توم ويات جامداً كالصخر. تقدّم شبّان يحملون الشباك عبر الفناء. كانت ليوننتينا على بعد أنملة منه، ولكنها وقفت مرّة أخرى تصغي إليه. وقفت متردّدة، تهزّ أذنيها. كان يرى اللعاب الوردّي يسيل من فكّيها، ويشتم رائحة فرائها العفنة. جثمت على قائمتيها الخلفيتين. رأى عضلاتها ترتجف وفكّيها يتقلّصان. وثبت، ولكنها دارت في الهواء، فقد اخترق سهم أضلاعها. دارت ووقعت على السهم، ثم صرخت وأنتت. انغرز سهم آخر في خاصرتها الكثيفة، وبينما أخذت تدور من جديد وهي تتنّ، سقطت الشباك فوقها. ثم أسرع السير هنري نحوها، وغرز سهمه الثالث في حنجرتها.

ظلت تتنّ حتى وهي تحتضر. قحّت مخرجة الدماء من فمها، وظلت تصارع. لا يزال أحد الغلمان يحمل أثر مخالبيها حتى هذا اليوم. ويمكن رؤية فرائها على الجدار في أليينغتون. قال السير هنري: "ستأتان أيتها الفتاتان يوماً ما لزيارتي، وتريان كم كانت ضخمة".

قال ريتشارد، مبتسماً: "لم تُستجب صلوات توم. لم يفعل القديس فرانسيس شيئاً لإنقاذه".

شدّت جو كمّه قائلةً: "سير هنري، لم تحك لنا أفضل جزء من القصة".
"كلاً، فقد نسيت. عندئذٍ، ابتعد ابني توم، بطل ذاك اليوم، وراح يتقياً خلف إحدى الشجيرات".

تنهّد الجميع، وصفقوا له. في الوقت الذي وقعت فيه الأحداث، بلغ نبأها القصر، وشعر الملك بشيء من الرهبة لدى سماعها، إذ كان أصغر سنّاً في ذلك الحين. وحتى اليوم، كلّمأ رأى توم، يتمتم بينه وبين نفسه: توم ويات، يستطيع ترويض الأسود.

بعد أن تناول السير هنري، المولع بالفاكهة الطريّة، بعض حبّات توت العليق مع

القشدة الصفراء، قال: "أودّ التحدّث إليك على انفراد"، فانسحبا. قال السير هنري: "لو أنّي مكانك، لطلبت منه تعييني أميناً على بيت الجوهرة. فعندما تولّيت ذلك المنصب، أمكنني أخذ فكرة عن الواردات".

"وكيف أطلب منه؟".

"اسأل الليدي أن تطلب منه".

"ربّما يستطيع ابنك المساعدة في سؤال أن".

ضحك السير هنري، أو بالأحرى أشار بههمة صغيرة أنّه فهم النكته. استناداً إلى روايات رواد المقاهي في كينت، وخدم القصر (ومن بينهم الموسيقي مارك)، قدّمت أن إلى هنري ويات جميع الخدمات المعقولة التي يمكن لرجل أن يطلبها، حتّى في بيت دعارة.

قال السير هنري: "أنوي التقاعد من البلاط هذا العام. حان الوقت لأكتب وصيّتي.

هل يمكنني تعيينك منفذاً لها".

"هذا شرف لي".

"ما من أحد آخر أثق بتسليمه شؤوني. أنت الشخص الأكثر ثباتاً الذي عرفته".

ابتسم مريبكاً. ما من شيء يبدو له ثابتاً في هذا العالم.

قال ويات: "أفهمك. أعرف أنّ العجوز، ذا الثوب القرمزي، قادتك إلى الحضيض تقريباً. ولكن انظر إلى نفسك الآن، أنت تأكل اللوز، وتتمتّع بجميع أسنانك، وأهل بيتك حولك، وأعمالك تزدهر، ورجال من أمثال نورفولك يتحدّثون إليك باحترام". لم يكن بحاجة إلى أن يضيف، منذ عام خلا، كانوا يدوسونك بأقدامهم. كسر السير هنري بأصابعه كعكة هشّة، ووضعها على لسانه بحذر. مضى أربعون عاماً على خروجه من البرج، ولكنّ فكّيه المسحوقين لا يزالان يتصلبان ويسببان له الألم. "توماس، أودّ أن أطرح عليك سؤالاً... هلاًّ اهتممت بابني، وكنت له أباً؟".

"كم هو عمر توم، ثمانية وعشرون عاماً؟ لا أظنّ أنّه يرغب في أب آخر".

"لن تكون أسوأ منّي. فعلت كثيراً من الأمور التي أندم عليها الآن، لا سيّما زواجه... كان في السابعة عشرة من عمره، ولم يرغب في ذلك الزواج، بل أنا من أراده، لأنّ والد الفتاة كان البارون كوبهام، وأردت الحفاظ على موقعي بين جيرانني في كينت. كان توم دائماً شاباً وسيماً، لطيفاً ولائقاً، بحيث ظننت أنّه سيناسب الفتاة، ولكنني لا أعرف ما إذا أخلصت له ولو شهراً واحداً. لذا، بالطبع، عاملها بالمثل... هكذا امتلأ المنزل بالعشيقات. إن فتحت خزانة، تسقط منها فتاة. سافر إلى الخارج،

وماذا حصل؟ انتهى سجيناً في إيطاليا، لن أفهم أبداً تلك القضية. ومنذ حادثة إيطاليا، ازداد طيشاً. يستطيع طبعاً أن يؤلف لك قصيدة إيطالية، ولكن اجلس معه وحاول أن تعرف أين ينفق ماله...". فرك ذقنه، ثم أضاف: "ولكن، على الرغم من كل ذلك، ما من شاب أكثر شجاعة من ابني".

"هلاً عدت للانضمام إلى الباقيين؟ أنت تعلم أننا نأخذ عطلة عندما تزورنا". نهض السير هنري. كان رجلاً مهيباً، على الرغم من أنه يعيش على الحساء والطعام المهروس. "توماس، متى تقدّمت في السن؟".

عندما عادا إلى البهو، وجدا الآخرين يؤدّون مسرحية. كان رايف يمثل دور ليونتينا والباقيون يزأرون له. ليس لأنهم لم يصدّقوا قصّة اللبوة، بل لأنهم يرغبون في إضافة لمستهم إليها. مدّ يداً حاسمة نحو ريتشارد، الذي كان يقف على مقعد ويصرخ. قال له: "أنت تغار من توم ويات".

استعاد رايف وضعيته البشرية، وتهاوى على أحد المقاعد قائلاً: "آه، لا تغضب. أخبرنا عن فلورنسا. أخبرنا ماذا فعلت أيضاً أنت وجوفانينو".

"لا أعرف ما إذا كان يجدر بي ذلك. ربّما حولتموها إلى مسرحية". ألحوا عليه، فنظر حوله، أخذ رايف يخرخر لتشجيعه. "هل أنت واثق أن ريوثيسلي ليس هنا؟ حسناً... في يوم العطلة، كنّا نهدم المنازل". سأله هنري ويات: "تهدمونها؟ حقاً؟".

"أعني نفجّرها. ولكن ليس من دون إذن أصحابها. إلا إن ظننا أنها متداعية وتشكّل خطراً على المارة. كنّا نهتمّ بوضع المواد المتفجرة وحسب". "وكانت خبرتكم واسعة، على ما أفترض؟".

"يحتاج الأمر إلى الحفر لبضع ثوانٍ من الحماسة. ولكنني عرفت شبّاناً عملوا فيها كمهنة. في فلورنسا، كان عملاً مناسباً لأوقات التسلية، كالصيد مثلاً. يبقى المرء بمنأى عن المشاكل". تردّد ثمّ أضاف: "في الواقع، لا، ليس بالفعل". قال ريتشارد: "هل أخبر ريوثيسلي غاردينر؟ عن كوبيد؟". "ما رأيك؟".

قال الملك له: سمعت أنك عتقت تمثالاً. كان الملك يضحك، ولكنّه يلمح إلى شيء ربّما. كان يضحك لأنّ المزحة كانت ضدّ رجال الدين والكرادلة، وكان في مزاج للمزاح.

قال الوزير غاردينر: "تمثال، قانون، لا فرق".

"تشكّل الرسالة الواحدة كلّ شيء، في التشريع. ولكنّ أسلافي لم يكونوا دجّالين".
قال غاردينر: "لم تعجبك المزحة؟".

"جلالة الملك، منح مجلس القسطنطينية سلفكم، هنري الخامس، سلطة واسعة على الكنيسة في إنكلترا، لم يسبق لملك آخر أن مارسها في هذه المملكة".
"ولكنّ الامتيازات لا تطبّق، ليس باستمرار. لماذا؟".
"لا أدري. قلة كفاءة؟".

"ولكننا نملك مستشارين أفضل الآن؟".

"بل ملوكاً أفضل، جلالتم".

بغير علمه، رسم غاردينر تعبيراً ساخراً على وجهه، وكاد يضحك.

اختتمت الدورة القانونية. قالت له آن: "تعال لتناول عشاء أحد بسيط معي.
سنستعمل الأشواك".

ذهب، ولكن لم تعجبه الصحبة. كان أصدقاء الملك كالدمى بين يديها، سادة مجلس الملك الخاصّ: هنري نوريس، ويليام بريريتون، هؤلاء الناس، وشقيقتها بالطبع، اللورد روتشفورد. بدت آن هشة في وجودهم، وقاسية إزاء مجاملاتهم، مثل امرأة تذبج الطيور للعشاء. إن اختفت ابتسامتها للحظة، ينحنون جميعاً إلى الأمام، حائرين كيف يسعدونها. لا شكّ في أنّه عليك أن تذهب بعيداً لتعثر على مجموعة أكبر من الحمقى.

بالنسبة إليه، يمكنه الذهاب إلى أيّ مكان، وقد سبق وكان في كلّ مكان. نشأ على أحاديث مائدة عائلة فريسكوبالدي، وعائلة بورتيناري، ومؤخراً على مائدة الكاردينال، بين العلماء والظرفاء، لذا، كان من المستبعد أن يشعر بالضياح بين الأشخاص الذين تجمعهم آن حولها. يعلم الله أنّ هؤلاء السادة يبذلون ما في وسعهم لمضايقته، ولكنّه يملك راحته الخاصّة، وهدوءه، وحديثه الدقيق والواضح. نوريس هو رجل ذكي، وليس شاباً، وهو يسخّف نفسه بمجالسة أولئك القوم. ولماذا؟ القرب من آن يجعله يرتعش. إنّها نكتة تقريباً، ولكنّها نكتة لا يرونها أحد.

بعد تلك الفرصة الأولى، تبعه نوريس ولمس كمّه، ثمّ جعله يتوقّف أمامه وجهاً لوجه. "أنت لا ترى ذلك، صحيح؟ أن؟".

هزّ رأسه.

"إذاً، ماذا تريد؟ امرأة سمينة من أسفارك؟".

"امرأة أستطيع أن أحبّها، امرأة لا يهتمّ لها الملك إطلاقاً".

"إن كانت هذه نصيحة، أعطها إلى صديقك ابن ويات".
"آه، أظنّ أنّ الشابّ ويات توصل إليها بنفسه. فهو يقول في نفسه، ألف بيتاً من الشعر من حرمانك. ألسنا جميعاً نزداد حكمة، من الإهانات الصغيرة إلى الكبرياء؟".
قال نوريس: "هل يمكنك النظر إليّ، والازدياد حكمة؟".

أعطى نوريس منديله. مسح نوريس وجهه وأعاد إليه المنديل، حينها تذكر القديسة فيرونিকা. وتساءل ما إذا كان سيد ملامح هنري النبيلة مطبوعة على المنديل عند عودته إلى البيت، وما إذا كان سيعلق النتيجة على الجدار، في تلك الحالة. أشاح نوريس بنظره وهو يضحك: "ويستون، الشابّ ويستون، أنت تعرفه، يغار من غلام تحضره كي يغني لنا في بعض الأمسيات. ويغار من الرجل الذي يأتي لإشعال النار، أو الخادمة التي تساعدنا على خلع جوربها. وفي كلّ مرة تنتظر فيها إليك، يراقبها ويقول: ها هي، هل ترى؟ تنتظر إلى ذلك الجزر السمين، تنتظر إليه خمس عشرة مرة في الساعتين".

"الكاردينال هو من كان الجزر السمين".

"بالنسبة إلى فرانسيس، كلّ تاجر هو مثل الذي يليه".

"أرى ذلك. تصبح على خير".

قال نوريس: "وأنت بخير"، وربّت على كتفه من دون انتباه، وكأنتهما متساويان، وكأنتهما صديقان. وجه نظره مجدداً نحو آن، واتّجهت خطواته مجدداً نحو منافسيه.
هل كلّ تاجر هو مثل الذي يليه؟ ليس في عالم الواقع. بمقدور كلّ من يملك يداً ثابتة وساطوراً أن يسمّي نفسه جزّاراً: ولكن من أين له الساطور لولا الحدّاد؟ لولا الحرفي الذي يعمل بالمعادن، من أين يحصل الناس على المطارق، والمناجل، والمقصّات، والمسحاج (المبرة التي يُبرى بها الخشب)؟ من أين لهم الأسلحة، والأسهم، والرماح، والبنادق؟ من أين لهم السفن التي تمخر عباب البحر والمراسي؟ من أين لهم الخطّافات، والمسامير، والمزلاجات، والمفاصل، وقضبان النار، والملاقط؟ من أين لهم الغلايات، والمناصب، وحلقات السروج، والأبازيم، وحديد اللجام؟ من أين لهم السكاكين؟

تذكر اليوم الذي سمعوا فيه أنّ الجيش الكورنوالي آت. كان يبلغ حينذاك الثانية عشرة من عمره تقريباً، وكان في محلّ الحدادة. نظف المنفاخ، وجلس لتزييت الجلد المدبوغ. "أصبح مشقّقاً".

قال: "صحيح". (كان هذا هو نوع الأحاديث التي تدور بينه وبين والتر).

"لن تزول من تلقاء نفسها".

"قلت صحيح، صحيح، أنا أصلحه!".

نظر إلى الأعلى. كان جارهم أوين مادوك واقفاً عند الباب. "إنهم يتقدمون، يقال إنهم أصبحوا عند النهر. هنري تيودور مستعد للقتال، والملكة والصغار في البرج". مسح والتر فمه: "كم بقي لوصولهم".

أجاب مادوك: "الله أعلم. فهؤلاء الأوغاد قادرين على الطيران". استقام، وكان يمسك بيده مطرقة تزن أربعة باوندات، ورمحاً من شجر الدردار.

في الأيام القليلة التالية، عملوا إلى أن شعروا بالإنهاك. فتولّى والتر صنع الدروع لأصدقائه، فيما كان هو يضيف نصلاً لكل ما يمكن استعماله لطعن وتمزيق الأجساد المتمردة. فرجال بوتتي لا يشعرون بأيّ عطف على أولئك الوثنيين. وما داموا يدفعون الضرائب، فلم لا يفعل الكورنوليون مثلهم؟ تخشى النساء أن يعتدي الكورنوليون على شرفهنّ. قال: "يقول كاهننا إنهم لا يفعلون ذلك إلا مع أخواتهم، لذا، ستكونين في أمان، يا بيت".

رمت عليه بيت شيئاً، فتقادهاه. كان ذلك هو عذر كسر الأغراض في ذلك المنزل: رميت توماس به. قال: "في الواقع، لا أعرف ماذا تحبين".

في ذلك الأسبوع، تكاثرت الإشاعات. قيل إن الكورنولييين يعملون تحت الأرض، لذا، فإنّ وجوههم سوداء. وهم شبه عميان، ويمكن بالتالي التقاطهم بالشباك. كما قيل إن الملك سيدفع شيلينغ لكل من يمسك بواحد منهم، واثنين إن كان ضخماً. كم يبلغ حجمهم؟ فبمقدورهم رمي السهام عن بعد ياردة (0.9 متر).

والآن أصبحوا يرون جميع أدوات المنزل تحت ضوء جديد. الأسياخ، والأوتاد، وإبر التشحيم، كل ما يمكن استعماله في الدفاع عن النفس عن قرب. كان الجيران يدفعون لوالتر لقاء عمله الآخر، الشراب، وكأنّ الكورنولييين ينوون القضاء على كلّ ما في إنكلترا من شراب، وتركها صحراء جافة. دخل أوين مادوك وطلب مدية صيد، ودرعاً يدويّاً، ومزrab دم، ونصلاً بطول اثني عشر إنشاً. سأله: "اثني عشر إنشاً؟ ستتعثّر به وتقطع أذنك".

"لن تكون بهذه الوقاحة حين ينقضّ عليك الكورنولييون. فهم يشكّون الأولاد أمثالك في سفود ويشوونهم فوق النار".

"ألا تستطيع صفعهم بمجذاف؟".

صرخ في وجهه أوين مادوك: "سأصفع فمك لأسكتك، أيها الصغير الوقح، كان

لديك اسم سيّئ قبل أن تولد".
أراه المدية التي صنعها لنفسه، والمعلّقة بجبل تحت قميصه. "ما رأيك؟".
قال مادوك: "ربّاه. احذر في من ستغرزها".

سأل شقيقته كات، وهو يضع المطرقة على عتبة نافذتها في بيغاسوس: "لماذا كان لي اسم سيّئ قبل ولادتي؟".

أجابت: "اسأل مورغان وويليامز، هو سيخبرك". ثم قالت: "آه، توم، توم. احتضنت رأسه وقبلته. لا تتدخّل هناك، دعه يقاتل وحده".

كانت تأمل أن يقتل الكورنواليون والتر. لم تقل ذلك، ولكنّه يعرف.

قال: "حين أصبح سيّد هذه العائلة، فستكون الأمور مختلفة، أعدك".

قال له مورغان، وقد احمرّ وجهه، لأنّه رجل لائق جدّاً: "إنّ الصبية كانوا يجرون خلف أمّه في الشارع وهم يصيحون: انظروا، هذه الفرس العجوز ستلد مهراً!".

قالت أخته بيت: "لدى هؤلاء الكورنواليين أيضاً عملاق يدعى بولستر، مغرم بالقديسة آغنيس، وهو يجري وراءها. يحمل الكورنواليون صورتها على أعلامهم، وهو سيلحق بهم إلى لندن".

قال ساخرًا: "بولستر؟ أظنّه بهذا الحجم".

قالت بيت: "آه، ستري. وحيئذٍ لن تعجل في الإجابة".

قال مورغان: "تحلّقت نساء الحيّ حول أمّه، مدّعيات القلق: كيف سيكون حين يولد؟ فهي ضخمة جدّاً!".

وحين أتى إلى هذا العالم بقبضتيه المتقلّصتين وشعره المجعدّ المبتلّ وهو يصيح، راح والتر ورفاقه يدورون في بوتتي، وهم يغنون ويصيحون: "تعالوا لرؤيته أيتها الفتيات، الزوجة العقيم أنجبت!".

لم يسجّلوا التاريخ أبداً. قال لمورغان: "لا يزعجني ذلك. بما أنّي لا أملك وثيقة ولادة، فأنا لا أملك قدرًا".

شاء القدر ألاّ تنشب حرب في بوتتي. كانت النساء مستعدّات لمواجهة المقاتلين المرافقين والفارين بسكاكين الخبز والمواسي. أمّا الرجال، فكانوا ينوون ضربهم بالمجارف والمعاول، وتجويفهم بالأزاميل، وشكّهم بأسياخ الجزارين. غير أنّ المعركة الكبيرة وقعت في بلاكهيث، فتمّ تقطيع المهاجمين قطعاً صغيرة بواسطة آلة الفرم العسكرية التي يملكها تيودور. كان الجميع بأمان، إلاّ من والتر.

قالت له أخته بيت: "هل تعلم ماذا حلّ بالعملاق بولستر؟ سمع أنّ القديسة آغنيس

ماتت، فقطع ذراعه حزناً عليها وتدفق دمه في البحر. ملاً كهفاً لا يمكن أن يمتلئ أبداً، يؤدي إلى حفرة، تؤدي بدورها إلى الأسفل، تحت قاع البحر، إلى مركز الأرض، وهكذا مات".

"أه، هذا جيد. فقد كنت أخشى بولستر فعلاً".
قالت أخته: "مات حتى المرة القادمة".

هكذا، ولد في تاريخ مجهول. في الثالثة من عمره، كان يجمع الضرم* لكبير الحدادة. كان والتر يقول وهو يربّت على رأسه بحنان: "هل ترون صغيري؟"، كانت تفوح من أصابعه رائحة النار وكانت كفه صلبة وسوداء.

في السنوات الأخيرة، بالطبع، حاول العلماء تحديد تاريخ مولده. حاول أشخاص خبيرون في مراقبة النجوم أن يرجعوا، انطلاقاً ممّا هو وكيف هو، إلى التاريخ الذي ولد فيه. ظهر المشتري مبشراً بالنجاح. وارتفع عطارد، مانحاً إياه القدرة على الخطاب السريع والمقنع. قال كراتزر: "إن لم يكن المريخ في برج العقرب، فلا تنجح تجارتي". كانت أمّه في الثانية والخمسين وظنّوا أنّها لا تستطيع أن تحمل أو تتجب طفلاً. ولكنّها خبّأت قدراتها وأخفته تحت الأغطية، في أحشائها، ما استطاعت. وحين خرج إلى النور، سألوا: ما هذا؟

في منتصف كانون الأوّل/ديسمبر، أقسم جايمس باينهام على التخلّي عن هرطقته أمام أسقف لندن. قال الأهالي إنّهُ عُدّب، وإنّ مور نفسه قام باستجوابه وهو يدير قبضة المخلعة ويسأله عن أسماء الأعضاء الآخرين. بعد بضعة أيّام، أُحرق راهب سابق وبائع جلد معاً. كان الراهب قد أدخل كتباً عبر أبواب نورفولك، ومن ثمّ، عبر رصيف كاثارين، وهو خطأ بالغ الغباء، ذلك أنّ قاضي القضاة كان بالانتظار للقبض عليهم. أمّا بائع الجلد، فكان في حوزته كتاب لوثر، حرية رجل مسيحي، وكان النصّ منسوخاً بخطّ يده. هؤلاء هم رجال يعرفهم باينهام، الذي أهين وكسرت عظامه، راهب بايفيلد، جون توكسبيرري، الذي لم يكن دكتوراً في اللاهوت. هكذا انقضى العام، في غيمة من الدخان والرماد البشري فوق سميثفيلد.

يوم رأس السنة، استيقظ قبل طلوع الفجر ليرى غريغوري واقفاً أمام سريره. "من الأفضل أن تأتي، فقد ألقى القبض على توم ويات".
نهض من السرير على الفور. كانت الفكرة الأولى التي خطرت في باله أنّ مور قد ضرب هذه المرّة في قلب دائرة آن. "أين هو؟ هل أخذه إلى تشيلسي؟".

بدا غريغوري مستغرباً. "ولم يأخذونه إلى تشيلسي؟".
"لا يمكن أن يسمح الملك بذلك، فقد اقترب منه كثيراً، لدى آن كتب، وقد أرتته
إياها، هو نفسه قد قرأ تيندايل. ماذا سيفعل مور بعد ذلك، هل سيعتقل الملك؟" تناول
قميصاً.

"لا علاقة للأمر بمور. تمّ القبض على بعض الحمقى الذين أثاروا أعمال شغب
في ويستمينستر، كانوا في الشارع يقفزون من فوق النيران ويكسرون النوافذ، أنت
تعرف ما يحدث...". بدا السأم في صوت غريغوري. "ثمّ ذهبوا يتشاجرون مع
الحارس، فسجنوا ووصلت رسالة ورد فيها: هل سيأتي السيّد كرومويل ويقدم هدية
رأس السنة إلى السجان؟".

قال: "ربّاه". جلس على السرير وقد أدرك فجأة أنّه عارٍ تماماً، وشعر بالعرق الذي
بدأ يتصبّب من كتفيه. ارتدى قميصه وقال: "سيكون عليهم أخذي كما أنا، وسأتناول
فطوري أولاً".

قال غريغوري بشيء من المكر: "وافقت على أن تكون أباً له. هذا ما تعنيه الأبوة".
وقف قائلاً: "أحضر ريتشارد".
"سأتي معك".

"تعال إن شئت، ولكن أريد ريتشارد في حال حدوث مشاكل".
لم تحدث أيّ مشاكل، مجرد بعض المساومة. كان الفجر يبرز حين خرج الرجال
إلى الهواء الطلق، منهكين، ملابسهم ممزّقة وممّسخة. قال: "فرانسيس ويستون،
صباح الخير، سير". قال في نفسه: لو عرفت أنّك هنا، لتركتك. ثمّ أجاب: "لمّ لست
في المحكمة؟".

قال الشابّ، مع هبة نفس حادّة: "أنا في المحكمة. أنا في غرينيتش، أنا لست هنا،
هل تفهم؟".

قال: "أنت في مكانين، هذا صحيح".
"آه، ربّاه، ربّاه!". وقف توماس ويات في الضوء الثلجي الساطع وهو يفرك رأسه.
"هذه آخر مرّة".

قال ريتشارد: "حتّى العام القادم".
التفت ليرى شخصاً أخيراً يخرج إلى الشارع بتثاقل. قال: "فرانسيس براين. كان
يجب أن أعلم أنّ هذه المغامرة لا يمكن أن تكتمل من دونك، سير (سيّدي)".
في أولى ساعات العام الجديد الباردة، هزّ قريب الليدي آن جسمه وكأنّه كلب

مبتلّ. "أكاد أتجلّد". كانت سترته وياقة قميصه ممرّقتين، ولا ينتعل سوى فردة حذاء واحدة. أمسك بجوربيه لمنعهما من الانزلاق إلى الأسفل. قبل خمس سنوات، فقد إحدى عينيه في أثناء المثاقفة، والآن فقد ضمادة عينه وبدأ محجره الشاحب. نظر حوله بعينه المتبقّية. "كرومويل؟ لا أذكر أنّك كنت معنا بالأمس".
"كنت في سريري، ولكنك أكثر سروراً لو بقيتُ فيه".

"ولمّ لا تعود إليه؟". أوشك على الانزلاق، فرفع ذراعيه للحفاظ على توازنه. "أيّ من زوجات رجال المدينة بانتظارك؟ هل تملك واحدة لكلّ يوم من أيّام الميلاد الاثني عشر؟". كاد يضحك، إلى أن أضاف براين: "ألا تتشاركون نساءكم؟".
التفت قائلاً: "ويات، ساعده على ارتداء شيء، وإلا تجلّدت أطرافه. يكفيه أنّه بعين واحدة".

صاح توماس ويات: "شكره"، ونهر رفاقه: "اشكروا السيّد كرومويل وادفعوا ما تدينون له به. من غيره كان سينهض من فراشه في تلك الساعة المبكرة من يوم عطلة، ويدفع المال؟ كنّا سنمكث هنا حتّى الغد".
لم يكن يبدو عليهم أنّهم يملكون المال. فقال: "لا بأس، سأسجّله على الحساب".

"وأسفاه على الحبّ!"

ربيع عام 1532

حان الوقت للتفكير في المواثيق التي تربط العالم معاً: الميثاق الذي يربط بين الحاكم والمحكوم، وذاك الذي يربط بين الزوج والزوجة. كلٌّ من هذين الميثاقين يقوم على التفاني الدائم، ليقدم الواحد مصالح الآخر. فالسيد والزوج يحميان ويؤمنان أسباب المعيشة، والزوجة والخادم يطيعان. وفوق الأسياد، وفوق الأزواج، الله يحكم كل شيء.

تخيّل أنك تناقش هذه المسائل مع جورج، اللورد روتشفوردي. إنه لا يقلّ ذكاءً عن أيّ شابّ في إنكلترا، لائق ومثقف. ولكن ما يستأثر على اهتمامه اليوم هو قماش الساتان الأحمر البارز من خلال مقلب الكمّ المخملي المشقوق. كان يسوّي القماش المنتفخ بطرف إصبعه، يطويه ويكزه ليزيد من حجم انتفاخه، بحيث بدا أشبه بأولئك المشعوذين الذين يمرّرون كرات على أذرعهم.

حان الوقت لتحديد إنكلترا، امتدادها وحدودها. ولم يعن ذلك عدّ وقياس حصون مرافئها والأسوار التي تحمي حدودها، بل تقدير قدرتها على الحكم الذاتي. حان الوقت لوضع تعريف للملك، ولمقدار الثقة والحماية اللتين يدين بهما لشعبه: الحماية من الغزوات الخارجية، المعنوية والجسدية، والحرية من ادّعاءات أولئك الذين يريدون أن يملوا على الإنكليزي كيف يتحدّث.

اجتمع البرلمان في منتصف كانون الثاني/يناير. كانت أعمال بداية الربيع تُضعف مقاومة الأساقفة لنظام هنري الجديد، الذي يؤسّس لتشريع، وإن كان لا يزال معلقاً، إلاّ أنّه سيضع حدّاً للدخل الذي يذهب إلى روما، وتجعل سيادته على الكنيسة أكثر من أمر شكليّ. وضع مجلس العموم مسودة عريضة ضدّ محاكم الكنيسة، ووصفها أنّها متعسّفة جدّاً في أحكامها واستبدادية في السلطان القضائي الذي تدّعيه. لقد شكّكت العريضة في سلطتها القضائية، لا بل في وجودها. مرّت الأوراق على أيادٍ عديدة، لتستقرّ أخيراً بين يديه، ويعمل عليها طيلة الليل، مع رايف وريوثسلي، يدوّن التنقيحات بين السطور. كان غاردينر يغذي المعارضة، فعلى الرغم من كونه وزير الملك، إلاّ أنّه أحسّ بأنّ عليه أن يقود زملاءه المطارنة في هجومهم.

أرسل الملك بطلب ستيفن. حين دخل عليه، كان شعر عنقه منتصباً، وكان منكمشاً على نفسه، وكأنّه كلب يُقتاد نحو دبّ. كان صوت الملك جهورياً، يناسب

رجلاً ضخماً، ويعلو عندما يغضب إلى حدِّ يصمّ الأذان. هل رجال الدين رعاياه، أم أنّ خضوعهم له جزئي؟ ربّما ليسوا رعاياه إطلاقاً، فكيف لهم أن يكونوا كذلك، ما داموا يقسمون على طاعة البابا وتأييده؟ وصرخ مضيفاً: ألا يجدر بهم أن يقسموا بالولاء لي أنا؟

حين خرج ستيفن، اتكأ على جدار رسمت عليه مجموعة من الحوريّات اللواتي يرقصن طرباً في مرجة. تناول منديلاً، ولكن بدا وكأنّه نسي السبب. راح يلقه في كفه، وحول عقد أصابعه وكأنّه ضمادة، بينما سال العرق على وجهه.

طلب كرومويل المساعدة. "سيدي الأسقف يشعر بالتعب". أحضروا مقعداً، فحدّق إليه ستيفن، ثمّ حدّق إلى كرومويل، قبل أن يجلس عليه بحذر، وكأنّه لا يثق بمتانته. "أفهم أنّك سمعته؟".

سمعت كلّ كلمة. "إن سجنك، فسأبذل جهدي لتحصل على أسباب الراحة الصغيرة".

قال غاردينر: "اللعنة عليك، يا كرومويل. من تكون؟ ما هو منصبك؟ أنت لا شيء. لا شيء".

علينا أن نربح الجدل، لا أن نكتفي بهزم أعدائنا. كان قد ذهب ليري كريستوفر سان جرمان، رجل القانون العجوز، الذي تُحترم كلمته في جميع أنحاء أوروبا. استقبله الرجل العجوز على نحو حضاري في منزله. قال له: "ما من رجل في إنكلترا لا يعتقد أنّ كنيستنا تحتاج إلى الإصلاح، وهي حاجة تتعاضم عاماً بعد عام. فإن كانت الكنيسة لا تستطيع إجراء هذا الإصلاح، فعلى الملك في البرلمان فعله، وهو قادر على ذلك. هذا هو الاستنتاج الذي توصلت إليه بعد عقود من دراستي للموضوع".

أضاف العجوز: "بالطبع، لا يوافقني توماس مور على ذلك. ربّما فات زمانه. فالمدينة الفاضلة ليست مكاناً صالحاً للعيش".

حين التقى بالملك، راح هنري يفجّر غضبه على غاردينر. أخذ يصرخ: "الغدر، نكران الجميل. هل يمكن أن يبقى وزيرني بعد أن أصبح معارضاً مباشراً لي؟". (هذا هو الرجل نفسه الذي مدحه هنري لكونه بارعاً وشجاعاً في الجدل.) جلس يراقب هنري بهدوء، محاولاً تطيف الموقف بالسكون، وتغليف الملك بصمت تامّ ليتمكّن من الإصغاء إلى نفسه. إنّه لشيء عظيم أن يكون المرء قادراً على تهدئة غضب أسد إنكلترا. قال بلطف: "أظنّ... بإذن جلالتك، ما أظنّه... هو أنّ أسقف وينشستر، كما

نعلم، يحبّ الجدل، ولكن ليس مع ملكه. لن يجروا على فعل ذلك لمجرد التسلية". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "بالتالي، فإنّ آراءه، وإن تكن غير ملائمة، إلّا أنّها صادقة". "بالفعل، ولكن...". صمت الملك. سمع هنري صوته، الصوت الذي اعتاد على استعماله مع الكاردينال حين يهدّئ من غضبه. غاردينر ليس وولزي، على الأقلّ من ناحية أنّ قلة ستذكره بأسف إن ضحّى به الملك. مع ذلك، يناسبه الآن بقاء الأسقف في منصبه. فهو يهتمّ لسمعة هنري في أوروبا. قال: "جلالة الملك، قد خدمكم غاردينر كسفير بقدر ما تسمح له إمكانياته، ومن الأفضل مصالحته، عبر الإقناع الصادق، عوضاً عن أن تضغطوا عليه باستيائكم. هذه هي الطريقة الأفضل والأكثر شرفاً".

راقب وجه هنري، الذي كان يهتمّ بكلّ ما يتعلّق بالشرف.

"أهذه هي النصيحة التي ستعطيها دوماً؟".

ابتسم مجيباً: "كلاً".

"أنت لست مصمّماً على مبدأ أن أحكم بروح الحلم المسيحي؟".

"كلاً".

"أعرف أنّك لا تحبّ غاردينر".

"لهذا السبب، على جلالتم التفكير في مشورتي".

قال في نفسه: أنت مدين لي يا ستيفن. ستسدّد دينك تدريجياً.

في منزله، اجتمع بأعضاء في البرلمان وبسادة من جمعيات الحقوق* ونقابات الصنّاع والحرفيين في المدينة؛ توماس أودلي، وهو المتكلّم باسم المجلس، ومحميه ريتشارد ريتش، وهو شابّ ذهبيّ الشعر، فائق الجمال، يمتاز بعقل ناشط وغير ديني؛ رولاند لي، إكليريكي صريح وغلبيظ، أقلّ رجل كهنوتي المظهر قد تقابله على مسيرة يوم طويل. في هذه الأشهر الأخيرة، تقلّصت أعداد أصدقائه بسبب المرض والموت غير الطبيعي. فقد توفّي توماس سومر، الذي عرفه لسنوات، بعد إطلاق سراحه من البرج، الذي سجن فيه بتهمة نشر الكتاب المقدّس بالإنكليزية. كان سومر مولعاً بالملابس الثمينة والحياد السريعة وكان يتمتّع بشخصيّة جامحة، إلى أن قام قاضي القضاة بتصفية حسابه معه. ومع أنّ سراح جون بيتيت أطلق أيضاً، إلّا أنّه مريض جدّاً ولم يعد قادراً على المشاركة في جلسات مجلس العموم. كان يزوره، في غرفته التي لم يعد يبارحها. من المؤلم سماعه وهو يجاهد لأخذ أنفاسه. وربيع عام 1532، الذي أتى بأولى بوادر الدفء في ذلك العام، لم يفلح في تخفيف آلامه. قال له:

"أشعر وكأنّ صدري محاط بطوق حديدي، يطبق عليه". قال له: "توماس، هلاًّ اعتنيت بلوس بعد رحيلي؟".

أحياناً، حين يمشي في الحديقة مع ممثّلين من البرلمان أو مع قسّيسي آن، كان يفترق إلى الدكتور كرانمر الذي اعتاد على السير إلى يمينه. فقد غادر البلاد منذ كانون الثاني/يناير، بصفته سفير الملك إلى الإمبراطور. وخلال سفره، سيزور علماء في ألمانيا، ويطلب تأييدهم لطلاق الملك. كان قد قال له: "ماذا أفعل إن راود الملك حلمٌ في غيابك؟".

ابتسم كرانمر. "وجدت الحلّ بنفسك في المرّة الماضية. وكلّ ما فعلته يومها هو هزّ رأسي موافقاً".

رأى الهزّ مارلينسبايك، وكانت مخالبه تتدلّى من الغصن الأسود الذي تمدّد عليه. أشار إليه قائلاً: "أيّها السادة، هذا هزّ الكاردينال". عند مرأى الزائرین، قفز مارلينسبايك من فوق السور، واختفى في الأرض المجهولة الممتدّة وراءه وهو يهزّ ذيله.

في مطبخ أوستن فرايرز، كان الصبية يتعلّمون صنع الكعك الهشّ المطيبّ بالتوابل. كانت العملية تحتاج إلى بصر حادّ، وتوقيت دقيق، ويد ثابتة. فثمّة مراحل كثيرة تحتاج إلى الدقّة وإلّا فشل الطاهي. إذ ينبغي للمزيج أن يمتاز بكثافة وطراوة معيّنتين، وأن تكون الصواني ذات القبضات الطويلة مدهونة جيّداً بالزيت وساخنة. وحين تضغط الأطباق معاً، تصدر صرخة حيوانية عند التقائها ويعلو البخار في الهواء. وإن ذعرت وخفّفت الضغط، تفسد العجينة، وتلتصق، ولا تعود صالحة للأكل. عليك الانتظار إلى أن يزول البخار، ثمّ تبدأ بالعدّ. وإن فتحتها قبل الأوان، يعبق الهواء برائحة الحريق. ثانية واحدة تفصل بين النجاح والفشل.

حين اقترح على مجلس العموم مشروع قانون لإيقاف دفع أرباح العام الأوّل إلى روما، اقترح قسم المجلس. لم يكن ذلك معتاداً، ولكن بين الصدمة والاحتجاجات، امتثل الأعضاء: المؤيّدون للمشروع من هذه الجهة، والمعارضون من الجهة الأخرى. كان الملك حاضراً يراقب، فعرف من معه ومن ضده، وبعد انتهاء النقاش، هزّ رأسه لمستشاره استحساناً. لم يكن التكتيك مناسباً في مجلس اللوردات. فقد اضطرّ الملك إلى الذهاب بنفسه، ثلاث مرّات، للدفاع عن وجهة نظره. فالأسر الأرستقراطية القديمة والفخورة، كأسرة إكسيتير، التي تملك حقّ المطالبة بالعرش، كانت مع البابا وكاثريين، ولم تكن تخشى إعلان رفضها، ليس بعد. ولكنّه كان يتعرّف إلى أعدائه،

ويزرع بينهم الشقاق عند الإمكان.

حين نجح عمّال المطبخ في صنع قطعة من الكعك الهشّ، أمرهم ثورستون بصنع مئة أخرى. فحركة الرسغ التي يلفّ بها الطاهي العجينة حول الملعقة الخشبية ثمّ يلقيها على رفّ التجفيف تتحوّل إلى طبيعة ثانية. والقطع الناجحة - مع الوقت، ينبغي أن تتجح كلّها - تختتم برمز أسرة تيودور، وتوضع كلّ دزينة منها في صناديق جميلة، لتقدّم على الطاولة، وتُنكّه كلّ من القطع الهشّة بماء الورد. أرسل فوجاً منها إلى توماس بولين.

يظن ويلتشاير، بصفته والد الملكة المستقبلية، أنّه يستحقّ لقباً مميّزاً، وقد أعلن أنّه لا يعارض أن يُعرف بالمونسينيور. تحدّث إليه، وإلى ابنه وأصدقائهما، ثمّ ذهب لرؤية آن، عبر غرف وايتهاول. كانت تزداد شأناً شهراً بعد شهر، ولكنّه دخل وتلقّى تحية من حاشيتها. في المحكمة وفي مكاتب ويستمينستر، لم يكن يرتدي ملابس تفوق منزلته، أبداً. كانت تلك الملابس عبارة عن سترات واسعة من صوف ليمستر الناعم الذي يتهدّل كالماء، بالألوان الأرجوانية والنيلية الأقرب إلى السوداء، وكأنّ الليل نرف فيها. وكانت قبعته المخملية السوداء تتربّع فوق شعره الأسود، بحيث بدا أنّ العضوين الوحيديين المضامين فيه هما عيناه الثاقبتان، وما يلفت الانتباه حركات يديه الحازمتين والسمنتين، بالإضافة إلى الومضات النارية التي كان يطلقها خاتم وولزي الفيروزي.

في وايتهاول، الذي كان يُعرف بقصر يورك، كان البنّاؤون لا يزالون يعملون. فقد أهدى الملك آن غرفة نوم جديدة في رأس السنة. قادها إليها بنفسه، كي يراها وهي تشهق إعجاباً بالسجاد المعلق على الجدران، والذي كان بالألوان الفضيّة والذهبيّة، وبالسرير المنقوش المكسوّ بالساتان القرمزي المطرّز بصور الأزهار والأطفال. ولكنّ هنري نوريس أخبره أنّ آن لم تشهق، بل اكتفت بتجوال نظرها حول أرجاء الغرفة ببطء، وابتسمت، ورمشت بعينيها. ثمّ تذكّرت ما ينبغي لها فعله، فادّعت الإغماء أمام هذا الشرف الذي أغدق عليها، ولم تشهق إلاّ حين تمايلت وأحاطها الملك بذراعيه. يومها قال نوريس: "أمل حقاً أن نقوم، ولو مرّة في حياتنا على الأقلّ، بجعل امرأة تطلق هذا الصوت".

حين عبّرت آن عن شكرها، راکعة، كان على هنري، بالطبع، أن يغادر الغرفة المضيئة، وهو يجرّها من يدها، ويعود إلى احتفال العام الجديد، بتعبير وجهه الذي سيظهر على الملأ. كان واثقاً أنّ الأنباء ستنتقل عبر جميع أرجاء أوروبا، برّاً وبحراً.

في نهاية رحلته عبر غرف الكاردينال القديمة، وجد أن جالسة مع وصيفاتها، وبدا أنها علمت بما قاله أبوها وشقيقها. يظنّ أنّهما يضعان لها الخطط، ولكنّها أفضل مخطّط لنفسها، وهي قادرة على مراجعة حساباتها واكتشاف مكنن الخطأ. كان يقدر كلّ من يستطيع التعلّم من أخطائه. في أحد الأيام، وكانت النواذ مفتوحة على العصافير المرفرفة التي تبني أعشاشها، قالت له: "قلت لي مرّة إنّ الكاردينال هو الوحيد القادر على تحرير الملك. هل تعرف ما أظنّه الآن؟ أظنّ أنّ وولزي هو آخر من يستطيع ذلك، لأنّه كان متكبّراً جدّاً، ولأنّه أراد أن يصبح بابا. ولو كان أكثر تواضعاً، لطاوعه كليمنت".

"لا شكّ في أنّ في الأمر عبرة".

قال نوريس: "أظنّ أنّ علينا أن نتعلّم درساً".

استداروا معاً. قالت آن: "حقّاً؟" وسأل: "وما هو الدرس؟".

كان نوريس محتاراً.

قالت آن: "من غير المحتمل أن يصبح أحدنا كاردينالاً. حتّى توماس، الذي يطمح إلى كثير من المناصب، لا يطمح إلى ذلك".

"حقّاً؟ لن أراهن على ذلك". تمهّل نوريس في مشيّه، وتركه في الخلف مع النساء. قال: "إذاً، ليدي آن، عندما تفكّرين في الكاردينال الراحل، هل تصلين لراحة نفسه؟".

"أظنّ أنّ الله قد حاسبه، ولن تكون صلواتي ذات جدوى، سواء تلوتها أم لا".

قالت ماري بولين بلطف: "إنّه يضايقك عمداً، يا آن".

"لولا الكاردينال، لكنت الآن متزوّجة من هاري بيرسي".

أجابته بنبرة لاذعة: "كنت سأحتلّ على الأقلّ منزلة زوجة، وهي منزلة مشرّفة، أمّا الآن...".

قالت ماري شيلتون: "آه، ولكنّ هاري بيرسي أصيب بالجنون، الجميع يعلمون ذلك. إنّه ينفق كلّ ماله".

ضحكت ماري بولين. "هذا صحيح، وشقيقتي تظنّ أنّ حزنه على خسارتها هو السبب".

التفت إلى آن وقال: "سيّدي، أنت لن تحبّي بلاد هاري بيرسي. فهو سيفعل مثل رجال الشمال، سيسكنك في برج جليدي في أعلى سلّم لولبي، لا تتزليين منه إلّا لتناول العشاء. وبينما يحضرون لك البودينغ الممزوج بدماء الماشية التي غنموها في إحدى

الغزوات، يدخل عليك السيد على نحو عاصف وهو يؤرجح كيساً: آه، حبيبتى!
فتقولين: هدية لي؟ ويجيب: أجل سيدتى، تفضلي. ويفتح الكيس ليتدحرج في حضنك
رأس اسكوتلندي مقطوع".

همست ماري شيلتون: "آه، هذا فظيع، أهذا ما يفعلونه؟". وضعت آن يدها على
فمها وراحت تضحك.

قال: "وكما تعلمين، أنت تفضلين أن تتناولي على العشاء صدر دجاج مسلوفاً
قليلاً، مقطّعاً إلى شرائح مع صلصة القشدة والطرخون. كما تحبين الجبن المعتق
الجيد المستورد من قبل سفير إسبانيا، من أجل الملكة من دون شك، ولكنّه وجد
طريقه إلى منزلي بطريقة ما".

سألته آن: "من أين لي أن أحظى بخدمة أفضل؟ مجموعة من الرجال على الطريق
العام، ينصبون فخاً لجبن كاثرين".

"حسناً، بعد أن خطّطت لهذه الضربة الموقّعة، عليّ الذهاب...". وأشار إلى عازف
المزهر الجالس في الزاوية، مضيفاً: "وأتركك مع عاشقك جاحظ العينين".

ألقت آن نظرة حادة على الصبيّ مارك. "هذا صحيح، إنّه يحملق بالفعل".

"هل تريدين منّي إرساله من هنا؟ المكان حافل بالعازفين".

قالت ماري: "اتركه، فهو شابّ لطيف".

وقفت ماري بولين قائلة: "أودّ فقط...".

قالت ماري شيلتون بنبرة من يعطي معلومات هامّة: "ستعقد الليدي كاري الآن
واحداً من اجتماعاتها مع السيد كرومويل".

قالت جاين روتشفوردي: "ستعرض عليه عقّتها مجدّداً".

"ليدي كاري، ما هو الأمر الذي لا تستطيعين البوح به أمامنا؟". ولكنّ آن خفضت
رأسها، أدنّة له بالانصراف. يبدو أنّ ماري تحمل رسائل حسّاسة جدّاً، ولا يمكن لأن
أن تنقلها إليه مباشرة.

في الخارج: "أحياناً، أحتاج إلى التنفّس". انتظر. "هل تعلم أنّ جاين وشقيقنا جورج
يكرهان بعضهما بعضاً؟ فهو لا يخلد معها إلى السرير. إن لم يكن مع امرأة أخرى،
يجلس مع آن في غرفتها، يلعبان الورق حتّى طلوع الفجر. هل تعرف أنّ الملك يدفع
ديونها في المقامرة؟ إنّها بحاجة إلى مدخول أكبر، ومنزل لها وحدها، غير بعيد عن
لندن، في مكان ما قرب النهر...".

"في منزل من تفكر؟".

"لا أظنّ أنّها تتوي طرد أحد من بيته".
"تنتمي المنازل عادة إلى أشخاص". ثمّ خطرت له فكرة، فابتسم.
قالت: "قلت لك مرّة أن تبقى بعيداً عنها، ولكننا لم نعد نستطيع الاستغناء عنك.
حتّى والدي وخالي يقولان الشيء نفسه. لا يتمّ شيء، لا شيء، من دون رعاية
الملك، ومن دون صحبته المستمرّة، والآن حين لا تكون مع هنري، يريد أن يعرف
أين تكون". تراجعت، تقيمه بنظراتها للحظة وكأنّه غريب. "وشقيقتي، أيضاً".
"أريد وظيفة، ليدي كاري، لا يكفي أن أكون مستشاراً. أحتاج إلى منصب رسمي".
"سأخبرها".

"أريد وظيفة في بيت الجوهرة أو في بيت المال".
هزّت رأسها، قائلة: "جعلت من توم ويات شاعراً، ومن هاري بيرسي مجنوناً، أنا
واثقة أنّ لديها بعض الأفكار حولك".

قبل بضعة أيام من اجتماع البرلمان، أتى توماس ويات للاعتذار على إخراجه من
سريه قبل الفجر يوم رأس السنة. "لديك كلّ الحق لتغضب مني، ولكنني أطلب منك
السماح. أنت تعرف ما يحدث ليلة رأس السنة".

راقب ويات وهو يسير في الغرفة، بفضول وتلمل، وقد منعه خجله من الجلوس
والاعتذار وجهاً لوجه. أدار الكرة الأرضية الملونة، ووضع إبهامه على إنكلترا. توقف
ينظر إلى صور، وإلى مذبح صغير، ثمّ التفت بنظرة متسائلة. قال، كان لزوجتي،
لذا، احتفظت به. كان السيّد ويات يرتدي سترة من البروكار قشديّ اللون المزينة
بفراء السمور والتي لا يملك ثمنها على الأرجح. وكان يرتدي صدرية من الحرير
الأسمر المائل إلى الاصفرار. يتمتّع ويات بعينين زرقاوين رقيقتين وشعر ذهبيّ،
أصبح الآن أقلّ كثافة. بعض الأحيان يضع أنامله على رأسه، وكأنّه لا يزال يعاني
من الصداع الذي تملكه يوم رأس السنة. ولكنّه في الواقع يتحقّق من خط شعره، ليرى
ما إذا كان قد تراجع في الدقائق الخمس الأخيرة. توقف ونظر إلى نفسه في المرآة،
وهو أمر غالباً ما يفعله. قال: "ربّاه! كيف كنت أجري في الشارع مع هؤلاء القوم؟ أنا
كبير على هذا التصرف، ولكنني صغير لأخسر شعري منذ الآن. هل تظن أنّ
النساء يكثرن بذلك؟ كثيراً؟ هل تظنّ أنّني أستطيع صرف انتباههنّ عنه لو تركت
لحيّتي تنمو؟ كلاً، على الأرجح لا. ولكنني قد أفعل على أيّ حال، فلحية الملك تبدو
جميلة، أليس كذلك؟".

قال له: "ألم يعطك والدك أيّ نصيحة؟".

"أه، بلى. اشرب كوباً من الحليب قبل أن تخرج من المنزل. تناول السفرجل المطهوّ بالعسل، هل تظن أن هذا ينفع؟".

كان يحاول عدم الضحك. يريد أن يأخذ منصبه الجديد كأب لويات على محمل الجدّ. قال: "أعني، ألم ينصحك أبداً بالابتعاد عن النساء اللواتي يجذبن اهتمام الملك؟".

"لقد فعلت. ألا تذكر أنني ذهبت إلى إيطاليا؟ ومن بعدها أمضيت عاماً في كاليه. كم يمكن للمرء الابتعاد؟".

هذا سؤال ينطبق على حياته، لقد أقرّ بذلك. جلس ويات على مقعد صغير، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه. وضع رؤوس أصابعه على صدغيه. راح يصغي إلى نبضاته. كان يفكر، ربّما كان يؤلف بيتاً من الشعر؟ نظر إلى الأعلى. "يقول أبي إنه بعد موت وولزي أصبحت أنت أذكى رجل في إنكلترا. إذأ، هل ستفهم ما سأقوله من المرة الأولى؟ إن لم تكن آن عذراء، فلا دخل لي بذلك".

صبّ له كأساً من الشراب. قال ويات بعد أن احتسى الشراب: "إنّه قويّ". نظر إلى قعر الكأس، إلى أصابعه التي تحملها، وأضاف: "أظنّ أنّ عليّ قول المزيد".

"في هذه الحال، قلّه هنا، ولمرة واحدة فقط".

"هل ثمة من يختبئ خلف الستائر؟ فقد قيل لي إنّ بعض الخدم في تشيلسي يتجسّسون لحسابك. ما من بيت آمن في هذه الأيام، فالجواسيس في كلّ مكان".

قال: "أخبرني متى لم يكن ثمة جواسيس. كان في منزل مور صبيّ يدعى ديك بيرسر، تكفّل به مور بسبب شعوره بالذنب بعد أن فقد والديه. لا يمكنني القول إنّ مور قتل أباه مباشرة، ولكنّه وضعه في آلة التعذيب الخشبية وسجنه في البرج، وهذا ما أدّى إلى تدهور صحته. قال ديك للصبية الآخرين شيئاً ما، فأمر مور بجلده أمام جميع أهل المنزل. هكذا أحضرته إلى هنا. ماذا أفعل غير ذلك؟ وسأحضر أيّ شابّ آخر يسيء معاملته".

ابتسم ويات ومرّر يده فوق صورة الملكة، أي فوق صورة أنسيلما. كان الملك قد أعطاه سجّادة وولزي الفخمة. ففي بداية العام، حين ذهب للتحدّث إليه في غرينتش، رآه الملك وهو ينظر إليها، وسأله، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة جانبية: "هل تعرف هذه المرأة؟". أجابه: "كنت أعرفها". فقال الملك: "لا بأس، كلنا ارتكبنا الحماقات في شبابنا، ولا يمكنك الزواج من كلّ امرأة تعرفها، أليس كذلك؟". ثمّ أضاف بصوت منخفض: "كانت تنتمي إلى كاردينال يورك"، ثمّ تابع بسرعة: "حين

ترجع إلى بيتك، أفسح لها مكاناً، أظنّ أنّ عليها الذهاب للعيش معك". صبّ لنفسه كأساً من الشراب، وقدّم كأساً أخرى إلى ويات. قال: "لدى غاردينر رجال خارج البوابة، يراقبون من يدخل ويخرج. هذا منزل في مدينة وليس قلعة، ولكن إن دخله شخص لا ينبغي له الدخول، فسيسرّ أهل بيتي بطرده، فنحن نحبّ الشجار. صحيح أنّي أفضل ترك ماضيّ خلفي، ولكن لا يُسمح لي بذلك. فالخال نورفولك يذكّرني دائماً بأنني كنت جندياً عادياً، ولم أكن حتّى في جيشه". ضحك ويات قائلاً: "هل تتاديه كذلك؟ الخال نورفولك؟".

"فقط في ما بيننا. ولكن لا أحتاج إلى تذكيرك بما يعتبره آل هاورد حقاً مكتسباً. فقد نشأت بجوار توماس بولين، وتعرف أنّه لا يجوز لك تخطّيه، مهما كنت تشعر تجاه ابنته. وأمل أنّك لا تشعر بشيء، أليس كذلك؟".

قال ويات: "ظللت لسنتين أعاني الأمرين كلّما فكّرت في أنّ رجلاً آخر سيلمسها. ولكن ماذا أستطيع أنّ أقدم إليها؟ فأنا رجل متزوج، ولست الدوق أو الأمير الذي تسعى إلى اصطياده. كنت أظنّ أنّي أعجبها، أو ربّما يعجبها أن أكون عاشقاً لها، فهذا يمتعها. عندما نكون وحدنا، تسمح لي بتقبيلها، وقد ظننت دائماً... ولكن هذا هو تكتيك أن، كما تعلم، تقول نعم، نعم، نعم، ومن ثمّ لا".

"وبالطبع، أنت سيّد محترم".

"ماذا؟ هل كان عليّ الاعتداء عليها؟ حين تقول كفى فهي تعني ذلك، وهنري يعرف ذلك. ولكن يأتي يوم آخر، وتسمح لي بتقبيلها مجدّداً. نعم، نعم، نعم، لا. والأسوأ من ذلك هو تلميحها، لا بل تباهيتها تقريباً، أنّها تسمح لغيري بما تمنعه عني...".

"ومن هم؟".

"آه، أسماء، أسماء تبدّد بها وقت فراغها. ولا بدّ من أنّها ترتّب الأمر بحيث تتساءل، كلّما رأيت رجلاً، في القصر أو في كيننت، أهذا هو؟ أهذا، أم هذا؟ وهكذا تسأل نفسك باستمرار لماذا لم تستطع إرضاءها أبداً، ولماذا لم تحصل أبداً على فرصة".

"أعتقد أنّك تكتب أفضل القصائد، ويمكنك الترويح عن نفسك بها. فأبيات جلالته فيها شيء من التكرار، ناهيك عن كونها تتركّز على شخصه".

"حين أسمع قصيدته، التسلية مع الصحبة الجيدة، أشعر بشيء في داخلي، وكأنّه كلب صغير، يرغب في العواء".

"صحيح، فالملك تجاوز الأربعين من عمره. ومن المحزن سماع أشعاره عن الأيام التي كان فيها شاباً وساذجاً". راقب ويات. بدا الشاب وكأنه يشعر بالدوار، وكأنه يعاني من ألم متواصل بين عينيه. كان يدّعي أنّ أن لم تعد تسبّب له الألم، ولكن لا يبدو ذلك صحيحاً. قال بقسوة جرّار: "إذاً، كم حبيباً كان لديها حسب ظنّك؟".

نظر ويات إلى قدميه، ومن ثمّ إلى السقف. أجاب: "دزينة؟ أو ربّما لا أحد؟ أو ربّما مئة؟ حاول براندون إخبار هنري أنّها ليست عذراء، ولكنّه طرده من القصر. تخيل لو حاولتُ، أشكّ في أنّي سأخرج حياً. أجبر براندون نفسه على الكلام لأنّه فكّر في أنّها ستستسلم لهنري يوماً ما، وحينذاك ماذا سيحدث؟ ألن يعلم؟".

"ثق بها، لا بدّ من أنّها فكّرت في ذلك. أضف إلى أنّ الملك ليس خبيراً في الحكم على العذرية، وهو يقرّ بذلك. فمع كاثرين، استغرقه الأمر عشرين عاماً ليذكر أنّ أخاه امتلكها قبله".

ضحك ويات. "بالكاد تستطيع أن قول ذلك له عند طلوع الصباح، أو حلول الليل".

"اسمع، هذا رأيي في القضية. أن ليست قلقة على ليلة زفافها لأنّه ما من سبب للقلق". أراد القول، لأنّ أن ليست امرأة شهوانية، بل امرأة مخطّطة، ذات دماغ ذكيّ بارد يعمل خلف عينيها السوداوين الجائعتين. "أظنّ أنّ أيّ امرأة قادرة على قول لا لملك إنكلترا، والاستمرار في قولها، لديها ما يكفي من الذكاء لقول لا لأيّ عدد من الرجال، بمن فيهم أنت، وبمن فيهم هاري بيرسي، وأيّ شخص آخر تختار تعذيبه لمجرد التسلية، بينما ترتّب حياتها بالطريقة التي تناسبها. لذلك أظنّ أنّك خُدت بالفعل، ولكن ليس بالطريقة التي ظننت".

"هل تقول ذلك لمواساتي؟".

"ينبغي لهذا أنّ يواسيك. لو كنت عشيقها فعلاً، لكنت خفت عليك. فهنري مقتنع بعذريّتها. ولكنّه سيصبح غيوراً بعد زواجهما".

"لأنّهما سيتزوجان؟".

"أنا أبذل جهدي مع البرلمان، صدّقني، وأظنّ أنّني أستطيع إقناع الأساقفة. وبعد ذلك، الله أعلم... يقول توماس مور إنّّه في عهد الملك جون، حين فُرض حرمان كنسيّ على إنكلترا، لم تعد الماشية تتكاثر، ولم تعد الذرة تنضج، كما أنّ العشب توقّف عن النموّ، وسقطت الطيور من الجوّ. ولكن إن بدأ هذا يحدث... فأنا واثق من أنّنا نستطيع تبديل سياستنا".

"قد سألتني أن: كرومويل، ماذا يظنّ فعلاً؟".

"إذاً، هل تتحدّثان؟ وعني؟ ليس مجرد نعم، نعم، نعم، لا؟ أشعر بالإطراء".
بدا الاستياء على وجه ويات. "ألا يمكن أن تكون مخطئاً بشأن آن؟".
"هذا ممكن. حالياً أفضل تصديق ما تقوله. فهذا يناسبني، يناسب كلينا".
استعدّ ويات للمغادرة. "أتمنى أن تعود قريباً، لقد سمعت ابنتاي عن وسامتك.
يمكنك إبقاء القبعة على رأسك، إن كنت تخشى أن تخبب أملهما".
كان ويات يشارك الملك لعبة التنس بانتظام، لذلك، كان يدرك أهميّة التواضع.
فابتسم.

"روى لنا والدك حادثة اللبوة، وقد حولها الشباب إلى مسرحيّة. ربّما أمكنك المجيء يوماً ما وتأدية دورك فيها؟".
"آه، اللبوة. حين أتذكّر تلك الحادثة اليوم، لا أرى أنني أستطيع تكرار ما فعلته.
الوقوف ساكناً، في الخارج، وجذبها إليّ". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "إنّه تصرف يليق بك أنت، سيّد كرومويل".

أتى توماس مور إلى أوستن فرايرز. رفض الطعام والشراب، مع أنّه بدأ بحاجة إلى الاثنين.

ما كان الكاردينال ليرضى بالرفض. لكان أجلسه وأطعمه السلبوب، أو قدّم إليه طبقاً كبيراً من الفراولة، لو كان موسمها، مع ملعقة صغيرة جدّاً.
قال مور: "في السنوات العشر الأخيرة، استولى العثمانيون على بلغراد، وأضرموا النيران في المكتبة العظيمة في بودا. ولم يمض سوى عامين على وقوفهم أمام أبواب فيينا. لماذا تسعى إلى صنع صدع آخر في جدران العالم المسيحي؟".
"ملك إنكلترا ليس مهرطقاً، ولا أنا".

"أأست مهرطقاً؟ ربّما كان إيمانك سلعة تتاجر بها. أظنّ أنك تخدم السلطان إن ناسبك السعر".

قال إيراسموس: "هل من إنسان أكثر لطفاً ورقّة وتناغماً من توماس مور؟".
بقي صامتاً. جلس إلى مكتبه، وكان مور قد دخل عليه وهو يعمل، وقد أسند ذقنه إلى قبضتيه. إنّه وضعيّة تمنحه على الأرجح أفضليّة قتالية.

بدا قاضي القضاة وكأنّه على وشك تمزيق ملابسه، الرثّة أساساً. من يراه يشفق عليه، ولكنّه لن يفعل. "سيّد كرومويل هل تظنّ أنّ منصبك كمستشار يتيح لك التفاوض مع المهرطقين، من دون علم الملك؟ أنت مخطئ. أنا على علم بالرسائل التي تتبادلها مع ستيفن فوغان، وأعلم أنّه التقى بتيندايل".

"هل تهددني؟ أنا مهتمّ وحسب".

أجاب مور بحزن: "أجل، أجل، هذا ما أفعله بالضبط".

لاحظ أنّ ميزان القوّة تغيّر بينهما، ليس كمسؤولين في الدولة، بل كرجلين. حين رحل مور، قال له ريتشارد: "لا يجدر به ذلك، أعني تهديدك. اليوم، يذهب بفضل منصبه، ولكن من يدري ماذا يحدث غداً؟".

قال في نفسه: حين كنت طفلاً في التاسعة من عمري تقريباً، أتيت إلى لندن ورأيت امرأة عجوزاً تُعذّب بسبب إيمانها. تدفقت تلك الذكرى في جسده، وابتعد وكأنّه يبحر فوقها، قائلاً من فوق كتفه: "ريتشارد، تأكّد من أن قاضي القضاة لديه مواكبة مناسبة. وفي حال العكس، أمّن له المرافقة، وحاول إيصاله إلى قارب ينقله إلى تشيلسي. لا يمكننا تركه يتجوّل في شوارع لندن، ويخطب في كلّ من يصل إلى بابه".

قال جملة الأخيرة بالفرنسية، من دون أن يعرف السبب. تذكر أنّ، ويدها الممدودة وهي تشدّه نحوها، قائلة بالفرنسية: ميتر كريمويل، آ موا (سيد كرومويل، لي). لم يذكر العام بالضبط، ولكنّه ذكر الطقس الذي ساد في أواخر نيسان/إبريل، وقطرات المطر الكبيرة التي تساقطت على الأوراق الجديدة الباهتة. لم يستطع أن يتذكّر سبب غضب والتر، ولكنّه تذكر الخوف الذي تملك كيانه، وقلبه الذي راح ينبض بجنون بين أضلاعه. في تلك الأيام، إن لم يتمكّن من الاختباء عند عمّه جون في لامبيث، كان يذهب إلى المدينة ويحاول أن يشغل نفسه هناك. فكسب بعض القروش بنقل الرسائل الشفهية على طول الأرصفة، أو حمل السلال، أو تحميل العربات. إن صقرت له، يأتك على الفور. يعلم الآن أنّه محظوظ لأنّه لم ينحدر إلى حياة حقيرة كانت لتؤدّي به إلى الوسم أو الجلد، أو يلحق بتلك الجثث الصغيرة التي كانت تنتشل من النهر. ففي تلك السنّ، يفتقر الإنسان إلى الحكم السليم. لو قال له أحدهم إنّ ثمّة أمراً مسلياً يدور هناك، لتوجّه على الفور إلى حيث يشير إصبعه. لم يكن لديه شيء ضدّ المرأة العجوز، ولكن لم يسبق له رؤية شخص يُحرق.

سأل: ما هي جريمتها؟ وقيل له إنّها ويكليفية*. فقال الناس: دعوا هذا الصبيّ يقف في المقدّمة. دعوه يتعلّم، فالرؤية عن كثب ستقيده، هكذا سيذهب دائماً إلى القدّاس وسيطيع كاهنه. دفعوه إلى مقدّمة الحشد. قالت امرأة: تعالَ إلى هنا يا صغيري، قف معي. كانت ابتسامتها عريضة، وكانت تضع غطاء رأس أبيض نظيفاً. قالت له:

ستتال غفراناً على خطاياك بمجرد مشاهدة ما يحدث.

حين اقتيدت الويكلفية بين الجنود، بدأ الناس يسخرون ويصيحون. أدرك أنّها جدّة، وربّما كانت أكبر شخص رآه في حياته. كان الجنود يحملونها تقريباً. ولم تكن تضع غطاءً أو وشاحاً، بل بدا وكأنّ خصلاً اقتلعت من شعرها في بعض الأماكن. فقال أشخاص خلفه، لا شكّ في أنّها فعلت ذلك بنفسها، أسفاً على خطيئتها. خلف الويكلفية، مشى راهبان، وكأنّهما جردان رماديّان سمينان، يحملان رمز النصراري الديني في أكفّهما الوريدية. شدّت المرأة ذات الغطاء الأبيض الناصع على كتفه، كما تفعل الأمّ، لو كان لديه واحدة. قالت: انظر إليها إنها منغمسة في الشرّ على الرغم من أعوامها الثمانين. قال رجل من بين الجموع: ليست سمينة جداً، فلن تستغرق طويلاً ما لم تشتدّ الرياح.

سأل: ولكن ما هي خطيئتها؟

قلت لك. تقول إنّ القديسين ليسوا سوى أعمدة خشبية.

مثل ذاك العمود الذي يقيدونها إليه؟

أجل، مثله تماماً.

سيحترق العمود أيضاً.

قالت المرأة: سيحضرون عموداً آخر في المرّة القادمة. رفعت يدها عن كتفه، ثمّ كوّرت يديها في قبضتين ولكمت بهما الهواء، ومن عمق أحشائها، أطلقت صرخة مرعبة. فانضمّ إليها الحشد، وراحوا يتدافعون إلى الأمام لإلقاء نظرة أفضل، ويهتفون، ويصفرون، ويطرقون الأرض بأقدامهم. لدى التفكير في المشهد الفظيع الذي سيراه، شعر بالحرّ والبرد. التفت للنظر إلى وجه المرأة التي كانت أمّه في هذا الحشد. قالت له: انظر، وأدارت وجهه بلطف بالغ نحو المشهد. انتبه الآن. تناول الجنود السلاسل، وقيدوا العجوز إلى العمود.

كان العمود يرتكز على كومة من الأحجار، وأتى بعض السادة والكهنة، وربّما الأساقفة، الذين لم يكن يعرفهم. راحوا ينادون الويكلفية كي تتوب عن هرطقتها. كان قريباً بما يكفي ليرى شفيتها تتحرّكان، ولكنّه لم يستطع سماع ما قالته. ماذا لو غيرت رأيها الآن، هل سيطلقون سراحها؟ ضحكت المرأة مجيبة: ليس هم. انظر، إنّها تطلب المساعدة. انسحب السادة. وضع الجنود الحطب ورزم القشّ حول الويكلفية. ربّنت المرأة على كتفه قائلة: فلنأمل أن تكون مبتلّة، أليس كذلك؟ هذا المكان مشرف، في المرّة الماضية كنت في الصفوف الأخيرة. توقّف المطر، وظهرت الشمس من بين

الغيوم. حين أتى منقذ الحكم حاملاً مشعلاً، بدت الشعلة باهتة في ضوء الشمس، تتمايل بخفة، وكأنها أسماك في كيس. بدأ الرهبان ينشدون وهم يحملون رمز النصر الديني للويكليفية، وحين تراجعوا إلى الخلف، عند أولى هبات الدخان، أدرك الحاضرون أنّ النيران قد أضرمت.

اندفعوا إلى الأمام وهم يصيحون. صنع الجنود حاجزاً بعصيهم وصرخوا بأصوات عميقة وعالية، إلى الورا، إلى الورا، إلى الورا، فصرخ الحشود وتراجعوا، ثم تقدّموا مجدداً وهم يصرخون وينشدون، وكأنهم في لعبة. ارتفعت دَوّامات من الدخان وحجبت عنهم الرؤية، فأخذ الناس يلوّحون بأيديهم وهم يقحّون. صرخوا، شَمّوا رائحتها! شَمّوا رائحة العجوز! أمسك أنفاسه كي لا يشتمّها. في الدخان، راحت الويكليفية تصرخ. قال: الآن تنادي القديسين! انحنت المرأة وقالت له بصوت منخفض: هل تعرف أنهم ينزفون في النار؟ ظنّ بعض الناس أنهم ينكمشون وحسب، ولكنني رأيت ذلك من قبل، وأنا علمت.

مع زوال الدخان، أصبحوا قادرين على الرؤية من جديد، وكانت المرأة العجوز ملتهبة تماماً. راح الحشد يهّل ويهتف. قالوا إنّ الأمر لن يستغرق طويلاً، ولكن مرّ وقت طويل، أو هكذا بدا له، قبل أن يتوقّف الصراخ. سأل: هل ثمة من يصلّي من أجلها؟ فأجابته المرأة: ما الجدوى من ذلك؟ وحتى بعد توقّف الصراخ، ظلّ الجنود يذكّون النار. كانوا يسيرون حولها، يبعدون القشّ الذي يتطاير، ويعيدون القطع الأكبر حجماً إلى المحرقة.

عندما عاد الناس إلى منازلهم وهم يتحدثون، كان من الممكن معرفة الأشخاص الذين كانوا يقفون في اتجاه الريح، لأن وجوههم اكتست برماد الحطب. أراد العودة إلى البيت، ولكنه فكر مجدداً في والتر الذي قال هذا الصباح إنّه سيقطّعه إرباً. راقب الجنود وهم يضربون البقايا البشرية بعصيهم الحديدية. كانت بقايا من الجلد واللحم المحترق لا تزال عالقة بالسلاسل. اقترب من الرجال وسألهم: كم يمكن أن تكون النار حامية لتحرق العظام؟ توقع أنّهم يملكون معلومات في هذا المجال. ولكنهم لم يفهموا سؤاله. فالناس الذين لم يعملوا في الحدادة اعتقدوا أنّ النار هي نفسها دائماً. ولكنّ أباه علمه التمييز بين الألوان الحمراء: أحمر المغيب، الأحمر الكرزي، الأحمر المصفرّ الفاتح الذي ليس له اسم، ما لم يكن اسمه قرمزيّاً.

تركّت جمجمة الويكليفية على الأرض، بين عظام ذراعيها وساقها الطويلة. كان قفصها الصدري المكسور صغيراً جداً وكأنه لكلب. تناول أحد الرجال عارضة حديدية

وأدخلها في التجويف الذي كانت تحتله عينها. تناول الجمجمة ووضعها فوق العظام، بحيث بدت وكأنها تنتظر إليه. ثم رفع العارضة وأنزلها على الرأس. وحتى قبل أن تحطّ الضربة، تطاير العظم المهشم كالنجوم في الغبار، ولكن الجزء الأكبر من الجمجمة ظلّ على حاله. هتف أحد الرجال: ربّاه. أيّها الصبي، هل تودّ أن تجرّب بنفسك؟ ضربة واحدة جيّدة ستحطّمها.

لم يكن من عادته أن يرفض أيّ دعوة. ولكنّه تراجع هذه المرّة، واضعاً يديه خلف ظهره. قال الرجل: ربّاه، أتمنّى لو كان لديّ الخيار. سرعان ما عاد المطر يهطل. مسح الرجال أيديهم، ثمّ رحلوا. رموا القضبان الحديدية فوق ما بقي من الويكلفية. لم يكن قد تبقى منها سوى حطام العظام، والرّماد السميك الموحل. تناول أحد القضبان الحديدية، في حال احتاج إلى سلاح. وضع أصابعه على طرفه المسنون، الأشبه بالإزميل. لم يكن يعرف كم ابتعد عن المنزل، وما إذا كان والتر سيلحق به. تساءل كيف يُقطّع الإنسان إرباً. كان يجدر به سؤال الجنود حين كانوا هنا، فهم خدم هذه المدينة ولا شكّ في أنّهم يعرفون.

كان الهواء لا يزال عابقاً برائحة المرأة النتنّة. تساءل ما إذا كانت في الجحيم الآن أم أنّها لا تزال تطوف في الشوارع، ولكنّه لا يخشى الأشباح. كانوا قد أقاموا منصّة للسادة، ومع أنّ الظلّة أنزلت إلا أنّها كانت مرتفعة بما يكفي عن الأرض ليركع تحتها ويحتمي بها. صلّى للمرأة، لأنّه لم يعتقد أنّها قادرة على إيذاء أحد. تحرّكت شفّته وهو يصلي. تجمّعت مياه المطر فوقه وتساقتت في قطرات كبيرة حول الألواح. راح يعدّ الوقت الفاصل بين القطرات ويلتقطها بيده المكوّرة. فعل ذلك لمجرّد تمضية الوقت. حلّ الغروب. لو كان يوماً عادياً، لشعر الآن بالجوع، ولذهب يبحث عن الطعام.

وقت غروب الشمس، أتى بعض الرجال، والنساء أيضاً. أدرك ذلك، لأنّه كان ثمة نساء غير الجنود والأشخاص الذين قد يؤذونه. اجتمعوا قرب بعضهم بعضاً، وكوّنوا دائرة حول العمود المنتصب فوق الأحجار. خرج من تحت المنصّة واقترب منهم. قال، قد يتساءل المرء ما الذي حدث هنا. ولكنّهم لم ينظروا إليه أو يتحدّثوا إليه. ركعوا على الأرض واعتقد أنّهم يصلّون. قال: لقد صلّيت لها أنا أيضاً.

قال أحد الرجال: حقّاً؟ أنت ولد طيّب. حتّى إنّّه لم يرفع نظره. قال في نفسه: لو نظر إليّ، لأدرك أنّني لست طيّباً، بل أنا ولد تافه يهرب مع كلبه، وينسى غسل الكير بالماء المالح، لينال عقاباً من والتر. تقلّصت معدته وهو يتذكّر ما فعله ولمماذا

سيقتله أبوه. فأوشك على البكاء، وكأنه يشعر بالألم. لاحظ الآن أنّ الرجال والنساء ما كانوا يصلّون، بل كانوا راكعين على الأرض. كانوا من أصدقاء الويكليزية، يحاولون لمّ بقاياها عن الأرض. ركعت إحدى النساء، حاملةً بين يديها أنية من الخزف، وامتدّت ثوبها على الأرض. كان نظره حاداً حتّى في الضوء الخافت، ومن بين الوحل والرماد، أخرج جزءاً من العظام. قال: وجدت قطعة. فمدّت المرأة الأنية نحوه. وهذه أخرى.

وقف أحد الرجال بعيداً. سأل: لماذا لا يساعدنا؟

إنّه المراقب، سيصفر عند مجيء الجنود.

هل سيعتقلوننا؟

قال رجل آخر: أسرعوا، أسرعوا.

حين امتلأ الوعاء، قالت المرأة التي تحمله: أعطني يدك.

مدّ يده بكلّ ثقة، فغمست أصابعها في الوعاء، ثمّ وضعت على ظاهر يده لخرة

من الوحل والدهن والرماد. قالت: جوان بوتون.

والآن، حين كان يتذكّر تلك الحادثة، يتعجّب من ذاكرته التي تخونه كثيراً. فهو لم ينسَ أبداً تلك المرأة التي حمل آخر بقاياها في لخرة مدهنة على بشرته، ولكن لماذا بدا له أنّ أحداث طفولته لم تكن متناسقة؟ لم يذكر الآن كيف عاد إلى البيت، وماذا فعل والتر عوضاً من تقطيعه إرباً، أو لماذا هرب أساساً من دون غسل الكير. قال في نفسه: ربّما أوقعت الملح وخفت أن أخبره بذلك. يبدو هذا منطقياً. فالخوف يسبّب الإهمال، والإساءة تولّد خوفاً أعظم، حتّى يأتي يوم يصبح فيه الخوف عظيماً جدّاً، فتستسلم الروح البشرية، ويهيم الطفل على وجهه، لينتهي به الأمر وهو يتبع حشداً من الناس ويشاهد عملية قتل.

لم يخبر أحداً بتلك القصة. صحيح أنّه تحدث مع ريتشارد ورايف عن ماضيه، ضمن المعقول، ولكنّه لم يكشف شيئاً من ذاته. كان يأتي شابوي غالباً إلى العشاء، فيجلس قربه ويضايقه بأمور من قصة حياته وكأنّه يغرز إبراً في عظامه.

قال أوستاش: "قيل لي إنّ أباك كان أيرلندياً". انتظر بصمت.

أجاب: "لم أسمع بهذا من قبل، ولكنني أؤكد لك أنّه كان غامضاً حتّى بالنسبة إلى نفسه". قال شابوي ساخراً: "الأيرلنديون هم شعب شديد العنف. أخبرني، هل صحيح أنّك هربت من إنكلترا في الخامسة عشرة من عمرك، بعد أن فررت من السجن؟".

أجاب: "بالطبع، لقد تحطّمت أغلالي بقدرة قادر".

هذا أعطاه موضوعاً يكتب عنه إلى الوطن. "سألت كريمويل عمّا سمعته، فأجابني بتجديف لا يليق بأذن الإمبراطور". فشابوي كان يجد دائماً ما يكتبه في رسائله. وإن كانت الأنباء قليلة، يكتب عن الإشاعات. وثمة إشاعات يأخذها من مصادر مشكوك في أمرها، وإشاعات يعطيه إيّاها عمداً. وبما أنّ شابوي لم يتحدّث الإنكليزية، فإنّه يحصل على أنبائه بالفرنسية من توماس مور، وبالإيطالية من التاجر أنطونيو بونفيزي، وربّما باللاتينية من ستوكسلي، أسقف لندن، الذي يدعى أيضاً إلى مائدته. كان شابوي ينوي إخبار سيّده الإمبراطور أنّ شعب إنكلترا غير متعاطف مع ملكه إلى حدّ أنّه، بتشجيع من بعض الجيوش الإسبانية، سيثور عليه. بالطبع، كان شابوي ضحية تضليل كبير. فربّما كان الإنكليز يحبّون الملكة كاثارين كثيراً، كما يبدو. وربّما لم تعجبهم التدابير الأخيرة التي اتخذها البرلمان. ولكنّ حدسه كان يؤكّد له أنّهم سيتضامنون معاً ضدّ أيّ تدخّل أجنبي. إنهم أحبّوا كاثارين لأنّهم نسوا كونها إسبانية، ولأنّها أقامت في بلادهم منذ سنوات طويلة. إنهم الشعب نفسه الذي ثار ضدّ الأجانب في يوم أيار/مايو الأسود، الشعب العنيد نفسه المتعلّق بأرضه. ولن تهزمه سوى قوّة جامحة، كتحالف مثلاً بين فرانسيس والإمبراطور. ولا يمكننا بالطبع استبعاد احتمال كهذا.

حين انتهى العشاء، رافق شابوي إلى حاشيته، إلى مرافقيه الأشداء الذين كانوا يتسكّعون في الخارج، ويثرثرون بالفلمنكية، حوله على الأغلب. عرف شابوي أنّه سبق وزار تلك البلاد، هل ظنّ أنّه لا يفهم اللغة؟ أم أنّها خدعة مزدوجة بارعة؟ مرّت عليه أيّام، منذ فترة غير بعيدة، أيّام منذ وفاة ليزي، استيقظ فيها في الصباح، وشعر أنّ عليه أن يقرّر، قبل أن يتحدّث إلى أيّ كان، من هو ولماذا. مرّت عليه أيّام استيقظ فيها من أحلام بالأموات وأخذ يبحث عنهم. أيّام استيقظ فيها وذاته ترتعش، وهي تقف عند عتبة خلاصه من أحلامه. ولكنّ تلك الأيام انقضت.

أحياناً، بعد أن كان ينتهي شابوي من نبش عظام والتر وجعل حياته غير مألوفة بالنسبة إليه، تراوده رغبة في الدفاع عن أبيه، وعن طفولته. ولكن لا جدوى من تبرير نفسه، لا جدوى من الشرح. فكثرة الكلام ضعف، ومن الحكمة إخفاء الماضي، حتّى لو لم يكن ثمة ما تخفيه. فقوّة المرء تكمن في تعتيمة على ذاته، في حركات يده شبه المرئية، وفي تعابير وجهه الغامضة. غياب الوقائع هو ما يرهب الناس، تلك الفجوة التي تفتحها والتي يصبّون فيها مخاوفهم، وتخيلاتهم، ورغباتهم.

في 14 نيسان/إبريل 1532، عينه الملك أميناً على بيت الجوهرة. أخبره هنري ويات أن هذا المنصب أتاح له الاطلاع على إيرادات ونفقات الملك. صاح الملك، وكأنه يتوجّه إلى كلّ شخص من رجال البلاط: "لماذا؟ أخبرني لماذا لا ينبغي لي استخدام ابن حدّاد صادق؟".

أخفى ابتسامته أمام هذا الوصف لوالتر، والذي يعتبر أكثر إطرأً من أيّ وصف توصل إليه السفير الإسباني. قال الملك: "أنا أجعلك على ما أنت عليه، أنا وحدي. كلّ ما أنت عليه، وكلّ ما تملكه، سيأتي منّي".

منحته تلك الفكرة سعادة لا توصف. كان هنري مرتاحاً جدّاً هذه الأيام، وبالغ الكرم، وسهل الانقياد، إلى حدّ أنه عذره على كلامه. كان الكاردينال يقول إنّ الإنكليز يسامحون الملك على كلّ شيء، إلى أن يبدأ بفرض الضرائب. كما كان يقول: اسم المنصب ليس بذي أهمية. فأيّ زميل في المجلس سيكتشف أنّي أقوم بعمله.

كان في أحد مكاتب ويستمينستر في يوم من أيّام نيسان/إبريل، حين دخل هيوغ لاتيمر، وقد أطلق سراحه للتوّ بعد اعتقاله في قصر لامبيث. قال هيوغ: "حسناً؟ يمكنك أن تترك كتاباتك وتعطيني يدك".

قام عن مكتبه، وعانقه بقوة. "إذاً، ألقيت على وارهام خطاباً جيّداً؟".
"ارتجلته، على طريقتي. خرج من فمي وكأنّه يخرج من فم طفل. يبدو أنّ العجوز فقد شهيدته للمحارق بما أنّ نهايته اقتربت. إنّه يرتجف طيلة الوقت، وحين يمشي تسمع عظامه وهي تخشخش. على أيّ حال، لا يمكننا معرفة السبب، ولكن ها أنا ذا أمامك".

"كيف أبقاك على قيد الحياة؟".

"جرّد جدران مكتبتي. لحسن الحظ، عقلي مليء بالكتب. أطلق سراحي مع تحذير. قال لي إنّني إن لم أشتّم رائحة الحريق، فقد اشتهمت رائحة المقلاة. سبق أن قيل لي ذلك، ربّما قبل عشر سنوات، حين اعتُقلت بجرم الهرطقة لدى الوحش القرمزي".
ضحك، ثمّ تابع: "ولكنّ وولزي أعاد إليّ رخصة التبشير، وأعطاني قبلة سلام، وقدم إليّ العشاء. إذاً؟ هل من المحتمل أن يصبح لدينا ملكة تحبّ الكتاب المقدس؟".

هزّ كتفيه. "إنّنا، إنهم يتحدّثون إلى الفرنسيين. ثمّة معاهدة تلوح في الأفق. لدى فرانسيس مجموعة من الكرادلة الذين قد يمنحوننا أصواتهم في روما".
ضحك هيوغ ساخراً. "لا تزال القضية عالقة في روما".

"هكذا يجب أن تسير الأمور".

"سنحوّل هنري، سنحوّله إلى الكتاب المقدس".

"ربّما. ليس فجأة، بل شيئاً فشيئاً".

"سأطلب من الأسقف ستوكسلي السماح لي بزيارة الأخ باينهام. هل تودّ مرافقتي؟".
باينهام هو المحامي الذي اعتقله مور في العام الفائت وعذّبه. وقبل الميلاد، حضر أمام أسقف لندن، ثم ارتدّ عن هرطقته، وأطلق سراحه في شباط/فبراير. إنّه إنسان طبيعي، أراد أن يعيش، وكيف لا؟ ولكن ما إن نال حرّيته، حتّى بدأ عذاب الضمير ينغصّ عليه حياته. وفي يوم من أيّام الأحاد، دخل إلى كنيسة مزدحمة بالمصلّين، ووقف أمام الجميع، حاملاً كتاب تيندايل بيده، وتحدّث عن معتقده. وهو الآن في البرج ينتظر تحديد يوم إعدامه.

قال لاتيّم: "إذا؟ هل ستأتي أم لا؟".

"لا ينبغي لي إعطاء قاضي القضاة ذريعة".

قال في نفسه: قد أقوض عزيمة باينهام. قل له، اعتقد بأيّ شيء يا أخي، وأقسم عليه في سرّك. ولكن، لم يعد ثمة أهمية لما يقوله باينهام الآن. لم يعد لديه أمل بالنجاة، ولا بدّ من أن يحرق.

رحل هيوغ لاتيّم. ركب الوهري*، للذهاب تحت جناح الظلام إلى البرج. وفي تلك الحالة، ما من حاجة إلى توماس كرومويل.

قال مور إنّه لا بأس من الكذب على المهترقين، أو خداعهم للاعتراف. فلا حقّ لهم بالسكوت، حتّى لو كانوا يعرفون أنّ الكلام سيورّطهم. إن لم يتحدّثوا، أكسر أصابعهم، أحرقهم بالحديد، أعلّقهم من أيديهم. هذا شرعيّ، ومور ذهب إلى أبعد من ذلك في الواقع. فهذا عمل مبارك.

كانت مجموعة من أعضاء مجلس العموم تتناول العشاء مع الكهنة في حانة كوينز هيد. انطلق الخبر منهم وانتشر بين أهالي لندن، أنّ كلّ من يدعم طلاق الملك ستصيبه اللعنة.

كان في غرينتش راهب يدعى ويليام بيتو، وكان رئيس فرع الأخوية الفرنسيكانية في إنكلترا. في خطبة له أمام الملك، أخذ مثلاً لأهاب، سابع ملوك إسرائيل، الذي عاش في قصر من العاج. وتحت تأثير جيزبيل الماكرة، بنى معبداً وثنيّاً وضمّ كهنة بعل إلى بطانته. قال إيليا لأهاب إنّ الكلاب ستلعق دمه، وهذا ما حدث، كما يمكنك أن تتخيّل. فقد لعقت كلاب سامراء دم أهاب. فهلك جميع ورثته الذكور، وألقوا في

الشوارع من دون أن يُدْفنوا. أما جيزبيل، فألقيت من نافذة قصرها، ومزّقت الكلاب البرية جثتها شرّ تمزيق.

قالت آن: "أنا جيزبيل. وأنت، يا توماس كرومويل، تمثّل كهنة بعل". ومضت عيناها وهي تتابع: "وبما أنّي امرأة، فأنا الوسيلة التي تدخل عبرها الخطيئة إلى هذا العالم. أنا بوابة الشرّ، مدخله الملعون. أنا الوسيلة التي يهاجم فيها الشيطان الإنسان، والذي لم يكن جريئاً بما يكفي ليهاجم، إلّا من خلالي. في الواقع تلك هي رؤيتهم للوضع. أمّا برأيي، فثمة عدد كبير جداً من الكهنة الذين كانوا يفتقرون إلى العلم والمركز المناسب. أتمنى لو أنّ البابا، والإمبراطور، وجميع الإسبان يغرقون في البحر. وإن كان ثمة من يجب أن يلقي من نافذة قصر... فأنا أعرف، يا توماس، من التي أودّ رميها. باستثناء ماري، ذلك أنّ الكلاب البرية لن تجد فيها لحماً لتتهشه. أمّا كاثرين، فهي سمينة إلى حدّ أنّها قد ترتدّ عند ارتطامها بالأرض".

حين عاد توماس آيفري إلى المنزل، وضع صندوق السفر الذي يحمل فيه كلّ ما يملكه على الأرض، ونهض فاتحاً ذراعيه لاحتضان سيّده وكأنّه طفل. كانت أنباء ترقبته قد بلغت أنتويرب. وبدا أنّ ستيفن فوغان فرح كثيراً وشرب كأساً كاملاً من الشراب الفرنسي من دون أن يمزجه بالماء.

قال: "ادخل، ثمة خمسون شخصاً بانتظاري، ولكن يمكنهم الانتظار أكثر. تعال وأخبرني كيف حال الجميع". بدأ توماس آيفري يتحدّث على الفور. ولكنّه توقف عند مدخل الغرفة. نظر إلى السجّادة التي أعطاه إيّاها الملك، تفحصتها عيناها، والتفت إلى سيّده، ومن ثمّ إلى السجّادة مجدّداً. "من هي تلك السيّدة؟".

ضحك قائلاً: "ألم تعرفها؟ إنّها أنسيلما. أعطاني إيّاها الملك. كانت تنتمي إلى سيّدي الكاردينال، ولاحظ أنّها تعجبني. فهو يحب إعطاء الهدايا". "لا بدّ من أنّها تساوي مبلغاً كبيراً من المال". نظر إليها آيفري باحترام، كما ينبغي لمحاسب شابّ ذكيّ مثله.

قال له: "انظر لديّ هديّة أخرى، ما رأيك بهذا؟ قد يكون الشيء الوحيد الجيد الذي خرج من دير. الأخ لوقا باتشولي. استغرقت كتابته ثلاثين عاماً".

كان الكتاب مجلداً بغلاف أخضر داكن مع أطراف ذهبية، وكانت أطراف صفحاته مذهّبة بحيث راح يلمع في الضوء. أمّا غلافه فكان مزخرفاً باللون الأحمر الداكن، وكان ناعماً وشفافاً. قال الشابّ: "بالكاد أجرؤ على فتحه".

"افعل رجاءً، سيعجبك".

كان بعنوان *Summa de Arithmetica*. فتحه ليجد كليشيه خشبياً للكاتب، مع كتاب أمامه وفرجار. "أهي طبعة جديدة؟".

"ليس بالضبط، ولكنّ أصدقائي في البندقية قد تذكّروني للتوّ. فقد كنت طفلاً بالطبع حين كتبه لوقا، أمّا أنت، فلم تكن قد ولدت بعد". بالكاد لامست أنامله الصفحة. "انظر، إنّه يتحدث هنا عن علم الهندسة، هل ترى الأرقام؟ وهنا يقول لا تخلد إلى السرير ما لم تتوازن الدفاتر".

"السيد فوغان يردّد هذا القول. وهذا ما جعلني أبقى ساهراً حتّى الفجر".
"وأنا أيضاً". ليالٍ كثيرة في مدن كثيرة. "كما تعلم، كان لوقا رجلاً فقيراً. أتى من سانسيبولكرو. كان صديقاً للفنانين في عصره، وأصبح عالم رياضيات ممتازاً في أوربينو، وهي قرية صغيرة تقع في الجبال، بنى فيها القائد الكونت فيديريغو العظيم مكتبته التي احتوت على أكثر من ألف كتاب. وكان أستاذاً في جامعة بيروجيا، ولاحقاً في ميلانو. أتساءل لماذا بقي رجل مثله راهباً. ولكن بالطبع عرف التاريخ علماء جبر وهندسة سجنوا بتهمة السحر، لذا ربّما ظنّ أنّ الكنيسة ستحميه... سمعته وهو يلقي عظة في البندقية، ربّما منذ أكثر من عشرين عاماً، أظنّ أنّي كنت في سنّك حينئذٍ. تحدّث عن التناسب، التناسب في البناء، في الموسيقى، في الرسم، في العدالة، في الحكومة، في الدولة. تحدّث كيف توازن الحقوق، وسلطة الأمير ورعاياه، كيف يحافظ المواطن الثري على توازن حساباته، ويتلو صلواته، ويساعد الفقراء. تحدّث كيف يجب أن تبدو الصفحة المطبوعة، كيف يجب أن يُقرأ القانون، وما يجعل الوجه جميلاً".

"هل سيخبرني بذلك في هذا الكتاب؟". نظر توماس آيفري مجدداً إلى صورة الملكة. "أفترض أنّهم عرفوا من صنع هذه السجّادة".
"كيف حال جينيك؟".

قلّب الشابّ صفحات الكتاب بكثير من التقدير. "إنّه كتاب جميل. لا شكّ في أنّ أصدقاءك في البندقية يقدرّونك كثيراً".

قال في نفسه: إذاً، لم تعد جينيك موجودة. إمّا أنّها ماتت أو أغرمت بآخر. قال: "أحياناً، يرسل إليّ أصدقائي في إيطاليا قصائد جديدة، ولكن أظنّ أنّ القصائد موجودة هنا... ليس هذه الصفحة من الأرقام هي التي تشكّل بيتاً من الشعر، بل كلّ ما هو دقيق يعدّ جميلاً، كلّ ما هو متوازن في جميع أجزائه، كلّ ما هو متناسب ومتناسق... ألا تظنّ ذلك؟".

تعجّب من قدرة الملكة على جذب أنظار الشاب. من المستحيل أن يكون قد رأى أنسيلما، أو التقى بها أو سمع عنها. فكّر في نفسه: أخبرت عنها هنري. كان ذلك في عصر أحد الأيام التي أخبرت فيها الملك القليل، وأخبرني فيها الكثير: كيف ارتعش رغبة حين فكّر في آن، كيف جرّب نساء أخريات، جرّبهنّ كوسيلة لوضع حدّ لرغبته، كي يتمكّن من التحدّث والتفكير كرجل عاقل، ولكنّه فشل معهنّ... كان اعترافاً غريباً، ولكنّه ظنّ أنّه يبرّر به أفعاله، يبرهن صحّة ما يسعى إليه، إذ قال: لأنني أطارد غزالة واحدة، خجولة وبريّة، تقودني عبر طرقات لم يعبرها رجال قبلي، تقودني بمفردي في مجاهل الغابات.

قال: "والآن، سنضع هذا الكتاب على مكتبك، كي يواسيك حين تشعر أنّ لا شيء متناسق في الحياة".

كان يعلّق آمالاً كبيرة على توماس آيفري. من السهل استخدام شابّ قادر على جمع الجداول ودفعتها أمام أنفك، ومن ثمّ توقيعتها ووضعها في صندوق. ولكن ما الهدف من ذلك؟ فصحة دفتر الحسابات تنتظر هناك لاستعمالها، مثل قصيدة حبّ. ليست هناك كي تهزّ رأسك أمامها ثمّ تهملها، بل لتفتح قلبك للاحتتمالات. إنّها مثل الكتاب المقدّس: موجودة كي تفكّر فيها، وتتحرّك. أحبّ جارك، ادرس السوق، ضاعف من انتشار أعمال الخير، اجلب أرقاماً أفضل في العام القادم.

حدّد تاريخ إعدام جايمس باينهام في 30 نيسان/إبريل. لا يستطيع الذهاب إلى الملك أملاً بالحصول على عفو. فمئذ سنوات طويلة، حصل هنري على لقب المدافع عن الإيمان، ولا يزال تواقاً ليثبت أنّه يستحقّه.

في سميثفيلد، على المنصّة المجهّزة لأصحاب المقامات الرفيعة، التقى بالسفير الإيطالي الآتي من البندقية، كارلو كابييلو. تبادلوا التحيّة. "بأيّ صفة أنت هنا، يا كرومويل؟ كصديق للمهرطق أم بموجب منصبك؟ وما هو منصبك حقّاً؟ لا أعلم!".

"أنا واثق من أنّه سيخبر سعادتك عندما تتحدّثان في المرّة القادمة".
من بين ألسنة اللهب، صرخ الرجل المحتضر: "ليسأمح الله السير توماس مور".
في 15 أيار/مايو، وقّع الأساقفة على وثيقة خضوع للملك. لن يصدروا بموجبها تشريعاً كنسياً جديداً من دون إذن الملك، وسيقدّمون جميع القوانين الموجودة للمراجعة من قبل هيئة تشتمل على أشخاص من غير رجال الدين، هم أعضاء في البرلمان ويعيّنهم الملك. ولن يدعو إلى مجمع كنسي من دون إذن الملك.

في اليوم التالي، وقف في إحدى شرفات وايت هول، المطلّة على باحة داخلية، تضمّ

حديقة، كان الملك ينتظره فيها، ودوق نورفولك يدخل ويخرج. كانت آن على الشرفة قربه، مرتدية ثوباً أحمر داكن اللون، ثقيل الوزن إلى حدّ أنّ كتفيها الصغيرتين البيضاءوين بدتا متهدّلتين في داخله. كان يجمع خياله أحياناً، فيتخيّل أنّه يضع يده على كتفها، ويمرّر إبهامه على التجويف الفاصل بين خطّ عنقها وحنجرتها. تخيّل إبهامه وهو يتبع خطّ صدرها الناهد من فوق ثوبها، وكأنّه طفل يتتبع سطرّاً مكتوباً. التفتت إليه وابتسمت قليلاً. "ها قد أتى، وهو لا يضع قلادة قاضي القضاة. ماذا فعل بها برأيك؟".

بدا توماس مور محبطاً وكئيباً. أمّا نورفولك، فبدا متوتّراً. قالت آن: "يحاول خالي ترتيب هذا اللقاء منذ أشهر. ولكنّ الملك لم يكن راغباً في ذلك، فهو لا يريد أن يخسر مور. يريد إسعاد الجميع. أنت تعرف الوضع." "كان يعرف توماس مور منذ أن كان شابّاً." "حين كنت شابّة عرفت الخطيئة".

التفتا إلى بعضهما بعضاً وابتسما. قالت آن: "اسمع الآن، هل تظنّ أنّ ذاك هو ختم إنكلترا، ذاك الذي يحمله في تلك الحقيبة الجلدية؟". حين سلّم وولزي الختم الأعظم، أجلّ الأمر ليومين. ولكنّ الملك، الجالس في تلك الحديقة الخاصّة في الأسفل، كان ينتظر بيد ممدودة. قالت آن: "إذاً، من سيحلّ مكانه؟ في الليلة الفائتة قال: قاضي القضاة لا يجلب لي سوى الأسي. ربّما يجدر بي إلغاء هذا المنصب." "لن يحبّ المحامون ذلك. على أحدهم أن يتراأس المحاكم." "إذاً، من برأيك؟".

"اقترحي عليه تعيين السيّد سبيكر. سيقوم أودلي بعمله بإخلاص. فليضعه الملك تحت التجربة لفترة، وإن لم يعجبه، فليس عليه تثبيته في منصبه. ولكن أظنّ أنّه سيعجبه. فأودلي محام جيّد ويعرف كيف يكون مفيداً. كما أنّه يفهمني، على ما أظنّ".

"لا أصدّق أنّ أحداً يفهمك! هل ننزل إلى الأسفل؟".

"ألا يمكنك المقاومة؟".

"أنت أيضاً تودّ معرفة ما يجري".

نزلا السلم الداخلي. وضعت آن يدها بخفّة على ذراعه. في الحديقة في الأسفل، كانت طيور العنديل معلقة في أقفاصها، صامتة تحت أشعة الشمس، والمياه تسيل

عبر نافورة في حوض. وفاحت رائحة الصعتر من بين الأعشاب. سُمعت ضحكة من داخل القصر، ثم انقطع الصوت وكأنّ باباً أُغلق. انحنى وقطف عُصيناً صغيراً من الصعتر، وفركه في كفّه. أخذته الرائحة إلى مكان آخر، بعيداً من هنا. انحنى مور تحيةً لأن، ولكنها بالكاد هزّت رأسها. انحنى طويلاً تحيةً لهنري، ثم وقفت قربه، عيناها على الأرض. أمسك هنري برسغها؛ ربّما أراد أن يقول لها شيئاً، أو أن ينفرد بها وحسب.

مدّ يده قائلاً: "سير توماس؟". أشاح مور بوجهه. ثم بدّل رأيه، والتفت إليه وصافحه. كانت أنامله باردة.

"ماذا ستفعل الآن؟".

"سأكتب، أو أصلي".

"أوصيك بالكتابة قليلاً والصلاة كثيراً".

ابتسم مور قائلاً: "أهذا تهديد؟".

"ربّما. حان دوري، أليس كذلك؟".

حين رأى الملك آن، تألق وجهه، والتهب قلبه.

وجد غاردينر في ويستمينستر، في إحدى تلك الباحات الخلفية المعتمة، التي لا تبلغها أشعة الشمس. "سيدي الأسقف؟".

عبس غاردينر.

"قد طلبت منّي الليدي آن أن أبحث لها عن منزل في الريف".

"وما شأنني أنا؟".

قال له: "دعني أصارك بأفكاري. تريد أن يكون المنزل قرب النهر، قريباً من قصر هامبتون، ومن قاربها الذي سيقطعها إلى وايتهاول وغرينتش. منزل في حالة جيّدة، لأنها قليلة الصبر ولن تنتظر ترميمه. تريده أن يحتوي على حدائق جميلة، ومرتبّة... ففكرت: ماذا عن قصر ستيفن في هانورث، ذلك الذي أجره إياه الملك حين أصبح وزيره؟".

أمكنه حتّى في الضوء الخافت رؤية الأفكار التي راحت تتزاحم في ذهن ستيفن. ربّاه، حوضي وجسوري الصغيرة، ورود حدائقي وأحواض الفراولة، حديقة أعشابني، قفراني، بركي وبساتيني، تحفي الإيطالية، فسيفسائي الخشبية، أواني المذهّبة، صالاتي، نافورتي المصنوعة من صدف البحر، حديقة غزلاني.

"سيكون من الجميل أن تعرض عليها المنزل، قبل أن يتحوّل إلى أمر ملكي. إنّه

عمل جيّد تكذّب به ما يعرف عن عناد الأساقفة. آه، هيّا ستيفن، لديك منازل أخرى.
لن تنام تحت كومة من القشّ".

قال الأسقف: "في تلك الحالة، كنت سأتوقع مجيء أحد أولادك مع كلب لإخراجي
من أحلامي".

تسارع نبض غاردينر، ولمعت عيناه السوداوان الدامعتان. كان ينتفض غضباً
واستكاراً. ولكنّ جزءاً منه شعر ربّما بالراحة، لأنّه سيدفع الثمن سريعاً، ولأنّه قادر
على دفعه.

صحيح أنّ غاردينر لا يزال الوزير، ولكنّ كرومويل أصبح يرى الملك كلّ يوم
تقريباً. وإن أراد هنري نصيحة، فسيستطيع إعطاءه إيّاها. وإن كان الموضوع يتجاوز
مقدرته، فسيستطيع إيجاد شخص آخر. إن تدمّر الملك من شيء ما، فسيقول له، دع
الأمر لي، إن سمح جلالتم. إن كان الملك في مزاج جيّد، فإنّه مستعد للضحك، وإن
كان تعيساً، يتعامل معه بلطف وحذر. كان الملك قد بدأ يتصرف برياء، لم يخف
على السفير الإسباني الحادّ الملاحظة. قال: "إنّه يراك على انفراد، يفضّل ألا يعلم
النبلاء كم مرّة يتشاور معك. لو كنت رجلاً أصغر حجماً، لتّم إدخالك وإخراجك في
سلة غسيل. والحال كذلك، أظنّ أنّ أعضاء مجلس الملك الخاصّ لن يتردّدوا في
إخبار أصدقائهم، الذين سيتذمّرون من نجاحك، وينشرون افتراءات ضدّك، ويتأمرون
لإسقاطك". ابتسم السفير مضيئاً: "إن جاز لي أن أقدم صورة تعجبك، فهل أصبت
الهدف؟".

في رسالة من شابوي إلى الإمبراطور، والتي صدف أن أرسلت عن طريق السيّد
ريوثيسلي، عرف أموراً عن طبعه الخاص. قرأها ريوثيسلي له: "يقول إنّ أصولك
غامضة، وإنّك كنت طائشاً ومتهوراً في شبابك، إنّك مهرطق قديم، وعار على مركزك
كمستشار. ولكنّه يجدهك شخصياً رجلاً مرحاً، ومتحرراً، وكراماً، ومؤدّباً...".
"عرفت أنّي أعجبه، عليّ أن أطلب منه وظيفة".

"يقول إنّك نلت ثقة الملك لأنّك وعدت بجعله أغنى ملك عرفته إنكلترا".
ابتسم.

في أواخر أيار/مايو، تمّ التقاط سمكتين كبيرتين في نهر التايمز، أو بالأحرى
قذفهما الموج على الضفّة الموحلة، وكانتا تُحتضران. قال حين أتت جوان تخبره
بالنبا: "هل يفترض بي فعل شيء حيال ذلك؟".

أجابت: "كلّاً. على الأقلّ، لا أظنّ ذلك. إنّه بشير خير، أليس كذلك؟ فأل حسن،

هذا كل شيء".

في أواخر تموز/يوليو، استلم رسالة من كرانمر في نورمبيرغ. كان قد راسله قبل ذلك، طالباً نصيحته حول مفاوضاته التجارية مع الإمبراطور، وهي مسائل لا يشعر أنه خبير بها. كتب إليه من مدن على طول نهر الراين، آملاً أن يتوصّل الإمبراطور إلى تفاهم مع الأمراء اللوثريين، لا سيّما أنه يحتاج إلى مساعدتهم ضدّ العثمانيين على الحدود. كتب ليخبره كيف يناضل ليصبح خبيراً في اللعبة الدبلوماسية المعتادة في إنكلترا: عرضُ صداقة ملك إنكلترا، التلويح بعود بالذهب الإنكليزي، وعدم إعطاء شيء.

ولكنّ هذه الرسالة مختلفة. فقد تمّ إملاؤها على كاتب. كانت تتحدّث عن أثر الروح التقيّة في القلب. قرأها له رايف، ثمّ أشار إلى أسفل الصفحة، عند الهامش الأيسر، حيث كتبت بضع كلمات بخطّ كرانمر: "قد حدث شيء. لا أثق بكتابته في رسالة. قد يحدث ضجّة. سيقول بعض الأشخاص إنني كنت متهوراً. سأحتاج إلى نصيحتك. أبق الأمر سرّاً".

قال رايف: "حسناً، باختصار: لدى توماس كرانمر سرّ، ولا ندري ما هو؟".

بعد أسبوع أتى هانز إلى أوستن فرايرز. كان قد استأجر منزلاً في مايدن لاين، وسيقيم في ستيليارد إلى أن يتمّ إصلاحه. قال وهو يدخل: "دعني أرى لوحتك الجديدة يا توماس". وقف أمامها، شابكاً ذراعيه، ثمّ تراجع خطوة إلى الخلف. "هل تعرف هذين الشخصين؟ الشبه واضح؟".

كانا مصرفيين إيطاليين، شريكين، ينظران نحو المُشاهد، ولكنهما يتوقان إلى تبادل النظرات. أحدهما يرتدي الحرير، والآخر الفرو. أنية من أزهار القرنفل، أسطرلاب، حسّون، ساعة رملية ملاء الرمل نصفها. من خلال نافذة مقنطرة، بدت سفينة ذات أشرعة حريرية، كانت أشرعتها شفّافة، وكانت تمخر عباب بحر صافٍ كالمرآة. التفت إليه هانز مسروراً. "كيف يستطيع نقل هذا التعبير في العينين، قاسياً وماكراً في آنٍ واحد؟".

"كيف حال إليزابيت؟".

"سمينة وحزينة".

"وهل هذا غريب؟ أنت تذهب إلى الوطن، تمنحها طفلاً، ثمّ تسافر مجدداً".

"لا أدعي أنني زوج جيّد، ولكنني أرسل إليها المال".

"كم ستمكث معنا؟".

شرب هانز كأسه ثم راح يتحدّث عمّا تركه خلفه. تحدّث عن بايسل، وعن الأقاليم والمدن السويسرية، وعن أعمال الشغب والمعارك. تحدّث عمّا إذا كان ينبغي تعليق الصور أم لا، ووضع التماثيل أم لا. هل يمكن للكهنة أن يتزوّجوا أم لا؟ هل ثمة سبعة أماكن مبدّلة أم ثلاثة؟ رمز النصارى الديني الذي نجتو أمامه على ركبتنا ونبجّله، أم رمز النصارى الديني الذي نقطّعه ونحرقه في الساحات العامّة. "أنا لست من محبّي البابا، ولكنني سنمت ذلك. قد هرب إيراسموس إلى فرايبورغ، إلى البابويين، وأنا أهرب الآن إليك وإلى يونكر هاينريتش. هكذا يسمّي لوثر ملككم، "خزي ملك إنكلترا". مسح فمه وأضاف: "كلّ ما أطلبه هو القيام بعمل جيّد وتقاضي أتعاب عليه. وأفضّل ألاّ تُبدّد جهودي من قبل أحد المهرطقين".

"أتيت إلى هنا بحثاً عن السلام؟"، هزّ رأسه أسفاً، "لقد تأخرت".
"كنتُ ماراً على جسر لندن، ولاحظت أنّ أحدهم هاجم تمثال السيّدة العذراء وحطّم رأس الطفل".

"حدث ذلك منذ فترة. قد يكون ذاك الشرير كرانمر. تعرف كيف يصبح حين يكثر من الشراب".

ابتسم هانز. "أنت مشتاق إليه. من كان ليظنّ أنّكما ستصبحان صديقين؟".
"وارهام العجوز ليس بخير. إن مات هذا الصيف، فستطلب الليدي أن إعطاء صديقي أسقفية كانتربروري".

فوجئ هانز. "ليس غاردينر؟".

"لقد أفسد فرصته مع الملك".

"إنّه عدو نفسه".

"لا أظنّ ذلك".

ضحك هانز. "ستكون ترقية عظيمة للدكتور كرانمر. ولكنّه لن يرغب فيها. فهو لا يحب التناخر، بل يفضل كتبه".

"بل سيقبل، فهذا واجب. فجميعنا نجبر على فعل ما لا يروق لنا".

"ماذا، أنت؟".

"لا يروق لي أن يأتي سيّدك القديم ويهدّدي في منزلي وأسكت، كما أفعل. هل سبق أن ذهبت إلى تشيلسي؟".

"أجل. إنّه منزل حزين".

"أعلن أنه استقال بسبب المرض، لعدم إحراج أحد".
"يقول إنه يعاني من الألم هنا"، وفرك هانز صدره، "وإنه يصيبه حين يبدأ بالكتابة.
ولكن الباقين يبدوون بصحة جيّدة، تلك العائلة المعلقة على الجدار".
"لم يعد عليك الذهاب إلى تشيلسي لتلقّي الأوامر. كلّفني الملك بأعمال في البرج،
فنحن نرمّم التحصينات. لديه بناؤون ودهّانون ومذهّبون، فنحن ننزع الطلاء عن
الأجنحة الملكية القديمة لاستبدالها بشيء أجمل، وسأبني منزلاً جديداً للملكة. في هذه
البلاد، كما تعلم، ينام الملوك والملكات في البرج ليلة تتويجهم. وحين يأتي يوم تتويج
آن، سيكون لديك الكثير من العمل. إذ سيكون علينا تنظيم المهرجانات، والولائم،
وسترسل المدينة بطلب أطباق من الذهب والفضّة لتقديمها إلى الملك. تحدّث إلى
تجار هانس، فقد يرغبون في إقامة عرض. اطلب منهم التخطيط. أمّن لنفسك العمل
قبل أن يأتي نصف حرفيّ أوروبا إلى هنا".
"هل ستحصل على مجوهرات جديدة؟".

"ستحصل على مجوهرات كثرين. فهو لم يفقد عقله تماماً".
"أودّ لو أرسمها. أنا بولينا".

"لا أعرف. قد لا يعجبها أن تكون محطّ تدقيق".
"يقولون إنها ليست جميلة".

"كلاً، ربّما ليست كذلك. لن تجدها نموذجاً ملائماً للوحة بريمافيرا، أو تمثالاً
للعدراء، أو صورة للسلام".

"إذاً، ماذا، حواء؟ ميدوسا؟ ضحك هانز. "لا تُحب".

"لديها حضور قويّ، شخصيّة... قد لا تتمكّن من نقلها إلى اللوحة".
"تجدني محدوداً، كما أرى".

"بعض الموضوعات تعصى عليك، أنا واثق من ذلك".
دخل ريتشارد. "فرانسيس براين هنا".

وقف قائلاً: "إنه قريب الليدي آن".

"عليك الذهاب إلى وايتهاول. فالليدي آن تكسّر الأثاث وتحطّم المرايا".
شتم (همساً). "أدخل السيّد هولباين لتناول العشاء".

راح فرانسيس براين يضحك بقوة، إلى حدّ أنّ جواده انتفض تحته وانحرف جانباً،
مشكلاً خطراً على المارّة. وعندما وصلا إلى وايتهاول، كان قد جمع خيوط القصة:
لقد سمعت أنّ للتو أنّ زوجة هاري بيرسي، ماري تالبوت، تستعدّ لتقديم عريضة إلى

البرلمان طالبة الطلاق. وتقول إن زوجها لم يشاركها السرير لمدة عامين، وحين سألتها عن السبب، قال إنه لم يعد قادراً على الادعاء. فهما غير متزوجين فعلاً، ولم يكونا يوماً كذلك، لأنه متزوج من آن بولين.

قال براين: "السيدة غاضبة جداً". كانت الرقعة المرصعة بالجواهر، التي تغطي عينه، تهتز وهو يضحك. "تقول إن هاري بيرسي سيفسد كل شيء. لا تعرف ما إذا كان عليها قتله بضربة سيف واحدة، أم تقطيعه إرباً على مدى أربعين عاماً على مرأى من الناس، كما يفعلون في إيطاليا".

"هذه القصص مبالغ فيها".

لم يسبق له أن رأى، أو صدق، نوبات الغضب الجامحة لليدي آن. حين دخل، كانت تدرع الغرفة ذهاباً وإياباً، مشدودة اليدين، وبدت قصيرة ومتموترة، وكأنها ترتدي ملابس ضيقة جداً. وجلست في الغرفة ثلاث سيدات، هنّ جاين روتشفورد، وماري شلتون، وماري بولين، يتبعنها بنظراتهن. كان ثمة سجادة صغيرة مكومة على الأرض، كانت على الأرجح معلقة على الجدار. قالت جاين روتشفورد: "قمنا بكنس الزجاج المحطم". جلس السير توماس بولين، المونسينيور، أمام طاولة، وأمامه كومة من الأوراق. وعلى مقعد قريبه، جلس جورج. كان جورج يسند رأسه بين يديه، وكان كمّاه منتفخين قليلاً وحسب. كان دوق نورفولك يحدّق إلى المدفأة، التي وضع فيها الحطب من دون إشعاله. ربّما يحاول إضرام النار بقوة نظره.

قال جورج: "أغلق الباب، يا فرانسيس، ولا تدع أحداً يدخل".

كان الشخص الوحيد في الغرفة الذي لا ينتمي إلى أسرة هاورد.

قالت جاين روتشفورد: "أقترح حزم حقائب آن وإرسالها إلى كينت. فغضبُ الملك هبّ فجأةً...".

قال جورج: "لا تقولي المزيد، وإلا ضربتك".

"هذه نصيحتي". جاين روتشفورد، حماها الله، هي واحدة من النساء اللواتي لا يعرفن متى يجب عليهنّ التوقّف. "سيدّ كرومويل، لقد أشار الملك إلى ضرورة إجراء تحقيق. وينبغي أن تُعرض القضية على مجلس الشورى، ولا يمكن تفادي الأمر هذه المرّة. فهاري بيرسي سيُدلي بشهادته. ولا يمكن أن يكون كلّ ما فعله الملك، وما ينوي فعله، هو من أجل امرأة تخفي زواجاً سرّياً".

قال جورج: "أتمنى لو أستطيع فسخ زواجي بك. أتمنى لو أنّه ثمة عقد أولي، ولكن لا مجال لذلك".

رفع المونسينيور يده: "رجاءً".

قالت ماري بولين: "ما الجدوى من الإرسال بطلب السيّد كرومويل، من دون إخباره بما حدث؟ سبق أن تحدّث الملك إلى شقيقتي الليدي".
قالت آن: "أنا أنكر كلّ شيء"، وكأنّ الملك يقف أمامها.
قال: "جيد، جيد".

"أقرّ أنّ الإيرل اعترف لي بحبه. كتب لي بيتاً من الشعر، وبما أنّي كنت فتاة شابة حينها، ولم أجد خطأ في ذلك...".
كاد يضحك. "بيتاً من الشعر؟ هاري بيرسي؟ ألا تزالين تحتفظين به".
"لا، بالطبع لا. ليس لديّ شيء مكتوب".
قال بلطف: "هذا يسهل الأمور. وبالطبع لم يكن ثمّة وعد، أو عقد، أو حتّى حديث عنه".

قالت ماري: "ولا اكتمال للزواج على الإطلاق. هذا غير ممكن، فشقيقتي بلا ريب عذراء".
"وكيف كان الملك؟ هل كان...".

قالت ماري: "خرج من الغرفة وتركها واقفة".
نظر المونسينيور إليه. قحّ قليلاً ثمّ قال: "في هذا الوضع، ثمّة عدد من المقاربات، كما يبدو لي، إحداها...".
انفجر نورفولك غاضباً. راح يقفز وهو يشتم وقال: "بينما تختار مقاربة، سيّدي، وتتأمل الوضع، يطلق الناس الافتراءات على ابنتك في جميع أنحاء البلاد مسمّين عقل الملك، وتخسر هذه العائلة مكانتها أمام عينيك".
قال جورج وهو يرفع يديه: "هاري بيرسي... اسمع، هلاً تركتني أتكلّم؟ كما أفهم، تمّ إقناع هاري بيرسي في الماضي بنسيان مزاعمه، فإنّ أمكننا جعله يعدل عن رأيه مرّة...".

قالت آن: "أجل، ولكنّ الكاردينال هو من جعله يعدل عن رأيه، ولسوء الحظ، الكاردينال ميت الآن".

حلّ صمت عذب كالموسيقى. نظر مبتسماً إلى آن، والمونسينيور، ونورفولك. لإطالة تلك اللحظة سار عبر الغرفة وتناول السجادة المكوّمة على الأرض. كانت حياكتها دقيقة. أرضيتها نيليّة اللون، وقطبها غير متماثلة. أصفهانية؟ كانت تصوّر حيوانات صغيرة حيكت بين الأزهار. قال: "انظروا، هل تعرفون ما هذه؟ إنّها

طواويس".

اقتربت ماري شلتون تنظر من فوق كتفه. "ما هذه الأفاعي ذات القوائم؟".

"إنها عقارب".

"يا الله، ألا تعضّ؟".

قال: "بل تلسع. ليدي آن، إن لم يكن البابا قادراً على منعك من أن تصبجي ملكة،

ولست أظنّ أنّ بمقدوره ذلك، فعلى هنري بيرسي ألا يقف في طريقك".

قال نورفولك: "إذاً، أبعده من طريقها".

"تلك ليست فكرة جيّدة بالنسبة إليكم، كعائلة...".

قال نورفولك: "افعل ذلك، حطّم رأسه".

قال: "مجازياً، يا سيّدي اللورد".

جلست آن، وأشاحت بوجهها عن النساء. كانت يداها الصغيرتان مشدودتين. قلب

المونسينيور أوراقه. نزع جورج الغارق في أفكاره قبعته وأخذ يعبث بدبوسها المرصّع

بالجواهر، يلمس طرفه بإبهامه.

لفّ السجّادة، وناولها بلطف لماري شلتون. همست قائلة: "شكراً، واحمرّت وكأنّه

عرض عليها شيئاً حميماً. صدر أنين عن جورج، فقد نجح في وخز نفسه. قال

الخال نورفولك بمرارة: "أيّها الشاب الأحمق؟".

تبعه فرانسيس براين إلى الخارج.

"يمكنك تركي الآن، سير فرانسيس".

"أفكّر في الذهاب معك. أريد أن أتعلّم ما تفعله".

تحقّق من مشييته، ثمّ بسط كفيّه على صدر براين وأداره جانباً، وسمع ارتطام رأسه

بالجدار. قال: "أسرع".

ناداه أحدهم، كان السيّد ريوثيسلي هو الذي يناديه عند ناصية الشارع. "إشارة مارك

والأسد، على بعد خمس دقائق سيراً على الأقدام".

كان ريوثيسلي قد أوكل إلى عدد من الرجال مراقبة هاري بيرسي. كان يخشى أن

يعمد أعداء آن في القصر - دوق سوفولك وزوجته، وأولئك الحالمون الذين يظنون

أنّ كاثرين سترجع - إلى الاجتماع بالإيرل وتشجيعه على إعادة إحياء الماضي،

لكون ذلك مفيداً من وجهة نظرهم. ولكن لم تحدث أيّ لقاءات على ما يبدو، إلاّ إن

كانوا قد اجتمعوا به في الحمّامات على ضفّة سورّي.

انعطف ريوثيسلي في ممرّ، ودخل منه إلى باحة فندق قذرة. نظر حوله، وفكّر في

أنّ ساعتين من العمل والتصميم يحولانه إلى مكان محترم. كان رأس السيّد ريوثيسلي الوسيم، بشعره الذهبي المائل إلى الاحمرار، يلمع كالمنارة. وكان رأس سان مارك، الذي يرتفع فوقهما، حليقاً مثل رأس راهب. أمّا الأسد، فكان صغيراً أزرق اللون، ومبتسماً. لمس ريوثيسلي ذراعه قائلاً: "من هنا". كانا علي وشك دخول باب جانبي، حين سمعا صغيراً من الأعلى. نظر ليري امرأتين تطلّان من إحدى النوافذ وهما تضحكان. قال: "ربّاه، المزيد من نساء هاورد".

في الداخل، كان عدد من الرجال مستقلّين فوق الطاولات أو تحتها. أمّا إيرل نورثمبرلاند، فكان يتناول الشراب في غرفة خاصّة. كان من الممكن اعتبارها خاصّة، لولا الفتحة الصغيرة التي كانت الوجوه تتلصص عبرها. رآه الإيرل. "آه، توقعت مجيئك". مرّ يديه بتوتر عبر شعره القصير الذي انتصب فوق رأسه.

توجّه كرومويل إلى الفتحة، ورفع إصبعاً للمتفرّجين، ثمّ أغلقها في وجههم. ولكنّ صوته كان لطيفاً جدّاً حين جلس مع الشابّ وقال: "والآن، سيّدي، ماذا سنفعل؟ كيف يمكنني مساعدتك؟ تقول إنّك لا تستطيع العيش مع زوجتك. ولكنّها لا تقلّ جمالاً عن أيّ امرأة في هذه المملكة، ولم يسبق أن سمعت عنها أمراً سيّئاً، إذًا، لماذا لا تتفقان؟".

ولكنّ هاري بيرسي لم يكن في مزاج ليتحدّث إليه وكأنّه صقر خجول، بل كان يصرخ وينتحب. "إن لم أتفق معها يوم زفافنا، فكيف لي أن أتفق معها الآن؟ إنّها تكرهني لأنّها تعرف أنّنا لسنا متزوّجين كما ينبغي. لماذا يحقّ للملك وحده أن يكون ذا ضمير في هذه المسألة، ولا يحقّ لي أنا؟ حين يشكّ في صحّة زواجه، يذيع الأمر في العالم المسيحي بأكمله. ولكن حين أشكّ أنا في صحّة زواجي، يرسل إليّ أقلّ موظفيه شأنًا ليتحدّث إليّ بكلام معسول ويطلب منّي الذهاب إلى البيت ونسيان الأمر. لقد أقسمت على ذلك، ولكنّ الكاردينال جعلني أتراجع عنه. قال أبي يومئذٍ إنّهُ سيتبرأ منّي، ولكنّ أبي مات الآن ولم أعد خائفًا من قول الحقيقة. قد يكون هنري ملكاً، ولكنّه يسرق زوجة رجل آخر. أن بولين هي زوجتي شرعيّاً، وكيف سيُحاسَب يوم القيامة؟".

أصغى إليّه. سمع حديثه المفكّك... الحبّ الحقيقي... الوعود... أقسمت على منحي جسدها، أعطتني هذا الحق الذي لا تعطيه إلاّ امرأة متزوّجة... قال له: "سيّدي، قلت ما لديك. أصغ إليّ الآن. أنت رجل أنفق كلّ ماله تقريباً، وأنا رجل يعرف أين أنفقته. أنت رجل استدان من كلّ أنحاء أوروبا، وأنا رجل يعرف

دائنيك. كلمة واحدة منّي، وسيطالبون بديونهم".

قال بيرسي: "آه، وماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ ليس لدى المصرفيين جيوش".
"ولا جيوش لديك أنت أيضاً سيدي، حين تكون خزائنك فارغة. أصغ إليّ الآن،
افهم ما سأقوله. لقد منحك الملك لقب الإيرل، ومهمّتك هي حماية الشمال. آل
بيرسي وآل هاورد يدافعون عنّا ضدّ اسكتلندا. افرض أنّ بيرسي عجز عن ذلك،
رجالك لن يحاربوا بالكلام اللطيف...".

"إنّهم يعملون لديّ ومن واجبهم القتال".

"ولكن، سيدي، يحتاجون إلى المؤونة، إلى الأسلحة، إلى تدعيم الأسوار
والحصون. والملك قادر على تجريدك من لقبك، وأراضيك، وقصورك، ومنحها إلى
شخص آخر يقوم بالعمل الذي فشلت فيه".

"لن يفعل، فهو يحترم جميع الألقاب القديمة وجميع الحقوق القديمة".

"إذاً، لنقل إنني أنا من سيفعل. لنقل إنني سأدمر حياتك، أنا وأصدقائي
المصرفيون".

كيف يشرح له أنّ إدارة العالم لا تتمّ من حيث يظنّ. ليس من القلاع الموزّعة على
حدوده، ولا حتّى من وايتهاول. العالم يُدار من أنتويرب، من فلورنسا، من أماكن لم
يتخيّلها أبداً؛ من ليسبون، من حيث تتعطف السفن ذات الأشرعة الحربية غرباً
وتُحرق تحت الشمس. ليس من بين جدران القصور، بل من مكاتب المحاسبة. ليس
بنداء البوق بل بطرقات حبات العدّاد. ليس بصرير البندقية، بل بحفيف القلم على
صفحة الكمبيالة التي تسدّد ثمن البندقية وأجر صانع البندقية والوقود والطلقة.

قال: "أتخيّلك من دون مال ومن دون لقب. أتخيّلك قاطناً في كوخ، ترتدي ملابس
مغزولة في البيت، وتحضر إلى المنزل أرنباً للعشاء. أتخيّل زوجتك المخلصة أن
بولين تسلخ الأرنب وتقطّعه. أتمنى لكما السعادة".

سقط هاري بيرسي على الطاولة وسالت دموع الغضب من عينيه.

قال له: "أنت لم تعقد أيّ زواج أولي. كل الوعود التافهة التي أعطيتها ليس لها
مفعول قانوني. أيّ اتفاق تظنّ أنّك أجرته، لا وجود له. وثمّة مسألة أخرى، سيدي.
إن تفوّهت بكلمة واحدة مجدّداً عن حرّية الليدي آن - وحمل تلك الكلمة قدراً كبيراً
من الاشمئزاز - فسيكون حسابك معي، ومع آل هاورد، وآل بولين، ولن يرحمك
جورج روتشفورد، كما أنّ اللورد ويلتشاير سيحطّم كبرياءك. وإن سمع دوق نورفولك
أيّ كلمة مسيئة إلى ابنة أخته، فسيكون حسابك عسيراً معه. والآن"، استعاد نبرته

اللطيفة، وتابع قائلاً: "أهذا واضح سيدي؟". سار عبر الغرفة، وأعاد فتح النافذة. "يمكنكم النظر مجدداً الآن". ظهرت الوجوه، أو بالأحرى أطلت الجبهات والأعين فقط. توقّف عند الباب والتفت نحو الإيرل. "ومنعاً لأيّ شكّ، سأخبرك بالتالي. إن كنت تظنّ أنّ الليدي أنّ مغرمة بك، فأنت مخطئٌ جداً. إنّها تكرهك. والخدمة الوحيدة التي تستطيع تأديتها لها الآن، عوضاً من الموت، هي إنكار ما قلته لزوجتك المسكينة، والقسم على أيّ شيء يُطلب منك، كي تفسح أمامها الطريق لتصبح ملكة إنكلترا".

في الطريق إلى الخارج قال لريوثيسلي: "أشعر حقاً بالأسف عليه". ولكنّ الشاب اتكأ على الجدار من شدّة الضحك.

في اليوم التالي، وصل باكراً إلى مجلس شوري الملك. كان دوق نورفولك يحتلّ مكانه على رأس الطاولة، ولكنّه نهض من مكانه حين قيل له إنّ الملك نفسه سيتراأس الاجتماع. قال أحدهم: "وارهام هنا أيضاً". فُتح الباب، ولم يظهر أحد، ثمّ أتى الأسقف القديم وهو يجرّ قدميه ببطء شديد. جلس في مكانه. ارتعشت يداه وهو يضعهما على القماش أمامه. كان رأسه يرتجف فوق عنقه، وبدت بشرته بلون الرقّ، كما رسمها هانز. أجال نظره حول الطاولة وهو يرمش بعينه ببطء كالسحلية. عبّر الغرفة ووقف من الجهة المقابلة لوارهام، يسأله عن صحّته، من باب اللياقة. فمن الواضح أنّه يحتضر. قال: "كيف حال تلك المرأة التي تأويها في أبرشيّتك، إليزا بارتون؟".

بالكاد رفع وارهام نظره. "ماذا تريد، يا كرومويل؟ لم نجد شيئاً ضدّ الفتاة. أنت تعرف ذلك".

"سمعت أنّها تخبر أتباعها أنّه لو تزوج الملك من الليدي آن، فلن يدوم حكمه سوى عام واحد".

"لا أستطيع البتّ في ذلك، عليّ سماعه بأذنيّ".

"فهمت أنّ الأسقف فيشر ذهب لرؤيتها".

"حسناً... أو هي لرؤيته. إمّا هذا أو ذلك. لماذا لا يفعل؟ إنّها شابة مباركة".

"من الذي يتحكّم بها؟".

بدا رأس وارهام وكأنّه سيُقذف عن كتفيه. "قد تكون غير حكيمة، وقد تكون مضلّلة، ففي النهاية، هي ليست سوى فتاة من الريف. ولكنّها تتمتع بموهبة، أنا واثق من ذلك. فحين يزورها الناس، تخبرهم على الفور بما يزعجهم، وبالخطايا التي تنقل

ضميرهم".

"حقاً؟ عليّ زيارتها. أتساءل ما إذا كانت ستعرف ما يزعجني؟".

قال توماس بولين: "هدوءاً، وصل هاري بيرسي".

دخل الإيرل بين اثنين من مرافقيه. كانت عيناه حمراوين، وبدا من القياء الذي يلوّث فمه أنه قاوم محاولات خدمه لتنظيفه. دخل الملك. كان يوماً دافئاً وكان يرتدي ملابس حريرية فاتحة اللون. بدت حبات الياقوت التي تزيّن أصابعه أشبه بفقاعات الدم. جلس في مكان، وتركّزت عيناه الزرقاوان على هاري بيرسي.

تولّى توماس أودلي، الذي يحتلّ الآن منصب قاضي القضاة، توجيه الإيرل في أثناء إنكاره لأقواله. هل عقدت زواجاً أولياً؟ كلاً. وعود من أيّ نوع؟ علاقة جسدية، أعتذر على ذكر ذلك؟ أقسم بشرفي، كلاً، كلاً، كلاً.

قال الملك: "يؤسفني القول إنّنا نحتاج إلى أكثر من كلمة شرف منك. فقد بلغت المسألة حدوداً غير مسموح بها، يا حضرة السيّد".

بدا الذعر على هاري بيرسي. "إذاً، ماذا يجب عليّ فعله بعد؟".

قال بلطف: "اقترب من نيافة رئيس أساقفة كانتربروري، فهو يحمل الكتاب المقدّس". في الواقع، هذا ما كان العجوز يحاول فعله. حاول المونسنيور مساعدته، ولكنّ وارهام رفع يديه بعيداً. أمسك بالطاولة، ما جعل الغطاء ينزلق، ثمّ رفع نفسه على قدميه. "هاري بيرسي، لقد بدّلت رأيك كثيراً في هذه المسألة، أكّدتها، ثمّ نفيتها، ثمّ أكّدتها، والآن أحضرت إلى هنا لتنفيذها مجدّداً، ولكنك هذه المرة لن تفعل ذلك أمام الناس وحسب. الآن... هل ستضع يدك على هذا الكتاب المقدّس، وتقسم أمامي، وأمام الملك، وأمام هذا المجلس أنك لست على معرفة غير شرعية بالليدي أن، وأنك غير مرتبطب معها بأيّ عقد زواج؟".

فرك هاري بيرسي عينيه، ثمّ مدّ يده وقال بصوت مرتجف: "أقسم".

قال دوق نورفولك: "ممتاز، أتساءل من أين أتيت بهذه الكذبة أساساً". سار نحو هاري بيرسي، وأمسك بذراعه قائلاً: "لن نسمع المزيد عن هذا الموضوع مجدّداً، مفهوم أيّها الشاب؟".

قال الملك: "هاورد، سمعته وهو يقسم، لذا توقّف عن إزعاجه بعد الآن. فليساعد أحدكم رئيس الأساقفة، كما ترون، هو ليس بخير". تحسّن مزاجه، وابتسم لمستشاريه. "أيّها السادة، سنتوجّه الآن إلى كنيسة الخاصة، ونرى هاري بيرسي وهو يتناول ليختم قسمه. بعد ذلك، سنمضي أنا والليدي أن عصر هذا اليوم بالتفكير والصلاة. لا

أريد أيّ إزعاج".
جرّ وارهام قدميه نحو الملك. "وينشيستر تستعدّ لإقامة قدّاس من أجلك. أنا ذاهب إلى أبرشيّتي". انحنى هنري وقبّل خاتمه وهو يتمتم. قال رئيس الأساقفة: "هنري، رأيّتك تُدخل إلى بلاطك ومجلسك أشخاصاً مشكوك في مبادئهم وأخلاقهم. رأيّتك تجلّ إرادتك وشهوتك، غير آبه بالفضيحة والأسى اللذين تسبّبهما للشعب المسيحي. أخلصتُ إليك، إلى حدّ مخالفة ضميري. فعلت لك الكثير، ولكن هذا آخر عمل أقوم به من أجلك بعد اليوم".

* * *

في أوستن فرايرز، كان رايف بانتظاره. "انتهت المشكلة؟".
"أجل".

"وماذا الآن؟".

"الآن بإمكان هاري بيرسي اقتراض المزيد من المال، ودفع نفسه إلى حافة الإفلاس. وهي عملية يسعدني تسهيلها". جلس مضيفاً: "أظنّ أنّي يوماً ما سأخلص هذه البلاد منه".

"وكيف ستفعل ذلك، سيّدي؟". هزّ كتفيه: لا أدري. "أنت لا تريد أن تتّسع سلطة آل هاورد على الحدود أكثر ممّا هي الآن".
"كلّاً. كلّاً على الأرجح". فكّر قليلاً، ثمّ قال: "هل يمكنك إيجاد الأوراق المتعلقة بالمرأة التي يحميها وارهام؟".

بانتظار ذلك، فتح النافذة ونظر إلى الحديقة. كانت وروده قد ابيضّت بفعل الشمس. قال في نفسه: أشعر بالأسف على ماري تالبوت، فحياتها لن تكون سهلة بعد ما حدث. لبضعة أيّام، بضعة أيّام فقط، كانت محور حديث بلاط الملك عوضاً من آن. فكّر في هاري بيرسي، وهو يدخل لاعتقال الكاردينال، والمفاتيح بيده، وفي الحارس الذي وضعه عند سرير الرجل المحتضر.
أطلّ من النافذة. أتساءل ما إذا كانت أشجار الدراق تعيش هنا. أتى رايف حاملاً رزمة من الأوراق.

قصّ الشريط وفتح الرسائل والمذكّرات. بدأت هذه المسألة السخيفة قبل ستّ سنوات، في كنيسة متداعية عند أطراف مستنقعات كانتيش، حين بدأ تمثال للعدراء يجذب اهتمام الناس، وبدأت شابة تدعى إليزابيث بارتون تجري عروضاً لهم. ولكن ما الذي جذبهم في التمثال أساساً؟ ربّما تحرك، أو بكى دماً. كانت الفتاة يتيمة، نشأت في بيت أحد موظّفي وارهام. لم تكن تملك من عائلتها سوى أخت واحدة. قال

لرايف: "لم يلاحظها أحد حتى بلغت العشرين من عمرها تقريباً، ثم أُصيبت بمرض ما، وعندما شفيت، بدأت تراودها الرؤى، وتتكلم بأصوات غريبة. قالت إنها رأت سان بيتر في مكان ما وبيده مفاتيحه. وإن سألتها عن مكان أقربائك الأموات، فستستطيع إخبارك. إن كانوا من الصالحين، تتحدّث بصوت عالٍ. وإن كانوا من الطالحين، يكن صوتها عميقاً".

قال رايف: "لا شكّ في أنّ المنظر مضحك".

"هل تظنّ ذلك؟ أيّ أولاد وقحين ربّيت في بيتي؟". قرأ ثمّ نظر إليه. "أحياناً تبقى بلا طعام لتسعة أيّام. وأحياناً تقع فجأة على الأرض. هذا ليس غريباً، أليس كذلك؟ تعاني من التشنّجات ومن حالات فقدان الوعي. يبدو ذلك بغيضاً. قابلها سيدي الكاردينال، ولكن...". تصفّح الأوراق، "لا شيء هنا، ما من تقرير عن الاجتماع. أتساءل عمّا حدث. على الأرجح حاول إقناعها بتناول العشاء، ولم يعجبها ذلك. استناداً إلى الأوراق...". قرأ قائلاً: "... إنها في دير في كانتربوري. أمّا الكنيسة المتداعية فتمّ إصلاح سقفها، وأخذ المال يجري بين أيدي رجال الدين في المنطقة. وثمة علاجات. فالكسيح يمشي، والأعمى يستردّ بصره. كما أنّ الشموع تشتعل من تلقاء نفسها. الطرقات مزدحمة بالناس الذين يقصدونها. لماذا أشعر وكأنني سمعت هذه القصة من قبل؟ لديها عدد من الرهبان والكهنة الذين يوجّهون نظر الناس إلى السماء بينما يسرقون جيوبهم. وأفترض أنّ هؤلاء الرهبان والكهنة هم من جعلوها تعطي رأيها في موضوع زواج الملك".

"التقى بها توماس مور، وكذلك فيشر".

"أجل أذكر ذلك. آه... انظر هنا... أرسلت إليها ماري ماغدالين رسالة مزخرفة بالذهب".

"هل يمكنها قراءتها".

"أجل، يبدو ذلك". نظر إليه. "ما رأيك؟ سيتحمّل الملك شتائم راهبة. أظنّ أنّه معتاد على ذلك، فأن غالباً ما توبّخه".
"قد يكون خائفاً".

سبق أن رافقه رايف إلى القصر. ومن الواضح أنّه يفهم هنري أكثر من بعض الأشخاص الذين عرفوه طيلة حياته. "بالفعل. فهو يعتقد بالفتيات البسيطات اللواتي يستطعن التحدّث إلى القديسين. إنّهُ مستعدّ للاعتقاد بالتوقّعات، أمّا أنا... فأظنّ أنّ علينا تركها لبعض الوقت. سنرى من يزورها ومن يقدّم إليها الهدايا".

قال رايف: "الليدي إكسيتير".

هنري كورتناي، ماركيز إكسيتير، هو أقرب أقارب الملك الذكور، لكونه حفيد الملك القديم إدوارد. وهو بالتالي حفيد للإمبراطور، الذي ينوي الزحف بجيوشه لخلع هنري واستبداله بملك جديد. "لو كنت مكان إكسيتير، لما تركت زوجتي تراق فتاة مشوشة الذهن تتخيل أنها يوماً ما ستصبح ملكة". بدأ يطوي الأوراق مجدداً. "هل تعرف أنّ هذه الفتاة تدعي أنها قادرة على إحياء الأموات؟".

في جنازة جون بيتيت، وبينما كانت النساء في الأعلى يواسين لوسي، دعا إلى اجتماع ارتجالي في الأسفل في لايونز كاي، للتحدث إلى زملائه التجار عن الاضطراب في المدينة. استأذن أنطونيو بونفيزي، صديق مور، وقال إنه سيرجع إلى بيته. وانسحب أخذاً معه إحساس القشعريرة الذي رافقه منذ وصوله غير المتوقع. حين وصل إلى الباب، استدار قائلاً: "إن كان ثمة مساعدة يمكن تقديمها إلى السيّد بيتيت، يسرني...".

"لا حاجة إلى ذلك، فقد ترك لها زوجها المال الوفير".

"ولكن هل ستدعها المدينة تتولى الأعمال بنفسها؟".

قاطع قائلاً: "سأهتم بذلك".

هزّ بونفيزي رأسه ورحل. "من الغريب أن يجرؤ على المجيء". كان لدى جون بارنيل، من شركة درايبيرز، تاريخ من الصدمات مع مور. "سيدّ كرومويل، إن كنت ستهتم بهذا الأمر، هل يعني ذلك... هل تنوي التحدث إلى لوسي؟".

"أنا؟ كلا".

قال هامفري مونماوث: "هلاً عقدنا اجتماعنا أولاً واهتمنا بترتيب الزيجات لاحقاً؟ جميعنا مهتمون، سيدّ كرومويل، مثلك، ومثل الملك... جميعنا، على ما أظن"، نظر حوله، "جميعنا، بما أنّ بولفيزي رحل الآن، متعاطفون مع القضية التي استشهد في سبيلها أخونا بيتيت في الواقع، ولكن علينا الحفاظ على السلام وتجنّب التجديف...".

في إحدى الكنائس يوم الأحد الفائت، وفي لحظة رفع خبز القربان، حين بدأ الكاهن يرتل، قاطعه أحدهم وراح يغني ساخراً. وفي كنيسة مجاورة، في أثناء تذكّر القديسين، عندما بدأ الكاهن يعدّد أسماءهم: جوان، ستيفانو، ماتيا، بارنابا، إغناسيو، ألكساندرو، مارتشيلينو، بيترو...، صرخ أحدهم: "ولا تنسني أنا وابنة عمي كاي، وذك مع دلو الكوكل في سوق ليدنهول، وأخته سوزان وكلبها الصغير بوسيت".

وضع يده على يده قائلاً: "إن احتاج بوسيت إلى محام تعرف أين تجدني".

قال عجوز من شركة سكينيرز: "سيد كرومويل، أنت من دعانا إلى هذا الاجتماع، لذا، عليك أن تكون مثالاً يُحتذى في الرصانة".

قال مونماوث: "ثمّة أغانٍ تؤلّف عن الليدي آن، لا يليق ذكرها في هذا المجلس. وخدم توماس بولين يتذمّرون من الشتائم التي تكال إليهم في الشوارع ومن النفايات التي ترمى عليهم. علينا أن نفرض سيطرتنا على خدمنا، وأن نبلغ عن الكلام المسيء".

"نبلغ من؟".

أجاب: "جرّبي".

وجد جوان في أوستن فرايرز. كانت قد استعملت حجّة لتبقى في المنزل: زكام صيفي. قال لها: "أسأليني عن السرّ الذي أعرفه".

احتراماً للمظاهر، مسحت أنفها ثمّ قالت: "دعني أرى. أنت تعرف مقابل شلن ماذا يوجد في خزينة الملك".

"أعرف، مقابل فاردنغ*." ليس هذا هو السرّ، أسأليني أيّتها الأخت الحبيبة".

حين استعصت عليها معرفة الجواب، قال لها: "جون بارنيل سيتزوّج من لوس".

"ماذا؟ ولم تبرد جثة جون بيتيت بعد؟". التفتت لإخفاء ردّ فعلها. "إخوانك يتضامنون معاً. منزل بارنيل لا يخلو من المشييعين لإحدى الهرطقات. لديه خادم في سجن الأسقف ستوكسلي، كما سمعت".

أطلّ ريتشارد كرومويل من الباب. "سيدي. البرج، القرميد. خمسة شلن لكلّ ألف منها".

"كلّاً".

"صحيح".

"برأيك، يمكن أن تتزوّج من رجلٍ يمنحها أماناً أكثر".

توجّه إلى الباب. "ريتشارد، عد إلى هنا". التفت إلى جوان. "لا أظنّ أنّها تعرف أحداً".

"سيدي؟".

"أنزلها بنصف شلن، وتحقّق من كلّ قطعة. اختر بضعاً من كلّ رزمة، وتفحصها عن كذب".

كانت جوان واقفة خلفه: "على أيّ حال، قمت بعمل حكيم".

"مثلاً، خذ مقاييسها... جوان، هل تظنّين أنّي قد أتزوّج بهذا الشكل الفجائي؟

صدفة؟".

قال ريتشارد: "عفواً؟".

"لأنك حين تقيس حجمها، سيشعر المصنّعون بالذعر، وستعرف من وجوههم ما إذا كانوا يحاولون خداعك".

"أتوقّع أن تكون مهتماً لسيدة ما في القصر. فقد منحك الملك منصباً جديداً".
"أجل، عيّني مسؤولاً عن نفقات استخدام الختم الأعظم، وهو منصب في القسم المالي لمكتب المحفوظات... بالكاد يشكّل مدخلاً إلى علاقة عاطفية". ريتشارد قد رحل، وتناهى إليهما وقع قدميه على السلم. "هل تعرفين في ما أفكر؟".
"تظنّ أنّ عليك الانتظار إلى أن تصبح تلك المرأة ملكة".
"أظنّ أنّ كلفة النقل هي التي ترفع السعر، حتّى بواسطة المراكب. كان عليّ إعداد مساحة من الأرض وبناء فرن خاصّ بي".

يوم الأحد، في الأوّل من أيلول/سبتمبر في وندسور، ركعت آن أمام الملك لتنال لقب ماركيزة بيمبروك. راقبها فرسان ربطة الساق من أماكنهم، وأحاطت بها نبيلات إنكلترا. ومع أنّ الدوقة رفضت الاقتراح رفضاً قاطعاً، إلا أنّ ابنة نورفولك، ماري، حملت لها التاج على وسادة. كانت أسرتا هاورد وبولين وكأنهما في عرس. راح المونسينيور يملس لحيته، ويهزّ رأسه مبتسماً وهو يتلقّى التهاني التي يتمم بها السفير الفرنسي. قرأ الأسقف غاردينر لقب آن الجديد. كانت تضجّ حياةً بثوبها المصنوع من المخمل الأحمر وفرو القاقم، بينما استرسل شعرها الأسود حتّى خصرها. كان كرومويل قد ربّب مدخولاً من خمسة عشر قصراً لدعم منصبها.
تمّ إنشاد ترتيلة، وألقيت عظة. وحين انتهى الاحتفال، وانحنت النساء لحمل طرف ثوبها، لمح وميضاً أزرق، كطير القاوند، فنظر ليري ابنة جون سيمور الصغيرة بين نساء هاورد. رفع أحد الجياد رأسه لدى سماع صوت الأبواق، ورفعت السيّدات النبيلات رؤوسهنّ وابتسمن. ولكن، في أثناء عزف الموسيقى ومغادرة الموكب كنيسة سان جورج، أبقت وجهها الشاحب منخفضاً، ونظرها مركّزاً على أصابع قدميها، وكأنّها تخشى أن تتعثّر.

خلال الاحتفال جلست آن قرب هنري على المنصة، وحين التفتت لتتحدّث إليه، لامست رموشها السوداء خديها. لقد أوشكت على الوصول إلى مبتغاها، وكان جسدها مشدوداً مثل قوس. نُثر غبار الذهب على بشرتها، مع آثار من المشمش والعسل. وحين ابتسمت، وغالباً ما كانت تفعل، بدت أسنانها الصغيرة، البيضاء

والحادّة. كانت تخطّط لمصادرة مركب كاثرين الملكي - كما قالت له - وإحراق الشارة التي تحمل الحرفين الأولين من اسم هنري وكاثرين، وإزالة جميع آثار كاثرين عنه. كان الملك قد أرسل بطلب مجوهرات كاثرين، لتتمكّن من وضعها في الرحلة المرتقبة إلى فرنسا. كما أمضى معها عصر يوم، ويومين، وثلاثة، في طقس أيلول/ سبتمبر الجميل، ومعهما صائغ الملك يرسم لها التصاميم، وهو، بصفته مسؤولاً عن المجوهرات، يضيف الاقتراحات. فقد كانت أن ترغب في أن تُصنع لها مجموعة جديدة. في البداية، رفضت كاثرين التخلي عن المجوهرات. قالت إنّها لا تستطيع التخلي عن أملاك ملكة إنكلترا ووضعها بين يدي امرأة تشكل خزيًا على العالم المسيحي. ولم تتمكّن من وضع يدها على الغنيمة إلا بواسطة أمر ملكي.

أصبحت أن ترجع إليه في كلّ شيء. تقول له وهي تضحك: "كرومويل، أنت رجُلِي". كانت الرياح تجري كما يشتهي. صديقه أودلي سيُثبّت بالتأكيد قاضي قضاة، فالملك بدأ يعتاد عليه. أفراد الحاشية القديمة استقالوا عوضاً من خدمة آن. محاسب القصر الجديد هو السير ويليام بوليت، أحد أصدقائه من عهد وولزي. كثير من أفراد الحاشية الجدد هم أصدقاؤه من أيام وولزي، والكاردينال لم يستخدم الأغبياء.

بعد انتهاء القدّاس وجلس آن، لازم أسقف وينشستر وهو يخلع ملابسه الكنسية ويرتدي ملابس مناسبة أكثر للاحتفالات. سأله: "هل سترقص؟". جلس على حافة نافذة حجرية، يتابع جزئياً ما يدور في الباحات في الأسفل؛ العازفين الذين يحملون المزامير والمزاهر، والقيثارات والربابات، والقيثارات والطبول. "أم أنّك لم تعد ترقص بعد أن أصبحت أسقفًا؟".

تحدّث ستيفن في موضوع مختلف تماماً. "أنت تظنّ أنّه يكفي لامرأة أن تصبح ماركيزة بحكم حقّها الشخصي، أليس كذلك؟ ستستسلم له الآن. أتمنى أن تحمل بوريت منه قبل نهاية العام".

"أه، هل تتمنى لها النجاح؟".

"أتمنى أن يهدأ غضبه، وأن يؤدّي كلّ هذا إلى نتيجة، لا أن يذهب سدّي".

"هل تعرف ما يقوله شابوي عنك؟ إنّ لديك امرأتين في بيتك ترتديان ملابس

الرجال".

"حقاً؟". عبس مضيفاً: "أفترض أنّه أفضل من رجلين يرتديان ملابس النساء. لكان

هذا مشيناً". انفجر ستيفن ضاحكاً، ونزلاً معاً إلى الحفل. كان العازفون يغنون:

"التسلية مع الصحبة الجيدة، أحبّها وسأحبّها إلى أن أموت". قال الفلاسفة، الروح

موسيقية بطبيعتها. نادى الملك توماس ويات ليغني معه، وكذلك العازف مارك.
"وأسفاه على الحب، على الحب وأسفاه".

قال غاردينر: "يكتب أي شيء يفكر فيه. أرى أنه لا حدود لذلك".
قال: "الملك طيب مع من يظنون أنه طيب". قال ذلك للأسقف، وكانت الموسيقى
تغطي على صوته.

قال غاردينر: "حسناً، هذا إن كان ذهنك مرناً للغاية، كما أظنه".
تحدث إلى الأنسة سيمور. قالت له: "انظر". ورفعت كمّيتها، ليبدو له القماش
الأزرق الذي زينته به أطرافهما، ذاك الوميض الذي لفت نظره منذ قليل. كانت قد
أخذت القماش من الحرير الذي لفّ به الهدية التي قدّمها إليها. سألها عن الأحوال
في وولف هول، بمنتهى اللياقة. فكيف تسأل عن عائلة في أعقاب العلاقات
المحرّمة؟ أجابته بصوت منخفض وواضح: "السير جون بخير، ولكن السير جون
دائماً بخير".
"والباقون؟".

"إدوارد غاضب، توم قلق، والليدي أمي تصرّ على أسنانها وتصفق الأبواب.
المحصول ينبت، والتفاح يتدلى من الأغصان. الخادّات يحلبن البقر، وقسيّنا
يصلّي. الدجاجات تبيض، ومزاهرنا مدوّنة، والسير جون... السير جون دائماً بخير.
لماذا لا تقوم ببعض الأعمال في ويلتشاير وتأتي لزيارتنا؟ آه، وإن أصبح للملك زوجة
جديدة، فستحتاج إلى وصيفات لخدمتها، وأختي ليز آتية إلى القصر. زوجها هو
حاكم جيرسي، أنت تعرفه، أنطوني أوتريد؟ كان يفترض بي الذهاب إلى الملكة، أنا
نفسي، ولكنهم يقولون إنها ستنتقل مجدداً وإنّ عدد خدمها انخفض".
"لو كنت أباك... كلاً..."، أعاد صياغة جملته قائلاً: "لو كنت لأقدم إليك نصيحة،
لأوصيتك بخدمة الليدي آن".

قالت: "الماركيزة. بالطبع، من الجيد أن يكون المرء متواضعاً. وهي تحرص على
أن نكون كذلك".

"الوضع الآن صعب عليها. أظنّ أنها ستلين حين تحصل على مبتغاها". ولكنه
كان يعرف أنّ هذا غير صحيح.

خفضت جاين رأسها، ونظرت إليه من بين رموشها. "هذا هو وجهي المتواضع،
هل تظنّ أنه سينفع؟".

ضحك قائلاً: "سيأخذك حيثما تريد".

حين جلس الراقصون يستريحون، ويلوّحون لأنفسهم، بعد رقصات الغليارة والباغان والألمان*، غنى هو وويات أغنية الجنود الصغار: سكاراميلاً ذاهب إلى الحرب مع سيفه ورمحه. الأغاني تسبّب الكآبة، مهما تكن كلماتها. حين نغنيها وقت الغروب، ويغيب الصوت البشري، وحيداً، في ظلام الغرفة. سأله تشارلز براندون: "ما موضوع هذه الأغنية، أهي عن امرأة؟".

"كلاً، بل عن شابّ يذهب إلى الحرب".

"وماذا يحلّ به؟".

Scaramella fa la gala. "كانت بالنسبة إليه مغامرة ممتعة".

قال الدوق: "كانت أيام الجندية جميلة".

غنى الملك مرافقاً بالمزهر، وكان صوته قوياً، وصادقاً، وحزيناً. "مشيت في الغابات المقفرة". بكت بعض النساء، وكان هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث مع الشراب الإيطالي القوي.

في كانتربروري، استلقى رئيس الأساقفة وارهام على البلاط البارد. وُضعت قُطعتان نقديتان للمملكة على جفنيه، وكأنهما تدمغان صورة ملكه إلى الأبد في ذهنه. كان ينتظر النزول إلى قبو الكاتدرائية، في المدفن الرطب قرب عظام بيكيت. جلست آن جامدة كالتمثال وعيناها على عشيقها. لم تتحرّك سوى أصابعها القلقة. فقد وضعت في حجرها أحد كلابها الصغيرة، وأخذت تمرّر أصابعها تكراراً على شعره المجعد. ومع انطفاء آخر النغمات، أحضرت الشموع.

في تشرين الأول/أكتوبر، كنّا ذاهبين إلى كاليه، في قافلة بقوة ألفين، تمتدّ من ويندسور إلى غرينتش، ومن غرينتش عبر حقول كينت الخضراء إلى كانتربروري. للدوق حاشية من أربعين شخصاً، وللماركييزة من خمسة وثلاثين، وللايرل من أربعة وعشرين، أمّا الفيكونت فعليه أن يتدبر أمره بعشرين، وهو مع رايف وأيّ عدد من الكتبة يستطيع نقله في السفينة. كان الملك ذاهباً للقاء شقيقته فرنسا، التي تنوي التحدث إلى البابا لصالح زواجه الجديد. فقد عرض فرانسوا تزويج أحد أبنائه الثلاثة - أبنائه الثلاثة، لا بدّ من أنّ الله يحبّه كثيراً - من قريبة البابا، كاثرين دو ميديسي. وقال إنّ أحد الشروط التي سيضعها لهذا الزواج هو منع كاثرين من المغادرة لاستئناف قضيتها في روما، والسماح لشقيقته إنكلترا بتسوية مسألة زواج الملك بموجب سلطانها القضائي، وعبر أساقفتها.

سيتقابل هذان الملكان واسعا النفوذ للمرة الأولى منذ الاجتماع الذي رتبّه

الكاردينال. قال الملك إنّ الرحلة ستكلّفه أقلّ ممّا كلفته تلك المناسبة، ولكن حين سُئِلَ عن التفاصيل، طلب المزيد. أراد أن يكون كلّ شيء أكبر، وأفخم، وأكثر ترفاً. قرّر أن يأخذ معه طهاته وسريره، وزراه وعازفيه، وخيوله، وكلابه، وصقوره، وماركيزته الجديدة التي تسمّيها أوروبا خليلته. سيأخذ معه أيضاً من يملكون الحقّ بالمطالبة بالعرش بمن فيهم اللورد مونتاغ اليوركي، ونيفيل اللانكستري، ليظهر مدى انصياعهم له ومدى رسوخ حكم آل تيودور. سيأخذ معه طبقة الذهبية، وبياضاته، وطهاة الفطائر، وناقبي الدجاج، ومتذوّقي السمّ، حتّى إنّهُ سيأخذ معه شرابه الخاصّ، وهو أمر قد تظنّه غير ضروري، ولكن ماذا تعلم أنت؟

قال له رايف وهو يساعده في حزم أوراقه: "فهمت أنّ الملك فرانسيس سيتحدّث إلى روما بشأن قضية الملك. ولكن لست واثقاً ما الذي سيكسبه من هذه المعاهدة".
"كان وولزي يقول دائماً إنّ عقد المعاهدة هو المعاهدة بحدّ ذاتها. لا يهمّ ما هي البنود، بل يكفي وجودها. المهمّ هي النية الحسنة، وإن فُقدت، تفسخ المعاهدة أيّاً تكن بنودها".

المواكب هي التي تهّمّه، وتبادل الهدايا، وألعاب البولنغ الملكية، والمطاعنة، والمبارزة، والمسرحيات. فهذه ليست مقدّمات العملية، بل العملية نفسها. وأنّ، المعتادة على البلاط الفرنسي والآداب الاجتماعية الفرنسية، عرضت الصعوبات التي تنتظرهم. "لو كان البابا ينوي زيارته، يمكن لفرنسا التقدّم نحوه، ربّما ملاقاته في باحة القصر. ولكن عندما يتقابل ملكان، عليهما، ما إن يريان بعضهما بعضاً، القيام بعدد الخطوات نفسه نحو بعضهما بعضاً. وعادةً ينجح ذلك، ما لم يعمد أحد الملكين، إلى السير بخطوات صغيرة جدّاً، مجبراً الطرف الآخر على تغطية المسافة الأكبر".
انفجر تشارلز براندون قائلاً: "ربّاه! هذا تصرف ماهر، هل يمكن لفرانسيس فعل ذلك؟".

نظرت إليه آن، بجفنيها شبه المغمضين. "سيّدي اللورد سوفولك، هل الليدي زوجتك جاهزة للرحلة؟". احمرّ سوفولك غيضاً وأجاب: "زوجتي هي ملكة سابقة لفرنسا".

"أنا أدرك ذلك. سيسرّ فرانسوا لرؤيتها مجدّداً. فقد كان يجدها جميلة جدّاً، وإن كانت بالطبع أكثر شباباً حينئذٍ".

قال هنري، محاولاً تلطيف الأجواء: "شقيقتي لا تزال جميلة". ولكنّ تشارلز براندون كان يستشيط غضباً، فانفجر قائلاً بصوت كالرعد: "هل تنتظرين منّا خدمتك؟ خدمة

ابنة بولين؟ أن تلبسك قفازاتك، سيديتي، وتسكب لك طعام العشاء أولاً؟ اعرفي جيداً أن هذا اليوم لن يأتي أبداً.

التفتت أن إلى هنري، واضعة يدها على ذراعه. "إنه يهينني أمامك".
قال هنري: "تشارلز، اتركنا الآن وعد بعد أن تسيطر على أعصابك، وليس قبل ذلك". تنهّد، وأشار إلى كرومويل ليتبعه.
كان دوق سوفولك يرغي ويزبد من شدة الغيظ. اقترح عليه قائلاً: "فلنخرج لتنشق الهواء".

كان الخريف قد حلّ، والريح الباردة تهبّ من جهة النهر. رفعت مجموعة من أوراق الشجر الرطبة، التي طارت في طريقهم وكأنّها أعلام لجيش صغير. "لطالما وجدت وندسور مكاناً بارداً، ألاّ تظنّ ذلك، سيدي؟ أعني الوضع، وليس القصر فقط".
تابع بصوته الهادئ والمنخفض: "لو كنت الملك، لأمضيت وقتاً أطول في قصر ووكينغ. هل تعلم أن الثلج لا يتساقط هناك أبداً؟ على الأقل، ليس مرّة كلّ عشرين عاماً".

قال براندون، وهو يهبط سفح التلّة: "لو كنت الملك؟ إن كانت آن ستصبح ملكة، لمّ لا؟".

"أسحب كلامي. كان ينبغي لي استخدام عبارة أكثر تواضعاً".
قال براندون وهو يئنّ: "زوجتي لن تسافر أبداً في قطار تلك المومس".
"سيدي، من الأفضل أن تعتبرها عفيفة، كلنا نفعل ذلك".
"الليدي أمّها درّبتها جيداً، فهي قديمة في المهنة. ليز بولين، التي كانت ليز هاورد، هي أولى عشيقات هنري. أنا أعرف هذه الأمور لأنني أقدم أصدقائه. كان في السابعة عشرة من عمره حينها، ولم يكن يعرف شيئاً. فقد ربّاه والده وكأنّه راهب".
"ولكن لا أحد منا يصدّق هذه القصة الآن، عن زوجة المونسينيور".
"المونسينيور! يا الله".

"يحبّ هذا اللقب، لا ضير فيه".
"درّبتها شقيقتها ماري، وماري تدرّبت في بيت بغاء. فهم يفعلون أموراً مشينة في فرنسا، هل تعلم ذلك؟ الليدي زوجتي أخبرتني. في الواقع، هي لم تخبرني، بل كتبتني إليّ باللاتينية".

"سيدي... إن كانت زوجتك لا ترغب في الذهاب إلى فرنسا، إن كنت عاجزاً عن إقناعها... هل نقول إنّها مريضة؟ يمكنك فعل ذلك من أجل الملك، الذي هو

صديقك. فهذا سينقذه... "أوشك أن يقول، من لسان الليدي اللاذع. ولكنه تراجع وقال شيئاً آخر. "سيحفظ ماء وجهه".

هزّ براندون رأسه موافقاً. كانا لا يزالان متوجّهين إلى النهر، فحاول التحقّق من سرعتهما لأنّ آن ستتوقّع منه قريباً العودة بخبر اعتذار. عندما التفت إليه الدوق، بدا وجهه صورةً للبؤس. "هذا صحيح، على أيّ حال. فهي مريضة. جسدها الجميل يذوب. ولكنني أحبّها على الرغم من ذلك. أصبحت نحيلة مثل كعكة هشّة. أقول لها أحياناً: ماري، ساتي يوماً لإيقاظك، ولن أتمكن من إيجادك، سأظنّك خيطاً في بياضات السرير".

قال: "أنا آسف جداً".

فرك وجهه: "آه، ربّاه! هلاًّ عدتّ إلى هاري؟ أخبره أنّنا لا نستطيع فعل ذلك".
"سيتوقّع منك المجيء إلى كاليه، إن كانت زوجتك غير قادرة".
"لا أريد تركها".

قال: "آن حقودة. يصعب إرضائها، ولكن من السهل إثارة غضبها. سيّدي، خذ بنصيحتي".

قال براندون: "جميعنا نفعل، جميعنا مضطّرون إلى ذلك. أنت تفعل كلّ شيء، يا كرومويل. أنت كلّ شيء الآن. نتساءل كيف حدث ذلك. نسأل أنفسنا، ولكننا والله لا نجد إجابة عن هذا السؤال اللعين".

إنّها شتيمةٌ جديرةٌ بتوماس هاورد، الدوق. متى أصبح خبيراً بتفسير كلام الدوقات؟ سأل نفسه، ولكنه لم يجد جواباً على هذا السؤال اللعين. حين عاد إلى الملك والملكة المستقبلية، وجدهما ينظران إلى بعضهما بعضاً بحبّ. قال: "الدوق سوفولك يعتذر على ما بدر منه". قال الملك: "أجل، أجل. أراك غداً، ولكن ليس باكراً جداً". من يراهما يظنّ أنّهما أصبحا زوجاً وزوجة، وأنّ ليلة غرام مليئةً بالملذات الزوجية تنتظرهما. من يراهما يظنّ ذلك، ولكنّ ماري بولين أكّدت له أنّ المركيزة لم تعطِ هنري سوى حقّ لمس باطن فخذها. قالت له ماري ذلك، وليس حتّى باللاتينية. فكّما أمضت أن وقتاً بمفردها مع الملك، تخبرها بجميع التفاصيل. إنّها جديرةٌ بالإعجاب، نظراً إلى دقّتها، والقيود التي تضعها. فهي تستعمل جسدها وكأنّه جندي، وتحافظ على موارده. وكما لو كانت أحد أولئك الأساتذة في كلية التشريح في بادوا، تقسم جسدها وتسمّي كلّ جزء منه: هذه فخذي، هذه يدي، هذا لساني.

قال: "ربّما يحصل في كاليه على ما يريده".

"عليها أن تكون حريصة". ابتعدت ماري. ثم توقفت واستدارت، وبدا على وجهها الاضطراب. "تقول أن، كرومويل هو رجُلِي. لا يعجبني سماع ذلك".

في الأيام التالية، ظهرت مسائل جديدة لتورق الفريق الإنكليزي. من هي الليدي الملكية التي ستستضيف أن عندما يجتمعون بالفرنسيين؟ الملكة إليانور لن تفعل ذلك، بحكم كونها شقيقة الإمبراطور، ولأنّ ترك الملك لكاثرين هو إساءة عائلية. شقيقة فرانسيس، ملكة نافار، زعمت أنّ المرض يمنعها من استقبال عشيقة ملك إنكلترا. سألت أن: "أهو المرض نفسه الذي تعاني منه دوقة سوفولك المسكينة؟". اقترح فرانسيس أنّه قد يكون من الملائم أن تقوم دوقة فاندوم باستقبال الماركييزة الجديدة، بصفتها عشيقته.

شعر هنري بالغضب الشديد، إلى حدّ أنّه أصيب بألم في أسنانه. أتى الدكتور باتس مع صندوق الأدوية. بدا له أنّ الحلّ الأفضل هو إعطاؤه مخدراً، ولكن حين استيقظ الملك، لم يكن شعور الألم قد فارقه، إلى حدّ أنّه فكّر لبضع ساعات في إلغاء سفره. ألا يفهمون أنّ أن ليست عشيقة أحد، بل عروس الملك المستقبلية؟ ولكنّ الفهم ليس من طبيعة فرانسيس. فهو لا ينتظر امرأة يريدّها أكثر من أسبوع. أهو مثال للشهامة؟ أهو أكثر الملوك التزاماً بالدين المسيحي؟

اقترح أخيراً أنّ الحلّ هو في ترك الملكة المستقبلية في كاليه، على أرض إنكليزية، كي لا تتعرّض لأيّ إهانة، بينما يجتمع الملك بفرانسيس في بولونيا. فكاليه هي مدينة صغيرة وسيكون احتواؤها أسهل من لندن، حتّى إن اصطفّ الناس في الميناء ليصرخوا بصفات مشينة. وإن غنّوا أغانيّ مسيئة، فسندرفض فهمها بكلّ بساطة.

في كانتربوري، مع القافلة الملكية إضافة إلى المسافرين من جميع الأمم، كانت كلّ المنازل مزدحمة، من القبو وحتى الحجرات العلوية. نزل هو ورايف في مكان مريح وقريب من الملك، ولكنّ بعض اللوردات نزلوا في فنادق مليئة بالبراغيث، وفرسان في غرف خلفية لبيوت بغاء. كما اضطرّ بعض المسافرين إلى النزول في الإسطبلات وغرف الخلاء، والنوم في الهواء الطلق. لحسن الحظ، كان الطقس معتدلاً بالنسبة إلى شهر تشرين الأوّل/أكتوبر. ولو كانوا في عام قبل هذا العام، لذهب الملك للصلاة عند ضريح بيكيت، ولترك قرباناً ثميناً. ولكنّ بيكيت كان متمرداً على التاج، وليس رئيس الأساقفة الذي نوّد تشجيعه في هذه الفترة. في الكاتدرائية كان الهواء لا يزال عابقاً برائحة البخور بعد مراسم دفن وارهام، والصلوات على راحة نفسه مستمرة وكأنّها طنين آلاف خلايا النحل. وُجّهت الرسائل إلى كرانمر الذي كان في مكان ما

في ألمانيا. كانت آن قد بدأت بتسميته رئيس الأساقفة المنتخب. قال رايف: "لا أحد يعرف كم ستستغرق عودته إلى الوطن، مع سرّه".

قال: "بالطبع، سرّه المكتوب على هامش الصفحة".

زار رايف الضريح، للمرة الأولى. كانت الدهشة بادية في عينيه عند عودته، وقال إنّه مغطى بالجواهر التي يبلغ حجمها حجم بيض الإوزّ. "أعرف. هل تظنّ أنّها حقيقية؟".

"يعرضون عليك جمجمة، ويقولون إنّها جمجمة بيكيت التي سحقها الفرسان، ولكنها جُمعت بواسطة طلاء فضيّ. يمكنك تقبيلها مقابل المال. ولديهم صينية وضعوا عليها عظام أصابعه. لديهم أيضاً منديله، وجزء من حدائه، فضلاً عن قارورة يرجونها أمامك ويقولون إنّها تحتوي على دمه".

"ربّاه! أتساءل ما هو؟". بدا الاشمئزاز على وجه رايف. "بالنسبة إلى الدم، من الواضح أنّه ماء ممزوج بتراب أحمر، لأنّه يعوم فيه في كتل".

"حسناً، تناول ريشة الإوزّ لنكتب رسالة إلى ستيفن فوغان. قد نضطرّ إلى جعله يسافر لإحضار توماس كرانمر إلى الوطن".

قال رايف: "عليه الحضور بأسرع ما يمكن. انتظر، سيدي، إلى أن أغسل يديّ من بيكيت".

مع أنّ الملك لن يذهب إلى الضريح، إلّا أنّه أراد الظهور أمام الناس إلى جانب آن. غادر القّداس، ومشى بين الحشود، على الرغم من أنّه لم يُنصح بذلك، وبقي الحراس في الخلف، فيما أحاط به مستشاروه. رفعت آن رأسها فوق عنقها الهزيل، والتفتت لالتقاط التعليقات التي تمرّ قرب أذنيها. مدّ الناس أيديهم للمس الملك.

كان نورفولك يسير إلى جانبه، متصلّباً من شدّة الخوف، عيناه تنتقلان في كلّ مكان. "لا أبه لهذا العمل، سيّد كرومويل". فقد تعرّض مرّة للطعن بخنجر، لذا، كان متنبّهاً إلى أيّ حركة تحت مستوى العين. ولكنّ أقرب شيء إلى سلاح، كان رمز النصارى الديني كبير الحجم، تحمله عصبة من الرهبان الفرانسيكانيين. أفسحت لهم الحشود الطريق، ولمجموعة من الكهنة بملابسهم المميّزة، وعدد من البينيديكتيين من الدير، وفي وسطهم امرأة شابة ترتدي لباس راهبة بينيديكتيّة. "جلالة الملك؟".

التفت هنري. قال: "والله، إنّها الفتاة". اقترب الحراس، ولكنّ هنري رفع يده في وجوههم. "دعوني أراها". كانت فتاة كبيرة، ولم تكن صغيرة السنّ، ربّما في الثامنة

والعشرين من عمرها. وجهها عاديّ، داكن اللون، متحمّس، ومتورّد. تقدّمت نحو الملك، وللحظة، رآه من خلال عينيها: رأى صورة ضبابيّة ذهبية مائلة إلى الاحمرار ووجهاً متورّداً، جسد بريابي* متأهباً، يداً ضخمة تمتدّ لتأخذ بمرفقها. "مدام، ألدك ما تقولينه لي؟".

حاولت الانحناء له، ولكنّ قبضته منعتها من ذلك. قالت: "أوصى القديسون الذين أتشاور معهم، أن يُحرق المهروطقون المحيطون بك بنار عظيمة، وإن لم تُضرم تلك النار، أنت نفسك ستحترق".

"أيّ مهروطقين؟ أين هم؟ أنا لا أجمع مهروطقين حولي".
"هذه واحدة".

انكشفت آن قرب الملك، والتصقت بسترته القرمزية والذهبية، وذابت عليها كالشمع.

"وإن ارتبطت بهذه المرأة غير الجديرة بك بزواج من أيّ شكل، فلن تحكم أكثر من سبعة أشهر".

"ما بالك، مدام، سبعة أشهر؟ دورى الرقم، ألا يمكنك ذلك؟ أيّ متوقّع يقول سبعة أشهر؟".

"هذا ما قيل لي".

"وحين تتقضي الأشهر السبعة، من يحلّ مكاني؟ أخبريني، من تودّين أن يحتلّ العرش مكاني؟".

حاول الرهبان والكهنة إبعادها، لم يكن هذا جزءاً من خطّتهم. "اللورد مونتاغ هو من دم ملكي. ماركيز إكسيتير من دم ملكي". حاولت بدورها الابتعاد عن الملك. قالت: "أرى الليدي أمك محاطة بالسنة نار باهتة".

ترك هنري يدها وكأنّها حامية. "أمي؟ أين؟".

"كنت أبحث عن كاردينال يورك، لم أجده في أيّ مكان".

قالت آن: "لا شكّ في أنّها مجنونة. إنّها مجنونة وينبغي أن تُجلد. إمّا أن تُجلد أو تُشنق".

قال أحد الكهنة: "سيّدتي، إنّها امرأة تقيّة جدّاً. كلامها ملهم".

قالت آن: "أبعدها عن طريقي".

قالت الراهبة لهنري: "ستضربك صاعقة". فضحك بتشكّك.

اندفع نورفولك بين أفراد المجموعة، وكانت أسنانه مشدودة وقبضته مرفوعة في

الهواء. "أعيدها إلى بيت البغاء الذي كانت فيه قبل أن أذيقها طعم قبضتي، حباً بالله!". في ذلك الهرج والمرج، ضرب أحد الرهبان راهباً آخر برمز النصرى الدينى. أبعدت الفتاة إلى الخلف، وهي لا تزال تطلق التوقعات. ارتفع ضجيج الحشد، فأمسك هنري بذراع آن، وشدها عائداً من الطريق الذي أتوا منه. أمّا هو، فلحق بالمرأة، وظلّ على مقربة من المجموعة إلى أن تغلغل بين الحشود وأمكنه أن يربّت على ذراع أحد الرهبان طالباً التحدّث إليها. قال: "كنت خادماً لولزي. أريد أن أسمع رسالتها".

تساورا قليلاً ثمّ سمحوا له بالمرور. قالت: "سيدي؟".

"هل يمكنك أن تحاولي إيجاد الكاردينال مجدداً؟ سأقدم قرباناً".

هزّت كتفيها. قال أحد الرهبان الفرانسييسكانيين: "يجب أن يكون القربان هاماً".
"ما اسمك؟".

"أنا الأب ريسبي".

"سأكون بالتأكيد عند حسن ظنّك. فأنا رجل ثري".

"هل تريد معرفة مكان الأموات وحسب، كي تصلي لهم، أم أنّك تفكّر في وقف مال لإقامة قدايس؟".

"أيّ شيء تطلبه. هذا بالطبع إن لم يكن في الجحيم. فلا جدوى من إضاعة القدايس الجيدة على حالة ميؤوس منها".

قالت الفتاة: "سيكون عليّ التحدّث إلى الأب بوكينغ".

"الأب بوكينغ هو المرشد الروحي لهذه السيّدة".

أحنى رأسه. قالت الفتاة: "تعالّ واسألني مرّة أخرى". استدارت وضاعت بين الحشود. ذهب بعد أن ورّع بعض المال هنا وهناك، للمحيطين بها. للأب بوكينغ، أيّاً يكن هو. فكما يبدو، الأب بوكينغ هو من يضع لائحة الأسعار ويمسك الحسابات.

كلام الراهبة أغرق الملك في الكآبة. كيف يشعر المرء إن قيل له إنّ ساعة ستضربه؟ في المساء، اشتكى من ألم في رأسه، وفي وجهه وفكّه. قال لأطبائه: "اذهبوا. لم نتمكنوا يوماً من علاجه، فكيف ستجحون الآن؟". ثمّ قال لأن: "وأنت، سيّدي، اطلبي من وصيفاتك وضعك في الفراش، لا أريد التحدّث، لا أستطيع احتمال الأصوات الحادة".

تمتم نورفولك همساً: "يا لهذا الملك، دائماً يجعل من الحبّة قبة".

في أوستن فرايرز، إن أصيب أيّ كان بالأم أو التواء، يؤدّي الشباب فصلاً مسرحياً بعنوان لو كان نورفولك الدكتور باتس. أسنانك تؤلمك؟ اخلعها! آذيت إصبعك؟

اقطع يدك! رأسك يؤلمك؟ اقطعه، لديك واحد آخر.
توقّف نورفولك في طريقه إلى الخارج، وقال: "جلالة الملك، لم تقل إنّ الصاعقة
ستقتلك".

قال براندون بمرح: "بالفعل لم تقل ذلك".
"لن أموت ولكن سأخسر عرشي، لن أموت، بل سأصاب وأحترق، هل يجدر بي
أن أفرح لذلك؟". وفيما كان يتحدّث عن حاله بذلك الشكل المثير للشفقة، نادى
غاضباً أحد الخدم ليحضر الحطب، وآخر ليسخن بعض الشراب. "هل عليّ الجلوس
هنا، وأنا ملك إنكلترا، أمام نار شبه خامدة ومن دون شراب؟". بدا عليه البرد وقال:
"رأت الليدي أمي".

قال بحذر: "جلالة الملك، هل تعرف أنّ في الكاتدرائية نافذة رسمت على زجاجها
صورة الليدي والدتك؟ وحين تتخلّلها الشمس، ألن تبدو وكأنّها محاطة بالنور؟ أظنّ
أنّ هذا ما رأته الراهبة".
"أنت لا تصدّق تلك الرؤى؟".

"أظنّ أنّها لا تميّز ربّما بين ما تراه في العالم الخارجي وما هو موجود داخل
رأسها. بعض الناس كذلك. ربّما يجدر بنا أن نشفق عليها، ولكن ليس كثيراً".
عبس الملك، وقال: "ولكنني أحببت أمي". ثمّ أضاف: "كان باكينغهام يعتمد كثيراً
على الرؤى. كان لديه راهب يزوّده بالتوقّعات. قال له إنّه سيصبح ملكاً". لم يكن
يحتاج إلى أن يسمع المزيد. كان باكينغهام خائناً، وقد مات منذ أكثر من عشر
سنوات.

حين أبحر البلاط إلى فرنسا، سافر في صحبة الملك على متن السفينة سوالو (أي
السنونو). وقف على ظهر المركب يشاهد إنكلترا وهي تبتعد عن ناظره. كان دوق
ريتشموند، ابن هنري غير الشرعي، معهم، وكان يشعر بالحماسة لكونها رحلته
البحرية الأولى، ولأنّه بصحبة أبيه أيضاً. كان فيتزروي صبياً وسيماً في الثالثة عشرة
من عمره، أشقر الشعر، طويلاً بالنسبة إلى سنّه، ولكنّه نحيل، مثل هنري حين كان
أميراً شاباً على الأرجح، وواع لذاته ولمنزلته الرفيعة. قال: "سيدّ كرومويل، لم أرك منذ
سقوط الكاردينال". مرّت لحظة من الإرباك. "أنا مسرور للحال التي إلّت إليها. فقد
قيل في الكتاب الذي يحمل عنوان رجل الحاشية إنّنا غالباً ما نرى لدى أبناء الطبقة
الوضيعة مواهب فذة".

"هل تقرّ الإيطالية، سيدي؟".

"كلاً، ولكن تمّت كتابة أجزاء من ذاك الكتاب بالإنكليزية من أجلي. إنّه كتاب مفيد جداً لي". صمت قليلاً ثمّ قال: "أتمنّى"، التفت، ثمّ خفض صوته، "أتمنّى لو أنّ الكاردينال لم يموت، لأنّ دوق نورفولك هو الوصيّ عليّ الآن".

"وسمعت أنّ سموك سيتزوَّج من ابنته ماري".

"أجل، ولكنني لا أريد ذلك".

"ولماذا؟".

"لقد رأيتها، إنها مسطّحة الصدر".

"ولكنّها نكيّة، سيّدي. والوقت سيّدوي المسألة الأخرى، قبل أن تعيشا معاً. ولو قام رجالك بترجمة ذاك الجزء من كتاب كاستيليون الذي يتعلّق بسيدات الطبقة الراقية وصفاتهنّ، فأنا واثق من أنّك ستجدها جميعاً لدى ماري".

قال في نفسه، أرجو ألاّ يكون هذا الزواج مثل زواج هاري بيرسي أو جورج بولين. في ما يتعلّق بالفتاة، يقول كاستيليون إنّ كلّ ما يفهمه الرجال يمكن للنساء فهمه أيضاً، وإنّ قدرتهم على الإدراك متشابهة، وكذلك ملكاتهم، وبالطبع قدرتهم على الحبّ والكراهة. كان كاستيليون مغرماً بزوجته إيبوليتا، ولكنّها ماتت ولم يمضِ على زواجهما سوى أربع سنوات. فكتب لها قصيدة رثاء، ولكنّه كتبها وكأنّ إيبوليتا هي التي كانت تكتب: المرأة الميتة ناطقة معه.

كانت طيور النورس تصرخ في أثر السفينة وكأنّها أرواح ضائعة. صعد الملك إلى متن المركب وقال إنّ صداعه قد زال. قال: "جلالة الملك، كنا نتحدّث عن كتاب كاستيليون. هل وجدت وقتاً لتقرأه؟".

"أجل في الواقع. إنّه يثني على السبريتزاتورا، أيّ فن القيام بكل شيء على نحو جميل وحسن من دون بذل أيّ جهد. وهذه صفة ينبغي للأمرء تنميتها أيضاً".

أضاف، بشيء من التشكّك: "الملك فرانسيس يتحلّى بها".

"أجل، ولكن بالإضافة إلى السبريتزاتورا، على المرء أن يمتاز بالقدرة على ضبط نفسه في الأماكن العامّة. كنت أفكّر في طلب ترجمة الكتاب وتقديمه هدية إلى اللورد نورفولك".

لا شكّ في أنّ صورة توماس هاورد في كانتربروري، وهو يهدّد بلحم الراهبة، لم تقارق ذهنه. ابتسم هنري وقال: "عليك فعل ذلك".

"هذا إن لم يعتبرها ملامة. فكاستيليون ينصح الرجال بعدم تجعيد شعرهم أو نتف حواجبهم، وكما تعلم الدوق يفعل الاثنين".

عس الأمير الصغير قائلاً: "سيدي اللورد نورفولك؟". انفجر هنري ضاحكاً من دون أن يبذل أيّ عناء لكبح ردّ فعله، وأعجبه ذلك. تعالَى صرير من خشب السفينة تحت أقدامهم. فثبّت الملك نفسه واضعاً يده على كتفه. نفخت الرياح الأشرعة، وتراقصت أشعة الشمس فوق صفحة المياه. "ساعة أخرى ونصل إلى الميناء".

كانت كاليه آخر معاقل إنكلترا في فرنسا، وهي مدينة يملك فيها كثيراً من الأصدقاء، والزبائن. كان يعرفها، يعرف وترغيت ولانترن غايت، كنيسة سان نيكولا وكنيسة السيّدة العذراء، ويعرف أبراجها وحصونها، أسواقها وساحاتها وأرصفتها، ويعرف فندق ستايل إن، الذي كان يقطن فيه الحاكم، ومنازل عائلتي واينهيل وونغفيلد، التي كانت تمتاز بحدائقها الجميلة، بحيث عاش سكانها بسلام بعيداً عن إنكلترا التي قالوا إنهم ما عادوا يفهمونها. كان يعرف الحصون المتداعية، وما وراء أسوار المدينة، أراضي البيل، غاباتها، وقراها، ومستنقعاتها، سدودها، وخنادقها، وأقنيتها. كان يعرف الطريق المؤدّي إلى بولونيا، والطريق إلى غرافلين، وهي أرض الإمبراطور، كما يعرف أنّ أيّاً من الملكين، فرانسيس أو تشارلز، يمكنه الاستيلاء على هذه المدينة بضربة حازمة واحدة. استمرت سيطرة الإنكليز على المدينة لمئتي عام، ولكنك تسمع الآن الناس في الشوارع يتكلمون الفرنسية والفلمنكية أكثر ممّا يتكلمون الإنكليزية.

ألقي الحاكم التحيّة على جلاله الملك. كان اللورد بيرنيرز، الجندي القديم والعالم، نموذجاً للفضيلة قديمة الطراز، ولو لم يكن يعرج، أو يظهر عليه القلق الواضح حول النفقات الباهظة التي سيتكبّدها، لبدا أنّه خرج مباشرة من كتاب رجل الحاشية. حتّى إنّه رتب كي ينزل الملك والماركيزة في غرفتين يصل بينهما باب داخلي. قال: "أظنّ أنّ هذا الأمر سيكون ملائماً جدّاً، سيدي، ما دام ثمة مزلاج محكم الإقفال من الجانبين".

فقد قالت له ماري قبل أن يغادروا اليايسة: "حتّى الآن لم تقبل، ولكنّها الآن ستقبل، وهو من سيرفض. إذ قال لها إنّه يريد أن يحرص على أن يولد الطفل الذي قد تتجبه ضمن إطار الزوجيّة".

كان ينوي الملكان اللقاء لخمسة أيّام في بولونيا ومن ثمّ لخمسة أيّام أخرى في كاليه. انزعجت آن من فكرة تركها. استطاع أن يرى من خلال تمللها أنّها تعرف أنّ هذه الأرض متنازع عليها، وأنّ ما يحصل فيها لا يمكن توقّعه. في تلك الأثناء كان لديه عمل خاصّ لإتمامه. فترك حتّى رايف وراءه، وانسحب متوجّهاً إلى فندق في

ساحة خلفية من شارع كالكويل.

* * *

كان مكاناً وضيعاً، تفوح منه رائحة دخان الخشب، ورائحة السمك والرطوبة. رأى على حائط جانبي مرآة مموجة لمح عليها انعكاس وجهه الشاحب. كانت عيناه وحدهما تتبضان بالحياة. للحظة، صدمه المشهد. فالمرء لا يتوقع رؤية صورته في كوخ كهذا.

جلس إلى طاولة وانتظر. بعد خمس دقائق، شعر باضطراب في الهواء في الجزء الخلفي من الغرفة، ولكن لم يحدث شيء. توقع أن يتأخروا عليه. لتمضية الوقت، راجع في ذهنه المبالغ التي استلمها الملك العام الماضي من دوقية كورنوال. وكان على وشك الانتقال إلى المبالغ التي وردت من أمين خزانة تشيستر، حين ظهر شكل داكن، اتضح بعد قليل أنه رجل عجوز يرتدي ملابس داكنة اللون. سار إلى الأمام، ثم لحق به اثنان آخران. لا يمكن تمييز واحد منهما عن الآخر: سعال أجوف، ولحي طويلة. جلسوا على مقعد مقابل، وفقاً لأسبقية تقاضوا عليها بالهمهمة. كان يكره الخيميائيين، وقد بدا له هؤلاء وكأنهم خيميائيون. فملا بسهم ملوثة ببقع غريبة، وأعينهم دامعة، ويشهقون بأنوفهم وكأنهم يعانون من تحسس سببته الأبخرة. ألقى عليهم التحية بالفرنسية. ارتعدوا، وسأل أحدهم باللاتينية إن كانوا سيحصلون على شرابهم. نادى الصبي، وسأله من دون كثير من الأمل ماذا لديه. فقال الصبي: "لم لا تشربون في مكان آخر؟".

وُضِعَ أمامهم إبريق يحتوي على شراب. ترك الرجال يرتوون قبل أن يسأل: "أيكم هو الأستاذ كاميلو؟".

تبادلوا النظرات، واستغرقوا بعض الوقت قبل أن يجيب أحدهم: "الأستاذ كاميلو ذهب إلى البندقية".

"لماذا؟".

سمع بعض السعال. "من أجل استشارات".

"ولكنه ينوي الرجوع إلى فرنسا؟".

"على الأرجح".

"الشيء الذي تملكونه، أريده من أجل سيدي".

حل الصمت. تساءل: ماذا لو أخذت الشراب إلى أن يقول شيئاً نافعاً؟ ولكن أحدهم استبق الأمر، وخطف الإبريق. ارتعشت يده وانسكب الشراب على الطاولة. فصدر عن الآخرين أنين احتجاج.

قال: "ظننت أنكم قد تحضرون رسومات".

تبادلوا النظرات. "آه، كلاً".

"ولكن ثمة رسومات؟".

"لا شيء من هذا القبيل".

بدأ الشراب المسكوب يغور في شقوق الطاولة. جلسوا يشاهدون ذلك يحدث بصمت وكآبة. انشغل أحدهم بإدخال إصبعه في شق في كمّه أحدثته عتّة.

نادى الغلام طالباً إبريقاً آخر. قال المتحدث باسمهم: "لا نريد إزعاجك. عليك أن تفهم أنّ الأستاذ كاميلو هو الآن في حماية الملك فرانسيس".

"هل ينوي صنع مخطّط له؟".

"هذا وارد".

"مخطّط عملي؟".

"كلّ مخطّط هو بطبيعته مخطّط عملي".

"إن لم يجد شروط عمله مرضية، فسيسرّ سيّدي هنري باستقباله في إنكلترا".

حلّ صمت آخر إلى أن أحضر الإبريق ورحل النادل. هذه المرّة، صبّ الشراب بنفسه. تبادل الرجال العجائز النظرات، وقال أحدهم: "يظنّ المعلم أنّه لن يحبّ

المناخ الإنكليزي، الضباب. كما أنّ الجزيرة بأكملها حافلة بالمشعوذين".

لم تكن المقابلة مرضية، ولكن عليه أن يبدأ من مكان ما. في أثناء مغادرته قال للنادل: "يمكنك الذهاب لمسح الطاولة".

"يمكنني الانتظار إلى أن يقضوا على الإبريق الثاني، سيّدي".

"صحيح. خذ لهم بعض الطعام. ماذا لديك؟".

"حساء، ولكنني لا أنصح به".

"هل تعرف القراءة؟".

"قليلاً".

"والكتابة؟".

"كلّاً، سيّدي".

"عليك أن تتعلّم. في هذا الأثناء، استخدم عينيك. أريد أن أعلم إن أتى شخص آخر للتحدّث إليهم، أو إن أحضروا رسومات، أو أوراقاً، أو أيّ شيء من هذا القبيل".

سأله الشاب: "ما الأمر، سيّدي؟ ماذا يبيعون؟".

أوشك أن يجيبه. ما الضيّر من ذلك؟ ولكنّه لم يستطع إيجاد الكلمات المناسبة.

في أثناء المحادثات التي كانت تجري في بولونيا، تلقى رسالة تفيد أنّ فرانسيس يودّ التحدّث إليه. فكّر هنري في الأمر ملياً قبل أن يعطيه الإذن بذلك. فالملوك لا يتعاملون وجهاً لوجه إلا مع ملوك مثلهم، ولوردات، ورجال دين رفيعي المستوى. منذ أن وصلا إلى اليايسة، تعامل معه براندون وهاورد ببرود، مع أنّهما كانا ودودين على متن السفينة، وكأنّهما يريدان أن يوضحا للفرنسيين أنّ منزلته ليست ذات أهمية. ادّعى أنّه مجرد نزوة من نزوات هنري، مستشار جديد سرعان ما سيختفي ليحلّ مكانه فيكونت، أو بارون، أو أسقف.

قال له المبعوث الفرنسي: "هذه ليست مقابلة رسميّة".
أجاب: "كلاً، أفهم ذلك، لا شيء من هذا القبيل".

جلس فرانسيس ينتظر، ولم يكن برفقته سوى زمرة من رجال الحاشية، في تلك المقابلة غير الرسميّة. كان رجلاً طويلاً وهزيلاً، مرفقاه وركبته بارزة في الهواء، وقدماه الكبيرتان الهزيلتان تتمللان داخل خفّ واسع مبطن. قال: "كريمويل، والآن، دعني أفهمك. أنت ويلزي".
"كلاً، جلالة الملك".

تفحصه تكراراً بعينيه الكئيبتين. "لست ويلزياً".

رأى الصعوبة التي يواجهها الملك الفرنسي. فكيف حصل على جواز مرور إلى البلاط، ما لم يكن من إحدى العائلات المتواضعة التابعة لأسرة تيودور. "الكاردينال الراحل هو الذي أدخلني في أعمال الملك".

قال فرانسيس: "أجل، أعرف ذلك. ولكنني ظننت أنّ ثمة أمراً آخر".

أجابه ببرود: "هذا ممكن، جلالة الملك، ولكن ليس السبب بالتأكيد كوني ويلزياً".
لمس فرانسيس طرف أنفه المعقوف، وحناه أكثر نحو ذقنه. اختر أميرك: لن تحبّ النظر إلى هذا الأمير كلّ يوم. هنري أكثر كمالاً، بجسده الممتلئ، الوردي والأبيض.
قال فرانسيس، وهو ينظر بعيداً: "يقولون إنّك حاربت دفاعاً عن شرف فرنسا".
غاريليانو: نظر إلى الأسفل للحظة وكأنّه يتذكّر حادثة سيئة جداً وقعت في الشارع، سُحقت فيها الأطراف وشوّهت. "كان يوماً مشؤوماً".

"مع ذلك... هذه الأمور تمضي. من يتذكّر الآن أجينكورت؟*"

كاد يضحك. أجاب: "هذا صحيح. جيل أو جيلان، أو ثلاثة... أربعة... وهذه الأمور ليست بذات أهميّة".

قال فرانسيس: "يقال إنّك على علاقة جيّدة بتلك السيّدة". ثمّ أضاف: "أخبرني، فأنا

أشعر بالفضول، ماذا يظنّ أخي الملك؟ هل يظنّ أنّها عذراء؟ بالنسبة إليّ، أنا لم أجربها أبداً. فحين كانت هنا في القصر كانت صغيرة السن، ومسطّحة مثل لوح من الخشب. أمّا شقيقتها...".

ودّ لو يستطيع إيقافه، ولكن ليس من الممكن مقاطعة ملك. مرّ بصوته على جسد ماري العاري، من ذقنها حتّى أصابع قدميها، ثمّ قلبها وكأنّها قطعة من الكعك وفصل الجهة الأخرى، من عنقها حتّى عقبيها. أعطاه أحد مرافقيه منديلاً مربعاً ناعماً، وحين انتهى مسح برفق زاوية فمه، وأعاد المنديل.

قال فرانسيس: "حسناً، هذا يكفي. أرى أنّك لن تقرّ أنّك ويلزي، لذا، هنا تنتهي نظريّاتي". ارتفعت زاويتا فمه، وتحرك مرفقاه قليلاً، وانتفضت ركبتاه، انتهت المقابلة غير الرسميّة. قال: "سيدّ كريمويل، قد لا نلتقي مجدداً. نجاحك قد لا يدوم. لذا، تعال وأعطني يدك، مثل جندي فرنسي. ولا تتسني في صلواتك".
انحنى قائلاً: "سأصلي دائماً من أجلك، سيدي".
في أثناء رحيله، تقدّم أحد رجال الحاشية، وتمتم قائلاً: "هدية من جلالة الملك"، ثمّ ناوله زوجاً من القفازات المطرزة.

* * *

افترض أنّ رجلاً آخر كان ليسرّ بالهدية ويجربها. أمّا هو، فضغط على الأصابع، ووجد ما يبحث عنه. هزّ القفاز بلطف، وأغلق يده على ما سقط منه.
ذهب مباشرة إلى هنري. وجده يلعب البولينغ في الشمس مع بعض اللوردات الفرنسيين. في إمكان هنري أن يجعل من لعبة البولينغ مباراة حماسية مع كثير من الضجيج والصياح. نظر إليه الملك وسأله بعينيه: "حسناً؟". فأجابه بعينيه: "على انفراد". قال الملك: "لاحقاً"، ولم تُلفظ كلمة واحدة، ولكنّ الملك استمرّ بالمزاح والصياح، ثمّ استقام وراقب كرتة وهي تنزلق فوق العشب المجزوز، وأشار نحوه. "هل ترون مستشاري؟ أحرّكم من اللعب معه يوماً. فهو لن يحترم أصولكم. ليس لديه شعار نبالة، ولا اسم، ولكنّه يظنّ أنّه ولد ليربح".

قال أحد اللوردات الفرنسيين: "الخسارة بلباقة هي فنّ ينبغي لكلّ سيّد تسميته".
قال: "أتمنى تسميته أنا أيضاً. إن رأيت مثلاً يمكنني اتباعه، أتمنى أن تدلني عليه".

فكما لاحظ، جميعهم ينوون الفوز في هذه اللعبة، ونيل قطعة ذهب من ملك إنكلترا. ربّما أمكنني أن أصدر له عملة رمزيّة لا يمكن استبدالها إلاّ شخصياً في مكتب في ويستمينستر، تتمّ وفقاً لمعاملات صعبة، ورسوم، وختم خاصّ. هذا سيوفّر

علينا بعض المال.
ولكن كرة الملك تحركت بسلاسة نحو هدفها. كان هنري يربح اللعبة أصلاً. علا
تصفيق مهذب من قبل الفرنسيين.

حين انفرد بالملك، قال: "إليك شيئاً سيعجبك".
كان هنري يحبّ المفاجآت. نخس بسبابته الضخمة، بظفره الإنكليزي النظيف
والوردي، الياقوتة الموضوعة على ظاهر يده. قال: "إنه حجر كريم، أنا خبير في
هذه الأشياء". سأله بعد صمت قصير: "من هو الصائغ الأساسي هنا؟ اطلب منه
الاهتمام بي. إنه حجر داكن، وسيعرفه فرانسيس حين يراه مجدداً. سأضعه في
إصبعي قبل انتهاء الاجتماعات. على فرنسا أن ترى كيف يعاملني خدمي". كان في
مزاج جيد جداً. "ولكن سأعطيك قيمته". هزّ رأسه ليصرفه. "بالطبع، ستتفق مع
الصائغ ليرفع من القيمة، وتقسم الربح معه... ولكنني سأترك لك الحرية في هذه
المسألة".

سيطر على أعصابك.
ضحك الملك. "كيف أتق برجل وأسلمه أعماله، إن كان غير قادر على إدارة
أعماله؟ يوماً ما سيعطيك فرانسيس هبة سخية، عليك أخذها. بالمناسبة، ماذا
سألك؟".

"سألني إن كنت ويلزياً. بدا السؤال هاماً بالنسبة إليه، وشعرت بالأسف لأنني
خيّبت أمه".

قال هنري: "أه، أنت لا تخيب الآمال. ولكن حين تفعل ذلك سأخبرك".
ساعتان، ملكان. ماذا تعلم، يا والتر؟ وقف في الهواء المالح، يتحدث إلى أبيه
الميت.

حين عاد فرانسيس مع نظيره الملك إلى كاليه، كانت آن هي من دعتة إلى الرقص
بعد وليمة العشاء الكبيرة. كان خذاها متوردين، وعيناها تلمعان خلف قناعها الذهبي.
وحين خفضت القناع ونظرت إلى ملك فرنسا، كان على وجهها نصف ابتسامة
غريبة، غير بشرية تماماً، وكأنّ خلف القناع قناعاً آخر. كان من الممكن رؤية
الدهشة على فمه المفتوح، ولعابه الذي بدأ يسيل. شبكت أصابعها بأصابعه، وقادته
إلى مقعد قرب النافذة. تحدّثا بالفرنسية لساعة من الزمن، وهما يتهامسان، وكان رأسه
الداكن مائلاً نحوها. ضحكا أحياناً، وهما ينظران في عيني بعضهما بعضاً. لا شكّ
في أنّهما كانا يتحدّثان عن الحلف الجديد، وبدا أنّه يعتقد بوجود حلف آخر تخفيه

تحت ثوبها. رفع فرانسيس يدها، ولكنها شدتها، وحاولت مقاومته قليلاً. كان الجميع يعرفون أنّ فرانسيس خضع مؤخراً للعلاج بالزئبق، ولكنّ أحداً لم يعرف ما إذا نجح العلاج.

كان هنري يراقص زوجات شخصيات بارزة في كاليه. أمّا تشارلز براندون، الذي نسي زوجته المريضة، فكان يدفع شريكته إلى الصراخ وهو يرميهنّ في الهواء بحيث تتطاير أثوابهنّ. ولكنّ نظر هنري كان يقع باستمرار على آن، وفرانسيس. وبدا جسده متصلباً من الخوف، ووجهه المبتسم ينمّ عن القلق الشديد.

فكرّ أخيراً: عليّ وضع حدّ لهذا. وتساءل ما إذا كان، بصفته واحداً من الرعيّة، يحبّ ملكه فعلاً.

بحث عن نورفولك فوجده في الزاوية المظلمة التي يختبئ فيها، خوفاً من أن يُطلب منه مراقبة زوجة الحاكم. "سيّدي، أحضر ابنة أختك. لقد قامت بما يكفي من الواجبات الدبلوماسية، وملكنا بدأ يشعر بالغيرة".

"ماذا؟ ممّ يتذمر الآن بحق الله؟". ولكنّ نورفولك أدرك ما يحدث بنظرة واحدة فستم، وعبر الغرفة، بين الراقصين وليس من خلفهم. أمسك برسغ آن، مبعداً إياه وكأنّه يوشك أن ينتزعه. "عن إذنك، جلالة الملك، سيّدي، هل تسمحين لي بهذه الرقصة". أجبرها على الوقوف. رقصا، مع أنّ تلك الرقصة لم تكن تشبه أيّ رقصة في هذه القاعة. كان الدوق من جهته يتقلّب بعنف والشرر يتطاير من عينيه، أمّا هي، فكانت تثب بوجهها الشاحب، وتطوي إحدى ذراعيها وكأنّها جناح مكسور.

نظر إلى هنري. بدا على وجه الملك الرضى. كان ينبغي معاقبة آن، ومَنْ أصلح من خالها للقيام بتلك المهمّة؟ اقترب اللوردات الفرنسيون من بعضهم بعضاً وأخذوا يضحكون بصوت خافت. أمّا فرانسيس، فنظر إليهما بعينيه المتقلّصتين.

في تلك الليلة، انسحب الملك باكراً، وصرف حتّى سادة مجلسه الخاصّ. ولم يبق سوى هنري نوريس، يدخل ويخرج، وخلفه خادم يحمل الشراب الفرنسي، والفاكهة، بطانية كبيرة، ومن ثمّ بعض الجمر، فقد أصبح الطقس بارداً. والنساء بدورهنّ أصبحن سريعات الانفعال. سُمع صوت آن المرتفع، صفقت الأبواب. وبينما كان يتحدّث إلى توماس ويات، أتت نحوه السيّدة شيلتون. "تريد الليدي كتاباً مقدّساً!".

قال ويات: "يامكان السيّد كرومويل تلاوة العهد الجديد بأكمله".

بدا الانزعاج على وجه الفتاة. "أظنّ أنّها تريده كي تقسم عليه".

"في تلك الحال، لن أفيدها بشيء".

قبض ويات على يديها. "من سيدقنك الليلة، أيتها الشابة؟". ابتعدت عنه، وذهبت
تبحث عن الكتاب. "سأخبرك من: هنري نوريس".
نظر إلى الفتاة وهي راحلة. "هل تجذب كثيراً من الرجال؟".
"لقد كنتُ محظوظاً".
"الملك؟".

"ربّما".
"مؤخراً؟".
"كانت آن انتزعت قلبيهما وأحرقتهما".
شعر بأنه يجب ألا يبتعد، في حال أرسل هنري بطلبه. فجلس في إحدى الزوايا
يلعب الشطرنج مع إدوارد سيمور. بين نقلتين، قال له: "شقيقتك جاين...".
"مخلوق صغير غريب، أليس كذلك؟".
"كم عمرها".

"لا أدري... عشرون تقريباً؟ كانت تمشي في وولف هول وهي تقول: هذان كُما
توماس كرومويل، ولم يعرف أحد عمّا تتحدّث". ضحك مضيئاً: "كانت سعيدة جداً
بنفسها".

"هل خطّط والدك لزوجها؟".
نظر إليه: "كان ثمّة كلام. لماذا تسأل؟".
"أتسامر معك وحسب".

دخل توم سيمور من الباب. قال لأخيه: "مساء الخير، جدّي". نزع قبعته وشعث
شعره. "ثمّة نساء بانتظارنا".

نفض إدوارد قبعته قائلاً: "صديقي هنا لا ينصحنا بذلك. يقول إنهنّ مثل النساء
الإنكليزيات، ولكن أكثر قذارة".
سأل توم: "يتحدّث عن خبرة؟".

اعتمر إدوارد قبعته مجدّداً. "كم عمر شقيقتنا جاين؟".
إحدى وعشرون، أو اثنتان وعشرون سنة. لماذا؟".
نظر إدوارد إلى لوح الشطرنج، ومدّ يده إلى الملكة. لاحظ أنّه عالق. نظر إليه
بتقدير. "كيف فعلت ذلك؟".

جلس لاحقاً أمام صفحة بيضاء من الورق. كان ينوي كتابة رسالة إلى كرانمر
ورميها في مهب الريح، لتبحث عنه في أوروبا. تناول القلم، ولكنّه لم يكتب. استعداد

في ذهنه حديثه مع هنري، حول حجر الياقوت. ظنّ الملك أنّه قد يشارك في عملية غشّ، كما كان يفعل قديماً، حين كان يعتق تماثيل كوبيد وبييعها إلى الكرادلة. ولكنّ الدفاع عن النفس ضدّ هذه الاتهامات جعله يبدو مذنباً. إن لم يكن هنري يثق به تماماً، فهل هذا أمر مثير للاستغراب؟ فالأمير وحده، في مجلس الشورى، في غرفة نومه، وأخيراً في الغرفة المؤدية إلى الموت المحتم، عارياً، كما قال هاري بيرسي.

هذه الزيارة جمعت خلافاً للبلاط ومؤامراته، وحبستها بين جدران هذه البلدة الصغيرة. أصبح المسافرون مقربين من بعضهم بعضاً مثل رزمة من أوراق اللعب، متجاورين، ولكنّ أعينهم الورقيّة عمياء. تساءل أين يكون توم ويات، وفي أيّ ورطة هو. لم يظنّ أنّ في استطاعته النوم، ولكن ليس بسبب قلقه على ويات. ذهب إلى النافذة. بدا القمر وكأنّه يشعر بالخزي، يجرّ خلفه أذيالاً من الغيوم السوداء.

كانت الحديقة، مضاءة بالمشاعل، ولكنّه ابتعد عن الضوء. كان صوت الأمواج ثابتاً وملحاً مثل دقائق قلبه. أدرك أنّه لم يكن وحيداً في هذا الظلام، وبعد لحظة، سمع خطى تقترب، وحفيف ثوب، أعقبته شهقة خفيفة، ويد تنزلق تحت ذراعه. قالت ماري: "أنت".

"أنا".

"هل تعرف أنّهما نزعا الأقفال عن الباب الذي يفصل بينهما؟" ضحكت، من دون رحمة. "إنّها بين ذراعيه الآن ولم تعد تستطيع تبديل رأيها".
"ظننت أنّهما سيتشاجران الليلة".

"لقد فعلا، فهما يحبّان الشجار". ادعت أنّ نورفولك كسر ذراعها. نعتها هنري بصفات مشينة، قال إنّها ماغدالين، وأسماء أخرى لا أتذكرها، أظنّ أنّها لسيدات رومانيات. ليس لوكريس".

"كلاً. على الأقلّ، لا أرجو ذلك. لماذا أرادت الكتاب المقدّس؟".
"كي تقسم له أمام شهود، أنا ونوريس. أعطاهَا وعداً ملزماً. أصبحا متزوّجين أمام الله. وأقسم إنّهُ سيتزوّجها مجدداً في إنكلترا ويتوّجها ملكة عند حلول الربيع".
تذكّر ما قالته الراهبة في كانتربوري: إن ارتبطت بهذه المرأة غير الجديرة بك بزواج من أيّ شكل، فلن تحكم أكثر من سبعة أشهر.

قالت ماري: "والآن، يتوقّف الأمر على ما إذا كان سيتمكّن من إتمام العمل".
أخذ يدها قائلاً: "ماري لا تخيفيني".
"هنري خجول. يظنّ أنّ المرأة تتوقّع منه أداءً ملكياً. ولكن إن شعر بالخجل،

فستعرف أن كيف تساعده". أضافت بحذر: "ما أعنيه، أنني نصحتها". وضعت يدها على كتفه، وسألته: "والآن، ماذا عنّا؟ لقد كافحنا كثيراً للوصول إلى هنا. أظنّ أننا نستحقّ عطلة".

لم يجبها بشيء.

"ألا تزال خائفاً من خالي نورفولك؟".

"ماري، أنا مرعوب من خالك نورفولك".

مع ذلك، لم يكن هذا هو السبب الذي جعله يتردد، من دون أن يبتعد على الفور. لامست شفاتها شفتيه. سألته: "فيم تفكر؟".

"كنت أفكر في أنني لو لم أكن أكثر خدم الملك إخلاصاً له، لكنت الآن ربّما على متن أول مركب خارج من هنا".

"والى أين كنّا سنذهب؟".

لا يذكر أنه دعا أحداً. "إلى الشرق، مع أنني لا أظنّ أنّها ستكون نقطة انطلاق جيّدة". قال في نفسه: إلى الشرق بعيداً عن آل بولين، وبعيداً عن الجميع. كان يفكر في البحر المتوسّط، وليس في هذه البحار الشمالية، وفي ليلة معينة، ليلة دافئة في منزل في لارنكا: أنوار البندقية تفيض على صفحة المياه الخطرة، وقع قدمي خادم على البلاط، رائحة البخور والكزبرة. أحاط ماري بذراعه، ولامس شيئاً ناعماً، غير متوقّع على الإطلاق، فراء ثعلب. قال لها: "أحسنت فعلاً".

"آه، لقد أحضرنا كلّ شيء، كلّ الملابس، تحسّباً في حال بقينا هنا حتى الشتاء".

سمع صوتاً خلفه. استدار، والخنجر بيده. صرخت ماري وشدّت ذراعه. حطّ طرف الخنجر على سترة رجل تحت عظم صدره. قال صوت إنكليزي واضح ومنزعج: "حسناً، حسناً، أبعد هذا الشيء".

قالت ماري: "ربّاه، كدت أن تقتل ويليام ستافورد".

دفع الغريب إلى الضوء. لم يرجع الخنجر، حتى رأى وجهه. لم يكن يعرف من هو ستافورد، أهو مربّي جياذ أحدهم؟ قالت ماري: "ويليام، ظننت أنّك لن تأتي".

"لو لم أفعل، يبدو أنّ لديك احتياطي".

"أنت لا تعرف كيف هي حياة المرأة؟ تظنّ أنّها رتبت موعداً مع رجل، ثمّ تكتشف أنّها لم تفعل. يقول إنّه سيلاقيها، ولكنّه لا يأتي".

كانت صرخة من القلب. قال: "تصبحان على خير". التفتت إليه ماري وكأَنَّها

تقول، آه، لا تذهب. "حان الوقت لأتلو صلواتي".

هبت رياح من البحر الضيق، فخفت أشعة المراكب الراسية في الميناء، وارتفع صرير من نوافذ المنازل. اعتقد أنها قد تمطر في اليوم التالي. أشعل شمعة وعاد إلى رسالته، ولكن تلك الرسالة لم تجذبه. تطايرت أوراق من الحديقة والبساتين. تحركت صور في الهواء خلف الزجاج، ورفرفت طيور النورس وكأنها أشباح: ومضة من الغطاء الأبيض الذي كانت تضعه زوجته إليزابيث وهي تتبعه إلى الباب في صباح يومها الأخير. ولكنها لم تفعل، بل كانت نائمة، بين الأغشية الرطبة، تحت اللحاف الأصفر المضرب. حين يفكر في القدر الذي أحضره إلى هنا، يفكر أيضاً في القدر الذي أوصله إلى ذلك الصباح قبل خمس سنوات، حين خرج من أوستن فرايرز زوجاً، يحمل تحت إبطه ملفات تحتوي على أوراق وولزي. هل كان سعيداً حينذاك؟ لا يدري.

تلك الليلة التي أمضاها في قبرص، والتي مضى عليها زمن طويل، كان على وشك تقديم استقالته إلى المصرف الذي يعمل فيه، أو على الأقل، طلب رسائل تعريف للذهاب شرقاً. كان تواقاً إلى رؤية الأراضي المبلّجة، حياتها النباتية وشعبها، وتقبيل الأحجار التي مشى عليها الحواريون، والمساومة في الأحياء الخفية لمدن غريبة، وفي الخيم السوداء التي تنتقل في زواياها نساء يرتدين الخمار. تلك الليلة، كان قدره متوازناً حين نظر إلى أضواء الميناء، سمع في الغرفة خلفه ضحكة امرأة عالية، وصوتها الناعم وهي تقول الحمد لله وتهزّ أحجار النرد العاجية في يدها. سمعها وهي ترميها، وسمع الأحجار وهي تتدحرج وتتوقف: "كم؟".

الشرق عالٍ، والغرب منخفض.

"ثلاثة وثلاثة".

أهذا منخفض؟ إنه كذلك. لم يدفعه القدر، بل ربّت بلطف على ظهره. "عليّ العودة إلى الوطن".

"ولكن ليس الليلة". فقد تأخر الوقت بالنسبة إلى المدّ.

في اليوم التالي، وقف ملتفتاً نحو أوروبا. كان الوطن حينئذٍ منزلاً ضيقاً متداعياً عند قناة هادئة. كانت أنسيلما راکعة، لا ترتدي سوى قميص نومها الطويل الأخضر، والذي كان يميل إلى السواد في ضوء الشموع. كانت راکعة أمام المذبح الفضيّ الصغير الذي تنقيه في غرفتها، والذي كان عزيزاً على قلبها، كما قالت له، أعزّ ما تملك. قالت له: "اعذرنى للحظة واحدة". صلت بلغتها الخاصة، المتملّقة حيناً، والمتوعّدة حيناً آخر، ويبدو أنها انتزعت من تماثيلها الفضية شيئاً من اللين، أو رأت

انحرافاً ما في استقامتهم البرّاقة، لأنّها وقفت والتفتت إليه قائلة: "أنا جاهزة الآن"،
وفكّرت رباط رداؤها الحريري، ليأخذها بين يديه...

قدّاس الصباح

تشرين الثاني/نوفمبر 1532

وقف رايف فوقه قائلاً إنّها الساعة السابعة، وقد ذهب الملك إلى القدّاس. كان قد نام في سرير من الكوابيس. "لم نشأ إيقاظك، فأنت لا تنام أبداً حتّى ساعة متأخرة".

كانت الرياح تُهسّس في المدافئ. راح المطر يتساقط كالحصى على النافذة، يبتعد، ثمّ ينهمر مجدّداً. قال: "يمكننا البقاء في كاليه لبعض الوقت".

حين ذهب وولزي إلى فرنسا، قبل خمس سنوات، طلب منه مراقبة الوضع في القصر وكتابة تقرير إليه حين ينام الملك مع آن. سأله: "كيف أعرف متى يحدث ذلك؟". فأجاب الكاردينال: "أظنّ أنّك ستعرف من وجهه".

كانت الرياح قد هدأت، وتوقّف المطر حين وصل إلى الكنيسة. ولكنّ الشوارع أصبحت موحلة، والناس الذين ينتظرون لرؤية اللوردات وهم يخرجون لا يزالون يغطّون رؤوسهم بمعاطفهم، وكأنّهم مخلوقات بلا رؤوس. أقحم نفسه بين الحشود، وراح يهمس بالفرنسية بين السادة المتجمعين: رجاءً، الأمر عاجل، أفسحوا الطريق لخاطئ كبير. فضحكوا وسمحوا له بالمرور.

خرجت آن شابكة ذراعها بذراع الحاكم. بدا عليه التوتر، وكأنّ مفاصله تؤلمه، ولكنّه كان منتبهاً إليها، يتمتم بمزحات من دون أن يحصل على تجاوب منها. كان وجهها خالياً من التعابير. خرج الملك متأبطاً ذراع الليدي وينغفيلد، رأسه مائل ويتحدّث إليها. ولكنّه لم يكن يلاحظها على الإطلاق. بدا طويلاً، عريضاً، ولطيفاً. شمل الحشد بنظرته الملكية، فهلّلوا له. ابتسم الملك.

حين غادر هنري الكنيسة، اعتمر قبّعة. كانت قبّعة كبيرة، وجديدة. وكان على القبّعة ريشة.

القسم الخامس

جلس الطفلان على مقعد في بهو أوستن فرايرز. كانا صغيرين جداً إلى حدّ أنّ أرجلهما ظلّت ممدودة أمامهما، وبما أنّهما لا يزالان يرتديان الأثواب الفضفاضة، ما كان ممكناً معرفة جنسهما. كانا مشرقّي الوجه تحت غطاء الرأس الذي يحيط بهما. وإن كانا يبدوان سمينين وسعيدين، فهذا دليل على حسن رعاية المرأة الشابة لهما. راحت هيلين بار تحكي الآن قصّتها: ابنة تاجر صغير مفلس من إسيكس، وزوجة رجل يدعى ماتيو بار، ضربها وهجرها، "تاركاً إيّاي مع ذلك الطفل في بطني".

كان الجيران يقصدونه دائماً لحلّ مشاكلهم. أبواب غير آمنة، قنّ إوزّ يسبّب الإزعاج، زوج وزوجة يصرخان ويضربان بعضهما بعضاً بأواني المطبخ طيلة الليل ما يمنع الجيران من النوم. كان يحاول عدم الانزعاج إن أخذت هذه المسائل من وقته، كما أنّ هيلين هي أقلّ إزعاجاً من قنّ الإوزّ. راح يستبدل في ذهنه ملابسها الصوفية الرخيصة والمنكمشة بمخمل رآه قبل يوم، يبلغ ثمن الياردة الواحدة منه ستة شلن. رأى أنّ يديها هزيلتان ومتورّمتان بسبب العمل الشاقّ، فزوّدتها بزوج من القفّازات.

"حين قلت إنّّه هجري، من المحتمل أن يكون قد مات. كان يكثر من الشرب ويحبّ الشجار. قال لي رجل يعرفه إنّّه أصيب في عراك عنيف، وإنّ عليّ البحث عنه عند أسفل النهر. ولكنّ شخصاً آخر رآه على الأرصفة في تيلبوري، ومعه حقيبة سفر. فما أنا الآن، زوجة أم أرملة؟".

"سأبحث في هذه المسألة، مع أنّي أظنّ أنّك تفضّلين ألاّ أعثر عليه. كيف تعيشين؟".

"حين رحل، كنت أخيط لصانع أشرطة. ومنذ أن أتيت إلى لندن بحثاً عنه، رحت أعمل لقاء أجر يوميّ. عملت في الغسيل في أحد الأديرة، وساعدت في الغسل السنوي لبياضات الأسرة. وجدوا أنّني عاملة مجتهدة، فاقترحوا إعطائي فراش قشّ في العلية، ولكنّهم لم يقبلوا الطفلين".

مثال آخر على مدى حبّ الكنيسة لفعل الخير. كان يثور عليهم طيلة الوقت. "ليس من المعقول أن تعلمي خادمة لدى زمرة من النساء المنافقات. عليك المجيء إلى هنا، أنا واثق من أنّك ستجدين ما تفعلينه. فالمنزل ممتلئ طيلة الوقت، وأنا

أبني، كما ترين". فكَرَّ في نفسه: لا بدَّ من أنَّها امرأة طيِّبة لأنَّها لم تفكِّر في كسب عيشها بطريقةٍ أسهل. فلو مشت في الشارع فستتلقى كثيراً من العروض. "قيل لي إنَّك تودين تعلُّم القراءة، لتتمكَّني من قراءة الكتاب المقدَّس".

"اصطحبتي بعض النساء إلى مدرسة يسمِّينها المدرسة الليلية. كانت في قبو في برودغايث. قبل ذلك، كنت أعرف بعض الأسفار. في البيت، في مزرعتنا، كانت لدينا أرواح شريرة تقلب الحليب، وترسل العواصف الرعدية، ولكن قيل لي إنَّها ليست مسيحية. أتمنَّى لو أننا بقينا في مزرعتنا. فأبني لم يكن معتاداً على حياة المدينة". كانت تلاحق بعينيها القلقتين الطفلين اللذين نزلا عن المقعد، ومشيا ببطء لرؤية الصورة التي تتكوَّن على الجدار. تماسكت نفسها مع كلِّ خطوة. كان العامل ألمانياً، كان شاباً أوصى به هانز من أجل عمل بسيط، التفت كي يشرح للطفلين ما يفعل، مع أنَّه لا يتحدَّث الإنكليزية: وردة. ثلاثة أسود، انظرا إليها وهي تقفز. عصفوران أسودان.

صاح الطفل الأكبر: "أحمر".

قالت هيلين، وقد تورَّد وجهها فخراً: "إنَّها تعرف الألوان، كما بدأت تعدِّ واحد، اثنان، ثلاثة".

كان الشاب يرسم، مكان شعار وولزي، الشعار الجديد الذي منح إياه. قال: "أترين، هيلين، هذان العصفوران الأسودان كانا شعار وولزي". ضحك مضيفاً: "ثمَّة أشخاص تمنَّوا عدم رؤيتهما مجدداً".

"ثمَّة آخرون، مثلنا، لا يفهمون ذلك".

"هل تعنين أشخاصاً من رواد المدرسة الليلية؟".

"يتساءلون كيف يمكن لرجل يحبَّ الكتاب المقدَّس أن يحبَّ رجلاً كهذا".

"لم تعجبني يوماً غطرسته، كما تعلمين، مروره بموكب كلِّ يوم. مع ذلك، لم أعرف رجلاً أكثر حماسة منه لخدمة إنكلترا منذ ولادتها". أضاف بحزن: "كذلك، حين يتقرَّب منه المرء، يكتشف أنَّه شخص بالغ الكياسة وغير متكلِّف... هيلين، هل يمكنك المجيء إلى هنا اليوم؟". كان يفكِّر في الراهبات والغسل السنوي لبياضات الأسرة. راح يتخيَّل وجه الكاردينال المصدوم. فقد كانت النساء المسؤولات عن غسل الملابس يتبعنه أينما ذهب، ويبدو عليهنَّ الإنهاك من كثرة العمل المتواصل. وفي قصر يورك، أمر بصنع حوض استحمام، عميق إلى حدِّ كان يمكن للرجل أن يقف فيه، وكانت تتمَّ تدفئة الغرفة بفرن كذاك الذي تجده في البلدان المنخفضة، ولطالما تحدَّث

عن الأعمال إلى الكاردينال وهو يطلّ من الماء برأسه المتورّد. أخذ هنري الحوض الآن، وهو يسبح فيه أحياناً مع رجال البلاط المفضّلين لديه، والذين يقبلون أن ينزلهم سيدهم تحت الماء ويوشك أن يغرقهم، إن طاب له ذلك.

أعطى الرسّام الطفلة الكبرى فرشاته، فتألّق وجه هيلين. قالت: "كوني حذرة حبيبتى". رسمت الطفلة بقعة من الأزرق. قال الرسّام، أنت طفلة ماهرة. وأضاف جملة بالألمانية.

قال لهيلين: "يسأل إن كنتُ مسروراً وفخوراً". قالت: "إن لم تكن كذلك، فسيكون أصدقاؤك فخورين بك".

قال في نفسه: أنا أترجم دائماً، ليس من لغة إلى أخرى فحسب، بل أيضاً من شخص إلى آخر. من أن إلى هنري، ومن هنري إلى أن. لا سيّما في الأيام التي يحتاج فيها إلى الملاطفة، وتكون هي حادثة مثل أجمة شائكة. تلك الأوقات التي يزيغ فيها نظره نحو امرأة أخرى، فتتبعه بنظراتها، ثمّ تتصرف بشكل عاصف إلى غرفتها. فيتتقلّ كرومويل بينهما، وكأنّه شاعر عامّ، حاملاً التأكيد على رغبة كلّ منهما في الآخر.

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثالثة، حين غرقت الغرفة في ظلام شبه تامّ. حمل الطفل الأصغر، الذي استلقى على كتفه واستغرق في النوم، بالسرعة التي تدفع فيها شخصاً ويرتطم بجدار. قال: "هيلين، هذا المنزل مليء بالشبّان المفعمين بالنشاط، الذين سيكونون على استعداد لتعليمك القراءة، وإحضار الهدايا لك، وإسعاد أيامك. تعلّمي منهم، وخذي الهدايا، وكوني سعيدة معنا. ولكن إن ضايقت أحدهم، أخبريني أو أخبري رايف سادلر. إنّه الصبيّ ذو اللحية الحمراء القصيرة. مع أنّي لا أستطيع اعتباره صبيّاً". لقد مرّ عشرون عاماً تقريباً منذ أن أحضر رايف من منزل أبيه، في يوم مظلم وممطر كهذا اليوم، استلقى فيه الصبيّ على كتفه وهو يحمله إلى منزله في شارع فنتشيرتش.

أبقتهم العواصف في كاليه عشرة أيّام. فقد تحطّمت السفن الخارجة من بولونيا، وغمرت الفيضانات أنتويرب ومعظم مناطق الريف. كان يودّ بعث رسائل إلى أصدقائه، للسؤال عنهم وعن أملاكهم، ولكنّ الطرقات كانت مقطوعة. كاليه نفسها كانت عبارة عن جزيرة عائمة يحكمها ملك سعيد. قصد جناح الملك طالباً مقابلته، فالأعمال لا تتوقّف في الطقس السيّء، ولكن قيل له: "لا يستطيع الملك رؤيتك هذا الصباح. فهو والليدي أن يؤلّفان بعض الألحان على القيثارة".

نظر إليه رايف وانصرفا. "أمل أن يخرجنا بأغنية صغيرة يتباهيان بها".
خرج توماس ويات وهنري نوريس يلهوان معاً، وأقسما على الصداقة الدائمة. ولكن
أتباعهما تشاجروا في باحة النزل وسقطوا في الوحل.
لم يرَ ماري بولين مجدداً. لا بدّ من أنّها تنفرد بستافورد في مكان ما ويؤلفان
الألحان معاً.

عند الظهر، راح اللورد بيرنيرز يريه مكتبته في ضوء الشموع، يتتقلّ بنشاط وهو
يعرّج من مكتب إلى آخر، حاملاً بعناية الملفات القديمة التي قام بترجماته منها. هذه
قصة رومانسية للملك آرثر: "حين بدأت بقراءتها كدت أن أصرف النظر عن
المشروع. كان واضحاً لي أنّها خيالية جداً. ولكن رحت أكتشف تدريجياً وأنا أقرأ، أنّه
ثمّة مغزى من هذه القصة". لم يقل ما هو. "وهذا كتاب لفرواسار مترجم إلى
الإنكليزية، بطلب من جلالتة. لم أستطع الرفض، لأنّه كان قد أعطاني خمسمئة
باوند. هل تودّ رؤية ترجماتي من الإيطالية؟ إنّها ترجمات خاصّة لم أرسلها إلى
المطبعة".

أمضى بعد الظهر مع المخطوطات، وناقشها في أثناء العشاء. كان اللورد
بيرنيرز يحتلّ منصب رئيس بيت المال، وهو منصب منحه إياه هنري لمدى الحياة.
ولكن بما أنّه ليس في لندن، فهو لا يعود عليه بكثير من المال أو النفوذ. "أعرف
أنّك ناجح في مجال الأعمال. هل يمكنك إلقاء نظرة على حساباتي؟ فهي ليست
منظمة كما ينبغي".

تركه اللورد بيرنيرز مع ما يسميه دفاتر حساباته. مرّت ساعة كانت الرياح خلالها
تهبّ على سطوح المنازل، والشموع تتمايل، والبرد يتساقط على الزجاج. تنهى إليه
صوت خطوات مضيّفه الأعرج، ثمّ أطلّ وجه قلق من الباب. "ماذا وجدت؟".
"كلّ ما وجدته كان الديون. فهذا ما تحصل عليه عندما تكترس نفسك للدراسة وخدمة
الملك من وراء البحار، فيما تستطيع أن تكون في القصر، جاهزاً لانتهاز الفرص
بأسنانك، وعينيك، ومرفقيك".

"أتمنّى لو أنّك استشرتني قبل الآن. ثمّة دائماً ما يمكن فعله".
قال العجوز: "آه، ولكن من كان يعرفك، يا سيّد كرومويل؟ صحيح أنّ المرء يتبادل
الرسائل، في أعمال وولزي، وأعمال الملك، ولكنني لم أكن أعرفك. ولم يبذ لي أنّني
سأتعرّف إليك يوماً، قبل الآن".

في اليوم الذي أصبحوا فيه أخيراً مستعدّين للرحيل، أتى الشاب الذي يعمل في

مقهى الخيميائيين. "أنت أخيراً! ماذا لديك؟".
فتح الصبيّ يديه الخاليتين، وانطلق يتحدّث بإنكليزية مشوبة بالفرنسية: "يقال إنّ هؤلاء المشعوذين عادوا إلى باريس".
"إذاً، لقد خاب أُملي".
"كان من الصعب إيجادك سيّدي. ذهبت إلى القصر الذي يقيم فيه الملك هنري، وقلت لهم إنّني أبحث عن اللورد كريمويل، فسخروا منّي وضربوني".
"هذا لأنني لست لوردًا".
"في هذه الحال، لا أعرف كيف يبدو اللورد في بلادكم". أعطى الصبيّ قطعة نقدية على جهوده، وأخرى على الضرب الذي تلقّاه، ولكنّه هزّ رأسه. "فكّرت في أن أعمل لديك سيّدي، فقد قرّرت السفر".
"ما اسمك؟".
"كريستوف".
"ما هي شهرتك؟".
"سا نو فيه ريان (ليس مهمّاً)".
"لديك أبوان؟".
"هزّ كتفيه".
"كم عمرك؟".
"كم تقدّر عمري؟".
"أعرف أنّك تستطيع القراءة. هل أنت ماهر في القتال؟".
"هل تقاثلون كثيراً شبيه فو (في بلادكم)؟".
كان كريستوف يحتاج إلى الطعام، ولكن بعد عام أو عامين سيصبح قويّ البنية. قدّر أنّه في الخامسة عشرة لا أكثر. "هل تواجه مشاكل مع القانون؟".
أجاب باستخفاف: "في فرنسا"، وكأنّه يقول، في أقاصي كاثاي*.
"هل أنت سارق؟".
قام الصبيّ بحركة طعن بيده، وكأنّه يمسك سكيناً.
"هل قتلت أحدهم؟".
"لم يبدُ بخير".
ابتسم. "هل أنت واثق من أنّك تريد كريستوف اسماً لك؟ تستطيع تغييره الآن، ولكن ليس لاحقاً".

"أنت تفهمني، سيدي".

ربّاه! بالطبع أفعل. كان ممكناً أن تكون ابني. ثم أمعن فيه النظر، للتأكد من أنه ليس ابنه، ليس واحداً من أولئك الأطفال الذين تحدّث عنهم الكاردينال، الذين تركهم على ضفاف التايمز، وليس على ضفاف أنهار أخرى، في بلاد أخرى. ولكن عيني كريستوف كانتا كبيرتين، وزرقاوين صافيتين. سأله: "ألا تخشى السفر في البحر؟ في منزلي في لندن، ثمّة أناس كثيرون يتكلّمون الفرنسية. سرعان ما ستصبح واحداً منّا".
والآن في أوستن فرايرز، يلاحقه كريستوف بالأسئلة. ماذا لدى أولئك المشعوذين؟
أهي خريطة لكنز مدفون؟ أهي - يلوّح بذراعيه - إرشادات لكيفية صنع آلة طائرة؟
أهي آلة لصنع انفجارات هائلة، أم تتّين عسكري ينفث النار؟".
سأله: "هل سبق أن سمعت بشيشرون؟".

"كلاً، ولكنني مستعدّ للسمع عنه. فحتى اليوم لم يسبق لي أن سمعت بالأسقف غاردينور. يقال إنك سرقت أسرته وأعطيتها إلى عشيقته الملك، وإنه ينوي الآن..."،
توقّف الصبيّ عن الكلام، ثمّ أعطى مجدداً الانطباع بتّين عسكري، ليتابع: "أن يدمرك ويلاحقك حتى الموت".

"لا، بل وأبعد، فأنا أعرفه".

كان ثمّة روايات أسوأ عن وضعه. أراد أن يقول، ليست عشيقته، لم تعد كذلك، ولكن لا يجدر به كشف هذا السرّ، وإن كان سيُكشف عمّا قريب.

في فجر الخامس والعشرين من شهر كانون الأول/ديسمبر عام 1533، في كنيسة في وايتهاول، وبإشراف صديقه الكاهن رولاند لي، تمّت مراسم زواج آن وهنري، تأكيداً على العقد الذي أجرياه في كاليه. تمّ ذلك على نحو سرّي تقريباً، من دون احتفال، بل مجرد مجموعة من الشهود. ولم يتفوّه العروسان بكلمة، باستثناء ما استلزمته مراسم الزواج. كان هاري نوريس شاحباً وجاداً. هل كان من اللطف جعله يشاهد آن مرّتين وهي تسلّم إلى رجل آخر؟

كان ويليام بريريتون شاهداً، وقائماً على خدمة الملك في غرفته الخاصّة. سأله: "هل أنت هنا حقاً أم أنّك في مكان آخر؟ فأنتم أيّها السادة قادرون على التواجد في مكانين مختلفين".

حدّق إليه بريريتون. "كنت تكتب رسائل إلى تشيستر".

"أعمال الملك. كيف لا؟".

كان عليهما أن يتمتما، بينما يجمع رولاند يدي العروس والعريس. "سأقولها مرّة

واحدة. ابقَ بعيداً عن شؤوني العائلية وإلا فستندم، سيّد كرومويل".
كانت تقوم على خدمة آن سيّدة واحدة، هي شقيقتها. وحين غادروا - وقاد الملك زوجته، يده على ذراعها، نحو مكان تُعزف فيه الموسيقى على القيثارة - التفتت إليه ماري وابتسمت ابتسامة خلّابة. رفعت يدها، وكانت مسافة قيد أنملة تفصل بين الإبهام والسبابة.

لطالما قالت، سأكون أول من يعلم. فأنا التي أساعدها على خلع ملابسها.
نادى ويليام بريريتون بتهذيب. قال له: "لقد ارتكبت خطأً بتهديدي".
عاد إلى مكتبه في ويستمينستر. تساءل: هل عرف الملك؟ كلاً على الأرجح.
جلس يكتب. أحضروا له الشموع. رأى ظلّ يده يتحرّك فوق الورق، قبضته التي لا يغطيها القفاز المخملي. لم يشأ أن يفصل شيء بينه وبين الورق، وخطّ الحبر الأسود. فخلع خواتمه، وخاتم وولزي الفيروزي، وخاتم فرانسيس بحبة الياقوت؛ ففي رأس السنة، خلعه الملك من إصبعه وأعاده إليه، بالإطار الذي صنعه صائغ كاليه.
وقال له، كما يفعل الحكّام في لحظة من الثقة الزائدة: سيكون هذا علامة بيننا يا كرومويل. أرسل إليّ ورقة مع هذا الخاتم، وسأعرف أنّها مكتوبة بخطّ يدك حتّى لو لم تكن تحمل ختمك.

كان أحد المؤتمنين على أسرار هنري، نيكولاس كارو، يقف في الجوار. فأشار قائلاً: "خاتم جلالة الملك يناسب إصبعك من دون تعديل". فقال: "بالفعل".
تردّد، وحامت ريشته فوق الورق. كتب: "مملكة إنكلترا هي إمبراطورية". مملكة إنكلترا هي إمبراطورية، وهكذا عرفها العالم، يحكمها سيّد وملك أعلى واحد...
عند الساعة الحادية عشرة، حين سطعت الشمس بما يكفي، تناول عشاءه مع كرانمر، في منزله في كانون رو، الذي يعيش فيه إلى أن يُمنح منصبه الجديد وينتقل إلى قصر لامبيث. كان يتمرنّ على توقيععه الجديد، توماس أسقف كانتربروري المنتخب. قريباً سيتناول عشاءه في القصر المخصّص له، ولكن اليوم، أبعده أوراقه جانباً، وكأنّه عالم فقير، بينما فرش غطاء على الطاولة، وأحضروا له السمك المملّح الذي راح يتلو الصلاة أمامه.

قال: "هذا لن يحسنه. من يطبخ لك؟ سأرسل إليك شخصاً آخر".
"إذاً، هل تمّ الزواج؟". كان كرانمر من الناس الذين ينتظرون من يخبرهم بالأحداث، فهو يعمل ستّ ساعات بصمت وصبر، رأسه محنيّ فوق الكتب.
"أجل، وقد قام رولاند بمهمّته على أكمل وجه. لم يزوّجها من نوريس، ولم يزوّج

الملك من شقيقتها". هزّ منديله مضيفاً: "أعرف شيئاً، ولكن عليك أن تتملّقني لأقوله". كان يرجو أن يطلعه كرانمر في أثناء الحديث على السرّ الذي ذكره في رسالته، السرّ المكتوب على هامش الصفحة. ولكن يبدو أنّه نسي أمره. وبما أنّ أسقف كانتربوري المنتخب كان مشغولاً بنزع الحراشف والجلود، قال له: "إنّها، أيّ آن، حامل منذ الآن".

نظر إليه كرانمر: "إن أذعت النبا بهذه النبيرة، سيظنّ الناس أنّ الفضل يرجع إليك".

"ألم تتفاجأ؟ ألم يسعدك النبا؟".

قال كرانمر من دون اهتمام كبير: "أتساءل أيّ سمك هذا؟ بالطبع أنا مسرور. ولكنني عرفت ذلك. فهذا الزواج صحيح، لماذا لا يباركه الله بالذرية؟ وبوريث؟". "بالطبع وريث. انظر". تناول الأوراق التي كان يعمل عليها. غسل كرانمر أصابعه المتسخة وعاد نحو ضوء الشمعة. قال وهو يقرأ: "إذاً، بعد الفصح، سيكون التقدّم باستئناف في أيّ مسألة أمام البابا عملاً مخالفاً للقانون وصلاحيات الملك. وهكذا تكون قضية كاثرين قد ماتت ودفنت. وأنا، أسقف كانتربوري، أبتّ في قضية الملك في محاكمنا. كم طال انتظارنا لذلك".

ضحك. "كم طال انتظارنا لك". كان كرانمر في مانتوا حين سمع بالشرف الذي أغدقه عليه الملك. فبدأ رحلته بشكل غير مباشر. التقى به ستيفن فوغان في ليونز، وأخرجه من طرقات الشتاء المغمورة بالمياه والعواصف الثلجية في بيكاردي، حتّى وصلا إلى المركب. "لم تأخرت؟ ألا يرغب أيّ كان في أن يصبح أسقفاً؟ وإن كنت لست منهم، لدى التفكير في الأمر. ما أردته هو الحصول على دبّ خاصّ بي". نظر إليه كرانمر وتفحصه بعينه، ثمّ قال: "أنا واثق من أنّنا نستطيع تدبّر هذا الأمر".

سأله غريغوري يوماً، كيف نعرف أنّ د. كرانمر يمزح؟ فأجابه، هذا غير ممكن، فمزاحه نادر جداً، تماماً مثل زهر التفاح في كانون الثاني/يناير. والآن سيبقى خائفاً لأسابيع عدّة من ظهور دبّ عند باب منزله. حين تركه كرانمر ذلك اليوم، نظر إليه من خلف الطاولة وقال: "بالطبع، أنا لا أعرف رسمياً".

"عن الطفل؟".

"بل عن الزواج. فيما أنّني سأحكم في قضية زواج الملك، فلن يكون من الملائم أن أسمع أنّ زواجه الجديد قد تمّ".

قال: "صحيح. فما يفعله رولاند في الصباح الباكر هي مسألة تخصّه وحده". ترك
كرانمر منحنيًا فوق بقايا وجبتهما، وكأنّه يدرس كيفية إعادة جمع السمكة.
بما أنّ انفصالنا عن الفاتيكان لم يكتمل بعد، لم يكن بمقدورنا الحصول على رئيس
أساقفة جديد ما لم يعيّنه البابا. وقد مُنح الممثلون في روما صلاحية قول أيّ شيء
والوعد بأيّ شيء، مؤقتًا، لجعل كليمنت يوافق. قال الملك، مدهولًا: "هل تعرف كم
تكلف البيانات البابوية من أجل كانتربوري؟ وأنه سيكون عليّ تسديد كلفتها؟ وهل
تعرف كم سيكلف تقليده المنصب؟ ينبغي أن يتمّ ذلك حسب الأصول، من دون
إغفال شيء".

"ستكون هذه آخر أموال يرسلها جلالتكم إلى روما، إن ترك الأمر لي".
قال الملك، وكأنّه اكتشف أمرًا مذهلاً: "وهل تعلم أنّ كرانمر لا يملك قرشاً واحداً؟
لا يستطيع المساهمة بشيء".

اقترض المال، لحساب التاج، من رجل غنيّ من جينوفا يدعى سالفاغو. لإقناع
سيباستيان بإعطائه القرض، أرسل إلى منزله منحوتة يعرف أنّها تعجبه. كانت
تصوّر شابًا يقف في حديقة، ينظر إلى الأعلى، نحو نافذة خالية، ستطلّ منها فتاة
قريبًا. كانت رائحتها تفوح في الهواء، والطيور على الأغصان تنتظر إلى الفراغ
بتساؤل، جاهزة للتغريد. كان الشابّ يحمل بين يديه كتابًا، وكان الكتاب على شكل
قلب.

اجتمع كرانمر باللجان كلّ يوم، في الغرف الخلفية في ويستمينستر. كتب إلى
الملك ليشرح له أنّه حتّى لو لم يكتمل زواج شقيقه بكاثرين، فهذا لا يؤثّر في الفسخ،
لأنّ نيّتهما بالزواج كانت موجودة، وهذه النيّة تولّد صلة النسب. كما أنّه في الليالي
التي أمضيها معاً، كانت لديهما بالتأكيد النيّة بإنجاب الأطفال، وحتّى إن لم يسعيا
إلى ذلك بالطريقة الصحيحة. وكلي لا يجعل من هنري أو كاثرين كاذبين، راح
أعضاء اللجنة يفكّرون في الظروف التي اكتمل فيها الزواج جزئيًا أو إلى حدّ ما،
وكان عليهم أن يتخيّلوا جميع الكوارث والأمر المخلجة التي تقع بين رجل وامرأة
مختليين (وحدهما) في غرفة مظلمة. سأله: هل تحبّ العمل؟ نظر إلى ظهورهم
المحدودة، وقدّر أنّهم يتمتّعون بالخبرة اللازمة. حرص كرانمر في رسائله على
تسمية الملكة كاثرين الهادئة، وكأنّه يسعى إلى فصل وجهها الساكن المحاط
بالوسادة عن الأمور المخزية التي كانت تُفرض على نصفها السفلي.
في تلك الأثناء، ابتعدت الملكة آن عن مرافقيها وهي تسير في أحد أروقة وايت هول.

راحت تجري وتضحك، وتقفز تقريباً، فمدّوا أيديهم للسيطرة عليها، وكأنّها خطيرة، ولكنّها أبعدت أيديهم عنها، وهي تضحك. "هل تعرفون أنّي أتوق جداً إلى أكل التفّاح؟ يقول الملك إنّ هذا يعني أنّي حامل، ولكنني قلت له: لا، لا، هذا غير ممكن...". راحت تدور وتدور، ثمّ احمرّ وجهها، وفاضت الدموع من عينيها، وبدت وكأنّها تتناثر مثل مياه نافورة غير منتظمة.

اندفع توماس ويات بين الجمع. "آن...". أمسك بيديها وشدّها نحوه. "آن، كفي حبيبتني... كفي...". فتهاوت وهي تشهق، وارتمت على كتفه. احتضنها ويات بسرعة، وراحت عيناه تجولان حوله، وكأنّه وجد نفسه فجأة عارياً في الطريق، ويبحث عن مسافر يعطيه ملابس يستر بها عريه. كان شابوي بين الموجودين. خرج السفير بسرعة وتصميم، وكسا وجهه تعبير ساخر.

إذاً، تلك كانت الأنباء التي أرسلت إلى الإمبراطور. كان يُستحسن لو أنّ الزواج القديم فسخ، وعقد الزواج الجديد، وأثبت أمام أوروبا قبل إعلان نبأ أنّ السعيد. ولكنّ حياة الأمراء ليست سهلة كما نظنّ.

بعد يومين، كان وحده مع آن. جلست أمام نافذة، وأغمضت عينيها، تتشمّس مثل هرة تحت أشعة شمس الشتاء النادرة. مدّت يديها نحوه، من دون أن تعرف تماماً من يكون. أيّ رجل يفني بالعرض؟ تناول أصابعها. فتحت عينيها السواداوين فجأة. وكأنّه متجر يفتح أبوابه: صباح الخير سيّد كرومويل، ماذا سنبيع بعضنا اليوم؟ قالت: "أنا متعبة من ماري، وأودّ التخلّص منها".

هل تعني ابنة كاثرين، الأميرة؟ قالت: "يجب أن تتزوّج وتبتعد من طريقي. لا أريد أن أضطرّ إلى رؤيتها أو التفكير فيها. لطالما تخيلتها متزوّجة من شخص غامض". انتظر، وهو لا يزال يتساءل.

"لا أظنّ أنّها ستكون زوجة سيّئة، بالنسبة إلى شخص مستعدّ لتكبيّلها إلى جدار".
"آه، ماري شقيقتك".

"ومن تظنّ؟ آه". ضحكت: "ظننت أنّني أعني ماري، ابنة الملك غير الشرعية. الآن أنت أوحيت إليّ بهذه الفكرة، يجب أن تتزوّج هي أيضاً. كم عمرها؟".
"ستبلغ السابعة عشرة من عمرها هذا العام".

"ولا تزال قزّمة؟" لم تنتظر أنّ الجواب. "عليّ أن أجد لها سيّداً عجوزاً، سيّداً عجوزاً شريفاً وضعيفاً، لا ينبج منها أطفالاً، وأدفع له كي يبقى بعيداً عن البلاط. ولكن بالنسبة إلى الليدي كاري، ماذا يمكننا أن نفعل؟ لا نستطيع الزواج منك. نحن

نضايقتها قائلين إنك الأنسب لها. فبعض النساء تفضّلن سرّاً رجالاً من العامّة. نقول لها: آه، ماري، كم هو جميل أن تكوني بين ذراعي حدّاد... الأمر مثير لمجرّد التفكير فيه".

سألها: "هل أنت سعيدة؟".

"أجل". خفضت رأسها ووضعت يديها الصغيرتين على قفصها الصدري. "أجل، بسبب هذا. أتعلم"، تابعت ببطء: "لطالما كنت مرغوبة، ولكنني الآن مقدّرة. وهذا أمر مختلف، كما أرى".

صمت وتركها مستغرقة بأفكارها، العزيزة على قلبها، كما لاحظ. قالت: "إذاً، لديك ابن أخت يدعى ريتشارد، من سلالة تيودور، مع أنّي لا أفهم كيفية ذلك".

"بإمكاني أن أرسم لك شجرة العائلة". هزّت رأسها، مبتسمة. "لن أكبّدك عناء ذلك. فمنذ هذا الحدث"، وانزلت أصابعها إلى الأسفل، "أستيقظ كلّ صباح وأنا بالكاد أذكر اسمي. لطالما تساءلت لماذا تبدو النساء سخيفات، الآن عرفت".

"ذكرت ابن أختي".

"رأيتك معك. يبدو شاباً قويّ العزيمة، قد ينفع لها. فهي تريد الفراء والمجوهرات، وأنت قادر على إعطائها إيّاها، أليس كذلك؟ فضلاً عن طفل مرة كلّ عامين. أما بالنسبة إلى الأب، بإمكانك القيام بالترتيبات الخاصّة في منزلك".

قال: "ظننت أنّ شقيقتك مرتبطة؟".

لم يكن يرغب في الانتقام، بل مجرد التوضيح.

"حقاً؟ آه من ارتباطات ماري... تكون عادة عابرة وأحياناً غريبة جدّاً، كما تعلم، ألا تعلم ذلك؟". لم يكن سؤالاً. "أحضر أولادك إلى القصر لنراهم".

تركها، وهي تغمض عينيها مجدّداً، تسترق بعض الدفء من شعاع الشمس الباهت الذي جاد به شهر شباط/فبراير.

كان الملك قد خصّص له جناحاً في القصر القديم في ويستمينستر. هكذا، راح يمشي ذهنياً في غرفته في أوستن فرايرز، يللم صور ذكرياته من حيث تركها على عتبات النوافذ، وتحت المقاعد، وفي الأزهار الصوفية التي حيكت في السجادة عند قدمي أنسيلما. وفي نهاية الأيّام الطويلة من العمل، كان يتناول العشاء مع كرانمر ورولاندي، الذي يمرّ بين مختلف الفرقاء ويحثّهم على العمل. أحياناً كان ينضمّ إليهم أودلي، قاضي القضاة، يجلسون مثل مجموعة من الطلاب المجتهدين،

ويتحدّثون إلى أن يحين موعد نوم كرانمر. أراد أن يفهم أولئك الناس، ويختبر كم يستطيع الاعتماد عليهم، ويكتشف نقاط ضعفهم. أودلي هو محام حذر استطاع أن ينخل جملة مثلما ينخل الطاهي كيساً من الأرز المجروش. إنّه متحدّث بليغ، متشبّث برأيه، ومخلص لعمله. وبما أنّه قاضي القضاة، فهو كان يطمح إلى تأمين دخل يتلاءم مع منصبه. وبالنسبة إلى معتقداته، فهي قابلة للتفاوض؛ كان يعتقد بالبرلمان، وبسلطة الملك التي يمارسها في البرلمان، وفي مسائل الإيمان... لنقل إنّ قناعاته مرنة. أمّا بالنسبة إليّ، فيتساءل ما إذا كان مؤمناً أساساً، مع أنّ هذا لا يمنعه من أن يكون في أبرشية. قال له: "رولاند، هلاً أخذت غريغوري واستضافته في منزلك؟ أظنّ أنّ كامبريدج أعطته ما لديها، وأقرّ أنّ غريغوري لم يعطِ كامبريدج شيئاً".

قال رولاند: "سأصطحبه معي إلى الريف حين أذهب لرؤية أساقفة الشمال. غريغوري هو شابّ طيب. ليس وقحاً على الإطلاق، ولكنني أفهم ذلك. سنجعله يقوم بعمل مفيد".

سأل كرانمر: "أنت لا تنوي تكريسه للكنيسة؟".

احتجّ رولاند قائلاً: "قلت، سنجعله يقوم بعمل مفيد".

في ويستمينستر، كان الكتبة يدخلون ويخرجون، حاملين الأنباء والإشاعات والأوراق. رافقه كريستوف، كي يعتني بملابسه، ولكنّه اصطحبه في الواقع كي يضحكه. كان يفتقد إلى الموسيقى التي يسمعها في أوستن فرايرز، وأصوات النساء التي تنتهي إليهم من الغرف الأخرى.

كان يذهب إلى البرج معظم أيام الأسبوع، يقنع المشرفين على إبقاء رجالهم يعملون على الرغم من الجليد والمطر، ويتحقّق من الحسابات، ويضع جردة جديدة لمجوهرات الملك وممتلكاته الثمينة. استدعى القيم على دار سكّ العملة، واقترح عليه التحقّق من وزن قطع الملك النقدية. قال: "ما أريده هو أن تكون قطعنا النقدية مضبوطة تماماً بحيث لا يضطرّ التجار في أنحاء العالم إلى وزنها".

"هل لديك تفويض بذلك؟".

"لماذا، ماذا تخبّي؟".

كان قد كتب مذكرة للملك، فصّل فيها مصادر موارده السنوية والمكاتب الحكومية التي تمرّ فيها. كانت دقيقة على نحو مثير للإعجاب. قرأها الملك، ثمّ أعاد قراءتها مجدّداً. قلب الورقة على الجهة الخلفية ليرى ما إذا كان قد كُتب عليها شيء غير مفهوم، ولكنّه لم يجد فيها غموضاً.

قال في شبه اعتذار: "ما فيها ليس بخَبْر، فالكاردينال الراحل كان يحتفظ بكلّ هذا في رأسه. سأواصل استدعاء القيم على دار السكّ، إن شاء جلالتم".

في البرج، استدعى سجيناً اسمه جون فريث. بناءً على طلبه، كان السجين يحظى بالنظافة، وبسرير دافئ، فضلاً عن كفايته من الطعام والشراب، والورق والحبر، مع أنّه نصحه بإخفاء كتاباته عند سماع المفتاح يدور في قفل زنزانته. وقف بينما أخذه السجان، وظلّ نظره مركزاً على الأرض، غير راغب في رؤية ما سيحدث. ولكنّ جون فريث نهض عن طاولته، وكان شاباً لطيفاً ونحياً، عالماً باللغة اليونانية، وقال: "سيدّ كرومويل، عرفت أنّك ستأتي".

حين أمسك بيدي فريث، وجدّهما نحيلتين جدّاً، وباردتين، وجافّتين، وعليهما آثار من الحبر. قال في نفسه، لا يمكن أن يكون بهذا الهزال والضعف، ويبقى على قيد الحياة كلّ هذه المدّة. فهو واحد من العلماء الذين سُجنوا في قبو كنيّة وولزي، وهو المكان نفسه الذي سُجن فيه رجال الكتاب المقدّس لعدم وجود مكان آمن آخر. وحين انتشر طاعون الصيف في ذلك المكان، ظلّ فريث ممدّداً مع الجثث في الظلام، إلى أن تذكّر أحدهم إخراجهم.

قال: "سيدّ فريث، لو كنتُ في لندن حين تمّ اعتقالك...".

"ولكن حين كنتُ في كاليه، كان توماس مور في عمله".

"ما الذي جعلك ترجع إلى إنكلترا؟ كلاً، لا تخبرني. إن كنت تشارك في عمل تيندايل، من الأفضل ألا أعلم. يقولون إنّك اتّخذت زوجة، أهذا صحيح؟ في أنتويرب؟ الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يقبله الملك، لا بل ثمة أشياء عديدة لا يقبلها، ولكنّه يكره الكهنة المتزوّجين. كما أنّه يكره لوثر، وأنت ترجمت لوثر إلى الإنكليزية".

"أنت تعرض القضية بشكل ممتاز ضدّي".

"عليك مساعدتي كي أساعدك. إن أمكنني ترتيب مقابلة لك مع الملك... فعليك أن تكون مستعدّاً، فهو لاهوتي ذكيّ... هل تظنّ أنّ في إمكانك تلطيف إجاباتك بحيث لا تثير حفيظته؟".

أُضرمت النار لكنّ الغرفة ظلّت باردة. لا يمكن للمرء أن يهرب من ضباب وبرد التايمز. قال فريث، بصوت يكاد لا يُسمع: "لا يزال توماس مور يحتفظ بمصداقيّة لدى الملك. لقد كتب إليه رسالة يقول فيها..."، ابتسم متابعاً: "إنّني ويكلييف ولوثر وزوينغلي مجتمعون، أحدهم محشوّ بالآخر، تماماً كما في الولايم التي يوضع فيها طير داخل دجاجة داخل إوزة. ينوي مور أن يتعشّى بي، لذا، لا تكلف نفسك عناء

الدفاع عنِّي. أمّا بالنسبة إلى تلطيف إجاباتي... أظنّ أنني سأقول أمام أيّ محكمة...".

"كلاً، جون".

"سأقول أمام أيّ محكمة ما سأقوله يوم الحساب: القربان المقدّس ليس سوى خبز، لسنا بحاجة إلى الكفّارة.

"إن أتى إليك بعض الرجال وقالوا لك: تعال معنا يا فريث، فاذهب معهم. سيكونون رجالي".

"أظنّ أنّك تستطيع إخراجي من البرج؟".

قرأ في إنجيل تيندايل أنّ لا شيء مستحيل. "إن لم يكن من البرج، ربّما في أثناء أخذك للاستجواب، تلك ستكون فرصتك. كن مستعدّاً لاغتنامها".

تحدّث فريث بلطف، وكأنّه يتحدّث مع تلميذ صغير: "ولكن ما الجدوى من ذلك؟ هل تظنّ أنّك تستطيع إبقائي في منزلك بانتظار أن يبدّل الملك رأيه؟ يجدر بي أن أخرج وأعلن أمام كلّ أهل لندن ما سبق وقلته".

"ألا يمكن لشهادتك أن تنتظر؟".

"ليس هنري. قد أصبح عجوزاً وأنا أنتظر".

"سيحرقونك".

"وتظنّ أنّي لا أستطيع احتمال الألم، أنت على حقّ: لا أستطيع. ولكنهم لا يعطونني الخيار. فكما قال مور: الموافقة على الوقوف في النار بالكاد تجعل من الرجل بطلاً ما إن يقيد إلى عمود. لقد كتبت كتباً ولا أستطيع محوها. لا أستطيع تبديل معتقداتي، ولا أستطيع تغيير مسار حياتي".

تركه. عند الساعة الرابعة، كانت حركة السير في النهر خفيفة، وكان ثمة ضباب رقيق يزحف بين الهواء والماء.

كان اليوم التالي يوماً أزرق وبارداً، أتى فيه الملك على متن مركب ملكيّ لإلقاء نظرة على سير العمل، وكان برفقة الموفد الفرنسي. بدا الاثنان مقرّبين، إذ كان الملك يسير وازعاً يده على كتف دانتييل العريضة. فقد كان الموفد الفرنسي يرتدي طبقات عديدة من الملابس، بحيث بدا أعرض من فتحة الباب، ومع ذلك ظلّ يرتجف برداً. قال الملك: "صديقنا يحتاج إلى بعض الرياضة لتدفئة دمه، كما أنّه لا يتقن رمي السهام. فحين ذهبنا للرماية، ارتجف إلى حدّ أنّي خشيت أن يصيب قدمه. يتدّمّر من أنّنا لسنا جادّين في تربية الصقور، فقلت إنّ عليه الخروج معك يا كرومويل".

أهذا وعد بعبطة؟ ابتعد الملك وتركهما. قال الموفد: "ليس إن كان الطقس بهذه البرودة. لن أقف في حقل والرياح تصفر من كلّ جانب، سأموت بالتأكيد. متى تشرق الشمس مجدداً؟".

"آه، في حزيران/يونيو تقريباً. ولكنّ الصقور تطرح ريشها في ذاك الفصل. أنوي أن أجعل صقوري تطير في آب/أغسطس، لذا، سنمارس بعض الرياضة".
"أنتم لن توجلّوا هذا التتويج، أليس كذلك؟". هكذا هي الأمور دائماً. فبعد قليل من المسايرة، يفصح عن قصده الحقيقي. "حين وقّع ملكنا على المعاهدة، لم يتوقع أن يسير هنري متباهياً قرب زوجته المفترضة ببطنها المنتفخ. إن كان سيتكّم على الأمر، فتلك مسألة أخرى".

هزّ رأسه نافياً، ما من تأجيل. يدّعي هنري أنّه يملك تأييد الأساقفة، والنبلاء، والقضاة، والبرلمان، والشعب. وتتويج أن هو فرصته لإثبات ذلك. قال: "لا بأس، غداً نستقبل السفير البابوي. ستري كيف سيتعامل سيدي معه".
ناداه هنري من أعلى السور: "اصعد إلى هنا، أيّها السير، لترى منظر نهري من هنا".

قال الفرنسي بغضب: "أترى لماذا أرتجف؟ أترى لماذا أرتجف أمامه؟ نهري، مدينتي". شتم في سرّه (همساً) وبدأ صعوده.
حين أتى السفير البابوي إلى غرينتش، أخذه هنري من يده وأخبره بصراحة كيف يعذّبه مستشاروه الأشرار، وكيف يتوق إلى استعادة العلاقات الطيبة مع البابا كليمنت.

يمكن للمرء أن يرى هنري كلّ يوم لعقد من الزمن ويجده مختلفاً. اختر أميرك. كان تقديره لهنري يتعاضم. يراه أحياناً قليل الحظ، وأحياناً عاجزاً، أحياناً طفلاً، وأحياناً سيّد تجارته. كان يبدو أحياناً فنّاناً، من الطريقة التي تجول فيها عيناه فوق عمله. وأحياناً كانت تتحرّك يده ولا يبدو عليه أنّه يراها تتحرّك. لو كان ليتولى عملاً أقلّ شأناً في الحياة، لأمكنه أن يكون ممثلاً متجولاً، وقائد فرقة.

بناءً على طلب آن، أحضر ابن أخته إلى البلاط، وغريغوري أيضاً. كان الملك يعرف رايف لأنّه يرافقه على الدوام. وقف الملك يحذّق طويلاً إلى ريتشارد. "أرى ذلك، أراه في الواقع".

لم يسبق له أن رأى في وجه ريتشارد ما يشير إلى أنّ دم آل تيودور يجري في عروقه، ولكنّ الملك ينظر إليه بعين رجل يريد أقباء. كان جدك إيفان رامى السهام

خادماً عظيماً لوالد الملك. لديك بنية جميلة. أودّ رؤيتك في باحة الرماية. كما أودّ رؤيتك وأنت تبارز".

انحنى ريتشارد. وبما أنّ الملك هو رجل بالغ اللياقة، التفت إلى غريغوري قائلاً: "وأنت، سيّد غريغوري، أنت شابّ وسيم أيضاً".
ابتعد الملك وارتسم السرور ببساطة على وجه غريغوري. وضع يده على ذراعه، في المكان الذي لمسّه الملك، وكأنّه ينقل بركته الملكيّة إلى أنامله. "إنّه رائع، رائع جداً، أكثر ممّا تخيلت، وقد تحدّث إليّ!"، التفت إلى أبيه، "كيف تستطيع التحدّث إليه كلّ يوم؟".

نظر إليه ريتشارد شزراً. لكمه غريغوري على ذراعه قائلاً: "ماذا كان جدّك رامي السهام ليقول لو عرف أنّ أباك كان بهذا الحجم؟". وأظهر بين سبابته وإبهامه مكانة مورغن وويليامز.

تلك الليلة في أوستن فرايرز، طلب من ريتشارد المجيء للتحدّث إليه على انفراد بعد العشاء. قد يكون مخطئاً في عرض الأمر عليه وكأنّه اقتراح عمل، ونقل ما اقترحته آن بشأن زواجه. "لا تشغل بالك كثيراً بالأمر، فنحن لم نحصل بعد على موافقة الملك".

قال ريتشارد: "ولكنّها لا تعرفني".

توقّع سماع احتجاج، هل عدم معرفة شخص هو احتجاج؟ "أنا لن أجبرك على شيء".

نظر إليه ريتشارد: "هل أنت واثق؟".

أراد أن يقول: متى؟ متى أجبرت شخصاً على فعل أيّ شيء؟ ولكنّ ريتشارد قاطعه قائلاً: "كلاً، أنت لا تجبرني، أنا أوافق، أنت فقط ماهر في الإقناع، وأحياناً، من الصعب على المرء التمييز بين الاقتناع بأمر تقوله والتعرض للضرب والسحق في الشارع".

"أعرف أنّ الليدي كاري أكبر منك، ولكنّها جميلة جداً، وأظنها أجمل امرأة في القصر، كما أنّها ليست بالغباء الذي يظنّه الجميع، وليست ماهرة مثل أختها". قال في نفسه: والغريب أنّها صديقة جيّدة لي. "وعوضاً عن أن تكون قريباً غير معترف به للملك، ستصبح زوج أخته. وجميعنا سنستفيد".

"ربّما لقب لي ولك. زواج لامع لأليس وجو، وماذا عن غريغوري؟ سيتزوّج على الأقل من كونتيسة". كان صوت ريتشارد بارداً. هل يحاول إقناع نفسه؟ كان من

الصعب عليه الإجابة عن هذا السؤال. مع كثير من الناس، لا بل مع معظم الناس ربّما، كان يستطيع قراءة ما في قلوبهم. ولكن أحياناً، يسهل عليه قراءة أفكار الغرباء أكثر من قراءة أفكار أفراد عائلته. "وسيكون توماس بولين حمائي، كما سيصبح الخال نورفولك خالنا بالفعل".

"تخيّل ردّ فعله".

"آه! ردّ فعله؟ أجل، سيتمنى المرء أن يذهب حافياً على الجمر لرؤية تعبير وجهه".
"فكّر في الأمر، ولكن لا تخبر أحداً".

هزّ ريتشارد رأسه وخرج من دون أن يقول المزيد. وبدا أنّه فهم جملة لا تخبر أحداً على أنّها لا تخبر أحداً، عدا رايف، لأنّ رايف دخل بعد عشر دقائق، ووقف ينظر إليه رافعاً حاجبيه. من شأن أصحاب الشعر الأحمر أن يبدوا متوتّرين جدّاً حين يرفعون حواجب غير موجودة فعلاً. قال: "لست بحاجة إلى إخبار ريتشارد أنّ ماري بولين عرضت نفسها عليّ مرّة. ما من شيء بيننا. لن يكون منزلنا مثل وولف هول، إن كان هذا ما تفكر فيه".

"وماذا لو كان تفكير العروس مختلفاً؟ أتساءل لماذا لا تزوّجها من غريغوري".
"غريغوري صغير جدّاً. أمّا ريتشارد فهو في الثالثة والعشرين من عمره، وهي سنّ مناسبة للزواج إن كان المرء قادراً. وأنت تجاوزته، وقد حان الوقت لتتزوّج أنت أيضاً".

"سأفعل، قبل أن تعثر لي على امرأة من آل بولين". استدار رايف عائداً وقال بهدوء: "ثمّة أمر واحد، سير، وأظنّ أنّ هذا هو سبب تردّد ريتشارد... إنّ حياتنا وسعادتنا جميعاً تعتمد الآن على تلك السيّدة، وفضلاً عن كونها منقلبة، فهي فانية أيضاً، وتاريخ زواج الملك بأكمله أثبت لنا أنّه ما من ضمانة أن يصبح الجنين وريثاً".

في آذار/مارس، وصلت أنباء من كاليه عن وفاة اللورد بيرنيرز. ذلك العصر الذي أمضاه في مكتبه، والرياح تعصف في الخارج، يبدو له وهو يفكّر فيه الآن وكأنّه فترة من السلام، آخر ساعة حظي بها لنفسه. أراد أن يقدم عرضاً لكتبه، عرضاً سخياً لمساعدة الليدي بيرنيرز، ولكن بدا أنّ الملفات قفزت عن الرفوف وسار بعضها باتجاه فرانسيس براين، ابن أخت الرجل العجوز، وبعضها باتجاه قريب آخر، هو نيكولاس كارو. سأل هنري: "هلاً عفوت عن ديونه، على الأقلّ من أجل زوجته، فهو لم ينجب...".

"أبناء". فكَر هنري في نفسه: لقد كنت في تلك الحالة البائسة، بلا أبناء، ولكنني سأنجب قريباً وريثاً لي.

أحضر لأن بعض أطباق الميوليق*. كانت كلمة ماشو، أي صبي، قد كتبت على الجهة الخارجية، بينما رسمت في داخلها صور لأطفال شقر وممتلئين. ضحكت حين رأتها. أخبرها أن الإيطاليين يعتقدون أنه كي تتجب المرأة طفلاً ذكراً عليها أن تبقى دافئة. سخني شرابك لتسخني دمك. لا فاكهة باردة، ولا أسماك.

قالت جاين سيمور: "أتظنين أنه تحدّد منذ الآن من سيكون؟ أتظنين أنه يعرف نفسه، أين هو؟ أتظنين أننا لو استطعنا أن نرى ما في داخلك، سيمكننا القول؟".

قالت ماري شيلتون: "جاين، أتمنى لو أنك لا تزالين في ويلتشاير".

قالت آن: "لست بحاجة إلى شقّ بطني، يا سيّدة سيمور. إنه صبي، ولا يحقّ لأحد أن يقول غير ذلك". عبست، وكان واضحاً أنها تركّز على قوّة إرادتها العظيمة.

قالت جاين: "أودّ إنجاب طفل".

أجابتها الليدي روتشفوردي: "كوني حذرة. إن انتفخ بطنك، أيتها السيّدة، سنضطرّ إلى دفنك حيّة".

قالت آن: "في عائلتها، سيقدمون إليها باقة ورود. فسكان وولف هول لا يعرفون معنى العفّة".

احمرّ وجه جاين خجلاً وبدأت ترتجف. "لم أقصد أيّ أذى".

قالت آن: "دعوها، وكأننا نلاحق فأر حقل". التفتت إليه. "لم يصدر مشروع قانونك بعد. أخبرني لمّ التأجيل".

كانت تعني بمشروع القانون، حظر الاستئناف في روما. بدأ يشرح لها قوّة المعارضة، ولكنّها رفعت حاجبيها وقالت: "أبي يتحدّث عنك في مجلس اللوردات، ونورفولك أيضاً. إذاً، من يجرؤ على معارضتنا؟".

"سيصدر بحلول الفصح، كوني واثقة من ذلك".

"المرأة التي رأيناها في كانتربروري، يقال إنّ أتباعها يطبعون كتاباً عن توقعاتها".

"هذا ممكن، ولكن سأحرص على ألاّ يقرأه أحد".

"يقولون إنه في ذكرى القديسة كاترين الفانت، حين كنّا في كاليه، شاهدت رؤيا تتوّج فيها الأميرة ماري المزعومة ملكة". راحت تتكلّم بسرعة وطلاقة، وتقول: "هؤلاء هم أعدائي، تلك المرأة وأتباعها، كاترين التي تتآمر مع الإمبراطور، ابنتها ماري الوريثة المفترضة، مربّية ماري القديمة مارغريت بول، الليدي ساليسبوري، هي وكلّ

عائلتها هم أعدائي، ابنها اللورد مونتاغ، ابنها ريجينالد بول الذي عاش في الخارج، تكلم الناس عن حقّه بالمطالبة بالعرش، فلماذا لم يعد، ويُمتحن ولاؤه؟ هنري كورتني، ماركيز إكسيتير، ظنّ أنه يملك الحقّ بالمطالبة بالعرش، ولكن حين ولد ابنه، تخلى عن غروره. الليدي إكسيتير، جيرترود، كانت تتذمّر باستمرار من أنّ النبلاء يزاحون جانباً من قبل رجال وضيعة الأصل، وأنت كنت تعرف من تعني بذلك".

قالت لها شقيقتها بلطف: "سيّدتي، لا تحزني".

أجابت آن: "أنا لست حزينة". مرّرت يدها على بطنها، وقالت بهدوء: "هؤلاء الناس يريدون موتي".

كانت الأيام لا تزال قصيرة، ومزاج الملك متقلّباً. راح شابوي ينحني أمامه، يتلوّى ويتبسّم، وكأنّه ينوي أن يطلب من هنري الرقص معه. "قرأت بشيء من الحيرة بعض الاستنتاجات التي توصل إليها د. كرانمر...".

قال الملك ببرود: "رئيس أساقفتي". كان حفل تعيينه قد تمّ بتكاليف باهظة.

"... استنتاجات بخصوص الملكة كاثرين...".

"من؟ هل تعني زوجة أخي الراحل، أميرة ويلز؟".

"... يعرف جلالتم أنّ الإعفاءات صدرت بحيث يكون زواجكم شرعياً، أكان الزواج السابق قد اكتمل أم لا".

قال هنري: "لا أريد أن أسمع كلمة إعفاء. لا أريد أن أسمعك تذكر ما تسمّيه زواجي. لا يملك البابا السلطة بتشريع السفاح. أنا لست زوجاً لكاثرين". انحنى شابوي.

قال هنري، بصبر للمرّة الأخيرة: "لو لم يكن عقد الزواج باطلاً، لما عاقبني الله بخسارة أبنائي".

"لم نكن نعرف أنّ كاثرين لم تعد قادرة على الإنجاب". ونظر إليه نظرة خبيثة وحادرة.

قال الملك بصوت بدا فضولياً: "أخبرني، لماذا تظنّ أنّني أفعل ذلك؟ بداعي الشهوة؟ أهذا ما تظنّه؟".

تقتل كاردينالاً؟ تقسّم بلادك؟ تقسّم الكنيسة؟ تتمم شابوي: "يبدو لي ذلك تهووراً". "ولكن هذا ما تظنّه، هذا ما تقوله للإمبراطور، وأنت مخطئ. أنا سيّد هذه البلاد، أيّها السير، وإن ارتبطت الآن بامرأة في زواج مبارك، فالهدف هو إنجاب وريث منها".

"ولكن ما من ضمانة أن ينجب جلالتمك ابناً، أو أطفالاً أحياء على الإطلاق".
"ولم لا؟". احمرّ هنري غضباً. وقف على قدميه، وراح يصيح، ودموع الغضب تسيل على وجهه. "أست رجلاً كباقي الرجال؟ أست مثلهم؟ أست مثلهم؟".
كان رجل الإمبراطور ذكياً وماكراً، ويعرف أنك حين تدفع الملك على البكاء، فعليك التراجع. قال في طريقه إلى الخارج: "ثمّة فرق بين صالح البلاد وصالح أسرة تيودور، ألا تظنّ ذلك؟".

"إدأ، من هو مرشحك لاحتلال العرش؟ هل تفضّل كورتنى أم بول؟".
هرّ شابوي كُمّيه وهو يقول: "لا ينبغي لك السخرية من أصحاب الدم الملكي. على الأقلّ، أنا أعرف الآن رسمياً وضع الليدي، بينما كنت أكتفي في السابق بالاستنتاج من بعض مشاهد الطيش التي رأيتها... هل تعرف يا كريمويل كم من الآمال تعقد على جسد امرأة واحدة؟ فلنأمل ألا يصيبها أيّ أذى، أليس كذلك؟".
قبض على ذراع السفير، وأجبره على الاستدارة. "عن أيّ أذى تتكلّم؟ قل ماذا تعني".

"هلاً رفعت يدك عن ذراعي؟ شكراً. سرعان ما تلجأ إلى استخدام يديك مع الناس، وهذا ينمّ عن أصلك كما يقولون". كانت كلماته مليئةً بالتبجح، ولكنّه كان يرتجف.
"انظر حولك لترى كيف تؤذي بغرورها وادّعائها نبلك. حتّى خالها لا يحتمل حيلها. لا بل إنّ أقدم أصحاب الملك يبتدعون الأعذار لتجنّب المجيء إلى القصر".
قال: "انتظر إلى أن تتوّج، سترى كيف سيأتون جرياً".

في 12 نيسان/إبريل، في أحد الفصح، ظهرت آن مع الملك في القدّاس، ودعي لها كملكة إنكلترا. كان مشروع القانون قد مرّ على البرلمان في اليوم السابق، وتوقع الحصول على مكافأة متواضعة. هكذا، وقبل خروج المجموعة الملكية لتناول الطعام، لوّح له الملك وأعطاه منصب اللورد بيرنيرز القديم، القيم على بيت المال. قال هنري مبتسماً، بيرنيرز هو من اقترح إعطائك إياه. كان يحبّ إعطاء الهدايا، وكأنّه طفل، ويستمتع وهو يفكر كم ستسعد بها.

في أثناء القدّاس، شرد يفكر في مشاكل المدينة. هناك المتدمّرون من أصوات الإوزّ الذين ينتظرونه في البيت، وصفوف الناس في الشارع، والأطفال الذين يُتركون عند أبواب الكنائس، الغلمان الذين يودّون التحدّث إليه. هل قامت أليس وجو بتلوين بيض الفصح؟ أصبحتا شابتين الآن، ولكنهما تحبّان أن تكونا طفلتى المنزل إلى أن يأتي جيل آخر. حان الوقت لبحث لهما عن زوجين. لو ظلّت آن على قيد الحياة،

لأمكنه تزويجها الآن، ولزوجه من رايف، بما أنه لا يزال أعزب. ففكر في هيلين بار، وكم أسرع في تعلم القراءة، وكيف أصبحوا عاجزين عن الاستغناء عنها في أوستن فرايرز. كان يعتقد الآن أن زوجها متوفٍ، وظن أن عليه التحدّث إليها وإخبارها أنها حرة. كانت لائقة جداً في سلوكها لتظهر سعادتها بذلك، ولكن أيّ امرأة لن تسرّ لمعرفة أنها تحررت من رجل مثله؟

خلال القدّاس، ظلّ هنري يتحدّث بصوت منخفض. راح يرتّب الأوراق ويمرّها إلى مستشاريه. وفي أثناء التكريس، ركع على ركبتيه بوقار... وما إن قال الكاهن: "Ite, missa est"، همس: "تعال لرؤيتي بمفردك في المختلى الخاصّ".

كان على رجال البلاط أولاً أداء تحيتهم لأن. ابتعدت السيّدات، وتركنها بمفردها في بقعة صغيرة من نور الشمس. راح يراقب السادة والمستشارين، الذين كان بينهم عدد كبير من أصدقاء الملك القدامى. راقب السير نيكولاس كارو خصوصاً. لم يكن في تحيته للملكة الجديدة عيب يذكر، ولكنه لم يستطع أن يقاوم قلب شفتيه اشمئزاً. أخف عواطفك، نيكولاس كارو. تناهى إليه صوت آن وهي تقول: أولئك هم أعدائي، فأضاف كارو إلى اللائحة.

كان يقع جناح الملك الخاصّ في الجزء الخلفي من القصر، ولا يدخله سوى أصدقاؤه المقربين، بعيداً عن السفراء والجواسيس. هذه منطقة هنري نوريس، الذي هنا بلطف على منصبه الجديد، وابتعد بهدوء.

"كما تعرف، ينوي كرانمر دعوة المحكمة ليحلّ رسمياً ال...". قال هنري إنّه لم يعد يريد أن يذكر زواجه، لذا، لن يلفظ الكلمة حتّى. "طلبت منه الاجتماع في دير دانستايبل، لأنّه لا يبعد سوى عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً عن أمبتهيل، حيث تقطن، وهكذا يمكنها إرسال محاميها إن شاءت، أو المجيء بنفسها إلى المحكمة. أريدك أن تذهب لرؤيتها سرّاً، تحدّث إليها...".

تأكّد من أنّها لا تخبّي مفاجآت.

"اترك رايف معي حين تذهب". حين شعر الملك أنّ قصده فهم تماماً، استرخى وتحسّن مزاجه. "يمكنني الاعتماد عليه ليقول ما كان ليقوله كرومويل. لديك شابّ طيب، كما أنّه أكثر منك براعة في ضبط تعابير وجهه. فأنا أراك حين تضع يدك على فمك ونحن في المجلس. أحياناً، أرغب أنا نفسي في الضحك". تهاوى على كرسي، وغطى وجهه وكأته يرغب في حجب عينيه. لاحظ أنّ الملك على وشك البكاء مجدّداً. "يقول براندون إنّ شقيقتي تحتضر. ما عاد في إمكان الأطباء فعل

شيء لها. هل تذكر شعرها الجميل، الفضيّ، كان شعر ابنتي مثله. حين كانت في السابعة من عمرها، كانت صورة عن أختي، وكأنّها لوحة معلّقة على جدار. أخبرني، ماذا أفعل مع ابنتي؟".

انتظر إلى أن أدرك أنّه سؤال حقيقي. "كن طبيّاً معها، سير. تصالح معها؛ يجب ألاّ تتعذّب".

"ولكن عليّ جعلها ابنة غير شرعية. يجب أن أسلم إنكلترا إلى أولادي الشرعيين".
"سيفعل البرلمان ذلك".

"أجل". تنهّد، ومسح الدموع عن وجهه. "بعد تتويج آن. كرومويل، أمر آخر ثمّ نذهب لتناول الطعام، لأنني جائع جدّاً. بالنسبة إلى مشروع زواج قريبي ريتشارد...".
طاف في ذهنه على أسر إنكلترا النبيلة. ولكن لا، رأى أنّه يعني ريتشارد الخاصّ به، ريتشارد كرومويل. "الليدي كاري..."، لان صوت الملك، "حسناً، فكّرت في الأمر، وأظنّ، كلاً. أو على الأقل، ليس الآن".

هزّ رأسه موافقاً. فهم أسبابه، وحين تفهم أن ذلك، سيجنّ جنونها.

قال هنري: "يعزّيني أحياناً ألاّ أحتاج إلى كثرة الكلام. ربّما ولدت لتفهمني".

تلك كانت نظرته لوضعهما. فقد كان في الثالثة من عمره تقريباً حين أتى هنري إلى هذا العالم، وهي سنوات استغلّها جيّداً. نزع هنري قبّعته المطرّزة، ثمّ وضعها جانباً ومرّر يديه في شعره. كان شعره يتساقط مثل شعر ويات الذهبيّ، مظهرّاً شكل جمجمته الكبيرة. بدا للحظة وكأنّه تمثال منحوت، شكل أكثر بساطة منه، أو أحد أسلافه: واحد من العمالقة الذين هاموا في بريطانيا، ولم يتركوا أثراً لهم سوى في أحلام سلالتهم الصغار.

عاد إلى أوستن فرايرز ما إن أمكنه ذلك. هل يستطيع حقّاً الحصول على يوم عطلة؟ كانت حشود الناس أمام باب منزله قد تفرّقت بعد أن قدّم إليهم ثورستون طعام الفصح. توجهّ أولاً إلى المطبخ لإعطاء طبّاخه قطعة من الذهب ويربّت على رأسه. قال ثورستون: "أقسم إنّه كان ثمّة مئة فم مفتوح، وبحلول العشاء سيعودون مجدّداً".
"من العار وجود متسولين".

"ما يخرج من هذا المطبخ لذيذ جدّاً إلى حدّ أنّ أعضاء من المجلس التشريعي يقفون هناك، ويخفضون قبّعاتهم كي لا نراهم. لديّ هنا منزل مليء بالسكان، سواء أكنت موجوداً معنا أم لا. لديّ فرنسيون، وألمان، وفلورانيون، وجميعهم يدّعون أنّهم يعرفونك ويريدون الطعام حسب أذواقهم، لديّ خدمهم، القليل من هذا، ورشة من

ذاك. علينا إطعام عدد أقل من الأفواه، أو بناء مطبخ آخر."
"سأهتم بهذا الأمر".

"يقول السيد رايف إنك اشتريت من أجل البرج مقلعاً كاملاً في النورماندي. ويقول إن فرنسا أصبحت مليئة بالحفر، وإن الناس يسقطون تحت الأرض."
يا لها من أحجار جميلة، بلون الزبدة. أسماء أربعمئة رجل مدونة على جدول الرواتب، وحين يصبح أحد هؤلاء الرجال عاطلاً، يرسله إلى العمل في البناء في أوستن فرايرز. "ثورستون، لا تدع أحداً يضيف شيئاً إلى طعامنا". قال في نفسه: هكذا أوشك الأسقف فيشر على الموت، ما لم تكن قدراً غير مغلّية في النهاية. ولكن لا يمكن لأحد إيجاد عيب في قدر ثورستون. توجه إليها ورأى محتواها وهي تغلي.
"أين ريتشارد، هل تعلم".

"يقطع البصل على الدرج الخلفي. آه، تعني السيد ريتشارد؟ في الأعلى، يتناول طعامه. أين الجميع في هذه الساعة؟".

صعد إلى الطابق العلوي. رأى أن بيض الفصح يحمل ملامحه بوضوح. رسمت جو قبّعته وشعره، بحيث بدا وكأنه يعتمر قبّعة ذات وقاء للأذنين. وأعطته ذقنين على الأقل. قال غريغوري: "في الواقع، سير، وزنك يزداد فعلاً. حين كان ستيفن فوغان هنا، لم يصدّق".

قال: "كان سيدي الكاردينال مستديراً مثل القمر. وهذا أمر غريب، لأنه لم يكن يجد الوقت للجلوس وتناول الطعام، بل كان مشغولاً دائماً بجلّ الأمور الطارئة، وحتى عندما يجلس إلى الطاولة، لم يكن يأكل بقدر ما يتكلم. أشعر بالأسف على نفسي، فأنا لم أتناول طعاماً منذ الليلة الفائتة". أخذ قطعة من الخبز، وقال: "هانز يريد رسمي".

قال ريتشارد: "أتمنى أن يفعل بسرعة".

"ريتشارد...".

"تناول غداءك".

"بل إفطاري. لا بأس. تعال".

قال غريغوري ساخراً: "العريس السعيد".

قال أبوه مهدداً: "أنت ستذهب شمالاً مع رولاند لي. وإن كنت تظنني رجلاً قاسياً، انتظر حتى تلتقي برولاند".

قال حين دخلوا مكتبه: "كيف هي تمارينك في الميدان؟".

"جيدة. آل كرومويل سيكتسحون الجميع".
كان خائفاً على ابنه، خائفاً من أن يسقط، ويشوه، ويُقتل. وكان خائفاً على ريتشارد أيضاً. فهذان الشابان هما أمل هذا المنزل. قال ريتشارد: "إذاً، هل أنا العريس السعيد؟".

"لقد رفض الملك. وليس ذلك بسبب عائلتي، أو عائلتك، فقد سمّك قريبه. علاقته بنا في هذه الفترة ممتازة برأيي، غير أنه يريد ماري لنفسه. فمن المتوقع أن يولد الطفل في آخر الصيف، وهو يخشى أن يلمس آن. ولا يريد أن يستأنف حياة العزوبية".

نظر إليه ريتشارد. "هل قال ذلك؟".
"تركني أفهم أنه يعني ذلك. وكما فهمته، نقلته إليك، وكلانا مندهشان، ولكننا سنتجاوز الأمر".

"أظنّ لو أنّ الشقيقتين كانتا أكثر تشابهاً، لبدأنا نفهم".
قال: "أظنّ ذلك".

"هو رئيس كنيستنا. لا عجب أن يسخر منّا الغرباء".
"لو كان مثلاً لحسن السلوك في حياته الخاصة، لكننا... فوجئنا... ولكن بالنسبة إليّ، لا أهتم سوى بسلوكه كملك. لو كان مستبدّاً، ويتجاهل البرلمان، لو لم يكن يهتم برأي مجلس العموم، ويحكم بنفسه... ولكنّه لا يفعل ذلك... لذا، لا أستطيع أن أشغل نفسي بكيفية تصرّفه مع نسائه".
"ولكن لو لم يكن ملكاً...".

"آه، أوافقك الرأي، لكان قد سُجن. ولكن، ريتشارد، إن وضعنا ماري جانباً، فسندج أنّ سلوكه كان جيداً. فهو لم يملأ القصر بالأولاد غير الشرعيين، كما يفعل الملوك الاسكتلنديون. عرف نساء، ولكن من يستطيع تسميتهنّ؟ لا نعرف سوى والدة ريتشموند، ونساء بولين. فقد كان متكثماً".

"أظنّ أنّ كاثرين عرفت أسماءهنّ".
"أيّ رجل يعرف أنه سيكون زوجاً مخلصاً؟ هل تعرف أنت؟".
"قد لا أحصل على فرصة لذلك".

"على العكس، لديّ زوجة لك. ابنة توماس مورفين؟ الزواج من ابنة عمدة ليس بالأمر السيئ. وثروتك ستناسب ثروتها، سأحرص على ذلك. كما أنّك تعجب فرانسيس، أعرف لأنني سألتها".

"طلبت من زوجتي الزواج منّي؟".
"كنت أتناول الغداء هناك البارحة. لا جدوى من التأجيل، أليس كذلك؟".
ضحك ريتشارد قائلاً: "ليس بالفعل". تمدد على كرسيه، وبدت الراحة تغمر جسده المثير للإعجاب، الذي لفت نظر الملك. "فرانسيس، جيّد، تعجبني فرانسيس".
وافقت ميرسي. هو لم يعرف ما كان ليكون ردّها فعلها بخصوص الليدي كاري، فهو لم يبحث الموضوع مع النساء. قالت: "لا تتوجّل كثيراً زواج غريغوري. صحيح أنّه لا يزال شاباً، ولكنّ بعض الرجال لا ينضجون حتّى يصبحوا آباءً".
لم يفكّر في الأمر، ولكن قد يكون ذلك صحيحاً. وفي تلك الحالة، ثمّة أمل لمملكة إنكلترا.

عاد بعد يومين إلى البرج. كان الوقت ينقضي بسرعة بين الفصح وموعد تتويج آن. تحقّق من جناحها الجديد وأمر العمّال بالمساعدة على تجفيف الجصّ. فهو يريد البدء باللوحات الجصيّة. تمنّى لو أنّ هانز يستطيع المجيء، ولكنه كان يرسم دو دانتييل، وقال إنّّه يحتاج إلى إنهاء عمله، لأنّ السفير يتوسّل إلى فرانسيس استدعاءه إلى بلاده، ويبعث برسالة شكوى مع كلّ قارب. لن نرسم للملكة الجديدة مشاهد الصيد التي تراها في كلّ مكان، ولا صور القديسين الذين يحملون أدوات التعذيب، بل نساء مبدّلات، وحمائم، وصقوراً بيضاء، وأشجاراً خضراء. في البعيد، سنرسم مدناً على التلال، في مقدمة اللوحة، معابد، وبساتين، وأعمدة متداعية، وسماء زرقاء محدّدة، وكأنّها في إطار، بألوان الفضة والأحمر الزاهي والذهبي الداكن والملكيّة والنيلي والأرجواني. فرد الرسومات التي صنعها الحرفيّون. كانت بومة مينيرفا تبسط جناحها على لوح خشبي، وديانا تضع سهماً في قوسها وهي حافية القدمين، بينما كان أرنب أبيض يراقبها من بين الأشجار. دون ملاحظة للمشرف على الأعمال: ليلوّن السهم باللون الذهبيّ. جميع النساء المبدّلات سوداوات العيون. فجأة، خطرت له فكرة مرعبة: ماذا لو ماتت آن؟ سيرغب هنري في الزواج من امرأة أخرى. سيحضرها إلى هذه الغرفة، وقد تكون عيناها زرقاوين. سيتحتّم علينا حينذاك مسح الوجوه وإعادة رسمها، أمام المدن نفسها، والتلال البنفسجية نفسها.
وقف في الخارج وشاهد شجاراً. كان بناء الحجر والمشرف على بناء الآجر يضربان بعضهما بعضاً بالألواح الخشبية. وقف في الحلبة مع عمّال الطين. "ما الخطب؟".

"لا شيء. على بناء الحجر أن يتعارك مع بناء الآجر".

"مثل لانكاستر ويورك؟".
"أجل".

"هل سمعت عن معركة تاوتون؟ قال لي الملك إن أكثر من عشرين ألف إنكليزي قضاوا فيها".

نظر إليه الرجل مذهولاً، وسأله: "من كانوا يقاتلون؟".
"كانوا يقاتلون بعضهم بعضاً".

كان ذلك في أحد السَّعَف*، من عام 1461. التقى جيشا ملكين خلال عاصفة ثلجية. كان الملك أدوارد، جدّ الملك الحالي، هو المنتصر، إن كان ممكناً اعتباره منتصراً. فقد شكّلت الجثث جسراً متمائلاً فوق النهر. زحفت من بينها أعداد لا تحصى من الناس، وتدحرجوا وتخبّطوا في دمائها، منهم من فقدوا أعينهم، ومنهم من تشوّهوا لمدى الحياة.

كان الطفل الذي تحمله آن في أحشائها هو الضمانة لعدم وقوع المزيد من الحروب الأهلية. إنّه البداية، بداية شيء، الوعد ببلد آخر.

مشى نحو المتعاركين، وصاح فيهما للتوقّف. دفعهما، فترنّحا وسقطا إلى الخلف: إنكليزيّان ضعيفان، عظام هشة. أين هما من المنتصرين في أجينكور. شعر بالسرور لأنّ شابوي لم يكن هناك ليرى.

* * *

كانت الأشجار مورقة حين توجّه إلى بيدفوردشايرد، في قافلة صغيرة، من أجل أعمال غير رسميّة. رافقه كريستوف، وراح يلحّ عليه بالأسئلة: "قلت لي إنك ستخبرني من هو شيشرون، ومن هو ريجينالد بول".

"كان شيشرون رومانياً".

"جنراً؟".

"كلاً، بل ترك ذلك للآخرين. كما كنت أنا مثلاً لأتركه لنورفولك".

"آه، نورفريك"، وأخضع كريستوف الدوق للفظه المميّز. "إنّه الشخص الذي يبوّل على ظلك".

"ربّاه، كريستوف؟ سمعت بالمثل: يبصق على ظلك؟".

"أجل، ولكننا نتحدّث عن نورفريك. وماذا عن شيشرون؟".

"نحاول نحن المحامون أن نحفظ جميع خطاباتنا. فلو كان ثمة رجل الآن على قيد الحياة لديه كلّ حكمة شيشرون في رأسه، لكان..."، لكان ماذا؟ "لكان شيشرون من

مؤيدي الملك".

لم يبذُ على كريستوف الكثير من التأثر. "وبول، أهو جنرال؟".
"بل كان كاهناً. هذا ليس صحيحاً تماماً... كانت لديه مكاتب في الكنيسة، ولكنه
لم يُرسم كاهناً".
"ولماذا؟".

"ليتمكّن من الزواج من دون شكّ. دمه هو الذي جعله خطيراً. فهو بلانتاجيني*.*.
أشقّاؤه هنا في المملكة تحت أعيننا، ولكنّ ريجينالد في الخارج ونخشى أن يتآمر مع
الإمبراطور".
"أرسل أحداً لقتله، أنا أذهب".

"كلاً، كريستوف، أريدك أن تمنع المطر من إتلاف قبّعاتي".
"كما تشاء. ولكنني مستعدّ لقتل بول متى تريد، سيكون هذا من دواعي سروري".
كان قصر أمبتهيل رائعاً بعد تحصينه، بأبراجه العالية ومدخله الخلاب. يقع
القصر على تلة تشرف على الريف والغابات. وهو مكان جميل، من أنواع المنازل
التي تصلح لفترات النقاهاة. بني القصر بأموال كُسبت في الحروب الفرنسية، حين
كان الإنكليز ينتصرون فيها.

قام هنري باختزال عدد خدم كاثرين، ليتناسب مع وضعها الجديد كأميرة ويلز
الموقّرة، ولكنها لا تزال محاطة بالقسيسين وكهنة الاعتراف، وبموظفين، لدى كلّ
منهم حاشيته الخاصّة به من الخدم، والسقاة، ومقطّعي اللحم، والأطباء، والطهاة،
ومساعدي الطهاة، وصانعي الشراب، وعازفي القيثارة، وعازفي المزهر، فضلاً عن
مربّي الدجاج، والجنائنيين، وعاملات الغسيل، والصيدلة، بالإضافة إلى مجموعة من
سيّدات الملابس، وسيّدات غرف النوم، وخادماهنّ. ولكن حين تمّ اصطحابه إلى
الداخل، أشارت إلى مرافقاتها بالانسحاب. لم يخبرها أحد بنيته بالمجيء، ولكن لا بدّ
من أنّ لديها جواسيس على الطريق. لذلك تصرفت وكأنّها منشغلة، كتاب صلاة في
حجرها، وقماشة تطرّزها. ركع احتراماً، وأشار إلى ما تفعله. "بالتأكيد، سيّدي، إمّا
هذا أو ذلك؟".

"إدّاً، الإنكليزية اليوم؟ انهض، كرومويل. لن نضيع الوقت في آخر لقاء لنا في
اختيار اللغة التي سنستخدمها. فأنت رجل كثير الانشغال هذه الأيام".
بعد انتهاء الشكليات، قالت: "أولاً، أنا لن أحضر إلى المحكمة في دانستاييل. هذا
ما أتيت لمعرفة، أليس كذلك؟ أنا لا أعترف بهذه المحكمة. قضيتي في روما، تنتظر

حكم البابا".

"ولكنّه بطيء، أليس كذلك؟". وجّه إليها ابتسامة مريكة.
"سأنتظر".

"ولكنّ الملك يرغب في تسوية شؤونه".

"لديه رجل سيفعل ذلك، وأنا لا أسمىه رئيس أساقفة".

"لقد أصدر كليمنت الأوامر البابوية".

"كليمنت مضلّ، فكرانمر ليس سوى مهرطق".

"ربّما تعتبرين الملك مهرطقاً".

"كلاً، بل مجرد منشقّ".

"إنّ دعي مجلس الكنيسة العامّ إلى الاجتماع، فسيخضع جلالته لحكمه".

"سيكون الأوان قد فات، إنّ حُرْم كنسياً، وطُرد من الكنيسة".

"أنا واثق بأنّك تتمنين، سيّدتي، مثلنا جميعاً، ألاّ يأتي ذلك اليوم أبداً".

"ما من خلاص خارج الكنيسة. حتّى الملوك يخضعون للحساب. هنري يعرف ذلك، وهو خائف".

"سيّدتي، امنحيه الفرصة في الوقت الحاضر، وغداً، من يدري؟ لا تغلقي جميع أبواب التقارب".

"سمعت أنّ ابنة توماس بولين ستتجب طفلاً".

"بالفعل، ولكن...".

توجب على كاثرين أن تعرف أكثر من أيّ كان أنّ هذا لا يضمن شيئاً. فهمت ما

يعني، وفكرت فيه، ثمّ هزّت رأسها. "أرى أنّ الظروف قد تعيده إليّ. فقد درست طباع

تلك الليدي، وهي ليست صبورة ولا لطيفة".

لا أهميّة لذلك، المهمّ أن تكون محظوظة. "في حال عدم انجابهما للأطفال، فعليك

التفكير في ابنتك الليدي ماري. تصالحي معه، سيّدتي، فمن الممكن أن يؤكّدها

كوريثة له. وإنّ أفسحت له في المجال الآن، فسيمنحك كلّ الشرف، فضلاً عن

المنزلة العظيمة".

"منزلة عظيمة!"، نهضت كاثرين، وانزلقت القماشة التي تطرّزها من على حجرها،

وارتطم كتاب الصلاة بالأرض، محدثاً صوتاً مكتوماً، فيما تدرج كشتبانها الفضيّ

على الأرض، ليستقرّ في إحدى الزوايا. "قبل أن تقدّم إليّ مزيداً من العروض

المنافية للعقل، سيّد كرومويل، سأروي لك فصلاً من حياتي. بعد وفاة سيّدي آرثر،

أمضيت خمس سنوات في الفقر. لم أتمكن من دفع الرواتب لخدمتي. كنا نشتري أرخص أنواع الطعام التي نجدها، الطعام الرديء، سمك الأمس، كانت مائدة أصغر تاجر في المملكة أفضل من مائدة ابنة إسبانيا. لم يسمح لي الملك هنري الراحل بالعودة إلى أبي وقال إنه يدين له بالمال. لقد ساوم عليّ مثل النساء اللواتي كنّ يأتين لبيعنا البيض الفاسد. آمنت بالله ولم أياس، ولكنني ذقت مرارة الذلّ".

"إذاً، لماذا تريدان أن تذوقيهما مجدداً؟".
حدّقا إلى بعضهما بعضاً، وجهاً إلى وجه. أضاف: "على افتراض أنّ الذلّ هو كلّ ما في نيّة الملك".
"تكلم بصراحة".

"إنّ تثبت عليك تهمة الخيانة، فسيأخذ القانون مجراه، شأنك شأن أيّ من رعايا المملكة. فابن أختك يهدّد باجتياحنا باسمك".
"لن يحدث ذلك، ليس باسمي".

"هذا ما أقوله، سيّدتي". أضاف بنبرة أكثر لطفاً: "أقول إنّ الإمبراطور مشغول مع العثمانيين وليس مولعاً بخالته - أعذر على ذلك - إلى حدّ إرسال جيش آخر. ولكن ثمة من يقول: آه، اسكت يا كرومويل، ماذا تعرف أنت؟ يقولون إنّ علينا تحصين موانئنا، ومضاعفة عديد جيوشنا، ووضع البلاد في حالة تأهب. فكما تعلمين، شابوي يحرض تشارلز دائماً لحصار مرافئنا، وحجز بضائعنا وسفننا التجارية في الخارج. إنّهُ يحثّه على إعلان الحرب في كلّ رسالة".
"ليست لديّ فكرة عمّا يكتبه شابوي في رسائله".

كانت كذبة مذهلة إلى حدّ أنّها أثارت إعجابه. بعد أن تفوّهت بها كاثرين، بدا عليها الضعف. غرقت في مقعدها، وانحنت لالتقاط ما كانت تطرّزه قبل أن يتمكن من فعل ذلك من أجلها. كانت أصابعها متورّمة، وبدا وكأنّ الانحناء تركها لاهثة. جلست للحظة، تلتقط أنفاسها، وعندما تكلمت مجدداً، كانت هادئة ومترّنة: "سيّد كرومويل، أعرف أنّني خذلتك. أعني أنّني خذلت بلادك، التي اعتبرها بلادي الآن. كان الملك زوجاً صالحاً لي، ولكنني لم أحقق له أهمّ واجبات الزوجة. مع ذلك، كنت، ولا أزال زوجة. كما ترى، يستحيل عليّ التصديق أنّني عشت مومساً لعشرين عاماً. في الحقيقة، لم أخدم إنكلترا كثيراً، ولكنني أكره إيذاءها".
"غير أنّك تفعلين سيّدتي، ربّما لا ترغبين في ذلك، ولكنّ الضرر وقع".
"لا يمكن لكذبة أن تخدم إنكلترا".

"هذا ما يظنّه د. كرانمر، لذلك سيبتل زواجك، سواء أتيت إلى المحكمة أم لا".
"سيُحرم دكتور كرانمر كنسياً هو أيضاً. ألا يخشى ذلك؟ هل فقد عقله؟".

"سيّدتي، رئيس الأساقفة هذا هو أفضل حارس للكنيسة حصلنا عليه منذ قرون عديدة". تذكّر ما قاله باينهام قبل إحراقه، عاشت إنكلترا ثمانمئة عام من التعمية، وستّ سنوات فقط من الحقيقة والنور، ستّ سنوات منذ أن بدأ الكتاب المقدّس يدخل المملكة باللغة الإنكليزية. "كرانمر ليس مهرطقاً. إنّهُ يعتقد بما يعتقد به الملك. سيصلح ما يحتاج إلى إصلاح، هذا كلّ شيء".

"أعرف أين سينتهي ذلك. ستستولون على أراضي الكنيسة وتسلّمونها إلى الملك". ضحكت. "آه، لماذا سكّت؟ ستفعلون. هذا ما تنوون فعله". بدا عليها الجذل، كما يحدث أحياناً لبعض الناس حين يقال لهم إنهم على وشك الموت. "سيّد كرومويل، يمكنك أن تؤكّد للملك أنّني لن أجلب جيشاً لمحاربته. أخبره أنّني أصلي من أجله كلّ يوم. بعض الأشخاص، الذين لا يعرفونه كما أعرفه، يقولون: آه، سيفعل ما يريد، سينقذ رغبته بأيّ ثمن. ولكنني أعرف أنّه يحتاج إلى أن يكون من جانب النور. هو ليس مثلك، يجمع خطاياهم في أكياس ويجرّها خلفه من بلد إلى آخر، وحين تصبح ثقيلة جداً، يصفر لبغل أو اثنين، وسرعان ما يطلب قافلة منها وفريقاً من سائسي البغال. من شأن هنري أن يزيغ عن الصواب، ولكنّه يحتاج إلى الغفران. لذلك، أنا أعتقد، وسأعتقد دائماً، أنّه سيعود إلى طريق الصواب، ليكون في سلام مع نفسه. والسلام هو ما نسعى إليه كلّنا، أنا واثقة من ذلك".

"يا لها من نهاية هادئة توصلت إليها، سيّدتي. السلام هو ما نسعى إليه كلّنا. وكأنّك رئيسة دير. هل أنت واثقة، بالمناسبة، أنّك لا تريدين أن تصبحي رئيسة دير؟".

ابتسامة، ابتسامة عريضة. "يؤسفني ألا أراك مجدداً. أنت أسرع في الكلام من الدوقات".

"الدوقات سيرجعون".

"يسرّني ذلك. هل من أخبار عن الليدي سوفولك؟".

"يقول الملك إنّها تُحتضر. براندون حزين جداً".

تمتت قائلة: "أصدّق ذلك، فدخلها كملكة سابقة لفرنسا يموت معها، وهذا هو أعظم مصدر لإيراداته. مع ذلك، لا شكّ لديّ في أنّك ستدبّر له قرصاً، بمعدل فائدة باهظ". نظرت إليه مضيئة: "ستهمّ ابنتي لدى معرفتها أنّني قابلتك. فهي تعتقد أنّك

كنت لطيفاً معها".
كلّ ما يذكره هو أنّه أعطاهم مقعداً لتجلس عليه. لا بدّ من أنّ حياتها كئيبة جداً لتذكر ذلك.

"يجدر بها البقاء واقفة بانتظار إشارة منّي".
يا لابنتها الصغيرة المعذّبة. قد تبسم، لكنّها لا تتنازل على الإطلاق. ربّما ندم يوليوس قيصر أكثر منها، وحتى هنيبعل.

سألته: "قل لي، هل يقبل الملك بقراءة رسالة منّي؟".
كان هنري يمزّق رسائلها من دون قراءة، أو يحرقها. قال إنّ رسائلها تثير اشمئزازه بما فيها من تعبير عن الحبّ. ولكنّه لم يجرؤ على إخبارها بذلك. "إذاً، استرح لساعة من الزمن، بينما أكتبها. إلّا إن كنت ترغب في تمضية الليلة معنا؟ سأكون مسرورة برفقتك على العشاء".

"شكراً لك، ولكن عليّ العودة، فمجلس الشورى يجتمع غداً. وإن بقيت، فأين أضع بغالي؟ ناهيك عن فريق السائسين".

"آه، الإسطبلات شبه خالية. فالملك حريص على عدم تزويدي بكمية كافية من الجياد. يظنّ أنّني قد أذهب إلى الشاطئ، وأهرب على متن سفينة إلى فلاندرز".
"وهل ستفعلين؟".

لمّ كشتبانها عن الأرض، وأعطاهم إيّاه. جعلته يثب في يدها وكأنّه حجر نرد على وشك أن ترميه.

"كلّاً، سأبقى هنا أو أذهب إلى حيث يتمّ إرسالتي. كما يشاء الملك، كما ينبغي لزوجتي أن تفعل".

قال في نفسه: حتّى يطرد من الكنيسة. هذا سيحرّرك من جميع القيود، كزوجة، وكواحدة من الرعيّة. قال: "هذه لك أيضاً". فتح كفه، كانت تحتوي على إبرة، وطرفها موجّه نحوها.

* * *

سرت شائعة في المدينة عن أنّ توماس مور أصبح فقيراً. راح يضحك مع الوزير غاردينر حول هذا الخبر. قال غاردينر: "كانت أليس أرملة ثريّة حين تزوّج منها، كما أنّ لديه أرضاً خاصّة به، فكيف يمكن أن يصبح فقيراً؟ فضلاً عن بناته، اللواتي زوّجهنّ جميعاً زيجات موفّقة".

"ولا يزال يتقاضى راتب تقاعد من الملك". كان يتفحص بعض الأوراق لستيفن، الذي يستعدّ للمثول كمستشار أوّل لهنري في دانستايل. وقد ربّبت جميع الشهادات

التي أعطيت في جلسات بلاكفرايرز، التي تبدو الآن وكأنها حدثت في زمن آخر. قال غاردينر: "حمانا الله. هل ثمة ما لا تريد ضمّه إلى الإضرابات؟". "إن واصلنا البحث في أعماق هذا الصندوق، فسنعثر على رسائل أبيك الغرامية إلى أمك". نفخ الغبار عن آخر رزمة، وقال وهو يلقيها على الطاولة: "ستيفن، ماذا يمكننا أن نفعل من أجل جون فريث؟ لقد كان تلميذك في كامبريدج. لا تتخلى عنه". ولكن غاردينر هزّ رأسه وانشغل بالوثائق، التي راح يقلبها وهو يتمتم ويهتف متعجباً: "حسناً، من كان ليعرف!" و"هذه نقطة جيّدة".

استقلّ قارباً إلى تشلسي. كان قاضي القضاة السابق مرتاحاً في الردهة، وكانت ابنته مارغريت تترجم من اليونانية بأنين يكاد لا يُسمع. في أثناء اقترابه، سمعه وهو يصحّح لها خطأ ارتكبته. حين رآه مور، قال: "دعينا وحدنا، يا ابنتي. لا أريدك أن تكوني موجودة في صحبة هذا الشيطان". ولكنّ مارغريت نظرت إليه وابتسمت. قام مور من مقعده، وقد بدا عليه شيء من التصلّب، وكأنّ ظهره يؤلمه، ومدّ يده. كان ريجينالد بول، المقيم في إيطاليا، هو الذي يقول إنّه الشيطان. والمشكلة أنّه يعني ذلك. ليست بالنسبة إليه صورة مجازية، كما في القصص الخرافية، بل أمراً يعتبره حقيقياً، تماماً كما يعتبر الكتاب المقدّس حقيقياً. قال: "حسناً، سمعنا أنّك لا تستطيع حضور حفل التتويج لأنك عاجز عن شراء معطف جديد. أسقف وينشيستر مستعدّ لشراء معطف لك بنفسه إن قبلت المجيء". "ستيفن؟ حقاً؟".

"أقسم بذلك". استساغ فكرة الذهاب إلى لندن وطلب عشرة باوندات من غاردينر. "إمّا هذا أو يأمر بصنع مجموعة، إن أردت، مع قبعة جديدة وسترة أيضاً". "وماذا سترتدي أنت؟". تحدّثت مارغريت بصوت لطيف، وكأنّها كلّفت بالعناية بطفلين لفترة ما بعد الظهر. "إنّهم يصنعون لي شيئاً. تركت هذا الأمر للآخرين. يكفيني أن أتجنّب إثارة مرح الحضور".

قالت آن: لا ينبغي لك أن تظهر بملابس محام في حفل التتويج. فاستدعت جاين روتشفورد، التي راحت تدوّن الملاحظات وكأنّها كاتب: على توماس أن يحضر الحفل بملابس قرمزية. قال: "سيّدة روبر، ألا تشعرين بالفضول لرؤية الملكة متوجّة؟".

قاطعها أبوها، وراح يتكلم بصوت أعلى من صوتها: "إنّه يوم عار على نساء

إنكلترا. أصبحنا نسمعهم وهنّ يتحدّثن في الشوارع قائلات: عندما يأتي الإمبراطور، ستحصل الزوجات على حقوقهنّ مجدّداً.

"أبي، أنا واثقة أنّهنّ حريصات على عدم قول ذلك على مسمع من السيّد كرومويل".

تنهّد. ليس من الغريب معرفة أنّ جميع المومسات الشابّات يقفن إلى جانبك. جميع النساء والبنات الهاريات. ومع أنّ أن متروّجة الآن، إلّا أنّها تجعل من نفسها قدوة. فقد قالت له الليدي كاري إنّها صفعت ماري شيلتون لأنّها كتبت لغزاً على كتاب الصلاة الخاص بها، ولم تفعل ذلك بشكل عرضيّ حتّى. تجلس الملكة بانتصاب تامّ هذه الأيام، تطرّز والطفل في أحشائها. وعندما يأتي نوريس وويستون مع أصدقائهما لزيارتها، تنتظر إليهم وهم يبسطون عبارات المدح والإطراء عند قدميها وكأنّهم ينثرون العناكب. وإن لم تقربها بجملة من الكتاب المقدّس، فمن الأفضل ألاّ تفعل على الإطلاق.

سأل: "هل أنت الفتاة لرؤيتك مجدّداً؟ الراهبة؟".

قالت ميغ: "أجل، ولكننا لم نستقبلها".

"أظنّ أنّها ذهبت لرؤية الليدي إكسيتير، بناء على طلب منها".

قال مور: "الليدي إكسيتير هي امرأة منهوّرة وطموحة".

"فهمت أنّ الراهبة قالت لها إنّها ستصبح ملكة إنكلترا".

"أكرّر ما قلت".

"هل تعتقد بالرؤى التي تتحدّث عنها؟ أعني بطبيعتها المبجّلة؟".

"كلاً. أعتقد أنّها دجّالة. هي تفعل ذلك للفت الانتباه".

"أهذا كلّ شيء؟".

"أنت لا تعرف ما يمكن للفتيات فعله، لديّ منزل مليء بالبنات".

صمت قليلاً ثمّ قال: "هذه نعمة".

نظرت إليه، كانت تذكر خسائره، ولكنّها لم تسمع أنّ كرومويل وهي تسأل، لماذا يجب أن يكون للسيدة مور الأفضلية؟ قالت: "سبق وظهرت فتيات مبجّلات، كانت إحداهنّ في إبسويتش، مجرد فتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها. كانت تنتمي إلى عائلة سالحة وقيل إنّها صنعت الغرائب، ولم تحصل على شيء لقاء ذلك، لم تتل أرباحاً شخصيّة، وماتت شابّة".

قال مور، باستمتاع مثير للكآبة: "ولكن، ماذا عن فتاة ليومينستر؟ يقال إنّها الآن

مومس في كاليه، وهي تضحك مع زبائنها بعد العشاء على الحيل التي مارستها على الناس البسطاء".

إذاً، هو لا يحب أولئك الفتيات، على عكس الأسقف فيشر. فقد رآها الأسقف غالباً، وهو يتعامل معها.

قالت ميغ: "قد تكون مشعوذة، هل تظن ذلك؟ فقد ذكرت المشعوذات في الكتاب المقدس، يمكنني أن أستشهد لك بجمل منه".

كلاً رجاءً. قال مور: "ميغ، هل أخبرتك أين وضعت الرسالة؟". نهضت، ووضعت خيطاً في الموضع الذي بلغته في الكتاب اليوناني. "لقد كتبت رسالة إلى هذه المرأة، بارتون... علينا دعوتها بالسيّدة إليزابيث، فهي الآن راهبة مُعترف بها. لقد نصحتها بمغادرة المملكة بهدوء، والتوقف عن إزعاج الملك بتوقعاتها، وتجنّب رفقة الرجال والنساء العظماء، والإصغاء إلى مستشاريها الروحيين، وباختصار، البقاء في البيت وتلاوة صلواتها".

"كما ينبغي لنا جميعاً، سير توماس، تماماً كما تفعل". هزّ رأسه بقوة. "آمين. وأظنّ أنّ لديك نسخة عنها؟".

"أحضريها، ميغ، وإلا فلن يرحل".

أعطى مور ابنته بعض التعليمات السريعة. ولكنّه شعر بالسرور لأنّه لا يأمرها بتلفيق رسالة على الفور. قال: "سأغادر في الوقت المناسب، فأنا لا أريد تقويت حفل التنويج. لديّ ملابس جديدة لأرتديها. ألن تأتي لتكون برفقتنا؟".

"سترافقون بعضكم بعضاً، في الجحيم".

هذا ما نسيته، حدّته، قدرته على إطلاق النكات الملتوية، من دون قبولها.

قال: "تبدو الملكة بخير. أعني ملكتك، لا ملكتي. تبدو مرتاحة جدّاً في أمبتهيل، ولكن أنت تعرف ذلك من دون شكّ".

قال مور، من دون أن يرفّ له جفن: "لا مراسلات بيني وبين الأميرة". فقال له: "جيد، لأنني أراقب راهبين كانا ينقلان الرسائل إلى الخارج، وقد بدأت أعتقد أنّ الرهبان الفرنسيين يعملون ضدّ الملك. إن عثرت على شيء ضدّهما، ولم أتمكّن من إقناعهما، مع أنّي بارع في الإقناع، بتأكيد شكوكي، قد ألجأ إلى تعليقهما من أيديهما، وأجعلهما يتباريان من منهما يعود إلى صوابه أولاً. بالطبع، أميل أكثر إلى أخذهما إلى البيت، وإطعامهما وإعطائهما شراباً قوياً، ولكن، سير توماس، لطالما أعجبت بك، وكنت أستاذي في هذه الأمور".

كان عليه قول ذلك قبل عودة مارغريت روبر. دقّ بأصابعه على الطاولة ليجبر مور على الجلوس والإصغاء إليه. قال: "جون فريث. اطلب رؤية هنري، سيستقبلك وكأَنَّك طفل ضائع. تحدّث إليه واطلب منه مقابلة فريث وجهاً لوجه. أنا لا أسألك موافقة جون على رأيه، فأنت تظنّه مهترطاً، وقد يكون كذلك، كلّ ما أطلبه منك هو التنازل في هذه النقطة وحسب، وأن تخبر الملك أنّ فريث ذو روح طاهرة، وهو تلميذ جيّد، لذا، دعه يعيش. إن كانت عقيدته غير صحيحة، وعقيدتك هي الصائبة، يمكنك إقناعه باعتناقها مجدّداً، فأنت رجل فصيح، أنت أعظم مقنع في عصرك، وليس أنا. أقتعه بالعودة إلى حظيرة روما إن استطعت. ولكن إن مات، فلن تعرف أبداً ما إذا كان بمقدورك أن تكسب روحه، أليس كذلك؟".

سُمع وقع أقدام مارغريت. "أهذه هي، يا أبي؟".

"أعطيه إيّاها".

"ثمّة نسخ عن النسخة، على ما أظنّ؟".

قالت الفتاة: "توقّع منّا أن نأخذ جميع الاحتياطات المعقولة".

"كنّا نتحدّث أنا ووالدك عن الرهبان والأخوة. كيف يمكن لهم أن يكونوا من رعايا الملك الصالحين إن كانوا يدينون بالولاء لرؤساء رهبانيّتهم، الذين يقيمون في الخارج في دول أخرى، والذين هم ربّما من رعايا ملك فرنسا أو الإمبراطور؟".

"أفترض أنّهم يبقون إنكليزيّين".

"لم أعرف سوى عدد قليل من الأشخاص الذين يتصرّفون على هذا الأساس. سيشرح لك والدك ما أعنيه". انحنى لها. أخذ يد مور، وأمسك أوتارها المتغيّرة في كفه. غريب كيف تزول الندوب. لقد أصبحت يده الآن بيضاء، مثل يد نبيل، تتساب بشرتها بسلاسة فوق المفاصل، مع أنّه ظنّ في الماضي أنّ آثار الحروق والخدوش التي يصاب بها أيّ حدّاد خلال عمله، لا يمكن أن تزول.

عاد إلى البيت. أتت هيلين بار لملاقاته. قال: "كنت أصطاد، في تشيلسي".

"هل اصطدت مور؟".

"ليس اليوم".

"وصلت ملابسك".

"حقاً؟".

"قرميّة".

"ربّاه!". ضحك متابعاً: "هيلين..."، نظرت إليه، وبدا عليها الترقّب. "لم أعرّ على

زوجك".

كانت يداها غارقتين في جيبي مئزرها. تحرّكتا وكأنهما تحملان شيئاً. لاحظ أنّ إحدى يديها تمسك بالأخرى. "إذاً، تظنّ أنّه مات؟".
"من المنطقي اعتقاد ذلك. فقد تحدّثت إلى الرجل الذي رآه يذهب عبر النهر. يبدو شاهداً جيّداً".

"إذاً، أصبح في إمكاني الزواج مجدّداً، إن رغب فيّ أحد؟".
استقرّت عينا هيلين على وجهه. لم تقل شيئاً، بل اكتفت بالوقوف صامتة. بدا وكأنّ اللحظة دامت طويلاً. ثمّ: "ماذا حلّ بلوحتنا؟ أعني تلك التي تصوّر رجلاً يحمل قلبه الذي يبدو على شكل كتاب؟ أو كتابه الذي يبدو على شكل قلب؟".
"أعطيتها إلى رجل من جينوفا".
"لماذا؟".

"أردت أن أدفع من أجل رئيس أساقفة".
تحرّكت ببطء وتردّد. أبعدت نظرها عن وجهه. "هانز هنا. كان بانتظارك. إنّه جائع، ويقول إنّ الوقت من ذهب".
"سأعوّض عليه".

كان هانز يستريح من الاستعدادات لحفل التتويج. فهو يبني نموذجاً حياً لجبل بارناسوس في شارع غرايستشيرتش، وعليه اليوم وضع النساء المبحّلات التسع هناك. لذا، لم يعجبه التأخير الذي تسبّب به توماس كرومويل. سمع صوت جلبة من الغرفة المجاورة. بدا أنّه ينقل الأثاث.

أخذوا فريث إلى قصر رئيس الأساقفة في كرويدون، ليراه كرانمر. كان في مقدور رئيس الأساقفة الجديد رؤيته في لامبيث، ولكنّ الطريق إلى كرويدون أطول، ويمتدّ في الغابات. قالوا له في أعماق تلك الغابات: "سيكون يومنا سيئاً إن قرّرت الهرب منّا، لأنّ الأشجار كثيفة جدّاً من جهة واندسوورث، كما ترى. يمكن إخفاء جيش هناك. قد نمضي يومين، وربّما أكثر، ونحن نبحث، وإن ذهبنا شرقاً، باتجاه كينيت والنهر، ستقرّ بعيداً قبل أن نصل إلى هناك".

ولكنّ فريث عرف طريقه، فهو ذاهب إلى موته. وقفوا في الطريق يصفرون ويتحدّثون عن الطقس. بول أحدهم على جذع شجرة، وراح آخر يلاحق طيراً بين الأغصان. ولكن حين عادوا، كان فريث ينتظر بهدوء استئناف رحلته.
أربعة أيّام. موكب من خمسين مركباً للاحتفالات، مؤتّثة من قبل شركات المدينة.

استغرقت رحلتها من المدينة إلى بلاكوال ساعتين، وكانت حبال أشرعتها مزينة بالأجراس والأعلام التي يحركها نسيم خفيف، تماماً كما طلب في صلواته. اعكسوا الترتيب، فليرسُ المركب عند أبواب قصر غرينيتش، أحضروا الملكة بمركبها الخاص، مركب كاثرين القديم الذي تمّ تغيير شارته وزود بأربعة وعشرين مجذافاً، ومن ثمّ وصيفاتها وحارسها وجميع زخارف بلاط الملك، جميع الأرواح الفخورة والنبيلة التي أقسمت إنّها ستخرب الاحتفال. كانت المراكب مليئة بالعازفين، ثلاثمئة زورق عائم، رايات وأعلام ترفرف، الموسيقى تصدح من ضفة إلى أخرى، وأبناء لندن مصطقون على الضفتين. اتّجهت المراكب نزولاً مع التيار، يقودها تنين مائي ينفث النار. أمّا السفن البحرية فأطلقت مدافعها تحية.

حين وصلوا إلى البرج، كانت الشمس على وشك المغيب. بدا التايمز وكأنّه ملتهب. كان هنري ينتظر لتحية آن عند وصولها. قبلها من دون رسميّات، ثمّ شدّ ثوبها من الجانبين ليظهر بطنها لإنكلترا.

بعد ذلك، منح الملك رتبة الفروسية لرهط من آل هاورد، وآل بولين، وأصدقائهم، وأتباعهم. جلست آن.

لم يحضر الخال نورفولك الحفل. فقد أرسله هنري إلى الملك فرانسيس لإعادة تأكيد الحلف الودّي بين المملكتين. ومع أنّه إيرل مارشال وكان ينبغي له أن يكون مسؤولاً عن التتويج، ولكن كان ثمة فرد آخر من أسرة هاورد ناب عنه، كما أنّ توماس كرومويل كان يدير كلّ شيء، بما في ذلك الطقس.

تشاور مع آرثر لورد ليسل، الذي سيتراأس مأدبة الاحتفال: آرثر بلانتاجينيت، أثر صغير من عصر سابق. كان عليه الذهاب إلى كاليه، بعد الاحتفال مباشرة، للحلول محلّ اللورد بيرنرز كحاكم، وكان على كرومويل تزويده بالتعليمات الأساسية قبل رحيله. كان يمتاز ليسل بوجه بلانتاجيني طويل ونحيل، وطول فارع مثل أبيه الملك إدوارد، الذي يملك عدداً كبيراً من الأولاد غير الشرعيين من دون شكّ، ولكنّ أيّاً منهم ليس بفخامة هذا الرجل العجوز الذي ركع إجلالاً لابنة بولين. كانت زوجته الثانية، هونور، تصغره بعشرين عاماً، وتبدو قصيرة ومرهفة وكأنّها دمية. كانت ترتدي الحرير الأصفر، وترتّب نفسها بالأساور المرجانية والقلوب الذهبية، بينما ارتسمت على وجهها تعابير الاستياء. رمقته من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه: "أفترض أنّك كرومويل؟". لو تحدّث إليك رجل بتلك النبرة، لكنت ستدعوه إلى الخارج وتطلب من أحدهم حمل معطفك.

اليوم الثاني: إحضار أن إلى ويستمينستر. نهض قبل شروق الشمس، وراقب من الفتحات تفرّق الغيوم الرقيقة فوق ضفة بيرموندسي، بينما حلّ الدفء الذهبي محلّ برد الصباح القارس.

قادت موكبها حاشية السفير الفرنسي. تبعها القضاة بأثوابهم القرمزية، والفرسان بالملابس الزرقاء البنفسجية قديمة الطراز، ومن ثمّ الأساقفة، قاضي القضاة أودلي، اللوردات الكبار بالأثواب المخملية القرمزية. ستة عشر فارساً حملوا أن على حمالة بيضاء علّقت فيها الأجراس الفضيّة التي كانت ترنّ مع كلّ خطوة، مع كلّ نفس. كانت الملكة ترتدي الأبيض، وكان جسدها يلمع ببشرته الغريبة، وعلى وجهها ابتسامة مهيبة، فيما أسدل شعرها تحت طوق من الجواهر. خلفها، تقدّمت سيّدات على أحصنة البلفري* المزينة بالمخمل الأبيض، فيما جلست النبيلات العجائز في عرباتهنّ، وبدت وجوههنّ متقلّصة.

عند كلّ منعطف، كان ثمة مهرجانات وتمائيل حيّة، ذُكرت فيها فضائلها وقُدّمت هدايا من الذهب من خزائن المدينة. وكان الصقر الأبيض الذي يمثّل شعارها متوجّاً ومزينةً بالورود، بينما راحت أقدام الفرسان الستّة عشر تسحق الأزهار التي نُثرت، ليفوح عبرها في الهواء. علّقت الرايات والسجاد المزدان بالرسومات على جوانب الطريق، كما تمّ فرش الأرض التي ستدوسها الأحصنة بالحصى، بناءً على أوامره، لمنع الانزلاق، وتمّ حجز الحشود خلف السياج تحسّباً لوقوع أعمال شغب أو تدافع. وكان قد تمّ حشد جميع ضباط الأمن في لندن، وتوزيعهم بين الجماهير لأنّه لم يشأ أن يأتي يوم يروي فيه شخص ما أحداث هذا اليوم لمن كانوا غائبين عنه ويقول أحدهم: آه! حفل تتويج الملكة آن، ذاك هو اليوم الذي سُرقت فيه نقودي. شارع فانتشيرتش، ليدينهول، تشيب، كنيسة بول، فليد، تامبيل بار، ويستمينستر هول. كانت النوافير تفيض بالشراب إلى حدّ أنّه صعب إيجاد نافورة يتدفّق فيها الماء. وبالنظر إليهم، إلى أبناء لندن الآخرين، أولئك الوحوش الذين يعيشون في الهواء، سكّان المدينة الذين لا يُعدّون ولا يُحصّون من الرجال والنساء ومعهم الحيوانات الحجرية، وأشياء لا تصنّف لا بشريّة ولا حيوانيّة، من أرانب ذات مخالب وأرانب وحشيّة طائرة، إلى طيور ذات أربع قوائم وأفاع مجنّحة، وكائنات غريبة ذات أعين جاحظة ومناقير بطّ، ورجالٍ مكّليين بالأوراق أو مخلوقات برؤوس ماعز أو خرفان؛ مخلوقات ذات أسلاك معقّدة وأجنحة جلدية، ذات آذان مكسوّة بالشعر وأقدام مشقوقة، ذات قرون وزئير، وريش وحراشف، بعضها يضحك، وبعضها يغني، وبعضها يشدّ

شفتيه إلى الخلف ليظهر أسنانه؛ أسود ورهبان، حمير وإوز، مخلوقات مرعبة محشوة بطونها، سُحقت كلّها باستثناء أقدامها العاجزة المتمايلة؛ من الجير أو الرصاص، من المعدن أو الرخام، تصرخ وتضحك بصوت يعلو على صراخ الجماهير، تصيح استهجاناً، وتئنّ وتنتهد، من الأعمدة، والجدران، والسطوح.

تلك الليلة، أخذ إنداً من الملك، وعاد إلى أوستن فرايرز. زار جاره شابوي الذي تجنّب حضور أحداث النهار، وأغلق نوافذه، وصمّ أذنيه عن ضجيج الحشود وطلقات المدافع الاحتفالية. سار في موكب صغير ساخر يقوده ثورستون، وأخذ للسفير الحلوى للتخفيف من عبوسه، فضلاً عن بعض الشراب الإيطالي الذي أرسله إليه دوق سوفولك.

حيّاه شابوي من دون ابتسام. "حسناً، لقد نجحت حيث فشل الكاردينال، أخيراً نال هنري مراده. قلت لسيدتي، الذي يستطيع النظر إلى هذه الأمور من دون تحيّز، من المؤسف من وجهة نظر هنري أنّه لم يأخذ كرومويل مستشاراً له منذ سنوات طويلة. لو فعل، لسارت أموره على نحو أفضل بكثير". كان على وشك أن يقول: الكاردينال هو من علّمني كلّ شيء، ولكنّ شابوي لم يتح له مجالاً للحديث. "حين كان الكاردينال يواجه باباً مغلقاً، كان يمدحه قائلاً: أه! أيّها الباب الجميل المطواع! ثمّ يحاول أن يتحايل عليه لفتحه. وأنت مثله تماماً، مثله تماماً". سكب لنفسه بعضاً من هديّة الدوق. "ولكن حين يعصى عليك، تركله بكلّ بساطة".

كان الشراب واحداً من تلك الأنواع الفاخرة التي يحبّها براندون، فشربه شابوي بإعجاب وقال: "لا أفهمه، لا أفهم شيئاً في هذه البلاد الجاهلة. هل كرانمر هو البابا الآن؟ أم هنري هو البابا؟ ربّما أنت البابا؟ قال رجالي الذين كانوا اليوم بين الناس إنهم سمعوا بعض الأصوات التي ارتفعت لتأييد العشيقة، وقليلاً من الأصوات التي طلبت من الله مباركة كاثرين، الملكة الشرعية".

"حقاً؟ إذاً، لا أدري في أيّ مدينة كانوا".

تنهد شابوي: "قد يتساءلون فعلاً. هذه الأيام، الملك محاط بالفرنسيين وحسب، وبولين نصف فرنسية أيضاً، وقد اشتروها بالكامل، فعائلتها كلّها في جيب فرانسيس. أمّا أنت يا توماس، فلست مأخوذاً بأولئك الفرنسيين، أليس كذلك؟".

طمأنه قائلاً: "إطلاقاً، يا صديقي العزيز".

بكى شابوي، ما أثار استغرابه: "يا لجودة الشراب الفاخر. لقد خيّبت أمل سيدي الإمبراطور، خيّبت أمل كاثرين".

"لا بأس". قال في نفسه: غداً معركة أخرى، غداً عالم آخر.

وصل إلى الدير فجراً. كان الموكب سيجتمع عند الساعة السادسة وسيشاهد هنري حفل تتويج من مقصورة ذات نافذة، معزولة ضمن الجدران المرسومة. حين دخلها عند حوالي الساعة الثامنة، كان الملك جالساً على وسادة مخملية، وقد ركع أمامه خادم يقدم إليه الإفطار. قال هنري: "سينضم إليّ السفير الفرنسي". والتقى بذلك السيّد وهو يسرع خارجاً.

"سمعت أنّه يتمّ رسمك، سيّد كريمويل. أنا أيضاً طلبت رسمي. هل رأيت النتيجة؟".
"ليس بعد، فهانز مشغول جداً". حتّى في هذا الصباح الجميل، هنا تحت هذه القناطر، بدا السفير أزرق اللون. قال: "في الواقع، يبدو أنّه بتتويج هذه الملكة، توصلت أمّتنا إلى حالة من الصداقة التامة. كيف يمكن تحسينها برأيك، سيّدي؟".
انحنى السفير: "داونهيل من هنا؟".

"فلنحاول الحفاظ على حالة من النفع المتبادل عندما يبدأ ملكانا بمهاجمة بعضهما بعضاً مجدداً".

"اجتماع آخر في كاليه؟".

"ربّما بعد عام".

"ليس قبل ذلك؟".

"لن أطلب من ملكي ركوب البحر من دون سبب".

"سنتحدّث في الأمر، كريمويل". وربّت السفير بكفّه المسطحة على صدره، فوق قلبه.

اجتمع موكب أن عند الساعة التاسعة. كانت ترتدي عباءة مخملية بنفسجية، أطرافها مزينة بفراء القاقم. كان عليها أن تسير سبعمئة ياردة (630 متراً)، على القماش الأزرق المفروش حتّى المذبح، وكانت البهجة تشعّ في وجهها. خلفها، مشت دوقة نورفولك المسنّة، تحمل ذيل رداؤها. وعلى مسافة أقرب، مشى أسقف وينشيستر من جهة، وأسقف لندن من جهة أخرى، يحملان طرف ثوبها الطويل. كان كلاهما، أي غاردينر وستوكسلي، من الأشخاص الذين ساندوا الملك في قضية الطلاق، ولكن يبدو عليهما الآن أنّهما يتمنّيان لو كانا بعيدين جداً عن المرأة التي تزوّجها الآن، المرأة التي يلمع جبينها العالي بطبقة رقيقة من العرق، والتي بدت شفتاها المشدودتان، حين وصلت إلى المذبح، وكأنّهما اختفتا في وجهها. من قال إنّهُ يتعيّن على أسقفين حمل طرفي ثوبها؟ كلّ هذا مكتوب في كتاب عظيم، قديم إلى حدّ أنّ

أحداً لا يجرؤ تقريباً على لمسه، أو التنقّس قربه. ولكن بدا أنّ ليسل يعرفه عن ظهر قلب. فكّر في أنّه يجدر ربّما نسخه وطباعته.

دوّن ذلك في ذهنه، ثم ركّز تفكيره على أن: ألاّ تتعثّر وهي تتحني على الأرض لتضع جبينها أمام المذبح وهي تصلي. تقدّمت وصيفاتها إلى الأمام لمساعدتها في مسافة الاثني عشر إنشاً (30 سم) الحيوية قبل أن يرتطم بطنها بالأرض. وجد نفسه يصلي: فلتظهر هذه اللحظة هذا الطفل، بقلبه غير المكتمل الذي ينبض الآن فوق الأرض الحجريّة، وليكن مثل والده، مثل أعمامه من أسرة تيودور، فليكن قوياً، ذكياً، ماهراً في اقتناص الفرص، ينتزعها من فم الأسد. إن عاش هنري عشرين عاماً، هنري الذي تأثر ببولزي كثيراً، ثم ترك ابنه ليخلفه، فسيمكنني أن أربي أميرى بنفسى: لتمجيد كومونويلث إنكلترا. لن أكون حينذاك مسناً جداً. فما هو نورفولك في الستين من عمره، وكان أبوه في السبعين من عمره حين حارب في فلودن. ولن أكون مثل هنري ويات وأقول: سأتقاعد الآن من العمل. فما هي الحياة، سوى عمل؟

نهضت أن لتقف مجدداً وهي ترتعش. وضع كرانمر، الواقف في دخان كثيف من البخور، الصولجان في يدها، عصا العاج، ثم وضع تاج سان إدوارد قليلاً على رأسها، قبل أن يبدله بتاج أخفّ وزناً: شعوذة، قام بها بخفة وكأنه كان يبدل التيجان طيلة حياته. بدا الأسقف متحمساً نوعاً ما، وكأنّ أحدهم قدّم إليه كوباً من الحليب الدافئ.

انسحبت آناً، بعد أن مُسحت بالزيت لتكريسها، وكان البخور يحيط بها ويبتلعها بدخانها. انسحبت آناً ريجينا إلى غرفة جُهّزت من أجلها، لتستعدّ للمأدبة التي ستقام في ويستمينستر هول. مرّ بسرعة بين أصحاب المقامات الرفيعة - كلّكم، كلّكم قلتم إنكم لن تحضروا - ورأى تشارلز براندون، على صهوة جواده الأبيض، جاهزاً لدخول القصر معهم. بدا ضخماً وملفتاً، ولكنّه أشاح بنظره عنه. فكّر، لن يعيش تشارلز أكثر منّي هو أيضاً. عاد إلى الداخل، نحو هنري. لم يوقفه سوى شيء واحد، طرف رداء قرمزيّ خاطف؛ لا شكّ في أنّه أحد القضاة الهاربين من موكبه.

كان السفير الإيطالي يقف في مدخل مقصورة هنري، ولكنّ الملك أشار إليه للابتعاد جانباً وقال: "كرومويل، ألم تبدّ زوجتي بحال جيّدة، ألم تبدّ جميلة؟ هل لك بالذهاب لرؤيتها، وإعطائها...". نظر حوله بحثاً عن هديّة ممكنة، ثمّ نزع خاتماً ماسياً من إصبعه، "هلاً أعطيتها هذا؟". قبل الخاتم. "وهذه أيضاً؟".

قال: "أمل أن أنقل لها الإحساس". وتنهّد، وكأنه كرانمر.

ضحك الملك، وتألّق وجهه. قال: "هذا هو الأجل، هذا أجمل أيّامي".
قال السفير وهو ينحني: "حتّى الولادة، يا جلالة الملك".

كانت ماري هاورد، ابنة نورفولك الصغيرة، هي من فتح الباب له.
قالت: "كلاً، بالتأكيد لا تستطيع الدخول. لا يمكنك إطلاقاً، فالمملكة لم ترتد
ملابسها بعد".

فكرّفي نفسه: ريتشموند على حقّ، فهي مسطّحة الصدر وغير مغرية. مع ذلك،
بالنسبة إلى ابن أربعة عشر عاماً، ساجذب الأنسة هاورد الصغيرة هذه. فوقف
يمطرها بعبارات المديح ويثني على ثوبها ومجوهراتها، إلى أن تنهى إليه صوت من
الداخل، صوت مكتوم وكأنّه خارج من قبر. فقفزت ماري هاورد وقالت: "آه، حسناً،
يمكنك رؤيتها إن قالت ذلك".

كانت ستائر السرير مغلقة، ففتحها. رأى آن ممدّدة. بدت وكأنّها شبح مسطّح،
باستثناء بطنها المنتفخ بطفل في الشهر السادس. كانت ملابس الاحتفال تخفي
حملها إلى حدّ كبير، ولم يظهر إلّا في اللحظة التي ركعت فيها على الأرض، تلك
اللحظة التي ربطته بجسدها، الممدّد الآن وكأنّه قربان. بدا صدرها المنتفخ فوق
الغطاء، وكانت قدمها المتورّمتان حافيتين.

قالت: "ربّاه! ألا تستطيع أن تدع نساء هاورد وشأنهنّ؟ بالنسبة إلى رجل قبيح، أنت
شديد الثقة بنفسك. دعني أنظر إليك". رفعت رأسها. "أهذا قرمزيّ؟ إنّه قرمزيّ داكن
جداً. هل خالفت أوامري؟".

"قال قريبك فرانسيس براين إنني أبدو مثل كدمة منتقّلة".
علّقت جاين روتشفورد وهي تضحك: "كدمة في الجسم السياسي".
سألها بشيء من الريبة، بشيء من الحنان: "هل أنت قادرة على ذلك؟ تبدين
منهكة".

"آه، أظنّ أنّها ستحتمل". لم يكن صوت ماري مشوباً بأيّ فخر أخويّ. "لقد وُلدت
من أجل هذا، أليس كذلك؟".

جاين سيمور: "هل الملك يشاهد؟".
"إنّه فخور بها". تحدّث إلى آن الممدّدة على فراشها. "يقول إنّه لم يرك يوماً بهذا
الجمال، ويرسل إليك هذا".

أصدرت آن صوتاً ما بين الأنين والامتتان والسأم: "آه، ماذا، ماسة أخرى؟".
"وقبله، قلت إنّه من الأفضل أن يحضرها بنفسه".

لم تظهر رغبة في أخذ الخاتم منه. كانت رغبته في وضعه على بطنها والخروج لا تقاوم تقريباً. عوضاً عن ذلك ناول أختها إيّاه. قال: "الحفل ينتظر سموك. تعالي حين تصبحين جاهزة، وليس قبل ذلك".

جلست وهي تشهق. "أنا آتية الآن". انحنى ماري هاورد وفركت أسفل ظهرها، بيدها غير المتمرسّة، بحركة خفيفة وكأنّها تملّس ريش طائر. قالت الملكة المكرّسة بصوت لاذع: "آه، اذهبي". بدا عليها الاشمئزاز. "أين كنت مساء أمس؟ كنت أريدك. كان الناس في الشوارع يهلّلون لي، لقد سمعتهم. يقولون إنّ الناس يحبّون كاثرين، ولكنهم في الواقع يشفقون على المرأة وحسب. سنريهم شيئاً أفضل، وسيحبّونني حين ترحل عني هذه المخلوقة".

جاين روتشفورد: "آه، ولكن سيّدتي، هم يحبّون كاثرين لأنّها ابنة ملكين مكرّسين. اعرفي، سيّدتي أنّهم لن يحبّوك أبداً أكثر ممّا يحبّون... كرومويل هذا. لا علاقة للأمر بمزياك. إنّهُ واقع، ولا جدوى من محاولة تجاهله".

قالت جاين سيمور: "أظنّ أنّ هذا يكفي". التقت إليها ورأى أمراً عجيباً، فقد كبرت. قالت جاين روتشفورد: "ليدي كاري، علينا مساعدة أختك للنهوض وارتداء ملابسها مجدّداً، لذا، رافقي السيّد كرومويل إلى الخارج واستمتعا بأحاديثكما المعتادة. لا ضرورة لتغيير العادات اليوم".

عند الباب، سألتها: "ماري؟". فقد لاحظت الهالتين الداكنتين حول عينيها. "نعم؟". تحدّثت بنبرة وكأنّها تقول: "نعم، ماذا تريد الآن؟". "أنا آسف لأنّ الزواج من ابن أختي لم يتمّ". ابتسمت وقالت بتصلب: "أنا لم أسأل أساساً. لن أرى منزلك أبداً، مع أنّي أسمع عنه كثيراً".

"وماذا تسمعين؟". "آه... أسمع عن الصناديق التي تفيض بالذهب". "يجب ألاّ نسمح بهذا أبداً. علينا إحضار صناديق أكبر حجماً". "يقال إنّها أموال الملك".

"كلّ الأموال هي أموال الملك، فصورته عليها. اسمعي يا ماري"، أخذ يدها، وتابع قائلاً: "لا يمكنني ثنيه عن حبك. فهو...". "هل حاولت حقاً؟".

"كنت أمل أن تكوني بأمان معنا، مع أنّه بالطبع ليس بالزواج العظيم الذي

تتوقعينه، بصفتك شقيقة الملكة".

"أشكّ في وجود كثير من الشقيقات اللواتي يتوقعن ما أحصل عليه كلّ ليلة".
فكّر في نفسه: ستتجب طفلاً آخر من هنري. في هذه الحال، ستخنقه أن في مهده. "صديقك ويليام ستافورد في البلاط. على الأقل، أظنّ أنّه لا يزال صديقك؟".
"تخيّل كم يعجبه وضعي. مع ذلك، والدي يعاملني بلطف على الأقلّ. فقد وجد المونسنيور أنّه يحتاج إليّ مجدداً. لا قدر الله أن يركب الملك مهرة من اسطبل آخر".

"سينتهي هذا، سأحرّرك. سيعطيك تسوية، معاشاً. سأحدّث إليه من أجلك".
"هل يمكن لفوطة أطباق متسخة أن تحصل على معاش؟"، تمايلت ماري في مكانها، وبدا وكأنّها تشعر بالدوار من شدّة بؤسها وتعبها. فاضت عيناها بالدموع. وقف يلتقطها ويمسحها ويهمس لها لتهدئتها، راغباً في أن يكون في مكان آخر. حين ابتعد عنها، ألقى عليها نظرة وهي تقف عند الباب، بأسّة. فكّر في أنّ عليه فعل شيء لأجلها، فهي تفقد جمالها.

كان هنري جالساً على شرفة عالية فوق ويستمينستر هول، يشاهد ملكته وهي تجلس في مكان الشرف، تحيط بها وصيفاتها، نخبة البلاط ونبلاء إنكلترا. كان الملك قد تناول طعامه في وقت سابق، وهو الآن يجلس أمام طبق من التوابل، يغمس شرائح رقيقة من التفاح في القرفة. ومعه على الشرفة السفير الفرنسي جان دو دانتييل، الذي يرتدي الفراء اتقاءً لبرد حزيران/يونيو، وصديقه أسقف لافور، الذي يلفّ نفسه برداء من البروكار الفاخر.

قال دو سيلف: "يا له من احتفال رائع، يا كريمويل!". وشمله بنظرة من عينيه البنيتين الماكرتين، تفحصه هو أيضاً: الخياطة والحشوة، الأزرار والصباغ. أعجب بلون الرداء التوتّي الداكن. يقال إنّ هذين الفرنسيين يحبّان الكتاب المقدّس، ولكنّ هذا الحبّ في بلاط فرانسوا لا يتجاوز دائرة صغيرة من العلماء الذين يرغب الملك في رعايتهم، لمجرّد إرضاء غروره. إلاّ أنّه لم ينجح يوماً في الحصول على توماس مور خاص به، أو إراسموس خاص به، وهذا ما يجرح كبرياءه.

"انظر إلى زوجة الملك". انحنى هنري من الشرفة. كان في إمكانه أن يجلس في الأسفل. "إنّها جديرة بمنصبها، أليس كذلك؟".

قال: "طلبت إعادة صقل جميع النوافذ من أجل رؤيتها بشكل أفضل".

تمتم دو سيلف: "رائع".
قال دو دانتييل: "لقد أبلت بلاءً حسناً. فقد وقفت على قدميها ستّ ساعات اليوم.
علينا تهنئة جلالتك لأنك حصلت على ملكة قويّة مثل القرويات. مع كلّ احترامي
بالطبع".

كانوا في باريس يحرقون اللوثريين. أراد أن يتحدّث عن الموضوع مع المبعوثين،
ولكنّه لم يستطع ذلك ورائحة الإوزّ والطواويس المشويّة تنبعث من الأسفل.
سأل، وصوت الموسيقى يعلو من حولهم مثل موجات صوتية فضيّة: "أيّها
السيدان، هل تعرفان رجلاً يدعى غيدو كاميلو؟ سمعت أنّه في بلاط سيّدكما".
تبادل دو سيلف النظرات مع صديقه، لقد فاجأهما. تمتم جان: "الرجل الذي يصنع
الصندوق الخشبي، آه أجل".
قال: "إنّه مسرح".

هزّ دو سيلف رأسه. "وأنت المسرحية فيه".
قال هنري من خلف كتفه: "لقد كتب لنا إراسموس عنه. فهو يطلب من نجاري
الأثاث صنع رفوف وأدراج صغيرة، الواحد داخل الآخر. إنّه نظام ذاكرة لخطابات
شيشرون".

"من بعد إذنك، الغرض منه هو أكثر من ذلك. إنّه مسرح وفقاً للمخطّط الفيتروفي
القديم، ولكنّه لم يستعمل للمسرحيات. فكما يقول سيّد الأسقف، أنت بصفتك مالكاً
للمسرح، فستقف في وسطه وتتنظر إلى الأعلى. ومن حولك سيكون ثمة نظام مرتّب
من المعرفة البشرية. إنّه شبيه بالمكتبة، ولكن هل تستطيع أن تتخيل مكتبة كلّ كتاب
فيها يحتوي على كتاب آخر، وذاك الكتاب يحتوي بدوره على كتاب أصغر؟ مع
ذلك، الواقع هو أعظم".

وضع الملك في فمه قطعة حلوى باليانسون وراح يمضغها. "أصبح عدد الكتب
كبيراً في هذا العالم، وهو يزداد كلّ يوم. لا يمكن للمرء أن يأمل قراءتها كلّها".
قال دو سيلف: "لا أرى كيف تفهم الكثير حول ذلك. أهنتك سيّد كريمويل. غيدو لا
يتحدّث سوى الإيطالية بلهجته الخاصّة، وهو يتلعثم حتّى فيها".

قال هنري: "إن كان سيّدك يحبّ إنفاق المال، فليفعل. غيدو هذا ليس بمشعوذ،
أليس كذلك؟ لا أحبّ أن يقع فرانسيس بين يدي مشعوذ. بالمناسبة، كرومويل،
سأرسل ستيفن إلى فرنسا مجدّداً".

ستيفن غاردينر. إذاً، لم يحبّ الفرنسيون العمل مع نورفريك. لا عجب في ذلك.

"هل ستطول مهمته؟".

التقت عينا دو سيلف بعينيه. "ولكن من سيقوم بعمل الوزير؟".
ابتسم هنري مجيباً: "آه، كرومويل سيفعل. أليس كذلك؟".

بالكاد وصل إلى القاعة قبل أن يلاقيه السيد ريوثيسلي. كان يوماً عظيماً بالنسبة إلى السفراء، وموظفيهم، وأولادهم، وأصدقائهم. فثمة أرباح هامة بانتظارهم. قال ذلك، فأجابه ريوثيسلي: "إنّ الأرباح الهامة أمامك أنت". عاد ليقف قرب الستائر، متابعاً بصوت منخفض: "في إمكان المرء رؤية ذلك، لأنّ هنري بدأ يشعر بالسأم. فأسقف وينشستر كان يحرض المعارضة ضده عند كل خطوة يقوم بها. تعب من الجدل، فهو الآن رجل متزوّج ويبحث عن مزيد من الرقة". سأله: "مع أن؟". فضحك ريوثيسلي: "أنت تعرفها أكثر منّي، إن كانت كما يقال عنها سيّدة ذات لسان لاذع، فهو كان يحتاج إلى وزراء يعاملونه بلطف. إذًا، اعمل على إبقاء ستيفن في الخارج، وعندما يحين الوقت، سيثبتك في منصبه".

كان كريستوف، الذي ارتدى ملابس أنيقة من أجل احتفال ما بعد الظهيرة، يحوم في الجوار ويشير إليه. قال: "اعذرنى"، ولكن ريوثيسلي لمس رداءه القرمزي، وكأنه يلتمس الحظ، وقال: "أنت سيّد المنزل وسيّد الفرحة، أنت مصدر سعادة الملك، وقد فعلت ما لم يستطع الكاردينال فعله، لا بل أكثر من ذلك. حتّى هذا"، وأشار حوله، إلى حيث يجلس نبلاء إنكلترا، الذين انهمكوا، بعدما قدّموا اعتذارهم، بالتهام ثلاثة وعشرين طبقاً، "حتّى هذا الاحتفال نُظّم بنجاح باهر. لا حاجة إلى طلب أيّ شيء، كلّ شيء أصبح بين يديه قبل أن يفكر فيه".

أحنى رأسه، وابتعد ريوثيسلي، وأشار هو إلى الصبي. قال كريستوف: "قيل لي ألاّ أفشي سرّاً أمام ريوثيسلي، لأنّه، كما قال رايف، يذهب فوراً إلى غاردينور ويخبره بكلّ ما يسمع. والآن سير، لديّ رسالة، عليك الذهاب فوراً إلى رئيس الأساقفة، بعد انتهاء الوليمة". نظر إلى المنصة التي يجلس عليها رئيس الأساقفة قرب آن، تحت الظلّة التي تمّ إعدادها للمناسبة. لم يكن أيّ منهما يأكل، مع أنّ آن تدّعي ذلك، بل كان كلاهما يتحصّان القاعة.

قال: "سأذهب فوراً، إلى أين؟".

"إلى منزله القديم الذي يقول إنّك تعرفه. يريدك أن تأتي سرّاً، وألاّ تحضر أيّ شخص معك".

"حسناً، يمكنك المجيء، كريستوف، فأنت لست شخصاً".

شعر بالقلق، فهو لا يحب فكرة السير في جوار الكنيسة، بين الحشود الثملة التي تتجول عند الغروب، من دون شخص يحمي ظهره. للأسف لا يملك المرء وجهين.

كانا قد وصلا تقريباً إلى منزل كرانمر، حين شعر بالتعب، وكأنّ رداءه من حديد. قال لكريستوف: "توقّف قليلاً". بالكاد حصل علي قسط من النوم في الليالي الفائتة. أخذ نفساً في الظلّ. كان الطقس بارداً، وقد غلّفه الظلام وهو يعبر الأزقة. كانت غرف المنازل المحيطة مقفلة وخالية، لا يصدر منها أيّ صوت. من خلفه، سمع صرخاً بعيداً من شوارع ويستمينستر.

نظر إليه كرانمر، الجالس خلف مكتبه ثمّ قال: "هذه أيّام لن ننساها أبداً. من لم يحضر هذا الاحتفال فلن يصدّق ما حدث فيه. لقد أتى عليك الملك بعبارات دافئة، وأظنّ أنّه يريدني أن أنقلها إليك".

"أتساءل لماذا فكّرتُ في كلفة القرميد المخصّص للبرج. يبدو الآن أمراً تافهاً. وغداً مباريات المقارعة بالرماح. هل ستحضرها؟ سيشارك ابني ريتشارد في مباريات على الأقدام، سيقا تل في معركة واحدة".

أعلن كريستوف: "سيربح. ضربة واحدة، وسيلقي غريمه على الأرض ولن ينهض أبداً".

قال كرانمر: "صه، أنت لست هنا أيّها الصبيّ. كرومويل، رجاءً".

فتح باباً منخفضاً في الجزء الخلفي من الغرفة. أطلّ برأسه، رأى من خلال إطار الباب غرفة خافتة الإضاءة فيها طاولة ومقعد، وعلى المقعد جلست امرأة شابة، هادئة، رأسها محنيّ فوق كتاب. نظرت إليه وقالت شيئاً بالألمانية.

"كريستوف، أحضر لها شمعة".

عرف الكتاب الموجود أمامها، كان كرّاسة للوثر. قال: "هل لي برؤيته؟". وتناوله منها.

وجد نفسه يقرأ، وراح ذهنه يقفز فوق السطور. أهى هاربة يأويها كرانمر؟ هل كان يعرف ما سيحلّ به لو قبض عليها؟ وجد الوقت ليقرأ نصف صفحة قبل أن يدخل رئيس الأساقفة، وكأنّه اعتذار متأخر. "هذه المرأة هي...؟".

أجاب كرانمر: "مارغريت، زوجتي".

"ربّاه!". ضرب كتاب لوثر بعنف على الطاولة. "ماذا فعلت؟ أين وجدتها؟ في ألمانيا، بالطبع. لهذا السبب استغرقت وقتاً طويلاً لتعود. فهمت الآن. لماذا؟".

قال كرانمر بخنوع: "لم أتمكّن من منع نفسي".

"هل تعرف ما سيفعله الملك حين يكتشف ذلك؟ لقد ابتكر جلاد باريس آلة ذات عارضة مزودة بثقل مقابل، هل أرسما لك؟ حين يتم إحراق مهرطق، تنزله هذه الآلة في النار ثم ترفعه مجدداً كي يرى الناس مراحل احتضاره. الآن سيرغب هنري في واحدة، أو ربّما سيحضر آلة تفصل رأسك عن جسدك على مدى أربعين يوماً". نظرت إليه المرأة الشابة قائلةً بالألمانية: "عمي...".

"من؟".
ذكر اسم عالم لاهوت يدعى أندرياس أوزياندر، لوثري من نورمبرغ. قالت إن عمها وأصدقاءه والرجال المتعلمين في بلدتها يعتقدون...
"سيدي، قد يكون هذا الاعتقاد سائداً في بلادك، أن يحقّ للقسيس الزواج، ولكن ليس هنا. ألم يخبرك د. كرانمر بذلك؟".
قال له كرانمر متوسلاً: "رجاءً، أخبرني ماذا تقول. أهي تلومني؟ هل تتمنى العودة إلى بلادها؟".

"لا، لا، تقول إنك لطيف. ما الذي أصابك يا رجل؟".
"أخبرتكم أنّ لديّ سرّاً".
ذكرت ذلك على هامش الصفحة. "ولكن أن تبقيها هنا، تحت أنف الملك؟".
"لقد أسكنتها في الريف، ولكنني لم أستطع أن أرفض رغبتها في حضور الاحتفالات".

"وهل خرجت إلى الشارع؟".
"ولمّ لا؟ لا أحد يعرفها".
صحيح. حماية غريبة في المدينة، امرأة شابة ترتدي ثوباً زاهياً وتعتمر قبعة جميلة؛ زوج من العيون بين آلاف منها. كان يمكن للمرء أن يخبئ شجرة في غابة. اقترب منه كرانمر ومدّ يديه، اللتين كانتا ملطختين بزيت التكريس؛ يدين ناعمتين، أصابع طويلة، خطّت راحتها الشاحبتان أخبار الأسفار البحرية والأحلاف. "طلبت منك المجيء إلى هنا كصديق لي، فأنا أعدك صديقي المقرب في هذا العالم، يا كرومويل".

إذاً، لا شيء يمكن فعله في الصداقة سوى أخذ تلك الأصابع النحيلة بين يديه. "حسناً، حسناً. سنجد طريقة لإبقاء أمر هذه السيدة سرّاً. أتساءل لماذا لم تتركها مع عائلتها إلى أن تتمكن من تبديل وجهة نظر الملك".
كانت مارغريت تراقبهما بعينيها الزرقاوين اللتين راحتا تتقللان من وجه إلى آخر.

أخيراً وقفت. دفعت الطاولة بعيداً عنها، راقبها وهي تفعل ذلك وغاص قلبه. فقد سبق أن رأى امرأة تفعل ذلك من قبل، زوجة، سبق أن رأى كيف تضع راحتها على سطح الطاولة لتتهض. كانت مارغريت طويلة القامة، وحين وقفت برز بطنها من فوق الطاولة.

قال: "يا الله!".

قال رئيس الأساقفة: "أتمنى أن تتجب فتاة".

سأل مارغريت: "متى موعد الولادة تقريباً؟".

عوضاً عن الإجابة، أخذت يده، ووضعتها على بطنها، وضغطت عليها بيدها. كان الطفل يرقص وكأنه يتفاعل مع الاحتفالات. قد تكون هذه قدمه، وهذه يده. قال: "أنت بحاجة إلى صديق، إلى امرأة معك".

تبعه كرانمر إلى خارج الغرفة. قال: "بخصوص جون فريث...".
"ماذا؟".

"منذ أن أحضر إلى كرويدن، رأيت ثلاث مرّات على انفراد. إنّه شابّ فاضل ولطيف. أمضيت ساعات معه لا أندم على ثانية منها، ولكنني لم أستطع ثنيه عن طريقه".

"كان عليه الهرب في الغابة، ذاك كان طريقه".

"لا نرى جميعنا..."، نظر كرانمر إلى الأسفل، "أعذرنى، ولكننا لا نرى جميعنا طرائق عديدة مثلك".

"عليك تسليمه إلى ستوكسلي الآن، لأنّ القبض عليه تمّ في أبرشية ستوكسلي".
"لم أفكر يوماً، عندما منحني الملك هذا اللقب الرفيع، عندما أصرّ على أن أحتلّ هذا المنصب، في أن أقوم من بين أولى مهامى بالوقوف في وجه شابّ مثل جون فريث، وأحاول إقناعه بتغيير إيمانه".

أهلاً بك في هذا العالم. قال كرانمر: "لم أعد أستطيع التأخّر أكثر من ذلك".
"ولا زوجتك".

كانت الشوارع المحيطة بأوستن فرايرز شبه خالية، والدخان المتصاعد من النيران التي أشعلت في الهواء الطلق في أنحاء المدينة يحجب النجوم. كان حراسه على البوابة، وسره أنهم بكامل وعيهم. توقّف لتحيّتهم. أن تكون في عجلة من أمرك من دون أن تظهر ذلك هو فنّ بحدّ ذاته. دخل وقال: "أريد السيّد بار".

ذهب معظم أهل بيته لرؤية المشاعل، وسيبقون حتّى منتصف الليل يمرحون

ويرقصون. لديهم إذن بذلك، فمن سيحتفل بالملكة الجديدة، إن لم يفعلوا هم؟ خرج جون بايج: هل تحتاج إلى شيء، سير؟ رأى ويليام بربازون، أحد موظفي وولزي سابقاً، وببده قلم: أعمال الملك لا تنتهي أبداً. كان توماس إيفري قد انتهى للتو من حساباته: ثمة دائماً أموال تدخل وتخرج. حين سقط وولزي، تركه خدمه، ولكنّ خدم توماس كرومويل بقوا للعناية به.

قُرِع باب فوق رأسه، ثمّ نزل رايف، بشعره المشعث، ووقع قدميه يتعالى. بدا عليه الارتباك. "سير؟".

"لا أريدك أنت. هل تعرف ما إذا كانت هيلين هنا؟".
"لماذا؟".

في تلك اللحظة ظهرت هيلين. كانت تربط شعرها تحت غطاء رأس نظيف. "أريدك أن تحزمي حقيبة وتأتي معي".
"كم سنغيب، سير؟".
"لا أدري".

"سنذهب خارج لندن؟".

فكّر في نفسه: سأقوم بترتيب ما، زوجات وبنات رجال في المدينة، نساء كتومات، سيعثران لها على خدم وقابلة، وعلى امرأة كفوءة تضع طفل كرانمر بين يديه. "ربّما لفترة قصيرة".

"والطفلان؟".

"سنعتني بطفليك".

هزّت رأسها ثمّ أسرعّت مبتعدة. يودّ المرء لو أنّ لديه خادماً سريعاً مثلها. ناداها رايف: "هيلين..."، وبدا عليه الغضب، "إلى أين هي ذاهبة، سير؟ لا يمكنك جرّها في الليل هكذا".

قال بلطف: "آه، بل يمكنني".

"أحتاج إلى أن أعرف".

"صدّقني، أنت لا تحتاج إلى ذلك". لانّت نبرته. "أو على الأقلّ، ليس هذا هو الوقت المناسب. رايف، أنا متعب. لن أجادل".

كان في إمكانه ربّما أن يترك مهمّة أخذ هيلين من دفء أوستن فرايرز إلى برد الكنيسة لكريستوف وبعض من خدمه المتكتمين، أو أن يترك الأمر حتّى الصباح. ولكنّه كان يفكّر في وحدة زوجة كرانمر وغرابة المدينة المحتفلة، وفي طرقات كانون

رو الخالية التي يمكن للصوم الاختباء فيها حتى في ظلال الدير. فحتى في عهد الملك ريتشارد، كانت المنطقة مخبأً لعصابات اللصوص، الذين يخرجون ليلاً كما يشاؤون، وحين يبزغ الفجر، يلتمسون ملجأً في الكنيسة، ويتقاسمون غنائمهم من دون شكّ مع رجال الدين. فكّر في نفسه: عليّ أن أنظف المدينة منهم. سيلاحقهم رجالي كما يلاحقون الحيوانات في جحورها.

منتصف الليل: كانت رائحة الطحالب تفوح من الأرض، والأرض زلقة. وضعت هيلين يدها في يده. استقبلهما خادم، وهو ينظر إلى الأسفل. وضع قطعة نقود في يده، ولكنّه لم يرفع نظره. لم يرَ أثراً لرئيس الأساقفة، وقد ناسبه ذلك. رأى مصباحاً مضاءً. فُتح باب، بدت منه زوجة كرانمر ممدّدة على سرير صغير. قال لهيلين: "هذه سيّدة تحتاج إلى تعاطفك. ترين حالتها. لا تتحدّث الإنكليزية، وعلى أيّ حال، لا تسألها عن اسمها".

قال: "هذه هيلين. لديها طفلان، وستساعدك".
اكتفت السيّدة كرانمر بهزّ رأسها والابتسام، وعيناها مغلقتان. ولكن حين وضعت هيلين يدها عليها بلطف، مدّت يدها إليها.
"أين هو زوجك؟"
أجابتها بالألمانية: "يصلّي من أجلي، كما أمل".

يوم إحراق فريث، كان في رحلة صيد مع الملك في الأرياف، خارج غيلدفورد. كانت السماء تمطر قبل الفجر، ورياح عنيفة تعصف بالأشجار. كان المطر ينهمر في جميع أرجاء إنكلترا ويغرق المحاصيل في الحقول. ولكنّ هذا الأمر لا ينبغي له أن يعكّر مزاج هنري. جلس ليكتب إلى آن، التي تركها في ويندسور. وبعد أن أدار الريشة بين أصابعه، وقلب ورقته مراراً، فقد رغبته في الكتابة: اكتبها عني، يا كرومويل. سأقول لك ما عليك كتابته.

كان ثمّة تلميذ خياط سيذهب إلى المحرقة مع فريث: أندرو هيويت.
قال هنري: "كانت كاثرين معتادة على أن تُحضّر إليها آثارٌ مبدّلة تكون معها في أثناء الولادة".

"لا أظنّ أنّ الملكة تريد ذلك".
"وصلوات خاصّة للقديسة مارغريت، فهذه من شؤون النساء".
"من الأفضل تركها لهنّ، سير".
علم لاحقاً أنّ فريث والصبيّ تعذباً، ذلك أنّ الرياح كانت تنفخ النار بعيداً عنهما.

حين تطلب الموت، فلا يظهر .
كان ثمة حالات للطاعون في لندن. وكان الملك، الذي يجسد كلّ شعبه، يعاني
من جميع الأعراض كلّ يوم.
حدّق هنري الآن إلى المطر المنهمر. قال محاولاً بعث البهجة في نفسه: "قد يهدأ
المطر، فالمشتري يرتفع. والآن، قل لها، قل للملكة...".
انتظر، والريشة تنتظر في يده.
"كلاً، هذا يكفي. أعطني إياها، توماس، سأوقّعها".
انتظر ليرى ما إذا كان الملك سيرسم قلباً. ولكن طيش أيام المغازلة انتهى. الزواج
هو أمر جدّي. هنريكوس ريكس.
قال الملك: "أظنّ أنني أعاني من المغص. أظنّ أنني أعاني من الصداع. أشعر
بالغثيان، وثمة هالتان سوداوان حول عينيّ. هذه إشارة، أليس كذلك؟".
قال: "جلالة الملك يحتاج إلى الراحة والشجاعة".
"أنت تعرف ما يقال عن الطاعون، يكون المرء بألف خير في الصباح، ويموت
عند الظهر. ولكن هل تعرف أنّه يقتل المصاب به خلال ساعتين؟".
قال: "سمعت أنّ بعض الأشخاص يموتون خوفاً".
بعد الظهر، كانت الشمس تكافح للظهور من خلف الغيوم. راح هنري يضحك
وهو يحثّ جواده على الإسراع تحت الأشجار المبتلّة. في سميتيلدا، كان فريث
يُجرّف، بشبابه، وذكائه، وعلمه، وجماله: كتلة من الوحل والدهون والعظام المتفحّمة.
كان لدى الملك جسدان. الأوّل موجود ضمن حدود كيانه الجسدي، وبالإمكان
قياسه، كما يفعل هنري غالباً، حين يقيس خصره، وبطة ساقه، وأجزاء جسده
الأخرى. والآخر حرّ، غير مقيد، بلا وزن، قد يتواجد في أكثر من مكان في الوقت
نفسه. من شأن هنري أن يصطاد في الغابة، بينما يقوم جسده الآخر بإصدار
القوانين. أحدهما يقاتل، بينما يصلّي الآخر من أجل السلام. أحدهما غارق في بؤس
ملكه، بينما يتناول الآخر البطّ بحبات البازلاء الخضراء.
يقول البابا الآن إنّ زواجه من أن باطل، وسيحرمه كنسياً إن لم يرجع إلى كاثرين.
سيطرحة العالم المسيحي جسداً وروحاً، وسيثور عليه شعبه ويقذفه في العار والمنفى.
لن يأويه أيّ ملجأ مسيحي، وعندما يموت، سترمى جثته مع عظام الحيوانات في
حفرة واحدة.
كان قد علّم هنري تسمية البابا أسقف روما، وأن يضحك عندما يذكر اسمه.

وحتى إن كانت ضحكة مترددة، فهي أفضل من التبجيل الذي كان يبديه في السابق. كان كرانمر قد دعا الراهبة، إليزابيث بارتون، إلى منزله في كينت. هل رأت ماري، الأميرة السابقة، ملكة؟ أجل. هل رأت جيرترود، الليدي إكسيتير، ملكة؟ أجل. قال بلطف: "لا يمكن للأميرين أن يتحققا". قالت الفتاة: "أنا لا أخبر سوى ما أراه". كتب عنها أنها مليئة بالحيوية والثقة، وأنها معتادة على التعامل مع رؤساء الأساقفة، وأنها تعتبره وارهام آخر، يتمسك بكل كلمة يقولها. إنَّها فارة تحت براثن القطّ.

كانت الملكة كاثرين تنتقل، مع خدمها الذين اختزل عددهم، إلى قصر الأسقف لينكولن في بوكدن، الذي هو عبارة عن منزل ذي قرميد أحمر، فيه بهو كبير وحدائق تمتد بين الخمائل والحقول وتمتج بالطبيعة الخلابة المحيطة بها. سيأتي لها أيلول/سبتمبر بأولى فواكه الخريف، بينما يحضر معه تشرين الأول/أكتوبر الضباب. طلب الملك أن تتخلّى كاثرين للطفل المنتظر عن الملابس التي عمّدت فيها الطفلة ماري. وحين سمع توماس كرومويل جواب كاثرين، انفجر ضاحكاً. قال لو كانت كاثرين رجلاً، لتفوّقت على جميع الأبطال في التاريخ. وُضعت أمامها ورقة سُميت فيها الأميرة الأرملة. فرووا له كيف مرّقت لقبها الجديد بريشتها مصدومة.

كانت تنمو الشائعات في ليالي الصيف القصيرة. طلّ عليها الفجر مثل الفطر بين العشب الرطب. كان عدد من خدم توماس كرومويل يبحثون عن قابلة في ساعات الصباح الأولى. كان يخبئ امرأة في منزل له في إحدى القرى، امرأة غريبة أنجبت له طفلة. قال لرايف: "مهما فعلت، فلا تحاول الدفاع عن شرفي. لديّ نساء مثلها في جميع أنحاء البلاد".

قال رايف: "كانوا يصدّقون ذلك. فاستناداً إلى الشائعات المنتشرة في المدينة، لدى توماس كرومويل... هائل".

قال: "ذاكرة. كان لديّ دفتر حسابات كبير جداً. نظام أرشفة هائل، أسجل فيه تفاصيل عن الأشخاص الذين أصادفهم، كلّ باسمه".

قال جميع الفلكيين إنّ الملك سينجب ابناً، ولكن من الأفضل عدم التعامل مع أولئك الأشخاص. أتاه رجل قبل بضعة أشهر، وعرض أن يصنع للملك حجر فيلسوف، وحين أمر بالانصراف، تصرّف بفضاظة وعدائية، كما يفعل أولئك الخيميائيون، وأصبح يقول الآن إنّ الملك سيموت هذا العام. قال إنّ الابن الأكبر للملك إدوارد الراحل ينتظر في ساكسوني. ظننتم أنه أصبح هيكلاً عظيماً تحت

أحجار البرج، ولا يعرف مكانه سوى قاتليه، ولكنكم خدعتم، لأنه رجل ناضج الآن، ومستعدّ للمطالبة بملكه.

حسب السنوات، ووجد أنّ الملك إدوارد الخامس، لو كان حيّاً، فسيبلغ الرابعة والستين من عمره في تشرين الثاني/نوفمبر القادم. قال، لقد أصبح كبيراً على القتال. فوضع الخيميائي في البرج ليعيد التفكير في وضعه. لا مزيد من الأنباء من باريس. أيّاً يكن ما يفعله الأستاذ غيدو، فهو متكتم جداً حياله.

قال هانز هولباين: "توماس، لقد رسمت يدك ولكنني لم أعمل كثيراً على وجهك. أعدك أن أنهي لوحتك هذا الخريف".

افرض أنه في كلّ كتابٍ كتابٍ آخر، وفي كلّ رسالة على كلّ صفحة مجلّد آخر يفتح على الدوام، ولكنّ هذه المجلّدات لا تحتلّ مكاناً على المكتب. افرض أنه يمكن اختزال معرفتي وتحويلها إلى جوهر، موجود ضمن الصورة، إشارة، موجودة في مكان هو ليس بمكان. افرض لو أنّ الجمجمة البشرية تصبح فسيحة، وتفتح أماكن فيها، غرف تظنّ مثل خلايا النحل.

كان اللورد ماونتجوي، حاجب كاثرين، قد أرسل إليه لائحة بكلّ لوازم سجن الولادة لملكة إنكلترا. لاحظ مستمتعاً سلوكه السلس والتمدّن، فشكليات البلاط تُمارس مع الجميع، ولكن من الواضح أنّ اللورد ماونتجوي يعتبره الرجل المسؤول عن كلّ شيء الآن.

ذهب إلى غرينتش، وجدّ غرفة أن استعداداً لمجيئها. تمّ إعداد الإعلانات، غير المؤرّخة، لإرسالها إلى شعب إنكلترا وحكّام أوروبا، يزفون فيها خبر ولادة أمير. اقترح قائلاً: "اتركوا فسحة صغيرة في آخر كلمة أمير، تقحمون فيها إن اضطررتم...". ولكنهم نظروا إليه وكأنّه خائن، فتركهم وانصرف.

حين تنسحب المرأة لإنجاب طفل، قد تكون الشمس مشرقة، ولكنّ نوافذ غرفتها تكون مغلقة لتتمكّن من صنع مناخها الخاصّ. فهي تتمدّد في الظلام كي تحلم. وتأخذها أحلامها بعيداً عن اليابسة، إلى أرض من المستنقعات، إلى رصيف، إلى نهر يحجب الضباب ضفّته الأخرى، وتلتقي فيها الأرض بالسماء. هناك تبحر نحو الحياة والموت، ويحرّك المجذاف شخصٌ غامضٌ في آخر السفينة. في هذا المركب، تُرفع صلوات لا يسمعها الرجال، وتُعدّد صفقات. تيار النهر قويّ، وبين لحظة وأخرى قد يتحوّل تيارها.

في 26 آب/أغسطس 1533، انتقلت الملكة مع موكب خاص إلى غرفتها المغلقة في
غرينتش. قبلها الملك متمنياً لها رحلة سعيدة، ولكنها لم تبتسم ولم تتحدّث. بدت
شاحبة جداً، وفي غاية الفخامة، برأسها الصغير المزيّن بالجواهر، الشامخ فوق
جسدها المتمايل. مشت بخطوات صغيرة وحذرة، وكتاب الصلاة بين يديها. حين
وصلت إلى الرصيف، التفتت، وألقت نظرة طويلة. رأته، ورأت رئيس الأساقفة. نظرة
أخيرة، ثم وضعت قدمها على متن المركب، بمساعدة وصيفاتها.

بصقة الوسواس

خريف وشتاء 1533

هذا رائع. في لحظة الصدمة، كانت عينا الملك مفتوحتين، وجسده مستعداً للهجوم. تلقى الضربة بشكل ممتاز، وامتص الصدمة بجسده المدرع، متحركاً بالاتجاه الصحيح وبالسرية المطلوبة. لم يتبدل لونه، ولم يرتعش صوته.

سأل: "أهي بصحة جيّدة؟ إذاً، الحمد لله على نعمه. أشكركم، أيّها السادة، على حسن تصرفكم".

فكر في نفسه قائلاً: كان هنري يتدرّب، مثلنا جميعاً على ما أظنّ. مشى الملك نحو غرفه الخاصة. قال من خلف كتفه: "أطلقوا عليها اسم إليزابيث، وألغوا مباريات المقارعة".

سأل شخص ما من آل بولين: "وماذا عن بقية الاحتفالات؟". لم يجب أحد. قال كرانمر: "سيسير كلّ شيء حسب المخطّط، حتّى صدور أوامر أخرى. سأكون عزّاب... الأميرة". تلعثم. بالكاد كان يصدّق ذلك. فقد طلب لنفسه ابنة، وحصل عليها. تبع هنري المبتعد بنظراته. لم يسأل عن الملكة، لم يسأل عن حالها".

عبّر إدوارد سيمور بفضاظة عمّا يفكر فيه الجميع: "هذا لا يهمّ، أليس كذلك؟". ثمّ توقّف هنري، في أثناء رحلته الطويلة بمفرده، واستدار قائلاً: "سيّدي رئيس الأساقفة، كرومويل، ولكن أنتما فقط".

في حجرة هنري الصغيرة: "هل تخيلتما ذلك؟". كان السؤال يدعو إلى الضحك، ولكنّه لم يفعل. جلس الملك على مقعد. شعر بالرغبة في وضع يد على كتفه، كما يفعل المرء لمواساة شخص حزين. ولكنّه قاومها، واكتفى بضمّ أصابعه في القبضة التي تحمل قلب الملك. "يوماً ما سنرتب لها زواجاً عظيماً".

"يا الفتاة المسكينة، أمّها نفسها تتمنّى لو أنّها لم تولد". قال كرانمر: "جلالة الملك لا يزال شاباً، والملكة قويّة، كما أنّ عائلتها تتمتع بالخصوبة. يمكنك إنجاب طفل آخر قريباً. وربّما وضع الله في هذه الأميرة نعمة كبيرة".

أشرقت وجوه آل بولين. كانت الساعة الرابعة من عصر يوم الأحد. خرج وضحك

قليلاً على الكتبة الذين كتبوا كلمة أمير على إعلاناتهم، وأصبح عليهم الآن إقحام أحرف إضافية فيها، ثم عاد للعمل على نفقات خدم الأميرة الجديدة. كان قد نصح أن تكون جيرترود، الليدي إكسيتير، من بين عزابات الطفلة. لماذا كانت الراهبة هي الوحيدة التي راودتها رؤيا عنها؟ سيكون من الجيد أن يراها البلاط وهي تجبر نفسها على الابتسام وتحمل طفلة آن أمام جرن المعمودية. تم إحضار الراهبة إلى لندن، ووضعت في منزل خاص أسرته ناعمة، ولا تزعجها فيه الأصوات المحيطة بها، أصوات نساء كرومويل، منزل يستدير فيه المفتاح في القفل المزيّت محدثاً صوتاً خفيفاً مثل طقطقة عظام عصفور. سأل ميرسي: "هل تأكل؟" فأجابت: "تأكل بشهيةً مثلك. في الواقع، كلاً، توماس، ربّما ليس مثلك تماماً".

"أتساءل ما حلّ بنيتها بالعيش على خبز القربان؟".
"لا يمكنهم رؤيتها الآن وهي تتناول طعامها، أليس كذلك، أولئك الكهنة والرهبان الذين وضعوها على هذا الطريق".

فبعيداً عن أعينهم، بدأت الراهبة تتصرّف مثل امرأة عادية، وتقرّ بحاجات جسدها البسيطة، مثل أيّ شخص يريد الحياة، ولكن ربّما فات الأوان. أعجبه أنّ ميرسي لم تقل: آه! يا للفتاة المسكينة! فقد اتّضح أنّها ليست مسكينة بطبيعتها عندما أحضروها إلى قصر لامبيث لاستجوابها. فربّما ظنّ المرء أنّ قاضي القضاة اللورد أودلي، بالسلسلة المعلقة فوق شخصه المهيب، يُخضع أيّ فتاة ريفية. وبحضور رئيس أساقفة كانتربروري، تخيل المرء أنّ راهبة شابّة قد تشعر بشيء من الخوف. ولكن، على الإطلاق. فقد تعاملت الفتاة مع كرانمر بتنازل، وكأنّه جديد على الحياة الدينية. وحين كان يتحدّثها في أيّ مسألة ويقول: "كيف تعرفين ذلك؟"، كانت تبتسم بإشفاق وتجيب: "أخبرتُ بذلك".

أحضر أودلي ريتشارد ريتش معه إلى جلستهم الثانية، ليُدوّن الملاحظات ويسأل عن أيّ شيء يخطر في باله. كان قد أصبح الآن السير ريتشارد، بعدما مُنح لقب فارس، ورُقّي إلى مرتبة مستشار عام. كان معروفاً في أيّام الدراسة بلسانه اللاذع، وعدم توقيره لأساتذته، وحبّه للشرب. ولكن من يستمرّ في حياته، إن حكم علينا الناس بحسب ما كنّا عليه في العشرين؟ كبر ريتش وبرزت موهبته في سنّ القوانين، وكانت تأتي في المرتبة الثانية فقط بعد موهبته هو. كانت تعابير وجهه، التي يعلوها شعره الأشقر الناعم، مليئة بالتركيز. كان يسميه الأولاد، كيس الدراهم. ولا أحد صدّق، لدى رؤيته وهو يضع أوراقه أمام، أنّه كان يوماً مصدر عار لعائلته. قال

ذلك، بصوت منخفض، محاولاً مضايقته، بانتظار إحضار الفتاة. قال ريتش: "حسناً، سيّد كرومويل! ماذا عن رئيسة الدير في هاليفاكس؟".

كان يعرف أنه من الأفضل عدم إنكار هذا الأمر، أو أيّ من تلك القصص التي رواها عنه الكاردينال. قال: "آه! لا شيء. إنهم يتوقعون ذلك في يوركشاير".

خشي أن تكون الفتاة قد سمعت آخر الحديث، لأنها ألقت عليه اليوم نظرة قاسية وهي تجلس على المقعد الذي خصّصوه لها. رتبت ثوبها، وشبكت ذراعيها بانتظار أسئلتهم. جلست ابنة أخته، أليس ويليفيد، على مقعد قرب الباب تحسباً لإصابة الفتاة بالإغماء أو بعارض آخر. مع أنّ نظرة واحدة إليها تؤكّد أنّها لم تكن عرضة للإغماء أكثر من أودلي.

سأل ريتش: "هل أبدأ؟".

أجاب أودلي: "آه، لمّ لا؟ أنت شابّ مليء بالنشاط".

"أنت دائماً تغيّرين توقيت الكارثة التي تتوقعينها، ولكنني فهمت، على حدّ قولك، أنّ الملك لن يحكم شهراً واحداً بعد زواجه من الليدي أن. ولكن ها قد مضت الأشهر، وتوجت الليدي آن ملكة، وأنجبت له ابنة جميلة. ما هو جوابك عن ذلك؟".

"جوابي أنه بالنسبة إلى العالم يبدو ملكاً، ولكن بالنسبة إلى الله"، رفعت كتفيها، "لم يعد كذلك. لم يعد ملكاً حقيقياً كما أنه..."، وأشارت إلى كرانمر، "لم يعد رئيس أساقفة حقيقياً".

لم يضعف ريتش. "إذاً، هل يبرّر ذلك الثورة ضدّه؟ خلعها؟ اغتياله؟ استبداله بملك آخر؟".

"ما رأيك؟".

"ومن بين المطالبين بالعرش، وقع اختيارك على أسرة كوررتي، وليس على أسرة بول. هنري، ماركيز إكسيتير، وليس هنري، اللورد مونتاغ".

قال بتعاطف: "أم أنّك تخططين بينهما؟".

احمرّ وجهها. "بالطبع لا، فقد قابلت الرجلين".

دوّن ريتش ملاحظة.

قال أودلي: "يتحدّر كوررتي، أي اللورد إكسيتير، من ابنة للملك إدوارد. ويتحدّر اللورد مونتاغ من شقيق الملك إدوارد، دوق كلارينس. كيف تزنين ادعاءاتهما؟ لأننا إن كنا نتحدّث عن ملوك حقيقيين وملوك مزيفين، يقول بعض الأشخاص إنّ إدوارد كان طفلاً غير شرعي أنجبته أمّه من رام. أتساءل ما إذا كان في إمكانك إيجاد

شيء؟".

سأل ريتش: "وكيف لها ذلك؟".

أدار أودلي رأسه. "لأنها تتحدّث إلى الصالحين في الأعلى، وهم يعرفون".
نظر إلى ريتش وشعر كأنه يقرأ أفكاره: يقول كتاب نيكولو إنَّ الأمير الحكيم يبيد أعداءه، ولو كنتُ، أنا ريتش، ملكاً، لكان هؤلاء المطالبون بالعرش وعائلاتهم أمواتاً. استعدت الفتاة للسؤال التالي: "كيف أمكنها أن ترى ملكتين في رؤياها؟". قال: "أظنَّ أن هذه المشكلة ستحلّ في القتال؟ من الجيّد وجود بضعة ملوك وملكات احتياطيّين إن كان ثمة حرب ستتشب في البلاد".

قالت الراهبة: "لا ضرورة لنشوب حرب". آه؟ تعجّب كيس الدراهم: هذا جديد. "سيرسل الله طاعوناً إلى إنكلترا عوضاً من ذلك، وسيموت هنري خلال ستّة أشهر. وكذلك هي، ابنة توماس بولين".
"وأنا أيضاً؟".
"وأنت أيضاً".

"وكل من في هذه الغرفة؟ باستثناءك أنت، بالطبع؟ بمن فيهم أليس ويليفيد، التي لم تتسبّب لك بأي أذى؟".

"جميع نساء منزلك مهرطقات، وسيقضي عليهنّ الطاعون جسداً وروحاً".
"وماذا عن الأميرة إليزابيث؟".

استدارت في مقعدها لتوجيه كلماتها إلى كرانمر. "قيل إنك حين عمّدتها، دقّات الماء لتقيها من برودته. كان يجدر بك أن تصبّه عليها مغلياً".

صاح ريتش: "آه، ربّاه". وضع القلم من يده. كان أباً شاباً وحنوناً لطفلة رضيعة. وضع يده على يد النائب العام لتهدئته. ظنَّ أنّ أليس بحاجة إلى المواساة، ولكن عندما حكمت عليها الراهبة بالموت، نظر إليها ولاحظ أنّ تعابير السخرية تعلو وجهها. قال لريتش: "ليست هي من استنبط فكرة الماء المغلي، بل هي عبارة تردّد في الشوارع".

انكمش كرانمر على نفسه. لقد أصابت الفتاة هدفها. قال كرومويل: "لقد رأيت الأميرة البارحة. إنّها بصحة جيّدة، على الرغم ممّن يتمنّون لها سوء". بدا صوته هادئاً، علينا أن نعيد رئيس الأساقفة إلى ظهر الدابة. التفت إلى الفتاة: "أخبريني، هل وجدت الكاردينال؟".

قال أودلي: "ماذا؟".

"قالت السيّدة إليزابيث إنّها ستبحث عن سيّدي القديم، وعرضت أن أدفع نفقات سفرها. وبما أنّني أعطيت مرافقيها دفعة على الحساب، توقّعت بعض التقدّم".
قالت الفتاة: "كان من الممكن لولزي أن يعيش خمسة عشر عاماً أخرى". هزّ رأسه موافقاً، فقد سبق وقال الشيء نفسه. "وقد قضى باكراً ليكون عبرة" لمن يعتبر. لقد رأيتَه يتعدّب.

"سألها وهل عرفت النتيجة؟".

"بحثت عنه مجدّداً، وظننت أنه فني. ثمّ رأيتَه في إحدى الليالي". وبعد تردّد تكتيكي طويل: "ولم يُفَنَ بعد".

حلّ الصمت. انكمش كرانمر في مقعده. راح ريتش يعضّ برفق على طرف ريشته، بينما كان أودلي يدير زراً في كمّه إلى أن اشتدّ الخيط.
قالت المرأة: "إن أردت، فإنني أستطيع أن أصلي من أجله. فالله يستجيب لدعائي عادة".

"في السابق، حين كان مستشاروك حولك، الأب بوكينغ والأب غولد والأب ريسبي والآخرين، لكنّ بدأت بالمساومة. لكنك عرضت مبلغاً إضافياً على حسن نواياك، ولكان مستشاروك الروحانيون رفعوه أكثر".

وضع كرانمر يده على صدره، وقال: "انتظر، هل يمكننا الرجوع قليلاً؟ حضرة قاضي القضاة؟".

"يمكننا الذهاب في أيّ اتجاه تختاره، يا حضرة رئيس الأساقفة. ثلاث دورات حول شجرة التوت...".

"هل ترين الوسواسين؟".

هزّت رأسها.

"وكيف يظهران؟".

"على شكل طيور".

قال أودلي بجفاف: "هذا مريح".

"كلاً، سير. فالوسواس نتن جدّاً. ويظهر على شكل ديك ملطّخ بالدم والقذارة".
نظر إلى أليس. كان مستعدّاً لإرسالها إلى خارج الغرفة. فكّر في نفسه قائلاً: ماذا فعلوا بهذه المرأة؟

قال كرانمر: "لا شكّ في أنّ الأمر كرهه بالنسبة إليك. ولكن من خصائص الوسواسين، كما أفهم، أن تظهر بأكثر من طريقة".

"أجل، فهي تفعل ذلك لخداعك. يأتي على شكل شاب".
"حقاً؟".

"وفي إحدى المرّات أحضر امرأة إلى صومعتي ليلاً". توقّفت قليلاً ثمّ تابعت: "كان يينهشها".

ريتش: "معروف عنه أنّه لا يخجل".

"ليس أكثر ممّا تفعل".

دوّن ريتش ملاحظة. "وتلك المرأة، هل تعرفينها؟". لم تجب. "وهل حاول الوسواس إيذاءك أنت أيضاً؟ يمكنك التحدّث بحرية، فهذا لن يستخدم ضدّك".

"أتى يتحدّث إليّ بتملّق، ويختال بردائه الحريري الأزرق، وهو أفضل ما لديه. وكان يلبس جورباً جديداً من الألباس".

قال: "جورباً من الألباس، لا شكّ في أنّ المشهد كان شديد الإغراء؟".
هزّت رأسها نافية.

"ولكنّك شابّة جميلة بالنسبة إلى أيّ رجل، برأيي".

نظرت إليه، وبدت شبه ابتسامة على شفّتها. "ولكنّني لست كذلك بالنسبة إلى الوسواس".

"وماذا قال حين رفضته؟".

"عرض عليّ الزواج". وضع أودلي رأسه بين يديه. "قلت له إنّني نذرت العفّة".
"ألم يغضب عندما رفضته؟".

"آه! بلى، بصق في وجهي".

قال ريتش: "لا أتوقّع منه سلوكاً أفضل".

"مسحت وجهي بمنديل. كان البصاق أسود".

"وكيف هي؟".

"مثل رائحة شيء متعفن".

"وأين المنديل الآن؟ لا أظنّ أنّك أرسلته للغسيل".

"إنّه مع الأخ إدوارد".

"وهل يريه للناس؟ مقابل المال؟".

"مقابل القرابين".

"بل المال".

رفع كرانمر رأسه من بين يديه. "هل لنا باستراحة؟".

قال ريتش: "ربع ساعة؟".
أودلي: "قلت لك إنه شاب مليء بالنشاط".
قال كرانمر: "ربما يمكننا الاجتماع غداً، فأنا أرغب في الصلاة، وربع ساعة لن تكفي".

قالت الراهبة: "ولكن غداً هو يوم أحد. ثمّة رجل خرج للصيد يوم الأحد فسقط في حفرة بلا قرار. تخيلوا ذلك".

سألها ريتش: "وكيف يمكن أن تكون بلا قرار إن كان الجحيم في أسفلها؟".
قال أودلي: "أتمنى لو أنني ذاهب إلى الصيد. يعلم الله أنني قد أخاطر".
نهضت أليس عن مقعدها وأشارت إلى حارسها. وقفت الراهبة وهي تبتسم ابتسامة عريضة، لقد أخافت رئيس الأساقفة، وجعلته يشعر هو نفسه بالقشعريرة، فيما أوشك المستشار العام على البكاء بسبب حديثها عن الأطفال المحروقين. كانت تظنّ أنّها تربح، ولكنّها تخسر، وتخسر، وتخسر طيلة الوقت. وضعت أليس يدها بلطف على ذراعها، ولكنّ الراهبة أبعدتها.

في الخارج، قال ريتشارد رايش: "علينا إحراقها".
قال كرانمر: "حتّى وإن لم يعجبنا حديثها عن الكاردينال الراحل الذي ظهر لها، والوسواسين في غرفتها، غير أنّها تتحدّث هكذا لأنهم علّموها أن تقلّد ادعاءات بعض الراهبات اللواتي سبقنّها، راهبات يسرّ روما أن تعترف بهنّ كقديسات. لا أستطيع إدانتهم بالهرطقة الآن، كما أنني لا أملك أدلّة لمحاكمتها بهذه التهمة".
"كنت أعني إحراقها بتهمة الخيانة".
تلك هي عقوبة المرأة. أمّا الرجل، فكان يتمّ شنقه جزئياً، قبل أن يخصى ويُخرج الجلاّد أحشاءه.

قال: "لم تقم بعمل صريح، بل عبّرت عن نيّة وحسب".
"نيّة بالقيام بثورة، وخلع الملك، ألم تكن تلك خيانة؟ سبق أن فسّر الكلام كخيانة، ثمّة سوابق لذلك، أنت تعرفها".

قال أودلي: "يدهشني أن تكون قد فاتت كرومويل".
وكأنّهم يشتمّون رائحة بصقة الوسواس، راحوا يتدافعون للخروج إلى الهواء الطلق، الذي كان معتدلاً ورطباً، محمّلاً برائحة الأوراق الخفيفة، ينيه ضوء ذهبيّ مخضّر. أدرك أنّه في السنوات التالية، ستتخذ الخيانة أشكالاً جديدة ومتنوّعة. فحين سنّ آخر قانون عن الخيانة، لم يتمكّن أحد من نشر محتوياته في كتاب أو مذكرة مطبوعة لأنّ

الطباعة لم تكن قد ابتكرت بعد. شعر بلحظة من الغيرة من الأموات، الذين خدموا الملوك في أزمان أكثر بطناً من زمانه. ففي أيامه، أصبح من الممكن نشر نتاج بعض الأدمغة المرشوة أو المسممة في أنحاء أوروبا خلال شهر واحد. قال ريتش: "أظن أننا بحاجة إلى قوانين جديدة". "سأتولى الأمر".

"كما أظن أننا نتعامل مع هذه المرأة بتساهل كبير. فنحن رقيقون بها جداً، نلاعبها وحسب".

ابتعد كرانمر، بكتفيه المرتخيتين، وكانت عادته بجرّ قدميه تدفع أوراق الشجر بعيداً. التفت إليه أودلي، وبدا على وجهه الإشراق والتصميم، رجل مستعدّ لتغيير الموضوع. "إذاً، قلت إن الأميرة بخير؟".

وُضعت الأميرة، غير المقمّطة، على وسائد عند قدمي آن. كانت عبارة عن فتاة قبيحة أرجوانية اللون، ذات شعر أشقر منتصب. كانت لديها عادة بركل ثوبها إلى الأعلى وكأنها تكشف عن ميزتها الأكثر تعاسة. يبدو أنّ شائعات انتشرت عن طفلة آن تفيد أنّها وُلدت بأسنان، وأنّ لديها ستّة أصابع في كلّ يد، ومكسوة بالشعر كالقرد. وهذا ما اضطرّ أباهما إلى عرضها عارية على السفراء، كما أنّ أمّها تبقّيها مكشوفة للعيان أملاً بتكذيب الشائعات. كان الملك قد اختار هاتفيد مقراً لها، وقالت آن: "يبدو لي أنّه في الإمكان توفير المال ووضع الأمور في نصابها إن قلّص عدد خدم ماري الإسبان وأصبحت هي واحدة من وصيفات الأميرة إليزابيث، ابنتي". "بصفتها ماذا؟"، لاحظ أنّ الطفلة هادئة، لأنّها أقحمت يدها في فمها محاولة أن تأكل نفسها.

"بصفتها خادمة لابنتي. ماذا غير ذلك؟ لا يمكننا الادعاء أنّهما متساويتان، فماري ابنة غير شرعية".

انتهت الاستراحة الوجيزة، إذ أطلقت الأميرة صرخة من شأنها إيقاظ الأموات. فنظرت إليها آن، وانحنّت نحوها، وقد اجتاحت وجهها ابتسامة هيام. ولكنّ النساء دخلن على الفور وأسرعن لحمل الطفلة، ولقّها، وأخذها بعيداً. تبعت الملكة بعينيها المشفقتين ثمرة أحشائها وهي تخرج مع حاشيتها. قال بلطف: "أظن أنّها جائعة".

* * *

مساء السبت: أقيم عشاء في أوستن فرايرز لستيفن فوغان، الذي كان يمرّ بهم غالباً في طريقه، وكان على العشاء أيضاً ويليام باتس، هانز، كراتسر، وريوثيسلي.

دار الحديث بلغات مختلفة، وراح رايف سادلر يترجم ببراعة، وسلاسة، ورأسه يستدير من جهة إلى أخرى: موضوعات هامة وأخرى بسيطة، تجارة ونميمة، لاهوت زوينغلي، زوجة كرانمر. بخصوص الموضوع الأخير، لم يكن ممكناً منع الكلام في ستيلارد وفي المدينة. قال فوغان: "هل من الممكن أن هنري يعرف ولا يعرف؟". "هذا ممكن جداً، فهو أمير يتمتع بقدرات كبيرة".

قال ريوثيسلي وهو يضحك: "قدرات تكبر يوماً بعد يوم". قال د. باتس: "إنه من الرجال الذين يحتاجون إلى الحركة، ومؤخراً بدأت ساقه تؤلمه، بسبب تلك الإصابات القديمة. ولكن هل من الممكن لرجل حافظ على سلامته في رحلات الصيد وفي ساحات الرماية ألا يتعرض لأيّ إصابة حين يصبح في سنّ الملك؟ سيبلغ الثالثة والأربعين من عمره هذه السنة كما تعرفون، ويسرّني يا كراتسر لو تعطينا رأيك بما تشير إليه النجوم عن السنوات القادمة لرجل واقع تحت سيطرة الهوء والنار. وبالمناسبة، ألم أحذر دائماً من أن قمره يقع في برج الحمل (وهو كوكب متهور ومتسرّع) في بيت الزواج؟".

قال بنفاد صبر: "لم نسمع كثيراً عن برج الحمل حين عاش باستقرار مع كاثرين عشرين عاماً. ليست النجوم هي التي تصنع قدرنا، د. باتس، بل الظروف والضرورة، الخيارات التي نقوم بها تحت الضغط، فضائلنا تصنعنا، ولكنها ليست كافية، بل علينا استخدام عيوبنا أحياناً. أم أنك لا توافقني؟".

أشار إلى كريستوف ليملاً كؤوسه. تحدّثوا عن دار سكّ العملة التي سيحتلّ فيها فوغان منصباً، وعن كاليه، التي تبدو فيها هونور ليسل أكثر انشغالا بالأعمال من زوجها الحاكم. فكّر في غيدو كاميلو في باريس، الذي يتقلّب بين الجدران الخشبية لآلة الذاكرة التي صنعها، بينما تنمو المعرفة بمفردها من دون أن يراها أحد في تجاويها ومساحاتها الداخلية. فكّر في الراهبة التي لم تعد راهبة الآن، والتي تتناول العشاء من دون شكّ مع الفتيات في هذه اللحظة. فكّر في زملائه الذين كانوا يستجوبونها معه: كرانمر الراكع على ركبتيه يصلي، وكيس النقود الذي يتفحص الوثائق عابساً، أودلي، ماذا يفعل قاضي القضاة الآن يا ترى؟ فكّر في أنه يلّمع من دون شكّ سلسلته. فكّر في سؤال فوغان بصوت منخفض ما إذا كان لديه فتاة في منزله تدعى جينيك، وعمّا حلّ بها. ولكن ريوثيسلي قطع عليه أفكاره. "متى نرى سيدي؟ أنت تعمل عليه منذ فترة، هانز، وحين الوقت لينتهي. نحن متحمسون لرؤية عمك".

قال كراتسر: "لا يزال مشغولاً بالمبعوثين الفرنسيين. دو دنتفيل يرغب في أخذ صورته معه عندما يتم استدعاؤه...".

راحوا يسخرون من السفير الفرنسي الذي لا يفتأ يحزم حقائبه ثم يفتحها مجدداً، لأن سيده يأمره بالبقاء حيث هو. قال هانز: "على أي حال، أتمنى ألا يأخذها بسرعة لأنني أنوي عرضها والحصول على طلبات من خلالها. أريد أن يراها الملك، كما أنني أرغب في رسم الملك، هل تظن أن هذا ممكن؟".

أجابه ببساطة: "سأسأله، دعني أختار الوقت المناسب". نظر عبر الطاولة ليرى فوغان يتألق فخراً، مثل جوبيتر مرسوماً على سقف.

بعد ما قام عن الطاولة، تناول ضيوفه حلويات الزنجبيل والفاكهة المحلاة، وقام كراتسر ببعض الرسومات. رسم الشمس والكواكب وهي تتحرك في أفلاكها استناداً إلى الخريطة التي سمع عنها من الأب كوبرنيكوس. أظهر لهم كيف يدور العالم على محوره، ولم ينكر ذلك أحد في الغرفة. يمكنك أن تشعر تحت قدميك بالشد والدفع، بالصخور التي تنن لتنتقل من أماكنها، بالمحيطات التي تميل وتندفع على الشواطئ، بتمايل جبال الألب، وبغابات ألمانيا التي تكاد تُقتلع من جذورها. لم يعد العالم كما كان في شبابه وشباب فوغان، لم يعد كما كان حتى في أيام الكاردينال.

كان الضيوف قد غادروا عندما أتت أليس ابنة أخته، تجاوزت حراسه، وكانت تلف نفسها برداء. كان يرافقها توماس روزيرهام، أحد الحراس الذين يعيشون في المنزل. قالت: "لا تخش شيئاً، جو جالسة مع السيدة إليزابيث، ولا شيء يفوت جو".

حقاً؟ تلك الطفلة التي تبكي باستمرار على تطايرها الرديئة؟ تلك الفتاة الصغيرة القذرة التي يجدونها ممددة تحت طاولة مع كلب مبتل، أو تلاحق بائعاً متجولاً في الشارع، قالت أليس: "أودّ التحدّث إليك، إن كان لديك الوقت". قال: "بالطبع"، وشدّ ذراعها، ووضع يدها في يده. شحب لون توماس وانسحب مبتعداً، ما أثار استغرابه.

جلست أليس وتثاءبت. "أعذرنى، ولكنّها متعبة والنهار طويل". أدخلت خصلة شعر من تحت غطاء رأسها، ثمّ أضافت: "إنّها على وشك الانهيار. تبدو شجاعة أمامكم، ولكنّها تبكي ليلاً لأنّها تعرف أنّها محتالة. وحتى عندما تبكي، تختلس النظر من بين رموشها لترى أثر بكائها".

قال: "أريد الانتهاء من هذا الأمر الآن. بسبب كلّ المشاكل التي سببتها، يجتمع يومياً ثلاثة أو أربعة منّا، ونحن أشخاص ضليعون في القانون والكتاب المقدس، لمحاولة الإيقاع بفتاة محتالة".

"لماذا لم تحضرها إلى هنا قبل الآن؟".
"لم أكن أريدها أن تغلق دكانها. أردت أن أرى من يأتي إليها مسرعاً عند طلبها.
وقد أتت الليدي أكسيتير، والأسقف فيشر، فضلاً عن عدد كبير من الرهبان والكهنة
المتهورين الذين أعرف أسماءهم، وربما مئات من الأسماء الأخرى التي لا أعرفها
بعد".

"وهل سيقتلهم الملك جميعاً؟".

"قلّة منهم، حسبما آمل".

"هل تحبّه على أن يكون رحيماً".

"بل أحبّه على الصبر".

"وماذا سيحلّ بها؟ السيّدة إليزا؟".

"سنصوغ لها تهماً".

"هل سنسجن؟".

"كلاً، سأحتّ الملك على معاملتها بشيء من الاعتبار، فهو يحترم عادة أيّ
شخص في الحياة الدينية. ولكن أليس"، رأى أنها بدأت تبكي، "أظنّ أنّ هذا الأمر
كان صعباً بالنسبة إليك".

"على الإطلاق. فنحن جنود في جيشك".

"ألم تخفك بحديثها عن عروض الوسواس الماكرة؟".

"كلاً، بل عروض توماس روفرهام... يريد الزواج منّي".

"إذاً، تلك مشكلته!". بدا عليه السرور. "ألا يستطيع أن يطلب بنفسه؟".

"يظنّ أنّك قد تنظر إليه... وكأنك تزنه".

وكانّه قطعة نقدية؟ "أليس، إنّه يملك جزءاً هاماً من بيدفوردشاير، كما أنّ منزله
تزدهر على نحو جيّد منذ أن بدأت أعتني بها. وإن كنتما معجبان ببعضكما، فكيف
لي أن أرفض؟ أنت فتاة ذكيّة، أليس". أضاف بلطف: "لكان أبواك سرّاً كثيراً لو
أمكنهما رؤيتك".

لهذا السبب كانت أليس تبكي. كان عليها أن تطلب إذنَ خالها لأنها تبيّمت في
العام الفائت. ففي اليوم الذي توفّيت فيه شقيقته بيت، كان في الريف مع الملك. لم
يكن هنري يستقبل الساعة من لندن خوفاً من العدوى، لذلك توفّيت ودُفنت قبل أن
يعلم بمرضها. وعندما وصل الخبر أخيراً، تحدّث إليه الملك بحنان، واضعاً يده على
ذراعه. تحدّث عن شقيقته، تلك السيّدة فضيّة الشعر وكانّها أميرة في كتاب، والتي

انتزعت من هذه الحياة إلى حياة أفضل كما زعم.
قال: "أليس، جففي دموعك، واذهبي إلى توماس روزهام وضعي حدًا لعذابه. ليس من الضروري أن تأتي إلى لامبيث غداً. في إمكان جو المجيء، إن كانت بخير كما تقولين".

استدارت أليس حين وصلت إلى الباب. "ولكن هل سأراها مجدداً؟ أعني إليزا بارتون؟ أودّ رؤيتها قبل...".

قبل أن يقتلها. أليس ليست بريئة، وهذا أمر جيّد. فهكذا كان ينتهي الأمر بالأبرياء، يستغلهم الأثمون والساخرون، يستخدمونهم لأهدافهم ثم يسحقونهم بأقدامهم. سمع أليس تركض على السلم. سمعها تنادي: توماس، توماس... إنه اسم سيخرج نصف سكان هذا المنزل من غرفهم: نعم، هل تبحثين عني؟ لفّ رداءه حوله وخرج لتأمّل النجوم. كان يحرص على إضاءة جوار منزله. فالحقائق المضاءة بالمشاعل حُفرت فيها خنادق للأساس، وجُرفت الأرض وتحوّلت إلى حفر وتلال. ارتفع أمامه إطار خشبيّ لجناح جديد، وفي الوسط بستان جديد سيجني ثماره غريغوري يوماً ما، وأليس، وأبناء أليس. لديه أشجار مثمرة منذ الآن، ولكنه يريد أشجار كرز ووخوخ كتلك التي أكل منها في الخارج، وأشجار إجاص متأخر لاستعماله على الطريقة التوسكانية، لتلائم ثماره الشهية سمك القدّ المملح الشتوي. وفي العام القادم، كان ينوي إنشاء حديقة أخرى في منزل الصيد الذي يملكه في كانونبيري، وأن يجعل منه منزلاً صيفياً في الحقول، يستريح فيه من المدينة. لديه عمل في ستيبني أيضاً، أعمال توسيع، ويقوم جون وليامسون بالبحث عن بنائين من أجله. والغريب أنّ ازدهار العائلة شفاه كما يبدو من سعاله القاتل. فكّر في نفسه قائلاً: يعجبني جون وليامسون وزوجته... سمع من خلف البوابة صراخاً وصياحاً. لندن لا تهدأ أبداً. أعداد كبيرة من أبنائها في المقابر، ولكن الأحياء يتسكعون في الشوارع، والمقاتلون السكارى يقفزون من جسر لندن، رجال دين يصرخون، ومومسات الجنوب ينادين بأسعارهنّ مثل الجزارين الذين يبيعون اللحم.

عاد إلى الداخل، وجذبه مكتبه مجدداً. كان يحتفظ في صندوق صغير بكتاب زوجته. أو يحتوي الكتاب على صلوات كُتبت على أوراق وضعتها بين صفحاته. كانت تتلو هذه الصلوات لإبعاد الحمى. ولكن من دون جدوى. الحمى تأتي وتقتلك. قرب اسم زوجها الأول، توماس ويليامز، كتبت اسمه، ولكنه لاحظ أنّها لم تشطب نوم ويليامز. سجّلت تواريخ ولادات أطفالها، وكتب قربها تاريخ وفاة ابنتيه. وجد

مجالاً سيدون فيه تاريخي زواج ولدي أختيه: ريتشارد من فرانسيس مورفين، وأليس من حارسه.

قال في نفسه: ربّما تجاوزتُ ليز. لم يبدو له ممكناً أن يزاح ذاك الثقل عن صدره، ولكن أزيح إلى حدّ أنّه تابع حياته. فكّر في نفسه قائلاً: في إمكاني الزواج مجدداً، وليامسون الآن، ليست كما كانت جوهان بالنسبة إليّ. كان لجسدها معنى خاصّ، ولكنّ هذا المعنى زال الآن، وأصبحت مجرد امرأة ذابطة، من دون جمال خاصّ. قال في نفسه: لم أعد أفكّر في أنسيلما الآن، لم تعد سوى امرأة في سجادة مزركشة، امرأة من خيوط محاكاة.

تناول ريشته. قال في نفسه: لقد تجاوزت ليز. أكيد؟ تردّد، والريشة في يده، متقلّة بالحبر. فتح الصفحات، وشطب اسم زوجها الأوّل. فكّر في نفسه قائلاً: كنت أنوي فعل ذلك منذ سنوات.

تأخّر الوقت. أغلق النافذة في الأعلى، والتي كان القمر يبدو منها بعينه المجوّفتين، وكأنّه سكير تائه في الشارع. سأله كريستوف وهو يطوي الملابس: "هل ثمة ذئاب في هذه المملكة؟".

"أظنّ أنّ الذئاب ماتت جميعها عندما قُطعت الغابات. وهذا العواء الذي تسمعه ليس سوى أصوات أبناء لندن".

يوم الأحد: انطلقوا من أوستن فرايرز تحت ضوء الشمس الوردية، كان الرجال يرتدون زيهم الرمادي الجديد وهم متوجّهون لاصطحاب المجموعة من منزل المدينة الذي احتجزت فيه الراهبة. فكّر في أنّه كان من الملائم لو أنّ معه مركب الوزير عوضاً من القيام بترتيبات خاصّة من أجل عبور النهر. كان قد حضر القدّاس، وأصرّ كرانمر على أن يحضروا جميعاً قدّاساً آخر. راقب الفتاة ورأى الدموع تسيل من عينيها. كانت أليس محقّة، فقد بلغت مسرحيتها آخر فصولها.

عند الساعة التاسعة، بدأت تحلّ خيوط كذبتها التي أمضت أعواماً في نسجها. اعترفت بأنّاقة، وبقوّة، وبسرعة بحيث صعب على ريتش متابعتها. واحتكمت إليهم كرجال من هذا العالم: "تعرفون كيف هي الأمور. تذكرون شيئاً أمام الناس، فيهرعون إليّ، ماذا تعني، ماذا تعني؟ تقول إنّك شاهدت رؤيا، فلا يتركونك وشأنك".

قال: "لا تستطيعين أن تخيبي أمل الناس؟"، هزّت رأسها، "بالضبط، لا يمكنك ذلك. ما إن تبدأ، فعليك الاستمرار. وإن حاولت التراجع، فسيقتلونك".

اعترفت أنّ رؤاها كانت ملققة، ولا أساس لها...
شيء ما انكسر في داخلها، وكان يتساءل ما هو.
سألت: "هل لديّ أيّ أمل بالعودة إلى بيتي في كينت من جديد؟".
"سأرى ما أستطيع فعله".

كان هيوغ لاتيـمر جالساً معهم، فألقى عليه نظرة حادة، وكأنّه يعطي وعوداً كاذبة.
لا، حقاً، دع الأمر لي.

قال لها كرانمر بلطف: "قبل أن تذهبي إلى أيّ مكان، عليك الإقرار علناً بأعمال
الدجل التي قمت بها، اعترافاً علنياً".

"هي لا تخشى الحشود، أليس كذلك؟". فقد أمضت السنوات الماضية على
الطرق، تقيم عروضاً متنقلة، وستفعل مجدداً، مع أنّ طبيعة العرض تغيرت. كان
ينوي أن يجعلها تعلن توبتها ربّما خارج لندن. وشعر أنّها ستؤدي دور الدجالة
بالمتمعة نفسها التي أدّت بها دورها كقديسة.

قال لريتش: "أخبرنا نيكولو أنّ المتوقّعين غير المسلّحين يفشلون دائماً". ابتسم
وأضاف: "أنا أذكر هذا الأمر، ريكاردو، لأنني أعرف أنّك تحبّ سماعه".

مال كرانمر إلى الأمام وقال للفتاة: "أولئك الرجال المحيطون بك، إدوارد بوكينغ
والباقون، من منهم كانوا عشاقك؟".

صدمها السؤال، ربّما لأنّه صدر منه هو، أكثر مستجوبياً لطفاً. اكتفت بالتحديق
إليه، وكأنّ أحدهما غبي.

قال متمتماً: "ربّما تظنّ أنّ كلمة عشاق ليست هي الكلمة المناسبة".

"كفى". قال لأودلي، ولاتيـمر، وريتش: "سأبدأ بإحضار أتباعها وقادتها. لقد دمّرت
كثيرين، إن كنّا نودّ الإصرار على دمارهم. فيشير بالتأكيد، وربّما مارغريت بول،
وجيرترود وزوجها من دون شكّ. الليدي ماري ابنة الملك، هذا ممكن. توماس مور،
لا، وكاثرين، لا، ولكن مجموعة كبيرة من الفرانسييسكانيين".

قام أعضاء المحكمة، إن كان ممكناً تسميتها كذلك. وقفت جو، التي كانت تخطط،
أو بالأحرى تفكّ القطب التي خاطتها حول رمّانة، تلك الآثار من كاثرين، ومن
مملكة غرناطة المغبرة، لا تزال موجودة في إنكلترا. طوت القماش، ووضعت مقصّها
في جيبها، ثمّ غرزت الإبرة في القماش لاستعمالها لاحقاً. توجّهت نحو السجينة،
ووضعت يدها على ذراعها. "علينا أن نودّع بعضنا بعضاً".

"هل ستأتين معي، سيّديتي؟ إلى أين أنا ذاهبة؟".

أجابتها جو: "لا أحد سيذهب معك. لا أظنك تدركين ذلك، سيّدة إيزا. أنت ذاهبة إلى البرج، وأنا ذاهبة إلى البيت لتناول العشاء".

كان صيف عام 1533 صيفاً بلا غيوم، امتلأت فيه حدائق لندن بثمار الفراولة، وطغى عليه طنين النحل. جذبت أمسياته الدافئة الناس للتنزه بين الورود، وسمعت فيها أصوات الشباب الذين كانوا يتشاجرون في سهراتهم. كان محصول الحنطة وافراً حتّى في الشمال، بينما كانت الأشجار مثقلة بحملها من الفاكهة الناضجة. وكانّ الملك أصدر مرسوماً لاستمرار الحرب، ظلّ الدفء يسود في بلاطه خلال فصل الخريف. كان المونسينيور، والد الملكة، يسطع مثل الشمس، وحوله يدور كوكب أصغر، ولكنّه يشعّ هو أيضاً كنجم الظهيرة، ابنه جورج روتشفوردي. ولكنّ براندون هو من كان يقود الرقص، ويقفز في القاعة وهو يجرّ عروسه الجديدة، التي كانت في الرابعة عشرة من عمرها. كانت وريثة مخطوبة لابنه، ولكنّ تشارلز رأى أنّ رجلاً خبيراً مثله يمكنه الاستفادة منها أكثر.

كانت أسرة سيمور قد ألفت فضيحتها العائلية خلفها، وبدأ وضعها يتحسن. قالت له جاين سيمور، وهي تنظر إلى قدميها: "سيّد كرومويل، لقد ابتسم أخي إدوارد البارحة".

"هذا تهوّر من جانبه. ما الذي دعاه إلى ذلك؟".

"سمع أنّ زوجته مريضة. تلك التي كانت زوجته، التي كان أبي، أنت تعرف".
"وهل يُحتمل أن تموت؟".

"آه! هذا محتمل جدّاً. عندها سيتمكّن من الزواج مجدّداً. ولكنّه سيبقيها في منزله في إلفيتهام، ولن يسمح لها أبداً بالاقتراب من وولف هول. وحين يزور والدي إلفيتهام، سيحبسها في غرفة البياضات إلى أن يرحل".

كانت ليزي، أخت جاين، في القصر مع زوجها، حاكم جيرسي، الذي تربطه علاقة قرى بالملكة الجديدة. أتت ليزي بثوب من المخمل والقماش المخرم، وكانت ملامحها حازمة على عكس ملامح أختها غير المحدّدة، كما كانت عيناها جريئتين، عسليتين، وفصيحتين. همست جاين في أثرها. كانت عيناها بلون الماء، وأفكارها تنزلق، مثل الأسماك الذهبية التي يمنعها حجمها من أن تعلق في الصنابير أو الشباك.

كانت جاين روتشفوردي، التي يعتبر عقلها قليل الانشغال، هي التي رأته يراقب الأختين. قالت: "لا بدّ من أنّ لدى ليزي سيمور عشيقاً، فمن غير الممكن أن يكون زوجها هو المسؤول عن هذا البريق في خديّها، إنّهُ رجل عجوز. وكان عجوزاً حين

شارك في الحروب السكوتلاندية". أشارت إلى أن الأختين لا تشبهان بعضهما بعضاً إلا قليلاً، فهما تتشاركان عادة خفض رأسيهما وجذب الشفة السفلية إلى الداخل. أضافت مبتسمة بتكلف: "باستثناء ذلك، يظن المرء أن أمهما قامت بحيل زوجها نفسها. فقد كانت مارغريت وينتورث في أيامها امرأة رائعة الجمال. ولا أحد يعرف ما يدور في ويلتشاير".

"يفاجئني ألا تعرفي، ليدي روتشفورد. إذ يبدو عليك أنك مطلعة على شؤون الجميع".

"أنا وأنت نبقي أعيننا مفتوحة". خفضت رأسها، وأضافت وكأنها توجه كلامها إلى الداخل، إلى جسدها: "بمقدوري إبقاء عيني مفتوحتين، إن أردت، في أماكن لا يمكنك الذهاب إليها".

ربّاه، ماذا تريد؟ لا تسعى وراء المال بالتأكيد؟ أتى السؤال أكثر برودة مما أراد: "لقاء ماذا؟".

نظرت إلى عينيّه: "أودّ أن نكون صديقين".
"من دون أيّ شروط".

"ظننت أنني أستطيع مساعدتك، لأنّ حليفك الليدي كاري ذهبت الآن إلى هيفر لرؤية ابنتها. لم تعد مرغوبة في البلاط منذ أن عادت آن لمزاولة واجباتها في غرفة النوم. يا لماري المسكينة". وضحكت مضيفة: "لقد حصلت على فرص جيّدة ولكنها لم تعرف أبداً كيف تستغلّها. أخبرني، ماذا ستفعل إن لم تتجب الملكة طفلاً آخر؟".
"ما من سبب للخوف. فأمّها كانت تتجب طفلاً كلّ عام. وكان بولين يتذمّر من النفقات المترتبة على كثرة الأولاد".

"هل لاحظت يوماً أنّه حين ينجب الرجل ابناً يعزو الفضل إلى نفسه، وعندما يُنجب فتاة، يلوم زوجته؟ وإن لم يُنجب أولاداً على الإطلاق، نقول إنّ المرأة عاقر، ولا نقول أبداً إنه عقيم".

"الأمر نفسه مذكور في الكتاب المقدّس. فاللوم يقع على الأرض الصخرية".
الأماكن الصخرية، النفايات الشائكة التي لا يمكن الاستفادة منها. لم تُنجب جاين روتشفورد أطفالاً بعد سبع سنوات من زواجها. قالت بخفة: "أظنّ أنّ زوجي يتمنّى لو أموت". لم يعرف بما يجيبها، فهو لم يطلب منها البوح بمشاعرها. أضافت بالنبرة الخفيفة نفسها: "إن متّ، فاطلب تشريح جسدي. أنا أسألك ذلك من باب الصداقة. فأنا أخشى أن يسمّوني. زوجي وأخته يمضيان ساعات معاً، وأن تعرف جميع

السموم. كانت تتباهى قائلةً إنّها ستقدّم إلى ماري إفطاراً لن تقوم من بعده أبداً".
انتظر. "أعني ماري ابنة الملك. مع أنّي واثقة من أنّ أن لن تتردّد في التخلّص من
شقيقتها، إن طاب لها ذلك". نظرت إليه مجدّداً. "إن كان قلبك صادقاً، ستودّ لو
تعرف ما أعرفه".

فكّر في نفسه قائلاً: إنّها وحيدة وقلبها يزداد ضراوة، مثل ليونتينا في ققصها.
تتخيّل أنّ كلّ شيء يدور حولها، كلّ نظرة أو حديث سريّ. تخشى أن تشفق عليها
النساء الأخريات، وهي تكره الشفقة. سألتها: "ماذا تعرفين عن قلبي؟".
"أعرف أين تركته".

"هذا يتجاوز معرفتي أنا".

"هذا ليس غريباً لدى الرجال. أستطيع أن أخبرك من تحبّ. لماذا لا تطلبها، ما
دمت تريدها؟ آل سيمور ليسوا أغنياء. سيبيعونك جاين، وستسرّهم الصفقة".
"أنت مخطئة في طبيعة اهتمامي. لديّ شباب في منزلي، لديّ حراس، وزيجاتهم
هي ما يشغلني".

قالت: "أه! هراء. هذا كلام لا يقنعني، أخبرك لكذبتك للأطفال، وليس لي. أخبرها
لمجلس العموم، فأنت معتاد على الكذب عليهم، ولكن لا تظنّ أنّك تستطيع خداعي".
"بالنسبة إلى سيّدة تعرض صداقتها، فإنّ سلوكك فظّ".

"عليك الاعتياذ عليه، إن أردت معلوماتي. ماذا ستري لو ذهبت الآن إلى غرفة
آن؟ ستري الملكة تصلي، أو تخطط رداءً لمتسوّلة، مزينة بعقد من اللؤلؤ حباته بحجم
حبات الحمص".

كان من الصعب عليه عدم الابتسام، فالصورة دقيقة جدّاً. لقد خلبت آن لبّ
كرانمر، الذي يظنّها مثال المرأة التقيّة.

"إذاً، هل تتخيّل أنّ هذا ما يجري بالفعل؟ هل تظنّ أنّها تخلّت عن أحاديثها إلى
الشباب الأذكياء؟ تخلّت عن الأغاز والأشعار والأغاني التي يمدحونها فيها؟".
"لديها الملك لمدحها".

"لن تسمع كلمة طيبة منه قبل أن تحمل مجدّداً".

"وما الذي سيعوق ذلك؟".

"لا شيء، إن كانت أهلاً له".

قال: "كوني حذرة"، وابتسم.

"لم أعرف أنّ إخبار ما يجري في سرير أمير هو خيانة. كلّ أوروبا تحدّثت عن

كاثرين، وهل عاشرها زوجها، وإن كان قد فعل، هل تعلم؟". ضحكت بصوت منخفض، ثم أضافت: "ساق هاري تؤلمه ليلاً، وهو يخشى أن تركله الملكة". وضعت يدها أمام فمها، ولكن الكلمات زحفت منه، وخرجت من بين أصابعها. "ولكن إن تمددت تحته من دون حراك، يقول: ما الأمر، سيديتي، هل أنت قليلة الاكتراث بإنجاب وريث لي إلى هذا الحد؟".

"لا أرى ماذا تستطيع أن تفعل".

"تقول إنها لم تعد تستمتع معه. أمّا هو، بعد أن ناضل سبع سنوات للحصول عليها، بالكاد يقرّ أنّ علاقتهما فترت بتلك السرعة. لقد فترت قبل عودتهما من كاليه، هذا ما أظنّه".

هذا ممكن، ربّما أنهكتهما المعركة. مع ذلك، لا يزال يقدم إليها هدايا رائعة، كما أنّهما يتشاجران كثيراً. هل كانا ليتشاجرا إلى هذا الحدّ لو أنّهما لا يكثران لبعضهما بعضاً؟

تابعت: "إذاً، بين الركل والساق التي تؤلمه، وبين قلة براعته وقلة رغبتها، سيكون من الغريب أن نحصل يوماً على أمير لويلز. آه! يكون رجلاً طيباً إن كان يحصل على امرأة جديدة كلّ أسبوع. فإن كان يحبّ التجديد، من قال إنّها لا تحبه هي أيضاً؟ شقيقها نفسه هو في خدمتها".

التفت لينظر إليها وقال: "كان الله في عونك، ليدي روتشفورد".

"كي يضع أصدقاءه في طريقها، هذا ما عنيته. ماذا ظننت؟" وضحكت بصوت مثير للأعصاب.

"هل تعرفين ماذا تعنين أنت نفسك؟ لقد عشت في البلاط طويلاً وتدرकिन الألعاب التي تدور فيه. ما من مشكلة إن تلقّيت أيّ سيّدة أبيات شعر ومجاملات، حتّى وإن كانت متزوّجة. فهي تعرف أنّ زوجها يكتب أبياتاً في مكان آخر".

"آه! تعرف ذلك. على الأقل، أنا أعرف. فما من امرأة على شعاع ثلاثين ميلاً لم تحصل على أبيات شعر من روتشفورد. ولكن إن كنت تظنّ أنّ التودّد يتوقّف عند باب غرفة النوم، فأنت أكثر براءة ممّا ظننت. إن كنت مغرماً بابنة سيمور، لا حاجة بك إلى منافستها على ذكائها الذي لا يفوق ذكاء خروف".

ابتسم مجيباً: "ولكنّ الخرفان لا تقنقر إلى المكر. إذ يقول الرعاة إنّها تعرف بعضها بعضاً، وتردّ عندما تتادى بأسمائها. كما أنّ صداقتها تدوم مدى الحياة".

"وأنا سأخبرك من يدخل ويخرج إلى غرف نوم الجميع، إنّ ذلك الصبيّ الصغير

المتسلل مارك. إنه القاسم المشترك بينهم جميعاً. وزوجي يدفع له بأزرار اللؤلؤ وعلب الحلوى والريش لقبّته".

"لماذا، هل اللورد روتشفورد يحتاج إلى المال؟".

"هل ترى فرصة للمراباة؟".

"وكيف لا؟". فكّر في نفسه قائلاً: على الأقل، لدينا نقطة نجتمع عليها، ألا وهي كرهنا لمارك. كان لديه واجبات في منزل وولزي، إذ كان مسؤولاً عن تعليم أعضاء الجوقة. أما هنا، فلا يفعل سوى الوقوف، على مقربة من غرفة الملكة. قال: "حسناً، لا أرى في الصبي أيّ مصدر للأذى".

"في أفضل الحالات، يلتصق كالقشرة. لا يعرف مكانه. إنه نكرة، يستغلّ فرصة اضطراب الأمور".

"أفترض أنك تقولين عني الشيء نفسه، ليدي روتشفورد. بل أنا واثق من ذلك".

أحضر له توماس ويات سلالاً من الذرة والبندق وتفاحاً من كينت، وأتى إلى أوستن فرايرز بعربة الساعي. قال وهو يقفز: "لحم الغزال يأتي لاحقاً. أنا آتي بالفاكهة الطازجة، وليس بالجنث". كان شعره برائحة التفاح وملابسه مكسوّة بغبار الطريق. "والآن سأقول لك كلمتين لأتّك خاطرت بسترة تساوي...".

"ما يكسبه ساع خلال عام".

بدا الخجل على وجه ويات. "نسيت أتّك والدي".

"لقد وبّختك، يمكننا التحدّث من دون كلفة". وقف تحت الشمس الخريفية الخجولة، وتناول تفاحة بيده. قشّرها بنصل رقيق، فانفصلت القشرة عن اللبّ وسقطت بين أوراقه، وكأَنَّها ظلّ تفاحة، لون أخضر فوق الورق الأبيض والحبر الأسود. "هل رأيت الليدي كاري عندما كنت في الأرياف؟".

"ماري بولين في الأرياف. يا للصور النديّة التي تخطر في البال. أظنّ أنّها ممدّدة في عليّة قشّ في مكان ما".

"أريدها أن تبقى تحت سيطرتي من أجل المرّة التالية التي تخرج فيها شقيقتها من المعركة".

جلس ويات بين الملقّات، وبيده تفاحة. "كرومويل، افترض أنّك ابتعدت عن إنكلترا سبع سنوات، وكنت مثل فارس في قصّة، واقعاً تحت سحر. تنظر حولك وتتساءل، من هم أولئك الناس؟".

هذا الصيف، تعهّد ويات بالبقاء في كينت. قال إنه سيقراً ويكتب في الأيام

الممطرة، ويخرج إلى الصيد عندما يكون الطقس جميلاً. ولكن الخريف أتى، بلياليه المظلمة، وعادت أن تجذبه إليها. كان يعتقد أنّ قلبه صادق، وإن كانت هي مخادعة، من الصعب تحديد مكن الكذب. لم يكن ممكناً المزاح مع أن هذه الأيام، لم يكن ممكناً الضحك. عليك اعتبارها كاملة، وإلا وجدت طريقة لمعاقبتك.

"يتحدّث والذي السابق عن أيام الملك إدوارد. يقول: هل ترى الآن لماذا لا يجدر بالملك الزواج من امرأة من الرعية، امرأة إنكليزية؟".

المشكلة هي أنه، على الرغم من أنّ أن أعادت تشكيل البلاط، فلا يزال ثمة أشخاص عرفوها من قبل، عندما أنت من فرنسا، وقرّرت إغراء هاري بيرسي. كانوا يتنافسون على إخبار قصص عن مدى قلّة جدارتها، أو مدى قلّة إنسانيتها، عن كونها أفعى، أو بجعة، أو غزالة بريئة. ظبية بيضاء واحدة مخبّأة بين أوراق رمادية فضيّة، تختبئ بين الأشجار وهي ترتجف، بانتظار العشيق الذي سيحوّلها من حيوان إلى كائن مبجل. قال ويات: "أرسلني مجدداً إلى إيطاليا. بعينيها الداكنتين، اللامعتين، المائلتين، تلاحقني. تأتيني ليلاً وأنا وحيد في سريري".

"وحيد؟ لا أظنّ ذلك".

ضحك ويات مجيباً: "أنت على حق. لا أمانع إن توفّر مؤنس".

"أنت تكثر من الشراب، عليك تخفيف شرابك بالماء".

"كان ممكناً أن يكون الوضع مختلفاً".

"كان ممكناً أن يكون كلّ شيء مختلفاً".

"أنت لا تفكّر أبداً في الماضي".

"أنا لا أتحدّث عنه أبداً".

ناشده ويات قائلاً: "أرسلني إلى مكان ما".

"سأفعل، عندما يحتاج الملك إلى سفير".

"هل صحيح أنّ أسرة ميديسي طلبت يد الأميرة ماري؟".

"أنت تعني الليدي ماري وليس الأميرة ماري. طلبت من الملك التفكير في الأمر، ولكنّ الأسرة ليست عريقة بما يكفي بالنسبة إليه. أتعرف، لو أبدى غريغوري بعض الاهتمام بالعمل المصرفي، لبحثت له عن عروس في فلورنسا. لكان من المفرح وجود فتاة إيطالية في المنزل".

"أرسلني إلى هناك مجدداً. أرسلني إلى مكان أستطيع أن أكون فيه نافعاً، لك أو للملك. فأنا هنا بلا فائدة، لا بل وأسوأ من ذلك بالنسبة إلى نفسي، ولا أمتّع أحداً".

قال: "آه، بالله عليك، توقّف عن رثاء نفسك".
كان لنورفولك رأيه الخاصّ بأصدقاء الملكة. خشخش قليلاً وهو يعرب عن ذلك، وراحت الأشياء المبعّلة التي تزيّن ملابسه تصلصل، وحاجباه الرماديان غير المنتظمين يعلوان وينخفضان فوق عينيه الجاحظتين. قال: "أولئك الرجال، أولئك الرجال الذين يتسكّعون مع النساء! كنت أظنّ نوريس أفضل من ذلك! وابن هنري ويات! يكتب القصائد، يغني، يثرثر". سأل بجدية: "ما فائدة التحدّث إلى النساء؟ كرومويل، أنت لا تتحدّث إلى النساء، أليس كذلك؟ أعني، ما سيكون الموضوع؟ ماذا ستجد لقوله؟".

قرّر أن يتحدّث إلى نورفولك عند عودته من فرنسا، ليطلب منه أن تلتزم آن جانب الحذر. سيلتقي الفرنسيون بالبابا في مرسيليا، وبما أنّ هنري لا يستطيع الحضور، سيمثّله أعلى النبلاء مقاماً. كان غاردينر قد أصبح هناك. قال لتوم ويات: "بالنسبة إليّ، كلّ يوم هو عطلة عندما يكون هذان الاثنان بعيدين".

قال ويات: "أظنّ أنّه سيكون لدى هنري اهتمام آخر حين ذاك".
في الأيام التالية، تابع عينيّ هنري وهما تقعان على سيّدات مختلفات في القصر. ربّما لم تكونا تحملان أكثر من اهتمام تأمليّ لأيّ رجل. وحده كرانمر ظنّ أنّك إن نظرت مرتين إلى امرأة، يتعيّن عليك الزواج منها. راقب الملك وهو يرقص مع ليزي سيمور، ويدها تستقرّان مطوّلاً حول خصرها. رأى أنّ تراقب المشهد بتعابير باردة ومتوتّرة.

في اليوم التالي، أقرض إدوارد سيمور بعض المال بشروط مرضية جدّاً.

في صباح الأيام الخريفية الممطرة، قبل أن تشرق الشمس تماماً، خرج أهل البيت باكراً إلى الغابات الرطبة. لم يكن ممكناً صنع كعكة الفطر ما لم تجمع مكوّناتها الطازجة.

وصل ريتشارد ريتش عند الساعة الثامنة، وبدا على وجهه الذهول والقلق. "أوقفوني عند بابك، سير، وسألوني عن كيس الفطر. لا أحد يدخل إلى هنا من دون فطر".
بدا على ريتش أنّ كرامته أهينت. "لا أظنّ أنّهم يطلبون فطراً من قاضي القضاة".
"آه، بلي، ريتشارد. ولكن بعد ساعة ستأكله مع البيض المخبوز بالقشدة، وقاضي القضاة لن يفعل. هل ننزل لمباشرة العمل؟".

خلال شهر أيلول/سبتمبر، كان يطوف على الكهنة والرهبان الذين كانوا يحيطون بالراهبة. كان هو وكيس النقود يمحصّان الأوراق ويقومان بالاستجابات. وما إن

أوقف رجال الدين، حتى بدأوا يُنكرونها ويُنكرون بعضهم بعضاً. أنا لم أعتقد بها أبداً، بل الأب فلان وفلان هو من أقنعني، أنا لم أشأ التسبب بأي مشاكل. أمّا بالنسبة إلى اتصالاتهم بزوجة إكسيتير، وكاثرين، وماري، فقد أنكر كلّ منهم تورّطه، وسارع إلى إلقاء اللوم على أخيه في الدين. كان رجال الدين المحيطون بالراهبة على اتصال مستمرّ بمنزل إكسيتير. كما زارت هي نفسها عدداً كبيراً من أديرة المملكة الرئيسية: دير سايون، تشارترهاوس في شين، والدير الفرانسيكاني في ريتشموند. كان يعرف ذلك من معارفه العديدين من الرهبان المستائين. ففي كلّ منزل ثمة بعض منهم، وكان يتّصل بأكثرهم نكاءً. لم تلتق كاثرين بالراهبة بنفسها. ولكن لماذا فعلت ذلك، ولديها فيشر كوسيط، فضلاً عن جيرترود، زوجة إكسيتير؟

قال الملك: "يصعب عليّ التصديق أنّ هنري كورتي قد يخونني. فارس ربطة الساق، ومبارز عظيم، صديقي منذ أيام الصّبا. حاول وولزي إبعادنا عن بعضنا، ولكنني لم أقبل". ضحك مضيفاً: "براندون، هل تذكر غرينتش؟ أيّ عام كان؟ هل تذكر مباراة كرة الثلج؟".

تلك هي صعوبة التعامل مع أولئك الرجال الذين كانوا يتحدّثون دائماً عن الأنساب القديمة، وصدقات الصّبا، والأمور التي حدثت عندما كنت لا تزال تتاجر بالصوف في أنتويرب. كنت تضع الأدلّة تحت أنوفهم، فيبدأون بالبكاء على مباريات كرة الثلج. قال هنري: "اسمع، اللوم يقع على زوجة كورتي. حين يعرف ما فعلته، سيرغب في التخلص منها. فهي متقلّبة وضعيفة مثل جميع بنات جنسها، ويسهل دفعها إلى أعمال المكر والمكائد".

قال: "إذاً، سامحها. اكتب لها عفواً. اجعل هؤلاء الناس مدينين لك بالامتنان، إن كنت تريد منهم التخلّي عن مشاعرهم المتهوّرة تجاه كاثرين". قال تشارلز براندون: "تظنّ أنّ في استطاعتك شراء القلوب". وبدا أنّه سيشعر بالحزن لو كان الردّ إيجابياً.

اعتقد أنّ القلب مثل أيّ عضو آخر، يمكن وزنه على مقياس معين. نحن لا نعرض عليهم ثمناً للمال. لديّ ما يكفي من الأدلّة لمحاكمة أسرة كورتي، وجميع أفراد أسرة إكسيتير. ولكن إن امتنعنا عن ذلك، فإننا نعطيهم حرّيتهم وأملاكهم، نعطيهم فرصة استرداد شرف اسمهم".

قال هنري: "ترك جدّه كروكباك من أجل خدمة والدي".

قال تشارلز: "إن سامحناهم سيعتبروننا حمقى".

"لا أظنّ ذلك، سيّدي. فأنا سأكون مطلعاً على كلّ ما يفعلونه من الآن فصاعداً."
"وماذا عن أسرة بول، اللورد مونتاغ، ماذا تقترح بشأنهم؟"
"يجب ألا يفترض أنّه سينال عفواً".

قال تشارلز: "تريد أن تشعره بالخوف؟ لست واثقاً من أنّ طريقتك في التعامل مع النبلاء تعجبني".

قال الملك: "إنّهم يحصلون على ما يستحقونه. اصمت، سيّدي، أحتاج إلى التفكير".

حلّ الصمت لبعض الوقت. كان موقف براندون معقداً جداً بالنسبة إليه. أراد القول: حاكمهم كخونة، يا كرومويل، ولكن اذبحهم باحترام من فضلك. فجأة، أضاء وجهه. "آه، الآن تذكرت غرينتش كان الثلج بارتفاع الركبة ذلك العام. آه، كنا شباباً حينذاك، يا هاري. لم يعد الثلج يتساقط بالكثافة نفسها اليوم".

جمع أوراقه واستأذن للانصراف. بدا أنّ عصر هذا اليوم سيكرّس للذكريات، ولديه عمل يقوم به. "رايف، امتطّ جوادك إلى ويست هورسلي. أخبر زوجة إكسيتير أنّ الملك يعتبر جميع النساء متقلّبات وضعيفات، مع أنّي أظنّ أنّ لديه ما يكفي من الأدلّة على عكس ذلك. أخبرها أن تبدأ بالكتابة أنّها لا تتمتع حتّى بذكاء برغوثة. قل لها أن تدّعي أنّه من السهل تضليلها، حتّى على امرأة. قل لها أن تتذلل، وانصحها في اختيار الكلمات. أنت تعرف كيف تفعل ذلك. فكلّما تذلت أكثر، كان ذلك أفضل".

كان هذا موسم التذلل. فقد وصلت أخبار من مرسيليا أنّ الملك فرانسيس ركع عند قدمي البابا وقبل حُقه. وعندما وصلت الأنباء، راح هنري يشتم، ومزّق الرسالة بيديه. جمع أجزاء الورقة، ووضعها على الطاولة وقرأها. قال: "المثير للعجب أنّ فرانسيس حافظ على وعده لك بعد كلّ شيء". فقد أقنع البابا بتعليق أمره البابوي بالحرمان الكنسي. أصبح لدى إنكلترا مجال للتنفّس.

قال هنري: "أتمنّى لو أنّ البابا كليمنت راقد في قبره. الله يعلم أنّ حياته لم تخلّ من الفحش وأنّه متوعك طيلة الوقت، لذا ينبغي له أن يموت. أحياناً أتمنّى تمجيد كاثرين. أهذا خطأ؟".

"لو أنّ جلالتكم يشير بإصبعه، يأتيه مئات الكهنة على الفور لإخباره بالخطأ والصواب".

"يبدو أنّي أفضل سماعه منك". غرق هنري في صمت قصير وكئيب. "إن مات

كليمنت، فمن هو المحتال الذي سيخلفه يا ترى؟".

"أراهن على أليساندرو فارنيزي".

"حقاً؟ هل يمكن المراهنة على ذلك؟".

"ولكن الاحتمالات ضعيفة. فقد وُزِع الرّشى بكثافة على الرعاع الرومان خلال كل تلك السنوات، إلى حدّ أنهم سيروّعون الكرادلة عندما يحين الوقت".

"ذكرني كم طفلاً لديه".

"أربعة، على حدّ علمي".

كان الملك ينظر إلى السجّادة المزركشة المعلقة على الجدار المجاور، والتي تصوّر نساء، أكتافهنّ بيضاء عارية، يمشين حافيات الأقدام على سجّادة من أزهار الربيع. "قد أرزق بطفل آخر قريباً".

"هل تحدّثت إليك الملكة؟".

"ليس بعد". ولكنه رأى مثلنا جميعاً، توهّج خدي آن، ورقّتها، والنبرة الأمرة التي ترنّ في صوتها وهي توزّع المكافآت على المحيطين بها. هذا الأسبوع الأخير، فاقت فيه مكافآتها نظراتها الحادة، كما أنّ زوجة ستيفين فوغان، التي تخدمها في غرفة نومها، قالت إنّ الحيض فاتها. قال الملك: "لقد فاتها...". ثمّ توقّف، واحمرّ وكأنه تلميذ مدرسة. عبر الغرفة فاتحاً ذراعيه، واحتضنه وهو يتألّق كالنجم، بينما أمسكت يداه الكبيرتان بخواتمهما المتوهّجة بقبضات من سترته المخملية السوداء. "الأمر أكيد هذه المرّة. ستكون إنكلترا لنا".

كانت تلك الصرخة التي نبعث من قلبه قديمة، وكأنّه يقف في ساحة المعركة بين الرايات الملطّخة بالدماء، تاجه على أجمة شائكة، وأعداؤه أموات عند قدميه.

تحرّر من ذراعيه بلطف، وهو يبتسم. تجعدت الورقة التي أطبق عليها قبضته عندما احتضنه الملك. فهكذا كان يتعانق الرجال، أليس كذلك؟ يشدّون على بعضهم بعضاً بقبضاتهم الكبيرة، وكأنّهم يتصارعون. شدّ هنري على ذراعيه قائلاً: "توماس، وكأنّني أحتضن جداراً بحرياً. ممّ أنت مخلوق؟". أخذ الورقة وشهق قائلاً: "أهذا ما سنفعله هذا الصباح؟ هذه اللائحة؟".

"لا تحتوي سوى على خمسين مادّة. سرعان ما سننتهي منها".

لم يستطع مقاومة الابتسام لبقية ذلك اليوم. من يأبه بكليمنت وأوامره البابوية؟ ما كان ليمناع بالوقوف على منصّة لترجمه العامّة. ما كان ليمناع بالوقوف تحت الأكاليل التي يُرْس عليها الدقيق في السنوات التي لا يتساقط فيها الثلج ونغني.

في يوم بارد من أواخر تشرين الثاني/نوفمبر قامت الراهبة مع ستّة من أبرز أعوانها بالاعتراف عند رمز النصارى الديني العائد إلى سان بول. وقفوا مقيدّين وحفاة في الرياح العاتية. كانت الجماهير غفيرة وصاخبة، والعظة مثيرة للحماسة، ذكر فيها ما فعلته الراهبة خلال نزهاتها الليلية، عندما كانت أخواتها في الدين نائمات، والحكايات الرهيبة التي روتها عن الوسواس لتخيف أتباعها. قُرى اعترافها، وطلبت في آخره من أهل لندن الصلاة من أجلها، والتمست عفو الملك.

لم يعد ممكناً معرفتها الآن، لأنّها أصبحت مختلفة جداً عن الفتاة النحيلة التي كانت في لامبيث. بدت منهكة وأكبر سنّاً بعشر سنوات. لم يكن يعني ذلك أنّها تعرّضت لأذى، فهو لم يؤيّد استخدام القسوة مع النساء، وفي الواقع تحدّثوا جميعاً من دون إكراه. وكان الأصعب هو إيقافهم عن تعقيد القصة بالشائعات والأوهام، بحيث انجذبت إليها نصف إنكلترا. الكاهن الوحيد الذي أصرّ على الكذب، سجنه ببساطة مع مخبر. كان الرجل قد اعتقل بتهمة القتل، وسرعان ما بدأ الأب ريتش يعمل على إنقاذ روحه، ويفسّر له توقعات الراهبة، ويؤثّر فيه بذكر أسماء أشخاص نافذين عرفهم في البلاط. كان هذا الأمر مثيراً حقاً للشفقة، ولكن كان من الضروري اللجوء إلى هذه المسرحية، وفي ما بعد، سينقلها إلى كانتربوري، لتتمكن السيّدة إليزابيث من الاعتراف في مسقط رأسها. من الأهمية بمكان القضاء على سلطة أولئك الأشخاص الذين تحدّثوا عن نهاية العالم وهدّدونا بالأوبئة وباللعنة. من الأهمية بمكان تبييد الرعب الذي نشره.

كان توماس مور هناك، واقفاً بين الشخصيات البارزة في المدينة. أخذ يتقدّم نحوه، مع نزول الكهنة واقتياد السجناء عن المنصة. فرك مور يديه الباردتين ونفخ فيهما. "جريمته أنّها استُغلت".

قال في نفسه: لماذا تركتك أليس تخرج من دون قفّازات؟ قال: "على الرغم من الشهادات التي سمعتها، لا أزال لا أفهم كيف وصلت إلى هنا، من أقاصي المستنقعات إلى سقالة عامّة في سان بول. بالتأكيد لم تكسب مالاً من وراء ذلك".

"كيف ستصوغ التهم؟". كانت نبرته حيادية ومهتمة، نبرة محام يتحدّث إلى محام. "القانون العام لا يتناول النساء اللواتي يدّعين أنّهم مقهورهن الطيران أو إحياء الأموات. سأقترح على البرلمان قانون تجريد من الحقوق المدنية. سأوجّه إلى المتهمين الرئيسيين تهمة الخيانة العظمى. أمّا المتهمون الثانويون، فسينالون عقوبات تتراوح بين السجن مدى الحياة، ومصادرة الأملاك، والغرامات. سيكون الملك حذراً،

على ما أظنّ. لا بل رؤوفاً. فما يهمني هو إفشال مخططات هؤلاء الأشخاص أكثر من تشديد العقوبات. لا أريد محاكمة مع مئات المدافعين والشهود، تقيد المحاكم لسنوات".

تردد مور.

قال: "هيا، لكنك قمت بالشيء نفسه عندما كنت قاضي قضاة".
"ربما كنت على حق، فوضعي سليم على أي حال". صمت قليلاً ثم قال: "توماس، بالله عليك، أنت تعرف ذلك".

"المهم أن يعرف الملك ذلك. علينا إبقاء هذه الفكرة ثابتة في ذهنه. ربما تبعث رسالة منك، تسأل فيها عن أحوال الأميرة إليزابيث".
"أستطيع ذلك".

"وتوضح فيها أنك تقبل حقوقها ولقبها".

"هذا ليس صعباً. فالزواج الجديد قد تمّ، ولا بدّ من قبوله".

"أنت لا تظنّ أنك تستطيع إجبار نفسك على إطرائه؟".

"لماذا يريد الملك من الرجال الآخرين إطراء زوجته؟".

"لنفرض أنك ستكتب رسالة مفتوحة، تقول فيها إنك مقتنع الآن بالسلطان الطبيعي للملك على الكنيسة". نظر إلى حيث يتمّ نقل السجناء إلى العربات المتوقفة بانتظارهم. "إنهم يعيدونه إلى البرج الآن". صمت ثمّ أضاف: "لا يجدر بك البقاء هنا. تعال إلى منزلي لنتناول العشاء معاً".

هزّ مور رأسه. "كلاً، من الأفضل لي أن أعود سيراً على ضفة النهر وأتضوّر جوعاً. فأنا لا أثق بأنك ستضع في فمي طعاماً فحسب، بل كلاماً أيضاً".

راقبه وهو يذوب بين أعضاء المجلس التشريعي العائدين إلى منازلهم. فكّر في نفسه قائلاً: مور فخور جداً ليتراجع عن موقفه. يخشى أن يخسر صداقيته بين علماء أوروبا. عليه أن يجد طريقة من أجله، لا يخسر معها عزة نفسه. أصبحت السماء صافية الآن، وزرقتها خالية من الشوائب. كانت حدائق لندن تلمع بثمار التوت. شتاء قاسٍ ينتظرنا. ولكنّه شعر بقوة على وشك التفجّر، كما يتفجّر الربيع من الأشجار الميتة. مع انتشار الإيمان بالله، تفتح أعين الناس على حقائق جديدة. حتّى الآن، ومثل هيلين بار، عرفوا قصة نوح والطوفان، ولكنهم لم يعرفوا قصة القديس بولس. ولكنهم لم يعرفوا معجزات المسيح العديدة وأقواله، ولا كلمات وأعمال الرسل، أولئك الرجال البسطاء الذين كانوا يقومون بالتجارة البسيطة الصامتة مثل فقراء لندن.

القصة أكبر بكثير مما ظنوا يوماً. قال لابن أخته ريتشارد: "لا يمكنك إخبار الناس بجزء من القصة وحسب، أو إخبارهم بالأجزاء التي تريدها وحسب. لقد رأوا ديانتهم مرسومة على جدران الكنائس، أو منحوتة في الصخور".

ولكن في هذه الشوارع نفسها، رأى شابوي بذور الفتنة، مدينة جاهزة لفتح أبوابها للإمبراطور. لم يكن موجوداً في أثناء نهب روما، ولكن ثمة ليالي حلم فيها أنه كان هناك: الأحشاء المسكوبة على أرصفة الطرقات القديمة، المحتضرون الملقون في النوافير، رنين الأجراس عبر الضباب، ولهيب المشاعر الذي يزحف على الجدران. سقطت روما ومعها كل شيء. لم يكن الغزاة وحدهم هم من أسقطوا كاتدرائية سان بيتر القديمة، بل البابا يوليوس نفسه، تلك الكاتدرائية التي ظلت قائمة لألف ومئتي عام، الموقع الذي قام فيه الإمبراطور قسطنطين بحفر أول خندق بنفسه، اثنتي عشرة مجرفة من التراب، واحدة لكل حواري. المكان الذي مزقت فيه الكلاب جثث المسيحيين. حفر خمساً وعشرين قدماً لوضع أساساته الجديدة، عبر مدينة الموتى، وعبر اثني عشر قرناً من حسك السمك والرماد، وسحق عمّاله بمجازفهم جماجم القديسين. وفي المكان الذي نزع فيه القتلى، انتصب جلمود أبيض شاحب: رخام ينتظر ميكيل أنجيلو.

رأى في الشارع كاهناً يحمل خبز القربان، لا شك في أنه يتوجّه إلى أحد اللندنيين المحتضرين. رفع المارة قبّعاتهم وركعوا...

قال لكرانمر: "أراد هؤلاء الناس سلطة جيّدة، يمكن للمرء أن يخضع لها كما ينبغي. طلبت منهم روما لقرون من الزمن الاعتقاد بأمور لا يصدّقها سوى الأطفال. بالتأكيد وجدوا أنه من الطبيعي أكثر إطاعة ملك إنكليزي يمارس سلطاته تحت سلطان البرلمان والسلطان الكنسي".

بعد يومين من رؤيته مور وهو يرتعش برداً في العظة، بلغ عفواً إلى الليدي إكسيتير. ضمّن العفو كلمات قاسية من الملك موجّهة إلى زوجها. كانت ذكرى القديسة كاثرين التي هُددت بالقتل على عجلة، وتكريماً لها، سرنا كلنا في دوائر إلى هدفنا. تلك هي النظرية على الأقل، إذ لم يسبق له أن رأى أحداً يفعل ذلك فوق سن الثانية عشرة.

ثمة شعور بوجود قوّة مدّخرة، قوّة تجري عبر عظامنا، مثل الرعشة التي تشعر بها في قبضة فأس عندما تمسكه بيدك. يمكنك أن تضرب، أو لا، وإن اخترت إمساك الضربة، تشعر في داخلك برنين الفعل الذي أهملته.

في اليوم التالي، في قصر هامبتون، تزوج ابن الملك، دوق ريتشموند، من ماري، ابنة نورفولك. كانت أن هي من رتبت هذا الزواج تمجيداً لآل هاوورد، وكذلك لمنع هنري من تزويج ابنه غير الشرعي لأميرة من الخارج، ما كان ليعود بالفائدة على الصبي. أقنعت الملك بالتخلي عن المهر الكبير الذي كان يتوقع الحصول عليه، وبعد نجاح جميع مخططاتها، شاركت في الرقص. كان وجهها الرقيق متوهجاً، وشعرها اللامع مزيناً بالدبابيس الماسية. لم يستطع هنري تحويل نظره عنها، ولا هو استطاع ذلك.

جذب ريتشموند جميع العيون الأخرى، وهو يطفح مرحاً كالفتيان، ويتباهى بملابس الزفاف، يستدير، يقفز، ويتبخر. قالت السيدات الأكبر سنّاً، انظروا إليه، وستعرفون كيف كان أبوه من قبل: ذاك البريق الرائع، وبشرته التي تجاري في نعومتها بشرة الفتيات. قال: "سيد كرومويل، قل لأبي الملك إنني أريد العيش مع زوجتي. يقول إنني سأذهب إلى منزلي وستبقى ماري مع الملكة".

"إنه يحرص على صحتك، سيدي".
"سأبلغ الخامسة عشرة قريباً".

"ستة أشهر لا تزال تفصلنا عن ذكرى مولدك".

تبددت البهجة عن وجه الصبي وحلت مكانها تعابير صخرية. "ستة أشهر ليست بشيء. فرجل في الخامسة عشرة هو رجل قادر".

قالت الليدي روتشفورد، الواقفة في الجوار: "هذا ما نسمعه. فوالدك الملك أحضر شهوداً إلى المحكمة ليؤكدوا أن شقيقه تمكن من القيام بواجبه في سن الخامسة عشرة، وأكثر من مرة في الليلة الواحدة".

"نحن نخشى أيضاً على صحة عروسك".

"زوجة براندون أصغر من زوجتي، وقد حصل عليها".

قالت الليدي روتشفورد: "كلما رأها. يبدو هذا من تعبير وجهها المجفل".

بدأ ريتشموند يدخل في جدل طويل، ويستعين بسوابق. إنها طريقة أبيه في الجدل. "لم تنجب جدة أبي، الليدي مارغريت بوفورت في سن الثالثة عشرة الأمير الذي أصبح في ما بعد هنري تيودور؟".

بوسورث، الرايات الممزقة، ساحة المعركة الدامية. قال في نفسه: من أين أتينا جميعنا سوى من تلك الطريقة نفسها في التعامل: عزيزي، اقتنع برأيي. قال: "لم أسمع أبداً أن الأمر حسن من صحتها، أو مزاجها. كما أنها لم تنجب أطفالاً من

بعده". تعب فجأة من الجدل، فأنها قائلاً بصوت متعب: "كن عقلانياً، سيدي. ما إن تفعله مرة، فسترغب بفعله طيلة الوقت، لثلاث سنوات تقريباً. هذا ما يحدث. ولدى أبيك عمل آخر يوكله إليك، فقد يرسلك لتولي شؤون القصر في دبلن".

قالت جاين روتشفورد: "هون عليك يا حملي الوديح. ثمّة طرائق يمكن للمرء اللجوء إليها. فباستطاعة الرجل دائماً مقابلة امرأة إن كانت راغبة في ذلك".
"هل لي بالتحدّث كصديق لك، ليدي روتشفورد؟ أنت تعرّضين نفسك لسخط الملك إن تدخلت في هذا الأمر".

قالت باستخفاف: "أه! هنري يغفر أيّ شيء لامرأة جميلة. فالنساء لا يسعين سوى إلى فعل ما هو طبيعي".

قال الصبي: "لم يتعيّن عليّ العيش كراهب؟".

"راهب؟ أنت مخطئ تماماً بشأنهم. السيّد كرومويل يستطيع أن يخبرك عنهم".
قال ريتشموند: "قد تكون سيّدي الملكة هي من تريد إبعادنا عن بعضنا بعضاً. فهي لا تريد أن يكون للملك حفيد قبل أن يرزق بابن".

التفتت إليه جاين روتشفورد قائلة: "ولكن ألا تعلم؟ ألم يبلغك أنّ لا أنا حامل؟".
أطلقت عليها الاسم الذي أعطاها إياه شابوي. رأى الرعب يجتاح وجه الصبي.
قالت جاين: "أخشى أنّك ستخسر مكانتك بحلول الصيف، يا حبيبي. فإن رزق الملك بابن شرعي، فلن تحكم أبداً، ولن يرث أولادك شيئاً".

لا يحدث غالباً أن يرى المرء آمال أمير تدمّر، بالسرعة التي يطفئ فيها شمعة، وبالحرّة المحسوبة نفسها، وكأنّها من باب العادة. حتّى إنّها لم تلتق أصابعها.
قال ريتشموند، بوجه بائس: "قد يرزق بفتاة أخرى".

قالت الليدي روتشفورد: "تأمّل ذلك يكاد يعتبر خيانة عظيمة. وحتى وإن حدث، ستجب طفلاً ثالثاً، ورابعاً. ظننت أنّها لن تحمل مجدداً، ولكنني كنت مخطئة، سيّد كرومويل. لقد أثبتت نفسها الآن".

كان كرانمر في كانتربروري يسير على طريق من الرمل، حافي القدمين، لتقليده رئيس أساقفة إنكلترا. بعد انتهاء مراسم الاحتفال، غادر الكنيسة، التي كان أعضاؤها من مشجعي الراهبة المحتالة. استغرقت مقابلة كلّ راهب، وسماع قصّته، وقتاً طويلاً. أتى رولاند لي مسرعاً إلى المدينة للمساعدة في القضية، وكان غريغوري آتياً في أعقابها. فجلس في لندن يقرأ رسالة من ابنه، ولم تكن موسّعة أكثر من رسائله حين كان تلميذ مدرسة: والآن لم يعد في مقدوري كتابة المزيد بسبب ضيق الوقت.

كتب إلى كرانمر، طالباً منه أن يكون رؤوفاً مع الناس هناك، لأنّه ما من شيء أسوأ من التضليل. "أقترح أن يقدّموا هديّة نقدية إلى الملك، ثلاثمئة باوند ستبعث السرور في نفسه. نظّف الكنيسة والأبرشية بأكملهما. فقد ظلّ وارهام رئيس أساقفة لمدة ثلاثين عاماً، وعائلته محصّنة هناك، وابنه غير الشرعي رئيس الشماسية. عيّن أشخاصاً من بلدتك: كتبك من شرق ميدلاند، الذين تدرّبوا على نحو أكثر اتزاناً".

كان ثمة شيء تحت مكتبه، تحت قدمه، تجنّب أن يفكّر في ماهيته. أبعده كرسيه إلى الخلف. كان نصف زبابة*، هديّة من مارلينسبايك. لمّه عن الأرض وفكّر في هنري ويات الذي لم يجد ما يأكله في زنزانته. فكّر في الكاردينال، المتألّق في الكلية الكاردينالية. ألقى الزبابة في نار الموقد. انتفضت الجثّة وذبلت، واحترقت عظامها في فرقة صغيرة خاوية. تناول ريشته وكتب إلى كرانمر، أخرج رجال أكسفورد من أبرشيّتك، ووضع في كامبريدج رجالاً عرفناهم.

كتب إلى ابنه، عاد إلى البيت وأمضى معنا رأس السنة.

كانون الأوّل/ديسمبر: بدت مارغريت بول، بتعابيرها الحادّة والجليدية، وكأنّها خرجت من نافذة كنيسة، بالزجاج الفضيّ الذي يتدلّى من فستانها. في الواقع، لم تكن تلك الشظايا سوى ألماس. كان قد جعل الكونتيسة تأتي إليه، وهي الآن تنظر إليه من تحت جفنيها الرصينين، تنظر إليه من تحت أنفها الطويل البلاتاجيني، مرسلة تحيّيها الباردة عبر الغرفة. "كرومويل". هذا كلّ شيء.

دخلت في الموضوع. "لماذا ينبغي للأميرة ماري مغادرة المنزل في إسكس؟".

"اللورد روتشفورد يريد المنزل لاستعماله الخاصّ. فالصيد جميل في الأرياف، كما تعلمين. أمّا ماري فستلتحق بمنزل أختها الملكيّ، في هانفيلد. ولن تحتاج إلى خدمها هناك".

"أنا أعرض ملء مكاني لديها على حسابي الخاصّ. لا يمكنك منعي من خدمتها".

جربيني. "أنا لست سوى وزيراً ينقذ رغبات الملك. وأظنّ أنّك لست أقلّ حرصاً منّي على تنفيذها".

"تلك ليست سوى رغبات محظيّته. نحن لا نصدّق، أنا والأميرة، أنّها رغبات الملك".

"يجدر بك توسيع نطاق قدرتك على التصديق، سيّدي".

نظرت إليه من فوق أنفها الشامخ: إنّها ابنة كلارنس، ابنة أخ الملك إدوارد القديم. في زمانها، كان الرجال أمثاله يركعون للتحديث إلى النساء أمثالها.

"كنت في جناح الملكة كاثرين يوم زواجها. وبالنسبة إلى الأميرة، أنا في مقام أمّ ثانية لها".

"سيّدي، هل تظنين أنّها تحتاج إلى أمّ ثانية؟ تلك التي لديها ستقتلها".
حدّق أحدهما إلى الآخر، عبر الهوة التي تفصل بينهما. "ليدي مارغريت، إن سمحت لي بنصحك... ولاء عائلتك مشكوك فيه".
"هذا ما تقوله. لهذا السبب أنت تبعدني عن ماري، كعقاب. إن كان لديك أدلّة كافية لاتهامي، أرسلني إلى البرج مع إليزابيث بارتون".
"هذا عمل يخالف كثيراً رغبات الملك. فهو يوقّرك، سيّدي. يحترم أصلك وسنّك المتقدّمة".

"ليس لديه أدلّة".

"في شهر حزيران/يونيو من العام الماضي، بعد تتويج الملكة، تناول ابنك اللورد مونتاغ وابنك جيفري بول العشاء مع الليدي ماري. وبعد أسبوعين، تناول مونتاغ العشاء معها مجدّداً. أتساءل عمّ تحدّثا؟".
"حقاً؟".

ابتسم مجيباً: "كلاً، فالصبيّ الذي حمل طبق الهليون هو خادمي، والصبيّ الذي قطع المشمش هو خادمي أيضاً. تحدّثا عن الإمبراطور، وعن الاجتياح، وكيف يمكن جعله يقوم به. إذاً، كما ترين، ليدي مارغريت، لديّ أدلّة كافية ضدّ عائلتك. وأنا واثق أنّكم ستدينون بولاء أكبر للملك في المستقبل".

لم يقل لها: أنوي استعمال ولدك ضدّ أخيها المشاكس في الخارج. لم يقل لها: ابنك جيفري مسجّل على قائمة مدينيّ. جيفري بول هو رجل عنيف وغير مستقرّ. لا أحد يدري كيف سيكون. لقد دفع له أربعين باونداً هذا العام ليكون كما يريد كرومويل.

لوت الكونتيسة شفّتها قائلة: "لن تترك الأميرة منزلها بهدوء".

"ينوي اللورد نورفولك الذهاب إلى بوليو لإخبارها بتغير ظروفها. قد تتحدّاه بالطبع".
كان قد نصح الملك بأن يترك لماري نمط حياتها كأميرة، وألاً يجرمها من أيّ شيء. نصحه ألاّ يعطي ابن خالتها الإمبراطور أيّ سبب لشنّ حرب ضده.

ولكنّ الملك صاح فيه: "هلاً ذهبت بنفسك إلى الملكة، واقتרכת عليها أن تحتفظ ماري بلقبها؟ لأنني، يا سيّد كرومويل، لن أتكلّم معها في هذا الموضوع. وإن سبّبت لها الانفعال الشديد، لأنّ هذا ما سيحدث، ومرضت وأجهضت جنينها، سأعتبرك

مسؤولاً عن ذلك! ولن أرحمك!".

خارج باب القاعة التي قابل فيها الملك، اتّكأ على الحائط. نظر إلى الأعلى وقال لرايف: "ربّاه! لا عجب أنّ الكاردينال كبر باكراً. يظنّ أنّ استيائها سيسبّب لها الإجهاض. في الأسبوع الماضي، كنت صديقاً مقرباً، وهذا الأسبوع يهدّدي بنهاية دامية".

قال رايف: "الحمد لله أنّك لست مثل الكاردينال".

بالفعل. فقد توقّع الكاردينال أن يكون أميره ممتناً له، وهي مسألة خاب أمله فيها. فعلى الرغم من قدراته الواسعة، كان من الرجال الذين تسيطر عليهم عواطفهم وتغلبهم. أمّا كرومويل، فلم يعد يخضع لتقلّبات المزاج، كما أنّه لا يتعب أبداً تقريباً. ستزال الحواجز، وتهدأ الخواطر، وتُحلّ العقد. مع اقتراب نهاية العام 1533، كانت معنوياته عالية، وإرادته قويّة، وأعصابه هادئة. رأى رجال البلاط أنّه قادر على صياغة الأحداث، بالشكل الذي يريده. استطاع احتواء مخاوف الآخرين، وإعطاءهم إحساساً بالصلابة في عالم متقلقل: هذا الشعب، هذه السلالة، هذه الجزيرة الممطرة البائسة عند أطراف العالم.

من باب التسلية في آخر النهار، راح يتفحص ممتلكات كاثرين ويفكر في كيفية إعادة توزيعها. دُهِش السير نيكولاس كارو، الذي لا يحبّه ولا يحبّ أن، باستلام مجموعة من الهبات منه، بما في ذلك قصران كبيران في سوري لضمّهما إلى أملاكه في المقاطعة. طلب مقابلة للتعبير عن شكره. طلبها من ريتشارد، الذي يتولّى الآن تنظيم مواعيد كرومويل، وحدّد له ريتشارد موعداً بعد يومين. فكما كان يقول الكاردينال، الاحترام يعني جعل الناس تنتظر.

عندما أتى كارو، كان يسيطر على أعصابه. كان شخصاً بارداً، شديد الاستغراق في ذاته، رجل بلاط كاملاً. حاول أن يرفع زاويتي فمه، فكانت النتيجة ابتسامة رقيقة متكلفة، تتنافر مع لحيته الكثيفة.

قال: "آه! أنا واثق أنّك تستحقّ ذلك. فأنت صديق قديم لجلالته، ولا شيء يسعد الملك أكثر من مكافأة أصدقائه القدامى. زوجتك على اتصال بالليدي ماري أليس كذلك؟ أهما مقربتان من بعضهما بعضاً؟". تابع بلطف: "اطلب منها إعطاء الشابة نصيحة. لتصحها بأن تكون مطيعة للملك في كلّ شيء. فمزاجه سيّئ هذه الأيام، ولا أستطيع أن أتوقّع ما ستكون عواقب التحدي".

استناداً إلى سفر التنثية، العطايا تعمي أعين الحكماء. ومع أنّ كارو ليس حكيماً

جداً برأيه، إلا أنّ المبدأ انطبق عليه. وإن لم يعمه تماماً، فقد بهره على الأقل. قال له مبتسماً: "اعتبرها هديةً ذكري ميلاد مبكرة". ودفع الأوراق عبر مكتبه.

في أوستن فرايرز، كانوا ينظفون الغرف المخصصة لتخزين الأغراض، وبينون غرفاً متينة. أقاموا المأدبة في ستيني، ونُقلَ الجناحان إلى هناك، فهو أراد الاحتفاظ بهما إلى أن يكون ثمة طفل آخر في المنزل يلائمان مقاسه. رأهما يبتعدان وهما يرتعشان تحت غطاءهما من الكتان الرقيق، كما رأى نجمة الاحتفال تُحمّل على عربة. سأله كريستوف: "كيف تُستعمل هذه الآلة الهمجية المُحاطة بالرؤوس المسنّنة؟".

أبعد أحد أطراف القماش الكتاني، وأراه سطحها المذهب. ذهب نورفولك إلى بوليو ليخبر الليدي ماري أنّ عليها الانتقال إلى قصر هاتفيلد، لمرافقة الأميرة الصغيرة، والعيش تحت سلطة الليدي آن شيلتون، عمّة الملكة. بنبرة حزينة، روى لهم ما حدث.

قالت ماري: "عمّة الملكة؟ ما من ملكة أخرى سوى أمي". قال نورفولك: "ليدي ماري...". ولكنّ عبارته جعلتها تنفجر باكية، وتجري إلى غرفتها وتحبس نفسها فيها.

ذهب سوفولك إلى باكدن لإقناع كاثرين بالانتقال إلى منزل آخر. كانت قد سمعت أنّهم ينوون إرسالها إلى مكان أكثر رطوبة من باكدن، وقالت إنّ الرطوبة ستقتلها. هكذا حبست نفسها هي أيضاً، وأقفلت على نفسها الباب، وهي تصيح بسوفولك بثلاث لغات مرة إياه بالانصراف. قالت إنّها لن تذهب إلى أيّ مكان، ما لم يكن مستعداً لخلع الباب وتقييدها بالحبال وحملها. وهو أمر اعتبره تشارلز متطرفاً بعض الشيء.

بدا براندون شديد الأسف على نفسه عندما كتب إلى لندن طالباً التعليمات: رجل مع عروس في الرابعة عشرة من عمرها تنتظر اهتمامه، يمضي العطلة بهذا الشكل! عندما قرئت رسالته على المجلس، انفجر كرومويل ضاحكاً. تلك البهجة حملته على جناحها إلى العام الجديد.

ثمة شابة تجوب طرقات المملكة، قائلةً إنّها الأميرة ماري وإنّ أباهَا دفعها إلى التسوّل. شوهدت في أقاصي الشمال، مثل يورك، وفي أقصى الشرق، كلينكولن، وكان الناس البسطاء في تلك المقاطعات يأوونها ويطعمونها ويعطونها المال. أرسل أشخاصاً لتتبعها ولكنهم لم يجدوها بعد. لم يكن يعرف ما سيفعله بها إن قبض

عليها. ولكن ادعاء القدرة على التوقّع، والمشي في طرقات الشتاء الباردة من دون حماية هو عقاب كافٍ. تخيلها فتاة بوجه شاحب ونحيل، تجوب الحقول الموحلة الشاسعة.

عين رسّام

1534

عندما أحضر هانز اللوحة المنتهية إلى أوستن فرايرز، شعر بالخجل. تذكر عندما كان يقول والتر: انظر إلى وجهي أيها الولد عندما تكذب.

نظر إلى الطرف السفلي للوحة، ثم ترك نظره يزحف إلى الأعلى. ريشة، مقصّ، أوراق، ختمه في كيس صغير، وكتاب ثقيل، ذو غلاف جلدي أسود، كُتبت عليه أحرف ذهبية، كما ذُهِبَت أطراف أوراقه. كان هانز قد طلب رؤية كتابه المبجل، ولكنّه لم يعجبه لكونه عادياً جداً وصفحاته قُلبت كثيراً. فبحث في المنزل ووجد أجمل الكتب التي يملكها على مكتب توماس إيفوري. كان كتاباً للراهب باتشولي يتناول كيفية حفظ السجلات، أرسله إليه أصدقاؤه اللطفاء في البندقية.

رأى يده المرسومة موضوعة على المكتب أمامه، ثمسك بورقة. كان الأمر غريباً، وكأنّه مُزّق، لينظر إلى نفسه في أجزاء، جزءاً تلو الآخر. رسم له هانز بشرة ناعمة مثل بشرة امرأة، ولكنّ الحركة التي التقطها، تلك الأصابع المثنية، هي حركة ثابتة مثل حركة جزّار يُمسك بسكين الذبح. وكان يضع خاتم الكاردينال الفيروزي.

كان يملك خاتماً فيروزياً مرّة، أهدته إياه ليز عند ولادة غريغوري. كان خاتماً على شكل قلب.

نظر إلى وجهه. لم يتحسّن كثيراً منذ أن رسمته جو على بيض الفصح. كان هانز قد خصّص له مساحة صغيرة، دافعاً بطاولة ثقيلة لحبسه خلفها. كان لديه الوقت للتفكير في أثناء رسم هانز له، وقد حملته أفكاره بعيداً، إلى بلد آخر. لم يكن من الممكن تتبّع تلك الأفكار من خلال عينيه.

كان قد طلب من هانز أن يرسمه في حديقته. ولكنّ هانز قال إنّ الفكرة بحدّ ذاتها تدفعه للتعرق. هل يمكننا رسم لوحة أكثر بساطة، نعم؟

كان يرتدي ملابس الشتوية. بدا من تحتها وكأنّه مصنوع من مادّة أكثر صلابة من باقي الرجال، أكثر إحكاماً، وكأنّه يرتدي درعاً. أدرك أنّه سيأتي يوم قد يضطرّ فيه إلى ذلك. فثمّة رجال في هذه المملكة وخارجها (وليس فقط في يوركشاير) كانوا يتمنّون طعنه بخنجر فور رؤيته.

قال في نفسه: أشكّ في أنّهم يستطيعون الوصول إلى القلب.

ابتسم. لم يكن وجهه المرسوم يحمل أثر ابتسامة.

القتال، قصيري الشعر، نظراتهم حادة مثل نصال السيوف. قال في نفسه: غريغوري هو كلّ ما ينبغي له أن يكون. إنّه كلّ ما لديّ الحقّ بتمنّيه: من صراحته، ولطفه، إلى التحفّظ والمراعاة اللذين يكبح بهما أفكاره إلى أن يتمكن من صياغتها كما يجب. شعر نحوه بحنان وُلد فيه رغبة بالبكاء.

التفت إلى اللوحة. "أخشى أنّ مارك كان على حقّ".

"ومن هو مارك؟".

"ولد تافه يجري خلف جورج بولين. سمعته يقول مرّة إنّني أبدو مثل قاتل".

قال غريغوري: "ألم تكن تعرف؟".

القسم السادس

السيادة

1534

في الأيام الاحتفالية بين الميلاد ورأس السنة، وبينما كان سكان القصر يحتفلون، وتشارلز براندون في المستنقعات يصيح أمام أحد الأبواب، كان هو يعيد قراءة مارسيليو بادوا. ففي عام 1324، حدّثنا مارسيليو عن اثنتين وأربعين مسألة. عندما انتهت احتفالات ذكرى الغطاس، ذهب ينقل إلى هنري بعضاً منها.

كان الملك مطلعاً على بعض تلك المسائل، بينما كان بعضها الآخر غريباً عنه. منها ما يلائم وضعه الحالي، ومنها ما اعتبره هرطقة. كان البرد في ذلك الصباح قارساً، يخترق العظام، والرياح التي تهبّ من النهر شديدة البرودة.

قال لنا مارسيليو إنّه حين أتى المسيح إلى هذا العالم، لم يأت كحاكم أو كقاض، بل كواحد من الرعيّة، خاضع للدولة التي وُلد فيها. لم يسع إلى الحكم، ولم يكفّ حواريّه بالحكم. لم يمنح أحد أتباعه سلطة تفوق سلطة الآخر، وإن ظننت غير ذلك، اقرأ مجدّداً إنجيل بطرس. لم يعيّن المسيح باباوات، ولم يمنح أتباعه سلطة إصدار القوانين أو فرض الضرائب، وهما أمران ادّعى رجال الدين أنّهما من حقّهم.

قال هنري: "لم أذكر أبداً أنّ الكاردينال تحدّث عن ذلك".

"هل كنت لتفعل، لو كنت كاردينالاً؟".

بما أنّ المسيح لم يكفّ أتباعه بسلطة دنيوية، فكيف يستمدّ أمراء اليوم سلطتهم من البابا؟ في الحقيقة، جميع الكهنة هم رعايا، كما تركهم المسيح. الأمير مكفّف بحكم أجساد مواطنيه، مكفّف بتحديد من المتزوِّج ومن يستطيع الزواج، ومن هو ابن شرعي أو غير شرعي.

من أين يستمدّ الأمير هذه السلطة، وسلطة تنفيذ القانون؟ يستمدّها من هيئة تشريعية، تمثل المواطنين. يستمدّ الملك سلطته الملكية من إرادة الشعب التي يعبر عنها البرلمان.

حين قال ذلك، بدا وكأنّ هنري يصمّ أذنيه خشية أن يسمع صوت الناس الآتين لإخراجه من قصره. طمأنه قائلاً إنّ مارسيليو لا يشرّع أعمال التمرد. من شأن المواطنين في الواقع أن يتضامنوا للإطاحة بحاكم مستبدّ، ولكنّ هنري ليس مستبدّاً، بل هو ملك يحترم القانون. كان هنري يحبّ أن يهلّل له الناس وهو يمرّ في شوارع لندن، ولكنّ الأمير الحكيم لا يتمتّع دائماً بالشعبية الأكبر، كان يعرف ذلك.

كانت لديه مسائل أخرى يحدّثه عنها. لم يمنح المسيح أتباعه أراضٍ، ولا وظائف، ولا ترقّيات. كلّها شؤون دنيوية. فكيف يمكن لرجل نذر الفقر أن يكون له حقوق ملكيّة؟ كيف يمكن للرهبان أن يكونوا ملاكاً؟

قال الملك: "كرومويل، مع قدرتك على التعامل بسهولة مع الأرقام الكبيرة..."، حدّق إلى البعيد. داعبت أصابعه التخريم الفضيّ حول طرف كمْه.

قال: "على الهيئة التشريعية أن تعيل الكهنة والأساقفة. بعد ذلك، يصبح في إمكانها أن تستخدم ثروة الكنيسة للصالح العامّ."

قال هنري: "ولكن كيف يمكن تحريرها؟ أفترض أنّه من الممكن اقتحام المزارات". كان هو نفسه يرتدي ملابس مزينة بالأحجار الكريمة، وفكّر في نوع الثروة التي يمكن إيجادها. "هذا لو وُجد من يجرؤ على ذلك".

من مزايا هنري أن يسبقك إلى المكان الذي لست متوجّهاً إليه تماماً. كان ينوي توجيهه بلطف إلى عملية قانونية معقّدة تقوم على التجريد من الأملاك، واستردادها: تأكيد حقوق السيّادة القديمة، واسترداد ما كان دائماً من حقّك. كان يتذكّر أنّ هنري هو أوّل من اقترح تناول إزميل واستخراج أحجار الياقوت الزرقاء من أعين القديسين. ولكنّه كان راغباً في متابعة تفكير الملك. "علّمنا المسيح كيف نتذكّره. ترك لنا الخبز والشراب... إلّام نحتاج بعد؟ لا أرى أين طلب منا بناء المزارات، أو المتاجرة بأعضاء الجسد، بالشعر والأظافر، أو طلب منا صنّع صور جصّية وعبادتها".

قال هنري: "هل في إمكانك أن تقدّر حتّى... كلاً، لا أظنّ ذلك". وقف قائلاً: "حسناً، الشمس مشرقة، لذا...".

جمع أوراق النهار. "أستطيع إنهاء العمل". ذهب هنري لارتداء معطف ركوب الخيل مزدوج البطانة. قال في نفسه: لا نريد لملكنا أن يكون فقير أوروبا. لدى إسبانيا والبرتغال ثروات تتدقّق إليهما من الأميركيّتين، أين ثرواتها نحن؟ انظر حولك.

بحسب ظنّه، كان يملك رجال الدين ثلث ثروة إنكلترا. وفي أحد الأيام، سيسأله هنري كيف يمكن للتاج أن يستحوذ عليها عوضاً عنهم. وكأنّك تتعامل مع طفل؛ كنت تحضر صندوقاً في أحد الأيام، فسألك، ماذا يوجد فيه؟ ثمّ ينام وينسى، ولكنّه في اليوم التالي سأل مجدّداً. ولم يكن يرتاح إلّا عندما يُفتح الصندوق ويحصل على ما فيه.

كان البرلمان على وشك الاجتماع مجدّداً. قال للملك: "ما من برلمان في التاريخ

عمل بقدر ما أنوي جعل هذا البرلمان يعمل".

قال هنري: "قم بما عليك فعله، وأنا أدعمك".

وكأنك تسمع الكلمات التي انتظرتها طيلة حياتك. وكأنك تسمع بيت شعر كاملاً، بلغة عرفتھا قبل أن تولد.

عاد إلى بيته مسروراً، ولكنّ الكاردينال كان بانتظاره في إحدى الزوايا. كان ممثلاً مثل وسادة في رداءه القرمزي، وكان على وجهه تعبير شرس ومتمرد. قال وولزي: "هل تعرف أنه سينسب إلى نفسه فضل أفكارك الجيدة، ويلقي عليك لوم أفعاله السيئة؟ عندما ينقلب الحظ ضدك، فأنت من ستتهال عليه ضربات السوط، وليس هو".

قال: "عزيزي وولزي". (فبعد أن انتهى عهد الكرادلة في هذه المملكة، أصبح يتحدث إليه كزميل، وليس كسيد). "عزيزي وولزي، هذا غير صحيح تماماً. فهو لم يوجّه اللوم إلى تشارلز براندون لأنه أصاب خوذته برمح، بل لام نفسه لعدم وضعه مقدمة الخوذة".

قال الكاردينال: "أتظن أنك في ساحة مبارزة؟ هل تظن أنه ثمة قواعد، وبروتوكولات، وحكام يحافظون على لعبة عادلة؟ يوماً ما، وأنت تضع طقم الفرس في مكانه، سترفع رأسك لتجده متوجّهاً نحوك كالإعصار".
اختفى الكاردينال، وهو يضحك.

حتى قبل اجتماع مجلس العموم، اجتمع خصومه لوضع مخططاتهم. لم تكن اجتماعاتهم سرية، كما أن طريقته في التعامل مع اجتماعات بول جعلت الناس يرددون أنه ثمة شباب في منزل كرومويل غير متكبرين، إلى حد أنهم يرتدون مئزراً ويحضرون طبقاً من السمك أو اللحم. هكذا أصبح نبلاء إنكلترا يقدمون طلبات لحجز أماكن لأبنائهم، وأبناء إخوتهم، والقاصرين الموضوعين تحت وصايتهم للعمل في منزله، على أمل تعلّم السياسة معه، وكيفية الكتابة والترجمة، والكتب التي ينبغي للمرء قراءتها ليكون رجل بلاط. تعامل بجدية مع تلك الثقة التي أوليت إليه. أخذ بلطف الخناجر والرّيش من أيدي أولئك الشباب الصاخبين، وتحدّث إليهم محاولاً أن يستشفّ، من خلف شغف وكبرياء شباب في سنّ الخامسة عشرة أو العشرين، ما هم جديرون به فعلاً، ما يقدرونه، وما يمكن أن يقدره تحت الإكراه. فمن غير الممكن أن تعرف شيئاً عن الرجال بنهرهم وسحق غرورهم. عليك أن تسألهم ما يستطيعون فعله في هذا العالم، ما يمكنهم وحدهم فعله.

كان السؤال يُذهل الشباب، فتفيض أرواحهم. ربّما لم يسألهم أحدٌ من قبل، وبالتأكيد ليس آباؤهم.

تُعَلِّم هؤلاء الشباب، العنيفين وغير المتعلمين، بعض الأعمال البسيطة. يتعلّمون النسخ بالمزامير، يتعلّمون استعمال الخنجر والسكين للتجذيب والتقطيع. وعندها فقط، وفي درس غير رسميٍّ للدفاع عن النفس، يتعلّمون بعض فنون القتال، كقطعنة القتل تحت الأضلاع، وحركة الرسغ البسيطة التي تجعلك واثقاً. كان كريستوف يعرض خدماته كمعلّم. فيقول: "كن أكيداً أنّ هؤلاء السادة غريبو الأطوار. يقطعون رأس أيل أو ذيل جرد، لا أعرف ماذا، لإرساله إلى آباءهم. وحدنا أنا وأنت، سيّدي، وريتشارد كريمويل، نعرف كيف نقتل حيواناً على الفور، من دون أن يعطس حتّى".

قبل حلول الربيع، يجد بعض الفقراء الذين يقفون عند بابهِ طريقهم إلى الداخل. إنّ أبصار وأسماع الأميين لا تقلّ حدّة عن تلك التي يتمتّع بها النبلاء، وليس من الضروري أن تكون عالماً لتتمتّع بالذكاء. فساسة الجياد يسمعون أسرار النبلاء، والخدم يسمعون أسرار الصباح الباكر عندما يذهبون لإشعال النار.

في يوم مشمس، ودافئ على نحو غير اعتيادي، دخل ريوثيسلي إلى أوستن فرايرز. صاح: "صباح الخير، سير"، ثمّ رمى سترته، وجلس إلى مكتبه، وجرّ مقعده إلى الأمام. تناول ريشته ونظر إلى طرفها. "حسناً، ماذا لديك من أجلي؟". كانت عيناه تلمعان، وطرفاً أذنيه ورديين.

قال: "أظنّ أنّ غاردينر عاد".

رمى ريوثيسلي ريشته وسأله: "وكيف عرفت؟"، نهض وراح يمشي. "لماذا هو هكذا؟ كلّ هذا الجدل والأسئلة التي يطلقها مع أنّه لا يأبه بالأجوبة؟".

"كان يعجبك عندما كنت في كامبريدج".

قال ريوثيسلي بشيء من الازدراء: "أه! حينذاك، كان من المفترض أن يدرب عقولنا. لا أدري".

"يقول ابني إنّ تمارين الجدل التعليمي ترهقه، ويسمّيها تمارين النقاش الذي لا طائل منه".

"قد لا يكون غريغوري أحمق تماماً".

"تسرّني معرفة ذلك".

احمرّ وجه ريوثيسلي خجلاً. "لم أقصد الإهانة، سير. كما تعرف، غريغوري ليس مثلنا. فهو طيّب جدّاً، ولكن ليس من الضروري أن يكون مثل غاردينر أيضاً".

"عندما كان مستشارو الكاردينال يجتمعون، كنا نناقش الخطط. قد يقع خلاف أحياناً، ولكننا نحله، ثم نعدّل خططنا وننفذها. ولكنّ مجلس شورى الملك لا يعمل بهذه الطريقة".

"وكيف يمكن ذلك؟ نورفوك؟ تشارلز براندون؟ سيحاريانك بسبب شخصك، سيحاريانك حتّى لو كنت متفقاً معهما، حتّى لو كانا يعرفان أنّك على حقّ".
"أظنّ أنّ غاردينر كان يهدّدك".

"بالإفلاس". وضع قبضة في أخرى مضيئاً: "لا آبه".
"ولكن عليك أن تفعل. فهو رجل واسع النفوذ، وإن قال إنّه سيدمّرك، فهو ينوي ذلك فعلاً".

"يعتبرني خائناً، ويقول إنّه كان يجدر بي، عندما كنت في الخارج، أن أهتمّ بشؤونه، وليس بشؤونك".

"برأيي، أنت تخدم الوزير، أيّاً يكن شخصه. إن...، تردّد، "سأقدّم إليك هذا العرض، إن تمّ تثبيتي في المنصب، فسأكلّفك بالختم".
"سأكون رئيس الكتبة؟". رأى ريوثيسلي يجمع الأرقام.

"أمّا الآن، فإذهب إلى غاردينر واعتذر، واجعله يقدّم إليك عرضاً أفضل".
بدأت الحماسة على وجه ريوثيسلي، ولكنّه تردّد. "اركض، يا ولد". تناول معطفه وأعطاه إياه. "لا يزال وزيراً، ويمكنه استعادة أختامه. قل له وحسب إنّ عليه المجيء إلى هنا واستعادتها بنفسه".

ضحك ريوثيسلي. فرك جبينه، مبهوراً، وكأنّه كان في قتال. ارتدى معطفه. "نحن ميؤوس منّا، أليس كذلك".

عنيديون، كالدئاب التي تتنازع جيفة، كالأسود التي تتصارع على المسيحيين.

استدعاه الملك، مع غاردينر، لمناقشة مشروع القانون الذي يقترحه من أجل ضمان إرث أولاد آن. كانت الملكة معهم. فكّر، كثير من النبلاء كانوا يرون زوجاتهم أقلّ ممّا يفعل الملك. حين كان يمتطي الجواد، تمتطي أن الجواد. وحين كان يصطاد، تصطاد. تأخذ أصدقاءه وتدخلهم في دائرة أصدقائها.

كانت لديها عادة القراءة من خلف كتف هنري، وكانت تفعل ذلك الآن، وتمدّ يدها عبر طبقات ملبسه الحريرية، إلى أن بدا إصبع صغير تحت ياقة قميصه المطرّزة، ورفعت القماش قليلاً عن بشرته الملكيّة البيضاء. مدّ هنري يده الكبيرة ليلعب يدها بحركة شاردة وحالمة، وكأنّهما بمفردهما. كانت الورقة تشير بوضوح إلى "زوجتك

العزيزة والمحبوبة الملكة آن".

شهق أسقف وينشيستر. كرجل، لم يستطع تحويل عينيه عن المشهد، ولكن كأسقف، دفعه ذلك للتحقق قليلاً. لم تلاحظ آن ذلك، بل تابعت ما تفعله، وراحت تقرأ مشروع القانون، إلى أن رفعت رأسها مصدومة: إنه كان يذكر موتي! "إن حدث وتوفيت زوجتكم العزيزة والمحبوبة الملكة آن...".

قال: "لا يمكن استبعاد ذلك. البرلمان يفعل كل شيء، سيديتي، ولكنه لا يستطيع مخالفة الطبيعة".

احمرّ وجهها. "لن أموت بسبب الطفل، فأنا قويّة".

لم يذكر أنّ ليز فقدت عقلها في أثناء حملها. لا بل على العكس، كانت أكثر اتزاناً واقتصاداً، وكانت تمضي الوقت وهي تقوم بجرد الخزائن. تناولت الملكة آن مشروع القانون من يد هنري. هزّته بعنف، وكأنّها كانت تشعر بالغضب من الورق وبالغيرة من الحبر. قالت: "ينصّ هذا القانون على أنّي لو توفيت الآن، أو بسبب حمى، وقبل أن ألد، يمكنه أن يتخذ ملكة أخرى مكاني".

قال الملك: "حبيبتي، لا أتخيّل ملكة أخرى مكانك. هذا مجرد نصّ قانوني، لا بدّ من ذكره".

قال غاردينر: "سيديتي، إن سمحت لي بالدفاع عن كرومويل، فهو لا يتصوّر سوى الحالات العادية. لا يمكن أن تحمي على جلالته بالعيش أرمل مدى الحياة، كما أنّنا لا نعرف ساعة موت أيّ منّا".

لم تُعره آن انتباهاً، وكأنّ أسقف وينشيستر لم يتحدّث. "ويقول إنه في حال إنجاب ابناً، فإنّ ذلك الابن هو من يرث. يقول، الورثة الذكور الشرعيون. إذا، ماذا يحدث لابنتي وحقّها في الملك؟".

قال هنري: "حسناً، ستبقى أميرة إنكلترا. إن قرأت المزيد، فستجدين أنّ..."، أغمض عينيه: ربّاه، أعطني القوّة.

تطوّع غاردينر لإنقاذ الموقف: "إن لم يُنجب الملك ابناً، في إطار زواج شرعي من أيّ امرأة، فإن ابنتك، ستصبح ملكة. هذا ما يقترحه كرومويل".

"ولكن لماذا كُتبت ذلك على هذا النحو؟ وأين يقال إنّ ماري الإسبانية هي ابنة غير شرعية؟".

"الليدي ماري ليست من ضمن الورثة، لذا، الاستنتاج واضح، ولسنا مضطرين إلى قول المزيد. أرجو أن تغفري لنا برودة التعبير. نحن نحاول أن نكتب القوانين

باختصار، وبحيث تكون غير شخصية".

قال غاردينر مبتسماً: "بالله عليك، إن لم يكن هذا شخصياً، فماذا يكون؟".
بدا أن الملك دعا ستيفن إلى هذا الاجتماع ليسحقه. غداً، بالطبع، ستختلف الأمور؛ قد يأتي ليجد هنري متأبطاً ذراع أسقف وينشيستر وهما ينتزهان في الحديقة. قال: "نحن ننوي أن نمهر هذا القانون بقسم. سيقسم رعايا جلالته الملك على تأييد وراثة العرش، كما ينصّ عليها هذا القانون المصادق عليه من قِبَل البرلمان". قال غاردينر: "قسم؟ أيّ تشريع هذا الذي يحتاج إلى أن يؤكّد بقسم؟".

"ستجد دائماً من سيقول إنّه قد تمّ تضليل البرلمان، أو شراؤه، أو إنّه عاجز عن تمثيل الدولة. ستجد أيضاً من سينكرون كفاءة البرلمان للتشريع في بعض المسائل، قائلين إنّه يجب أن تتولّاها سلطة أخرى، هي روما في الواقع. ولكنني أظنّ أنّ هذا خطأ، لأنّ روما لا تملك سلطة تشريعية في إنكلترا. أنوي أن أضمنّ المشروع القانوني موقفاً. إنه موقف متواضع. سأضع مسودته، وإن شاء البرلمان فسيصدر القانون، وإن شاء الملك فسيوقع عليه. وبعدها سأطلب من البلاد تأييده".

قال ستيفن ساخراً: "إذاً، ماذا ستفعل؟ ستطلب من الشباب الذين يعملون في أوستن فرايرز أن يجوبوا البلاد ويحلّفوا كلّ من فيها؟".

"ولمّ لا؟ هل تظنّ أنّهم بهائم لأنهم ليسوا أساقفة؟ انظر إلى أيّ جزء من أجزاء هذه المملكة، يا سيّدي الأسقف، وستجد الفقر والحرمان. ثمّة رجال ونساء على الطرقات. لقد تحسّنت أوضاع مربّي الخراف إلى حدّ أنّ المزارعين الصغار طُردوا من منازلهم وأراضيهم. خلال جيل من الزمن، يمكن لهؤلاء الناس أن يتعلموا القراءة. يمكن للفلاح أن يحمل كتاباً. صدّقني، غاردينر، من شأن إنكلترا أن تكون مختلفة".

قال غاردينر: "لقد أثرت غضبك، وأنت أسأت فهم السؤال. لم أسألك ما إذا كانت كلمتهم موثوقة، بل كم منهم تقترح أن تحلّف. ولكن بالطبع، أنت اقترحت على مجلس العموم مشروع قانون ضدّ الخراف...".

قال مبتسماً: "ضدّ رعاة الخراف".

قال الملك: "غاردينر، بهدف مساعدة العامّة، لا يُسمح لأيّ راعٍ بتربية ما يزيد عن ألفي حيوان...".

قاطع الأسقف الملك وكأنّه طفل. "ألفان، أجل، إذاً، بينما يطوف مفوضوك في أنحاء البلاد لعدّ الخراف، يمكنهم ربّما تحليف الرعاة في الوقت نفسه، أليس كذلك؟ وكذلك أولئك المزارعين الأميين؟ والمومسات اللواتي يصادفونهنّ في طريقهم؟".

كان لا بدّ من أن يضحك، فقد بدا الأسقف غاضباً جداً. "سيّدي، سأحلف جميع الأشخاص الذين يستطيعون الحفاظ على سلامة الإرث ووحدة البلاد من بعدنا. لدى الملك موظفون، وقضاة صلح، وسيقسم أعضاء مجلس الشورى بشرفهم على تنفيذ هذا القانون".

قال هنري: "سيقسم الأساقفة، وأتمنى أن يحفظوا وعدهم".
قالت آن: "نحن بحاجة إلى أساقفة جدد. وسمّيت صديقها هيوغ لاتيمر، وصديقه رولاند لي. يبدو في النهاية أنّ لديها لائحة تحتفظ بها في رأسها. كانت ليز تصنع الفاكهة المحفوظة، وأن تصنع أشكال القسيسين".

"لاتيمر؟"، هزّ ستيفن رأسه، ولكن لم يكن بمقدوره أن يتّهم الملكة في وجهها بأنّها تحبّ المهرطقين، "على حدّ علمي، لم يسبق لروولاند لي أن وقف على منبر في حياته. بعض الرجال لا يدخلون الحياة الدينية إلاّ بداعي الطموح".
قال: "وبالكاد يخفون ذلك".

قال ستيفن: "لقد مشيت في طريقي إلى أبعد الحدود. كُلفت بالمهمّة، وقمت بها على أكمل وجه، يا كرومويل". نظر إلى آن، وكانت عيناها تتألّقان مرحاً. لم تفتها كلمة واحدة.

قال هنري: "سيّدي الأسقف، لقد غبت طويلاً عن البلاد، خلال مهامك كسفير".

"أمل أن يفكر جلالتم في أنّي فعلت ذلك لمصلحته".

"بالطبع، ولكنك لم تستطع أن تتجنّب إهمال رعيّتك".

قالت آن: "كراعي أبرشيّة، عليك أن تهتم برعيّتك، وأن تعدّها ربّما".

انحنى قائلاً: "رعيّتي آمنة في حظيرتها".

لم يكن هنري قادراً على ركل الأسقف خارج الغرفة، أو الطلب من الحراس اقتياده منها. لذا، تمت قائلاً: "لديك ملء الحرية بالاهتمام بها".

ثمّة رائحة ننتة تفوح من وجار كلب قتال هائج. وقد فاحت الآن في الغرفة، ورأى أنّ تلتفت جانباً، وستيفن يضع يده على صدره، وكأنّه يقلّب فراءه، ليظهر حجمه، قبل أن يكشّر عن أنيابه. قال: "سأكون مع جلالتم خلال أسبوع". خرج شعوره العذب مثل زمجرة من عمق أحشائه.

انفجر هنري ضاحكاً: "في هذه الأثناء يعجبنا كرومويل. كرومويل يعاملنا معاملة حسنة جداً".

عند رحيل أسقف وينشيستر، اقتربت آن من الملك مجدّداً، وكانت تنظر بعينيها

جانباً وكأنّها تدعوه إلى مؤامرة. كان الجزء الأعلى من ثوب أن لا يزال مشدوداً، ولا يشير إلى حالتها سوى بعض الامتلاء في صدرها. لم يتمّ الإعلان أبداً عن الأمر، فأجساد النساء غير مضمونة والخطأ وارد. ولكنّ القصر بأكمله كان واثقاً من أنّها تحمل الوريث، وكانت تقول ذلك هي نفسها. لم يُذكر التفّاح هذه المرّة، وكلّ الأطعمة التي كانت تشتهيها حين كانت حاملاً بالأميرة أصبحت ترفضها الآن، وتلك إشارة جيّدة إلى أنّه سيكون صبيّاً. مشروع القانون الذي كان ينوي اقتراحه على مجلس العموم ليس استباقاً لكارثة، كما ظنّنت، بل سيكون تأكيداً على مكانتها في العالم. لا بدّ من أنّها بلغت الثالثة والثلاثين هذا العام. لقد سخر لسنوات طويلة من صدرها المسطح وبشرتها الصفراء. والآن، بعد أن أصبحت ملكة، تجلّى جمالها حتّى في عينيه. بدا وجهها وكأنّه منحوت بخطوطه النقيّة، ورأسها صغير كرأس هرّة. عنقها يتألّق وكأنّه مرشوش بذهب وهميّ.

قال هنري: "ستيفن هو سفير عنيّد، من دون شكّ، ولكنني لا أستطيع إبقاءه قربي. لقد وثقت به وائتمنته على أعماق أسراري، وها هو الآن ينقلب ضديّ". هزّ رأسه. "أكره نكران الجميل، أكره الخيانة، ولذلك أقدر رجلاً مثلك. كنت وفيّاً لسيدك القديم في وقت شدّته. وهذا كافٍ لأعرف قيمتك". تكلم وكأنّه ليس هو شخصياً من سبّب تلك الشدّة، وكأنّ سقوط وولزي كان ناجماً عن صاعقة. "وثمة شخص آخر خيب أمني، هو توماس مور".

قالت آن: "عندما تكتب مشروع القانون ضدّ الراهبة المحتالة بارتون، انكر مور فيه، مع فيشر".

هزّ رأسه. "لن يمرّ. لن يقرّه البرلمان. ثمة أدلّة عديدة ضدّ فيشر، ومجلس العموم لا يحبّه، فقد تحدّث إليهم وكأنّهم حثالة. ولكنّ مور أتى إليّ حتّى قبل اعتقال بارتون وبينّ لي أنّه واضح في المسألة".

قالت آن: "ولكنّ هذا سيخيفه، وأنا أريد إخافته. فمن شأن الخوف أن يحطّم الإنسان، سبق ورأيت هذا يحدث".

* * *

الساعة الثالثة من بعد الظهر: أحضرت الشموع. راجع جدول مواعيد ريتشارد: كان جون فيشر ينتظر. حان الوقت لإظهار الغضب. حاول التفكير في غاردينر، ولكنّه ظلّ يضحك. قال ريتشارد: "أخف عواطفك".

"لن تتخيّل أبداً أنّ ستيفن يدين لي بالمال. فقد دفعت تكاليف انتقاله إلى وينشستر".

"أدخله، سير".

"ولكنني سبق وأخذت منزله للملكة. ولا يزال حزيناً. كان من الأفضل عدم التصرف معه بتطرف، وأن أترك له خط العودة مفتوحاً".

جلس الأسقف فيشر، وأسند يديه الهزليتين إلى عصا من خشب الأبانوس. قال: "مساء الخير، سيدي. لم أنت ساذج إلى هذا الحد؟".

فوجئ الأسقف لأنهما لم يبدأا حديثهما بصلاة. إلا أنه تمت بدعاء.

"كان يجدر بك طلب عفو الملك، والتوسل إليه كي يراعي سنك وعجزك".

"لا أعرف ما هي جريمتي. ومهما يكن ظنك، فقد تجاوزت سن الطفولة".

"ولكنني لا أظن ذلك. وإلا، كيف تصدق امرأة مثل بارتون؟ لو صادفت عرضاً

للدمى في الشارع، ألن تقف لتهلل وتصيح: انظروا إلى أرجلها الخشبية الصغيرة وهي

تمشي، انظروا كيف تحرك أذرعها؟ اسمعوا كيف تنفخ بمزاميرها. ألن تفعل ذلك؟".

قال فيشر بحزن: "لا أظن أنه سبق لي رؤية عرض للدمى. على الأقل ليس من

النوع الذي تتحدث عنه".

"ولكنك تشارك في عرض دمي، يا سيدي الأسقف! انظر حولك، هذا ليس سوى

عرض دمي كبير".

قال فيشر: "مع ذلك، صدقها كثيرون. حتى وارهام، رئيس أساقفة كانتربروري،

ومئات الرجال المتدينين والمتعلمين، صدقوا عجائبها. ولماذا لا تُفصح عما تعرفه، ما

دامت مُلهمة؟ كلنا نعرف أن الله يُرسل تحذيرات عبر عباده، فعاموس قال ذلك...".

"لا تعظني يا رجل. لقد هدّدت الملك، وتوقّعت موته".

"توقّع الشيء ليس كتمنيّه، أو التخطيط له".

"آه! ولكنّها لم تتوقّع شيئاً لم تكن ترغب في حدوثه. لقد جلست مع أعداء الملك

وأخبرتهم كيف سيكون ذلك".

قال الأسقف: "إن كنت تعني اللورد إكسيتير، فقد نال العفو، بالطبع، وكذلك الليدي

جيرترود. لو كانا مذبّنين، لما عفا عنهما الملك".

"هذا غير صحيح، فهنري يريد المصالحة. الرحمة من شيمه، وقد يكون كذلك

معك، ولكن عليك الاعتراف بأخطائك. لم يكن إكسيتير يكتب ضدّ الملك، مثلك

أنت".

"أين؟ أرني".

"اسمك ممّوه، سيدي، ولكن ليس بالنسبة إليّ. بعد الآن، لن تنتشر شيئاً". توجه

نظر فيشر إلى الأعلى. تحرّكت عظامه قليلاً تحت بشرته، وأطبقت يداه على عصاه، التي كانت قبضتها تصوّر دلفيناً مذهّباً. "مطابعك في الخارج تعمل لحسابي الآن. فقد عرض عليها صديقي ستيفن فوغان سعراً أفضل".

قال فيشر: "أنت تلاحقني بسبب الطلاق. ليس بسبب إليزابيث بارتون، بل لأنّ الملكة كاثرين طلبت مشورتي وأعطيتها إيّاها".

"تقول إنّني ألحقك إن طلبت منك احترام القانون؟ لا تحاول تشتيت انتباهي عن الراهبة، وإلا أخذتك إلى حيث هي وحبستك في غرفة مجاورة. هل كنت لتصدّقها بالحماسة نفسها لو أنّها قالت إنّ أن ستتوّج ملكة قبل عام من حدوث ذلك، وإنّ الله يبارك الحدث؟ أنا واثق من أنّك كنت لتعتبرها مشعوذة".

هزّ فيشر رأسه نافياً، وبدأت عليه الحيرة. "طالما تساءلت، وقد حيرني الأمر سنوات طويلة، ما إذا كانت مريم المجدلية في الكتاب المقدّس هي نفسها مريم أخت مارتا. ولكنّ إليزابيث بارتون أكّدت لي ذلك. لم تتردّد أبداً".

ضحك. "آه، إنّها على علاقة وثيقة بأولئك الأشخاص. والآن، أصغ إليّ، سيّدي. السذاجة الدينية كانت مفيدة في الماضي، ولكنّ زمنها قد ولى. نحن في حرب. لا تظنّ عكس ذلك لمجرد أنّ جنود الإمبراطور لا يجرون في الشارع. إنّها حرب وأنت في مخيم الأعداء".

صمت الأسقف ثمّ ترنّح قليلاً على مقعده: "أرى الآن لماذا احتفظ بك وولزي، أنت قاس مثله. كنت كاهناً لمدة أربعين عاماً، ولم يسبق لي أن رأيت أشخاصاً غير أتقياء كأولئك الذين يكثرون اليوم، لم يسبق لي أن رأيت مستشارين فاسدين إلى هذا الحدّ". قال له: "امرض. الزم سريرك، هذا ما أنصحك به".

عُرض مشروع قانون تجريد الراهبة وحلفائها من حقوقهم المدنية على مجلس اللوردات صباح يوم السبت، في الحادي والعشرين من شباط/فبراير. ورد فيه اسم فيشر، وكذلك اسم مور، بأمر من هنري. قصد البرج لرؤية بارتون، وما إذا كانت تؤدّ الاعتراف بأمر آخر قبل تحديد موعد إعدامها.

كانت قد أمضت الشتاء تجوب البلاد لتدلي باعترافاتها، وهي واقفة على السقالات في الرياح القارسة. أدخل معه شمعة، ووجدها تجلس متراخية على مقعد، وكأنّها كومة من الخرق البالية. كان هواء الزنزانة بارداً ورطباً على السواء. نظرت إليه وقالت، وكأنّهما يستأنفان حديثاً: "قالت لي مريم المجدلية إنّني سأموت".

قال في نفسه: ربّما كانت تتحدّث إليّ في ذهنها. "هل حدّدت لك تاريخاً؟".

سألته: "وهل يهَمّ ذلك؟". تساءل ما إذا كانت تعرف أنّ البرلمان، الذي استنكر تضمين مور في اقتراح القانون، من شأنه أن يؤجّل البتّ فيه حتّى الربيع. "أنا سعيدة لمجيئك، سيّد كرومويل. فلا شيء يحدث هنا".

لم تخفها حتّى أطول استجواباته وأكثرها فطنة. جرّب جميع الخدع التي يعرفها لدفعها لتوريط كاثرين في القضية، من دون جدوى. سألتها: "هل يطعمونك جيّداً؟".

"آه أجل، ويغسلون ملابسني. ولكنني أفتقد إلى الأيام التي كنت أذهب فيها إلى لامبيث وأقابل رئيس الأساقفة، فقد أحببت ذلك. النهر، والناس الذين يسيرون على ضفتيه، والمراكب التي تُفرغ حمولتها. هل تعرف ما إذا كنت سأحرق؟ قال اللورد أودلي إنني سأحرق". تحدّث وكأنّ أودلي هو أحد أصدقائها القدامى.

"أمل أن يجنّبوك ذلك. الملك هو من يقرّر".

"حماك الله، كلاً. بل للملك".

"هل ترين وولزي؟".

"الكاردينال هو حيث تركته. يقال إنّ احتراق الجسد يستغرق ساعة، ولكنني سأستحمّ بالأسنة النار، كما يستحمّ المرء في ينبوع. بالنسبة إليّ، ستكون باردة". نظرت إلى وجهه ولكنها أشاحت بنظرها أمام التعبير الذي كسا وجهه. "أحياناً يفجّرون البارود في الغابات، أليس كذلك؟ هذا يسرّع الأمر. كم من الأشخاص سيذهبون معي؟".

ستّة، ذكر أسماءهم. "كان من شأنهم أن يكونوا ستّين شخصاً، هل تعرفين ذلك؟ غرورك هو الذي أتى بهم إلى هنا".

فكّر، وهو يقول ذلك، أنّ غرورهم هو الذي أتى بها إلى هنا: ورأى أنّها كانت تفضّل لو يموت معها ستّون شخصاً آخر، لو أنّ إكسيتير وأفراد أسرة بول ينالون نصيبهم من الخزي؛ لكانت ضمنت شهرتها بذلك. في تلك الحالة، لماذا لم تورّط كاثرين في المؤامرة؟ لكانت عرفت انتصاراً ساحقاً لو أنّها دمرت ملكة. فكّر في أنّه لم يكن فظناً جيّداً في النهاية، كان عليه أن يلعب على طمّعها بأن تكون سيّئة السمعة. قالت: "ألن أراك مجدّداً؟ أم أنّك ستكون حاضراً عند تعذيبي؟".

قال: "هذا العرش، كرسي العظام هذا، من الأفضل أن تبقى لنفسك وألاّ يسمع به الملك".

"أظنّ أنّه يجب ذلك. يجب تحذيره ممّا ينتظره بعد الموت. ماذا سأخشى أكثر ممّا هو مخطّط لي أساساً؟".

"ألا تريدان أن تتوسّلي لما في بطنك؟".
احمّرت. "أنا لست حاملاً، أنت تسخر مني".
"أنا مستعدّ لأنصح أيّاً كان كي يعيش بضعة أسابيع إضافية، بأيّ وسيلة ممكنة.
قولي إنّه أُسيئت معاملتك على الطريق. قولي إنّ حراسك تعرّضوا لشرفك".
"ولكن سيكون عليّ أن أعطي اسمه، وعندها سيحاكمونه".
هزّ رأسه مشفقاً عليها. "عندما يستغلّ حارس سجيناً، لا يعطيها اسمه".
على أيّ حال، لم تعجبها الفكرة، فقد كانت بسيطة. تركها. كان البرج أشبه بقرية
صغيرة، وكان روتين الصباح يدور حوله ويلقي عليه الحراس والرجال من دار سكّ
العملة التحيّة، ويمرّ سائس حيوانات الملك ليقول إنّه وقت تناول الطعام -
فالحيوانات كانت تأكل باكراً - وما إذا كان يرغب في إطعامها. شكره ولكنّه اعتذر.
فهو لم يتناول إفطاره بعد، وكان يشعر بشيء من الغثيان بسبب رائحة الدماء
المنبعثة من الأقفاص، وصوت الحيوانات. عند أعلى الجدران فوق النهر، بعيداً عن
مرمى نظره، كان ثمة رجل يصفر بنغم قديم، وعند اللازمة، بدأ يغني. كان قروياً
مرحاً يغني. وهذا بالطبع أمر غير صحيح.

بحث عن المراكبي. تساءل ما إذا كانت الراهبة مريضة، وما إذا كانت ستبقى على
قيد الحياة حتّى موعد إعدامها. لم تتعرّض لأيّ أذى عندما كانت مسجونة لديّ، بل
للإرهاق وحسب. فقد تمّ إبقاؤها مستيقظة ليلية أو اثنتين، تماماً كما يحدث معه أحياناً
بسبب أعمال الملك، وهذا لا يدفعه للاعتراف بأيّ شيء. كانت الساعة التاسعة،
وعند العاشرة، سيتناول الطعام مع نورفولك وأودلي اللذين لن يصرخا وتتبعث منهما
الروائح الكريهة مثل الحيوانات، كما يأمل. بدت شمس جليدية خجولة، وتجمّعت
حلقات من الضباب فوق النهر.

في ويستمينستر، راح الدوق يطرد الخدم. "إن أردتُ شراباً، فسأحضره بنفسه. هيّا،
اخرجوا، اخرجوا. وأغلقوا الباب! ومن سيسترق النظر من قفل الباب، فسأسلخه حيّاً!"
استدار وهو يشتم في سرّه، وتناول كرسيّاً وهو يزمرجر. قال: "ماذا لو توسّلت إليه؟
ماذا لو ركعت على ركبتيّ وقلت: هنري، بالله عليك، أخرج توماس مور من قرار
التجريد من الحقوق المدنيّة؟".

قال أودلي: "ماذا لو رجونا جميعنا، راعين؟".
قال: "آه، وكرانمر أيضاً، سنجعله يشترك معنا. لا يمكن أن تفوته هذه المسرحية
المتعة".

قال أودلي: "لقد أقسم الملك، إنه في حال تمّ الاعتراض على مشروع القانون، سيمثل شخصياً أمام البرلمان، بمجلسيه إن لزم الأمر، ويصرّ عليه".
قال الدوق: "قد يفشل، وعلناً. بالله عليك، كرومويل، لا تدعه يفعل ذلك. كان يعرف أنّ مور ضده، ومع ذلك تركه يذهب إلى تشيلسي ليريح ضميره. ولكن أظنّ أنّ ابنة أختي هي من تريده أن يحاكم. فهي تأخذ الموضوع على نحو شخصي، النساء يفعلن ذلك".

"أظنّ أنّ الملك أيضاً يأخذ الموضوع على نحو شخصي".
قال نورفولك: "هذا ضعف برأيي. لماذا يكثر لرأي مور به؟".
ابتسم أودلي بتردد واعترض قائلاً: "تقول إنّ الملك ضعيف؟".
"تقول إنّ الملك ضعيف؟". مال الدوق إلى الأمام وأطلق صوتاً حاداً في وجه أودلي، وكأنه طائر عقق متكلم. "ما هذا، يا حضرة القاضي، هل تتحدّث بنفسك؟ أنت تنتظر عادة أن يتكلم كرومويل لتَهزّ رأسك، أجل سير، كلاً سير، كما تقول، توم كرومويل".

فُتح الباب، وأطلّ منه ريوثسلي. قال الدوق: "والله لو كنت أملك قوساً ونشاباً، لقتلتك فوراً. قلت لا أريد أحداً هنا".
"أتى ويل روبر حاملاً رسائل من حميه. مور يسأل ماذا ستفعل من أجله، سير، بعد أن أقررت أنه لن يستطيع الدفاع عن نفسه".
"قل لويل إنّنا نتمرّن على كيفية التوسّل إلى الملك ليحذف اسم مور من مشروع القانون".

أوقع الدوق شرابه، الذي سكبه بنفسه. وضع كأسه بعنف على الطاولة. "كان كاردينالك يقول إنّ هنري يفضّل التخلّي عن نصف مملكته على أن يواجه معارضة من أحد، فهو لا يحبّ أن يقف أحد في وجه رغباته".
"ولكنني أفكر... ألا تفعل، حضرة القاضي...".
قال الدوق: "أه! بلى، يفكر في كلّ ما تفكر فيه". وراح يقلّد مجدداً صوت العقق. بدا الاستغراب على وجه ريوثسلي. "هل أدخل ويل؟".
"كي نركع معاً؟".

قال الدوق: "لن أركع ما لم يركع معنا كرانمر. لم يتحمّم على غير رجال الدين فقط أن يتلفوا مفاصلهم؟".
سأل أودلي: "هل يجدر بنا الإرسال بطلب اللورد سوفولك أيضاً؟".

"كلاً، فابنه يُحتضر، وهو وريثه". مسح الدوق فمه بيده. "سيبلغ الثامنة عشرة من عمره بعد شهر واحد". لامست أصابعه قلائده والأشياء المبعّلة التي يعلّقها في ملبسه. "لم ينجب تشارلز سوى صبيّ واحد، مثلي، ومثلك يا كرومويل. ومثل توماس مور. صبيّ واحد فقط. فليكن الله في عون تشارلز، لأنّه مضطرّ ليبدأ بالتنازل مجدّداً مع زوجته الجديدة. أنا واثق من أنّ الأمر سيكون شاقاً عليه". أطلق ضحكة قصيرة ثمّ أضاف: "لو أنّ في إمكاني التخلّص من زوجتي، لاستبدلتها بشابّة لذيذة في الخامسة عشرة من عمرها، ولكنّها باقية".

كان هذا كثيراً على أودلي. تورّد وجهه. "سيدي، أنت متزوّج، زيجة حسنة، منذ عشرين عاماً".

"ألا أعرف ذلك؟ وكأنّك تقم شخصك في كيس جلدي أشيب". هبطت يد الدوق النحيلة لتحطّ على كتفه وتشدّ عليها. "هلاً حصلت لي على طلاق، يا كرومويل؟ اخترع أسباباً أنت وسيدي رئيس الأساقفة. وأعدكم أنّه لن يُرتكب قتل بسببه". سأله ريوثيسلي: "أين يُرتكب قتل؟".

"ألستا نستعدّ لقتل توماس مور؟ وكذلك العجوز فيشر، نشد السكين لأجله". "لا قدر الله". نهض قاضي القضاة، ولفّ رداءه حوله. "هذه ليست تهماً تستحقّ الإعدام عليها. ليس مور وأسقف روتشستر سوى لاعبين ثانويين".

قال ريوثيسلي: "وهذا ليس بالشيء القليل". هزّ نورفولك كتفيه. "إن لم تقتلها الآن، فستقتلها لاحقاً. لا مور ولا فيشر سيقسمان على مشروع قانونك".

قال أودلي: "أنا واثق بأنّهما سيفعلان. علينا استعمال وسائل إقناع جيّدة. فما من رجل عاقل يرفض القسّم على الوراثة، من أجل ضمان أمن مملكته".

قال الدوق: "إذاً، هل سنقسم كاثرين على دعم انتقال العرش إلى طفلة ابنة أختي؟ وماذا عن ماري، هل سنحلف هي أيضاً؟ وماذا إن لم تقبل بتأدية القسّم، ماذا تقترح بشأنهما؟ جرّهما إلى تاييرن على نقالة وشنقهما وهما تركلان بأقدامهما، ليراهما قريبهما الإمبراطور؟".

تبادل نظرة هو وأودلي. قال أودلي: "سيدي، لا يجدر بك تناول هذا القدر من الشراب قبل الظهيرة".

قال الدوق: "أه!"، وأصدر صوتاً ساخراً. قبل أسبوع، ذهب إلى هاتفيد لرؤية الفتاتين الملكيتين، الأميرة إليزابيث والليدي

ماري ابنة الملك. قال لغريغوري في الطريق: "استوثق من أن تحصل على الألقاب الصحيحة". قال غريغوري: "ها أنت تتمنى منذ الآن لو أنك أحضرت ريتشارد عوضاً مني".

لم يشأ مغادرة لندن في هذه الفترة من انشغال البرلمان، ولكن الملك أقنعه قائلاً: "يومان وتعود، أراد أن تلقي نظرة على ما يجري". كانت مياه الثلوج الذائبة تسيل على الطرقات المؤدية إلى خارج المدينة، وفي الأيالك المحمية من أشعة الشمس، كانت برك المياه لا تزال متجلدة. أطلت عليهما شمس خجولة وهما يعبران هيرتفوردشاير، وبدت هنا وهناك براعم ممزقة من زهر برقوق السياج، تحتج على طول الشتاء.

"كنت أزور هذا المكان قبل سنوات، فقد كان يقيم فيه الكاردينال مورتون، كما كنت تعلم، وكان يغادر البلدة مع انتهاء الفصل القانوني وحلول الدفء. وعندما كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري، كان عمي جون يضعني في عربة المؤن مع أفضل أنواع الجبن والفطائر، لكي لا يسرقها أحد عندما نتوقف.

"ألم يكن لديكم حراس؟"

"الحراس هم من كان يخشاهم."

"Quis custodiet ipsos custodes? (من يراقب الحراس؟)".

"أنا، بالطبع."

"وماذا كنت لتفعل؟"

"لا أدري، ربّما كنت عضضتهم؟"

كانت واجهة القرميد النضرة أصغر ممّا يذكر، ولكن هذا ما فعلته الذاكرة. أولئك الغلمان والشبان الذين كانوا يركضون في الخارج، السائسون الذين كانوا يقودون الجياد، الشراب الدافئ الذي كان ينتظرهم، الضجيج والجلبة، كان الوصول مختلفاً عن تلك الأيام الماضية. كان نقل الخشب والماء، وإضرام النار في الأفران، مهام تتجاوز قدرة أو مهارة صبي صغير، ولكنّه لم يشأ التسليم بذلك، بل عمل مع الرجال، وعانى من القذارة والجوع، إلى أن لاحظ أحدهم أنّه كان على وشك الانهيار، أو إلى أن انهار بالفعل.

كان السير جون شيلتون سيّد هذا المنزل الغريب، ولكنّه اختار وقتاً يكون فيه السير جون خارج المنزل. كان ينوي التحدّث إلى النساء، عوضاً من الإصغاء إلى شيلتون بعد العشاء وهو يتحدّث عن الجياد، والكلاب، وإنجازاته في شبابه. ولكن

حين وصل إلى المدخل، أوشك على تبديل رأيه. فقد رأى الليدي براين تنزل السلم بخطى سريعة. كانت الليدي براين هي والدة فرانسيس الأعور، والمسؤولة عن الأميرة الصغيرة. كانت المرأة في السبعين من عمرها تقريباً، ورأى فمها يتحرك قبل أن تصبح ضمن مجال السمع: نامت سمو الأميرة حتى الساعة الحادية عشرة، ظلت تبكي حتى منتصف الليل، لقد أرهقت نفسها، الصغيرة المسكينة! نامت ساعة، ثم استيقظت وهي ترتعش، وخداها قرمزيان. شككنا في إصابتها بالحمى، أيقظنا الليدي شيلتون، والطبيب، بدأت أسنانها تنبت منذ الآن، يا للزمن الغدار! حاولنا تسكينها، فاسترخت عند طلوع الشمس. ثم استيقظت عند الساعة التاسعة، رضعت... قالت الليدي براين: "آه، سيّد كرومويل، لا يمكن أن يكون هذا ابنك! بارك الله فيه! يا له من شاب طويل ووسيم! لا شك في أنه ورث هذا الوجه الجميل من أمه. في أي سنّ هو الآن؟".

"في سنّ التكلم، على ما أظنّ".

التفتت الليدي براين إلى غريغوري، وكان وجهها متوهجاً وكأنّها تنوي مشاطرته أخبار الحضانة. دخلت الليدي شيلتون قائلة: "نهاركم سعيد، أيها السيّدان". تردّدت قليلاً: هل تتحني عمّة الملكة لسيّد بيت الجوهرة؟ يبدو أنّها فكّرت في أنّه لا يجدر بها ذلك. "أظنّ أنّ الليدي براين أعطتكم تقريراً مفصّلاً عن عملها؟".

"بالفعل، وربّما أمكنك إعطاؤنا تقريراً عن عملك؟".

"ألن ترى الليدي ماري بنفسك؟".

"بلى، ولكن سمعت...".

"بالفعل. أنا لا أدخل مسلّحة، مع أنّ ابنة أخي الملكة تنصّني باستعمال يديّ معها". تفحصته بعينها، قيّمته، وتوتّر الجوّ. كيف فعلت النساء ذلك؟ ربّما كان يمكن للمرء أن يتعلّم، يشعر، من دون أن يرى، أنّ ابنه يتراجع، إلى أن ارتطم بالخرانة التي تعرض مجموعة الأميرة إليزابيث الكبيرة من الأطباق الذهبية والفضية. قالت الليدي شيلتون: "لقد كلّفت، في حال تمرّد الليدي ماري، وهنا أقتبس كلمات ابنة أخي، بضربها لأنّها ليست سوى ابنة زنى".

أنت الليدي براين قائلة: "آه، ربّاه! كنت مربّية ماري أيضاً، وكانت عنيدة كالأطفال الرضع، لذا، لن تتغيّر الآن، اضربها ما طاب لك ذلك. أنت تودّ رؤية الطفلة أولاً، أليس كذلك؟ تعالّ معي...". قبضت يدها على مرفق غريغوري، وتابعت ثرثرتها: "كما تعلم، مع طفلة بهذه السنّ، قد تنتج الحمى عن أيّ شيء. قد تكون بداية

الحصبة، لا سمح الله، أو بداية الجدري. مع طفلة بعمر الستة أشهر، لا يعرف المرء إلام تشير...". كان ثمّة عرق ينبض في عنق الليدي براين. وبينما هي تثرثر، كانت تلحق شفيتها الجافتين، وتبتلع.

فهم الآن لماذا أراد منه هنري المجيء. فالأمور التي كانت تحدث لا يمكن أن تكتب في رسالة. سأل الليدي شيلتون: "هل تعنين أنّ الملكة كتبت لك عن الليدي ماري مستخدمة هذا التعبير؟".

"كلاً، بل أعطتني تعليمات شفوية". مرّت من أمامه. "هل تظنّ أنّه عليّ تنفيذها؟".
تمتم: "ربّما يجدر بنا التحدّث على انفراد".
التفتت وتمتمت قائلة: "بالطبع، لمّ لا؟".

كانت الطفلة إليزابيث ملفوفة بإحكام بطبقات من القماش، ويدها مخبأتان. وهذا جيّد، لأنّها بدت وكأنّها ستضرب من تطاله يداها. ظهرت شعيرات شقراء خشنة من تحت قبعتها، وكانت عيناها يقظتين. لم يسبق له أن رأى طفلة في مهدها متأهبة إلى هذا الحد للهجوم. قالت الليدي براين: "هل تظنّ أنّها تشبه الملك؟".

تردّد قليلاً، محاولاً أن يكون عادلاً مع الاثنين. "بقدر ما يمكن لفتاة صغيرة أن تشبه أباه".

قالت الليدي شيلتون: "فلنأمل ألاّ ترث عنه بدانته. فهو يزداد بدانة، أليس كذلك؟".
"وحده جورج روتشفورد يقول العكس". انحنت فوق المهد مضيفة: "يقول إنّها تشبه آل بولين من رأسها حتّى أخصص قدميها".

قالت الليدي شيلتون: "نعرف أنّ ابنة أخي عاشت ثلاثين عاماً تقريباً في العفّة. ولكن حتّى أن لم تستطع أن تحبل بلا دنس".
قال: "ولكن الشعر!".

تهتت الليدي براين قائلة: "أعرف. مع احترامي لسمو الأميرة، ولجلالة الملك، يمكن عرضها في مهرجان كحيوان مقرّر صغير". أبعدت قليلاً قبعة الطفلة، وبدأت أصابعها تخفي خصل الشعر تحتها. راحت الطفلة تحرك وجهها وتبكي محتجة.
نظر إليها غريغوري عابساً وقال: "يمكن أن تكون طفلة أيّ كان".

رفعت الليدي شيلتون يدها لتخفي ابتسامتها. "أنت تعني، غريغوري، جميع الأطفال متشابهون. تعال، سيّد كرومويل".

أمسكت بكفّه لتقوده بعيداً. انشغلت الليدي براين بإعادة ربط قبعة الأميرة، وإحكام لفّها. قال من خلف كتفه: "بالله عليك، غريغوري". يُسجن الناس في البرج على قول

أقلّ من ذلك. قال لليدي شيلتون: "لا أفهم كيف يمكن أن تكون ماري ابنة زنى. فقد كان أبواها مرتبطين بزواج شرعي عند ولادتها".
توقّفت، ورفعت أحد حاجبيها. "هل أنت مستعدّ لقول ذلك لابنة أخي الملكة، أعني في وجهها؟".

"سبق وفعلت".

"وما كان ردّ فعلها".

"حسناً، أوكدّ لك، ليدي شيلتون، لو أنّها كانت تملك فأساً بيدها، لحاولت قطع رأسي".

"وأنا أوكدّ لك، ويمكنك أن تتقل ذلك لابنة أخي إن شئت. لو أنّ ماري كانت بالفعل ابنة زنى، وابنة زنى لأفقر رجل في إنكلترا، فلن تتلقّى سوى ألطف معاملة من بين يديّ، لأنّها شابة طيبة، ووحده من يملك قلباً من حجر لا يشفق على حالها".
كانت تمشي بسرعة، وذيل ثوبها يكنس الأرض الحجرية. رأى خدم ماري القدماء في المكان، إنها وجوه سبق أن رآها. كان ثمة بقع نظيفة على ستراتهم، في المواضع التي نُزعت منها إشارة ماري واستبدلت بإشارة الملك. نظر حوله وتذكّر كلّ شيء.
توقّف عند أدنى السلم الكبير. لم يكن يُسمح له أبداً بصعوده، بل كان ثمة سلم خلفي للصبيّة أمثاله الذين يحملون الحطب أو الفحم. خالف الأنظمة مرّة، وعندما بلغ أعلى السلم، عاجله أحدهم بلكمة من الظلام أصابت جانب رأسه. هل كان الكاردينال مورتون نفسه، يسترق النظر؟

لمس الحجر، ووجده بارداً كالقبر. كان مزخرفاً بأوراق الكرمة المتداخلة مع أزهار مجهولة. نظرت إليه الليدي شيلتون مبتسمة، ومتسائلة: لماذا يتردّد؟ "ربّما يجدر بنا تغيير ملابس ركوب الخيل قبل مقابلة الليدي ماري. قد تشعر بأننا نستخفّ بها...".
"هذا ما ستشعر به أيضاً إن تأخرتما عليها. ستشعر بالاستياء في الحالتين. صحيح أنّي أشفق عليها، ولكنّها ليست سهلة! لا تعجبها طاولة غدائنا ولا طاولة عشائنا، لأنّها لا تقبل بالجلوس في مكان أدنى من الأميرة الصغيرة. وقد أمرت ابنة أخي الملكة بعدم أخذ الطعام إلى غرقتها، باستثناء خبز الإفطار الذي نتناوله جميعنا".

قادته إلى باب مغلق. "ألا تزال هذه الغرفة تسمّى الغرفة الزرقاء؟".

قالت لغريغوري: "آه! لقد زار والدك هذا المكان من قبل".

قال غريغوري: "ما من مكان لم يزره والدي".

التفتت. "حاول السيدان التعامل معها. بالمناسبة، لا تردّ إن ناديتماها ليدي ماري". كانت الغرفة طويلة، وشبه خالية من الأثاث. استقبلهما البرد عند الباب وكأنّه شبح سفير. كان السجاد الأزرق المزركش قد نُزع عن الجدران الجصيّة العارية، وكانت ماري جالسة قرب موقد مطفاً، منكمشة على نفسها، صغيرة وشابّة إلى حدّ مثير للشفقة. همس غريغوري: "تبدو مثل ماليكين".

ماليكين الفقيرة هي فتاة شبح. تأكل ليلاً، وتعيش على الفتات وقشر التفاح. أحياناً، إن نزلت السلم باكراً وبهدوء، تجدها جالسة في الرماد. نظرت ماري إلى الأعلى، وكان وجهها يضيء. "سيد كرومويل". نهضت، وتقدّمت خطوة نحوه، وكادت تتعثّر بطرف فستانها. "كم مضى من الوقت منذ رأيتك في ويندسور؟".

أجاب بجديّة: "بالكاد أعرف. تغيّرت إلى الأحسن بمرور الزمن، سيّدي". ضحكت. كانت الآن في الثامنة عشرة من عمرها. نظرت حولها وكأنّها تبحث عن المقعد الذي كانت تجلس عليه. قال: "غريغوري"، واندفع ابنه لالتقاط الأميرة السابقة، قبل أن تجلس في الهواء. قام غريغوري بذلك وكأنّه يقوم بخطوة راقصة؛ للشابّ فوائده.

"أنا آسفة لعدم وجود ما تجلسان عليه. يمكنكما"، أشارت بيدها، "الجلوس على ذاك الصندوق".

"أظنّ أننا قويّان بما يكفي للوقوف، مع أنّي لا أجداك كذلك". لاحظ أنّ غريغوري نظر إليه، وكأنّه لم يسبق له سماع تلك النبذة الرقيقة. "هم لا يجبرونك على الجلوس وحيدة، قرب هذا الموقد التعيس، صحيح؟".

"لم يقبل الرجل الذي يحضر الحطب بمناداتي بلقب الأميرة".

"وهل أنت مضطّرة إلى التحدّث إليه؟".

"كلاً، ولكن إن لم أفعل، فسيكون تهرّباً".

قال في نفسه: هذا صحيح، صعبى حياتك قدر الإمكان. "أخبرتني الليدي شيلتون عن صعوبة... صعوبة تناول الطعام. ماذا لو أرسلت إليك طبيباً؟".

"لدينا طبيب هنا. أو بالأحرى، للطفلة طبيب".

"يمكنني إرسال طبيب أكثر نفعاً، يصف لك نظاماً صحياً، ويأمر بأن تتناولتي إبطاراً كبيراً، في غرفتك".

قالت ماري: "مع اللحم؟".

"بكمية وافرة".

"ولكن من سترسل؟".

"د. باتس؟".

لان وجهها. "عرفته في قصري في لادلو، عندما كنت أميرة ويلز، ولا أزال كذلك. كيف حُرمت من حقِّي في الإرث، سيّد كرومويل؟ كيف اعتبر هذا شرعياً؟".
"إنّه شرعيّ لأنّ البرلمان شرّعه".

"ثمّة قانون فوق البرلمان، هو قانون الكنيسة. اسأل الأسقف فيشر".
"الله يعلم أنّي لا أعتبر فيشر شخصاً مؤهلاً لشرح أيّ شيء. بالمقابل، أجد إرادة البرلمان واضحة".

عضّت شفرتها. لن تنظر إليه الآن. "سمعت أنّ د. باتس أصبح مهرطقاً".
"يعتقد ما يعتقد به والدك الملك".

انتظر. التفتت، وعيناها الرماديتان مركّزتان على وجهه. "لا أعتبر السيّد أبي مهرطقاً".

"جيد. من الأفضل أن يكون أصدقاؤك هم أول من يحذرونك من الوقوع في هذه الأفخاخ".

"لا أرى كيف يمكن أن تكون صديقاً لي، ما دمت أيضاً صديقاً للشخص، أعني ماركيزة بيمبروك". لم تمنح أنّ لقبها الملكيّ.

"تلك السيدة هي في مركز لا تحتاج معه إلى الأصدقاء، بل إلى الخدم وحسب".
"يقول بول إنك غريب الأطوار، أعني قريبي ريجينالد بول، الذي يعيش في الخارج في جنوا. قال إنك عندما ولدت، كنت مثل أيّ مسيحيّ آخر، ولكن في وقت من الأوقات، دخل فيك كائن غريب".

"هل كنت تعرفين، ليدي ماري، أنّني عندما كنت صبياً في التاسعة أو العاشرة من عمري، أتيت إلى هنا؟ كان عمّي طاهي مورتون، وكنت صبياً فقيراً، سائل الأنف، يحزم أغصان الزعرور البريّ عند الفجر لإشعال الأفران، ويذبح الدجاج لسلقه قبل طلوع الشمس". تكلم بجدية. "هل تظنّين أنّ كائناً غريباً دخلني في تلك الفترة؟ أم قبل ذلك، في الوقت الذي يُعمد فيه الناس؟ تفهمين أنّ الأمر يهمني".

راقبته ماري وهي تنظر إليه شزراً. لا تزال تعتمر قبعتها المثلثة قديمة الطراز، وبدت أنّها تطرف بعينيها، مثل فرس انزلق غطاء رأسها. قال بلطف: "أنا لست غريب الأطوار، والسيّد والدك ليس مهرطقاً".

"وأنا لست ابنة زنى، كما أظنّ".
"إطلاقاً". كرّر لها ما قاله لأن شيلتون: "لقد تمّ إنجابك بنية حسنة. في وقتها، ظنّ والداك أنّهما متزوجان. ولا يعني هذا أنّ الزواج كان صحيحاً. أظنّ أنّك ترين الفرق".
فركت تحت أنفها بسبابتها. "أجل، أرى الفرق. ولكنّ الزواج كان صحيحاً في الواقع".

"ستأتي الملكة لزيارة ابنتها قريباً. أتمنى لو تلقين عليها التحية باحترام كما ينبغي لزوجة أبيك...".
"... باستثناء أنّها محظيته...".

"... عندها سيعيدك والدك إلى القصر، وتحصلين على كلّ ما ينقصك الآن، وعلى دفء وراحة المجتمع. أصغي إليّ، أنا أريد مصلحتك. الملكة لا تتوقع الحصول على صداقتك، هذا مجرد عرض شكلي. الجمي لسانك وانحني لها. لن يستغرق منك ذلك سوى لحظة، ولكنّه سيغيّر كلّ شيء. تصالحي معها قبل ولادة الطفل الجديد. فلو كان صبيّاً، فلن تحتاج إلى سبب للتصالح معك".
قالت ماري: "إنّها خائفة منّي، وستبقى خائفة، حتّى لو أنجبت صبيّاً. تخشى أن أتزوّج، وأن يهدّد أبنائي عرشها".
"وهل يتحدّث أحد إليك بشأن الزواج؟".

صدرت عنها ضحكة صغيرة جافّة، غير مصدّقة. "كنت طفلة رضيعة عندما زوّجت إلى فرنسا. ومن ثمّ من الإمبراطور، وإلى فرنسا مجدّداً، ومن الملك، ومن ابنه الأوّل، وابنه الثاني، وأبنائه الذين لم أعد أذكر عددهم، ومرة أخرى من الإمبراطور، أو أحد أقاربه. لقد تمّ الاتّفاق على زواجي مرّات عديدة حتّى شعرت بالإنهاك. ويوماً ما، سأتزوّج فعلاً".

"ولكنّك لن تتزوّجي من بول".
طرفت بعينيها، وأدرك أنّ الموضوع عُرض عليها: ربّما من قبل مربّيتها السابقة مارغريت بول، أو من قبل شابوي، الذي يسهر حتّى الفجر على دراسة جداول نسب العائلات الأرستقراطية البريطانية: ادم مطالبتها بالعرش، وضعها خارج دائرة اللوم، زوّج ابنة تيودور نصف الإسبانية إلى السلالة البلانطاجينية مجدّداً. قال: "لقد رأيت بول. عرفته قبل أن يغادر المملكة، وهو ليس الرجل الملائم لك. أيّاً يكن الرجل الذي تتزوّجينه، فأنت بحاجة إلى رجل قويّ بارع في استخدام سيفه. بول هو أشبه بامرأة عجوز تجلس قرب الموقد. لا يجري في عروقه سوى قليل من الدماء المبرّجة، ويقال

إنّه يبكي بحرقة إن قتل أحد خدمه ذبابة".
ابتسمت، واضعة يدها على فمها. قال: "هذا صحيح، لا تخبري أحداً".
قالت من خلف يدها: "لا يمكنني أن أرى كي أقرأ".
"ماذا؟ ألا يحضرون لك الشموع؟".
"كلاً، أعني أنّ نظري يضعف، فرأسي يؤلمني طيلة الوقت".
"هل تبكين كثيراً؟". هزّت رأسها إيجاباً. "سيحضر لك د. باتس علاجاً. بانتظار ذلك، اطلبي من أحدهم أن يقرأ لك".
"إنّهم يفعلون، يقرأون لي كتاب تيندايل المبجل. هل تعرف أنّ الأسقف تونستول وتوماس مور عثرا على ألفي خطأ في هذا الكتاب؟".
كان يرى دموعها تتجمّع في عينيها. "يمكن تصحيح كلّ هذا". تقدّمت نحوه متعثّرة، وفكّر للحظة في أنّها ستنسى نفسها وتبكي على كتفه. "سيحضر الطبيب خلال يوم. والآن يجب أن تحسلي على نار مناسبة للتدفئة، وتتناولي عشاءك، أينما طاب لك ذلك".

"دعني أرى والدتي".
"لا يستطيع الملك أن يسمح بذلك الآن، ولكنّ الوضع قد يتغيّر".
"أبي يحبّني، ولكنّ تلك المرأة البائسة هي من يسمّم أفكاره".
"ستكون الليدي شيلتون طيّبة معك، إن أتحت لها الفرصة".
"من هي لتكون طيّبة أو لا؟ سأتمكّن من تحمّل آن شيلتون، صدّقني، وكذلك ابنة أخيها، وكلّ من يقف في وجه لقي. ليفعلوا ما يحلو لهم، أنا شابّة، وأستطيع الوقوف في وجوههم".
استأذن للانصراف. تبعه غريغوري، ولكنّه ظلّ ينظر مذهولاً إلى الفتاة التي استعادت مجلسها قرب الموقد المطفأ، والتي شبكت ذراعيها، وبدأت تنتظر، بتعبير جامد.

قال غريغوري: "يبدو فراء الأرنب الذي تلفّ نفسها به وكأنّه متآكل".
"إنّها ابنة هنري بالتأكيد".
"لماذا؟ هل ثمة من يقول عكس ذلك؟".
ضحك. "ليس هذا ما عنيته. تخيّل... لو أنّ الملكة السابقة وقعت في الزنى، لكان من السهل التخلّص منها، ولكن كيف تُخطأ امرأة لم تعرف يوماً سوى رجل واحد؟".
قال في نفسه: من الصعب حتّى على أقرب مؤيدي الملك أن يذكروا أنّ كاثرين كانت

زوجة الأمير آرثر. "سوى رجلين، بالأحرى". حوّل نظره إلى ابنه. "لم تنظر إليك ماري أبداً، يا غريغوري".

"وهل ظننت أنّها كانت ستفعل؟".

"وجدتك الليدي براين وسيماً جداً. أليس هذا من طبيعة الفتيات الشابات؟".
"لا أظنّ أنّها تملك طبيعة".

"اطلب من أحدهم إشعال النار، وأنا سأمر لها بالعشاء. "لا يمكن أن يقبل الملك أن تتصوّر جوعاً".

قال غريغوري: "أنت تعجبها، وهذا غريب".

لاحظ أنّ ابنه يتكلّم بجديّة. "أهذا مستحيل؟ أظنّ أنّ ابنتي كانتا تحبّانني. يا لغرايس الصغيرة المسكينة، لا أظنّ أنّها عرفتني".

"أحبّتك عندما صنعت لها الجناحين للعب دور مسرحي. قالت إنّها ستحتفظ بهما دائماً". أشاح ابنه بنظره، وبدا وكأنّه خائف منه. "يقول رايف إنك ستصبح قريباً الرجل الثاني في المملكة. برأيه، أنت كذلك منذ الآن، باستثناء اللقب. يقول إنّ الملك سيمنحك مركزاً أعلى من مركز قاضي القضاة، وأعلى من الجميع، حتّى نورفولك".
"رايف يستبق الأمور. اسمع يا بنيّ، لا تتحدّث عن ماري لأيّ كان ولا حتّى لرايف".

"هل سمعت أكثر ممّا ينبغي؟".

"ماذا سيحدث برأيك إن مات الملك غداً؟".

"سنأسف جميعنا على رحيله".

"ولكن من سيحكم؟".

أشار غريغوري برأسه نحو الليدي براين، نحو الطفلة النائمة في سريرها. "هذا ما صدر عن البرلمان، إمّا هي، أو طفل الملكة الذي لم يولد بعد".
"ولكن ما الذي سيحدث عملياً؟ طفل لم يولد بعد؟ أم بنت بعمر الستة أشهر؟ أن وصيّة على العرش؟ هذا سيروق لآل بولين، بالتأكيد".
"إذاً، فيتزروي".

"ثمّة شخص من أسرة تيودور مؤهّل أكثر للحكم".

حوّل نظر غريغوري مجدّداً نحو الليدي ماري. قال: "بالضبط. اسمع، يا غريغوري، من الحكمة التخطيط لما ستفعله خلال ستّة أشهر، ولما ستفعله خلال عام، ولكن ليس من الحكمة أبداً ألاّ تضع خطة للغد".

جلس بعد العشاء يتحدّث إلى الليدي شيلتون. كانت الليدي براين قد خلدت إلى السرير، ثمّ نزلت مجدّداً لمضايقتها. "ستشعران بالتعب في الصباح؟". وافقتها أنّ شيلتون وهي تلوّح بيدها قائلة: "أجل، في الصباح، لن نفعل شيئاً. سنزمي إفطارنا على الأرض".

جلسا يتحدّثان إلى أن انسحب الخدم إلى غرفة أخرى، وانطفأت الشموع. فانتقلا إلى داخل المنزل، إلى غرفة أصغر وأكثر دفئاً، لمتابعة الحديث. قالت له: "أعطيت ماري نصيحة جيّدة، وأتمنى أن تأخذها في الاعتبار، فأنا أخشى أنّ أوقاتاً عصيبة بانتظارها". تحدّثا عن شقيقها توماس بولين: "إنّه أكثر الرجال الذين عرفتهم أنانية، ولا عجب أن تكون أنّ بهذا الجشع، فهي لم تسمع منه سوى كلام عن المال وكيفية استغلال الناس. ما كان ليتردّد ببيع ابنتيه عاريتين في سوق بربري للعبيد لو عرف أنّهما ستعودان عليه بمبلغ جيّد من المال".

تخيّل نفسه محاطاً بأتباعه، يقدّم سعراً لشراء ماري بولين. ابتسم، وحوّل انتباهه مجدّداً إلى عمّتها. أخبرته أسراراً عن أسرة بولين، أمّا هو فلم يبّح لها بأيّ أسرار، مع أنّها ظنّت العكس.

كان غريغوري نائماً عندما دخل عليه، ولكنّه تقلّب في فراشه قائلاً: "أين كنت يا أبي العزيز؟ هل ذهبت إلى السرير مع الليدي شيلتون؟". هذه الأمور كانت تحدث، ولكن ليس في أسرة بولين. "لا شكّ في أنّك رأيت حلماً غريباً. الليدي شيلتون متزوّجة منذ ثلاثين عاماً".

تمتم غريغوري: "ظننت أنّي أستطيع الجلوس مع ماري بعد العشاء، إن لم أقل شيئاً غير مناسب. ولكنّها ساخرة جدّاً، ولم أستطع مجالسة فتاة ساخرة إلى هذا الحدّ". تقلّب في فراشه المحشوّ بالريش، واستغرق في النوم مجدّداً.

عندما استعاد فيشر حسن إدراكه، وطلب العفو، توّسل الأسقف العجوز إلى الملك كي يأخذ في الاعتبار مرضه وعجزه. أشار الملك إلى أنّ قرار التجريد من الحقوق المدنية ينبغي أن يأخذ مجراه، ولكن من عادته أن يمنح العفو للأشخاص الذين يقرّون بخطأهم.

الفتاة سنّشوق. لم يقل شيئاً عن كرسيّ العظام البشرية. قال لهنري إنّها توقّفت عن الشعوذة، وتمنّى ألا تكذّبه في تايبرن، عندما يُلفّ حبل المشنقة حول عنقها. عندما ركع المستشارون أمام الملك، ورجوه حذف اسم توماس مور من القرار، وافق على ذلك. ربّما كان ينتظر من يقنعه. لم تكن أنّ حاضرة، وإلاّ لاختلّفت

الأمر.

نهضوا وخرجوا ينفضون ملابسهم. شعر أنه سمع الكاردينال يضحك منهم، من إحدى زوايا الغرفة. لم تتأثر كرامة أودلي بالموقف الذي وُضع فيه، ولكنّ الدوق بدا متوتراً. فعندما حاول النهوض، خانته ركبته العجوزتان، فرفعه هو وأودلي بمرفقيه، وساعده على الوقوف على قدميه. قال: "ظننت أنني سأبقى في مكاني لساعة أخرى أتوسّل إليه وأستعطفه".

قال لأودلي: "المضحك أنّ مور لا يزال يتقاضى راتباً من الخزينة. أظنّ أنّ هذا الأمر كان ينبغي أن يتوقّف".

"أصبح لديه مجال للتنفّس الآن، وأنا أدعو الله كي يتعقّل. هل رتبّ أمره؟".

"حوّل ما أمكنه من أملاك إلى أولاده، هذا ما أخبرني به روبر".

قال الدوق: "آه منكم، أيّها المحامون! هل ستعتنون بي إن سقطت يوماً؟".

كان نورفولك يتصبّب عرقاً، فخفّف من سرعته، وكذلك فعل أودلي، حتّى أصبحوا يمشون الهويناء، وخلفهم كرانمر، وكأنّ فكرة خطرت في البال بعد فوات الأوان. التفت وأخذ ذراعه. لقد حضر جميع جلسات البرلمان، محتلاً مقعد الأساقفة الذين قلّ عددهم على نحو ملحوظ.

اختار البابا هذا الشهر، الذي عرض فيه مشروعات قوانينه العظيمة على البرلمان، كي يصدر حكمه أخيراً في قضية زواج كاثرين، هذا الحكم الذي أجّله طويلاً حتّى ظنّ أنّ كليمنت سيموت قبل أن يتخذ قراراً. وجد كليمنت أنّ الإعفاءات الأساسية كانت صحيحة، وبالتالي الزواج صحيح. راح مؤيدو الإمبراطور يطلقون الألعاب النارية في شوارع روما. تصرّف هنري بازدرء وسخرية إزاء الحكم، وعبر عن مشاعره بالرقص. راقصته آن، مع أنّ بطنها بدأ يظهر؛ سيكون عليها تمضية الصيف بهدوء. تذكّر يد الملك على خصر ليزي سيمور. لم يحدث شيء بسبب ذلك، فالشابة ليست حمقاء. كان يراقص الآن ماري شيلتون الصغيرة، يرفعها ويداعبها ويضمها ويغدق عليها بالمجاملات. هذه الأمور لا تعني شيئاً. رأى أنّ ترفع ذقنها وتحوّل بصرها وهي تستند إلى ظهر مقعدها، متممة بتعليق، بتعبير ماكر. احتكّ وشاحها للحظة عابرة بسترة فرانسيس ويستون، المبتسم طيلة الوقت. من الواضح أنّ آن تجد أنّ عليها احتمال ماري شيلتون وملاطفتها. فمن الآمن أن يلهو الملك مع بنات العمّة، عندما تكون الأخت بعيدة. أين ماري بولين؟ إنّها في الريف، تواقّة مثله ربّما إلى طقس أكثر دفئاً.

حلّ فصل الصيف، من دون أن يسبقه ربيع. حلّ فجأة صباح يوم اثنين، وكأنّه خادم جديد مشرق الوجه: 13 نيسان/إبريل. كان هو وأودلي ورئيس الأساقفة في لامبيث، وكانت الشمس تسطح بقوة عبر النوافذ. وقف يتأمل حدائق القصر. هكذا كان يُستهلّ كتاب **المدينة الفاضلة**: أصدقاء يتسامرون في الحديقة. كان هيوغ لا تيمر وبعض قسيسي الملك يتقاتلون في ممرّات الحديقة، من باب اللهو، ويتدافعون مثل طلاب المدارس، وهيوغ متعلّق بعنقي اثنين من رجال الدين من زملائه، بحيث ارتفعت قدماه عن الأرض. لم يكونوا بحاجة سوى إلى كرة قدم لتمضية عطلة مسليّة. قال: "سيد مور، لماذا لا تخرج وتستمع بأشعة الشمس؟ سنستدعيك مجدداً بعد نصف ساعة، لتقسم مرّة أخرى وتعطينا جواباً مختلفاً، اتفقنا؟".

سمع مفاصل مور تطقطق وهو يقف. قال: "لقد ركع توماس هاورد على ركبتيه من أجلك!". بدا ذلك وكأنّه حدث منذ أسابيع عدّة. مع أنّ الجلسات المتأخّرة والتجذيف كلّ صباح أتعبته، إلّا أنّها قوّت حواسّه أيضاً، وهو يدرك الآن أنّ كرانمر، الواقف خلفه في الغرفة، يعيش حالة قلق شديد، ويريد أن يغادر مور المكان قبل أن يفقد أعصابه.

قال مور: "لا أعرف ما يمكن لنصف ساعة أن تفعله بي". تكلم بنبرة مرتاحة، مماًزحاً. "بالطبع، من شأنها أن تفعل شيئاً لك".

كان مور قد طلب رؤية نسخة عن قانون الإرث. وكان أودلي يبسطه أمامه، فأحنى رأسه وبدأ يقرأ، مع أنّه قرأه عشرات المرّات من قبل. قال مور: "ممتاز، ولكن أنا واثق من أنّني كنت واضحاً. لا أستطيع أن أقسم، ولكنني لن أقول شيئاً ضدّ قسمك، ولن أحاول إقناع أحد بالامتناع عنه".

"هذا ليس كافياً، وأنت تعرف ذلك".

هزّ مور رأسه موافقاً. مشى نحو الباب شاردأً، ومرّ أولاً أمام زاوية الطاولة، فأجفل كرانمر، ومدّ ذراعه لتثبيت الحبر. خرج مغلقاً الباب خلفه.

"إذا؟".

لفّ أودلي نصّ القانون. راح يطرق به بخفّة على الطاولة، وهو ينظر إلى المكان الذي كان مور يقف فيه. قال كرانمر: "اسمع، لديّ فكرة. ماذا لو تركناه يقسم سرّاً؟ يقسم، ولكننا نعهده بعدم إخبار أحد؟ أو إن لم يكن بإمكانه أن يقسم على هذا الأمر، نسأله على ماذا يستطيع أن يقسم؟".

انفجر ضاحكاً.

قال أودلي متتهداً: "هذا لن يرضي الملك". تابع وهو يطرق على الطاولة: "بعد كل ما فعلناه من أجله ومن أجل فيشر. الآن وقد حُذِف اسمه من قرار التجريد من الحقوق المدنية، وعُزِم فيشر عوضاً من السجن مدى الحياة، ماذا يريدان بعد؟ لقد ضاعت جهودنا هباءً".

قال: "آه، حسناً، بورك صانعو السلام". كان يرغب في قتل أحدهم.
قال كرانمر: "سنحاول مع مور من جديد. إن رفض، فعليه أن يعطي أسباباً على الأقل".

شتم في سرّه والتقت بعيداً عن النافذة: "نحن نعرف أسبابه، أوروبا بأسرها تعرفها. إنّه يعارض القضاء، ولا يعتقد أنّ الملك يمكن أن يتراًس الكنيسة. ولكن هل سيقول ذلك؟ لن يفعل، أنا أعرفه. هل تعرفان ماذا أكره؟ أكره أن أكون جزءاً من هذه المسرحية، التي اخترعها هو بأكملها. أكره الوقت الذي يضيع والذي يمكن الاستفادة منه بشكل أفضل، لأنّه يمكن استخدام العقول لغايات أفضل، وأكره رؤية حياتنا تنقضي، لأننا سنشيخ كلنا قبل أن تبلغ مراحلها الأخيرة. وأكثر ما أكره، هو جلوس السيّد مور بين الحضور وإطلاقه الملاحظات الساخرة عندما أزلّ وأنا أقرأ، لأنّه كتب جميع الأجزاء، وكتبها منذ سنوات عديدة".

سكب له كرانمر كأساً من الشراب، وكأته خادم، وتوجّه نحوه. "اشرب هذه الكأس". في يد رئيس الأساقفة، لم يكن ممكناً لكأس الشراب مساعدة إنسان لا يعتقد بالسرّ المبجل: هذا ليس شراباً ممزوجاً بالماء، بل هو مزيج مشبوه، هذا دمي، هذا مثل دمي، هذا تقريباً مثل دمي، فعلوا ذلك إحياءً لذكراي. أعاد إليه الكأس. صنع سگان ألمانيا الشمالية شراباً أكثر قوّة يدعى آكوافيتا. جرعة واحدة من ذلك الشراب كانت لتفيده أكثر. قال: "أدخلوا مور مجدّداً".

بعد لحظة، كان مور يقف عند الباب، وهو يعطس بلطف. قال أودلي مبتسماً: "هيا ادخل، ما هكذا يصل الأبطال".

قال مور: "أوكد لك، أنا لا أنوي أن أكون بطلاً. كانوا يجزّون العشب". غطّى أنفه وعطس مجدّداً، ثمّ مشى بتثاقل نحوهم، وهو يشدّ معطفه حول كتفيه. جلس في المكان المخصّص له، حيث رفض الجلوس منذ وقت قصير.

قال أودلي: "هذا أفضل، عرفت أنّ الهواء المنعش سيفيدك". نظر إلى كرومويل، يدعو للجلوس، ولكنّه أشار إلى أنّه سيبقى حيث هو، متكئاً على النافذة. قال أودلي، بمرح: "لا أفهم. في البداية، أحدكما أبي الجلوس، والآن حان دور الآخر. انظر"،

ودفع ورقة نحو مور، "هذه هي أسماء الكهنة الذين قابلناهم اليوم، والذين أقسموا على القانون، يجب أن يكونوا مثلاً لك. وكما تعرف، جميع أعضاء البرلمان موافقون عليه. فلماذا لا تحذو حذوهم؟".

نظر إليه مور من تحت حاجبيه. "هذا الموقف لا يناسبني".

قال: "يناسبك أكثر من المكان الذي تتجه نحوه".

قال مور مبتسماً: "لست ذاهباً إلى الجحيم، أوكد لك ذلك".

"إذاً، إن كانت اللعنة ستصيبك نتيجة هذا القسم، فماذا عن كل هؤلاء؟". ابتعد عن الجدار وتوجّه نحوه، ثم انتزع لائحة الأسماء من أودلي، ولقها، وصفقها على كتف مور. "هل هم جميعاً ملعونون؟".

"لا يمكنني التحدّث عن ضمائرهم، بل عن ضميري وحدي. أعرف أنني إن أقسمت على هذا القانون، فسأكون ملعوناً".

قال: "بعض الناس يحسدونك على نفاذ بصيرتك في الأمور الدينية".

انحنى أودلي إلى الأمام. "فلنكن واضحين. أنت ترفض تأدية القسم لأنّ ضميرك يعارض ذلك؟".

"أجل".

"هل من الممكن أن تكون إجاباتك أوسع إدراكاً بعض الشيء؟".

"كلاً".

"تعترض من دون أن تعطي سبباً؟".

"أجل".

"هل مسألة القانون هي التي تعترض عليها، أم شكل القسم، أم هي مسألة القسم بحدّ ذاتها؟".

"أفضل عدم الإجابة".

قال كرانمر: "في المسائل الضميرية، ثمّة دائماً نسبة من الشكّ...".

"آه! ولكن هذه ليست نزوة. لقد شاورت عقلي طويلاً، وفي هذه المسألة، أسمع

صوت ضميري بوضوح". أمال رأسه مبتسماً. "أليس الأمر كذلك معك، سيدي؟".

"مع ذلك، لا بدّ من وجود بعض الخيرة. عليك أن تسأل نفسك، كعالم معتاد على

الجدال والنقاش، كيف يمكن لكل هؤلاء الرجال المتعلّمين أن يجتمعوا على رأي واحد

وأكون أنا من رأي معارض؟ ولكنّ ثمّة أمراً مؤكّداً، وهو أنّك تدين بطاعة طبيعية

لملكك، مثل أي فرد من أفراد الرعيّة. كذلك، عندما انضمت إلى مجلس شوري

الملك، قبل سنوات طويلة، أقسمت على أمر محدّد، وهو طاعته. إذاً، ألن تنفذ؟" طرفت عينا كرانمر. "تخلّ عن شكوكك أمام هذا اليقين وأقسم". استند أودلي إلى ظهر كرسيه، وأغمض عينيه وكأنّه يقول: لن نصل إلى أفضل من ذلك.

قال مور: "عندما رُسمت رئيس أساقفة، من قبل البابا، أقسمت في روما. ولكن يقال إنّك تحمل بيدك طوال اليوم، وفي جميع المراسم الاحتفالية، ورقة صغيرة مطوية تقيّد أنّك أقسمت قسراً. أليس هذا صحيحاً؟ يقال إنّ الورقة كتبها السيّد كرومويل هنا". فتح أودلي عينيه فجأة. فكّر في أنّ مور وضع حدّاً للاجتماع. ولكنّ وجه مور المبتسم كان مكسوّاً بقناع من المكر. قال بلطف: "لن أكون محتالاً مثلك. لن أشارك في مسرحية مخادعة من هذا النوع، لا أمام الله ولا أمام إنكلترا. إن قلتم إنّ معكم الأكثرية، فأنا أقول لكم، معي الأكثرية. إن قلتم إنّ البرلمان يدعمكم، فأنا أقول لكم إنّ القديسين هم من يدعمونني، فضلاً عن جميع أرواح المسيحيين الأموات، بقدر ما تعاقب من أجيال منذ أن تأسست الكنيسة، جسداً واحداً، غير مقسّم...".

قال: "آه، بالله عليك! الكذبة لا تتحوّل إلى حقيقة لمجرّد أنّ عمرها ألف سنة. لطالما لاحقت كنيستك غير المقسّمة أعضائها، أحرقتهم وقطعتهم إرباً عندما أصغوا إلى أصوات ضمائرهم، بقّرت بطونهم وأطعمت أحشاءهم للكلاب. تستنجد بالتاريخ، ولكن ما هو التاريخ بالنسبة إليك. إنّهُ مرآة تمدح توماس مور. ولكن لديّ مرآة أخرى، تُظهر رجلاً مغروراً وخطيراً، وعندما أديرها، تُظهر قاتلاً، لأنّك ستجرّ معك عدداً من الأشخاص لا يعرف به سوى الله، ولن ينتظرهم سوى العذاب. أنت لست روحاً بسيطة، لذا، لا تحاول تبسيط هذا الأمر. هل تعرف أنّي احترمتك؟ احترمتك منذ أن كنت صغيراً؟ أفضل رؤية ابني الوحيد ميتاً، أفضل أن أرى رأسه يُقطع، على أن أراك ترفض تأدية هذا القسم، وتريح بال جميع أعداء إنكلترا".

نظر إليه مور. التقت نظراتهما لجزء من الثانية، ثمّ التفتت بعيداً. تتم بصوت منخفض: في إمكانه قتله لهذا السبب وحده. "غريغوري هو شابّ طيّب، لا تتمنى بعده. سيتحسّن مع الوقت، فأنا أقول الشيء نفسه عن ابني. ما الفائدة منه؟ ولكنّه يساوي أكثر من نقطة جدال".

هزّ كرانمر رأسه بحزن. "هذا ليس نقاشاً".

قال: "تحدّث عن ابنك، ماذا سيحلّ به؟ ماذا سيحلّ بابنتيك؟".

"سأوصيهم بأن يقسموا. فأنا لا أظنّ أنّهم يشاركونني شكوكي".

"هذا ليس ما أعنيه، وأنت تعرف ذلك. الجيل القادم هو من تخونه. هل تريد أن يدوس الإمبراطور على أعناقه؟ أنت لست بريطانياً".

قال مور: "بالكاد أنت كذلك. قاتلت مع الفرنسيين وعملت لحساب الإيطاليين. بالكاد نشأت في هذه المملكة قبل أن تقودك خطايا الصبا خارجها، فغادرتها هرباً من السجن، أو من حبل المشنقة. كلاً، سأخبرك من أنت، يا كرومويل. أنت إيطالي من البداية حتى النهاية، وتملك جميع عيوبهم وأهوائهم". استند إلى ظهر كرسيه وهو يضحك ضحكة خالية من المرح. "كنت أعرف أنّ هذا اللطف المتناهي سيزول في النهاية، مثل قطعة نقدية تداولتها الأيدي مراراً، إلى أن زالت قشرتها الفضيّة، وبدا أصلها المعدني".

ابتسم أودلي ابتسامة متكلّفة. "يبدو أنّك لم تلاحظ الجهود التي بذلها السيّد كرومويل في دار سك العملة. فالقطع النقدية التي تصدر من هناك دقيقة جداً". لم يكن قاضي القضاة قادراً على تجنّب الملاحظات الساخرة. كان كرانمر شاحباً ويتصبّب عرقاً، كما رأى نبض مور المتسارع في عنقه. قال: "لا نستطيع السماح لك بالعودة إلى البيت. مع ذلك، لا يبدو لي أنّك على طبيعتك اليوم، لذا، وعوضاً من إرسالك إلى البرج، سنضعك في وصاية رئيس دير ويستمينستر... هل يناسبك ذلك، يا سيادة أسقف كانتربوري؟".

هزّ كرانمر رأسه موافقاً. قال مور: "سيّد كرومويل، لا يجدر بي أن أسخر منك، أليس كذلك؟ فقد أثبتت أنّك صديق مميّز ومحّب".

أشار أودلي برأسه إلى الحارس الواقف عند الباب. نهض مور بهدوء، وكأنّ فكرة الوصاية منحته بعض الحيويّة. إلّا أنّ أثرها زال بسبب طريقته المعتادة في شدّ ملابسه حوله وجرّ قدميه، حتّى إنّه بدا وكأنّه يخطو إلى الخلف ويدوس على قدميه. فكّر في ماري في هاتفيلد، التي قامت عن مقعدها ونسيت أين كان. خرج مور أخيراً من الغرفة. قال: "والآن حصل على ما يريده بالضبط".

وضع راحته على زجاج النافذة، ونظر إلى الأثر الذي تركته على الزجاج القديم. كانت سحابة قد ارتفعت فوق النهر، وكان الجزء الأكبر من النهار بانتظارهم. مشى أودلي نحوه. وقف متردداً قربه. "فقط لو أنّ مور يشير إلى الجزء الذي يعترض عليه في القسم، ربّما أمكننا عندها إضافة جملة ترضيه".

"انس الأمر. إن أشار إلى أيّ شيء، قضى على نفسه. الصمت هو أمله الوحيد، مع أنّ الأمل ليس كبيراً".

قال كرانمر: "قد يقبل الملك بتسوية ما، ولكن أخشى أن الملكة سترفض. ولكن"، أضاف بضعف، "لماذا ترفض؟".

وضع أودلي يده على ذراعه. "عزيزي كرومويل، من يستطيع أن يفهم مور؟ أوصاه صديقه إيراسموس بالابتعاد عن الحكومة، لأنه لن يحتمل مشاقها، وكان علي حق. لم يكن يجدر به أبداً قبول المنصب الذي أحتهل أنا الآن. لم يقبل به، إلا نكايّة ببولزي الذي كان يكرهه".

قال كرانمر: "نصحه بتجنّب اللاهوت أيضاً، أم أنني مخطئ؟".
"على العكس، مور ينشر جميع الرسائل التي تأتيه من أصدقائه. وحتى عندما يؤنّبونه على ذلك، يمثّل دور المتواضع، ويقلب الميزان لصالحه. لقد عاش في العفن. كلّ فكرة عبرت ذهنه كتبت على الورق، ولم يحتفظ أبداً بسرّ حتى اليوم".
مدّ أودلي يده من أمامه وفتح النافذة. تجمّع سيل من زقزقة الطيور المغرّدة عند عتبة النافذة وانسكب في الغرفة في نوات سائلة سلسلة حملتها العاصفة.
قال: "أظنّ أنّه يكتب تقريراً عمّا حدث اليوم لإرساله إلى خارج المملكة وطبعه. أوكد لك أننا سنكون في نظر أوروبا حمقى وظالمين، وسيكون هو الضحية المسكينة".

ربّت أودلي على ذراعه. أراد مواساته، ولكن من يواسي من؟ إنّه السيّد كرومويل الذي لا سبيل إلى تعزيته: السيّد كرومويل الذي تجاوز معرفة البشر، والذي لم يكن ممكناً فهمه، ولا إلغاؤه على الأرجح.

في اليوم التالي، استدعاه الملك. ظنّ أنّه ينوي توبيخه لفشله في دفع مور على تأدية القسم. سأله: "من سيرافقني إلى هذا الاحتفال؟ السيّد سادلر؟".
حالما دخل إلى حضرة الملك، أشار هنري بحركة من ذراعه إلى مرافقيه لإفساح مكان وتركه وحده فيه. كان وجهه كالبركان. "كرومويل، ألم أكن سيّداً طيباً معك؟".
بدأ يتحدّث... بلباقة متناهية... ذكر قلّة جدارته المثيرة للحنن... إن قصر يوماً ما، فهو يلتمس العفو...

كان في إمكانه فعل ذلك طيلة النهار، فقد تعلّمه من وولزي.
قال هنري: "لأنّ سيادة رئيس الأساقفة يظنّ أنني لم أحسن معاملتك. ولكن"، تابع بنبرة من أسوء فهمه: "أنا أمير معروف بكرمي". كان كلامه محيراً. "سأعيّنك وزيراً. عليّ مكافأتك. لا أفهم لماذا لم أفعل ذلك منذ وقت طويل. ولكن أخبرني، عندما سألتك عن أسياد أسرة كرومويل الذين عاشوا في إنكلترا، قلت إنّه لا تربطك أيّ

علاقة بهم. هل فكرت جيداً؟".

"بصراحة، أنا لم أفكر في هذا الموضوع مرّة أخرى. أنا لا أحب أن أرتدي ملابس رجل آخر، أو أستعمل شعاره. قد يقوم من قبره ويتجادل في أمر يختلف عليه معي".
"يقول السيّد نورفولك إنك تستمتع بكونك من أصل ضيع. يقول إنك ابتكرت هذه القصة لتعذيبه". أخذ هنري ذراعه. وقال: "سيكون من المناسب لي، أينما ذهبنا، مع أننا لن نذهب بعيداً هذا الصيف بسبب وضع الملكة، أن تكون غرفتك مجاورة لغرفتي، كي نتحدّث كلّما احتجت إليك. وسأطلب، عند الإمكان، تأمين غرفتين متّصلتين لتسهيل الأمور". ابتسم لرجال البلاط، فاقتربوا كالموج. قال هنري: "فليهلكني الله إن قصدت إهمالك. أنا أعرف أصدقائي".

في الخارج، قال رايف: "فليهلكه الله... يا له من قسم رهيب". احتضن سيّده. "لقد انتظرنا ذلك طويلاً. ولكن اسمع، لديّ ما أخبرك به حين نصل إلى البيت".
"أخبرني الآن، أهو نبأ سارّ؟".

أتى سيّد وقال: "سيدي الوزير، مركبك بانتظارك لإعادتك إلى المدينة".

قال: "يجب أن أملك منزلاً مطلاً على النهر، مثل مور".

قال رايف: "وتترك أوستن فرايرز؟ ففكر في ملعب التنس، وفي الحدائق".

كان الملك قد قام بالاستعدادات سرّاً. فقد تمّت إزالة شعار غاردينر عن الطلاء، وارتفع علم يحمل شعاره قرب علم تيودور. وضع قدمه على مركبه للمرّة الأولى، وعندما أبحر في النهر، أخبره رايف بما لديه. كان اهتزاز المركب تحتها غير ملحوظ، وكانت الأعلام متهدّلة. فالهواء كان هادئاً في هذا الصباح الضبابي. وفي الأماكن التي يلتقي فيها الضوء بالبشرة أو الكتان أو الأوراق النديّة، كان يولد بريقاً مثل بريق قشرة البيض. كان العالم بأكمله مضيئاً، وزواياه أقلّ حدّة، وعطره مائياً وأخضر.

قال رايف: "أنا متزوّج منذ ستة أشهر، من دون علم أحد، ولكنك أصبحت تعرف الآن. لقد تزوّجت من هيلين بار".

قال: "ربّاه! تحت سقف بيتي. كيف فعلت ذلك؟".

جلس رايف وأصغى إلى تأنيبه بصمت: إنّها امرأة عادية جميلة، امرأة فقيرة لن تجلب لك أيّ مصلحة، كان في إمكانك الزواج من وريثة. انتظر حتّى يسمع والدك بالنبأ! سيقول إنني لم أحسن الاهتمام بك. "وماذا لو ظهر زوجها يوماً؟".

قال رايف وهو يرتجف: "قلت لها إنّها حرّة".

"من منا حرّ؟".

تذكّر ما قالته هيلين: "إذاً، أستطيع الزواج مجدّداً؟ إن رغب أحدهم في الزواج منّي؟". تذكّر كيف نظرت إليه، نظرة طويلة تفيض بالمعاني، ولكنّه لم يقرأها. كان من الممكن أن تتشقلب في الهواء، وما كان ليلاحظ، فقد شرد ذهنه بعيداً. تلك المحادثة انتهت بالنسبة إليه، وانتقل إلى أمر آخر. لو أردتها لنفسِي، وأخذتها، فمن كان ليلومني على الزواج من عاملة غسيل لا تملك فلساً، أو حتى من متسوّلة في الشوارع؟ لو فعلت لقال الناس، إذاً، هذا ما أراده كرومويل، امرأة جميلة نضرة وجسداً طرياً. لا عجب أن رفض بازدرء أرامل المدينة. لم يكن بحاجة لا إلى المال ولا إلى العلاقات، بإمكانه أن يتبع شهواته. إنّه الوزير الآن، وماذا بعد؟

حدّق إلى المياه، المتعكّرة تارة، والصفافية تارة أخرى، ولكنّها متحرّكة باستمرار، بما فيها من أسماك وأعشاب وغرقى يسبحون بأيديهم النحيلة. كان على الوحل والحصى مهمّلات معدنية وزجاجية وقطع نقدية صغيرة ملتوية أمّحت عنها وجوه الملوك. في إحدى المرّات، عثر على حدوة فرس في طفولته. فرس في النهر؟ سرّ جدّاً لأنّ حدوات الأفراس تجلب الحظّ على حدّ علمه. ولكنّ أباه قال له: "لو أنّ هذا صحيح، لكان الآن ملك كوكين*".

ذهب أولاً إلى المطبخ لإخبار ثورستون بالنبأ. قال الطباخ ببساطة: "حسناً، أنت تقوم بهذا العمل أساساً". ضحك مضيئاً: "لا شكّ في أنّ الغضب يتآكل الأسقف غاردينر الآن. أظنّ أنّ أحشائه تتقلّى بدهن جسده". نزع فوطة ملوّثة بالدماء عن صينية. "أترى طيور السمانى هذه؟ أظنّ أنّ الدبور يحتوي على لحم أكثر منها". اقترح عليه قائلاً: "ماذا لو سلقتها مع بعض الشراب المعطرّ؟".

"ماذا؟ ثلاث دزينات؟ سنضيع عليها كمية كبيرة من الشراب الجيّد. يمكنني أن أعدّ قليلاً من أجلك، إن شئت. لقد أرسلها اللورد ليسل من كاليه. عندما تكتب إليه، قل له، إن أراد إرسال دفعة أخرى، فلتكن أسمن من هذه، وإلاّ فلا يُرسل شيئاً. هل ستتذكّر؟".

أجابه بجديّة: "سأدوّن ملاحظة. اعتقدت أنّه من الآن فصاعداً، يمكن لأعضاء المجلس الاجتماع هنا أحياناً، إن لم يكن الملك حاضراً معنا. ويمكننا أن نقدّم إليهم العشاء أولاً".

ضحك ثورستون قائلاً: "صحيح، فساقا نورفولك الواهنتان بحاجة إلى قليل من اللحم".

"ثورستون، أنت لست مضطراً إلى تلوّث يديك، لديك ما يكفي من العمّال. في إمكانك أن تعلق سلسلة ذهبية، وتمشي مزهواً".

"أهذا ما ستفعله؟". نظر إليه ثورستون، ثم مسح الدماء عن أصابعه. "أظنّ أنني أفضل العمل بيديّ، خوفاً من تقلّب الدهر. أنا لا أقول إنّ هذا سيحدث، ولكن تذكر ما حلّ بالكاردينال".

تذكر نورفولك: "قل له أن يذهب شمالاً، وإلاّ أتيت ومزّقته بأسناني".

"هل يمكنني أن أستخدم كلمة عضضته؟".

تذكر المثل الذي مفاده: homo homini lupus، نحن نعيش في عالم تسود فيه شريعة الغاب.

قال لرايف بعد العشاء: "إذاً، لقد صنعت لنفسك اسماً يا سيّد سادلر. ستكون مثلاً يحتذى في كيفية إضاعة العلاقات الجيدة. سيشير الآباء إليك بالبنان لأبنائهم".

"لم أستطع مقاومة الأمر، سير".

"كيف لم تستطع؟".

قال رايف، بنبرة جافّة قدر ما استطاع: "أنا مغرم بها بجنون".

"وكيف يكون هذا الشعور؟ أهو مثل الغضب الذي يتملّك بجنون؟".

"أظنّ ذلك. ولكنّ الإحساس الأوّل يجعلك نابضاً بالحياة".

"لا أظنّ أنّه من الممكن أن أكون نابضاً بالحياة أكثر ممّا أنا الآن".

تساءل ما إذا كان الكاردينال قد عرف الحبّ يوماً. بالطبع فعل، كيف كان يشكّ في ذلك؟ فشغف وولزي بوولزي كان كافياً لإحراق إنكلترا بأسرها. "أخبرني، تلك الليلة بعد تتويج الملكة...". هزّ رأسه، وقلّب بعض الأوراق على مكتبه: رسائل من عمدة هول.

قال رايف: "سأجيب عن جميع أسئلتك. لا أفهم كيف كنت غير صريح معك، ولكنّ هيلين، زوجتي، اعتقدت أنّه من الأفضل التكتّم".

"ولكنّها الآن حامل، على ما أظنّ، لذا أنتما مضطّرّان إلى الإعلان عن زواجكما؟".

احمرّ وجه رايف.

"ذاك المساء، عندما أتيت إلى أوستن فرايرز بحثاً عنها، لأخذها إلى زوجة كرانمر... ونزلت"، شردت عيناه وكأنّه يرى المشهد، "نزلت من دون غطاء رأسها، وأنت في أعقابها، وكان شعرك مشعّناً، وبدوت غاضباً لأنّني سأخذها...".

قال رايف: "حسناً، أجل". زحفت يده لتسوية شعره، وكأنّ للأمر أهمية الآن. "كان الجميع قد ذهبوا إلى الاحتفالات، وكانت المرة الأولى التي أصطحبها فيها إلى السرير، ولكننا لم نخطئ في شيء. ففي ذلك الوقت، كنا قد اتفقنا على الزواج". ففكر في نفسه: أنا مسرور لأنني لم أربّ في منزلي رجلاً مجرداً من الأحاسيس، لا يفكر سوى في مصالحه الشخصية. فالحياة الخالية من النزوات تفتقر، إلى حدّ ما، إلى الفرح. وتحت جناحي، في إمكان رايف أن يجري أحياناً خلف نزواته. "اسمع يا رايف، الله يعلم أنّ ما فعلته حماقة، ولكنه ليس بكارثة. أخبر أباك أنّ نجاحي في هذا العالم سيضمن نجاحك. بالطبع، سيغضب ويصرخ في وجهك، فهذا ما خلق الآباء لأجله. سيصبح قائلاً: أنا نادم على اليوم الذي أرسلت فيه ابني إلى منزل كرومويل الفاسق. ولكننا سنراضيه تدريجياً".

كان الشاب واقفاً حتّى الآن، وهنا تهاوى على مقعد، ووضع يديه على رأسه، وأرجعه إلى الخلف. غمر الارتياح جسده بأكمله. هل كان خائفاً منّي إلى هذا الحدّ؟ "اسمع، عندما يرى أبوك هيلين، سيفهم، إلاّ إن كان..."، إلاّ إن كان ماذا؟ على المرء أن يكون ميتاً ومدفوناً تحت التراب كي لا يلاحظ جسدها الجميل والجريء، وعينيها اللطيفتين. "كلّ ما علينا فعله هو استبدال منزر القنّب الذي ترتديه بملابس تليق بالسيدة سادلر. وبالطبع، أنت تريد العيش في منزل بمفردك، وأنا سأساعدك على ذلك. سأفتقد إلى الطفلين، فقد أصبحت مولعاً بهما، وكذلك ميرسي، فجميعنا مولعون بهما. أما إن أردت لهذا الطفل أن يكون الطفل الأوّل في منزلك، يمكنهما المكوث هنا".

"هذا لطف منك، ولكن هيلين لن تفترق عنهما أبداً. نحن متقاهمان على ذلك". قال في نفسه: لن يكون ثمّة أطفال بعد الآن في أوستن فرايرز. حسناً، إلاّ إن أخذت إجازة من الملك وخرجت للتودّد إلى إحدى النساء، إلاّ إن أصغيت فعلاً عندما تتحدّث امرأة إليّ. "يمكنك استرضاء أبيك إن أخبرته أنّه من الآن فصاعداً، عندما لا أكون مع الملك، ستكون أنت معه. السيد ريوثسلي سيهتمّ بمضايقة الدبلوماسيين وكتابة الرسائل السريّة، فهذا عمل ماكر يناسبه. وريتشارد سيكون هنا للاهتمام بشؤون المنزل في غيابي وتسيير أعماله، وأنا وأنت سنسهر على راحة هنري، مثل مربّيتين لطيفتين، ونلبّي طلباته". ضحك مضيئاً: "أنت شابّ كريم الأصل، وقد يرقّيك إلى مركز مقرب من شخصه، في مجلسه الخاصّ. وهذا سيكون مفيداً لي". "لم أتوقّع حدوث ذلك، لم أخطّط له". نظر رايف إلى الأسفل. "لن أتمكن أبداً من

اصطحاب هيلين إلى البلاط".

"ليس إن ظلّ العالم على حاله، ولا أظنّ أنّه سيتغيّر في حياتنا نحن. ولكن اسمع، لقد قمت باختيارك، ويجب ألاّ تتدم أبدأً".

قال رايف، وقد بدا منفِعلاً: "كيف فكّرت في إخفاء سرّ عنك؟ أنت ترى كلّ شيء، سير".

"آه، إلى حدّ ما وحسب".

عندما خرج رايف، أخرج العمل الذي كان ينوي إنجازَه في المساء وبدأ به، على نحو منهجي، يرتّب الأوراق في مكانها. تمّ إصدار مشروعات قوانينه، ولكنّ ثمة دائماً مشروعاً آخر. فعندما كنت تكتب القوانين، تختبر الكلمات وقوتها القصوى. فهي كانت تهدف، شأنها شأن الطلاس، إلى جعل أشياء معينة تحدث في العالم الواقعي، ولكنّها لم تتجح إلاّ إن اعتقد الناس بها. فإن كان القانون يفرض عقاباً، يجب أن تكون قادراً على تطبيقه على الغنيّ والفقير، على الناس القاطنين على الحدود الاسكتلندية وأولئك الذين يعيشون في المستنقعات الويلزية، على أهالي كورنوال وعلى أهالي سوسيكس وكينت على السواء. كان قد كتب قسّمه، كاختبار ولاء لهنري، وينوي تحليف الرجال في كلّ بلدة وقرية، وجميع النساء مهما يكن شأنهنّ، سواء أكنّ أرامل ووريثات، أو مالكات أراضٍ. جاب رجاله السهول والمروج، وأخذوا عهداً من أناس بالكاد سمعوا بأن بولين أن يؤيّدوا خلافة الطفل الذي تحمله في أحشائها. إن رأيتم رجلاً يعرف أنّ الملك يدعى هنري، فحلفوه، ولا يهمّ إن خلط بين هذا الملك وبين أبيه، أو ملك يدعى هنري أتى سابقاً. فالأمراء تلاشوا من ذاكرة العامة مثل غيرهم من الأشخاص. وجوههم المحفورة على القطع النقدية التي نخلوها من الطمي عند ضفتي النهر، هي مجرد نتوءات تحت أصابعهم. وحتى عندما أخذوا القطع المعدنية إلى المنزل وحفّوها، لم يتعرّفوا إلى الوجه. سأل: "أهذا الأمير قيصر؟". أجابه والتر: "دعني أرى". ثمّ قذف القطعة بعيداً باشمئزاز، وقال له: "هذا ليس سوى فارذنج* صغير من أحد الملوك الذين قاتلوا في الحروب الفرنسية. اخرج من هنا واعمل، ولا تفكّر في الأمير قيصر. كان قيصر عجوزاً حين كان آدم غلاماً. حينئذٍ، راح يغنيّ ساخراً، فركض وراءه والتر وكان ليضربه لو قبض عليه: أيّها المتمرد الصغير، نحن نعرف ما نفعله بالتمرّدين هنا. كانوا يدفنون الكورنواليين الذين يأتون إلى البلاد في طفولته في قبور قليلة العمق، ولكنّ ثمة دائماً المزيد من الكورنواليين. وخلف كورنوال، وخلف مملكة إنكلترا، ومستنقعات ويلز الرطبة وأراضي

الحدود الاسكتلندية الوعرة، ثمّة مناطق أخرى يخشى ألاّ يتمكّن مفوضوه من بلوغها. فمن كان سيحلّف الأشباح والكائنات الغريبة التي تعيش في تجاويف الأشجار، والرجال المتوحّشين الذين يختبئون في الغابات؟

حدّق إلى الأوراق على مكتبه، ولكنّ أفكاره كانت تهيم بعيداً عنها. قالت ابنتي آن: "لقد اخترت رايف". خفض رأسه وأسنده بين يديه، وأغمض عينيه. وقفت أمامه آن كرومويل، وهي في سنّ العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، متحرّرة الفكر وعنيدة مثل محارب، عيناها الصغيرتان لا يرفّ لهما جفن، واثقة من قدرتها على صنع قدرها.

فرك عينيه وتفحص أوراقه. ما هذا؟ إنّها لائحة. لائحة حرّرها كاتب بخط دقيق، مقروءة ولكنّها غير مفهومة تماماً.

سجّادتان، إحداهما مقطّعة.

سبع ملاءات، وسادتان، مسند.

طبّقان كبيران، أربعة أطباق صغيرة، صحفتان.

طست صغير، وزنه اثنا عشر باونداً (الباوند يساوي 453 غراماً)، أخذته رئيسة الدير ودفعت أربعة شيلن.

قلب الورقة محاولاً معرفة مصدرها. اكتشف أنّها جردة ممتلكات إليزابيث بارتون التي تركتها في دير الراهبات. كلّها كانت ستصادر للملك، الأملاك الشخصية لخائنة، وهي عبارة عن: لوح من الخشب كان يستعمل كطاولة، ثلاثة أغطية للوسائد، شمعتين، ومعطف قدّر ثمنه بخمسة شلن. تمّ التبرع بعباءة قديمة إلى أصغر راهبة في ديرها. وحصلت راهبة أخرى، تدعى السيّدة أليس، على غطاء للسريّر.

قال لمور: "التجيم لم يجعلها ثرية". دوّن ملاحظة لنفسه: "تأمين مال للسيدة إليزابيث بارتون لدفع بقشيش للجلاد". لديها خمسة أيام بعد لتعيش. وآخر شخص تراه عندما كانت ترتقي السلم هو جلادها، الذي يمدّ لها يده. وإن لم تتمكّن من دفع ثمن رحلتها الأخيرة، فقد تتعذّب أطول ممّا ينبغي. تخيلت إليزابيث كم يستغرق احتراق الجسد، ولكنّها لم تتخيّل كم يستغرق الإنسان ليختنق وهو مدلّى من طرف حبل. إنكلترا لا ترحم الفقير، على المرء أن يدفع حتّى لدقّ عنقه.

أدّت عائلة توماس مور القسم. رآهم بنفسه، ولم تترك أليس مجالاً للشكّ في أنّها تعتبره مسؤولاً عن فشله في إقناع زوجها بالامتثال لأمر الملك. "أسأله ماذا يظنّ

نفسه فاعلاً بحقّ الله. اسأله: أهذا عمل ذكي؟ أیظنّ أنّه كذلك، أن يترك زوجته وحيدة، وابنه من دون ناصح، وبناته من دون حماية، وجميعنا تحت رحمة رجل مثل توماس كرومويل؟".

تمت ميغ وهي تبسم نصف ابتسامة: "سبق وقلت ذلك". خفضت رأسها، وأخذت يده بين يديها. "تحدّث عنك والدي بحرارة. كيف كنت لطيفاً معه وعطوفاً، وهي خدمة لن ينساها. يقول إنّّه یظنّ أنّك تفهمه، كما يفهمك".

"ميغ؟ بالطبع يمكنك النظر إليّ؟".

رأس آخر محنيّ تحت ثقل غطاء الرأس المثلث: شدّت ميغ وشاحها حولها، وكأنّها في مهبّ الريح، والشاح سيؤمّن لها الحماية.

"في إمكاني تأخير الملك يوماً أو يومين. لا أظنّ أنّه يتمنّى رؤية أبك في البرج، فهو يتطلّع في كلّ لحظة إلى إشارة...".

"استسلام؟".

"بل تأييد. وعندها... ما من شرف سيكون كثيراً عليه".

قال ويل روبر: "أشكّ في أنّ الملك يستطيع منحه الشرف الذي يسعى إليه، للأسف. هيّا ميغ، فلنعد إلى المنزل. علينا اصطحاب أمك إلى المركب قبل أن تقتعل شجاراً". مدّ روبر يده. "تعرف أنّك لست حقوداً، سير، مع أنّ الله يعلم أنّه لم يكن ودوداً مع أصدقائك".

"في وقت من الأوقات كنت من رأيه، أنت نفسك".

"من شأن الناس أن يغيّروا آراءهم".

"أوافقك تماماً. أخبر حماك بهذا".

افترقوا عند تلك الملاحظة الحادّة. قال في نفسه: لا يمكنني أن أتوقّع من توماس مور أو عائلته أن يفهموني. كيف لهم ذلك، ما دامت أعمالني خفيّة حتّى عنيّ أنا نفسي؟

دوّن ملاحظة: على ريتشارد كرومويل أن يذهب إلى رئيس دير ويستمينستر، لاصطحاب السير توماس مور، سجيناً، إلى البرج.

لم التردّد؟

فلنعطه يوماً آخر.

في 15 نيسان/أبريل 1534. استدعى موظفاً لترتيب أوراقه استعداداً للغد، وقف طويلاً قرب المدفأة يتحدّث. كان الوقت منتصف الليل، وقد ذابت الشموع. تناول

إحداها، وصعد إلى الطابق العلوي. كان كريستوف يشخر، ممدداً عند أسفل سريره الكبير والخالي. قال في نفسه: ربّاه، كم حياتي مضحكة. قال له هامساً: "انهض". وحين لم يجبه، راح يقلبه وكأنه فطيرة، إلى أن استيقظ الصبيّ، وهو يعترض بكلمات فرنسية بذيئة. "سيّدي، لم أعرف أنّك أنت، كنت أحلم أنّي فطيرة. سامحني، أنا لست في وعيي، فقد كنّا نحتفل بعقد قران هيلين الجميلة على رايف المحفوظ". رفع ذراعه وضمّ قبضته، وقام بحركة غاية في البذاءة. ثمّ تدلّت ذراعه، وانزلق جفناه نحو خديه، وبعد أن صدرت عنه حازوقة أخيرة، استغرق في النوم مجدداً.

جرّ الصبيّ إلى فراشه. كان كريستوف قد أصبح ثقيل الوزن الآن، بجسده الضخم الممتلئ. أنّ معترضاً، ولكنّه لم يستيقظ من جديد.

خلع ملابسه وتلا صلواته. ألقى رأسه على الوسادة: سبع ملاءات، وسادتان، مسند واحد. نام فور انطفاء الشمعة، ولكنّ ابنته زارته في المنام. مدّت يدها اليسرى بحزن، لتريه أنّها لا تضع خاتم زواج. جدلت شعرها الطويل ولفّته حول عنقها كالحبل.

منتصف الصيف: أسرعّت النساء إلى غرفة الملكة حاملات بياضات نظيفة مطوية بين أذرعهن. كانت وجوههنّ شاحبة ومصدومة وهنّ يمشين بسرعة من دون توقّف. أضرمّت النار في غرفة الملكة لإحراق ما نرّفته. وإن كان ثمة ما يمكن دفنه، فقد أبقتّه النساء سرّاً بينهنّ.

تلك الليلة، قال له هنري وهو رابض أمام نافذة مطلة على سماء مضاءة بنجوم كحيوان مقرّز: "كاثرين هي من كنت ألوم. أعتقد أنّها كانت تتمنّى لي السوء. الحقيقة أنّ رحمها لم يكن سليماً. خدعتني كلّ تلك السنوات، فهي لم تتمكّن من إنجاب ابن لي، وهي وأطبائها كانوا يعرفون ذلك. كانت تدّعي أنّها تحبّني، ولكنّها كانت تدمرني. أتت ليلاً بيديها الباردتين وقلبها البارد، ونامت بيني وبين المرأة التي أحبّها. تضع يدها على جسدي، يدها التي تفوح منها رائحة القبر".

أعطى أسياد وسيّدات المدينة المال للخادّمات والقابلات لمعرفة جنس الطفل، ولكنّ النساء أعطين إجابات مختلفة في كلّ مرّة. في الواقع، أيّ الأمرين هو الأسوأ، أن تكون آن قد حملت بفتاة أخرى، أم أن تكون قد حملت بذكر وأجهضته؟

منتصف الصيف: أشعلت النيران في مختلف أرجاء لندن، مضيئة لياليها القصيرة. مشت التنانين في الشوارع، وهي تنفث الدخان وتحركّ أجنحتها الآلية.

خارطة العالم المسيحي

1534-1535

سأله هنري: "هل تريد منصب أودلي؟ إنه لك إن أردت". كان الصيف قد انتهى، ولم يأت الإمبراطور. مات البابا كليمنت، وماتت معه أحكامه. والآن ستمّ تأدية اللعبة مجدّداً، وقد ترك الباب مشقوقاً، كي يقيم أسقف روما الجديد حواراً مع إنكلترا. شخصياً، كان ليصق الباب، ولكنّ هذه المسائل ليست شخصيّة.

فكّر بحذر، هل يناسبه أن يكون قاضي قضاة؟ من الجيّد احتلال منصب في الهرميّة القانونية، فلم لا يتربّع على القمّة؟ "ليست لديّ رغبة في إزعاج أودلي. إن كان جلالتم راضياً به، أكن راضياً أنا كذلك".

تذكّر كيف كان هذا المنصب يأسر وولزي في لندن حين يكون الملك خارجها. كان الكاردينال ناشطاً في المحاكم، ولكن لدينا ما يكفي من المحامين.

قال هنري: "أخبرني بما تراه الأنسب". كان خنوعاً كعاشق، وغير قادر على إيجاد الهدية الأفضل. قال: "أوصاني كرانمر قائلاً: أصغ إلى كرومويل، وإن احتاج إلى منصب، أو ضريبة، أو تدبير في البرلمان، أو تصريح ملكي، فأعطه إيّاه".

كان منصب رئيس السجلات خالياً. وهي وظيفة قضائية قديمة، تدير إحدى أعظم أمانات سرّ المملكة. كان الأشخاص الذين تولّوا هذا المنصب في السابق هم من المتعلّمين البارزين، ومعظمهم من الأساقفة، أولئك الذين يُدفنون في قبورهم، وتُنقش فضائلهم باللاتينية قربهم. أجمل اللحظات هي تلك التي يشدّ فيها حبة فاكهة ناضجة، وينتزعها من الشجرة.

قال هنري: "كنت محقّاً أيضاً بخصوص الكاردينال فارنيزي. لدينا الآن بابا جديد، بالأحرى أسقف لروما، وقد قبضتُ مراهناتي".

قال مبتسماً: "أرأيتم، كرانمر على حقّ. لا تهملوا نصيحتي". سرّ البلاط حين سمع كيف احتفل الرومان بموت البابا كليمنت. اقتحموا قبره، وجرّوا جثته العارية عبر الشوارع.

كان منزل رئيس السجلات في تشانسري لاين هو أغرب منزل دخله في حياته. كان عابقاً برائحة العفن والدهون الحيوانية، وخلف واجهته المعقوفة، بُنيت غرف صغيرة ذات أبواب منخفضة. هل كان أسلافنا جميعهم أقزاماً، أم أنّهم لم يكونوا

بارعين في بناء السقوف العالية؟

بُني هذا المنزل قبل ثلاثمئة عام، من قبل هنري الذي حكم في ذلك الزمان. وبناه كملجأ لليهود الذين رغبوا في اعتناق المسيحية. إن أخذوا هذه الخطوة، التي كانت مستحسنة تجنّباً للتعذيب، كانوا يصادرون جميع أملاكهم للتاج. وكان التاج يأويهم ويُطعمهم لبقية حياتهم الطبيعية.

سبقه كريستوف إلى المنزل. "انظر!". وجرّ إصبعه عبر شبكة عنكبوت كبيرة. "لقد دمرت بيتها، أيها الصبي الظالم". تفحص فريستها المفتتة: الساق، الجناح. "فلنذهب قبل أن تعود".

بعد خمسين عاماً من وقف هنري للمنزل، طُرد جميع اليهود من المملكة. غير أنّ هذا الملجأ لم يخلُ أبداً من السكان، وحتى اليوم تعيش فيه امرأتان. قال، سأناديهما. كان كريستوف يطرق على الجدران، وكأنّه يعرف عمّا يبحث. سأله بمرح: "ألن تقرّ هارباً لو ردّ إليك أحدهم الطريقة من الجهة الأخرى؟". هتف كريستوف: "آه، ربّاه! أظنّ أنّ مئات الأشخاص ماتوا هنا، يهوداً ومسيحيين على السواء".

بالفعل، شعر بأنّ خلف هذا الكساء الخشبي ترقد عظام الفئران، مئات الأجيال منها، وقد طوّت قوائمها الأمامية في نومة أبدية، بينما تنمو سلالتها: "في إمكاني اشتمام ذلك في الهواء. هذا عمل مناسب لمارلينسبايك، إن تمكنا من التقاطه". كان هرّ الكاردينال قد أصبح ضارياً الآن، يطوف على هواه في حدائق لندن، تجذبه رائحة سمك الشبوط من برك أديرة المدينة، يغيره الذهاب إلى النهر، لتضمّه المومسات إلى صدورهنّ المعطرة بالورد والعنبر. تخيل مارلينسبايك يخرخر متكاسلاً ويأبى العودة إلى المنزل. قال لكريستوف: "أتساءل كيف يمكنني أن أكون رئيساً للسجلات ما دمت عاجزاً عن إخضاع هرّ". "ليس للسجلات قوائم تمشي عليها". كان كريستوف يركل حافّة. قال: "علقت قدمي بها".

هل سيترك رخاء أوستن فرايرز ليعيش بين هذه النوافذ ذات الألواح المتداعية، والأرضيات التي تصدر صريراً كلّما داس عليها؟ قال: "ستكون الرحلة أقصر إلى ويستمينستر". طموحه هناك، واينتهول، ويستمينستر والنهر، مركب الوزير الذي ينقله جنوباً إلى غرينتش، أو شمالاً إلى قصر هامبتون. قال في نفسه: سأزور أوستن فرايرز غالباً، كلّ يوم تقريباً. كان يبني مستودعاً للأطباق الذهبية التي يأتمنه عليها الملك. كلّ ما يودعه هناك يمكن تحويله بسرعة إلى مال. كانت مدّخراته تصل عبر

الشارع محملة على عربات عادية، لعدم جذب الانتباه، على الرغم من وجود جنود يقظين. كانت الكؤوس توضع في علب جلدية مصنوعة خصيصاً لها. وتُنقل الأطباق والزبديات في أكياس من القنب، يفصل بينها قماش صوفي بسبعة بنسات للياردة الواحدة. وتُلفّ الجواهر بالحريز وتوضع في صناديق ذات أقفال جديدة براقّة، والمفاتيح في حوزته. كان بينها لآلئ كبيرة نديّة مثل المحيط، وأحجار ياقوت حارّة مثل الهند. كان بينها جواهر كالفاكهة التي تقطفها عصراً من الريف: عقيق كالبرقوق، ألماس ورديّ كثمر الورد البريّ. قالت أليس: "مقابل حفنة من هذه، أنا مستعدة للإطاحة بأيّ ملكة في العالم المسيحي".

"لحسن الحظ أنّ الملك لم يلتق بك، يا أليس".

قالت جو: "قريباً سأدخلها في رخص التصدير، أو عقود الجيش. أحدهم سيكوّن ثروة في الحروب الأيرلندية. بقول، دقيق، شعير، لحم أحصنة...".
قال: "سأرى ما أستطيع فعله من أجلك".

كان عقد إيجار أوستن فرايرز يمتدّ على تسعة وتسعين عاماً. كان سيبقى لأحفاد أولاده، الذين سيكونون لندنيين مجهولين. حين كانوا ينظرون إلى الوثائق، سيقرأون اسمه. سيُنقش شعاره فوق الأبواب. وضع يده على درابزين السلم الكبير، ونظر إلى الأعلى، إلى الغبار الذي لمع في ضوء الشمس المتسلّل من نافذة عالية. متى فعلت ذلك؟ في هاتفيلا، في بداية العام: نظرتُ إلى الأعلى، مصغياً إلى الأصوات الصادرة من منزل مورتون، منذ زمن بعيد. إن كان هو نفسه قد ذهب إلى هاتفيلا، أفلا يجب أن يكون توماس مور قد ذهب أيضاً؟ ربّما كان وقع خطاه الخفيفة هو ما توقّعه، فوقه؟

راح يفكّر مجدداً في تلك اللكمة التي باغته من المجهول.

فكّر في البداية بنقل الموظفين والأوراق إلى منزل رئيس السجلات، ليعود أوستن فرايرز منزلاً من جديد. ولكن لمن؟ كان قد أخذ كتاب مذكرات ليز، وفي الصفحة التي ذكرت فيها أسماء العائلة، قام بتعديلات وإضافات. قريباً كان سينتقل راييف إلى منزله الجديد في هاكني. وريتشارد كان يبني منزلاً في الجوار مع زوجته فرانسيس. أليس ستزوج من حارسه توماس رودهام. شقيقها كريستوفر رُسم كاهناً ومُنح رتبة كنسيّة. أمّا بالنسبة إلى جو، فقد أرسل بطلب فستان زفافها، بعد أن اختطفها منه صديقه جون رايس، وهو محام، وعالم، رجل يعجبه ويثق بولائه. قال في نفسه: لقد أحسنت الاهتمام بعائلتي. لم أترك أحداً منهم فقيراً، أو تعيساً، أو غير أكيد من مكانه

في هذا العالم المتقلب. تردّد، ونظر إلى الضوء الذي كان ذهبياً تارة، وأزرق تارة أخرى مع مرور سحابة. إن كان ثمّة من يرغب في النزول ومطالبته بشيء، فليفعل الآن. ابنته آن، بوقع قدميها الصاخبتين: كان سيقول لها: آن، ألا يمكنك انتعال خفّ من اللباد؟ غرايس تنزلق مثل الغبار، تدور برشاقة في دوامة... لا تذهب إلى أيّ مكان، بل تتبدّد، وتختفي.

ليز، انزلي.

ولكنّ ليز تلزم الصمت، لا تبقى ولا ترحل. هي دائماً معه وليست معه. التقت بعيداً. إذأ، سيصبح هذا المنزل مكان عمل، كما ستصبح جميع منازلها أماكن عمل. منزلي هو حيث تكون كتبي وأوراقي، وإلاّ يكون منزلي مع الملك، حيثما يكون. قال كريستوف: "والآن سننتقل إلى منزل رئيس السجلات، وأودّ، يا سيدي العزيز، أن أعبّر لك عن مدى سعادتي لأنك لم تتركني خلفك. ففي غيابك يسخرون مني قائلين إنّ لديّ عقل حلزون، ورأس لفت".

نظر إلى كريستوف. "حسناً... رأسك هو بالفعل مثل حبة اللفت. أشكرك للفت انتباهي إلى ذلك".

بعدما استقرّ في بيت السجلات، تأمّل في وضعه: مرض. كان قد باع قصره في كينت، ولكنّ الملك أعطاه قصراً في موناوثشاير، وهو يشتري آخر في إسكس. وكان يرغب في شراء قطع أرض في هاكني وشورديتش، كما كان يستأجر ممتلكات حول أوستن فرايرز، ينوي تطويقها في مخططات البناء الخاصّة، ليبنى بعد ذلك سوراً كبيراً حول أملاكه. وكان سيقوم بمعاينة قصر في بيدفوردشاير، وآخر في لينكولنشاير، ومنزليين في إسكس ينوي شراءهما لغريغوري. وكلّ هذا ليس سوى القليل، إنّهُ لا شيء مقارنة بما ينوي امتلاكه، أو بما سيدين له به هنري.

في هذه الأثناء، من شأن نفقاته أن تخيف رجلاً أقلّ شأناً. إن كان الملك يريد فعل شيء، فعليك أن تكون قادراً على تأمين العمّال والتمويل. من الصعوبة بمكان تغطية نفقات مستشاريه النبلاء، ومع ذلك، ثمّة عدد منهم يعيشون على الرهن ويأتون إليه شهرياً لترقيع حساباتهم. يعرف متى يحرك تلك الديون، فثمّة أكثر من عملة واحدة في إنكلترا. كان يشعر بأنّ شبكة عظيمة تنتشر حوله، شبكة من الخدمات المبذولة والخدمات المتلقاة. فمن كانوا يرغبون في الوصول إلى الملك، يتوقّعون أن يدفعوا مقابل ذلك، وما من شخص مقرب من الملك أكثر منه. في الوقت نفسه، ردّد الناس العبارة التالية: ساعدوا كرومويل، فسيساعدكم. كن مخلصاً، مجتهداً، وذكياً لحسابه

فستحصل على المكافأة. فمن كانوا يخدمونه يحصلون على الترقية والحماية. إنّه صديق طيّب وسيّد طيّب، هذا ما كان يُقال عنه في كلّ مكان. في ما عدا ذلك، تردّدت الإشاعات المعتادة. كان أبوه حدّاداً، بائع شراب نصّاباً، كان إيرلندياً، كان مجرماً، كان يهودياً، وهو نفسه كان مجرد تاجر أصواف، جزازاً، وهو الآن مشعوذ. فكيف يمكن لغير المشعوذ أن يمسك زمام السلطة بيده؟ كتب شابوي عنه للإمبراطور قائلاً إنّ بدايات حياته تبقى غامضة، ولكنّه رفيق ممتاز، يؤمّن لأهل بيته وخدمه حياة رائعة. كتب شابوي، إنّه أستاذ في اللغة، يمتاز بالفصاحة، ولكنّه أضاف: مع أنّ فرنسيّته مقبولة وحسب.

فكر في نفسه قائلاً: هذا كافٍ بالنسبة إليك. تكفيك هزة رأس وغمزة. في هذه الشهور الأخيرة، ظلّ المجلس تحت السيطرة. فبعد صيف شاقّ من المفاوضات، تمّ التوصل إلى معاهدة مع الاسكوتلنديين. ولكنّ أيرلندا في حالة ثورة. وحده قصر دبلن وبلدة واترفورد صمدا إلى جانب الملك، بينما راح قادة الثوار يقدّمون الخدمات والملاجئ إلى جيوش الإمبراطور. من بين تلك الجزر أراضٍ شديدة البؤس، لم تدفع للملك ما تكلفه حمايتها، ولكنّه لم يستطع أن يدير لها ظهره، خشية خسارتها. كان القانون بالكاد سائداً هناك، ذلك أنّ الأيرلنديين اعتقدوا أنّه من الممكن اجتناب الجريمة بالمال، وشأنهم شأن الوولزيين، كانوا يعوّضون عن حياة الرجل بالماشية. يتمّ إبقاء الناس في حالة فقر من خلال الضرائب، والمصادرات، والسرقة في ضوء النهار. ومع أنّ البريطانيّين المتديّن كان يمتنع عن تناول اللحوم يومي الأربعاء والجمعة، يُقال من باب المزاح أنّ الأيرلنديين متديّنون إلى حدّ أنّهم كانوا يمتنعون عنها بقية أيام الأسبوع أيضاً. أسيادهم هم رجال قساة ومستبدون، غشاشون ومتقلّبون، إقطاعيون متأصلون، مبتزّون كانوا يأخذون الرهائن، وولاؤهم لإنكلترا ضعيف، لأنّهم لا يخلصون لشيء، ويفضّلون قوّة السلاح على القانون. أمّا بالنسبة إلى الزعماء من أبناء البلاد الأصليين، فهم لم يعترفوا بحدود طبيعية لحقوقهم. يقولون إنّهم كانوا يملكون أراضيهم، كلّ نبتة وبحيرة، يملكون نبات الخلنج، وأعشاب المروج، والرياح التي تمرّ بينها، يملكون كلّ حيوان وكلّ رجل، وفي أوقات القلّة كانوا يأخذون الخبز لإطعام كلاب الصيد.

لا عجب أنّهم يرفضون أن يكونوا بريطانيّين، فهذا سيضع حدّاً لاستعبادهم الناس. لا يزال دوق نورفولك يملك رقيقاً على أملاكه، وحتى لو تحرّكت المحاكم لتحريرهم، يتوقّع الدوق أجراً من ذلك. عرض الملك إرسال نورفولك إلى أيرلندا، ولكنّه قال إنّّه

أمضى أشهراً طويلة هناك بلا جدوى، وإنه لن يذهب ما لم يبنوا له جسراً كي يرجع إلى منزله آخر الأسبوع من دون أن تتبلّ قدماه.

تشاجر هو ونورفولك في مجلس الشورى. راح الدوق يصيح موبّخاً، فيما جلس شابكاً ذراعيه يراقبه. قال لأعضاء المجلس: "كان يجدر بكم إرسال الشاب فيتزروي إلى دبلن، ليقوم هذا الملك التلميذ بالتباهي وتوزيع المال".

قال له ريتشارد: "ربّما يجدر بنا الذهاب إلى أيرلندا، سير".

"أظنّ أنّ أيام مشاركتي في الحملات قد ولّت".

"أودّ حمل السلاح، على كلّ رجل أن يكون جندياً لمرة في حياته".

"هذا جدّك يتحدّث من خلالك. إيفان رامي السهام. ركّز الآن على تقديم عرض جيّد في المباريات".

أثبت ريتشارد براعته في استخدام السيف. فكما قال كريستوف: ضربة واحدة ويمدّدهم أرضاً. ظنّ المرء أنّ هذه الرياضة تجري في دمه، كما تجري في دماء السادة الذين يتنافسون معه. كان يعتقد بأراء كرومويل، والملك يحبّ فيه ذلك، مثلما يحبّ أيّ رجل يتمتّع بالشجاعة والقوّة الجسدية. كانت ساقه المصابة تجبره على نحو متزايد على الجلوس في صفوف المشاهدين. وحين ينتابه الألم، كان يشعر بالذعر، ويظهر ذلك في عينيه. وحين يُشفى، ينتابه القلق. عدم استقرار حالته الصحيّة جعله أقلّ ميلاً إلى تكبّد نفقات ومشقّة تنظيم مباراة كبيرة. حين يشارك في سباق، مع خبرته، ووزنه، وطوله، وجياده الرائعة، وقوّة طباعه، يكون ميّالاً إلى الفوز. ولكن تجنّباً للحوادث، كان يفضّل التباري مع خصوم يعرفهم.

قال هنري: "حين كان الإمبراطور في ألمانيا قبل عامين أو ثلاثة، ألم يصبه ألم في فخذ؟ يقولون إنّ الطقس لم يناسبه. ولكنّ أراضيه تمتاز بمناخات مختلفة، على عكس مملكتي التي يسودها طقس واحد من أولها إلى آخرها".

"أه! أظنّ أنّ الأمر أسوأ في دبلن".

نظر هنري يائساً إلى المطر الهاطل. "وعندما أخرج راكباً، يصيح الناس بي. يخرجون من الحفر، ويصرخون بعبارات عن كاثرتين وكيف يجب عليّ ردّها. كيف سيكون شعورهم لو تدخّلت في كيفية إدارة منازلهم، وزوجاتهم، وأبنائهم".

حتّى عندما كان يصحو الطقس، لا تتبدّد مخاوف الملك. قال: "ستهرب وتُرسل جيشاً ضديّ. كاثرتين، أنت لا تعرف ما يمكن أن تفعله".

"قالت لي إنّها لن تهرب".

"وتظنّ أنّها لا تكذب أبداً. أعرف أنّها تكذب. لديّ دليل على ذلك، فقد كذبت عليّ بخصوص عذريّتها".

فكّر بسأم: أه! هذا الموضوع.

بدا أنّ هنري لا يثق بقوة الحراس المسلّحين، والأقفال، والمفاتيح. عندما كان يسافر، يأخذ معه قفلاً حديدياً كبيراً يثبتّه على باب غرفته بمساعدة خادم يرافقه لهذا الغرض. يتمّ تذوّق طعامه خوفاً من احتوائه على سمّ، كما يتمّ فحص سريره قبل أن ينام، بحثاً عن أسلحة مخبّأة، كالإبر مثلاً. مع ذلك، يخشى أن يُقتل في أثناء نومه.

* * *

الخريف: كان توماس مور يخسر من وزنه، ليتحوّل إلى رجل هزيل، مع أنّه لم يكن يوماً مفرط البدانة. ترك أنطونيو بونفيزي يرسل إليه الطعام. "ليس لأنّكم تعرفون كيف تأكلون. كنت لأرسله بنفسه، ولكن إن مرض، تعرف ما سيقوله الناس. يحبّ الأطباق المحتوية على البيض، ولكن لا أعرف ما إذا كان يحبّ شيئاً آخر".

تتهدّد. "البودنغ* بالحليب".

ابتسم. كانوا في أيّام تبيح تناول اللحوم. "لا عجب أنّه لا يسمن".

قال بونفيزي: "لقد عرفته مدّة أربعين عاماً، عمره بأكمله، يا توماسو. أنت لن تؤذيه، أليس كذلك؟ رجاءً عدني، إن أمكن، أنّ أحداً لن يؤذيه".

"لماذا تظنّ أنّني لست أفضل منه؟ اسمع، أنا لست بحاجة إلى الضغط عليه، فعائلته وأصدقاؤه سيفعلون ذلك، أليس كذلك؟".

"ألا تستطيع تركه هناك وحسب ونسيان أمره؟".

"بالطبع، إن سمح الملك بذلك".

رتّب زيارة لميغ روبر. مشى الأب والابنة في الحديقة، شابكين ذراعيهما. كان يراقبهما أحياناً من نافذة غرفة الملائم.

في تشرين الثاني/نوفمبر، فشلت هذه السياسة. انقلبت ضدّه فعلاً، وعصّت يده، مثل كلب عطفت عليه ولممته من الشارع. قالت ميغ: "قال لي، وطلب منّي أن أقول لأصدقائه، إنّهُ لن يقسم أيّ يمين من أيّ نوع بعد الآن، وإن سمعنا أنّه أقسم على شيء، فعلينا أن نعتبر أنّه فعل ذلك قسراً، نتيجة سوء المعاملة. وإن عُرضت وثيقة على مجلس الشورى تحمل توقيعه، فلنفهم أنّها لم توقّع بخط يده".

كان مطلوباً من مور الآن أن يقسم على قانون السيادة، الذي يجمع كلّ السلطات والمناصب التي تولّاها الملك في العامين المنصرمين. وكما قال بعض الأشخاص،

فإنّ القانون لا يجعل من الملك رئيساً للكنيسة، بل يُعلن أنّه رئيس الكنيسة، كما كان دائماً. إن لم يكن الناس يحبّون الأفكار الجديدة، فسنعطيهم أفكاراً قديمة. إن كانوا يريدون سوابق، فلديه سوابق. كان ثمة قانون آخر سيدخل حيّز التنفيذ في العام الجديد، يحدّد امتداد الخيانة. فكلّ من ينكر ألقاب هنري أو سلطانه، أو يتحدّث أو يكتب ضدّه، أو يعتبره مهرطقاً أو منشقاً هو خائن. كان سيّطال هذا القانون الرهبان الذين ينشرون الذعر، قائلين إنّ الإسبان سيصلون إلى شواطئ إنكلترا للاستيلاء على العرش وتسليمه إلى الليدي ماري. كما كان سيّطال الكهنة الذين يتكلّمون في عظاتهم ضدّ سلطة الملك ويقولون إنّهم يجرّ شعبه خلفه إلى الجحيم. ألا كان يحقّ للملك أن يطلب من شعبه التحدّث عنه بشكل متمدّن؟

قال له الناس: هذا جديد، الخيانة بالكلام. فأجابهم: كلاً، تأكّدوا أنّه قديم. فهو يُدخل في القانون التشريعي ما سبق وحدّده القضاة بحكمتهم كقانون عادي. إنّته تدبير يهدف إلى التوضيح، وأنا في خدمة الوضوح.

أمام رفض مور تأدية القسم للمرّة الثانية، صدر قانون ضدّه يصادر جميع أملاكه للتاج. لم يعد لديه الآن أمل بإطلاق سراحه، أو بالأحرى، أصبح الأمل فيه. كان من واجبه زيارته، وإخباره أنّه لم يعد مسموحاً له استقبال الزوّار ولا التّنزه في الحديقة. "ما من شيء يستحقّ الرؤية في هذا الوقت من العام". ألقى مور نظرة على السماء، التي كانت عبارة عن شريط رمادي ضيّق بادٍ من نافذة عالية. "لا أزال أستطيع الاحتفاظ بكتبي؟ وكتابة الرسائل؟".

"في الوقت الحالي، أجل".

"وجون وود، هل يبقى معي؟".

خادمه. "أجل، بالطبع".

"إنّه يأتي إليّ بأخبار قليلة من وقت إلى آخر. يقال إنّ الوباء انتشر بين جيوش الملك في أيرلندا. في هذا الوقت المتأخّر من العام، أيضاً".

الطاعون انتشر أيضاً، ولكنّه لم يخبر مور بذلك، ولا أنّ الحملة الأيرلندية بأكملها هي عبارة عن كارثة ومبّد للأموال، وأنّه يتمنّى لو أنّه ذهب بنفسه إلى هناك، كما قال ريتشارد.

قال مور: "الوباء يقضي على كثير منهم، على نحو مباغت، وفي ريعان شبابهم أيضاً. ومن يظلّ منهم على قيد الحياة، لا يكون في وضع يسمح له بمحاربة الأيرلنديين الوحشيين، بالتأكيد. أذكر أنّه حين أصيبت به ميغ، أوشتت على الموت.

هل سبق أن أصبت به؟ كلاً، أنت لا تمرض أبداً، أليس كذلك؟". كان يثرثر بلا تركيز، ثم نظر إليه. "أخبرني، ماذا تسمع من أنتويرب؟ يقال إنّ تيندايل هناك، ويقال إنّه يعيش حياة عسيرة. لا يجروُ على السير إلى ما وراء مجلس التجار البريطانيين. يقال إنّه في سجن، مثلي تقريباً".

كان هذا صحيحاً، إلى حدّ ما على الأقل. عمل تيندايل في الفقر والظلام، وانكمش عالمه حتّى اقتصر الآن على غرفة صغيرة، بينما تمّ خارجها في المدينة، وبموجب قوانين الإمبراطور، وتسميم أصحاب المطابع وقلع أعينهم، وقتل الأخوة والأخوات بسبب إيمانهم، وقطع رؤوس الرجال، وإحراق النساء أحياء. مع ذلك، لا يزال مور يملك شبكة متينة في أوروبا، شبكة مصنوعة من المال، ويعتقد أنّ رجاله قد تتبّعوا تيندايل خلال هذه الأشهر الطويلة، ولكن على الرغم من ذكائه، وذكاء ستيفن فوغان الموجود هناك، لم يتمكّن من معرفة مَنْ من الإنكليز الذين كانوا يعبرون تلك البلدة المزدحمة هم عملاء مور. قال مور: "سيكون تيندايل أكثر أماناً في لندن، تحت جناحك أنت، حامي الخطيئة. انظر إلى ألمانيا اليوم. هل ترى، يا توماس، إلى أين تقودنا الهرطقة؟ تقودنا إلى مونستر، ألا توافقني على ذلك؟".

كان الهرطقة والقائلون بتجديد العماد قد استولوا على مدينة مونستر. ومقارنة بما يجري هناك، فإنّ أسوأ الكوابيس، التي يستيقظ منها المرء مشلولاً ويظنّ أنّه مات، تعدّ نعيماً. فقد طُرد عمداء المدينة من المجلس، وحلّ مكانهم اللصوص والمجانين، وأعلنوا أنّ نهاية الزمان قد حلّت، وأنّه يجب على الجميع أن يجدّدوا عمادهم. ومن يعارضهم من المواطنين، كان يُقتاد خلف الجدران، عارياً، ليهلك في الثلوج. والمدينة كانت واقعة الآن تحت حصار أسقفها، الذي ينوي تجويع شعبها. ويقال إنّ المدافعين عنها هم بأغلبهم من النساء والأطفال الذين بقوا هناك، يسودهم خيَاط يدعى بوكلسون، توجّ نفسه ملكاً على القدس. وكان يقال إنّ أصدقاء بوكلسون قد أباحوا تعدّد الزوجات، كما يوصي العهد القديم. وارتكب أولئك الناس السرقة في ضوء النهار، باسم اشتراكية الأملاك. وكان يقال إنهم استولوا على منازل الأغنياء، وأحرقوا منازلهم، ومزّقوا صورهم، ومسحوا الأرض بالمطرّزات الفاخرة، ومزّقوا السجلات التي دوّن فيها مَنْ يملك ماذا، كي لا تعود الأزمان السابقة أبداً.

قال: "المدينة الفاضلة، أليس كذلك؟".

"سمعت أنّهم يحرقون كتباً من مكاتب المدينة، وأنّ إيراسموس التهمته النيران. أيّ نوع من الأشرار هم ليحرقوا إيراسموس الوديّع؟ ولكن بلا شكّ، بلا شكّ"، هزّ مور

رأسه، "سيعود النظام إلى مونستر مجدداً. فيليب أمير هاس، صديق لوثر، لا أشك في أنه سيعير الأسقف الطيب مدفعه وجنوده، وهكذا سيقوم مهرطق بإسقاط آخر. فهم مثل الكلاب الضارية التي تهيم في الشوارع، وتمزق أحشاء بعضها عندما تلتقي".

"سأخبرك كيف ستنتهي أحداث مونستر. سيقوم شخص ما من داخل المدينة بتسليمها".

"هل تظن ذلك؟ تبدو وكأنك ستعرض عليّ رهاناً، ولكنني لم أكن يوماً مراهناً بارعاً. والآن كل ما أملكه أصبح للملك".

"رجل مثله، خياط، يعلو شأنه لشهر أو شهرين...".

"تاجر صوف، ابن حداد، يعلو شأنه لعام أو عامين...".

وقف، وتناول رداءه من الصوف الأسود، المبطن بجلد الحمل. لمعت عينا مور: "آه، اسمع، أنت في نشاط متواصل". تتمم وكأنهما في حفل عشاء، "والآن، أنت ذاهب؟ امكث قليلاً، ألا تستطيع؟". رفع ذقنه. "إذاً، لم يعد في إمكاني رؤية ميغ مجدداً؟".

كانت نبرة الرجل مليئة بمشاعر الفراغ والخسارة، وأصابته في الصميم. التفت بعيداً، ليكون جوابه هادئاً وغير مبالي. "كل ما عليك هو قول بضع كلمات". "آه! مجرد كلمات".

"وإن لم يكن في إمكانك قولها، أستطيع كتابتها لك. وقع اسمك وسيكون الملك سعيداً. سأرسل عندها مركبي لإعادتك إلى تشيلسي، سيرسو عند الرصيف على أطراف حديقتك، صحيح أنه لا يوجد ما يستحق الرؤية في هذا الوقت من السنة، كما قلت، ولكن فكر في الترحيب الذي ستلقاه في الداخل. السيّد أليس بانتظارك، طبخ أليس وحده من شأنه أن يعيد إليك عافيتك. تقف أليس إلى جانبك تراقبك وأنت تمضغ، وحالما تمسح فمك، تأخذك بين ذراعيها وتزيل بقبلتها دهن لحم الضأن، وهي تهتف قائلة: كم اشتقت إليك يا زوجي العزيز! تصطحبك إلى غرفة نومها، وتقل الباب، وتضع المفتاح في جيبها، ثم تساعدك على خلع ملابسك حتى لا يتبقى منها سوى قميصك التي تبدو من تحته ساقاك القصيرتان البيضاوان. حسناً، اعترف أنّ المرأة لم تتجاوز حقوقها. في اليوم التالي - فكر في الأمر - تستيقظ قبل طلوع الفجر، وتذهب إلى صومعتك، وتجلد نفسك، تطلب الخبز والماء، وبحلول الساعة الثامنة ترتدي مجدداً قميصك، وفوقه رداءك الصوفي القديم، الملون بلون الدم،

والممزق... ترفع قدميك على مقعد، ويحضر لك ابنك الوحيد رسائلك... يكسر ختم عزيزك إيراسموس... وعندما تنتهي من قراءة رسائلك، تستطيع أن تخرج، لنقل إنه يوم مشمس، وتتفقد أقباص طيورك، وثعلبك الصغير في زربيته، ويمكنك أن تقول له، أنا أيضاً كنت سجيناً، ولكنني لم أعد كذلك، لأنّ كرومويل أخبرني أنني أستطيع استعادة حرّيتي... ألا تريد ذلك؟ ألا تريد الخروج من هذا المكان؟".

قال مور متعجباً: "عليك كتابة مسرحية".

ضحك مجيباً: "ربّما أفعل ذلك".

"أنت أفضل من شوسر. كلمات، كلمات، مجرد كلمات".

التفت وحدّق إلى مور. شعر وكأنّ الضوء تغيّر، وكأنّ نافذة فُتحت في بلد غريب، هبّت منها رياح باردة من أيّام الطفولة. "ذاك الكتاب... هل كان قاموساً؟".
عبس مور. "عفواً؟".

"صعدتُ السّلم في لامبيث... لحظة واحدة... صعدتُ السّلم وأنا أعدو، حاملاً لك الشراب ورغيفاً من دقيق القمح، كي لا تشعر بالجوع إن استيقظت ليلاً. كانت الساعة السابعة مساءً، وكنت تقرأ، وعندما نظرت إليّ، وضعت يديك على الكتاب"، وقد بيديه شكل جناحين، "وكأنّك تحميه. سألتك: سيّد مور، ماذا يوجد في هذا الكتاب الضخم؟ فأجبت: كلمات، كلمات، مجرد كلمات".

أمال مور رأسه. "متى كان ذلك؟".

"أظنّ أنني كنت في السابعة من عمري".

قال مور بلطف: "آه! هراء. لم أكن أعرفك عندما كنت في السابعة. كنت...".
عبس، "لا بدّ من أنّك كنت... وأنا كنت...".

"على وشك الذهاب إلى أوكسفورد. أنت لا تذكر، ولماذا تفعل؟"، رفع كتفيه، "ظننت أنّك كنت تسخر منّي".

قال مور: "آه! على الأرجح، إن كان هذا اللقاء قد حصل. والآن انظر إلى هذه الأيام الحاضرة، أنت من يأتي إلى هنا ويسخر منّي. تتحدّث عن أليس، وعن ساقّي القصيرتين".

"أظنّ أنّه كان قاموساً. هل أنت واثق من أنّك لا تذكر؟ حسناً... مركبي بانتظاري، ولا أريد أن أترك المجاذيف طويلاً في البرد".

قال مور: "النهار طويل جداً هنا، والليل أطول. صدري يؤلمني، ونفسي ضيق".

"إدأ، عد إلى تشيلسي، سيزورك دكتور باتس، ويحتجّ عليك قائلاً: توماس مور،

ماذا كنت تفعل بنفسك؟ أغلق أنفك واشرب هذا المزيج كرية الرائحة...".
"أحياناً، أشعر أنّ الصباح لن يطلع عليّ".

فتح الباب. "مارتن؟".

كان مارتن رجلاً نحيلاً، في الثلاثين من عمره، شعره الأشقر البادي من تحت قبعته أصبح خفيفاً. كان يتمتع بوجه بشوش ضاحك. وُلد في قرية كولتشيستر، وكان أبوه خياطاً، وقد تعلّم القراءة بكتاب ويكليف المبجل، الذي كان أبوه يخبئه في سقف منزلهم، تحت القش. إنكلترا اليوم أصبحت مختلفة. كان في إمكان مارتن أن ينفذ الغبار عن الكتاب القديم ويريه لجيرانه. لديّ أشقاء، وجميعهم متديّنون. زوجته كانت ستجب قريباً طفلها الثالث، وهي كما يقول: ممدّدة فوق القش.
"هل من أبناء جديدة؟".

"ليس بعد. ولكن هل تقبل بأن تكون العرّاب؟ سنسمّيه توماس إن كان صبيّاً، وإن كانت فتاة، أنت تسمّيها، سير".

صافحه وابتسم. قال: "غرايس". بالطبع سيتلقّى المولود هديّة من المال، يبدأ بها حياته. التفت إلى الرجل المريض، الذي اتّكأ على طاولته. "يقول السير توماس إنّ نفسه يضيق ليلاً. أحضر له بعض المساند، والوسائد، وكلّ ما تستطيع إيجاده، ليسند ظهره ويرتاح. أريده أن يحصل على كلّ فرصة للعيش لإعادة التفكير في موقفه، وإظهار الولاء لملكنا، والعودة إلى بيته. والآن، أتمنّى لكما مساءً سعيداً".
نظر إليه مور: "أريد كتابة رسالة".

"بالطبع. ستحصل على حبر وورق".

"أريد الكتابة إلى ميغ".

"إذاً، أرسل إليها كلمة إنسانيّة".

رسائل مور تتجاوز الإنسانيّة. قد تكون موجّهة إلى ابنته، ولكنها مكتوبة ليقرأها أصدقاؤه في أوروبا.

ناداه مور مجدّداً: "كرومويل...؟ كيف حال الملكة؟".

مور مؤدّب دائماً، وليس مثل أولئك الذين يتعمّدون القول "الملكة كاثرين". كان يعني، كيف حال آن؟ ولكن بماذا يجيبه؟ تابع طريقه، وخرج من الباب. من النافذة الضيقة، حلّ الشفق مكان السماء الرماديّة.

سمع صوتها من الغرفة المجاورة: منخفضاً، وملحاً. صاح هنري مستكراً: "ليس منّي! ليس منّي!".

في الغرفة المتصلة بها، وقف توماس بولين، المونسينيور، بوجهه النحيل الصارم. وكان في الغرفة بعض من أفراد أسرة بولين، يتبادلون النظرات: فرانسيس ويستون، فرانسيس براين. وفي إحدى الزوايا، وقف مارك سيمتون، عازف المزهر، محاولاً عدم لفت الأنظار إليه؛ ماذا يفعل هنا؟ لم يكن اجتماعاً عائلياً بالضبط، ذلك أنّ جورج بولين كان في باريس، يجري محادثات. فقد سرت شائعة عن أنّ الطفلة إليزابيث كانت ستزوّج لابن فرنسا، ويعتقد آل بولين أنّ هذا سيحدث فعلاً.

قال: "ما الذي حدث لإزعاج الملكة؟". بدا الاستغراب في نبرته، وكأنّها أكثر النساء هدوءاً.

قال ويستون: "إنّها الليدي كاري، فهي... أعني أنّها وجدت نفسها...".

قال براين ساخراً: "حاملاً بطفل غير شرعي".

"آه! ألم تكن تعرف؟". كانت صدمة المحيطين به مرضية له. رفع كتفيه. "ظننت أنّها مسألة عائلية".

غمزه براين بالرقعة التي تغطي عينه، والتي كانت اليوم صفراء، يرقانية اللون.

"يجدر بك مراقبتها عن كثب، يا كرومويل".

قال بولين: "هذا أمر قد فشلت فيه، كما هو واضح. تدّعي أنّ والد الطفل هو ويليام ستافورد، وقد تزوّجته. أنت تعرف ستافورد أليس كذلك؟".

قال بمرح: "قليلاً. حسناً، هل ندخل؟ مارك، نحن لن نلحن هذه المسألة، لذا ارحل من هنا وقم بشيء نافع".

وحده هنري نوريس كان في خدمة الملك، وجاين روتشفورد في خدمة الملكة. كان وجه هنري الكبير أبيض اللون. "تلوميني، سيّدي، على ما فعلته قبل أن عرفتك".

كانوا قد تجمّعوا حوله. قال هنري: "لورد وينتشاير، ألا تستطيع السيطرة على ابنتيك؟".

قال براين: "كان كرومويل يعرف". وضحك ساخراً.

بدأ المونسينيور يتكلم، متلعثماً. توماس بولين، الدبلوماسي المشهور بطلاقة لسانه. قاطعته أن قائلة: "لماذا تتجب طفلاً من ستافورد؟ لا أصدق أنّه منه. لماذا يوافق على الزواج منها ما لم يكن طامعاً؟ ولكنه قام بخطوة غير صحيحة هنا، لأنّه لن يطيأ أرض القصر مجدداً، لا هو ولا هي. لن أبه حتّى لو ركعت على ركبتيه أمامي. فلتنظروا جوعاً".

قال في نفسه: لو كانت آن زوجتي، لذهبت لقضاء الأمسية في الخارج. بدت

منهكة، غير قادرة على الوقوف ساكنة. هل كنت لتثق بها لو أنّ سكيناً حاداً في متناولها. همس نوريس: "ما العمل؟". كانت جاين روتشفورد واقفة في الخلف أمام السجّاد المزركش المعلق على الجدار، والذي كان يصوّر حوريات بين الأشجار. كان طرف ثوبها مغموساً في جدول خيالي، ووشاحها يحتكّ بغيمة يطلّ من خلفها وجه امرأة. رفعت رأسها، وبدأ شعور انتصار في نظرتها.

قال في نفسه: كان يمكنني إحضار رئيس الأساقفة. أنّ لم تجرؤ على الصراخ أمامه. أمسكت بكمّ نوريس، ماذا كانت تفعل؟ "فعلت شقيقتي ذلك لتغيظني. اعتقدت أنّها ستنتقل في البلاط ببطنها الكبير، وتشفق على حالي وتسخر منّي، لأنني خسرت جنيني".

قال أبوها: "أنا واثق، إنّ نظرنا إلى المسألة...".

قالت: "اخرج، اتركني، وقل لها، للسيدة ستافورد، إنّها فقدت كلّ حقّ لها في عائلتي. لا أعرفها، وهي لم تعد من أسرة بولين".
أضاف هنري، بنبرة تلميذ المدرسة الذي هُدد بالجلد: "اذهب، ويلتشاير. سأحدّث إليك لاحقاً".

قال للملك ببراءة: "جلالة الملك، هل نؤجل أعمالنا اليوم؟". فضحك هنري.

أخذت الليدي روتشفورد تجري قربه. لم يبطئ سرعته، فاضطّرت إلى رفع ثوبها.
"هل كنت تعرف حقاً، سيدي الوزير؟ أم قلت ذلك أمامهم وحسب؟".
"أنت تعجبيني كثيراً، لأنك تكتشفين جميع حيلي".
"من حسن حظي أنّي أكتشف حيل الليدي كاري".
"أنت من كشفها؟". ففكر في نفسه قائلاً: ومن غيرها؟ فبغياها زوجها جورج، لم يعد لديها من تتجسّس عليه.

كان سرير ماري مكسوّاً بالحريّر الناريّ، البرتقالي، القرمزيّ، وكأنّ ناراً اندلعت في الفراش. وتوزّعت على المقاعد، وعلى أريكة قرب النافذة، الأثواب والأشرطة المتداخلة، والققازات. هل هذا الجورب الأخضر نفسه الذي كشفته مرّة حتّى الركبة، وهي تعدو نحوه بأقصى سرعتها في اليوم الذي عرضت عليه الزواج. وقف عند الباب. "إذاً، ويليام ستافورد؟".

استقامت جالسة واحمرّت وجنتاها، وكانت تحمل في يدها خفّاً مخملياً. الآن ذاع السرّ، وارتدت ملابس فضفاضة. نظرت خلفه. "أحسنّت، جاين، أحضره إلى هنا".
"عذراً، سيدي". كانت جاين سيمور هي التي مرّت قربه حاملة ملابس مطوية. ثمّ

تبعها صبي، يجزّ صندوقاً جليداً أصفر اللون. "ضعه هنا، مارك".
قال سميتون: "هل ترى، سيدي الوزير، أنا أقوم بعمل نافع".
ركعت جاين قرب الصندوق وفتحته. "هل أضع فيه قماش الكمبريك؟".
"لا ضرورة للكمبريك. أين فردة حدائي الأخرى؟".

حدّرتها الليدي روتشفورد قائلةً: "من الأفضل لك الرحيل. إن رآك الخال نورفولك
فسيضربك. فشقيقتك الملكة تظنّ أنّ الملك هو والد طفلك. تقول: لماذا سيكون ويليام
ستافورد هو الأب؟".

ضحكت ماري ساخرة: "هذا ما عرفته. ماذا كانت تعرف آن عن الزواج برجل
لذاته؟ أخبريها أنّه أحبّني. أخبريها أنّه اهتمّ لي وأنّ أحداً آخر لم يفعل. ما من أحد
آخر في هذا العالم اكثرث لأمرى".

مال وقال هامساً: "سيّدة سيمور، لم أعرف أنّك صديقة لليدي كاري".
"ما من أحد آخر يساعدها". أبقّت رأسها منحنيّاً وكسا الاحمرار رقبتها.
قالت ماري: "ستائر السرير تلك هي لي، انزعيها". رأى أنّها تحمل تطريزاً لشعار
زوجها ويل كاري، الذي مات منذ كم من الوقت؟ سبع سنوات الآن؟ "يمكنني نزع
الشارات". بالطبع، فما فائدة رجل ميت وشعاراته؟ "أين حوضي الذهبي، روتشفورد،
هل رأيته؟". ركلت الصندوق الأصفر، الذي خُتم عليه شعار آن الذي يصوّر صقره.
"إن رأوا معي هذا، فسيأخذونه منّي ويلقون أشياءي على الطريق".
قال: "إن كان في استطاعتك الانتظار ساعة من الزمن، سأرسل إليك صندوقاً مع
أحدهم".

"وهل سيكون بشعار توماس كرومويل؟ ربّاه! لا أملك ساعة من الوقت. أعرف ماذا
أفعل!". بدأت تنزع الملابس عن السرير. "سنحزمها في صرر!".

قالت جاين روتشفورد: "يا للعار، وتهربين مثل خادمة سرقت الأواني الفضيّة؟
أضف إلى أنّك لن تحتاجي إلى هذه الأشياء في كينت. لدى ستافورد مزرعة، أو
شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟ قصر صغير؟ مع ذلك، يمكنك بيعها. أفترض
أنّك ستضطرين إلى ذلك".

"سيساعدني أخي الحبيب عندما يعود من فرنسا. لن يتركني من دون مورد أعيش
منه".

"اسمحي لي بمخالفتك الرأي. فاللورد روتشفورد سينزعج، مثلي، إن تعرّضت العائلة
للإهانة".

استدارت ماري، ورفعت ذراعها مهددة مثل قطة تبرز مخالبتها. "هذا اليوم هو أفضل من يوم زواجك، روتشفوردي. وكأنتي أحصل على منزل مليء بالهدايا. أنت عاجزة عن الحب، لا تعرفين معناه، وكل ما تقدرين عليه هو حسد من يعرفون هذا الشعور، والشماتة بهم عندما يواجهون المتاعب. أنت امرأة بائسة، زوجها يكرهها، وأنا أشفق عليك، وعلى شقيقتي آن، ولن أتمنى أن أكون مكانها، بل أفضل أن أكون في سرير رجل فقير صادق يهتم لي على أن أكون ملكة ولا أنجح في الاحتفاظ بزوجي سوى بخدع المومسات... أجل، أعرف ذلك، لقد أخبر نوريس ماذا تقدم إليه، وهذا لا يساعد على إنجاب طفل، أوكد ذلك. والآن أصبحت تخشى كل امرأة في البلاط. هل نظرت إليها، هل نظرت إليها مؤخراً؟ لقد خطت سبع سنوات لتصبح ملكة، لينجنا الله من الأدعية المستجابة. ظنت أن كل يوم سيكون مثل يوم تتويجها". مدت ماري يدها، لاهثة، إلى حقيبة أغراضها ورمت لجاين سيمور زوجاً من الأكمام. "خذي هذه، حبيبتي، مع بركاتي. أنت الوحيدة التي تملكين قلباً طيباً في هذا القصر".

خرجت جاين روتشفوردي، صافقة الباب وراءها.

تمتت جاين سيمور: "دعها تذهب، انسي أمرها".

هتفت ماري بنبرة لاذعة: "حمداً لله على رحيلها! يجب أن أشعر بالسرور لأنها لم تأخذ أشياءي وتعرض عليّ ثمناً". في صمت الغرفة، تحطمت كلماتها، ورفرفت، وخشخت حول الغرفة، وكأنها طيور سجينه أصابها الذعر، وراحت تتخبّط بين الجدران: أخبر نوريس بما تقدم إليه. إبداعاتها الليلية. أعاد صياغة الكلام: مثلما ينبغي، بالتأكيد؟ أراهن على أن نوريس كله آذان صاغية. يا لهؤلاء الناس! كان الشاب مارك واقفاً، فاغر الفاه، خلف الباب. "مارك، إن بقيت واقفاً هناك مثل السمكة، فسأمر بتقطيعك وقلبك". ففر الشاب هارباً.

عندما حزمت السيّدة سيمور الصرر، بدت وكأنها طيور مكسورة الجناح. أخذها منها وأعاد حزمها، ليس بالأشرطة الحريية، بل بحبال متينة. "هل تحمل حبلاً معك دائماً، سيدي الوزير؟".

قالت ماري: "أه، كتاب قصائد الحب! إنّه مع شيلتون". واندفعت خارجة من الغرفة.

قال: "ستحتاج إليه، فما من قصائد في كينت".

"ستقول لها الليدي روتشفوردي إنّ السونيتة* لن تمنحك الدفاء. ولكن بما أنني لم

أثلق يوماً سونيتة، فلا يمكنني أن أعرف ما إذا كان هذا صحيحاً".
قال في نفسه: ليز، ارفعي يدك الميتة عني. هل تضنّين عليّ بهذه الفتاة الصغيرة،
القصيرة، والنحيلة، والعاديّة جداً؟ التفت. "جاين...".
"سيدي الوزير؟". خفضت ركبتيها ودارت جانباً حتّى الفراش. جلست، وسحبت
ثوبها من تحتها، حتّى تمكنت من الوقوف: أمسكت بعمود السرير، وتسَلّقت قليلاً، ثمّ
مدّت يديها فوق رأسها وبدأت تفكّ ستائر السرير.
"انزلي! أنا أفعل ذلك. سأرسل عربة خلف السيّدة ستافورد، فهي لا تستطيع حمل
جميع أمتعتها".

"أستطيع القيام بذلك. فالوزير لا يبدد وقته مع ستائر الأسرة".
"الوزير يعمل بكلّ شيء. يفاجئني أنني لا أخيط قمصان الملك".
تمايلت جاين قليلاً فوقه. غرقت قدماها في فراش الريش. "الملكة كاثرين هي من
تقوم بذلك. لا تزال تخطط له".
"الأرملة المهيبّة كاثرين. انزلي".
قفزت بنشاط، فتمايل ثوبها. "حتّى الآن، وبعد كلّ ما جرى بينهما، أرسلت قطعة
جديدة الأسبوع الفائت".

"ظننت أنّ الملك كان قد منعها".
"تقول أنّ إنّه ينبغي تمزيقها واستعمالها في بيت الخلاء. فثار غضبه، ربّما لأنّه لا
يحبّ كلمة بيت الخلاء".

"بالفعل". الملك يستنكر اللغة الفظة، وكثيرون هم رجال البلاط الذين استبعدوا
بسبب قصصهم القذرة. "هل صحيح ما تقوله ماري؟ إنّ الملكة خائفة؟".
"إنّه يحوم الآن حول السيّدة شيلتون. حسناً، أنت تعرف ذلك. لقد لاحظت".
"ولكن لا ضير في ذلك بالتأكيد؟ فالملك مضطرّ إلى ملاطفة النساء، إلى أن يبلغ
السنّ التي يرتدي فيها عباءته الطويلة ويجلس قرب النار مع قسيسيه".
"أشرح ذلك لأنّ، فهي لا تراه. تريد إبعاد شيلتون من القصر، ولكنّ أباه وأخاه لن
يقبلا بذلك. فثمّة قرابة تجمعهم بأل شيلتون، وإن كان هنري يرغب في النظر إلى
امرأة أخرى، يستحسن أن تكون من أهل البيت. السفاح شائع جداً هذه الأيام! فقد قال
الخال نورفولك... أعني، سيادة...".

قال لها من دون انتباه: "لا بأس، أنا أيضاً أدعوه كذلك".
وضعت جاين يدها على فمها. كانت يد طفلة، أظافرها صغيرة برّاقة. "سأتذكّر هذا

الأمر عندما أرحل إلى الريف ولا أجد ما يضحكني. إذاً هل يناديك ابن أختي العزيز كرومويل؟".

"هل ستغادرين القصر؟". لا شكّ في أنّها تتوي الزواج، ربّما من رجل يعيش في الريف.

"أمل أن يتمّ إعتاقي بعد أن أخدم لفصل آخر".

دخلت ماري بصخب إلى الغرفة وهي تتذمّر. كانت تحمل وسادتين مطرّزتين فوق بطنها المنتفخ، الذي بدا واضحاً الآن. باليد الأخرى حملت حوضها المذهّب، الذي وضعت فيه كتاب الشعر. رمت الوسادتين، ثمّ فتحت يدها وألقت قبضة من الأزرار الفضيّة، التي تبعثرت في الحوض وهي تققع، وكأنّها أحجار نرد. "كانت هذه مع شيلتون. عليها اللعنة".

قالت جاين: "أنا لا أعجب الملكة كثيراً، كما أنّه مضى زمن طويل لم أر فيه وولف هول".

لمناسبة العام الجديد، طلب من هانز أن يرسم للملك هديّة، هي عبارة عن لوحة مصغّرة على الرقّ، تصوّر أنسيلما عند دخولها على أحد الملوك. شرح له أنّه يريد أن تكون تعبيراً مجازياً للملك وهو يستقبل ثمار الكنيسة وإجلال شعبه. رمقه هانز بنظرة متعجّبة. "فهمت قصدك".

أعدّ هانز المسوّدات. الملك جالس بجلالة قدره، وأنسيلما واقفة أمامه، وجهها المخفيّ مرفوعاً نحوه، وظهرها مستدير للناظر.

سأله: "هل تستطيع أن ترى وجهها في عقلك، مع أنّه غير ظاهر؟".

"لن أدفع لك سوى على الجهة الخلفيّة من رأسها، هذا ما ستحصل عليه!". فرك هانز جبينه، فلانت نبرته وقال: "غير صحيح، أستطيع رؤيتها".

"تراها مثل امرأة التقيتها في الشارع؟".

"ليس تماماً، بل كشخص تذكره، كامرأة كنت تعرفها عندما كنت صغيراً".

كانا يجلسان أمام السجّادة المزركشة التي أهداه إياها الملك. شردت عينا الرسّام نحوها. "صورة هذه المرأة المعلّقة على الجدار، كانت لولزي، ومن ثمّ لهنري، والآن لك".

"أوكّد لك أنّها لا تملك نظيراً في الواقع". حسناً، ما لم يكن رئيس أساقفة ويستمينستر قد عرف مومساً كتومة جدّاً ومتقلّبة جدّاً.

"أعرف من تكون". هزّ هانز رأسه مؤكّداً، وقد شدّ على شفّتيه، ولمعت عيناه على

نحو ساخر، وكأنه كلب يسرق منديلاً كي تلحق به. "يتحدّثون عن ذلك في أنتويرب، لماذا لا تذهب إلى هناك وتطالب بها؟".

"إنّها متزوّجة". فوجئ حين عرف أنّ خصوصياته هي مدار حديث الناس. "تظنّ أنّها لن تأتي معك؟".

"مضت سنوات على ذلك. لقد تغيرتُ".

"نعم، أصبحت ثرياً".

"ماذا سيُقال عني، إنني أغريت امرأة بترك زوجها".

هزّ هانز كتفيه. الألمان شعب واقعي جداً. يقول مور إن اللوثريين يزنون في الكنيسة. قال هانز: "أضف إلى ذلك، ثمّة مسألة...".

"مسألة ماذا؟".

هزّ هانز كتفيه: لا شيء. "لا شيء! هل ستعلّقني من ذراعي إلى أن أعترف؟".
"أنا لا أفعل ذلك، بل أهدّد وحسب".

قال هانز محاولاً تهدئته: "عنيت مسألة جميع النساء اللواتي يرغبن في الزواج منك. فالزوجات البريطانيات يحتفظن جميعاً بكتب سرّية تحتوي على أسماء الرجال الذين يرغبن في الزواج منهم بعد أن يسمّن أزواجهنّ. وأنت تأتي على رأس اللائحة لدى الجميع".

في لحظات فراغه، التي لا تتجاوز الاثنتين أو الثلاث في الأسبوع، تفحص سجلات بيت السجلات. مع أنّه ممنوع على اليهود العيش في المملكة، إلا أنّ المرء لا يعرف من هم المشردون الذين يمكن أن يأتي بهم القدر، مرّة واحدة، ولشهر واحد في هذه الأعوام الثلاثمئة، لو أنّ المنزل كان خالياً. مرّ بنظره على حسابات القيمين الذين توالوا على المنزل، وأمسك مستغرباً الإيصالات التي أعطاهم إياها سكان المنزل المتوقّفون، والتي كُتبت بأحرف عبرية. بعضهم أمضى خمسين عاماً بين هذه الجدران، منعزلاً عن أهالي لندن في الخارج. عندما مشى في الممرات الملتوية، شعر بخطى أقدامهم تحت خطاه.

ذهب لرؤية المرأتين اللتين بقيتا في المنزل. كانتا امرأتين هادئتين وحذرتين، سنّهما غير واضحة، تحملان اسمي كاثرين وويلي وماري كوك.

سألتهما: "ماذا تفعلان؟". كان يعني بوقتكما.

"نتلو صلواتنا".

راقبتاه لتبيّن نواياه، أهي حسنة أم سيئة. كان تعبير وجهيهما يوحي بما تقولانه في

نفسيهما: نحن امرأتان لم يتبقَّ لنا سوى قصة حياتنا. فلماذا نتركها لك؟ أرسل إليهما هدايا من الطيور، ولكنّه لم يكن واثقاً ما إذا كانتا تأكلان اللحم من أياد مسيحية. مع اقتراب الميلاد، أرسل إليه رئيس الدير في كانتربوري اثنتي عشرة تفاحة من كينت، لُفّت كلّ منها بالكتّان الرمادي، وكانت من نوع خاصّ لذيذ المذاق مع الشراب. أخذ التفاح إلى المرأتين، مع شراب ابتاعه لهما. قال: "عام 1353، لم يكن في هذا المنزل سوى امرأة واحدة. ويؤسفني التفكير في أنّها عاشت هنا بمفردها. كان آخر سكن لها في مدينة إكسيتير، ولكنني أتساءل أين عاشت قبل ذلك؟ كان اسمها كلاريشا".

قالت كاثرين، أو ربّما ماري: "لا نعرف شيئاً عنها، لا بل من الغريب أن نعرف". تفحصت التفاحة برؤوس أصابعها. ربّما لم تدرك مدى ندرة هذا التفاح، أو أنّه أفضل هديّة وجدها رئيس الدير. قال: إن لم تعجبك، أو حتّى إن أعجبتك، فلديّ إجاص مسلوقة. فقد أرسل إليّ أحدهم 500 إجاصة. قالت كاثرين أو ماري: "إنّه رجل يحبّ جذب الأنظار إليه". وقالت الأخرى: "500 باوند كانت أفضل".

ضحكت المرأتان، ولكنّ ضحكتهما كانت باردة. لاحظ أنّه لن يتفق معهما أبداً. أعجبه اسم كلاريشا، وتمنّى لو أنّه اقترحه اسماً لابنة السجّان. إنّه اسم لامرأة يحلم المرء بها، امرأة يمكنه أن يرى من خلالها. عندما انتهت هديّة الملك للعام الجديد، قال هانز: "إنّها المرّة الأولى التي أرسّم فيها وجهه".

"سترسّمه مرّة أخرى قريباً، على ما أمل". كان هانز يعرف أنّ لديه كتاباً مقدّساً بالإنكليزية، ترجمة جاهزة تقريباً. وضع إصبعه على شفّتيه؛ لا يزال الوقت مبكراً للتحدّث عنه، ربّما في العام القادم. قال هانز: "لو كنت ستهدي هنري إياها، فهل يمكن أن يرفضها الآن؟ سأضعه على صفحة الغلاف، معروضاً بجلالة قدره، رئيساً للكنيسة". أخذ هانز يمشي وهو يرسم بعض الصور. أمّا هو، فراح يفكّر في تكاليف الورق والطباعة، ويقدر أرباحه. لو كاس كراناتش يرسم صفحات الغلاف للوثر. "بتلك الصور لمارتن وزوجته، باع النسخ في السلال. مع أنّ كراناتش يجعل الناس تبدو مثل الحيوانات المقرّزة". صحيح. حتّى تلك النساء العاريات اللواتي يرسمهنّ بوجوه حيوانات مقرّزة لطيفة، وأقدام عمّال، وآذانٍ كالغضارييف. "ولكن إن رسمت هنري، أفترض أنّني

سأجعله أكثر جمالاً، وأريه كيف كان قبل خمس أو عشر سنوات".
"خمس سنوات تكفي، وإلا سيظن أنك تسخر منه".

مرّر هانز إصبعه على عنقه، ولوى ركبتيه، ومدّ لسانه وكأنه مشنوق. يبدو أنه يتخيّل كل طرائق الإعدام.

قال: "سيطلب منك إظهار عظمته على نحو سلس".
تألّق وجه هانز. "يمكنني القيام بذلك في الفناء".

حلّت نهاية العام مصحوبة بالبرد وبضوء مائي أخضر، غمر التايمز والمدينة. تساقطت الرسائل على مكتبه بخفة مثل حبات الثلج الكبيرة: دكاترة في علم اللاهوت من ألمانيا، سفراء من فرنسا، ماري بولين من منفاها في كينت. كسر الختم. قال لريتشارد: "اسمع ما فيها، ماري تريد مالاً. تقول إنّها تعرف أنه لم يكن ينبغي لها أن تتسرّع. وتقول إنّ الحبّ تغلب على العقل".
"حبّ، هل كان كذلك؟".

قرأ الرسالة. ليست نادمة أبداً على زواجها من ويليام ستافورد. قالت إنّها كان في إمكانها اتّخاذ أزواج آخرين، ذوي ألقاب وثروات. ولكن "لو كنت أملك حريّة الاختيار، أوكد لك، يا سيدي الوزير، أنه أظهر لي إخلاصاً يجعلني أفضل أن أتسوّل معه على أن أكون أعظم ملكة معمّدة".

لم تجرؤ على الكتابة إلى شقيقتها الملكة، أو إلى أبيها، أو خالها، أو أخيها. فجميعهم قساة، لذا هي تكتب إليه... تساءل، هل كان ستافورد منحنيّاً فوق كتفها وهي تكتب؟ هل ضحكت وقالت: توماس كرومويل، أعطيته الأمل مرّة.

قال ريتشارد: "بالكاد أذكر كيف كنت أنوي الزواج من ماري".

"كان ذلك في أيّام مختلفة". وريتشارد سعيد؛ رأيت كيف نجحنا، يمكننا التقدّم من دون آل بولين. ولكن تمّ قلب العالم المسيحي من أجل زواج بولين، ووضع طفلتها القبيحة في المهدي. ماذا لو كان ذلك صحيحاً، ماذا لو سئم منها هنري، ماذا لو كان الزواج ملعوناً؟ "أدخل ويلتشاير".

"هنا إلى بيت السجلات؟".

"سيأتي على الفور".

ذلّه، بأسلوبه العبقرى، وجعله يدفع راتباً سنوياً لماري. عملت الفتاة من أجله، وكان عليه أن يعيّلها الآن. جلس ريتشارد في الظل ودوّن الملاحظات. وهذا ما ذكر بولين بأيّام خوالٍ، أيّام مضى عليها الآن ستّ أو سبع سنوات تقريباً. في الأسبوع الفائت،

قال له شابوي: "في هذه المملكة، أنت الآن كل ما كان الكاردينال عليه، لا بل وأكثر".

* * *

كانت ليلة الميلاد عندما أتت أليس لرؤيتي. كان ثمة ضوء حادّ رقيق، مثل نصل سكين قديم، وفي هذا الضوء بدت أليس مسنة.

حيّاه كأميرة وقادها إلى إحدى الغرف التي أعاد طلاءها، وأعاد بناء مدفاتها التي اشتعلت فيها نار عظيمة. فاحت في الهواء رائحة أغصان الصنوبر. "هل تحتفلون هنا؟". كانت أليس قد بذلت جهداً من أجله، وشدّت شعرها بإحكام إلى الخلف تحت قبعة مزينة بحبات اللؤلؤ. "حسناً! عندما أتيت إلى هذا المكان في السابق، كان بارداً ورطباً. كان زوجي يقول: "ولاحظ استعمالها لصيغة الماضي، اسجن كرومويل في زنزانة تحت الأرض في الصباح، وارجع إليه ليلاً لتجده جالساً على وسادة مترفة، يأكل ألسنة طيور القبرة، وكلّ السجانين مدينون له بالمال".

"هل كان يتحدث كثيراً عن سجنني في زنزانات؟".

"كان مجرد كلام". بدا عليها الارتباك. "ظننت أنك قد تصطحبني لرؤية الملك. أعرف أنه لطيف ودمت دائماً مع النساء".

هزّ رأسه رافضاً. إن اصطحب أليس إلى الملك، فستحدّثه عن الأيام التي كان يزور فيها تشيلسي ويتنزّه في حدائق القصر. ستزعجه، وتربك عقله، وتجعله يفكر في مور، وهذا ما لا يفعله حالياً. "إنه مشغول جداً مع المبعوثين الفرنسيين. ينوي أن يكون البلاط حافلاً هذا الفصل. عليك أن تثقي برأيي".

قالت بإكراه: "لقد كنت طيباً معنا، وأنا أتساءل عن السبب. فنواياك ليست واضحة دائماً".

قال: "الخداع من طبعي، لا أستطيع فعل شيء حياله. أليس، لمّ زوجك عنيد إلى هذا الحدّ؟".

"أنا لا أفهمه أكثر ممّا أفهم عقيدة الثالوث الأقدس".

"إذاً، ماذا سنفعل؟".

"أظنّ أنه يستطيع أن يشرح للملك أسبابه، وجهاً لوجه. إن قال الملك مسبقاً إنّه سيعفيه من جميع العقوبات".

"تعنين أن يسامحه على جريمة الخيانة؟ لا يمكن للملك فعل ذلك".

"ربّاه! توماس كرومويل، تقول ما لا يمكن للملك فعله! كان كالديك يمشي مختالاً، سيدي، إلى أن أتت فتاة ولوت عنقه".

"إنّه القانون، عُرِف البلاد".

"ظننت أنّ إرادة هنري فوق القانون".

"نحن لسنا في القسطنطينية، سيّدة أليس. مع أنّي لا أقول شيئاً ضدّ العثمانيين. فنحن نهلّل لهم هذه الأيام، ما داموا يكبلون يدي الإمبراطور".

قالت: "لم يعد لديّ كثير من المال، فأنا أنفق خمسة عشر شلناً كلّ أسبوع من أجل قوته. وأخشى أن يشعر بالبرد". تنهّدت. "مع ذلك، كان في إمكانه أن يخبرني بنفسه. ولكنّه لا يكتب إليّ، بل إليها، حبيبته ميغ. وهي ليست ابنتي. أتمنّى لو أنّ زوجته الأولى كانت هنا، لتقول لي ما إذا كانت ميغ قد وُلدت كما هي الآن. فهي مقربة منه، كما تعرف. يتشاوران دائماً. قالت لي الآن إنّّه أعطاهما قمصانه لتغسل عنها الدماء، وإنّه يرتدي قميصاً من الوبر تحت ملابسه الداخلية. كان يفعل ذلك عندما كنّا متزوّجين فتوسّلت إليه ليكفّ عن ذلك، وظننت أنّه فعل. ولكن كيف لي أن أعرف؟ فهو ينام بمفرده ويقفل الباب بالمزلاج. إن عانى من الحكّة، لا أعرف أبداً، فسيكون عليه حكّ جلده بظفره. حسناً، أيّاً يكن الوضع، كانا يتحدّثان معاً دائماً، من دون إطلاعي على شيء".

"أليس...".

"لا تظنّ أنّي لا أشعر بأيّ حنان نحوه. فهو لم يتزوّجني ليعيش كمخصّي. كانت لدينا علاقات، من وقت إلى آخر". احمرّ وجهها، غضباً أكثر منه خجلاً. "وعندما يكون هذا صحيحاً، لا يمكن للمرأة إلّا أن تشعر به، إن كان الرجل يشعر بالبرد، أو بالجوع، فجسدهما يصبح واحداً. تعطف عليه وكأنّه طفل".

"أخرجيه، يا أليس، إن كان في إمكانك ذلك".

"أنت أقدر منّي"، ابتسمت بحزن، "هل عاد ابنك غريغوري إلى البيت مع بداية الموسم؟ كنت أقول لزوجي إنّني أتمنّى لو أنّ غريغوري كرومويل ابني. كنت لأخبره مع كعكة بالسكر وألتهمه كلّه".

* * *

أتى غريغوري لتمضية الميلاد في المنزل، وكان يحمل رسالة من رولاند لي تفيد أنّه كنز وأنّه يستطيع العودة إلى بيته في أيّ وقت. قال غريغوري: "لذا، عليّ العودة. أم أنّي أنهيت تعليمي الآن؟".

"لديّ خطة للعام الجديد لتحسين لغتك الفرنسية".

"يقول رايف إنّ تنشّتي كنتشئة أمير".

"حالياً، ليس لديّ غيرك لتربيته".

"أبي الحبيب...". حمل غريغوري الكلبة الصغيرة. احتضنها وداعب عنقها. انتظر.
"يقول رايف وريتشارد إنه حين يصبح تعليمي كافياً، تنوي أن تزوّجني من أرملة مسنة ذات مركز عظيم وأسنان سوداء، ستتهكني وتحكمني بنزواتها، وستحرم أولادها من أملاكها، وهم سيكرهونني ويخطّطون لقتلي، ويوماً ما سيتمّ العثور عليّ ميتاً في سرير".

دارت الكلبة السبّيلية بين ذراعي ابنه، ونظرت إليه بعينها اللطيفتين المستديرتين المتعجبتين. "إنهما يسخران منك، يا غريغوري. لو كنت أعرف امرأة كهذه، لتزوّجتها أنا".

هزّ غريغوري رأسه موافقاً. "ولكنّها لن تحكّمك أبداً، سير. وأجرؤ على القول إنّها ستملك حديقة غزلان جميلة، مناسبة للصيد. أمّا أولادها، فسيخافون منك، حتّى لو كانوا رجالاً راشدين". بدا تحسّن في معنوياته. "ما هذه الخريطة؟ أهي لبلاد الهند؟".

أجابه بلطف: "هذه هي الحدود الاسكتلندية، بلاد هاري بيرسي. انظر، دعني أريك. هذه أجزاء من أملاكه التي تنازل عنها لدائنيه. لا يمكننا أن ندع هذا الأمر يستمرّ، لأننا لا نستطيع أن نترك حدودنا للصدفة".

"يقال إنه مريض".

"مريض، أو مجنون". كانت نبرته غير مبالية. "إنّه بلا وريث، ولم يقم علاقة مع زوجته أبداً، لذا، ليس محتملاً أن ينجب وريثاً. لقد تشاجر مع أشقائه، ويدين بمبلغ كبير من المال للملك. لذا، سيكون من المنطقي أن يُعيّن الملك وريثاً له، أليس كذلك؟ سيتمّ إحضاره لمناقشة الأمر".

بدا غريغوري مصدوماً. "سيتمّ حرمانه من مركزه كإيرل؟".

"يمكنه الاحتفاظ بنمط حياة الإيرل، سنعطيه ما يعيش منه".

"أهذا بسبب الكاردينال؟".

كان هاري بيرسي هو من أوقف وولزي في كاوود، في طريقه إلى الجنوب. أتى، وبيده المفاتيح، ووحول الطريق تلوّث ملابسه: "سيدي، أنا أعتقلك بتهمة الخيانة العظمى". قال له الكاردينال: "انظر إلى وجهي، أنا لا أخشى أيّ رجل على وجه الأرض".

هزّ كتفيه. "غريغوري، اذهب والعب. خذ بيلاً وتمرنّ معها على اللغة الفرنسية، فقد حصلت عليها من الليدي ليسل في كاليه. لن أتأخّر، عليّ تسوية فواتير المملكة".

سيرسلون إلى إيرلندا مع البعثة التالية مدفعاً نحاسياً وآخر حديدياً، وآلات منجنيق

ومغارف تلقيم، وبارود أفعواني وأربعمئة حمل من الكبريت، وخمسمئة قوس ونشاب من خشب الطقسوس وبرميلين من حبال النشاب، ومئتي رفش، ومجرفة، وعتلة، ومعول، وجلد فرس، ومئة فأس للقتل، وألف حدوة فرس، وثمانية آلاف مسمار. لم يُدفع بعد للصائغ كورنليز الذي صنع مهذّ آخر طفلٍ للملك، ذاك الذي لم يبصر النور أبداً. وهو يدّعي أنه دفع عشرين شلناً لهانز.

كان يتحدّث إلى أشخاص في فلورانس لاستجار مئة مقاتل يستخدمون القرابينة* من أجل الحملة الأيرلندية. فهم لا يرمون سلاحهم، كما يفعل الإنكليز، إن اضطروا إلى المحاربة في الغابات أو على الأراضي الصخرية. قال الملك: "عاماً سعيداً يا كرومويل، وأتمنى لك أعواماً سعيدة قادمة". فكّر في نفسه قائلاً: ليس للحظ علاقة بذلك. من بين جميع الهدايا التي تلقّاها هنري، كانت لوحة أنسيلما هي أكثر الهدايا التي أعجبت هنري، بالإضافة إلى بوق مصنوع من قرن وحيد القرن، وآلة لعصر الليمون مزينة بحرف "ه". ذهبيّ كبير.

في أوائل العام الجديد منحه الملك لقباً لم يحمله أحد من قبل: وكيل الشؤون الروحية، نائبه في الشؤون الكنسية. كانت الشائعات عن إغلاق الأديرة تسري في المملكة منذ أكثر من ثلاث سنوات. الآن، أصبح يملك سلطة زيارة الأديرة وتفتيشها وإصلاحها، وإغلاقها إن دعت الحاجة. كان بالكاد ثمة أديرة غير مطّلع على شؤونها، بفضل تدريبه على يد الكاردينال والرسائل التي تصل يومياً. كان بعض الرهبان يشكون من سوء المعاملة والفضائح وعدم إخلاص رؤسائهم، بينما يسعى آخرون إلى مناصب داخل جماعاتهم، ويؤكّدون له أنّ كلمة واحدة منه في المكان المناسب ستجعلهم مدينين له إلى الأبد.

قال لشابوي: "هل زرت يوماً كاتدرائية شارتر؟ يسير الداخل إليها عبر متاهة، مبنية في الفناء، تبدو للوهلة الأولى غامضة جداً. ولكن إن مشيت فيها بثقة، فستقودك مباشرة إلى المركز، مباشرة إلى المكان الذي ينبغي أن تكون فيه".

رسمياً، بالكاد يتحدّثان هو والسفير. ولكن على الصعيد غير الرسمي، أرسل إليه شابوي راقوداً* من زيت الزيتون الجيد، فبادلته بعدد من الديكة المسمّنة. وصل السفير بنفسه، يتبعه خادم يحمل جبن البارميزان.

بدا على شابوي الحزن والبرد. "ملكتم المسكينة تمضي الموسم في تقشّف في كيمبولتون. إنّها خائفة كثيراً من المستشارين المهترقين المحيطين بزوجها إلى حدّ أنّها أمرت أن يُطبخ طعامها على نار في غرفتها. كما أنّ كيمبولتون هو أقرب إلى

إسطنبول منه إلى منزل".

أجابه بسرعة: "هراء". أعطى السفير شراباً يدفئ جسده. "لم ينقلها من باكدن إلاً لأنها اشتكت من الرطوبة. كيمبولتون هو منزل جيد جداً".

"آه، أنت تقول ذلك لأن جدرانه سميكة، وفيه خندق مائي عريض". فاحت في الغرفة رائحة العسل والقرفة، وطقق الخشب في الموقد، بينما أرسلت الأغصان الخضراء التي يزين بها البهو رائحةً راتنجيةً خاصةً بها. "كما أن الأميرة ماري مريضة".

"آه، الأميرة ماري مريضة دائماً".

"وهذا سبب إضافي للعناية بها!". ولكن شابوي لطف نبرته. "لو أنه يُسمح لوالدتها برؤيتها، فسيريحها هذا كثيراً".
"بل سيريح مخططاتهما للفرار".

"أنت رجل بلا قلب". ارتشف شابوي شرابه. "كما تعرف، الإمبراطور مستعد لتحمّل صديقتك". حلّ صمت مثقل بالمعاني، تتهدّ خلاله السفير. "ثمّة شائعات عن أن لا أنا مصدومة، وأن هنري ينظر إلى امرأة أخرى".

أخذ نفساً وبدأ يتحدّث. هنري لم يملك الوقت لنساء أخريات، فهو مشغول جداً بعد أمواله. كان يزداد انغلاقاً، ولا يريد أن يطلع البرلمان على مدخوله. وجدت صعوبة في جعله يدفع أيّ شيء للجامعات، أو لبنائيه، أو حتى للفقراء. لم يفكر سوى بالمدافع، والذخائر، وبناء السفن، والمنارات، والحصون.

لوى شابوي فمه. كان يعرف متى تلتق له قصّة، وإلا، ما المتعة من ذلك؟ "إذاً، هل عليّ إخبار سيدي أن ملك إنكلترا مندفع إلى الحرب إلى حدّ أنه لا يملك الوقت للحبّ؟".

"لن تقع حرب ما لم يشنّها سيّدك. ومع العثمانيين الذين يجرون في أعقابهم، بالكاد يملك الوقت لذلك. آه، أعرف أن خزائنه بلا قرار. في إمكان الإمبراطور أن يفلسنا إن شاء". ابتسم متابعاً: "ولكن ماذا سيستفيد من ذلك؟".

هكذا كان يُصنع مصير الشعوب، رجالان في غرفتين صغيرتين. انس أمر احتفالات التتويج، واجتماعات الكرادلة السريّة، والأبّهة والمواكب. هكذا تغيّر العالم: فيشة تُدفع عبر طاولة، حركة ريشة تعدّل قوة جملة، تنهيدة امرأة وهي تمرّ وتترك في الهواء أثراً من رائحة زهر الليمون أو ماء الورد، يدها التي تغلق ستارة سرير... كان على الملك أن يتعلّم الآن كيف يتجاوز التفاصيل، يقوده جشع ذكيّ. تماماً مثل أبيه،

كان يعرف جميع أسر إنكلترا وما تملكه. سجّل أملاكها في رأسه، حتّى آخر جدول وأيكة. والآن أصبحت أملاك الكنيسة تحت سيطرته، وأراد معرفة قيمتها. كان قانون الملكية - القانون عموماً - قد اكتسب تعقيداً مزعجاً، مثل سطح لزج تكسوه الطحالب. ثمة ما كان يكفي من المحامين ولكن ما مدى القدرة التي يحتاج إليها التغيير بحسب التوجيهات؟ ربما كان الإنكليز يعتقدون بالخرافات، ربّما كانوا يخافون من المستقبل، ربّما كانوا لا يعرفون ما هي إنكلترا، ولكنّ مهارات الزيادة والحذف لم تنقصهم. في ويستمينستر ألف قلم قادر على الشطب، ولكنّ هنري احتاج، برأيه، إلى رجال جدد، وتركيبات جديدة، وتفكير جديد. في هذه الأثناء، أطلق كروموويل مفوضيه في الطرقات. فالور إكليزياستيكوس (قيّموا الأملاك الكنسيّة). قال: "سأتمّ ذلك في غضون ستة أشهر". صحيح أنّه لم يسبق لأحد أن قام بهذا العمل من قبل، ولكنّه قام حتّى الآن بكثير من الأعمال التي لم يسبق لأحد آخر أن حلم بها حتّى.

في أحد الأيام من أوائل الربيع، عاد من ويستمينستر وهو يشعر بالبرد. كان وجهه يؤلمه وكانّ عظامه مفتوحة على الهواء البارد، لتعيد إلى ذاكرته ذلك اليوم الذي سحقه فيه والده على الحصى، مع المشهد الجانبي لحذاء والتر. أراد العودة إلى أوستن فرايرز، لأنّه ركّب سخّانات فيه والمنزل بأكمله دافئ. أمّا منزل تشانسري لاين، فلم يكن دافئاً سوى في بعض الأماكن. بالإضافة إلى ذلك، أراد أن يكون خلف سوره.

قال ريتشارد: "سير، لا يمكن لك الاستمرار في العمل ثماني عشرة ساعة في اليوم إلى الأبد".

"كان الكاردينال يفعل ذلك".

في تلك الليلة، ذهب في منامه إلى كينت. كان يراجع حسابات دير بايهام، الذي كان سيتمّ إغلاقه بناء على أوامر وولزي. أمام وجوه الرهبان العدوانية التي كانت تحوم فوقه، شتم وقال لرايف: "اجمع هذه الدفاتر وحملها على ظهر البغل، سأراجعها في أثناء العشاء مع كأس من الشراب". كان الصيف في أوجه. امتطيا جواديهما، ومشى البغل خلفهما ببطء. سلكا طريقاً عبر كروم الدير، وانغمسا مع الطريق في ظلمة الأحراج، في وعاء الأجمات الخضراء، بأوراقها العريضة في أسفل الوادي. قال لرايف: "نحن مثل يسروعين ينزلقان عبر أوراق خسة". مرّاً مجدداً في فيض من الضوء وارتفع أمامهما برج قصر سكوتتي الذي راحت جدرانه الرملية ذات اللونين الذهبي والرمادي تلمع فوق الخندق المائي المحيط بها.

استيقظ. هل كان يحلم بكيننت، أم كان هناك فعلاً؟ لا تزال أشعة الشمس تتفرق فوق بشرته. نادى كريستوف.

لم يحدث شيء. ظلّ ممدّداً، ولم يأت أحد. كان الوقت مبكراً، فما من أصوات تصدر من المنزل في الأسفل. كانت النوافذ مغلقة، والنجوم تكافح للدخول، محاولة التسلّل عبر شقوق الخشب. خطر له أنّه لم ينادِ كريستوف فعلاً، بل حلم بذلك وحسب.

أتى معلمو غريغوري العديدون وقدموا إليه رزمة من الفواتير. وقف الكاردينال أمام سريره، مرتدياً زيّه الكامل. أصبح الكاردينال كريستوف، فتح النافذة، ووقف أمام الضوء. "هل أنت مصاب بالحمّى، سيّدي؟".

بالطبع هو كان يعرف، بشكل أو بآخر؟ هل تحتمّ عليّ فعل كلّ شيء، ومعرفة كلّ شيء؟ قال: "آه! إنّها الحمّى الإيطالية"، وكأنّ هذا يسقطها من الاعتبار. "إذاً، هل يجب علينا إحضار طبيب إيطالي؟"، بدا كريستوف متشككاً.

كان رايف هنا، فضلاً عن جميع سكان المنزل. تشارلز براندون كان هنا أيضاً، وظنّ أنّه حقيقي، إلى أن أتى مورغان وويليامز، الذي توفي منذ سنوات، وويليام تيندايل، الموجود في أنتويرب، ولا يمكنه المخاطرة بالمجيء. سمع على السلم خطوات أبيه العنيفة، بجذائه ذي الأطراف الفولاذية.

صرخ ريتشارد كرومويل: "هدوء رجاء". عندما صرخ، بدا ويلزياً. ظنّ أنّه ما كان ليلاحظ ذلك في يوم عادي. أغمض عينيه، وتحركت نساء خلف جفنيه، شقافات مثل سحليات صغيرة، تضرب بذيلها. كانت ملكات إنكلترا الأفاعي، المتغطرات، بأنيابهنّ السوداء، تجررن بياضاتهنّ الملوّثة بالدماء وأثوابهنّ. كنّ يقتلن أولادهنّ ويأكلنهم، فهذا معروف. يعمدن إلى امتصاص نخاعهم العظمي حتّى قبل ولادتهم. سأله أحدهم ما إذا كان يريد الاعتراف.

"هل عليّ ذلك؟".

"أجل، سيّدي، وإلاّ ظنّوك مهرطقاً".

قال في نفسه: ولكنّ خطاياي هي مصدر قوّتي، الخطايا التي ارتكبتها والتي لم يجد الآخرون حتّى فرصة لارتكابها. أنا أحتضنها بقوّة، فهي لي.

"إن كان لا بدّ لي من الاعتراف، أريد رولاند".

قالوا له إنّ الأسقف لي في ويلز، وقد يستغرق حضوره أيّاماً.

أتى د. باتس، مع أطباء آخرين، أرسلهم الملك. شرح له: "إنّها حمّى التقطّتها في

إيطاليا".

حدّق إليه باتس عابساً. "فلنقل إنّها كذلك".

"إن كنت أحتضر، أرسلوا بطلب غريغوري، فلديّ ما أقوله له. وإن لم أكن كذلك، فلا تقاطعوا دراسته".

قال باتس: "كرومويل، ما كنت لأقتلك حتّى لو قصفتك بمدفع. البحر سيلفظك، وحطام سفينة سيعيدك إلى اليابسة".

تكلّموا عن قلبه، وسمعهم. شعر أنّه لا ينبغي لهم ذلك: فكتاب قلبي كتاب خاصّ، وليس سجلاً تجارياً موضوعاً على طاولة، كلّما مرّ به موظف يخربش عليه. أعطوه جرعة يشربها. بعد وقت قصير، عاد إلى دفاتر المحاسبة. راحت السطور تتمايل والأرقام تختلط ببعضها بعضاً، وكلّما جمع جدولاً، يتبدّد المجموع ويفقد معناه. ولكنّه واصل المحاولة، وجمع مراراً وتكراراً، إلى أن خفّت عنه وطأة السمّ أو الجرعة الشافية التي سقوه إيّاها، واستيقظ. بقيت صفحات الدفاتر أمام عينيه. ظنّ باتس أنّه يرتاح كما أمر، ولكن في خلوة عقله راحت الأرقام الصغيرة تخرج من الدفاتر، مستعينة بأذرع وأرجل من الحبر، وتتجوّل حوله. كانت تحمل الحطب إلى المطبخ، ولكنّ لحم الغزال المعدّ للنقطيع تحوّل مجدّداً إلى غزال، وراح يحفّ نفسه ببراءة على جذوع الأشجار. استعادت الطيور ريشها، وقفزت مجدّداً على الأغصان التي لم تقطع بعد للحطب، وعاد العسل إلى النحل، وعاد النحل إلى الفقير. كان يسمع الأصوات الصادرة من المنزل في الأسفل، ولكنّه منزل آخر في بلد آخر: قعقة القطع النقدية التي تتبادلها الأيدي، وصرير الصناديق الخشبية فوق الأرض الحجرية. كان يسمع صوته، وهو يروي قصّة في توسكانا، في بوتتي، في المخيم الفرنسي، وبلاطينية بربري. قد تكون هذه هي المدينة الفاضلة؟ فوسط ذلك المكان، الذي هو عبارة عن جزيرة، ثمة مكان يدعى أموروتوم، أي مدينة الأحلام.

أتعبه المجهود الذي يبذله لتفكيك رموز العالم. أتعبه مجهود الابتسام للعدوّ.

أتى توماس إيفري من منزل المحاسبة. جلس قربه وأمسك بيده. أتى هيوغ لاتيمر وراح يتلو المزامير. أتى كرانمر ونظر إليه بتشكّك. ربّما يخشى أن يسأله، تحت وطأة الحمّى، كيف حال زوجتك غريت في هذه الأيام؟

قال له كريستوف: "أتمنّى لو أنّ سيّدك القديم الكاردينال كان هنا ليريحك، سير. فقد كانت صحبته مريحة".

"ماذا تعرف عنه؟".

"لقد سرقتك، سير. ألم تعلم؟ سرقت طبقه الذهبي".
جاهد للجلوس. "كريستوف؟ أنت الصبي الذي سرقتك في كومبيان؟".
"بالطبع أنا. كنت أصعد وأنزل السلم حاملاً دلاءً من المياه الساخنة للاستحمام،
وفي كل مرة أضع طبقاً ذهبياً في الدلو الفارغ. شعرت بالأسف على فعلتي، لأنه كان
لطيفاً جداً: ماذا؟ أنت مجدداً مع دلوك، يا فابريس؟ في الواقع، فابريس كان اسمي
في كومبيان. قال لهم: قدموا عشاءً إلى هذا الصبي الفقير. هكذا تذوّقت المشمش،
الذي لم أكن قد ذقته من قبل".
"ولكن ألم يقبضوا عليك؟".

"قبضوا على سيدي الذي كان لصاً محترفاً جداً. وسّموه، وحدثت مطاردة. ولكن،
سيدي، كان ينتظرنى مستقبل أعظم".
قال: "أذكر، أذكر كاليه، والخميين، وآلة الذاكرة. "غيدو كاميلو يصنعها لفرانسوا
ليكون أكثر الملوك حكمة على وجه الأرض، ولكن الأبله لن يتعلم أبداً كيفية
استعمالها".

قال باتس: "إنه يهذي، فحرارته ترتفع". ولكن كريستوف قال: "كلاً، أوكد لك أنّ
ثمّة رجلاً في باريس بنى نفساً. إنه بناء ولكنه حي. في داخله رفوف صغيرة، وعلى
تلك الرفوف، كنت تجد رقاً، وبعضاً من كتابات. إنها مثل المفاتيح، التي كانت تؤدي
إلى صندوق يحتوي على مفتاح لصندوق يحتوي على مفتاح آخر، ولكن هذه
المفاتيح ليست معدنية، وتلك الصناديق ليست خشبية".
سأل أحدهم: "إذاً، ممّ هي مصنوعة، أيها الضفدع؟".
"إنها مصنوعة من نفس. إنها ما كنّا سنتركه لو أنّ جميع الكتب أُحرقَت. لن تمكّنا
من تذكّر الماضي فحسب، بل والمستقبل أيضاً، ورؤية جميع الأشكال والعادات التي
ستسكن الأرض يوماً".

قال باتس: "إنه ملتهب". ففكر في بيلني الصغير، وكيف وضع يده في شعلة
الشمعة ليلة موته، ليتذوّق الألم. أحرقت النار جلده المنكمش، وأمضى الليل وهو يئنّ
مثل طفل ويمتصّ يده المسلوخة. وفي الصباح، جرّه أعضاء مجلس مدينة نورويتش
إلى الحفرة التي أحرق فيها أسلافهم الويكليفيين. وحتى بعدما احترق وجهه، ظلوا
يسعّرونها بشعارات ورايات البابوية، فيستشيط قماشها ويشتعِل، وتتكمش رسوماتها في
الدخان.

طلب الماء بتهذيب وبعده لغات. قال باتس: "ليس الكثير، بل قليلاً قليلاً". كان قد

سمع بجزيرة تدعى أورموز، هي أكثر الممالك جفافاً على وجه الأرض، لا تحتوي لا على أشجار ولا على مزروعات، بل على ملح وحسب. إن وقفت في وسطها، ونظرت عبر أكثر من ثلاثين ميلاً من الأرض الرمادية المنبسطة في جميع الاتجاهات، فسترى خلفها الشاطئ المزين باللؤلؤ.

أنت ابنته غرايس ليلاً. كانت محاطة بنورها، وملفوفة بشعرها البراق. راقبته بثبات، ومن دون أن يرف لها جفن، حتى حلّ الصباح. وعندما فتحو النافذة، كانت النجوم باهتة، والشمس والقمر معلّقان جنباً إلى جنب في سماء شاحبة.

مرّ أسبوع، وبدأ يتحسن. أراد إحضار العمل إلى غرفته، ولكن الأطباء منعه من ذلك. سأل: "كيف ستستمر الأعمال؟". فقال له ريتشارد: "سير، لقد درّبنا جميعاً، ونحن تلامذتك، لقد ابتكرت آلة تفكير تتقدّم وكأنّها حيّة، ولست بحاجة إلى مراقبتها في كلّ دقيقة من كلّ يوم".

قال كريستوف: "مع ذلك، قالوا إنّ لو روا هنري يئنّ وكأنّه هو المريض، مردداً: آه، أين كرومويل؟".

وصلته رسالة. قال هنري فيها: أنا آتٍ لزيارتك. إنّها حمى إيطالية، وأنا واثق أنّها غير معدية.

لم يصدق ذلك. لقد هرب هنري من آن عندما أصيبت بالوباء، حتى في أوج حبه لها.

قال: "أرسلوا إليّ ثورستون". كانوا قد فرضوا عليه حمية خلال مرضه، بحيث عاش على طعام المرضى، ك لحم الحبش. قال: "والآن، ماذا سنحضر؟ خروفاً، محشواً ومشوياً على الطريقة التي رأيته يُحضر فيها مرّة في مأدبة بابوية. أنت بحاجة إلى لحم خروف، وكبد ماعز مفروم. كما ستحتاج إلى بذور الشمّار، والمردقوش، والنعناع، والزنجبيل، والزبدة، والسكر، والجوز، والبيض، وبعض الزعفران. بعض الأشخاص كانوا يضيفون الجبن، ولكننا لا نصنع النوع المناسب هنا في لندن، أضف إلى أنّي لا أجده ضرورياً. إن واجهت مشكلة، فاطلب مساعدة طاهي بونفيزي، سيأتي على الفور".

قال: "أرسل إلى رئيس الدير المجاور، جورج، وقل له أن يدخل رهبانه من الشارع عند مجيء الملك، خشية أن يعمد إلى تنفيذ القانون الإصلاحي باكراً". برأيه، يجب أن تتم العملية ببطء شديد، كي يجدها الناس عادلة، ولا حاجة إلى تشريد الكهنة في الشوارع. فالرهبان الذين كانوا يعيشون على بابه هم مصدر خزي لرهبانيتهم، ولكنهم

جيران طيبون معه. تركوا حجرة طعامهم في الدير، ومن نوافذ غرفتهم تتناهى إليهم ليلاً أصوات حفلات العشاء المرححة. أمكنك في أيّ يوم الانضمام إليهم وتناول الشراب خارج بابه. كانت كنيسة الدير أقرب إلى سوق، وسوق بشرية أيضاً. فالحيّ مليء بالشباب العزّاب من منازل التجّار الإيطاليين، الذين كانوا يمضون عامهم في لندن. غالباً ما دعاهم إلى بيته، وعندما كانوا يغادرون مائدته (بعدما يستنفد منهم المعلومات المتعلقة بالسوق) يعرف أنّهم يندفعون إلى فناء الدير، الذي تحتمي فيه فتيات لندن المغامرات من المطر، وتنتظرن تبادل العبارات الودودة.

* * *

في 17 نيسان/إبريل، قام الملك بزيارته. عند الفجر، انهمر المطر بغزارة. وعند الساعة العاشرة، أصبح الهواء لطيفاً كمخيض اللبن. كان جالساً على مقعد، ونهض عنه. عزيزي كرومويل: قبله هنري بقوة على خديه، ثمّ أمسكه من ذراعيه ثمّ (في حال كان يظنّ نفسه أقوى رجل في المملكة) أجلسه مجدداً، قائلاً بنبرة حازمة: "اجلس ولا تجادلني. لا تجادلني لمرة واحدة، يا سيّدي الوزير".

كانت سيّدتا المنزل، ميرسي وشقيقة زوجته جوان، متأنّقتين مثل سيّدات والسنغهام في يوم عيد. ألقتا عليه التحيّة في انحناءة طويلة، بينما مال هنري فوقهما، بملابسه غير الرسميّة، مع سترة من القماش المقصّب الفضيّ، وقد علّق على صدره سلسلة ذهبية كبيرة، وراحت خواتم الزمرد الهندي تلمع في أصابعه. لم يكن قد فهم بعد العلاقات الأسريّة التي تربط أفراد المنزل، وهو أمر لا يلام عليه. سأل جوان: "هل أنت شقيقة السيّد الوزير؟ كلاً، أعذرنني. تذكّرت الآن أنّ شقيقتك بيت توفيت في العام نفسه الذي خسرت فيه أختي الحبيبة".

كانت جملة بسيطة جدّاً من شفّتي ملك. وعند ذكر تلك الخسارة، فاضت عيون المرأتين بالدموع، فمسح هنري دموعهما بإصبعه بحذر، ودفعهما على الابتسام. أمّا العروسان الصغيرتان، أليس وجو، فدار بهما في الهواء وكأنتهما فراشتان، وقبلهما على شفاههما، قائلاً إنّهُ يتمنّى لو عرفهما في شبابه. فالواقع المحزن، يا سيّدي الوزير، أنّه كلّما ازداد الرجل سنّاً، كلّما ازدادت الفتيات جمالاً.

قالت ميرسي للملك، وكأنتها تتحدّث إلى أحد الجيران: "كفاك مبالغة، سيّدي، لا تزال شاباً". بسط هنري ذراعيه، وعرض نفسه أمام الموجودين قائلاً: "سأبلغ الخامسة والأربعين في تموز/يوليو".

لاحظ عبارات الدهشة، التي تركت الأثر المطلوب. فقد سرّ هنري. مشى هنري في الغرفة يتأمّل لوحاته، وسأل عن هوية الأشخاص الذين ظهرُوا

فيها. نظر إلى صورة أنسيلما، المعلقة على الجدار. أضحكهم عندما حمل بيلاً وتحدّث إليها بفرنسية هونور ليسيل الفضيعة. "أرسلت الليدي ليسيل إلى الملكة مخلوقاً صغيراً، حتّى إنّه أصغر من هذه. يميل رأسه جانباً ويرفع أذنيه، وكأنّه يقول: لماذا تتحدّثون إليّ؟ فأسمته بوركوا (أي لماذا)". عندما يتحدّث عن أن يفيض صوته بشعور من الافتتان، كالعسل الصافي. ابتسمت النساء (أليس، جو، وجوان)، وقد سرّهن أن يكون الملك مثلاً يحتذى في هذا الشأن. "أنت تعرفه، كرومويل، سبق أن رأيته على ذراعها، فهي تحمله أينما ذهبت. أحياناً"، وهزّ رأسه بحكمة، "أحياناً أشعر أنّها تحبّه أكثر منّي. أجل، أنا آتي في المرتبة الثانية بعد الكلب".

جلس مبتسماً، من دون أن يشعر بشهية للأكل، يراقب هنري وهو يأكل من الأطباق الفضيّة التي صمّمها هانز.

تحدّث هنري بلطف إلى ريتشارد، وسمّاه قريبه. أشار إليه كي يقف بجواره وهو يتحدّث إلى مستشاره، وللباقيين بالابتعاد قليلاً. "ماذا لو أنّ الملك فرانسيس فعل كذا، وقال كذا، هل كان يتعيّن عليّ عبور البحر بنفسني للتوصل معه إلى اتفاق ما، أم تذهب إليه أنت عندما تستعيد عافيتك؟ ماذا لو أنّ الأيرلنديين، ماذا لو أنّ الاسكوتلنديين، ماذا كان سيحلّ إن خرجت الأمور عن سيطرتنا واندلعت الحروب في بلادنا كما حدث في ألمانيا، ونصّب القرويون أنفسهم ملوكاً؟ ماذا كان سيحدث إن اجتاح تشارلز البلاد ونزلت كاثرين إلى ميدان القتال؟ فهي ذات طبيعة حماسية، والشعب يحبّها، والله يعلم لماذا لا أفعل".

قال: "إن حدث هذا، كنت سأنهض عن هذا المقعد وأنزل إلى الميدان، حاملاً سفي بيدي".

بعد أن استمتع الملك بطعامه، جلس معه وتحدّث بلطف عن نفسه. أعاد يوم نيسان/إبريل، المنعش والممطر، إلى ذاكرته اليوم الذي توفي فيه والده. تحدّث عن طفولته: "عشت في قصر إيلتهام، وكان لديّ مهرج يدعى غوز. عندما بلغت السابعة من عمري، ثار الكورنواليون، بقيادة عملاق، هل تذكر ذلك؟ حينذاك، أرسلني والذي إلى البرج حفاظاً على سلامتي. قلت له: دعني أخرج، أريد القتال! لم يخفني عملاق من الغرب، بل أخافتني جدّتي مارغريت بوفورت، لأنّ وجهها كان كوجه الأموات، وقبضتها على رسغي مثل قبضة هيكل عظمي".

قال: "عندما كنّا صغاراً، كان يقال لنا إنّ جدّتك أنجبت والدكم الملك عندما كانت امرأة صغيرة بسنّ الثالثة عشرة. كان ماضيها مثل سيف ترفعه فوقنا. ما هذا يا

هاري، أنت تضحك في شهر الصوم؟ عندما كنت أكبر منك بقليل، أنجبت التيودور. ما هذا يا هاري، أنت ترقص؟ ماذا يا هاري، أنت تلعب بالكرة؟ كانت حياتها بأكملها عبارة عن واجب. أوت في منزلها في ووكينغ اثني عشر فقيراً وأجبرتني مرّة على الركوع لغسل أرجلهم الصفراء في حوض من الماء. كانت محظوظة لأنني لم أتقيأ. كانت تبدأ بالصلاة كلّ صباح عند الساعة الخامسة. وتركع لتصلي، تبكي من ألم ركبتها. وكلّما أقيم احتفال، لمناسبة زفاف أو ولادة، أو لمجرّد الفرح، هل كنت تعرف ماذا كانت تفعل؟ في كلّ مرّة؟ من دون استثناء؟ كانت تبكي".

وبالنسبة إليها، كان آرثر كلّ شيء، كان نور حياتها. "وعندما توجّبت ملكاً عوضاً منه، مرضت وماتت من حسرتها. وهل تعرف ماذا قالت لي على فراش الموت؟"، ضحك هنري ساخراً، "أطع الأسقف فيشر في كلّ شيء! ليتها طلبت من فيشر أن يطيّعني!".

عندما رحل الملك مع حاشيته، وأتت جوان للجلوس معه. تحدّثا بهدوء، مع أنّهما لم يقولا ما لا ينبغي سماعه. "حسناً، سارت الأمور على خير ما يرام".
"علينا تقديم هديّة إلى الطهارة".

"جميع أفراد المنزل قد أحسنوا صنعاً. أنا سعيدة لأنني رأيته".
"هل كان كما توقّعت؟".

"لم أكن أظنّه بهذا الحنان. أفهم سبب كفاح كاثرين للاحتفاظ به. أعني هي لا تسعى إلى البقاء ملكة فحسب، وهذا ما تعتبره حقّها، بل تسعى إلى الحفاظ على زوجها. أعتقد أنّه رجل جدير جدّاً بالحبّ".
هتفت أليس: "خمسة وأربعون! ظننت أنّه أكبر سنّاً".

قالت لها جو ساخرة: "كنت مستعدّة للنوم معه من أجل حفنة من الياقوت. أنت قلت ذلك".

"حسناً، وأنت من أجل رخص الاستيراد!".

نهرهما قائلاً: "توقّفا أيتها الفتاتان! ماذا لو سمع زوجاكما؟".

قالت جو: "زوجانا يعرفان من نحن، لا يمكننا التصرف على عكس طبيعتنا. لا يأتي المرء إلى أوستن فرايرز بحثاً عن فتيات صغيرات خجولات. أتساءل كيف أنّك لم تسلّحنا".

"العادات تمنعني، وإلاّ لأرسلتكما إلى أيرلندا".

راقبت جوان جدالهم. وعندما أصبحا بمفردهما، نظرت إلى الخلف لتتأكد من أنّ

أحداً لا يسمع، ثمّ تمتمت: "لن تصدّق ما سأقوله لك".
"جرّبيني".

"هنري يخاف منك".

هزّ رأسه: "من يخيف أسد إنكلترا؟".

"أجل، أقسم لك. كان عليك رؤية وجهه عندما قلت إنك ستحمل سيفك بيدك".

أتى دوق نورفولك لزيارته، ومشى يخشخش في الفناء، حيث كان خدمه يهتمون بجواده. "إنّه الكبد، أليس كذلك؟ كبدى أصبح ممزّقاً. وخلال السنوات الخمس الماضية، كانت عضلاتي تضعف. انظر!"، ومدّ له يده، "جرّبت جميع أطباء المملكة، ولكنهم لم يعرفوا سبب أوجاعي. مع ذلك، لا ينسون أبداً إرسال فواتيرهم".
كان يعرف جيّداً أنّ نورفولك لا يدفع أبداً للأمور البسيطة مثل فواتير الأطباء.
قال الدوق: "كما أنّ المغص يحيل حياتي إلى جحيم. أحياناً، أمضي الليل بطوله في بيت الخلاء".

قال رايف: "على سيادتكم أن يأخذ الأمور ببساطة أكبر". كان يعني، ألاّ يزدرد طعامه، وألاّ يسرع وكأنّه حصان بريد.

"أنا أنوي ذلك، صدّقني. لقد أوضحت لي ابنة أختي أنّها لا ترغب لا في صحبتي ولا في مشورتي. أنا متوجّه إلى منزلي في كينينغ هول، وفي إمكان هنري أن يجدني هناك إن أراد. شفاك الله، يا سيّدي الوزير. الصلاة مفيدة إن صعب عليك عمل ما، وأيضاً لمكافحة الصداغ، إنّه ينفع معي". بحث في سترته. "أحضرت لك قلادة مباركة من البابا، آسف، أقصد أسقف روما". وضعها على الطاولة. "أظنّ أنّك لا تملك واحدة على الأرجح".

عندما خرج من الباب، تناول رايف القلادة. "قد تكون ملعونة".

سمعا الدوق وهو يتحدّث على السّلم، ويشتكي بصوته المرتفع: "ظننت أنّه يوشك على الموت! قيل لي إنّه يحتضر...".

قال لرايف: "ودّعه".

ابتسم رايف. "وسوفولك أيضاً".

لم يصفح هنري أبداً عن غرامة الثلاثين ألف باوند التي فرضها عندما تزوّج سوفولك من شقيقته. كان يتذكّرها من وقت إلى آخر، وهذا ما حدث اليوم. اضطرّ براندون إلى التنازل عن أراضيّه في أوكسفوردشاير وبيركشاير لتسديد ديونه، ولم يعد يحتفظ الآن سوى بمنزل صغير في الريف.

أغمض عينيه، وشعر بالسعادة لدى التفكير في أنه تخلّص من الدوقين. أتى جاره شابوي لزيارته. "أخبرت سيّدي في البرقيات أنّ الملك قد زارك. أدهشه أن يقوم الملك بزيارة إلى منزل خاصّ، لشخص ليس لورداً حتّى. ولكنني قلت له، عليك رؤية العمل الذي يقوم به كرومويل". قال: "يجب أن يكون لديه خادم مثلي. ولكن أوستاش، أنت منافق قديم كما تعلم، وقد ترقص على قبري".

"عزيزي توماس، أنت دائماً الخصم الوحيد". هربّ له توماس إيفري كتاب لوقا باتشوري عن ألغاز الشطرنج. وسرعان ما حلّ جميع الألغاز، وأضاف المزيد منها على صفحات بيضاء في الخلف. أحضرا إليه رسائله واطّلع على آخر الكوارث. يقال إنّ الخياط في مونستر، ملك القدس ذو الستّ عشرة زوجة، تتاجر مع إحداهنّ وقطع رأسها في الساحة العامة. عاد إلى العالم ولم يقضِ عليه المرض. عرف من ملابسه أنّه خسر شيئاً من وزنه، وشعر للحظة أنّه أخفّ وزناً، ولم يعد مشدوداً إلى العالم، بل كلّ يوم كان زاخراً بالاحتمالات. هنّاه آل بولين بحرارة على استعادة عافيته. في الواقع، كان يجدر بهم ذلك، لأنهم من دونه ما كانوا في ما هم عليه الآن. وعندما التقى بكرانمر، ظلّ هذا الأخير يميل نحوه ليربّت على كتفه ويشدّ على يده.

في أثناء استعادة عافيته، قصّ الملك شعره. فعل ذلك لإخفاء صلعه المتزايد، مع أنّه لم ينجح إطلاقاً. قام مستشاروه الأوفياء بالمثل، وسرعان ما تحوّل ذلك إلى علامة صداقة بينهم. قال السيّد ريوثسلي: "إن لم أكن أخشاك في السابق، سيّدي، بدأت أفعل الآن".

أجاب: "ولكنك كنت تخشاني سابقاً".

لم يتغيّر شيء في شكل ريتشارد، الذي بقي شعره قصيراً ليتمكّن من وضع الخوذة في أثناء ممارسته المقارعة بالرماح. بدا السيّد ريوثسلي بشعره القصير أكثر ذكاءً، إن كان هذا ممكناً، وبدا رايف أكثر تصميمياً وتنبّهاً. فقد ريتشارد ريتش ملامحه الصببانية، واكتسب وجه سوفولك الضخم براءة غريبة. وبدا المونسينيور زاهداً على نحو خدّاع. أمّا بالنسبة إلى نورفولك فلم يبدُ عليه أيّ تغيير. سأل رايف: "كيف كان شعره سابقاً؟". كانت فروة رأسه مدعّمة بخطوط حديدية رمادية، وكان مهندساً عسكرياً رسمها.

انتشر نمط الشعر القصير في أنحاء البلاد. عندما دخل رولاند لي بيت السجلات،

ظنَّ أن قذيفة مدفع تتقدّم نحوه. بدت عينا ابنه كبيرتين وهادئتين، يطغى عليهما لون ذهبي جامد. قال له وهو يفرك رأسه بحنان: "لكانت أمك بكت على تجاعيد شعرك الطفولية". فسأله غريغوري: "حقاً؟ بالكاد أذكرها".

مع انقضاء شهر نيسان/إبريل، تمّت محاكمة أربعة رهبان خونة. فقد عرض عليهم القسّم تكراراً، ولكنهم رفضوا تأديته. كان قد مضى عام على موت الراهبة. صحيح أنّ الملك أظهر شيئاً من الرحمة نحو أتباعها، ولكنه ليس مستعداً لذلك الآن. إنّ منزل تشارترهاوس في لندن هو مصدر الشرّ، ذاك المنزل الكئيب الذي كان ينام فيه الرجال على القشّ. إنّ المكان الذي بدأ فيه توماس مور دعوته، قبل أن يتبيّن له أنّ العالم بحاجة إلى مواهبه. كان كرومويل قد زار الجماعة المتمرّدة في زيون. تحدّث بلطف، وتحدّث بفضاظة. هدّد وتملق. أرسل رجال دين مستنيرين للدفاع عن قضية الملك، وقابل أفراد الجماعة الساخطين وجعلهم يعملون ضدّ إخوانهم. ولكن، كان ذلك بلا جدوى. فقد كان جوابهم: دعني وشأني، اذهب واترك موتي يطهرني من الخطايا. إنّ كانوا يظنون أنّهم يستطيعون الحفاظ على رباطة جأشهم حتى النهاية، فهم مخطئون، لأنّ القانون يقضي بالعقوبة الكاملة للخائن، الدورة القصيرة في الهواء ونزع الأحشاء علناً، مع نار يتمّ إضرارها لإحراق الأحشاء البشرية. إنّها أفضح أشكال الموت، تجرّع فيها المذنب الألم والغضب والذلّ، وكان خوفه عظيماً إلى حدّ أنّ أقوى المتمرّدين يضعف قبل أن يتمكنّ الجلاّد من القيام بمهمته بخنجره. وقبل أن يموت كلّ مذنب، يشاهد زملاءه، وبعد أن يتمّ قطع الحبل، يتكوّر كالحیوان على الألواح الملوّثة بالدماء.

كان على ويلتشاير وجورج بولين تمثيل الملك في الإعدام العلني، ونورفولك، الذي تمّ أخذه وهو يتدّمّر من البلاد وقيل له أن يستعدّ لإرساله سفيراً إلى فرنسا. فكّر هنري في الذهاب بنفسه لحضور إعدام الرهبان، لأنّ رجال البلاط كانوا سيضعون الأقنعة، ممتطين جيادهم العالية بين الشخصيات الهامة في المدينة وعامّة الشعب، التي زحفت بالمئات لمشاهدة العرض. ولكنّ بنية الملك جعلت من الصعب عليه التنقّل، كما أنّه خشي حدوث تظاهرات لصالح كاثريين، التي لا تزال محبوبة بين أكثر أجزاء المجتمع فساداً. حلّ ريتشموند الشابّ مكاني، هذا ما قرّره الأب. فيوماً ما، قد يضطرّ إلى الدفاع عن لقب شقيقته في المعركة، لذا، كان عليه أن يعتاد على مشاهد وأصوات الذبح.

أتى إليه الصبيّ، عشية موعد الإعدام. "سيدي الوزير، اذهب مكاني".

أجابه، بحزم ومرح: "وهل ستحلّ مكاني، في اجتماعي الصباحي مع الملك؟ فكّر في الأمر على هذا النحو. إن ادعيّت المرض، أو وقعت عن جوادك غداً، أو تقيّأت أمام حميك، فلن يُنسيك ذلك أبداً. إن أردته أن يسمح لك بمشاركة عروسك السرير، فاثبت أنّك رجل. أبقِ نظرك على الدوق، وتصرف مثله".

ولكنّ نورفولك نفسه أتى إليه بعد انتهاء الإعدام، وقال: "كرومويل، أقسم لك بحياتي إنّ أحد الرهبان تكلم بعد اقتلاع قلبه. صاح: ربّاه، ربّاه أنقذنا، إنّنا إنكليزيون مساكين".

"كلاً، سيّدي اللورد. هذا غير ممكن".

"هل أنت واثق من ذلك؟".

"أعرف عن تجربة".

صمت الدوق. فليعتقد أنّ ماضيه اشتمل على اقتلاع قلوب الناس. "أظنّ أنّك على حقّ". تابع نورفولك قائلاً: "لا بدّ من أنّ الصوت كان صادراً من بين الحشود".

عشية إعدام الرهبان، كان قد وقّع على إذن لمارغريت روبر، هو الأوّل منذ أشهر. خطر له أنّه إن كانت ميغ مع أبيها لحظة اقتياد الخونة إلى نهايتهم، فستضعف بالتأكيد، وستقول لأبيها: هيّا، الملك في مزاج للقتل، عليك أن تقسم اليمين كما فعلت. تحفّظ ذهنياً، أشبك أصابعك خلف ظهرك، فلن يكون عليك سوى أن تطلب كرومويل أو أيّ موظف آخر لدى الملك، ثمّ تقول ما يلزم، وتعود إلى البيت. ولكنّ خطّته فشلت. فقد وقفت مع أبيها بثبات أمام إحدى النوافذ، بينما تمّ اصطحاب الخونة، الذين لا يزالون يرتدون ملابسهم الرهبانية، وبدأوا رحلتهم إلى تيبيرن. قال في نفسه: أنا أنسى دائماً أنّه لا يشفق لا على نفسه ولا على الآخرين. في اليوم التالي، ذهب لرؤية مور بنفسه. كان المطر يهطل بغزارة ويسيل على الأرض تحت قدميه. لم يكن في استطاعته التمييز بين الجدران والمياه، بينما راحت الرياح تصفر من المنعطفات وكأنّها رياح الشتاء. بعدما كافح لنزع الطبقة الخارجية المبلّلة من ملابسه، وقف يتحدّث إلى السجّان مارتن، ويسأل عن أحوال زوجته وطفله الجديد. سأله أخيراً: "كيف حاله؟". وأجاب مارتن: "هل لاحظت مؤخراً أنّه يخفض كتفاً ويرفع الأخرى؟".

قال: "هذا نتيجة كثرة الكتابة. إذ يضع مرفقاً على الطاولة، بينما يخفض الكتف الأخرى". قال مارتن: "حسناً، أيّاً يكن السبب، كان يبدو شبيهاً بأحدب صغير منحوت على مقعد".

كان مور قد ترك لحيته تنمو، فبدأ كما يتخيّل المرء هراطقة مونستر، مع أنّه سيستتكر هذه المقارنة. "سيدي الوزير، ما رأي الملك بالأنباء الآتية من الخارج؟ يقال إنّ جيوش الإمبراطور تتقدّم".

"صحيح، ولكن إلى تونس، على ما أظنّ". ألقى نظرة على المطر. "لو كنت الإمبراطور، ألا تتوجّه إلى تونس عوضاً عن لندن؟ اسمع، أنا لم آتٍ للشجار معك، بل لأرى إن كنت مرتاحاً".

قال مور: "سمعت أنّك حلّفت مهرّجي، هنري باتيسون". وضحك.

"ولكنّ الرجال الذين ماتوا البارحة حذوا حذوك، ورفضوا القسم".

"سأكون واضحاً. أنا لست مثلاً لأحد، بل أمثّل نفسي وحسب. أنا لا أقول شيئاً ضد القانون، ولا أقول شيئاً ضدّ الرجال الذين وضعوه. لا أقول شيئاً ضدّ القسم، ولا ضدّ أيّ رجل يقسم اليمين".

"آه! صحيح"، جلس على صندوق يحتوي على مقتنيات مور، "ولكنّ عدم قول شيء لا يكفي بالنسبة إلى المحكمة، كما تعلم هذا إن استدعى الأمر تشكيل محكمة".

"أنت أتيت لتهديدي".

"إنّ إنجازات الإمبراطور العسكريّة جعلت الملك أقلّ صبراً. فهو كان ينوي أن يرسل إليك هيئة، تطلب منك جواباً مباشراً في ما يتعلّق بلقبه".

"آه! أنا واثق من أنّ أصدقاءك سيكونون بالغّي اللطف معي. اللورد أودلي؟ وريتشارد ريتش؟ اسمع. منذ أن أتيت إلى هنا وأنا أستعدّ لموتي، إمّا على يديك... أجل، يديك أنت... أو على يدي الطبيعة. كلّ ما أطلبه هو السلام والهدوء من أجل صلواتي".

"تريد أن تكون شهيداً".

"كلاً، ما أريده هو الذهاب إلى البيت. أنا ضعيف، توماس. أنا ضعيف شأننا جميعاً. أريد أن يعتبرني الملك خادمه، أحد أتباعه المخلصين، كما كنت دوماً".

"لم أفهم أبداً أين يقع الحدّ الفاصل بين التضحية وقتل الذات".

"المسيح هو من رسمه".

"ألا ترى خطأً في المقارنة؟".

صمت. إنّ ذلك الصمت الصاخب، والمشاكس، الذي برع فيه مور. كان يرتدّ إليه عن الجدران. قال مور إنّه أحبّ إنكلترا، وكان يخشى أن تحلّ اللعنة على شعبها:

"من الجيد أن يموت رجل من أجل الشعب". قال في نفسه: حسناً، كما قلت، أنت تودّ عقد صفقة. ضحّ بنفسك للجلاد إن أردت، ولكنّ الشعب لن يكثرث. "اليوم هو الخامس من أيار/مايو، وبعد يومين، ستأتي اللجنة لزيارتك. سنطلب منك الجلوس، ولكّتك سترفض. ستقف أمامنا وتبدو وكأنّك أب متروك، فيما نحن جالسون بملابسنا التي تقينا برودة الصيف. سأقول ما عندي، وستقول ما عندك، وربّما سأقرّ أنّك انتصرت. سأرحل وأتركك، أنت خادم الملك المخلص كما تقول، إلى أن تنمو لحيتك حتّى ركبتيك وتحيك العناكب بيوتاً على عينيك".

في الواقع، تلك كانت خطته، ولكنّ الأحداث لم تتح له تنفيذها. قال لريتشارد: "هل سبق أن قام أيّ من أساقفة روما بعمل سيئ التوقيت كهذا العمل؟ أعلن فارنيزي تعيين كاردينال جديد في إنكلترا، هو الأسقف فيشر. ثار غضب هنري، وأقسم إنّ سيرسل رأس فيشر عبر الوحل ليتمّ اعتمار قبّعته".

في الثالث من حزيران/يونيو، توجّه بنفسه إلى البرج، مع ويلتشاير عن آل بولين، وتشارلز براندون، الذي بدا وكأنّه ذاهب إلى صيد السمك. رافقه ريتش لتدوين الملاحظات، وأودلي لإطلاق الدعابات. عاد المطر يتساقط، وقال براندون: "لا بدّ من أنّه أسوأ صيف حلّ علينا، أليس كذلك؟". قال: "بلى، لحسن الحظ أنّ جلالة الملك لا يعتقد بالخرافات". ضحكوا، ولكنّ سوفولك بدا متردداً.

قيل إنّ نهاية العالم ستحلّ في عام 1533، وثمّة من عيّنها في العام الفائت أيضاً. لمّ ليست في هذا العام؟ ثمّة دائماً أشخاص مستعدّون للإدعاء أنّ نهاية العالم أصبحت وشيكة. وصلت أنباء من مونستر أنّ السماء تتهاوى بسرعة. كان المحاصرون يطلبون استسلاماً غير مشروط، والمحاصرون يهدّون بالانتحار الجماعي.

سار في المقدمة. قال براندون: "ربّاه! أيّ مكان هذا؟". كانت قطرات الماء تفسد قبّعته. "ألا تجدونه مغمّاً؟".

رفع ريتش كتفيه: "نحن نأتي دائماً إلى هنا، لأمر أو لآخر. إذ يحتاجون إلى سيّدي الوزير في دار سكّ العملة، أو في بيت الجوهرة". أدخلهم مارتين. رفع مور رأسه فجأة لدى دخولهم. قال: "اليوم، إمّا نعم أو لا".

"حتّى من دون صباح الخير، وكيف حالك؟". كان أحدهم قد سرّح لحية مور. "حسناً، ما هذه الأنباء التي وصلتي من أنتويرب؟ هل صحيح أنّ تيندايل قد

اعتقل؟".

قال قاضي القضاة: "هذا خارج عن الموضوع. جاوب على القسم، جاوب على القانون. هل تعتبر القانون شرعياً؟".

"قيل إنه خرج من مخبأه، فقبض عليه جنود الإمبراطور".
سأله ببرود: "هل كنت تعلم؟".

لم يتم القبض على تيندايل وحسب، بل تعرّض للخيانة. فقد أغراه أحدهم للخروج من مخبأه، ومور كان يعرف من رأى نفسه، يعيش يوماً ممطراً آخر، تماماً كهذا، وفيه يعبر الغرفة، ويرفع السجين على قدميه، ثم يضربه حتى يبوح باسم عميله. قال لي سوفولك: "سيادة الدوق، يبدو عليك الغضب الشديد. أرجوك، كن هادئاً".

قال براندون، أنا؟ وضحك أودلي. قال مور: "وسواس تيندايل سيتركه الآن، فالإمبراطور سيحرقه، ولن يحرك الملك ساكناً لإنقاذه، لأنّ تيندايل لم يقبل بتأييد زواجه الجديد".

قال ريتش: "ألا تظنّ أنّه قد يستعيد صوابه هناك؟".
قال أودلي بلطف: "عليك أن تتكلم".

بدا على مور الاضطراب، وتعثرت الكلمات على شفتيه. تجاهل أودلي، وتحدّث إليه، أي كرومويل. "لا تستطيع إجباري على المخاطرة بنفسي. لأنّه لو كان لدي رأي ضدّ قانون السيادة، وهذا ما لا أقرّ به، فسيكون اليمين سيفاً ذا حدّين. إن عارضته، أعرض جسدي للخطر، وإن وافقت عليه، أخاطر بروحي. لذا، لن أقول شيئاً".

"عندما كنت تستجوب الناس الذين اعتبرتهم مهرطقين، لم تسمح لهم بالتهرب. أجبرتهم على الكلام وعدّبتهم إن امتنعوا. إن كانوا مجبرين على الإجابة، فلم لا تكون مجبراً أنت أيضاً؟".

"القضايا مختلفة. فحين أجبر مهرطقاً على الإجابة، هذا لأنّ القانون بأكمله يدعمني، لا بل قوّة العالم المسيحي بأسره. أمّا هنا، فأنا مهّد بقانون معين، إعفاء واحد وُضع حديثاً، غير معترف به في أيّ بلد آخر...".

رأى ريتش يدوّن ملاحظة. أشاح بنظره، وقال: "النهاية واحدة. النار لهم والفأس لك".

قال براندون: "هذا إن نلت ذلك العطف من الملك".

بدا الخوف على وجه مور، الذي ضمّ أصابعه فوق الطاولة. لاحظ الأمر بشرود. إذاً، تلك هي الطريقة المناسبة، علينا أن نخيفه من الموت البطيء. حتى وهو يفكر

فيه، عرف أنه لن يفعل ذلك، فالفكرة مؤذية. "قد أكون أكثر براعة مع الأرقام، ولكن هل نظرت إلى خارطة مؤخرًا؟ لم يعد العالم المسيحي كما كان".
قال ريتش: "سيدي الوزير، فيشر هو رجل أكثر من هذا السجين المائل أمامنا، لأن فيشر يعارض ويتحمل النتائج. سير توماس، لو كنت تجرؤ، لأعلنت خيانتك جهراً".

قال مور بلطف: "كلاً، أنا لا أفرض نفسي على الموت، بل أنتظر أن يشدني إليه".

قال أودلي: "لقد دوننا ملاحظة عن عنادك. سنجنّبك الوسائل التي استخدمتها على الآخرين. إنه لمن دواعي سرور الملك أن ننقل إلى الاتهام والمحاكمة".
"بالله عليكم! ما هو الأذى الذي أسببه من هذا المكان؟ أنا لا أؤذي أحداً. لا بلساني ولا بتفكيرتي. إن لم يكن هذا كافياً لإبقاء رجل على قيد الحياة...".
قاطعته، غير مصدق ما يسمعه. "لا تسبب الأذى لأيّ كان؟ وماذا عن باينهام؟ هل تذكر باينهام؟ لقد صادرت أملاكه، وحكمت على زوجته بالسجن. عذبتّه بالمخلعة أمام عينيك، وسجنته في صومعة الأسقف ستوكسلي. ثم أعدته إلى منزلك وأبقيته ليومين مقيداً على عمود، قبل أن ترسله مجدداً إلى ستوكسلي، ليتعرض للتعذيب وسوء المعاملة لمدة أسبوع، ولكن هذا لم يشف غليلك. بل أرسلته مجدداً إلى البرج ليتم تعذيبه بالمخلعة مجدداً، حتى تكسرت عظامه إلى حد أنهم اضطروا إلى حمله على كرسيّ إلى سميثفيلد ليحرق حياً. وتقول، يا توماس مور، إنك لا تؤذي أحداً؟".

بدأ ريتش يجمع أوراق مور عن الطاولة. كانوا يشتبهون في أنه يمرر رسائل إلى فيشر في الأعلى، وهذا ليس سيئاً، إن أمكن إثبات تواطؤ في قضية خيانة فيشر من خلاله. وضع مور يده عليها، وبسط أصابعه فوقها، ثم رفع كتفيه، وتركها. "خذها إن أردت، أنت تقرّ كل ما أكتبه".

قال: "ما لم نسمع قريباً عن تغيير في نيتك، فنحن مضطرون إلى حرمانك من قلمك وأوراقك، ومن كتبك أيضاً. سأرسل أحدهم لأخذها".
انكمش مور في مكانه. عضّ على شفته، ثم قال: "إن كنت تريد أخذها، فافعل الآن".

قال سوفولك: "هذا مخجل، أتظننا حمّالين، يا سيّد مور؟".

قالت آن: "المشكلة تتعلق بي". انحنى. "لو باح لك مور بما يتقل ضميره الفريد من

نوعه، فستكتشف أنّ السبب الحقيقي هو أنّه يأبى الاعتراف بي ملكة".
بدت قصيرة، وبيضاء، وغازبية. تلاقت رؤوس أصابعها ودفعت بعضها بعضاً
إلى الخلف، فيما لمعت عيناها.

قبل أن يقولوا المزيد، كان عليه أن يذكر هنري بكارثة العام الفائت، أن يذكره أنّه لا
يستطيع جعل الأمور تسير على هواه بمجرد طلب ذلك. ففي الصيف الماضي، تمّ
اتهام اللورد داكر، أحد أسياد الشمال، بالخيانة، لتواطئه مع الاسكوتلنديين. كانت
أسرة كليفورد هي التي تقف وراء الاتّهام، وهم أعداء ومنافسون قدماء لداكر. وخلفهم،
كان يقف آل بولين، ذلك أنّ داكر أيد الملكة السابقة علناً. تمّت المحاكمة في قصر
ويستمينستر، وترأس نورفولك المحكمة، بصفته المسؤول الأعلى في المملكة. وكان
الحكم سيصدر بحقّ داكر من قبل عشرين لورداً، كما تنصّ حقوقه. ولكن... ارتكبت
أخطاء. ربّما كانت المسألة بأكملها هي عبارة عن سوء تقدير، قضية طُرحت بسرعة
وبقوّة من قبل أسرة بولين. ربّما أخطأ لأنّه لم يتولّ المقاضاة بنفسه، إذ ظنّ أنّه من
الأفضل الوقوف جانباً، لا سيّما وأنّ كثيراً من أصحاب الألقاب يحقدون عليه
لشخصه، وقد يخاطرون للإساءة إليه. وربّما كان نورفولك هو المشكلة، لأنّه فقد
السيطرة على نفسه في المحكمة... أيّاً يكن السبب، أُلقيت الاتّهامات، مُرفقة بفيض
من الاستغراب والغضب من جانب الملك. اقتيد داكر مباشرة إلى البرج من قبل
حارس الملك، وأرسل إليه لعقد صفقة معه، عرف أنّها يجب أن تفضي إلى تحطيم
داكر. في المحاكمة، تكلم داكر لسبع ساعات في دفاعه عن نفسه. ولكن هو، أي
كرومويل، يستطيع التحدّث لأسبوع. اعترف داكر بالتستّر على الخيانة وهي جريمة
أقلّ خطورة. ثمّ اشترى عفواً ملكياً بعشرة آلاف جنيه، ليتمّ إطلاق سراحه، ويذهب إلى
الشمال مجدّداً، ولكن كرجل فقير.

بيد أنّ الملكة كانت تغلي غضباً، إذ أرادت أن تجعل منه عبرة لمن يعتبر. كما أنّ
الأمر في فرنسا لا تسير كما تشتهي، إذ يقال إنّ فرانسوا يكتّم ضحكته كلّما ذُكر
اسمها. شكّت، وكانت محقّة، في أنّ خادمها كرومويل هو أكثر اهتماماً بصداقة
الأمرء الألمان منه بتحالف مع فرنسا، ولكن عليها اختيار الوقت المناسب لذلك
الشجار، وكانت تقول إنّها لن ترتاح إلى أن يموت فيشر، وإلى أن يموت مور. هكذا
كانت تدور الآن في الغرفة مضطربة، وليس كما ينبغي لملكة، وكانت تقترب
باستمرار من هنري، لتلمس كمّه، أو تلمس يده، إلاّ أنّه كان يصرفها في كلّ مرّة،
وكأنّها ذبابة. أمّا هو، أي كرومويل، فكان يراقب. كانت علاقتهما تتبدّل بين يوم

وآخر، تتقلب بين الشغف، والبرود والبعد. ولكن عموماً، كانت رؤيتهما وهما يداعبان بعضهما بعضاً هي الأكثر تعذيباً.

قال: "فيشر لا يقلقني، فجريمته واضحة. أمّا في حالة مور... من الناحية الأخلاقية، قضيتنا صحيحة. فلا أحد يشكّ في ولائه لروما ونبذه للقب جلالتكم كرئيس للكنيسة. ولكن من الناحية القانونية، قضيتنا ضعيفة، ومور سيعمد إلى استخدام جميع السبل القانونيّة والإجرائية المفتوحة أمامه. لن يكون ذلك سهلاً".

خرج هنري عن صمته. "وهل استخدمتك من أجل القضايا السهلة؟ ربّاه! اغفر لي سذاجتي. لقد رقيتكَ إلى منصب لم يسبق لأحد من سلالتك أن تولاه في تاريخ هذه المملكة". خفض صوته، ثمّ أضاف: "هل تظنّ أنّي فعلت ذلك بسبب جمال شخصك؟ سحر حضورك؟ أنت هنا، سيّد كرومويل، لأنك لست أكثر وداعة من كيس أفاع. ولكن إياك أن تلسعني. أنت تعرف قراري، فقم بتنفيذه".
في أثناء انصرافه، كان مدركاً للصمت الذي حلّ خلفه. أن تسير نحو النافذة، بينما يحدّق هنري إلى قدميه.

هكذا، عندما دخل ريتش حاملاً أسراراً لم يبح بها، شعر بالرغبة في سحقه مثل ذبابة. ولكنّه ضبط أعصابه، وفرك كفيّه عوضاً من ذلك، وكأنّه أسعد رجل في لندن. "حسناً، يا كيس النقود، هل حزمت الكتب؟ وكيف كان حاله؟".

"أسدل الستائر. سألته لم يفعل ذلك، وقال، البضائع أُخذت، لذا سنغلق الدكان".
بالكاد استطاع احتمال فكرة جلوس مور في الظلام.
"انظر، سير". كان مع ريتش ورقة مطوية. "تحدّثنا قليلاً، ودوّنت حديثنا".
"أخبرني ماذا قلتما". جلس قائلاً: "أنا مور، وأنت ريتش". حدّق إليه ريتش. "هل أغلق الستارة؟ هل من الأفضل تمثيل المشهد في الظلام؟".

قال ريتش بتردد: "لم أتمكّن من تركه من دون المحاولة معه مرّة أخرى...".
"جيد، لديك أسلوبك. ولكن لماذا يتحدّث إليك إن لم يقبل بالتحدّث إليّ؟".
"لأنه لا يملك الوقت لي، يظنّ أنّي لست مهماً".

قال ساخراً: "وأنت النائب العام".
"هكذا، كنّا نعرض بعض القضايا".
"ماذا؟ وكأنكما في لينكونلز إن بعد العشاء؟".

"في الحقيقة، أشفت عليه، سير. كان بحاجة إلى التحدّث إلى أحدهم، فراح يثرثر. قلت له: فلنترض أن البرلمان أصدر قانوناً ينصّ على تنصيبني أنا، ريتشارد ريتش،

ملكاً. أفن تعترف بي ملكاً؟ فضحك".

"في الواقع، عليك الإقرار أنّ هذا أمر مستبعد".

"ألححت عليه. فقال: بلى، جلالتك، لكنك اعترفت بك، بما أنّ البرلمان فعل. ونظراً إلى ما فعله حتى الآن، لن أفاجأ إن استفتت يوماً تحت حكم الملك كرومويل. فيما أنّ خياطاً يمكن أن يصبح ملك القدس، أظنّ أنّ ابن بيطار يستطيع أن يصبح ملك إنكلترا".

صمت ريتشارد؛ هل كان في كلامه إساءة؟ ابتسم له. "عندما أصبح الملك كرومويل، فستكون دوقاً. إذاً، ما هو لبّ الموضوع؟".

"قال مور: حسناً، لقد عرضت قضية، وأنا سأعرض عليك قضية أعلى. فلنفرض أنّ البرلمان أصدر قانوناً ينصّ أنّ الله لم يعد الله؟ أجبته: لن يكون له مفعول، لأنّ البرلمان لا يملك السلطة لإصدار قانون مماثل. فقال: جيّد، أيّها الشاب، على الأقلّ أنت قادر على تمييز السخافات. وهنا توقّف، وألقى عليّ نظرة، وكأنّه يقول، دعنا نتحدّث في عالم الواقع الآن. قلت له: سأطرح عليك قضية متوسطة تعلم أنّ سيّدنا الملك عُيّن من قبل البرلمان رئيساً للكنيسة. لماذا لا تقبل بالتصويت، كما كنت لتفعل لو أنّه نصّبني ملكاً؟ فقال، وكأنّه يعلم طفلاً: القضيتان غير متشابهتين. فالأولى هي عبارة عن سلطة زمنيّة، يمكن للبرلمان ممارستها. أمّا الأخرى فهي سلطة روحية، لا تقع ضمن صلاحيات البرلمان، بل تصدر من خارج هذه المملكة".

حدّق إلى ريتش، ثمّ قال: "اشنقه لأنّه بابوي".

"أجل، سير".

"تعلم أنّه يفكّر كذلك، ولكنّه لم يقلها أبداً".

"قال إنّ قانوناً أسمى يحكم هذه المملكة وجميع الممالك، وإن تجاوز البرلمان قانون

الكنيسة...".

"يقصد قانون البابا، لأنّه يعتبرهما واحداً، لا يمكن أن ينكر ذلك، صحيح؟ لماذا يفحص ضميره دائماً، إن لم يكن ليتحقّق ليل نهار من أنّه يتفق مع كنيسة روما؟ هي عزاؤه، هي مرشده. بدا لي، إن كان ينكر علناً أهلية البرلمان، فإنه ينكر على الملك لقبه، وتلك خيانة. مع ذلك"، رفع كتفيه، "كم يمكن أن يساعدنا ذلك؟ هل يمكننا الإثبات أنّ الإنكار كان خبيثاً؟ قال: على ما أظنّ، إنّه كان مجرد حديث، لتمضية الوقت، وإنّكما كنتما تطرحان قضايا، وما قيل في ذلك السياق لا يمكن أن يستخدم ضدّ رجل".

"ولكن هيئة المحكمة لا تفهم ذلك، بل سيعتبرون أنه يعني ما قاله. ففي النهاية، سير، هو يعلم أنه لم يكن جدل طلاب علم."
"صحيح، فهذه الجدالات لا تدور في البرج."
أعطاه ريتش المذكرة. "لقد كتبتها بأمانة، قدراً أمكنني التذکر."
"ألم يكن معك شاهد؟".

"كانوا يدخلون ويخرجون، يجمعون الكتب في صندوق، إذ كان لديه كثير من الكتب. لا يمكنك لومي على إهمالي، سير، فكيف كان لي أن أعلم أنه سيتحدث إليّ على الإطلاق؟".

"أنا لا ألومك". تنهّد مضيفاً: "في الواقع، أنت قرّة عيني. هل ستشهد على ما تقوله في المحكمة؟".

هزّ ريتش رأسه بتشكك. "قل لي يا ريتشارد إن كنت ستفعل، أو لا. لنكن واضحين. تحلّ باللياقة لقولها الآن، إن كنت تظنّ أنك قد تتخاذل في المحكمة. فلو خسرنا محاكمة أخرى، فسنفقد مصدر رزقنا، وستضيع كلّ جهودنا هباءً."
قال ريتش: "كما ترى، لم يستطع أن يقاوم تصويب خطأي. لن يفوت لي أبداً ما فعلته في صباي. استخدمني ليلقي عظة، إذاً، فلتكن عظته التالية تحت فأس الجلاد".

عشية إعدام فيشر، قام بزيارة مور. اصطحب معه حارساً قوياً، ولكنه أبقاه خارج الغرفة وأبقاه بمفرده. قال مور، بمرح تقريباً: "لقد اعتدت على النوافذ المغلقة، هل تمنع بالجلوس في الضوء الخافت؟".

"لا حاجة إلى الخوف من الشمس، فقد غربت."
"كان وولزي يتفاخر أنه يستطيع تغيير الطقس". ضحك مضيفاً: "لطف منك أن تزورني، توماس، مع أنه لم يعد بيننا ما يقال. هل أنا مخطئ؟".
"سيأتي الحراس من أجل الأسقف فيشر في الصباح الباكر، وأخشى أنهم سيوقظونك".

"لن أكون مسيحياً طيباً إن لم أسهر معه". اخنقت ابتسامته. "سمعت أنّ الملك قد ترأّف به بالنسبة إلى طريقة موته".

"إنه رجل متقدّم في السنّ وضعيف".
قال مور، مماًزحاً بنبرة لاذعة: "كما تعلم، أنا أبذل ما في وسعي. فكلّ إنسان يشيخ بوتيرته الخاصة".

"أصغ إلي". مدّ يديه من فوق الطاولة، ثمّ أمسك يده وأحاط بها بقوة أكثر ممّا أراد. قال في نفسه: إنّها قبضة الحدّاد. رأى مور يجفل. تحسّس أصابعه، فوجدها جافّة كالورق فوق العظام. "اسمع، عندما تمثل أمام المحكمة، ارم نفسك على الفور تحت رحمة الملك".

قال مور متسائلاً: "ويم سيُفيدني ذلك؟".

"إنّه ليس رجلاً قاسياً، أنت تعرف ذلك".

"حقاً؟ لم يكن كذلك. كان يمتاز بطبع لطيف، ثمّ غير رفقته".

"إنّه حسّاس دائماً لالتماس الرحمة. لا أقول إنّهُ سيتركك تعيش، ما لم تقسم اليمين. ولكنّه قد يمنحك الرأفة التي منحها لفيشر".

"ما يحدث للجسد ليس بذي الأهميّة. لقد عشت حياة رغيدة من نواح عدّة. كان الله رحيماً معي ولم يختبرني، ولا يمكنني خذله الآن. كنت دائم الحذر مع قلبي، ولم يعجبني دوماً ما وجدته فيه. إن انتهى به الأمر بين يدي الجلاد، فليكن. سرعان ما سيصبح بين الأموات".

"هل ستعتبرني عاطفياً إن قلت إنّني لا أريد رؤيتك تُذبح؟"، لم يجبه، "ألا تخشى الألم؟".

"أه! بلى، أنا خائف جدّاً، فأنا لست جريئاً وقويّاً مثلك، ولا أكفّ عن تخيّلهِ. ولكنني لن أشعر به سوى اللحظة، وسينسيني إياه الله في ما بعد".

"أنا مسرور لأنني لست مثلك".

"لا شكّ في ذلك، وإلاّ لكنت جالساً هنا".

"أعني أنّ تفكيري ليس مركزاً على العالم الآخر. أدرك أنّك لا ترى إمكانيّة لتحسين هذا العالم".

"على عكسك أنت؟".

كان السؤال وقحاً تقريباً. تساقط وابل من البرد على زجاج النافذة، وأجفلهما معاً. نهض متململاً. كان يفضّل رؤية ما يحدث في الخارج، رؤية الصيف بطقسه العاصف، عوضاً من الاختباء خلف الستارة والتساؤل عن حجم الضرر. قال: "كانت لديّ آمال عريضة في ما مضى، ولكنّ العالم يفسدني، على ما أظنّ. أو أنّه الطقس وحسب. فهو يشدّني إلى الأسفل ويجعلني أعتقد أنّك أن على المرء أن ينكمش على نفسه في الداخل حتى يصبح في حجم نقطة من الضوء، ويحافظ على روحه الوحيدة مثل شعلة تحت زجاجة. إنّ مشاهد الألم والخزي التي أراها حولي، الجهل والرذيلة

الغافلة، الفقر وقلة الأمل، آه! والمطر، المطر الذي يهطل على إنكلترا ويُفسد محاصيلها، يطفئ النور في أعين الناس، ونور العلم أيضاً. فمن يستطيع التفكير، إن كانت أوكسفورد بركة هائلة وكامبريدج تتجرف مع السيل، فمن سينقذ القانون، إن كان القضاة يسبحون خوفاً من الغرق؟ في الأسبوع الفائت قامت أعمال شغب في يورك. وكيف لا، والقمح قليل، ويُباع بضعف ثمنه في العام الماضي؟ عليّ أن أحت القضاة لتنفيذ العدالة، على ما أظنّ، وإلاّ سينتفض الشمال بأكمله، ومن سيدبحون سوى بعضهم بعضاً؟ أنا أعتقد حقاً أنّني أستطيع أن أكون رجلاً أفضل في طقس أفضل. لكنّ رجلاً أفضل لو عشت في بلد شمس مشرقة ومواطنوه أغنياء وأحرار. لو حدث ذلك، سيّد مور، لما اضطررت إلى الصلاة من أجلي بقدر ما تفعل".

قال مور: "كم أنت بارع في الكلام". كلمات، كلمات، مجرد كلمات. "أنا أصلي بالطبع من أجلك. أصلي من كلّ قلبي كي ترى أنّك مضلّ. عندما نلتقي في الآخرة، كما أمل، فسننسى جميع خلافاتنا. ولكننا لا نستطيع التغاضي عنها الآن. مهمّتك هي قتلي، ومهمّتي هي البقاء حياً. هذا دوري وواجبي. لا أملك سوى الأساس الذي أقف عليه، وذلك الأساس هو توماس مور. إن كنت تريده، يتحمّ عليك أن تأخذه مني. لا يمكنك الاعتقاد منطقياً أنّني سأخلى عنه".

"ستحتاج إلى قلم وورقة لكتابة دفاعك، سأعطيك إيّاهما".
"أنت لا تتوقّف أبداً عن المحاولة، أليس كذلك؟ كلا، أيّها الوزير، دفاعي هنا"،
ونقر بإصبعه على رأسه، "بمأمن منك".

كم تبدو الغرفة غريبة وفارغة، من دون كتب مور. كانت مليئة بالظلال. صاح قائلاً: "مارتن، أحضر شمعة".

"هل ستأتي غداً؟ من أجل الأسقف؟".
هزّ رأسه، مع أنّه لن يشاهد لحظة موت فيشر. كان البروتوكول يقضي بأن يركع المتفرّجون على ركبهم وينزعون قبّعاتهم في لحظة انتقال الروح.

أحضر مارتن شمعة. "هل ترغبان في شيء آخر؟". صمّتا وهو يضعها. بعدما خرج، ظلّ صامتين، إذ جلس السجين مقوس الظهر، وهو ينظر إلى الشعلة. كيف له أن يعرف ما إذا كان مور قد دخل في الصمت، أم أنّه يستعدّ للكلام؟ فثمّة صمت يسبق الكلام، وصمت يحلّ مكانه. أحدهما لا ينبغي قطعه بالكلام، والآخر يمكن مقاطعته بعبارة تردّد: لو... ربّما... لو أمكن... قال: "لكنّ تركتك وشأنك، كما تعلم. لكنّ تركتك تعيش حياتك، وتندم على الدماء التي سفكتها، لو كنت ملكاً".

شحب الضوء. بدا وكأنّ السجين قد انسحب من الغرفة، تاركاً خلفه شكلاً يدلّ على المكان الذي كان فيه. هبّ تيار من الهواء وعصف بشعلة الشمعة. كانت الطاولة الخالية التي تفصل بينهما، والتي كانت تحتلّها كتابات مور، قد اتّخذت شكل مذبح. ولماذا وُجد المذبح، ما لم يكن للتضحية؟ أخيراً، قطع مور صمته: "ماذا لو، بعد انتهاء المحاكمة، ماذا لو لم يمنحني الملك، ماذا لو طُبِّقت أقصى العقوبة... توماس، كيف يتمّ ذلك؟ يظنّ المرء أنّه عندما يُشقّ بطن أحدهم، يموت وتتدفّق دماؤه بغزارة، ولكن لا يبدو الأمر كذلك... هل يملكون وسيلة خاصّة، يستخدمونها لإخراج أحشائه وهو حيّ؟".

"يؤسفني أن تظن أنّي خبير في ذلك".

ولكن ألم يقل لنورفولك، وكأنّه قال له، إنّهُ اقتلع قلب رجل؟

قال: "إنّه سرّ الجلاّد. يبقى سرّاً كي نخشاه".

"أريد أن أقتل من دون تعذيب. لا أطلب شيئاً سوى ذلك". تمايل على مقعده، وانتابته حالة اهتياج جسدي عنيف. راح يبكي وهو يرتعد من رأسه حتّى أخمص قدميه. كان يضرب يده بضعف على سطح الطاولة الخالي. عندما تركه، قال للسجان: "مارتن، ادخل وأعطه بعض الشراب". كان لا يزال يبكي وهو يرتعد، ويضرب على الطاولة.

المرّة التالية التي كان سيراه فيها، ستكون في قصر ويستمينستر هول.

يوم المحاكمة، فاضت الأنهار على ضفافها. حتّى نهر التايمز، ارتفع منسوبه، وراح يفور كالبركان، ولفظ ما فيه من حطام على الأرصفة.

قال: "إنّها إنكلترا ضدّ روما، الأحياء ضدّ الأموات".

كان نورفولك هو من سيتراأس المحاكمة. أخبره كيف ستكون. كانت ستتمّ قراءة الفقرات الاتهاميّة الأولى، وهي تتعلّق بكلمات مختلفة قيلت في مناسبات مختلفة، عن القانون والقسم، ومؤامرة مور مع فيشر وتواطئهما على الخيانة، الرسائل التي تمّ تبادلها بينهما، ولكن بدا أنّها أُلّفت الآن. "وعند الفقرة الاتهاميّة الرابعة، سنستمع إلى شهادة أدلّة النائب العام. الآن، هذا سيسلّي مور، لأنّه لا يستطيع رؤية الشاب ريتش من دون أن يوجّه إليه عظة حول إهماله في صباه...". رفع الدوق حاجبه. "الشرب، والشجار، والنساء، والنرد".

فرك نورفولك لحيته القصيرة. "قد لاحظت أنّ شاباً لطيف الملامح مثله يتشاجر دائماً، لإثبات وجهة نظره كما تعلم. أمّا نحن، بوجوهنا القاسية، نحن الذين ولدنا مع

دروعنا، لا نحتاج إلى إثبات وجهات نظرنا".

قال: "بالضبط، نحن أكثر الرجال المسالمين في العالم. سيدي اللورد، أصغ إليّ الآن رجاءً. نحن لا نريد ارتكاب خطأ آخر، كما حدث مع داکر. فنحن لن نتمكّن من تجاوزه. سنتمّ قراءة الفقرات الاتهاميّة الأولى، وبعدها، ستبدو هيئة المحلفين متيقّظة. وقد أحضرت لك هيئة محلفين جيّدة".

واجه مور أنداده؛ لندنيين، تجاراً في نقابات الصنّاع والحرفيين. إنهم رجال ذوو خبرة، كانوا يعرفون الأحكام المسبقة السائدة في المدينة. شأنهم شأن جميع أهالي لندن، رأوا ما يكفي من جشع وتكبّر الكنيسة، ولم يحبّوا أن يقال لهم إنهم لا يستطيعون قراءة الكتاب المقدّس بلغتهم. إنهم رجال كانوا يعرفون مور، وعرفوه خلال الأعوام العشرين الفائتة. كانوا يعرفون كيف رمّل لوسي بيتيت. كانوا يعرفون كيف خرب أعمال هامفري مونماوث، لأنّ تيندايل حلّ ضيفاً في منزله. كانوا يعرفون كيف دسّ الجواسيس في منازلهم، بين التلامذة الذين عاملوهم كأبناء لهم، وبين الخدم الذين يسمعون صلاة سيّدهم كلّ ليلة قبل خلوده إلى النوم.

اسم واحد جعل أودلي يتردّد: "جون بارنيل؟ قد يُساء فهم ذلك. أنت تعلم أنّه يلاحق مور منذ أن أصدر حكماً ضده في تشانسري...".

"أعرف القضية. لم يتقن مور العمل عليها، لم يقرأ الأوراق، بل كان مشغولاً بالكتابة إلى إيراسموس، أو بتعذيب روح مسيحية مسكينة في تشيلسي. ماذا تريد، يا أودلي، هل تريدني أن أذهب إلى ويلز لإحضار هيئة محلفين، أم إلى كامبرلاند، أم إلى مكان يحبّون فيه مور أكثر؟ عليّ أن أتدبّر الأمر هنا في لندن، وما لم أحضر هيئة محلفين مؤلّفة من أطفال حديثي الولادة، فلا يمكنني أن أمحو ذكرياتهم".

هزّ أودلي رأسه. "لا أدري، يا كرومويل".

قال الدوق: "آه، إنّه شخص قاسٍ. عندما سقط وولزي، قلت، انتبه، هذا شخص قاسٍ. لا يحتاج المرء إلى الاستيقاظ في الصباح الباكر ليسبقه".

* * *

عشية المحاكمة، وبينما كان يراجع أوراقه في أوستن فرايرز، أطلّ رأس من الباب، رأس لندنيّ صغير ونحيل، ذو شعر قصير ووجه شابّ. "ديك بيرسر، ادخل".

نظر ديك بيرسر في أرجاء الغرفة. كان يهتمّ بالكلاب المقيدة التي تحرس المنزل ليلاً، ولم يسبق له دخول هذا المكان. "ادخل واجلس. لا تخف". سكب له بعض الشراب في كأس من صنع البندقية كانت تنتمي إلى الكاردينال. "تذوّق هذا الشراب. أرسله إليّ ويلتشاير، فأنا لا أصنع منه".

تناول ديك الكأس وراح يتلاعب بها من دون حذر. كان الشراب شاحباً مثل القشّ أو ضوء شمس الصيف. تناول جرعة، ثمّ سأله قائلاً: "سير، هل يمكنني المجيء معك إلى المحاكمة؟".

"لا يزال يسبب لك الألم، أليس كذلك؟". كان ديك بيرسر هو الصبيّ الذي جلده مور أمام أهل بيته في تشيلسي، لأنه قال إنّ القربان المبجل هو مجرد قطعة خبز. كان صغيراً آنذاك، غير أنه لم يكبر كثيراً منذ ذلك الحين. قال: "أحضر لنفسك رداءً لتجّار نقابة الصنّاع والحرفيين، وتذكّر غسل يديك ووجهك في الصباح. لا أريدك أن تسبب لي العار".

كانت كلمة "عار" تؤثر كثيراً في الصبيّ. قال: "لم يزعجني الألم. فهو ليس أسوأ من الألم الذي ذقناه جميعنا من آبائنا، باستثناءك أنت، سير".
أجابه: "صحيح، فقد كان أبي يضربني وكأني قطعة معدنيّة".
"ما أزعجني هو أنه عرّى جسدي، وكانت النساء ينظرن إلي. السيّد أليس، والفتيات. ظننت أنّ إحداهن قد تتشعّع لي، ولكن عندما شاهدتني أضرب من دون أن يتقوّهن بكلمة، احتقرتهنّ. لقد أضحكهنّ منظرني. بينما كان الرجل يجلدني، كنّ يضحكن".

في الحكايات، فإنّ الفتيات الشابات، البريئات، هنّ من كنّ يمسكن يد الرجل الذي يحمل السوط أو الفأس. ولكن بدا أنّنا انحرّفنا إلى حكاية مختلفة: ردفا صبيّ صغير كانا يرتجفان في البرد، أعضاؤه النحيلة تنكمش وتتقلّص، بينما تضحك سيّدات المنزل ويسخر الخدم، ويبرز أثر السوط على جلده، وينزف.

"لقد حدث ذلك وطواه النسيان، لا تبك". أتى نحوه من خلف مكتبه. فألقى ديك بيرسر رأسه شبه الحليق على كتفه وراح يبكي، خزيّاً، وراحة، وانتصاراً لأنّ معدّبه سيموت قريباً. حكم مور على جون بيرسر بالإعدام، ولاحقه لأنه يملك كتباً ألمانية. احتضن الشابّ، وأحسّ بجسده المنتفض، وأوتاره المتصلّبة، وعضلاته المشدودة، فراح يهدّئه كما كان يفعل مع أولاده وهم صغار، أو كما يفعل مع كلب داس أحدهم على ذيله. برأيه، ليس أسهل من منح المواساة.

قال الصبيّ: "سألاحقك حتّى الموت". كان يحيط سيّده بذراعيه، وقبضتيه المشدودتين، ويضغط على ظهره بعقد أصابعه. تتهدّ قائلاً: "أظنّ أنّ زيّ التجّار سيناسبني. متى نبدأ؟".

في الصباح الباكر. كان مع مرافقيه في ويستمينستر هول قبل الجميع، جاهزاً

لمستجدات الدقائق الأخيرة. اجتمع أعضاء المحكمة حوله، وعندما أُدخل مور، ذُهل الموجودون لمظهره. فمن المعروف أنّ أحداً لا يخرج أفضل حالاً من البرج، ولكنّه فاجأهم بجسده النحيل، ولحيته البيضاء المشعّثة، وبدا أكثر شبهاً برجل في السبعين ممّا هو عليه. همس أودلي: "يبدو وكأنّه تلقى معاملة سيئة".
ويقول إنّّه لا تفوته فائتة".

قال قاضي القضاة بمرح: "حسناً، ضميري مرتاح، فقد تمّت معاملته بكلّ اعتبار".
هزّ جون بارنيل رأسه موافقاً، بينما ابتسم ريتشارد ريتش، الذي كان موظف محكمة وشاهداً في الوقت نفسه. طلب أودلي مقعداً للسجين، ولكنّ مور جلس مرتعشاً على طرفه، وانتصب في وضعية المقاتل.

نظر حوله للتحقق من وجود من يدوّن ما يقوله.

كلمات، كلمات، مجرد كلمات.

قال في نفسه: أنا تذكّرتك، يا توماس مور، أمّا أنت فلم تذكرني. حتّى إنّك لم ترني أبداً وأنا أقترّب.

إلى وولف هول

تموز/يوليو 1535

مساء إعدام مور، صحا الطقس، فخرج يبتزّه في الحديقة مع رايف وريتشارد. أطلّت الشمس على شكل ضباب فضيّ بين بقع من الغيوم. كانت المساحات المزروعة بالأعشاب بلا رائحة، بينما هبّت رياح خجولة وتلاعبت بملابسهم، مرّت على رقابهم، ثمّ التفتت وصفعت وجوههم.

قال رايف: "وكأننا في البحر". مشيا إلى جانبه، على مقربة منه، وكانّهما يخشيان الحيتان، والقراصنة، وحوريات البحر.

انقضت خمسة أيام على المحاكمة. ومنذ ذلك الحين، استجدّت أمور كثيرة، ولكنّهم لم يتوقّفوا عن استعادة أحداثها، وتبادل الصور التي تتردّد في أذهانهم: المدّعي العام كان يدوّن آخر ملاحظة في الاتّهام؛ مور كان يسخر عندما أخطأ أحد الكتبة باللاتينية؛ وجوه آل بولين الناعمة والباردة، الأب والابن الجالسان على مقعد القضاة. لم يرفع مور صوته أبداً، بل جلس على المقعد الذي طلبه له أودلي بانتباه، مميلاً رأسه قليلاً إلى اليسار، يلعب بكمّه.

كانت مفاجأة ريتش كبيرة عندما التفت إليه مور. تراجع خطوة إلى الوراء، واستند إلى إحدى الطاولات. "أنا أعرفك منذ زمن بعيد، يا ريتش، فلماذا أفتح قلبي لك؟". كان مور قد وقف على قدميه، وتكلّم بصوت يفيض استياءً. "أعرفك مذ كنت شاباً، مقامراً، لا أحد يثني عليك، ولا حتّى في منزلك...".

هتف القاضي فيتزجايمس: "حبّاً بالله!". فسأله كرومويل بصوت منخفض: "هل سيربح هكذا؟".

هذا لم يعجب هيئة المحلّفين، فالمرء لا يعرف ما قد يعجبهم. فسّروا حيويّة مور المفاجئة على أنّها صدمة وشعور بالذنب، بعد أن تمّت مواجهته بأقواله. بالطبع، سمعة ريتش معروفة لدى الجميع. ولكن أليس الشرب، ولعب النرد، والشجار هي أمور طبيعيّة لدى الشباب، عموماً، أكثر من الصيام وحمل المسابح وتعذيب الذات؟ كان نورفولك هو من أوقف هجوم مور، قائلاً بصوت جافّ: "دع جانباً سلوك الرجل. ما هو قولك في هذه المسألة؟ هل نطقت بهذه الكلمات؟".

هل إنّ السيّد مور كان بارعاً في الخداع؟ تمالك نفسه، ثمّ رفع رداءه الذي انزلق عن كتفيه، وبعدما ثبتّه، صمت، وهدأ نفسه، ثمّ وضع إحدى قبضتيه في الأخرى.

"لم أقل ما يزعمه ريتش. وإن قلته، فأنا لم أقصد به سوءاً، وبالتالي، أنا لم أخرق القانون".

رأى تعبير سخريّة يعبر وجه بارنيل. فليس أسوأ من مواطن لندني يشعر أنّه يُخدع أو يعامل كمغفل. كان في إمكان أودلي أو أيّ من المحامين تصويب رأي هيئة المحلّفين، فالأمر اعتمد على كيفية جدالنا نحن المحامين. ولكنّهم لم يريدوا أن يسمّعوا جدال محام، بل أرادوا الحقيقة: هل قلت ذلك، أم لا؟ مال جورج بولين إلى الأمام: هل كان يمكّن للسجين إعطاءنا روايته الخاصّة للحديث؟

التفت إليه مور مبتسماً، وكأنّه يقول، فكرة جيّدة، أيّها الشابّ جورج. "لم أدونها، فأنا لا أملك لوازم الكتابة. لقد أخذوها منّي. إن كنت تذكر، يا سيّدي اللورد روتشفوردي، ذاك كان سبب مجيء ريتش إليّ، ليأخذ منّي أدوات الكتابة".
توقّف مجدّداً، ونظر إلى هيئة المحلّفين وكأنّه ينتظر التصفيق. نظروا إليه، بوجوه جامدة كالصخر.

أكانت تلك هي نقطة التحوّل؟ كان من الممكن أن يثقوا بمور، لأنّه كان في ما مضى قاضي قضاة، ولأنّ كيس النقود كان فاشلاً في السابق. لم يكن ممكناً للمرء أن يعرف ما ستفكر فيه هيئة المحلّفين. مع أنّه عندما اجتمع بهم، كان مقنعاً بالطبع. فقد تحدّث إليهم ذاك الصباح: لا أدري ما كان سيكون دفاعه، ولكنني لم أتوقّع أن تنتهي عند الظهيرة. لذا كنت آمل أن تكونوا قد تناولتم إفطاراً جيّداً. عندما كنتم تتسحبون، عليكم أن تأخذوا وقتكم بالطبع، ولكن إن استغرقتم أكثر من عشرين دقيقة، بحسب تقديري، فسأتي إليكم لإزالة شكوككم حول أيّ نقاط قانونية.
لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من خمس عشرة دقيقة.

والآن، في هذه الأمسية في الحديقة، مساء السادس من تموز/يوليو، يوم ذكرى القديسة غوديفا (وهي شابة بريئة أغرقها زوجها الشرير في بركة)، نظر إلى السماء، وشعر بتغيّر في الهواء، نسمة رطبة كالخريف. انتهى مشهد الشمس الضعيفة. تراجعت الغيوم وتجمّعت على شكل أبراج وأسوار، آتية من إسكس. تراكمت فوق المدينة، تقودها الرياح فوق الحقول الشاسعة والمراعي الغارقة بالماء، والأنهار المتدفّقة، فوق غابات الغرب الرطبة نحو البحر إلى أيرلندا. تناول ريتشارد قبّعته من فوق نباتات الخزامى ونفض عنها قطرات الماء، وهو يشتم بصوت منخفض. انهمر وابل من المطر وبلّل وجوههم. "حان الوقت للدخول، لديّ رسائل أكتبها".
"لن تعمل طيلة الليل".

"كلاً، أيها الجدّ رايف. سأخذ الخبز والحليب وأتلو صلاتي وأخذ إلى النوم. هل أستطيع أخذ كلبتي معي إلى غرفتي؟".
"كلاً! وهل كنت ساهراً طيلة الليل؟".

في الواقع لم ينم كثيراً في الليلة الماضية. فقد خطر له، في منتصف الليل، أنّ مور كان نائماً من دون شكّ، ولا يعلم أنّ تلك هي ليلته الأخيرة على الأرض. لم يكن من المعتاد عدم إعداد الرجل المحكوم حتّى الصباح. لذا اعتقد أنّه إن سهر من أجله، فسيسهر وحده.

أسرع إلى الداخل، وصفقت الرياح باباً خلفه. أخذ رايف ذراعه. قال: "صمت مور لم يكن صمّاً بالفعل، أليس كذلك؟ كان صاحباً بخيانتته. كان وسيلة مراوغة استخدمها قدر الإمكان، كان اعتراضاً ومواربة وغموضاً. كان خوفاً من الكلمات الصريحة، أو تأكيداً على أنّ الكلمات الصريحة تُفسد نفسها؛ قاموس مور ضدّ قاموسنا. كان يمكن للصمت أن يكون مليئاً بالكلام. فالمزهر احتفظ في جوفه بالنوتات التي عزفها. أوتار الفيول* مليئة بالتناغم. البتلة الذابلة احتفظت برائحتها، والصلاة كانت تخشخش باللعنات. المنزل الخالي ظلّ صاحباً بالأشباح بعد رحيل ملاّكه".

أحدهم، على الأرجح ليس كريستوف، وضع على مكتبه إناءً فضياً براقاً يحتوي على أزهار القنطريون العنبري. ذكّره اللون الأزرق في أسفل البتلات المجعّدة بنور هذا الصباح، فجر متأخّر في تموز/يوليو، في سماء متجهّمة. عند الساعة الخامسة، ذهب الملائم المسؤول عن البرج إلى مور.

تناهت إليه من الأسفل جلبة المبعوثين الذين كانوا يدخلون إلى الباحة. كان ينتظره عمل كثير، إذ عليه التنظيف خلف الرجل الميت. فكّر في نفسه قائلاً: في النهاية، سبق أن فعلت ذلك في طفولتي، لملمت البقايا من بعد السادة الشبان في منزل مورتون، وهذه آخر مرّة فعلت ذلك. تخيل نفسه وهو يذهب فجراً، يسكب بقايا الشراب في إناء جلدي، ويجمع أعقاب الشموع لأخذها إلى الشّماع ليعيد تدويرها.

سمع أصواتاً في القاعة، ولكنّه لم يأبه لذلك، بل عاد إلى رسائله. كان رئيس دير رولي يطلب وظيفة لصديقه. وكتب إليه عمدة يورك عن شباك وأفخاخ السمك؛ قرأ، نهر هامبير يجري بصفاء، وكذلك نهر أوز. كما وصلتته رسالة من اللورد ليسل في كاليه، تتعلّق بحكاية مشوشة عن قيل وقال يبرّر فيها نفسه.

وقف توماس مور أمامه، أكثر صلابة في موته ممّا كان في حياته. ربّما سيكون

هنا دائماً الآن: يقظ الذهن، عنيداً، كما بدا في ساعته الأخيرة أمام المحكمة. كان أودلي سعيداً بحكم المحلفين الذي اعتبر مور مذنباً، فراح يصدر الحكم من دون أن يسأل السجين ما إذا كان لديه ما يقوله. فاضطرّ فيتزوجايمس إلى أن يربّت على ذراعه، كما نهض مور نفسه عن مقعده لإيقافه. كان لديه الكثير ليقوله، وكان صوته مفعماً بالحياة، ونبرته لاذعة، وكانت عيناه وحركاته بالكاد تصور عن رجل محكوم، سبق ومات بالقانون.

ولكنّه لم يقل شيئاً جديداً، ليس بالنسبة إليه على أيّ حال. قال مور: "لقد أطعت ضميري، وعليكم أن تطيعوا ضميركم. ضميري يرضيني، والآن أنا سأحدّث بصراحة، وأقول إنّ قانونكم غير صحيح (فصاح نورفولك فيه) وإنّ سلطتكم لا أساس لها (صاح نورفولك مجدداً: "الآن اتّضح مكرك"). ضحك بارنيل، وتبادلت هيئة المحلفين النظرات، وهزّوا رؤوسهم. وبينما راح جميع الحاضرين في ويستمينستر هول يتمتمون، استأنف مور كلامه، وتحدّث فوق الضجيج: "إنّ ضميري يجعلني مع الأكثرية، لذلك أعرف أنّي لست مخطئاً. ضدّ مملكة هنري، لديّ جميع الممالك المسيحية. وضدّ كلّ واحد من أساقفتكم، لديّ مئات القديسين. وضدّ برلمانكم الأوحّد، لديّ مجالس الكنيسة الممتدّة إلى ألف عام".

قال نورفولك: "أخرجوه. لقد انتهت المحاكمة".

حلّ الآن يوم الثلاثاء، وكانت الساعة الثامنة. راح المطر ينهمر على النافذة. نزع ختم رسالة من دوق ريتشموند. كان الصبيّ يتذمّر لأنّ يوركشاير، حيث يقيم، لا تحتوي على حديقة غزلان، ولا يستطيع بالتالي ممارسة الرياضة مع أصدقائه. قال في نفسه: يا للدوق الصغير المسكين، كيف أستطيع تخفيف عذابك؟ الأرملة النبيلة ذات الأسنان السوداء، التي كان سيتزوّجها غريغوري، تملك حديقة غزلان. ربّما يجدر بالأمير الصغير أن يطلق ابنة نورفولك ويتزوّجها هي؟ وضع رسالة ريتشموند جانباً وودّ لو يلقبها على الأرض. كان الإمبراطور قد غادر سردينيا مع أسطوله، متوجّهاً إلى صقلية. قال كاهن في كنيسة سانت ماري وولتشرتش إنّ كرومويل مهرطق وإنّه لا يخاف منه: أحقق. أرسل إليه هاري لورد مورلي كلب صيد. ثمّة أنباء عن لاجئين كانوا يتدفّقون من منطقة مونستور، وبعضهم توجّهوا إلى إنكلترا.

كان أودلي قد قال: "أيّها السجين، ستطلب المحكمة من الملك أن يتزوّج بك بالنسبة إلى طريقة موتك". مال إليه أودلي: "سيدي الوزير، هل وعدته بأيّ شيء؟". فقال: "لم أفعل: ولكن هل من المؤكّد أنّ الملك سيكون رحوماً معه؟". قال نورفولك:

"كرومويل، هلاً ألححت عليه بهذا الخصوص؟ كان سيتقبّل ذلك منك؛ وإن لم يفعل، فسأتى بنفسى وأتوسّل إليه". يا لها من غرابة: نورفولك طلب الرحمة؟ نظر إلى الأعلى، ليرى مور يُقتاد إلى الخارج، ولكنّه كان قد اختفى، وأغلقت الأبواب خلفه: كان الزورق ينتظر عند أسفل الدرج لاصطحابه إلى البرج. لا شكّ في أنّه شعر وكأنّه عائد إلى بيته: الغرفة المألوفة بنافذتها الضيّقة، والطاولة الخالية من الأوراق، والشمعة المتمايلة، والستارة المسدلة.

صدرت قعقعة عن النافذة فأجفلته، وفكّر في أنّ عليه تثبيت المزلاج. نهض للقيام بذلك وفي الوقت نفسه دخل رايف حاملاً كتاباً بيده. "إنّه كتاب الصلاة الذي كان مع مور في لحظاته الأخيرة".

تفحصه. لحسن الحظ، لم تكن عليه بقع دماء. حمله وجعل أوراقه تهتزّ. قال رايف: "سبق وفعلت ذلك".

كان مور قد كتب اسمه عليه. وُضع خط تحت جملة في النص: لا تذكروا خطايا شبابي. "غريب أن يذكر خطايا ريتشارد ريتش".
"هل أرسله إلى السيّدة أليس؟".

"كلاً، ربّما ظنّنت أنّها إحدى خطاياها". لقد تعدّبت المرأة بما فيه الكفاية. ففي رسالته الأخيرة، لم يودّعها حتّى. أغلق الكتاب. "أرسله إلى ميغ". على الأرجح كان المنزل بأكمله يميّد به. فقد عصفت الريح بالنوافذ، وبالمواقد، واخترقت جميع الأبواب. قال رايف: "أصبح البرد يستدعي إشعال النار. هل أهتمّ بالأمر؟". هزّ رأسه رافضاً. "قل لريتشارد أن يذهب صباح غد إلى جسر لندن ويرى المسؤول عن الجسر. فالسيّدة روبر كانت ستأتي إليه غداً وتطلب رأس أبيها لدفنه. فليأخذ الرجل ما تعرضه عليه ميغ ويحرص على عدم اعتراضها. وليبقِ فمه مغلقاً".

في أحد الأيام، حين كان في إيطاليا في شبابه، شارك في جنازة. لم يكن شيئاً تتطوّع فيه، بل يُقال لك وحسب. ربطوا قماشاً على أفواههم، ودفنوا زملاءهم في أرض غير مباركة، ثمّ رحلوا ورائحة العفن تفوح من أحذيتهم.

تساءل: أيّهما هو الأسوأ، أن تموت بناتك قبلك، أم أن تتركهنّ خلفك ليملمن بقاياك؟

"ثمّة أمر..."، عبس في أوراقه، "ماذا نسيْتُ، يا رايف؟".
"عشاءك؟".

"لاحقاً".

"اللورد ليسل".

"أنهيت موضوع اللورد ليسل". أنهيت موضوع نهر هامبير، والكاهن المفترى من كنيسة ماري وولتشييرتش؛ في الواقع، لم أنته منه، بل وضعت مع الرسائل العالقة". ضحك. "هل تعرف ما أنا بحاجة إليه؟ أنا بحاجة إلى آلة الذاكرة".

يُقال إن غيدو غادر باريس. فرّ عائداً إلى إيطاليا وترك آله غير المنتهية. ويُقال إنه قبل هروبه لم يتكلم ولم يأكل لأسابيع عدّة. وزعم خصومه إنه أصيب بالجنون، بعد أن أرهبته قدرات الآلة التي ابتكرها بنفسه. وكانوا يؤكّدون أنّ كائنات غريبة تسلّلت من شقوق وصدوع الآلة، وسبّبت له الذعر فهرب ليلاً بقميصه من دون حتى أن يأخذ معه كسرة خبز وقطعة جبن لسدّ رمقه في أثناء الرحلة، وترك خلفه جميع كتبه وملابس المشعوذين التي كان يرتديها.

كان من الممكن جداً أن يكون غيدو قد ترك كتابات خلفه في فرنسا. كان في إمكانه الحصول عليها مقابل بعض المال ومن الممكن أيضاً ملاحقته إلى إيطاليا، ولكن ما جدوى ذلك؟ قال في نفسه: على الأرجح لن نعرف أبداً ما كان اختراعه. مطبعة تكتب الكتب بنفسها؟ أم عقلاً يفكر في نفسه؟ إن لم أكن أملكه، على الأقل فإنّ ملك فرنسا لم يملكه هو أيضاً.

تناول ريشته. تئأب ووضعها، ثمّ تناولها مجدداً. قال في نفسه: يوماً ما سيعثرون عليّ ميتاً على مكتبي، كما حدث للشاعر بيترارش. كتب الشاعر كثيراً من الرسائل غير المرسلة: كتب إلى شيشرون، الذي مات قبل منّي عام من ولادته. وكتب إلى هوميروس، الذي لم يكن له وجود على الأرجح. أمّا أنا، فكان لديّ ما يكفي لكتابته بخصوص اللورد ليسل، وشباك السمك، وسفن الإمبراطور الضخمة التي يتقاذفها الموج في البحر المتوسط. بين غمسة ريشة، كتب بيترارش: "بين غمسة ريشة وأخرى، يمرّ الوقت: وأنا أسرع، أتوجّه مسرعاً نحو موتي. نحن نموت باستمرار؛ أنا بينما أكتب، وأنت بينما تقرّأ، والآخرين وهم يصغون أو يصمّون آذانهم؛ جميعهم يموتون".

تناول مجموعة رسائل أخرى. كان ثمة رجل يدعى بادكوك يريد رخصة لاستيراد مئة برميل من نبات الوسمة. هاري بيرسي مرض مجدداً. سلطات يوركشاير اعتقلت المتمردين ووجهت إلى قسم منهم اتّهامات بافتعال الشجار والقتل غير المتعمّد، وإلى القسم الآخر اتّهامات بالقتل والاغتصاب. اغتصاب؟ منذ متى كانت أعمال الشغب التي تُرتكب احتجاجاً على الجوع تتضمن اغتصاباً؟ ولكن نسيت أنّها يوركشاير.

"رايف، أحضر لي خطّ رحلة الملك. سأطّلع عليه وأخرج من هنا. أظنّ أنّنا نستطيع الاستماع إلى بعض الموسيقى قبل الخلود إلى النوم".
كان البلاط سيرحل غرباً هذا الصيف، نحو بريستول. وكان الملك مستعداً للرحيل، على الرغم من المطر. كانوا سينطلقون من ويندسور، مروراً بريدينغ، ميسندن، أبينغدون، وعبر أوكسفوردشاير، بحيث نأمل أن ترتفع معنوياتهم بابتعادهم عن لندن. قال لرايف: "إن فعل هواء الريف فعله، فسترجع الملكة حاملاً". فقال رايف: "أتساءل كيف يحتمل الملك أن يعيش في الأمل كلّ مرّة. فتلك الخيبات المتلاحقة تنهك رجلاً أصغر".

"إن غادرنا نحن لندن في الثامن عشر من هذا الشهر، فسنتمكّن من اللحاق بهم في سادلي. هل سنتمكّن برأيك؟".
"من الأفضل المغادرة قبلهم بيوم واحد. عليك أن تأخذ في الاعتبار حالة الطرقات".

"لن يكون ثمّة طرقات مختصرة، أليس كذلك؟". لم يستعمل مخاضات* الأنهار. بل الجسور، وسار على الطرقات الرئيسية فقط، على عكس رغبته. لو أنّ ثمّة خرائط أفضل لساعدتهم أكثر. حتّى في أيّام الكاردينال، كان يتساءل ما إذا كان يستطيع تولّي هذا المشروع. ثمّة خرائط كانت تظهر القصور في حقولها، مع فتحات جدران حصونها محدّدة بوضوح بالحبر، وحقول الصيد والحدائق المبيّنة بخطوط من الأشجار، مع رسومات تصوّر أيائل وحيوانات مقرّزة. لا عجب أن خلط غريغوري بين نورثامبريا والهند، لأنّ هذه الخرائط كانت تشتمل على كثير من النواقص. فهي لم ترشدك مثلاً في أيّ اتجاه يقع الشمال. كما أنّه من المفيد معرفة مواقع الجسور، وتدوين ملاحظة عن المسافات الفاصلة بينها. ومن المفيد أيضاً معرفة المسافة التي كانت تفصلك عن البحر. ولكنّ المشكلة هي أنّ الخرائط كانت ترجع دائماً إلى عام سابق. وإنكلترا كانت دائمة التغيّر، جروفها تتآكل، وتلالها الرملية تتجرف، والينابيع تتفجّر في أراض جرداء. المناظر الطبيعية التي كنّا نمرّ بها تعيد جمع نفسها في أثناء نومنا، وحتّى التاريخ الذي كان يتعبّنا. وجوه الأموات تتلاشى في وجوه أخرى، مثل سلسلة التلال التي تتلاشى في الضباب.

عندما كان صبياً صغيراً، في السادسة من عمره تقريباً، رأى أحد تلامذة أبيه يصنع مسامير من كومة من الخردة. قال له: "مجرّد مسامير عاديّة مسطحة الرأس، لتثبيت أغطية التوابيت". توهّجت المسامير في النار، بلون برتقالي زاہ. "لماذا نمسّر تابوت

الأموات؟".

بالكاد توقّف الصبيّ عن طرق رأس كلّ مسمار بضربتين من مطرقة. "كي لا يخرج أولئك السخفاء المرعبون ويلاحقوننا".

عرف الآن أنّ هذا ليس صحيحاً. فالأحياء هم من كانوا يعودون لملاحقة الأموات. فالعظام الطويلة والجماجم تُبعثر من أكفانها، وتُحَم في أفواهها المخشخة كلمات كالأحجار: نغير كتاباتهم، ونعيد كتابة حياتهم. نشر توماس مور شائعة تفيد أنّ بيلني الصغير تاب وهو مقيد إلى العمود عند إضرام النار. لم يكفه أن يسلب بيلني حياته، بل سلبه موته أيضاً.

اليوم، تمّ اصطحاب مور إلى المشنقة من قبل هامفري مونماوث، الذي يحتلّ الآن منصب عمدة لندن. لم يكن مونماوث رجلاً يفرحه سقوط الآخرين. ولكن في إمكاننا ربّما أن نفرح من أجله؟

صعد مور إلى الخشبة، كان في مقدوره رؤيته الآن. كان يلفّ نفسه برداء رمادي خشن يذكر أنّه كان ينتمي إلى خادمه جون وود. أخذ يتحدّث إلى الجلاد، يقول له ملاحظة ساخرة على ما يبدو، ويمسح قطرات المطر عن وجهه ولحيته. خلع الرداء، الذي كانت حاشيته مبلّلة بالمطر. ركع على الخشبة، وتحركت شفاته بصلاته الأخيرة.

شأنه شأن بقية الشهداء، أبعد عبايته وركع. عند سماع صوت ارتطام الفأس بالجلد، استرق نظرة إلى الأعلى. بدا وكأنّ الجثة زحفت مبتعدة عن الضربة وطوت نفسها مثل كومة من الملابس القديمة... في داخلها، كان يعلم أنّ قلبها لا يزال ينبض. اهتاج الماضي في داخله، وتبدّلت الأرض.

قال: "إذاً، من غلوسستر، سيتوجّه الملك إلى ثورنبري. ومنها إلى منزل نيكولاس بوينز في أيرون أكتون. هل يعرف بوينز ما يقم نفسه فيه؟ ومن هناك إلى برومهام...".

في العام الماضي، كتب عالم أجنبي كتاباً عن تاريخ إنكلترا، أغفل فيه ذكر الملك آرثر، على أساس أنّه لم يكن له وجود أبداً. وهذا أساس جيّد إن أمكنه إثباته؛ ولكنّ غريغوري قال: "كلاً، إنّه مخطئ. فلو كان على صواب، فماذا سيحدث لأفالون؟ ماذا سيحدث للسيف في الحجر؟".

نظر إلى الأعلى. "رايف، هل أنت سعيد؟".

"مع هيلين؟"، احمرّ وجهه، "أجل، سير. ما من رجل أسعد منّي".

"عرفت أنّ أباك سيوافق بعد أن يراها".
"الفضل يرجع إليك، سير".

من برومهام - نحن الآن في أوائل أيلول/سبتمبر - إلى وينشستر. ومن ثمّ أسقف
والثام، ألتون، ومن ألتون إلى فارنهام. هكذا حبك خيوط الرحلة عبر أنحاء البلاد.
الهدف هو عودة الملك إلى ويندسور في أوائل تشرين الأول/أكتوبر. كان قد رسم
خارطته على الجانب الآخر من الصفحة، فبدت إنكلترا وكأنّها تحت أمطار من
الحبر؛ وتحتها روزنامته، التي دوّنها بسرعة. "يبدو لي أنّه لدي أربعة إلى خمسة
أيام. آه حسناً، من قال إنني لا آخذ عطلاً على الإطلاق؟".

قبل برومهام، وضع نقطة على الهامش، ورسم سهماً طويلاً عبر الصفحة. "والآن
هنا، وقبل أن نذهب إلى وينشستر، لدينا وقت نستطيع توفيره، وأظنّ، يا رايف، أنّنا
سنزور آل سيمور".
دوّن ذلك.

بداية أيلول/سبتمبر. خمسة أيّام. وولف هول.

-
- * أقدم اسم معروف لجزيرة بريطانيا العظمى.
 - * جدّ هنري الثامن لأمه.
 - * القاعدة التجارية الرئيسة للرابطة الهانزية في لندن، في القرون الوسطى.
 - * آلة خشبية للتعذيب تُدخل فيها يدا المجرم ورأسه.
 - * المدينة الفاضلة أو "يوطوبيا" هو أشهر مؤلفات توماس مور.
 - * خادم أو موظّف صغير في قصر ملك أو نبيل.
 - * Muddy: أي موحل.
 - * أسطّقس: نهر الجحيم الرئيس عند الإغريق.
 - * قطعة نقدية فضية بريطانية.
 - * محكمة إنكليزية ألغيت عام 1641، اشتهرت بمحاكماتها السريّة الاعتباطية الظالمة.
 - * سترة طويلة بلا كمّين.
 - * البرّاز هو تاجر الأقمشة، لا سيّما الحرير.
 - * الضرم: مادّة ملتهبة لإضرام النار.
 - * جمعيات الحقوق: أربع مجموعات من المباني في لندن تابعة لأربع جمعيات لطلاب الحقوق والمحامين،
من حقّها وحدها منح الإجازة لممارسة مهنة الحقوق في بريطانيا.
 - * من أتباع ويكلف، الذي اعتبر مهرطقاً.
 - * زورق خفيف.
 - * قطعة نقد بريطانية.
 - * رقصات قديمة.
 - * نسبة إلى بريابوس، سيّد القوّة التناسلية عند الذكور في المعتقد الإغريقي والروماني.

* معركة انتهت بالنصر الحاسم للإنكليز على الفرنسيين في حرب المئة عام. (25 تشرين الأول/أكتوبر 1415).

* الاسم السابق للصين.

* ضرب من الخزف الإيطالي مزخرف ومطليّ بالمينا.

* الأحد الذي يسبق الفصح.

** أحد أعضاء الأسرة المالكة التي حكمت إنكلترا من عام 1154 وحتى العام 1485.

* جواد صغير تمتطيه السيدات.

* حيوان يشبه الفأر.

* مكان أسطوري حافل بالترف والملذات (القرون الوسطى).

* قطعة نقد بريطانية.

* نوع من الحلوى.

* قصيدة تتألف من 14 بيتاً.

* بندقية قديمة الطراز.

* وعاء ضخم للسوائل.

* ضرب من الكمان.

* أماكن يسهل خوضها.